

ج. قُذْرِيْس

الغَمَّةُ

تعريب

محمد القصاص

المدرس بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

عبد الحميد الراشدي

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

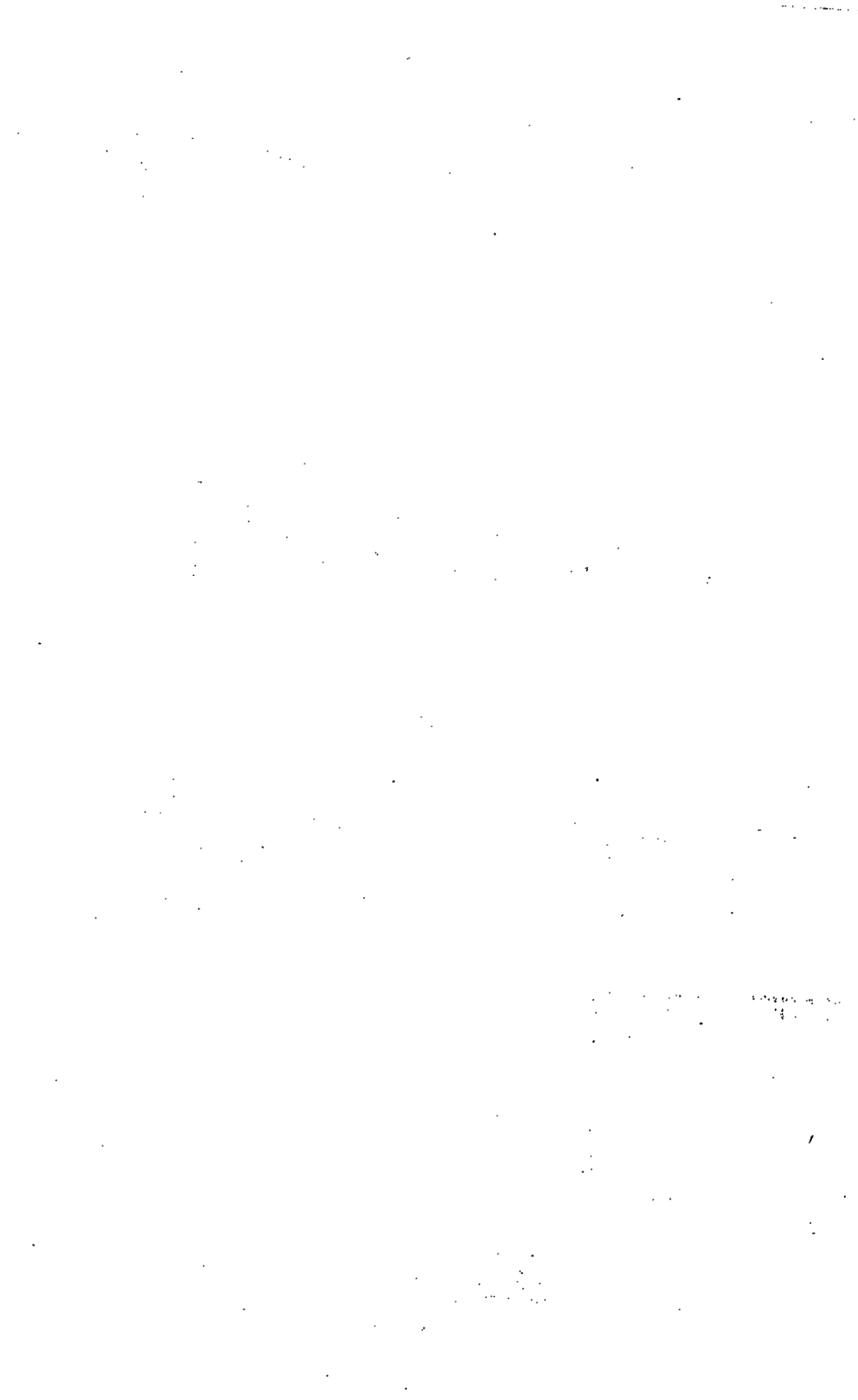
مطبعة لجنة البيان العربي



إلى الخالدين الذين يقارون على العربية ويعملون
في صمت وهدير .

إلى المصلحين الذين يجاهدون معنا في أنه يسترد
العرب طابعهم الثقافي وأثرهم الفوي المكوّن في الحضارة
العربية ، نرعى هذا الكتاب .

المعربان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا كتاب في اللغة تقدمه لقراء العربية ليروا منهجاً جديداً في البحوث اللغوية نعتقد أنه لو طبق على اللغة العربية لأفادت منه كثيراً .
ومؤلفه الأستاذ جوزيف فندريس — عميد سابق لكلية الآداب بجامعة باريس وعضو المعهد الفرنسي ورئيس الجمعية اللغوية بباريس — لا يعالج لغة بعينها ، وإنما يؤيد آراءه بضرب أمثلة من لغات متعددة قديمة وحديثة .
وهذه البحوث لا تعد جديدة كلها على المتخصصين في الدراسات اللغوية ، فقد أثار مسائل منها بعض حضرات أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وحاولوا جاهدين تطبيقها على اللغة العربية ليخرجوا بها إلى مضمار اللغات الحية بعد أن وقف بها الزمن ووقف بها أبنائها وقفة كان من الجائز أن تودى بها لو لم تكن لغة دين قويم ، وحضارة عريقة ، تستمد هويتها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة .

يرى اللغويون المحدثون أن « اللغة من أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور البشري ، فيجب الوقوف عندها ، بل وإطالة الوقوف لنرى الدور الذي تؤديه على وجه الدقة والنصيب الذي تقوم به في التطور العقلي ، ثم ما هي صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمال ما فيها من نقص على مر الأزمنة » .
وليس السبيل إلى ذلك دراسة نحو اللغات وصرفها وبلاغتها فحسب لأن مثل هذه الدراسة تعد ناقصة ، طبعها اللغويون القدامى على اللغتين اللاتينية واليونانية فأفادتهما لكنها لم تحل دون ضعفهما أولاً ثم القضاء عليهما بعد ذلك ، وطبقت على اللغة العربية لكنها لم تحل دون انقسامها إلى لهجات ، ولم تستطع مدارس

النحو العربى من بصرية وكوفية وبغدادية ومصرية أن تمنع انتشار اللحن لا فى البلاد العربية المفتوحة ولا فى جزيرة العرب نفسها .

لسنا بذلك ننكر فضل القدامى على اللغة العربية وإنما ندعو إلى مسيرة الطرق العلمية الحديثة فى البحوث اللغوية وأن ننظر إلى اللغة على أنها نظام اجتماعى « تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه » . ثم علينا أن ندرس العلاقات التى توجد بين اللغة وبين العقل البشرى على أسس علمية صحيحة ، لنطمئن إلى أن العربية ستظل بقواعدها ومفرداتها وأدبها لغة حديثة تسير كل نهضة علمية أو أدبية أو فنية .

يبدل مجمع فؤاد الأول للغة العربية جهداً مشكوراً فى تعريب المصطلحات العلمية والفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة ؛ وهو حين ينتهى من هذه المهمة الشاقة ويذيع مصطلحاته على الناس ، يكون قد أدى للغة العربية أجل الخدمات لأنه سينقل بها من العصور الوسطى حيث وقف بها أبناؤها إلى عصرنا الحديث الذى تحلفت فيه عن اللغات الحية ، وأصبحت تنافسها فى معاهدنا العلمية الشرقية والمصرية اللغتان الفرنسية والإنجليزية منافسة قوية . إن أبناء العربية جميعاً يتطلعون إلى اليوم الذى تصبح فيه لغتهم لغة علمية ؛ ولن يكون هذا اليوم قريباً إلا إذا اقتنع أبناؤها تماماً بضرورة الأخذ بالطرق الحديثة فى الدراسات اللغوية .

أما إذا ظلوا يدرسونها معتمدين على السكتب القديمة وحدها فلن تكون دراستهم مجدية ، لأن هذه المصادر ، مهما كانت مفيدة نافعة ومهما احتفظت بقيمتها التاريخية ، فستظل ناقصة إذا طبقت عليها مقاييس العلم الحديث .

نريد أن تصبح العربية لغة من يعيشون فى الشرق من الشرقيين والأجانب على السواء ، لأننا نكره كراهية شديدة أن تجرح اللغات الأجنبية آذاننا فى معاهدنا ومنازلنا وطرقنا . إنه لمظهر يسئ حقاً إلى قوميتنا وكرامتنا ويدعونا إلى التفكير الدائم والعمل المتواصل حتى يوجد « وعى لغوى » فى البلاد العربية كلها .

على أن الوصول إلى ذلك ليس أمراً يسيراً ؛ فاللغوى يجب أن يكون على معرفة بالعلوم التى تتصل باللغة اتصالاً وثيقاً ، لأن اللغة كما يقول الأستاذ فندريس : « مركب معتقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة ومعنى بها طوائف متفرقة من العلماء . فهي

فعل فسيولوجى من حيث أنها تدفع عدداً من أعضاء الجسم الإنسانى إلى العمل ؛
وهى فعل نفسانى من حيث أنها تستلزم تشاطاً إرادياً للعقل ، وهى فعل اجتماعى من
حيث أنها استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الإنسان . ثم هى فى النهاية حقيقة تاريخية
لا مرأى فيها نعتز عليها فى صور متباينة وفى عصور بعيدة الاختلاف على سطح
العمورة . أجمع .

هذا هو الاتجاه الحديث الذى نرجو مخلصين أن يطبق على اللغة العربية تطبيقاً
صحيحاً ، وأن يأخذ به اللغويون العرب أنفسهم لترقى لغتنا إلى المستوى الذى نرجوه
لها . وأما الجزء الذى نود أن نناله لما صادفنا من عنق شديد فى تعريب هذا الكتاب
لكثرة ما فيه من مصطلحات لغوية لا عهد للعربية بها ، هذا الجزء يتمثل فى
أمنيتين :

الأولى : أن تتضمن الأفكار على اختلاف المعاهد والثقافات وتعاون فى هذه
السييل ليكون للدراسات اللغوية طابع قومى يخلق « الوعى اللغوى » فى الشرق .
الثانية : أن تنشأ جمعيات لغوية من المتخصصين تعاون فى الدراسات اللغوية ؛
وأن نعتمد على الهيئات الرسمية وحدها فى مثل هذه الدراسات العالمية . ثم نرجو
أن تنشأ مجلة لغوية تكون مجالاً لإثارة المشكلات المختلفة وعرض الآراء والنظريات
الجديدة على نهج المجالات اللغوية فى أوروبا وأمريكا .

ديسمبر سنة ١٩٥٠ عمر المحمود الدواغلي محمد الفصاحى

عضوا الجمعية اللغوية بباريس



تصدير

اللغة وأداة التفكير

قلنا في التصدير الذى قدمنا به لكتاب البشرية قبل التاريخ (L' Humanité Préhistorique) : « اليد واللغة : فيهما تنحصر البشرية . نعتقد أن أول ما ينبغى أن يزاح عنه الستار فى هذا المؤلف شيئان ، وهما اللذان يفصلان بين نهاية التاريخ الحيوانى وبداية التاريخ البشرى . ونعنى بهما اختراع اليد — إذا جاز لنا هذا التعبير — واختراع اللغة ؛ وهذا هو التقدم الحاسم للمنطق العقلى والمنطق العقلى^(١) . » وهنا يجب أن نذكر القارئ بأن الدعوى الأساسية التى نذهب إليها ، هى أن التاريخ منطقى فى جوهره ، وأن تفسيره العميق ينحصر فى ميل الكائن الحى إلى التشبث بكيانه والمضى فى ترقيته ؛ ولكننا لا نقدم دعوانا فى هذا المؤلف إلا على أنها فرض يحتاج إلى التحقيق ، ولا يتم إلا بالاعتراف بالعوامل الأخرى ودراستها ، تلك العوامل التى تلعب دورها فى التاريخ ، والتى تجعل التاريخ على ما هو عليه : أعنى شبكة معقدة غير متجانسة قد لا يرى فيها الناظر السطحى أو العالم الغارق فى التفاصيل إلا مجموعة من الأحداث العارضة .

أبان المجلد السابق أهمية المنطق العملى : اليد ، تلك الأداة التى لا تبارى وبالتى مكنت للإنسان من استعمال العدة المادية التى تترجم عن التقدم النفسى وتسرع به على السواء ؛ والفرد هو الباعث الحقيقى لهذا التقدم الذى لا تستطيع البيئة إلا أن تدعو إليه وتثبتته .

واللغة من ناحية أخرى تعد واحدة من أعجب المبتكرات التى أظهرها التطور الإنسانى ، فيجب الوقوف عندها ، وإطالة الوقوف : ما هو الدور الذى

تلمبه على وجه الدقة ؟ ما هو النصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ؟ ما هى صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمالها ؟ هذه هى الأسئلة التى يجيب عنها المجاهد الذى بين أيدينا .

* * *

الغرض الذى قصدنا إليه كان ممكن التحقيق بصور شتى . فلو أن هذا الكتاب كان من وضع عالم سيكولوجى أو مؤرخ يهوى المباحث اللغوية ، لكان من الممكن إلحاقه بالدعاوى التى قدمها مشرع (L'Evolution de l'Humanité) « تطور البشرية » فى صورة أحكم وأظهر مما هو عليها . ولكنه عمل عالم لغوى ، وهذا العالم اللغوى يتعلق بالوقائع ويتحرز من النظريات : لقد أتاحت له الفرصة من قبل^(١) ليعلم عن ذلك ، وها هو ذا يقول هنا أيضاً نفس القول . إنه إنما يقدم لنا ، ولا يريد أن يقدم لنا إلا دراسة فنية لتلك الآلة المعقدة المرنّة ، ألا وهى اللغة فى تنوع أشكالها وتطوراتها التاريخية . وتتصل بالضرورة بهذه الدراسة للمسائل التى تثيرها اللغة وتنعى التاريخ التأليفى ، ولو أنها لا تبحث فيها عمداً لذاتها . لأن الأستاذ فنديريس Vendryes لا يريد أن يكون إلا عالماً لغوياً فحسب .

ونعتقد أن فى معاونة هذا الإحصائى لنا — وهو مع ذلك إحصائى واسع الأفق — خير ضمان لعلم التاريخ كما نفهمه . فتجربتنا فى الأجزاء السابقة من سلسلة « تطور البشرية » قد برهنت على ضمان النجاح فى مثل هذه الظروف بأكثر مما لو كنا قد اخترنا مفكراً آخر معتقاً نفس الدعاوى التى تقدمها . ومع ذلك ينبغى لنا أن نناقش قليلاً الأفكار العامة التى يقدمها لنا كتاب الأستاذ فنديريس القيم ، وذلك من وجهة النظر التأليفية .

* * *

الأمر الذى اضطلع الأستاذ فندريس ببيانه ، والذى أبانه فى قوة وبراهين بيّنة تدعو إلى الإعجاب ، هو كيف أن اللغة نشأت من الحياة ، وكيف أن الحياة راحت « تغذيها » بعد أن خلقتها .

إن الإدراك القديم ، الذى يقول بأن اللغة قد أنزلت على الناس عن طريق معجزة أو أنها شيء خلقه الإنسان خلقاً صناعياً ، قد ترك آثاراً فى ذلك النوع من علم اللغة الذى يعدها شيئاً سامياً مستقلاً ، ويضفى على قوانينها نوعاً من الحتمية الكامنة ، لا على اللقوانين الصوتية أو لقوانين النطق التى ترتبط بالأعضاء فحسب ، بل على اللقوانين الصرفية أيضاً ، أى لقوانين النحو ، وعلى اللقوانين المعنوية ، أى لقوانين المفردات . ولكن « من الباطل أن تعتبر اللغة كائناً مثالياً يسير فى تطوره مستقلاً عن بنى الإنسان متجهاً نحو غايته الخاصة (١) » . فالحقيقة أن اللغة على صلة وثيقة بالحياة النفسية ، وأنها منذ نشأتها سيكولوجية فعالة .

يعلن الأستاذ فندريس أن مشكلة أصل اللغة لا تدخل فى اختصاص العالم اللغوى ، ولا يبدل فى هذا الموضوع إلا بإشارات يحوطها الحذر الشديد . والواقع أنها مسألة سيكولوجية ؛ وأن أصل اللغة كأصل اليد تعوزه تماماً الأدلة التاريخية . هذا فضلاً على أنه لم يكن هناك أصل بمعنى الكلمة لأنه لم يوجد هناك خلق من العدم ، بل تحوّر — فى اتجاه إنسانى — لظاهرة وجدت عند الحيوان . فاللغة بمعنى الكلمة الضيق ، اللغة السمعية — التى ليست إلا حالة من موهبة إنتاج العلامات — موجودة عنده . (٢) فالحيوان يعبر عن حالاته الانفعالية بأصوات ؛ وأغلب الظن أن اللغة خرجت من الصيحة التى تترجم عن الانفعالات بطريقة فجائية . ولعل الانطباعات الهادئة والعواطف المعتدلة هى

(١) فندريس : الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب .

وكوتيرا « Copturat » : مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية عدد فبراير ١٩١٢ ؛

ص ٥٤ ، وعدد مايو ١٩١٣ ، ص ١٤٠ .

(٢) ريبو « Ribot » : تطور الآراء العامة ، ص ٦٦ .

التي — كما أشار البعض ^(١) — تنتج الأصوات المفووظة ، أما الصياح فيقابل الانفعالات العنيفة . ولكن لابد أن اللغة كانت انفعالية في مبدأ الأمر ، وقد بقيت إلى حد كبير انفعالية مرتبطة بالفرد وبما هو من نصيب الفرد : وهذا كله يبينه الأستاذ قنديس بحجج لا تنازع في صفحات بارعة نفاذة ، فهو يشير إلى اللغة الانفعالية عند الطفل ويبين أنها نقطة البدء ، ويشير في لغة الكلام إلى الفجائية التي تكسو التعبير عن الفكر « وتلونبه » وتجعل النحو غير مستقر . ^(٢) ولا بد أن اللغة الفاعلية أخذت تختلط منذ زمن مبكر باللغة الانفعالية ، وذلك عند ما كفت الصيحة عن أن تكون ترجمة لحالة شعورية لتصبح وسيلة للعمل أو النداء أو الرجاء أو الأمر . ^(٣)

وهذه مرحلة هامة في تطور اللغة وقد لعبت الحاجة إلى الاحتفاظ بالوجود أو إلى توسيع نطاق هذا الوجود بالتعاون مع الآخرين أو باستخدام الآخرين دوراً جوهرياً في هذا السيل . « الكائن الحي معنى دائماً بالاحتفاظ بحياته وبوقاية نفسه من التأثيرات الضارة وعدم سلطانه على ما يحيط به من كائنات » ويبر جانيه (Pierre Janet) الذي أوضح هذه الصفة من صفات الحدث ، التي يصح أن نسميها « العلية الفاعلة » (L' Efficience) يمد اللغة صورة من صور النشاط مسببة فاعلة ، ويعتبر أن « سلوك الشخص الذي يتكلم وسلوك الشخص الذي يخاطب مستمدان من حدثي الأمر والطاعة الموجودين من قبل عند

(١) كرينجو « Cornejo » : علم الاجتماع العام ، ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) انظر الفصل الرابع من الجزء الثاني من هذا الكتاب ، وقد سجل أوجست كومت « Auguste Comte » ملاحظات قيمة عن تكون اللغة ودور العواطف قبل أن تصير اللغة عقلية . أنظر أوجست جورج : « بحث في النظام السيكلوجي عند أوجست كومت » : Auguste Georges : « Essai sur le système Psychologique

« d' Auguste Comte. » ٥٢ .

(٣) انظر كرينجو المرجع السابق ، ٢٣ .

الحيوان « (١) فالكلام والإشارة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في بادئ الأمر ولكن اللغة السمعية تنمو وتتطور بفضل تفوقها من الناحية العملية (٢) ؛ وإذا كان الكلام الخارجى ينتج الحدث الخارجى فإن الكلام الداخلى يتحقق فى الإرادة وبكشف عن نفسه فى الاعتقاد والرغبة . فهو لا يزداد إلا لصوقاً بجميع النشاط الإنسانى .

وقد تمت آخر خطوة من خطوات التقدم الذى حققه اللغة الإنسانية فى الواقع عند ما اعترف للصوت بصفة العلامة ، وذلك حينما أتيح للفجائية التى خلقت العلامة المفيدة أن تستكمل بانضمام الإرادة إليها ؛ تلك الإرادة التى تستخدم العلامة . وهذا التقدم ، وهو تقدم عملى من حيث أصله ويخدم غايات الحياة بطريق مباشر ، قد أفاد ثراء نفسانياً غير محدد (٣) . ولا شك أنه يجب أن تكون الذاكرة قد وصلت إلى درجة من التطور لتتمكن من فصل الصوت عن الخاطر الذى كانت تصحبه مبدئياً ، ولا بد من وجود شعور حاد اليقظة لتحقيق رابطة العلامة بالشئ الذى تشير إليه (فالأشياء فى ذاتها لا تشير إلى شئ) : ولكن الشعور يقوى ويمرن بدرجة عميقة إذا كانت لديه رموز تعمل على تثبيت صور الأشياء . فاستعمال الرمز يعين الإنسان على سهولة التصور لا سيما أنه عند ما ينقله إلى ذهن آخر فإنما ينقله إليه مستقلاً عن الانطباع المباشر . وهذا الذكاء الناشئ يجعل من اللغة شيئاً فشيئاً آله الخاصة وأداة التفكير ، وبذلك يسمح للتفكير أن يعمل دون صلة مباشرة بوظيفة ما هو

(١) أنظر : P. Janet : « La Tension Psychologique, ses degrés et ses oscillations . » وهى محاضرات ألقىت فى لندن ونشرت فى : The British Journal of Psychology أكتوبر ١٩٢٠ ويناير ١٩٢١ .

(٢) انظر ريبو المرجع سالف الذكر ، ص ٦٢ .

(٣) عن ضيق حدود الإدراكات عند ارتباطها بحركة اليدين ، أنظر هنرى ولون Henri Wallon فى البحث : « La conscience et la conscience de moi » المنشور فى مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ ص ٦١ .

واقع^(١) . فالكلمة بقيمتها التصويرية وقدرتها على الإفهام ، لها نفس المزايا التي للورق النقدي ، ولكنها مخفوفة مثله بالأخطار بمعنى أنها إن كانت خالية من الحقيقة صارت مجرد «أنفاس صوتية» (Flatus vocis) أى خيالاً باطلاً^(٢) . فاللغة وقد خلقتها الحياة والحاجة والرغبة ، تقوم في بادئ أمرها على نظام التأليف « Synthèse » . وبين لنا الأستاذ فندريس أن التفكير وهو غريب عن التصنيفات النحوية يبدأ وهو في حالة توهجه بالانصباب في قالب اللغة . فالصورة الكلامية أو الكلمة الصوتية لها نفس القيمة التي للجمل ، وذلك لأن اللغة في أصلها حدث : ففيها تنشأ الأسماء التي تمثل الأشياء وصفاتها ، والأسماء التي تمثل الأحوال والأدوات النحوية التي تشير إلى الروابط . فالجمل قد سبقت الكلمة النحوية ، والكلمة قد سبقت المقطع .

واللغة تظل خاضعة للحياة « في تطورها الذي لا ينتهي إلى حد » . ولا شيء أكثر إمتاعاً من أن نلاحظ مع الأستاذ فندريس تنوع الوسائل ، وأحياناً كثيرة خرق تلك الوسائل التي تترجم عن العلاقات التي تلتقط في الحياة الواقعية ، وعدم ثبات المفردات الذي يصل إلى حد التطرف ، وتلك الخاصة التي تجعل اللغة تتفرق دون توقف وتممو دون حد عند جميع أولئك الذين يتكلمونها في تمبيرهم عن حياتهم الخاصة بكل ما فيها من شخصى بحث . واللغة المكتوبة — حتى لغات كبار الكتاب الذين يريدون كأنهم يثبتون هذه الأداة بما يخلعون عليها من كمال — لا تستطيع أن تقف الحياة ، « ففوة الحياة التي لا تقهر ، تتغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد » . الكلمات لا تحيا برغم كل ما يقال : بل إن العقل هو الذى يحيا ويغير معناها ، كما أن حياة العقل هى التي تغير أسماء الأشياء وتجدها . « فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات

(١) العبارة لجانيه ؛ وانظر ملاحظة ل . ديوى في مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ :

« La memoire des noms propres et la fonction du réel »

(٢) أنظر ريتو ، المرجع سالف الذكر ، صفحة ١٢٥ . وانظر ماسنيان في هذا

قدر ما يوجد من الأفراد .

* * *

ومن ثم يعنى الأستاذ قنديرى بلفت النظر إلى ما فى اللغة من صفة العرضية . ولكن كمال تمكنه من موضوعه وحسه الحاد بالحقيقة الواقعية يمنعه من أن يحيد عن وجهة النظر الأخرى التى تلزم الباحث الناظر . « فهناك من اللغات قدر ما هناك من أفراد » : ومع ذلك فهناك اللغات ، اللغات المشتركة واللغات الخاصة ، وهناك اللغة « إذ يقوم اتجاه آخر يعمل على الدوام على مناهضة التفريق ، ألا وهو الاتجاه إلى التوحيد الذى يعيد التوازن » . فعلم اللغة يمكنه إذن من أن يجد أمامه حالات من الاطراد ، من العموم على درجات متفاوتة .

هذه الاطرادات يعتبرها الأستاذ قنديرى من محض صنع المجتمع ، وإذا كان يرتاب فى النظريات ، وإذا كان نصيب التعميم فى كتابه يعتمد إليه فى حذر ، فإننا نحس بعظيم ركونه إلى السسيولوجيا ؛ إلى ذلك النوع من السسيولوجيا الذى اعترفنا نحن أيضاً بجدواه وكشفنا عن مزاياه ^(١) — وأنه يميل إلى أن يشبع بالعنصر « الاجتماعى » تلك الحاجة إلى التفسير التى تبدو عنده فى كثير من المواضع ، وإن كان ذلك فى صورة مكتوبة نوعاً ما . وهو باهتمامه بهذا العنصر يتفق مع بعض علماء اللغة — ومنهم أستاذ كبير — أولئك الذين وإن لم ينضموا إيجابياً إلى مدرسة دركهيم « Durkheim » فإنهم قد تأثروا بجاذبية هذا العقل اللطيف الجبار ^(٢) . وإذا كان « من القول المعاد أن تؤكد أن الإنسان كائن اجتماعى قبل كل شيء » فإنه يجدر بنا تحديد ما يخلع عليه ذاتياً هذا الطابع ، ويجب أن يميز فيه ما هو اجتماعى خالص وما هو جماعى وما هو إنسانى . والأستاذ

(١) أنظر La synthèse dans l' Histoire ، ص ١٢٤ — ١٢٧ .

(٢) ظل الأستاذ ميه يقوم بتحرير الفصل الخاص باللغة فى مجلة : « L' année sociologique » ابتداء من المجلد الخامس (١٩٠٢) .

قندريس لا يعنى بتحرير هذه العناصر^(١) . ولكن يمكننا مع ذلك أن نجد في مؤلفه التصحيحات والتحفظات التي أملاها عليه ميله السسيولوجى : ذلك لأن الخبرة والمباشرة للحقائق اللغوية أقوى عنده من كل حماس نظرى .

* * *

وفى رأينا أنه يجب الالتفات إلى التفرقة الآتية أولاً وقبل كل شىء .
إن المجتمع ، من جهة كونه مجتمعاً ، له حياته الخاصة التي تشمل حياة الأفراد وتتجاوزها وتكسبها ثراء : فحاجاته المعينة تعلن عن نفسها بأوضاع ضرورية يتضامن فيها الأفراد وإن اختلفوا فيما بينهم . فالجماعة والأمة ، لها طابعها الخاص الذي يطبع الأفراد بوجوه مقررّة من التشابه^(٢) . طابع الأمة — ومن باب أولى السمات الخاصة بواحدة من تلك الجماعات الثانوية التي تتمتع بحظ ما من الدوام والتي توجد داخل الأمة — ينعكس على اللغة (سواء أكانت لغات مشتركة أم لهجات أم لغات خاصة) ؛ وذلك بأن تدخل فيها أعراضاً من أنواع شتى لاصلة بينها وبين « التكون الاجتماعى » أو « التفتت الاجتماعى » . ولقد استطعنا أن نقول بأن اللغة « موطن الفكر » والوطن شىء آخر غير المجتمع .
الأستاذ قندريس الذى ينتقد بحق إقحام فكرة الجنس فى علم اللغة ينتقد أيضاً فكرة العقلية الجنسية . ومع ذلك فإنه يعترف بوجود صلة بين عقلية الشعب ولغته . ويمكننا أن نتصور عالماً لسيكولوجية الشعوب يقوم على اختبار التغيرات المعنوية المختلفة التي تشاهد فى اللغات التي يتكلمونها . وقد تكون هذه الدراسة شاقة ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء .

(١) كذلك فى كتاب فردينان دى سوسير Cours de : F. de Saussure « linguistique générale » الذى نشر بعد وفاته ، لا نجد المؤلف يفرق بوضوح بين عبارات « القوى الإجتماعية » و « السيكولوجية الجماعية » و « العوامل التاريخية » التي تقوم عليها اللغة . أنظر خاصة صفحات : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ .

(٢) عن صورة هذه الأعراض ، أنظر « La Synthèse en Histoire » ص ٦٩ وما يليها .

الواقع أن هناك لغات تجريدية ولغات تشخيصية تقابل عقليات جنسية متعارضة . ومن أشد ما يسترعى النظر في هذا الصدد ملاحظات الأستاذ م . جرانيه M. M. Granet عن « بعض خصائص اللغة والتفكير الصينيين » التي نشرتها المجلة الفلسفية^(١) وفيها يبين « أن دراسة المفردات تكشف عن طابع التصورات الصينية المسرف في التشخيص » . « الكلمات في مجلتها تدل على أفكار فردية وتعبّر عن حالات منظور إليها من وجهة نظر خاصة كل الخصوص ، هذه المفردات لا تعبّر عن حاجات تفكير من دأبه أن يصنّف ويجرّد ويعمّم ، تفكير يريد أن يعمل في مادة واضحة متميزة ومعدة لتطبيق نظام منطقي عليها ، بل على العكس من ذلك تعبّر عن حاجة ملحة إلى التفصيل والتخصيص ، وإلى ما هو معجب ... يبدو أن كلمات اللغة الصينية كما تلوح لنا وكما يشرحها الصينيون أنفسهم ، تقابل صوراً إدراكية Concepts images مرتبطة ، من جهة بالأصوات التي كأنها مزودة بالقدرة على إثارة التفاصيل المميزة للصورة ومن جهة أخرى بالكتابة المثلثة للإشارة التي تسجلها الذاكرة الحركة كأنها أمر جوهري » .

هذا العامل السيكولوجي الجنسي ليس العامل الوحيد الذي له أثر عام في تشكيل اللغة « التطور اللغوي يعتمد اعتماداً وثيقاً على الظروف التاريخية » . فهو يعتمد على المسكن ، ويعتمد على نوع الحياة ، ويعتمد على تشابك حياة الشعوب^(٢) . ولكن لا يتحتم كما رأينا أن نرجع السمات التي تميز مجموعة من المجموعات أو وطناً من الأوطان بأسره إلى أصل اجتماعي . فكلمة « تاريخية » هنا هي الكلمة الحقّة .

ومن بين الآثار التي تتلقاها المفردات وتسجلها بوصفها جهازاً حساساً أثر المسائل الاجتماعية بمنائها الحقيقي . وقد قدم لنا الأستاذ ميه أدلة بارعة في هذه الناحية : « يرجع الجزء الأكبر من تغيرات المعنى إلى توزيع المتكلمين في طبقات اجتماعية مختلفة وإلى انتقال الكلمات من مجموعة اجتماعية إلى أخرى »^(٣) . ولكن

(١) يناير — فبراير ومارس — أبريل عام ١٩٢٠ .

(٢) ص ٤١٤ و ٣٣٠ وقارن كرنيجو Cornejo المرجع السالف الذكر ص ٦٦ .

(٣) L' année sociologique ، مجلد ١١ ص ٧٩١ ؛ وانظر في هذه النقطة أيضاً

نفس المرجع ، مجلد ٥ ص ٦٠٠ ومجلد ٧ ص ٦٧٦ ومجلد ٨ ص ٦٤٣ ومجلد ٩ ص ١٥ وما يليها ومجلد ١٢ ص ٨٥٠ .

أيكفي هذا القدر الذى تعكسه اللغة من « الظروف الاجتماعية » لحياة الشعوب — وكذلك الحال بالنسبة للظروف التاريخية — لنقول بأن اللغة اجتماعية ؟ نحن لا ننظر ذلك .

لا تكون اللغة اجتماعية حقاً فى نظرنا إلا إذا كانت من خلق المجتمع ، وإلا إذا كانت نظاماً ملتصقاً بالمجتمع . يقول الأستاذ فندريس : « فى أحضان المجتمع تكونت اللغة ... فاللغة وهى الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعانى ، تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية ؛ هذه هى أمّ المسائل : فما نصيب المجتمع ، بوصفه مجتمعا فى تكوين اللغة وتقدمها ؟

يعترف الأستاذ فندريس بأن فى تكوين اللغة عملية سيكولوجية « فى نقطة البدء » وأنه « لم يتأت لكائنين بشريين أن يخلقوا لغة فيما بينهما إلا إذا كانا مهياين مقدما لهذا العمل » ، يقول إن اللغة تنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاء بنى الإنسان . وإذن فإن كان يريد بهذا الاهتمام بأثر المجتمع الذى يندى فيه فى كثير من الفقرات ، أنه يبين فحسب مقدار المعونة التى لقيتها المنظمة الاجتماعية فى تلك الوسيلة للتفاهم بين البشر ، وكيف أدى التوفيق بين المواهب الإنسانية والحاجات الاجتماعية إلى تقدم المجتمع واللغة على السواء ، إذا كان ذلك ما يرمى إليه ، فإنه لا يسعنا إلا أن نتفق معه .

الواقع أن المجتمع استعمل اللغة . وقد استعمل شيئا من الضغط — ولا تقول من القسر^(١) — فى سبيل جعلها مناسبة من الوجهة العملية وفى سبيل استكمالها . بل لقد ساعد بشتى الطرق على جعلها من مؤسساته : إذ يجب علينا أن نميز بين المؤسسات الرئيسية والمؤسسات الثانوية^(٢) ولكننا نرى أن اللغة فى الأصل عامل

(١) أنظر مثلا ما يقول الأستاذ موس Mauss فى مجلة « L'Année . sociol. » مجلد ١٤١ من أن « اللغة إلزامية لجميع الأفراد الذين تتكون منهم جماعة ، فيمكن القول بأنها توجد خارج الأفراد » . وما يقوله الأستاذ فيه فى مجلد ٩ ص ٢ من أن خصائص الخروج عن الفرد والقدرة على الكبت التى يحدد بها دركهم الحقيقة الاجتماعية ... تدل عليها اللغة أوضح دلالة » .

(٢) أنظر La synthèse en Histoire ص ١٣٣ .

من عوامل المجتمع وليست من منتجاته . فاللغة ومعها اليد قد مكنت للمجتمع التوسع الذى هو عليه الآن وأن ما فيه من الترابط يبلغ من درجات الإحكام قدر ما يبلغ فيه التخالف من عظم ، وهذا التخالف نفسه تساعد عليه اللغة كما تساعد عليه اليد . ولكن الأستاذ فندريس لا يجعل دور المجتمع مقصورا على الإثارة . فبعد أن يقول : « لا وجود للغة خارج من يفكرون ومن يتكلمون . فهي تنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ، لا يلبث أن يقول : « ولكن الشعور الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الشعور الجماعى الذى يفرض قانونه على كل فرد » . فيؤخذ من كثير من فقراته أن اللغة بوصفها أداة الفكر وآلة العقل من خلق المجتمع حقاً . « يغزو إميل دركهم وجود الكليات إلى نوع من الضرورة تعرف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاق من الإرادة : يعنى أن الكليات اجتماعية الأصل وتتوقف على المجتمع » فالأستاذ فندريس يقبل هذه الفكرة من أفكار المدرسة الدركهيمية التى يوضحها الأستاذ ليفى بربل Lévy - Bruhl فى كتابه : (Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures) « الوظائف العقلية فى الجماعات البدائية » . فها نحن أولاء فى صميم مسألة ذات أهمية جوهرية بالنسبة للتفسير التاريخى ، وهى دور المجتمع فى تكوين المنطق .

* * *

نحن نرى من جانبنا أن الفكر يستمر بالحياة ؛ وأن التفكير العملى وهو شعورى إلى حد ما ، يسبق التفكير النظرى ، وأن اللغة ، وهى التى تدعم التفكير العملى وتسمح وحدها بتقديم التفكير النظرى ، تعبر أساساً عن الطبيعة البشرية . فالإنسان بوصفه إنساناً هو خالق المنطق العقلى والمنطق العملى . فاللغة والتفكير ، وكلاهما مرتبطان بالآخر تمام الارتباط ، إنما يترجمان عنه حين يصنف الأشياء ويقرر ما بينها من روابط . ولا يمكن أن يكون المجتمع هو الذى خلق الكليات المنطقية (Catégories logiques) : فالمجتمع له حاجاته ولكنه لا يفكر إذا كان فى اللغة اطرادات ذات أهمية مختلفة عن أهمية الاطرادات التى تنشأ عن الرواية وعن

الظروف المحيطة وعن المحاكاة ؛ فإنها ترجع إلى الوحدة الأساسية التي تتمصف بها الحياة التصويرية عند جميع البشر^(١) .

تكلمنا في التصدير الذي قدمنا به للمجلد الثاني عن نصيب اليد في التطور النفساني ، فالتقدم التدريجي في استعمال اليد استعمالاً ينطوي على الذكاء يقابل تقدماً مثله في التكوين النفساني وفي درجة الوضوح الداخلي . لم تساعد اليد باختلاف عملها على تيسير التعاون بين أفراد البشر فحسب : بل ساهمت بقسط وافر في معرفة العالم الخارجي . لأن المعرفة العملية المحضة المؤسسة على المنفعة والتي هي وليدة الميل معاصرة للحياة ، والتهيئة ما هي إلا المعرفة . وهناك معرفة الواقع الجسم في كل تكوين عضوي ، وهناك ميكانيكا وفيزيكا بالفعل في كل ممارسة للجهود العضلية « فقتانون السببية قبل أن يدرك كان يحس به شيئاً فشيئاً ، وذلك باتساع نطاق النشاط الإنساني في عالم يحكمه هذا القانون ويكون الإنسان جزءاً منه ، مكملاله » .

ولكن التفكير النفساني وصوره العليا ، كل ذلك مرتبط باللغة وكلمة *λογος* تطلق عند الإغريق ، كما لاحظ كورنو Cournot على اللغة وعلى العقل على السواء . فاللغة ابتكار مزدوج الأثر : إذ هي أداة للاتصال ، وأداة للتسجيل تعمل بواسطة التجريد والتعميم على تثبيت المعرفة في الإدراكات وتسمح لها بتطور لا حد له .

وليس معنى ذلك أن موهبة التجريد والتعميم لاستيقظ إلا مع اللغة ؛ فبدون اللغة يقوم الانتباه والذاكرة بدورها تحت تأثير الميل . والإنسان الفطري (الخام) *Homo alalus* كالحیوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التي لا تحصى . وهذه الإدراكات تنتج عن نوعها من الاختيار « فالذي يكون له أهمية عملية » من بين هذه الإحساسات « هو الذي يُخص بالناية »^(٢) وهو الذي يستثير الانتباه . هذا إلى أن الذاكرة تنفى الانطباعات التي تستقبلها بتلك

(١) أنظر الحواطر القيمة التي نشرها د . يارودي D. Parodi في مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية فبراير ومارس بعام ١٩١٤ صفحة ٩٠ — ٩١ .

(٢) ابنجهاوس Précis de Psychologie : Ebbinghaus ص ١٥١ ؛ وقارن ريبو في المرجع السالف الذكر ص ٩ .

التصورات التي تستقيها من الاختبارات السابقة . وبذلك تنفصل من الأشياء بعض السمات البارزة ، تلك السمات المشتركة بين مجموعة من الأشياء^(١) . وفي هذه الحياة التصويرية الأولى تلك الحياة الفردية الخاضعة للمصلحة ، تتكون بعض الصور النوعية وتصير آلات عملية كالآلات المادية تماماً ، آلات تعمل على جعل الأشياء ملكاً للشعور ومسودة له — وهي النواة المتواضعة للمعرفة النظرية .

اللغة ، وهي في مبدأ أمرها انفعالية وفاعلة ثم تأليفية ، كما تنوعت لتتقوى على تمييز الأشياء والصفات والحالات وكلما زادت مرونة بالتعبير عن علاقات العالم الواقعي المتنوعة أشد التنوع بكلمات قد جردت من معناها الحقيقي لتتخذ قيمة الأدوات النحوية ، تلك القيمة التجريدية العامة ، نقول كلما تقدمت اللغة في هذا المضمار ، صارت قوة لا تبارى ؛ وأمكنها أن تدير الملكة التي تميز الشبيه من المخالف ، والتي من بعد ذلك تجرد وتعمم ، تلك الملكة اللاصقة بالحياة لصوق الحاسة التي نميز بها رائحة الطيب من الخبيث ، واللغة على هذا النحو تمكنا من « الاستيلاء على الأشياء استيلاءً أنفذ وأشمل من ذي قبل » .

الإنسان لم يكن « الإنسان المفكر » (Homo sapiens) لأنه « الإنسان العامل » (Homo faber) فحسب ، بل أكثر من ذلك لأنه « الإنسان الناطق » (Homo loquens) ويظهر أن تطور اللغة كان يقتضي عن كسب أثر تطورات الآلات المصنوعة . ويرى الأستاذ بول M. Boule أن « الإنسان الهيدلبرجي » (Homo heidelbergensis) كان الحلقة الوسطى بين الإنسان الذي يتكلم والحیوانات التي تصيح ، أما « الإنسان النيندرثالي » Homo neanderthalensis فيظهر أنه كان يملك مبادئ فكرية من اللغة الملفوظة^(٢) . ولكننا لسنا في حاجة إلى القول بأن الانتقال من الصورة النوعية إلى الإدراك المحض كان متناهيًا في البطء فالكلمة في بادئ الأمر كانت « ضئيلة الشأن » ثم

(١) أحدث ما أخرج في سيكولوجية الانتباه يبرز دور الهياكل العامة أو الصور المختلطة التي تتميز بخصائصها الفردية البحتة وبدعم قابليتها للتألف أصلاً . أنظر ريشودلون Revault d' Allonnes في بحثه « الصور العليا للانتباه » في مجلة علم النفس ص ٢٣٢ .

(٢) بول ، Les Hommes Fossiles : Boule ص ١٥٤ و ٢٣٧ .

ارتفعت بالتجريد حتى صار ينطوى تحمها أعم الخصائص وأخفاها على المعرفة وهي التي ثبتت أكثر الأفكار عمرانا « بالمعرفة التي بالقوة » من العدد والمكان والزمان والسبب والقانون والتنوع . « تنتقل الكلمة من العدم إلى السيادة المطلقة ، والمشيخص ينتقل من الكينونة الكاملة إلى العدم ^(١) » .

ومما لا يحتاج إلى تقرير أيضاً أن دور المجتمع هنا كان حاسماً ، وإن لم يكن مباشراً . والنكلام قد مكن للدراك من أن ينتقل من دماغ إلى آخر : والمجتمع يجذب وينشط تعاون الأفهام ، أو (التحويل) العقلي . ولكن إذا كان هذا التعاون المنطوق مما ينتج في المجتمع فإنه ليس ظاهرة اجتماعية . بل على العكس من ذلك يجب أن نقرر أن الكلام بتسخيره للذكاء الفردي في خدمة المجتمع ، يزيد في شعور المجتمع شعوراً واضحاً بحاجاته النوعية ، ويسمح له بأن يتطور تطوراً معقولاً .

والقدرة على التجريد والتعميم التي هي من خصائص الإنسان والتي تفتح في العقل ، ليست عند جميع البشر على السواء . المخترعون « أولئك الذين يولدون بموهبة التجريد أو عبقرية التجريد » ^(٢) والقدرة على التجريد التي كانت عند المخترعين عملية محضة في بادئ أمرها تصبح نظرية على التدرج بمساعدة الذخيرة المتجمعة والممارسة الفجائية ولعب الملكات العقلية . وذلك دون أن تخفى الحاجة الأولى ، أي المصلحة . لا نريد بذلك أن نقول إن هناك نشاطاً عملياً يبق ، ويصل أحياناً إلى درجة لا نظير لها من الأهمية والسطوع فحسب ^(٣) بل إن أشد أنواع النشاط إينالاً في الناحية التأملية يتجه في نهاية الأمر — بناء على المبدأ الذي بنينا عليه رأينا — في أغراضه الخفية وفي غايته القصوى ، نحو التسلط على الأشياء ، ونحو تحرير العقل ، نحومة الإنسانية العليا . فالعلم « أداة حيوية » حتى في أبعد صورة من الوجهة العملية من حيث المظهر ، ولا سيما في هذه الصورة . « إذا كان الإنسان يسجل له في كل يوم انتصاراً

(١) ريبو : المرجع السالف الذكر ، صفحات ١٠٠ و ١١٦ و ١٤٨ .

(٢) ريبو : المرجع السالف الذكر ص ٢٤٦ .

(٣) أنظر ل . فيبر Le rythme du Progrès : L. Weber .

جديداً على الطبيعة ، بينما يستأنف الحيوان في كل يوم جهاده القاصر ضدها دون نتيجة جاسمة ، فذلك لأن الإنسان يعرف في بعض الأحيان كيف ينظر إلى العالم منزهاً عن الغرض . أما الحيوان ، ذو الروح المسرف في الناحية العملية فإنه عبد إدراكه الذي يحمله دائماً على القيام تقريباً بعمل واحد آلى بعينه . فالبحث عن الحقيقة المنزهة عن الغرض هو آكد الوسائل للوصول إلى المنفعة^(١) .

أما عن الدور الذي قامت به الكتابة والطباعة في سبيل البحث عن الحقيقة — وهما كما هي الحال في اللغة ، خليط من اختراعات عديدة قد حوكت وتنوقلت وطبعت بالطابع الاجتماعي — فذلك ما ستكشف عنه المجلدات التالية . فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة ، والطباعة أكثر من عددها إلى غير ما حدّ وخلدتها . وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت^(٢) ولكن كثيراً ما ينتهي التفكير المجرد إلى سراب وإلى الابتعاد عن الجادة . فالفكر في هذه الحال يجول في « عالم غير مخلوق يرجع إلى عهد الإنسان البدائي » . عالم الأفكار ، الذي هو أيضاً عالم الألفاظ . واللفظ مع ماله من مزايا لا يخلو من أضرار . إذ لما كان مصدره من الأشياء — من حيث المبدأ — وكان يمثل الأشياء^(٣) ظن الإنسان بطبيعة الحال أن كل كلمة تقابلها حقيقة واقعية : ومن هنا نشأ الاعتقاد في الأصنام وفي جوهر الأشياء المحقق عملياً . ولما كانت بعض الألفاظ تحدث آثاراً مغنية ، كان من الطبيعي أن يظن بأن كل كلمة لها هذه الصفة . « فالشخص الذي يدعو إليه صاحباً له موجوداً على بعد منه ، ويراها يهرول ملبياً نداءه ، يسخر في ذلك قوة تختلف اختلافاً واضحاً عن القوى المادية ، عن القوة

(١) أنظر د . رستان La science comme instrument : D. Roustan vital ، في La Revue de Mét. et de Mor. سبتمبر ١٩١٤ صفحة ٦١٢ — ٦٤٣ .

(٢) انظر كورتو : Essai sur les fondements de nos connaissances من ٣١٧ ولا كيب La combe : L' Histoire considérée comme Science ، صفحة ١٩٧ وما يليها ؛ ود . ماجوسكي D. Majewski : La science et la civilisation ، ص ٢٤٢ .

(٣) بل يبدو أنه يحتفظ ببعض من حقيقة هذا الشيء : ومن ثم نشأت حوله بعض الأعمال السحرية — أنظر فيبير في المرجع السالف الذكر ص ٩٢ ، وفي مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ص ٧٤ — ٧٥ ، ريبو المرجع السالف الذكر ص ١٠٨ .

الناجاة عن سلاح الطعن أو سلاح الرمي « لا شك أن هناك نصيباً من الحقيقة في هذه الفكرة التي يقول بها الأستاذ ل . فيبير من أن ممارسة اللغة قد ساهمت في استخراج معنى للسبب الفاعل يختلف عن ذلك الذي ينتج عن ممارسة الفنون المادية .

هذه العقلية التي تستخدم الكلمات استخداماً تحكيمياً أطلق عليها اسم العقلية « قبل المنطقية » وقيل إنها من أصل اجتماعي خالص^(١) . ويبدو لنا أنها آتية في الواقع من حياة الفرد الانفعالية ، ولكن الذي يستبقيها ويساعدها على التطور إنما هي الحياة الاجتماعية التي هي حياة انفعالية في أصلها إلى حد كبير والتي تخلق ، بتقويتها لحالات الفرد الانفعالية ، نوعاً من الوسط الغيبي لا يتطرق إليه الاختبار ، إن قليلاً وإن كثيراً . ففي المجتمع تنمو التصنيفات وتزداد قوة ، وليست التصنيفات قبل المنطقية هي التي نعنيها هنا ، بل التصنيفات الغريبة على المنطق التي يوجدها « الفن الكلامي » إلى جانب الفنون المادية . والسلطة الاجتماعية التي تقوم مقام رقابة الواقع الخارجي بتأسيسها للتفكير تشل العقل إن قليلاً وإن كثيراً ، وبعد أن يتحرر العقل ويشد في وقت ما يظل زمناً طويلاً يحتفظ بدرجة مسرفة من الثقة في بعض الأسس الخداعة وفي سراب الألفاظ^(٢) .

يجب أن تظل الإدراكات منطقية على الحقيقة الواقعة حتى يستطيع العقل أن يشتغل بالكلمات بطريقة مجدية . فالمثل الأعلى في كل صورة يتولد من اللغة ، ولكن هناك من المثل العليا ما هو فارغ أجوف . وبمضي الزمن يصل العقل في كفاحه المنطقي ، إلى تشبيه الأشياء بالعقول وبالتالي إلى تشبيه العقول بعضها ببعض . ولعل المجتمع النهائي سيقوم على وحدة العقول ، ويمكننا أن نقول بأن العلم لم يؤد من خدمات اجتماعية بقدر ما أدى منذ أن تحرر من كل سلطة اجتماعية بل من كل نظام اجتماعي ليصير موضوعياً محضاً ، أي ليصير في نفس الوقت

(١) أنظر لوسبان ليفي بربل L. Lévy - Bruhl. المرجع السالف الذكر . جرائه :

المقالات سألغة الذكر ، مارس ، إبريل ١٩٢٠ ، ١٨٧ ، La synthèse en Histoire ، ص ١٩٥ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ — ٢٦٣ ؛ فيبير وريو وجانيه في المراجع السالفة الذكر .

فردياً وعملاً لا اجتماعياً ، لأن هذين أمران يختلفان كل الاختلاف . قامت حول المنطق ، وحول تقدم اللغة ، مناقشات حارة في سنتي ١٩١٢ ، ١٩١٣ في الجمعية الفلسفية الفرنسية ، وقد ساهم فيها الأستاذ فندريس . وكان الباعث عليها وأساسها تلك الأعمال الممتعة المثيرة التي قام بها المأسوف على حياته لويس كوتيرا في اقتناع يقوم على التفكير العميق . عمل كوتيرا على أن يخرج للوجود لغة دولية تفرض نفسها على جميع الشعوب وجميع العقول بعملها على تحقيق الاتجاهات العميقة التي يتجهها التطور اللغوي . والواقع أنه كان يعتقد أن التفكير الإنساني واللغة يرتبطان أحدهما بالآخر بعري وثيقة ، وقد كان يجمع إلى تبخره العظيم في مسائل المنطق اطلاعاً دقيقاً على المسائل اللغوية ، فراح يبين أن بعض « الحدود أو الفصائل » الأساسية يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة لجميع اللغات الإنسانية ، معتمداً في ذلك على دراسات الأستاذ مييه Meillet أكثر اللغويين اصطفاً بالفلسفة . تلك الدراسات البارعة في سعة المعرفة وخطورة النتائج . فعنده أن هناك نحواً عاماً (*grammaire générale*) لأن هناك عقلاً إنسانياً « الإنسان ليس له عقل لأنه حيوان اجتماعي أو « سياسي » كما يقول أرسطو ، بل إنه حيوان اجتماعي لأن له عقلاً » (١) .

* * *

فلنحدد موقف الأستاذ فندريس في المناقشات الدائرة حول الفصائل لنرى كيف تستقيم ، في هذه النقطة سسيولوجيته البادية ، وتتخلص بسبب الحقائق المكتشفة — كما وقع لدركهيم Durkheim نفسه في كتبه الممثلة في التقرير ، واليني بريل (٢) . « فتصور عقل إنساني ذي قوانين ثابتة لا تتغير ومتماثل تمام التماثل

(١) أنظر كوتيرا : *La logique et La philosophie contemporaine* في *La Revue de Mét. et de. Mor.* مايو ١٩٠٩ ، وعن البنية المنطقية أنظر نفس المرجع يناير ١٩١٢ . وقارن ما في مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، فبراير ١٩١٢ ، ومايو ١٩١٣ . وأنظر لالاند Lalande : *L'oeuvre de Louis Couturat* في المجلة السابقة ، عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ .

(٢) أنظر *La synthèse en histoire* ص ١٧٤ ومجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، عدد فبراير ١٩١٢ ص ٦٤ .

في كل الأرجاء « يبدو له — وهو على حق — موضع نظر : ولكنه يعلن بأنه لا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العوائد العقلية بين شعوب الأرض » ؛ ويفوض الأمر إلى المناطقة ليقروا « ما إذا كان وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجري على كل اللغة وتُفرض عليها جميعاً بحكم تركيب المخ الإنساني »^(١) .

أما عن الأصول فإنه يجمع الاعتراضات تلو الاعتراضات ضد الجهود التي عملت لإرجاع اللغات إلى الوحدة ويبدى تحفظاً شديداً أمام نتائج الطريقة المقارنة : ويعترف مع ذلك « بأن العلماء قد نجحوا في تكوين عائلات لغوية كبيرة » ؛ ويضيف قائلاً : « وليس من شك في أن تقدم الفيلولوجية المقارنة سيؤدي إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التكوين »^(٢) .

وأما عن التطور فيقول : « فنحن نجني ثمار التحسسات العقلية التي قام بها أسلافنا الغابرون ؛ فهم الذين سهلوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا فما أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود في تمرين الدماغ الذي ورثونا إياه ، تمريناً جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين ! »^(٣) .

ويعترف الأستاذ فندريس على رغم الغيبة التي « تحيط بالعقلية البدائية من كل جانب » بأن هناك « عنصراً عقلياً » يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بالغلبة^(٤) . وبين بقوة عظيمة في أي اتجاه تسير اللغة : فهي تسير من الشخص إلى الجرد ، ومن الغيبى إلى العقلى . ولغات المتوحشين مفعمة بفصائل التشخيص والتخصيص ، أما لغات المتحضرين فلا يكاد يوجد فيها إلا الفصائل التجريدية ، وإن وجدت غيرها فهي في سبيل الانقراض . وفكرة الزمن ، ودرجتها من حيث التجريد

(١) أنظر آخر الفصل الثاني من القسم الثاني والصفحات الأخيرة من الفصل الثاني من

القسم الثالث .

(٢) أنظر آخر الفصل الخامس من القسم الرابع .

(٣) أنظر أول الفصل الأول من القسم الخامس .

(٤) أنظر الصفحات الأولى من الفصل الأول بالقسم الخامس ، وأنظر La synthèse en histoire

أعلى من درجة الفكرة المكانية ، تلعب في لغات المتمدنين دوراً أهم من الدور الذى تلعبه في لغات البدائيين (١) .

وعندما تتحلل ذاكرة الفرد نرى « المجرد أثبت عنده من الشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريد ينفذ إلى الدماغ بعد مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركزاً ، أما الشخص فليس إلا انعكاس الأشياء فى مرآة الوجدان (٢) » .
القول بأن التطور اللغوى مرتبط بالمدنية بصلات وثيقة ليس معناه إنكار المجهود المنطقى ، أو دور العامل الإنسانى ؛ وإنما معناه الحد من دور العامل الاجتماعى . فالمدنية شىء والمجتمع شىء آخر .

ولكن ما هى المدنية على وجه التحقيق ؟ هل يترتب على المدنية وجود ترتيب تصاعدى للغات ، أو تقدم لغوى ؟ يقابل الأستاذ قنديل هذا السؤال بريب شديد ، ريب يجب أن نقابله بدورنا بالاحترام التام ، لأنه يقوم على إحساس حاد بتفاصيل الواقع اللغوى المتفرقة المتحركة ، وعلى الحذر من الأفكار السائرة التى تعرض على أنها معرفة نقية خالصة . ووجهة نظره فى ذلك هى وجهة نظر العالم اللغوى المرتبط بواقع الأشياء ، فنراه يطيل القول عن الفصائل النحوية فى اللغات المختلفة وعن العقبات التى يلاقيها المنطق وعن سراب اللغة الصناعية الخداع . ويذهب إلى حد القول « بأننا لا حق لنا فى اعتبار لغة معقولة تجريدية . تفوق لغة أخرى مشخصة غيبية ، لمجرد أن تلك الأولى هى لغتنا . إنهما فى الواقع عقليتان مختلفتان يمكن لكل منهما أن يكون لها ناحيتها من الفضل إذ لا شىء أمام شخص من أهالى سريوس (Sirius) يستطيع أن يبرهن له على أن عقلية المتمدنين عقلية منحلة (٣) » .

ولنقرر مرة أخرى أنه يروقنا فى كتاب الأستاذ قنديل هذا النصيب المبالغ فيه من الشك العلمى ؛ لأنه فى رأينا لا يرفع من قدر كتابه فحسب ، بل يرفع جميع

(١) انظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

(٢) انظر آخر الفصل الثالث من القسم الثانى .

(٣) انظر الصفحتين الأخيرتين من الكتاب .

أجزاء المؤلف الذى يتشرف بإشتراكه فيه . وهكذا تجد منه الدعاوى التى تقترحها ولا نفرضها محصاً ثاقباً . ونعتقد أنها ستخرج من بين يديه وقد زادت قوة لاضعفاً ، وذلك رغم بعض المظاهر ، ودون أن يعتمد الأستاذ فندريس إلى الوصول إلى هذه النتيجة ، (وتلك هى عين الخبرة) .

مسألة التقدم مسألة معقدة ، ومن العسير تحديد « القيم » التى تتحقق بها المدنية : إن تطور البشرية بأسرها هو الذى يقدم لنا حلاً لهذه المشكلة .

* * *

رأينا مقدار المسائل العامة التى يثيرها كتاب الأستاذ فندريس ومقدار العناصر القيمة التى حشدها لحلها . أما المسائل الخاصة فقد أبرزها جميعاً وعالجها فى فصول رزينة مشبعة ، بطريقة تظهر النتائج التى وصل إليها وتشير إلى البحوث التى ينبغى أن تعمل . ولم يخصص فصل لهذه الناحية ، لأن الكتاب كله ، كما تصوره مؤلفه ، إحصاء لما عمل فى هذا الميدان ولما يجب أن يعمل .

كانت الجمعية الفلسفية قد رغبت فى المناقشات التى أشرنا إليها إلى لويس كوتيرا أن يلخص مسائل علم اللغة فى مجلد يكون « فى متناول الجمهور » . ولكننا قرأ فى آخر العدد الصادر من المجلة فى مايو سنة ١٩١٣ ما يلى :

« عدل الأستاذ كوتيرا ، مؤقتاً على الأقل ، عن مشروع وضع المتن الذى كان قد اعتمد إخراجه فى المنطق اللغوى ... لأنه علم أن الأستاذ فندريس يعمل على إخراج مؤلف فى علم اللغة ، يبدو أنه يجيب رغبات أساتذة الفلسفة ويسد حاجتهم ... » .

ها هو ذا الكتاب : سيكون مفيداً للغويين ولكل من يهتمون بعلم اللغة على اختلاف مشاربهم ، ولكن لعل فائدته الأساسية ، وهو على النظام الذى هو عليه ، تقوم على بيان أن علم اللغة ليس علماً قائماً بذاته ، وأنه يندمج فى التاريخ . فالحياة والفكر ينضبان فى اللغة . واللغات الميتة مثلها مثل الحفريات التى تحتفظ بطابع الكائن الحى . واللغات الحية تعبر فى قوالب متغيرة ولكن النصوص

تسجيلها ، عن جميع العمل الداخلى ، وعن جميع الآثار الخارجية للحياة الفردية والجماعية . فإذا كان العالم اللغوى فى حاجة إلى التاريخ ، فإن المؤرخ فى حاجة إلى علم اللغة : إذا كان يتصور التاريخ على أنه تفسير عميق لتلك الحياة الموهلة فى التعقيد ، لاعلى أنه مجرد حكاية أمينة لما كان (١) .

هنرى بر

ملاحظة :

لاستكمال مراجع هذا الكتاب من ناحية السيكولوجيا ، نعتقد من المفيد أن نشير إلى المرجعين الآتيين (*Traité de Psychologie*) ذلك المؤلف الذى تخرجه طائفة من علماء النفس تحت إرشاد ج . ديما G. Dumas ، ففيه مقالان عن اللغة فى الجزء الأول (*Le langage, association sensitivo-motrice*) بقلم بارا Barat وشالان Chaslin . وفى الجزء الثانى (*Le langage, opération intellectuelle*) بقلم دلكروا Delacroix . هذا إلى أن الـ (*Journal de Psychologie*) الذى يصدره ب . جانيه و ج . ديما ، سيصدر قريباً عدداً خاصاً باللغة .

(١) خير من أدرك هذه الفكرة وعبر عنها من المؤرخين هو لوسيات فيفر Lucien Febvre أنظر ذلك فى : *Revue de synthèse historique* مجلد ٢٣ ، أكتوبر ١٩١١ و *Histoire et linguistique* : مجلد ٢٧ ، أغسطس - أكتوبر ١٩١٣ و *Le développement des langues et l' Histoire*

اللغة

مقدمة لغوية للتاريخ

« إنَّ لغة البشر لمرنة : ألفاظها كثيرة ومختلفة ؛
إنها بمثابة مرعى فسيح ، تتناثر الكلمات في جميع أرجائه » .

الإلياذة : النشيد العشرون
البيتان ٢٤٨ ، ٢٤٩

كنت قد اعترمت إهداء هذا الكتاب إلى
أستاذي وصديقي أنطوان ميه Antoine Meillet
واليوم أقدمه بالاتفاق معه تحية لذكرى علماء
اللغة الفرنسيين الذين ماتوا في سبيل فرنسا ، وخاصة
لذكرى زميلي روبرجوتيو Robert Gauthiot .

ج . ف

مقدمة

لسنا في حاجة إلى تقديم طويل لتبرير المكان الذي يخصص للغة في مؤلف يكرس لتاريخ البشرية . فالأجزاء السابقة قد عرفت القارئ بالمرح الذي مثلت عليه درامة هذا التاريخ الكبرى ، وقدمت له ممثلها الرئيسي وهو الإنسان والوسائل المادية التي كان مزوداً بها . ولكن الإنسان ، رغم هذه الوسائل المادية ، كان يظل عاجزاً عن تمثيل الدور الذي قدر له أن يلعبه لولا تملكه لناصية اللغة . فاللغة وهي أداة الفكر ومساعدته ، هي التي مكنت للإنسان من الشعور بذاته ومن الإتصال بأمثاله ، وجعلت من الميسور تكوين الجماعات . ومن العسير أن تتصور حالة أولية للإنسان كان فيها محروماً من مثل هذه الوسيلة الناجمة للعمل . فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود لغة منظمة ، وما كان في وسعه أن يسير في طريق التطور دون اللغة .

إذا كانت دراسة تحتل مكانها المرموق الذي لا ينازعها فيه منازع في قمة كل تاريخ عام ، فإن الآراء قد تختلف حول الصورة التي تتصور عليها هذه الدراسة . لأن اللغة مركب معقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة وتعني بها طوائف متفرقة من العلماء . فهي فعل فسيولوجي من حيث إنها تدفع إلى العمل عدداً من أعضاء الجسم الإنساني . وهي فعل نفساني من حيث إنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل . وهي فعل اجتماعي من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني الإنسان . ثم هي في النهاية حقيقة تاريخية لا مرأ فيها نعتير عليها ، في صور متباينة وفي عصور بعيدة الاختلاف ، على سطح المعمورة قاطبة . ومن ثم كان لنا أن نتصور دراسة للغة يقوم بها عالم من علماء وظائف الأعضاء . فيصنف الطرائق التي تؤدي بها أعضاء الكلام وظيفتها ، أو عالم من علماء النفس فيحلل حركة التفكير مهتدياً بنتائج علم الأمراض العقلية ، أو عالم من علماء الاجتماع

فيظهر لنا أثر التنظيم الاجتماعي في تطور اللغات ، أو مؤرخ فيصنف اللغات في أسر ويحدد توزيعها الجغرافي . كل واحد من هؤلاء العلماء يستطيع أن يكتب كتاباً يدخل في علم اللغة ولو أن نقطة البدء التي صدر عنها توجد خارج هذا العلم والنتائج التي يصل إليها تمتد حتى تخرج من حدوده .

وأما مؤلف هذا الكتاب ، وهو عالم لغوي بحكم مهنته ، فقد أراد أن يمحصر مجهوده في ميدان العلم اللغوي وحده دون سواء ؛ فاتخذ من الواقع اللغوي كما تمدنا به الخبرة نقطة الارتكاز التي صدر عنها . فمن تحليل الواقع اللغوي استخرج خطة كتابه . وعلماء اللغة يميزون فيها ثلاثة عناصر مختلفة : الأصوات والنحو والمفردات . ومن هنا قصر الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب على دراسة هذه العناصر الثلاثة على التوالي ، وهي دراسة تعنى في نفس الوقت بحالة اللغة الراهنة كما هي من جهة ، كما تعنى بحالاتها التطورية من جهة أخرى . وقد قصد بها استخلاص أسباب التغير من الوقائع اللغوية التي تنطوي عليها ، والتمهيد للجزء الرابع الذي يتناول موضوعه دراسة اللغات . فهو يعالج على الترتيب تعريف اللغات وأنواع اللغات المختلفة وطرق تكوّن اللغات وتطورها وانشعابها بعضها من بعض وتداخل اللغات والأثر الذي تحدثه بعضها في بعض ، وأخيراً القرابة اللغوية . فتسلسل الكتاب يقوم إذن على الانتقال من البسيط إلى المعقد . فالواقع أن الأصوات أبسط من الكلمات ومن الجمل التي منها تتكون اللغات . وينجم عن هذا الترتيب أن كانت الفصول الأولى ، وهي أكثر فصول الكتاب إينالاً في الفنية ، أشد الفصول جفافاً . وعلى العكس من ذلك فإن الفصول الأخيرة تقدم للقارئ الذي لم تثبط الفصول الأولى همته آفاقاً أكثر تنوعاً واتساعاً . أما الجزء الخامس ، وهو أشبه ما يكون بالملحق ، فخاص بالكتابة . وأخيراً يحيط بالكتاب فصلان : فصل تمهيدى وفيه تعرض مسألة أصل اللغة ، وفصل ختامى وفيه تناقش مسألة تقدم اللغة .

وهكذا تتراس جميع التفرعات التي يتكون منها هذا الكتاب حول الواقع اللغوي باعتباره مركزاً لها . ومع أن مادة هذا الكتاب شديدة التنوع وكثيراً

ما تمتد إلى فروع مجاورة من فروع المعرفة ، فإنه يمكن للناظر فيه أن يعترف بما له من وحدة جاءت بها وجهة النظر التي وضعها المؤلف نصب عينيه . وقد بدا من المفيد للمؤلف ، في بعض مناسبات نادرة ، أن يكمل النتائج المستخرجة من علم اللغة بالإغارة على حرمة أحد العلوم المتصلة بعلم اللغة ؛ وهو يرجو ألا تكون مخالفته للقاعدة بخالية مما يبررها . فهو ، على وجه العموم ، قد اقتصر على عرض الوقائع عرض عالم لغوى ، معتبراً أن تلك خير الوسائل لإفادة أصحاب العلوم الأخرى الذين لا يستطيع أن يأتيهم بشيء ذى بال في ميدانهم الخاص .

هذا وأن المبدأ الذى اتخذناه كان من شأنه أن يجعل مهمتنا على جانب من الصعوبة . لأن من يدرس اللغة بوصفه عالماً لغوياً يجد نفسه مسوقاً بكل بساطة إلى وضع رسالة في اللغويات العامة . ولكن كل من له اتصال بالنواحى اللغوية يعلم أنه لا يكاد يوجد مشروع أكثر خطورة من هذا المشروع . إذ لا بد لنجاحه من إنسان قدير على الإحاطة بكل صيغ الكلام المعروفة ، منقطع لممارسة جميع اللغات المتكلمة على وجه الكرة الأرضية ؛ فهل يمكن العثور على هذا الإنسان المثالى ؟ إن هذا ليدعو إلى الشك . أمّا لو كان الأمر يدور حول تعيين واحد من بين الأحياء يكون قريباً من هذا المثل أكثر من جميع من عداه ، فربما لم يتعذر الاختيار كثيراً على العارفين . لكن الواقع أنه لم يظهر حتى الآن كتاب واحد حقق منهاجاً كاملاً لعلم اللغويات العامة^(١) .

لا حاجة إلى القول بأن هذا الكتاب لم يبلغ فى تحقيق هذا الحلم أكثر من غيره . فالمبكان المحدود الذى منح للمؤلف يفسر تفسيراً كافياً ، دون حاجة لذكر أسباب أخرى ، لماذا لم يحاول المؤلف الإقدام على هذه المغامرة . فقد تظاهروا بأن اعتبر كل واحدة من الوقائع التى يدرسها قطعة منفصلة من تاريخ شاسع لم يدون بعد . ومنع أنه قد استعرض مسائل علم اللغة الأساسية دون أن يهمل منها واحدة ،

(١) لم يصبح ذلك كله حقاً منذ أن نشر فى سنة ١٩١٦ كتاب فرديناند دى ساسور رقم ١٢١ ؛ ولكن هذا الكتاب ، الذى لم ينشر إلا بعد موت المؤلف ، رغم وفرة الآراء التى يقدمها ليس عرضاً منهجياً كاملاً لعلم اللغويات العامة (أنظر فيه رقم ٤ مجلد ٢٠ ، ص ٣٢) .

إلا ما قد يكون من خطأ أو نسيان ، فإنه لم ير لزاماً عليه أن يبسط منها إلا بضعة أمثلة لها طابعها الخاص . كان يمكن لهذه الطريقة التفرقة أن تجر إلى عيب تمزيق المادة بقطع العرى التي تربط مواضع الاستيعاب والبسط بعضها ببعضها ؛ ولكن المؤلف تجنب هذا العيب بطريق التحايل . لأن اللفة ، ككل ما عت إلى التاريخ والحياة بسبب ، تكون ميداناً متصلاً بمعنى أن ظواهرها لا تفصل بينها حدود متميزة . وأن الإنسان يتدرج بين القيم التي فيها يتجلى كل واقع على آتفه في سلسلة من المراتب غير المحسوسة . ومن ثم كان يكفي أن يشغل ما بين مواضع البسط والاستيعاب بمراحل انتقال طبيعية ، بمعنى أنها مستعارة من طبيعة الحقائق المدروسة نفسها . فلو أن هذا الكتاب قد ادعى أنه يحوى الحقيقة الواقعة كاملة في قوالب قد تكون تجريدية محكمة التسلسل ، فربما كان قد بدا عليه مأخذ من الجهل الفاضح ؛ لكنه سترها باختياره لنظام مرن يطبقه على حقائق اختيرت مقدماً ، ويتتبع معاملها عن كتب بدلاً من أن يتبع نظاماً صارماً كاملاً واضح المعالم متميز الخطوط .

يستطيع المؤلف ، وقد سلك هذا المسلك ، أن يغتبط بأن جعل مهمته ممكنة دون أن يقلل ذلك من فائدتها . فهو لا يقدم للقارئ متنافى علم اللغويات العامة ، بل أراد فقط أن يعطيه فكرة عن هذا العلم وعن المسائل التي يعالجها والنتائج الأساسية التي وصل إليها .

لكن الشروع رغم تحديده بهذا المهاج قد يبدو على جانب كبير من الجرأة . أما ما حفز المؤلف على المضي فيه فهو العون القيم الذي لقيه من طائفة من الأصدقاء تفضلوا بالاهتمام بمؤلفه ، فيسره هنا أن يقدم لهم شكره . فالأستاذ ا . ميه ، وهو الذي أوحى إلى المؤلف بعمل هذا الكتاب ، قد أخذ على عاتقه عبء قراءة المخطوط وناقش المؤلف في أكثر من مسألة من بين المسائل التي عالجها ؛ فعمل القارئ يلمس معالم تأثيره ! كذلك راجع المخطوط كاملاً زميل وصديق آخر هو الأستاذ جيل باوك Jules Bloch وأفاد المؤلف بملاحظات عديدة . وأخيراً لا يسع المؤلف إلا أن ينوه بما في عنقه من دين

لزملائه الأعزاء من أعضاء الجمعية اللغوية ، وهم الأساتذة ديلافس ودينى وجود
فروا ديمبين وإيزيدور ليثى وليثى بريل وبيليوه ؛ فبفضلهم زاد عدد من فصول
الكتاب ثراءً بوثائق جديدة متصلة بموضوعاتها اتصالاً مباشراً ، وفي النقاط التي
ساهموا فيها متفضلين أفاد الكتاب دقة ترجع إليهم وحدهم . وإذا لم يكن
الكتاب في مجلته قد تحسنت حاله ، فليس مرده ذلك لهم .

ج . قنديرس — ميلان في يولية ١٩١٤

ملاحظة — انتهى هذا المؤلف في سنة ١٩١٤ ، ولم تقدم مخطوطاته للطبع
إلا في سنة ١٩٢٠ ، وإن الحوادث تكفي لتفسير هذا التأخر لدرجة تسمح بقفرانه .
لكن المؤلف يصر على إخطار القارئ بأنه يقدم له مؤلفاً مضى عليه سبع
سنوات ، والواقع أنه لم يمض شيئاً من نظام الكتاب العام ، بل اكتفى بإدخال
إصلاحات في التفاصيل على بعض النقاط ساعده فيها الأساتذة موريس مارتان
Maurice Martin ، وأرنست ماركس Ernest Marx ، وهنرى جريان
Henri Grappin ، فإليهم جميعاً يعبر المؤلف عن عرفانه بالجميل .

تمهيد

أصل اللغة (١)

يشير الإنسان دائماً دهشة السامع كلما قال بأن مسألة أصل الكلام ليست من مسائل علم اللغة . ومنع ذلك فليس هذا القول إلا الحقيقة بعينها . فغالبية أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام منذ مائة عام يهيمنون في تيه من الضلال ، لأنهم لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة : وغلطتهم الأساسية أنهم يواجهون هذه المسألة من الناحية اللغوية ، كما لو كان أصل الكلام يختلط بأصل اللغات .

إن اللغويين يدرسون اللغات التي تتكلم والتي تكتب ، ويتتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوثائق التي كشف عنها ؛ ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ ، فإنهم لا يصلون إلا إلى لغات قد تطورت وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لانعرف عنه شيئاً . أما فكرة الوصول إلى إعادة بناء رطانة بدائية بمقارنة لغات موجودة بالفعل فسراب خداع . ولكن هذا السراب ، الذي ربما كان مؤسسو علم النحو المقارن يتطلعون إليه قديماً ، قد هجر منذ زمن طويل .

هناك لغات تنسب إلى تواريخ منها القديم ومنها الأقدم . ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة في صور قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين قرناً ولكن أقدم اللغات المعروفة « اللغات الأمهات » ، كما تسمى أحياناً ، لا شيء فيها من

(١) تاريخ طيب لهذه المسألة في بورنسكي Borinski رقم ١٤٦ ، ص ٣ — ٢٠ وانظر أيضاً جيسپرسن Jespersen رقم ١٣٤ ، ص ٣٢٨ — ٣٦٥ . وقد كتبت عن هذه المسألة مؤلفات كثيرة . والأسماء الرئيسية التي تقرر بالاتجاهات أو الخطى الرئيسية في الماضي هي :

J. J. Rousseau, Essai sur l'origine des langues (ouvrage Posthume)
Herder, Geburt der Sprasche mit der ganzen Entwicklung der menschlichen Kräfte, 1770, J. Grimm, Über den Ursprung der Sprache, 1851, Steinthal, Ursprung der Sprache in Zusammenhang mit der letzten Fragen alles Wissens, 1851 (الطبعة الرابعة ١٨٨٨) ، Renan رقم ١١٠ .

البدائية . ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة ، فإنها لا تفيدنا علماً إلا بالتغيرات التي طرأت على الكلام ؛ ولا ندلنا على شيء من كيفية نشوئها .

كذلك لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد من لغات المتوحشين . فالتوحشون ليسوا بدائيين ، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان . فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً ؛ ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسد عليهم أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها . وإذا كان هنالك من فرق بين لغات الشعوب التي تسمى متحضرة ولغات المتوحشين ، فهو في الأفكار التي تعبر عنها أكثر مما هو في العبارة نفسها . فلغات المتوحشين في وسعها أن تفيدنا في معرفة ما بين الكلام والفكر من روابط^(١) وليس في معرفة ما كانت عليه الصورة البدائية للكلام . وقد يجنح الإنسان في البحث عن هذا المطلب في كلام الأطفال^(٢) ، وهذه المحاولة أيضاً سيكون نصيبها الفشل . لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة ، ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام عند أصل نشوئه . فحيناً نلاحظ المجهودات التي ينفقها أحد الأطفال ليعيد ما يسمعه مما يقال للمدرسين ، فإننا نلاحظ أكثر من علامة دالة على أسباب التغيرات التي يتعرض لها الكلام . ولكن الطفل لا يؤدي إلا ما قيل أمامه ، فهو يشتغل بالعناصر التي يمد بها من حوله ، ومنها يركب كلماته وجمله . إنه يقوم بعمل المحاكاة لا الخلق ، عمل يخلو من

(١) ليشي بريل ، رقم ٨٨ ، ص ٧٦ وما يليها .

(٢) عن الكلام عن الأطفال ، أنظر خاصة :

وفارن أيضاً : (1907) Clar und william Stern' Die Kindersprache leipzig
consuletr Meumann: Die Sprache des Kindes, Zurich (1903) (Abhandlungen
herausgegeben Von der Gesellschaft für deutsche Sprache in Zürich); Ch.
Roussey, Notes sur L'apprentissage de la parole chez un enfant,
(١٨٩٩ و ١٩٠٠) M. Grammont, Observations sur le langage des
enfants, ٨٢ -- ٦١ ، ص ٩٩ ، رقم ٩٩ ، O. Bloch : Notes sur le langage d'un
enfant, ٣٧ من المقدمة و ص ١٨ ، رقم ٦ J. Ronjat, le développ. Pement du
langage observé chez un enfant bilingue, ١٩١٣ باريس

الارتجال خلواً تاماً . أما هذا النصيب من التجديد الذى يدخله فى الكلام فغير شعورى ؛ نأتج عن كسل طبيعى يقنع بما يكون على وجه التقريب ، وليس ناشئاً عن إرادة تحت سلطانها قدرة خاتمة .

فالعالم اللغوى سواء أُلجأ إلى أقدم اللغات المعروفة أم إلى لغات المتوحشين أم إلى اللغات التى يتعلم الأطفال بها الكلام ، فلن يجد أمامه فى كل حال إلا بنياناً شيد منذ زمن طويل وتعاقبت على العمل فيه أجيال عديدة خلال قرون طويلة . فتبقى مسألة أصل الكلام خارجة عن نطاق خبرته . والواقع أن هذه المسألة تحتلط بمسألة أصل الإنسان وأصل الجماعات البشرية ؛ فهى من اختصاص تاريخ البشرية البدائى . لقد نشأ الكلام بالتدرج مسيراً لتطور دماغ الإنسان ولتكوين الجماعة ، فمن المستحيل أن نقول فى أى صورة بدأ الكائن الإنسانى يتكلم ، لكن من الممكن أن نحاول تحديد الظروف التى سمحت للإنسان بأن يتكلم : وهى ظروف نفسية واجتماعية فى نفس الوقت .

أعمّ تعريف يمكن أن يعرف به الكلام أنه نظام من العلامات^(١) . فدراسة أصل الكلام ترجع إذن إلى البحث عن أى أنواع من العلامات كانت بطبيعتها فى متناول الإنسان ثم كيف أُعمل على استخدامها .

ويجب أن يُعنى بالعلامة أى رمز قابل لأن يستخدم للتفاهم بين البشر... ولما أمكن للعلامات أن تكون متنوعة الطبيعة ، أصبح هناك عدة أنواع من اللغات . فكل أعضاء الحواس يمكن استخدامها فى خلق لغة . فهناك لغة الشم ولغة اللمس ولغة البصر ولغة السمع ، وهناك لغة كلما قام شخصان فأضافا معنى من المعانى إلى فعل من الأفعال بطريق الاتفاق وأحدنا هذا الحدث بقصد التفاهم بينهما . فعطر ينشر على ثوب ، أو منديل أحمر أو أخضر يطل من جيب سترة أو ضغطة على اليد يطول أمدّها قليلاً أو كثيراً ، كل هذه تكون عناصر من لغة مادام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات فى تبادل أمر أو رأى .

ومع ذلك فهناك لغة من بين مختلف اللغات الممكنة تطغى على جميع ما عداها بتنوع وسائل التعبير التي في طوقها : وهى اللغة السمعية التى تسمى أيضاً لغة الكلام أو اللغة الملفوظة ؛ تلك وحدها هى التى سنتحدث عنها فى هذا المؤلف . وقد تصحبها بعض الأحيان اللغة البصرية ، وغالباً ما تكون مكملة لها . والإشارة عند جميع الشعوب تقطع الكلام ، وهيئة الوجه تترجم فى آن واحد مع الصوت عن الانفعالات والأفكار . والتعبير بالحركات لغة بصرية ؛ ولكن الكتابة بدورها لغة بصرية أيضاً وكذلك على العموم كل نظام من نظم الإشارات .

ولعل اللغة البصرية توازى اللغة السمعية فى قدم العهد . فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن إحداها متقدمة عن الأخرى وأكثر من هذا ليس لدينا أية وسيلة للبرهان على ذلك .

وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم مشتقة من اللغة السمعية ، وهذا ينطبق على الكتابة كما سنرى فى الجزء الخامس ، وينطبق على قانون الإشارات . وقانون الإشارات البحرية مثلاً قد جُمِعَ ليزودنا بمعادلات بصرية بدلاً من الكلمات والجل فى جميع اللغات القائمة . وهو لا يمدنا بمعلومات عن أصل العلامات باعتبارها تصويراً للأفكار . فإن اختيار هذه العلامة دون تلك بطريق الأفضلية مبنى على الاتفاق ، على الاتفاق التحكمى . وإن كان قد قُيِّدَ منذ البداية ببعض الشروط . مثل هذه اللغات بنص حدها لغات صناعية .

إننا نعرف حالة من الاستعمال الطبيعى للغة البصرية ألا وهو لغة الحركات المستعملة إلى جانب اللغة السمعية^(١) عند بعض الشعوب المتوحشة . وهنا لا يتوقف الأمر على أن يكون الكلام مصحوباً بالإشارة كما هو الحال لدى الشعوب المتحضرة ، بل يدور الأمر حول نظام من الحركات لا تستطيع وحدها التعبير عن الآراء التى يراد توضيحها ، مثلها فى هذا مثل الكلمات تماماً . وتلك لغة فطرية إلا أن لها مزاياها : إذ يمكن استعمالها على بعدٍ بين مكانين لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما وإن استطاعت العين التقاط الحركات ، ثم تمكن على وجه الخصوص من عدم إثارة

انتباه الحاضرين بضوضاء الأصوات . وتلاميذ المدارس يستعملون هذه الوسيلة الصامتة لتفاهمهم داخل غرف الدراسة . فاللغة بالحركة يمكن إذن أن يكون لها أصل نفى . ومع ذلك فكون استعمالها عند الشعوب المتوحشة من شأن النساء على وجه الخصوص يوحى بتفسير آخر . ذلك أن السبب الذى يدعو عادة إلى التفريق فى اللغة بين الجنسين يكون شياً دينياً^(١) فلما كانت الكلمات التى يستعملها الرجال محظورة على النساء ، فقد وجب على هؤلاء أن يستعملن مفردات خاصة ، وجب عليهن أن يخلقنها بأنفسهن حتى ولو اضطررن عند الحاجة إلى إحلال الحركة محل الصوت . وهكذا يمكن أن يفسر استبقاء لغة الإشارات بالإلزام الناشئ عن النواهى ولكنها ليست ، مها كان أصلها ، إلا عوضاً عن اللغة السمعية التى يجب أن تسيّر لغة الإشارة على نهجها .

ولغة الإشارات التى يستعملها الصم البكم هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية . فبالحركة يعلم هؤلاء العجزة إجراءات اللغة عند الآخرين : حيث يوضعون فى حال تمكنهم من التحدث فيما بينهم ومن قراءة ما يكتبه من يتكلمون ويسمعون . فإنما يجرى لهم استبدال حاسة مكان حاسة لوضعهم فى حال يتفهمون فيها بالعلامات .

حالة الصم البكم تدعو إلى التفكير فى أصل الاستعمال اللغوى للعلامات ، ويستطيع المرء بمناسبة أن يتساءل عما إذا كانت اللغة عند الإنسان شيئاً مكتسباً ناتجاً من التعليم ، أم على العكس من ذلك شيئاً فطرياً تلقائياً . الأطفال العاديون لا يملكون شيئاً عن هذا السؤال ، فإنهم منذ ميلادهم متيقظون أمام العالم الخارجى ؛ وهم قبل أن يصدروا أصواتاً ، على صلة بمن يحيطون بهم بواسطة حاسة السمع ؛ ويجدون أنفسهم فى اللحظة التى يتكلمون فيها ، منفهمين فى تيار التبادل الاجتماعى . أما الصم البكم فهم فى حاجة إلى أن يوقظ عندهم الشعور بالعلامة . فهم لعجزهم عن تعلم اللغة السمعية من جراء عاهتهم فى منجى من كل تأثير يقع على الأطفال الذين يسمعون من الأشخاص الذين يتكلمون . ولكنهم يرون ، ويدركون عندما

(١) Van Gennep رقم ٧٤ ص ٢٦٥ وما يليها .

يفتحون أعينهم ما يمكن أن تكون عليه المعاملة التي تشترك فيها اللغة بنصيب .
فللاجابة على السؤال المتقدم ، يجب أن يستطاع النفاذ في شعور كأن إنسانى قد بقى
بفضل عاهات ميرورثة معلماً أمام العالم الخارجى ، أو قد أقصى منذ ولادته إقصاء
تاماً عن تأثير بنى جنسه . الفرض الثانى لا يمكن ذكره دون الإحساس بسخفه ؛
وإلا فسكيف يمكن الحكم على كائنات بشرية بالعزلة عن غيرهم من بنى الإنسان
ويحرم عليهم على طريقة ما استعمال حواسهم إلى درجة أن يصير مخهم وكأنه يدور
فى غرفة مظلمة دون أى اتصال بالخارج .

نحن نعرف الاختبار الشاذ الذى قام به إسمتيك ملك مصر كما رواه هيرودوت
(ح ٢ رقم ٢) أراد الملك أن يعرف ما إذا كان الفريجيون أسبق فى العالم من
المصريين ، فأمر بتربية طفلين حديثين فى عزلة منذ ميلادها وحرم أن يسمعا أى
كلام . وعند اختبارهما بعد بضعة أشهر وجد أن الطفلين يطلبان الطعام بقولهما
« Bexos » ومعناها « خبز » بالفريجية . فاستنتج إسمتيك من ذلك أن اللغة
الفريجية أقدم من المصرية . وكان يمكن أن يستخلص من ذلك أيضاً أن ملكة
اللغة فطرية فى الإنسان . لولا أن تجربة إسمتيك تعوزها سيما الصدق وروح الجد .
هناك اختباران تبدو عليهما منذ الوهلة الأولى صفة الإقناع . وهما التجريبتان
اللتان أجريتا على طفلين ولداً أحمين كفيفين ، وكانا بذلك محرومين من الاتصال
بالعالم الخارجى . فكلنا يعرف مثلاً حالة الفرنسية ماري هيرتان^(١) Marie
Heurtin أو الأمريكية هيلين كير^(٢) Helen Keller . حالة هذه الأخيرة لها أهمية
خاصة ، فقد استطاعت الحصول على درجة كافية من التعليم ، مكنتها من قراءة
وكتابة عدد من المؤلفات فى الأدب والفلسفة بعدة لغات . وإن كتاباتها بقدر
ما تكون خالية من روح المبالغة التي أسبغها عليها الأشخاص المحيطون بها لتسمح
لنا باستخلاص دلائل غريبة .

(١) Ames en prison : Louis Arnould ، الطبعة العاشرة ١٩١٩ .

(٢) Die Entwicklung und Erziehung : Helen Keller ، W. Stern

einer Taubstummblinden برلين ١٩٠٥ .

كانت اللغة عند هيلين كبر نتيجة للتربية . يصف لنا في شيء من التأثير كتاب نشر عنها^(١) ذلك المنظر الذي توصل فيه بعد عدد من المحاولات الفاشلة إلى إيفهامها قيمة العلامة . في ذلك اليوم تمزق الحجاب الذي كان يحول بينها وبين الكون ، وتجلي الكون أمام عقلها بتلك الشبكة من العرى المعقدة التي تربط الأشياء بالكلمات . لكن فائدة هذا المنظر فردية قبل كل شيء . فهيلين كبر وجدت نفسها خارج الظروف العادية للحياة ، فظلت حالتها متسمة بسما الاستثناء . أما الأولون الذين تكلموا من البشر فلم تتفتح نفوسهم لإدراك العلامة كما وقع لتلك البائسة . فنشوء اللغة عندهم من حرمة عاهاته حتى ذلك الحين من الاتصال بالعالم ، لا يستطيع أن يعطينا فكرة عن التطور الذي حدث في مجتمع من الكائنات العادية . في أحضان المجتمع تكونت اللغة . وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم . وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم : الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة والنظرة إذا لم تكف الإشارة . فلاختبار الذي يمكن إجراؤه ، إذا ما أريد استلهم إسمتيك ، هو أن يوضع طفلان أو عدة أطفال بعضهم مع بعض يجهلون تماماً كل شيء عن اللغة بعد إقصائهم إقصاء تاماً عن كل مؤثر تعليمي . عندئذ إذا غضضنا النظر عما قد يكون عندهم من استعدادات موروثة ، فليس من شك مهما كانت جنسيتهم ، في أن يخلقوا بفطرتهم لغة لحسابهم الخاص ؛ وهذه اللغة لن تكون القرابية . ذلك بأن الحاجة توجه العضو حتماً إلى العمل . ولا بد أن الأشياء عند البدء وقعت على هذا النحو . فاللغة وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى ، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي . وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات وقد دانت بنشوءها إلى وجود احتشاد اجتماعي .

لم تولد اللغة كحدث اجتماعي إلا يوم أن وصل المخ الإنساني إلى درجة من النمو

تسمح له باستعمالها . فلم يأت لكائنين بشريين أن يخلقوا لغة فيما بينهما إلا لأنهما كانا ممهدين لهذا العمل . فحال اللغة حال جميع المحترعات البشرية . كثيراً ما احتدم الجدل حول معرفة ما إذا كانت اللغة الإنسانية واحدة الأصل أم متعددة وهذه مسألة لا طائل من ورائها . ففي اليوم الذي يضيف تقدم الذكاء الإنساني درجة جديدة من الكمال ، يحدث الكشف الجديد من ذاته وفي بقاع متعددة في نفس الوقت . فهو منتشر في الهواء كما يقول العلماء ويشعر الإنسان بمجيبته ، كما يتوقع وقد أقبل الخريف ، سقوط الفواكه الناضجة في أحد البساتين .

من الوجهة النفسية ، ينحصر الفعل اللغوي الأساسي في إعطاء قيمة رمزية للعلاقة . هذه العملية النفسية تميز لغة الإنسان من لغة الحيوان ^(١) فمن الزيف أن يقال في المقارنة بين تلك وهذه بأن الثانية لغة طبيعية في حين أن الأولى لغة صناعية توافقية . لغة الإنسان ليست أقل طبيعية من لغة الحيوان ، ولكنها من درجة أعلى من حيث إن الإنسان ، وقد أعطى للعلامات قيمة موضوعية ، جعل هذه القيمة تتنوع بالموافقة إلى مالا نهاية . الفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان مستقر في تقويم طبيعة العلامة ^(٢) . والكلب والقرد والطائر تتفاهم مع بنات جنسها ؛ فإن لها صيحات وحركات وأغاني تقابل حالات نفسانية خاصة من الفرح والزعج والرغبة والشهية ؛ بعض هذه الصيحات تلتئم مع بعض حاجات خاصة إلتئاماً يكاد يمكن من ترجمتها في جملة من لغة الإنسان ؛ ومع ذلك فإن فصائل الحيوان لا تصدر تجلاً ^(٣) ؛ لأنها عاجزة عن تنويع عناصر صيحاتها ، مهما بلغت هذه الصيحات

(١) Steintal ، رقم ٢٠٧ ، ص ٣٢٤ — ٣٥٨ R. M. Heyer ، رقم ٣٠ مجلد ٢ ص ٣٠٧ .

(٢) هذا الرأي قد أوضحه بوسويه إيضاحاً تاماً ، إذ يقول : « يمكن أن تتأثر لغات الحيوان بالصوت باعتباره هواء مدفوعاً مثلاً ، لا باعتبار أنه دال بنظامه على ذلك الذي يسمى كلاً وسماعاً بمعنى الكلمة » . (المنطق ج ١ ، ٢٤) . وقارن *Traité de la Connaissance de Dieu et de soi-même* فصل ٥ النقطة ٥ : « أما أن يقرع الصوت أو الكلام الأذن ثم المخ من حيث إنه يشير الهواء ، فهذا شيء ، وشيء آخر هو أن ينظر إليه على أنه علامة اتفق الناس عليها ، وأن يتذكر بواسطته الأشياء التي يدل عليها . هذه الناحية الأخيرة هي التي تسمى سماع اللغة ؛ وليس منها أى أثر عند الحيوان » .

(٣) *Pseudo-langage : L. Boutan* ، بوردو ١٩١٣ ، *Actes de la société linnéenne de Bordeaux* ؛ وقارن ميه رقم ١٨ مجلد ١٨ ص ١٧٧ .

من التعقيد ، على نحو ما تنوع نحن كلماتنا التي تكون في الجملة عناصر استعاضة .
أما بالنسبة لها فإن الجملة لا تتميز عن الكلمة ولكن هناك ما هو أهم من ذلك :
فهذه الكلمة نفسها ، صريحة أ كانت أم إشارة ، كما يحولنا أن نسميها ، ليست
لها قيمة موضوعية . ومن ثم لم تكن موضوعاً للموافقة ، وينجم عن ذلك أن لغة
الحيوان ليست قابلة للاقلاب ولا للتقدم ؛ وليس هناك ما يدل على أن صرخة
الحيوان كانت في الماضي تختلف عما هي عليه اليوم . فالطائر الذي يدفع بصيحة
ينادى بها اليسد التي تحمل له ورقة من الخس ، لا يشعر بصيحته على أنها علامة .^(١)
ولغة الحيوان تستتبع نوعاً من التلازم بين العلامة والشيء المدلول عليه بها .
وينبغي للتخلص من هذا التلازم وحتى تأخذ العلامة قيمة مستقلة عن الشيء
أن تكون هناك عملية نفسية ، هذه العملية النفسية هي نقطة البدء في لغة الإنسان .
كان على مسائل الاثروبولوجيا أن تنير لنا بعض ما غمض علينا من لغز التطور
النفسى في الإنسان . فهذا العلم يقرر أن جماجم سكان الكهوف من البشر تشبه
جماجم القروء العليا . في الجمجمة التي عثر عليها في «La Chapelle aux-Saints» ،
نرى أن المكان المخصص للتلافيف التي يقرر أنها مركز الكلام ضئيل غاية الضآلة .
وإذن يجوز أن يفترض أن نشوء الكلام قام على تطور طبيعى للمخ الإنسانى . مثل
هذا الفرض لا يلزمنا أن نسلم دون تحفظ بنظرية بروكا Broca المشهورة في تحديد
المراكز المخية^(٢) . فمن المعروف أن هذه النظرية قد فقدت الكثير من سلطانها
القديم ؛ بل أن بعض الحوادث الحديثة قد رأت أن تطعن في الصميم . ولكن
الذى يمكن أن يؤخذ عليها بوجه خاص أنها تبالغ في تبسيط مسألة في غاية من
التعقيد . فبروكا ، عند ما يعين مركز الكلام في التلافيف الثالث من ناحية الجهة

(١) في لغة الطير ، أنظر الملاحظات القيمة التي كتبها الأستاذ بريال في «Revue des
revues» مجلد ٣٣ عام ١٩٠٠ ص ٦٢٩ — ٦٣٢ (وأعيد نشرها في رقم ٤ مجلد ١١
ص ١١٠ — ١١٥ .

(٢) عن هذه المسألة ، أنظر العرض الإجمالى المتبع الذى نشره Dagnan - Bouveret
رقم ١٠ مجلد ١٦ عام ١٩٠٨ ص ٤٦٦ وما يليها . وراجع أيضاً أعمال الدكتور
ب. مارى P. Marie وكتاب الدكتور L'aphasie de Broca : F. Moutier باريس ١٩٠٨

اليسارية لا يقرر إلا شيئاً تقريباً بعيداً كل البعد عن الدقة ، وبوجه خاص عندما يقول بأن المخ يحتوى على مناطق كبرى متميزة تقابل مناطق العقل الكبرى ، يخدع نفسه فيما يخص الروابط التي بين اللغة والتفكير . من الزيف أن تتصور أن المخ قد بنى على مثال النحو وأنه قد قسم إلى أقسام لكل جزء من أجزاء الكلام قسم منها . فجملة الحقائق اللغوية موزعة في المخ ، على طريقة أكثر حرية ، وأكثر اتساعاً مما افترض بروكا . أغلب الظن أن حوادث تعطل الكلام من ناحية الحركة ، تلك الحوادث التي تركز عليها نظرية بروكا ، ترجع عادة إلى خلل موضعي ؛ أما تعطل الكلام من ناحية الحس كما عرفه فرنكه Wernicke يفترض غالباً نقصاً عقلياً عاماً ؛ ومن جهة أخرى غالباً ما يحصل في مثل تلك الحال ظواهر تعويضية حيث تقوم مراكز مجاورة بوظيفة المراكز التي أصيبت بالخلل . وأخيراً فإن الطبقات الغلافية مرتبة على نحو ما يؤدي إلى أن أى خلل يمكن أن يحدث اضطرابات مختلفة حتى ولو كان في تليفية الجهة اليسرى ، وذلك على حسب النقطة التي يصيبها الخلل من التليفية .^(١) وبالاختصار ، إذا كانت محلية الكلام لا يناعز فيها من حيث المبدأ فإن تفاصيل التحديد في حاجة إلى إعادة النظر فيها من جديد . إذن يجب الحذر في تفسير المسائل التي تقدمها لنا أنثروبولوجية ما قبل التاريخ . فإننا إذا أخذناها على شكل ضيق وأخذنا نقيس حجمه إنسان المغاور على نحو ما نقيس حجمه واحد من المعاصرين ، تعرضنا لاستنتاج أن صاحب الجمجمة الأولى كان فاقداً للكلام . ومن اليقين أن ذلك يتقهقر بمبدأ تطور اللغة والإنسانية إلى أمد بعيد . ولكن الذي لا شك فيه أن مخ رجل المغاور كان أقل استعداداً للنشاط اللغوي من مخنا .

عند هذا السلف البعيد الذي لم يكن مخه صالحاً للتفكير بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة . ولعلها كانت في الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوي^(٢) أو صيحة كصيخة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح وتكشف عن

(١) Wundt رقم ٢٢٣ مجلد ١ ص ٤٩٤ .

(٢) K. Bücher : Arbeit und Rhythmus الطبعة الثالثة ليزر ١٩١٢ .

خوف أو رغبة في الغذاء . بعد ذلك ، لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون ؛ ولعل الإنسان قد وجد في تناول يده هذا المسلك المريح ، قد استعمله للاتصال بيني جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه . ولا بد أن اللغة ، قبل أن تكون وسيلة للتفكير ، كانت في الواقع وسيلة للفعل وواحدة من أنجع الوسائل التي يمكن منها للإنسان . وما أن استيقظ في ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب ؛ وكان تقدم الجهاز الصوتي يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ . وكان تثبت اللغة في داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التي تحكم كل مجتمع . وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون في احتفالاتهم الجماعية نفس المظاهر الصوتية أو الغنائية .^(١) وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقها كل فرد في نفسه لاستعماله الشخصي . ثم قليلاً قليلاً ، وبفضل الاتساع المتزايد في التبادل الاجتماعي تكون أخيراً هذا الجهاز المعقد الذي لا يُجارى في ثرائه أيكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار ، عن كل العواطف والأفكار .

هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق وإن لم يكن مما يمكن البرهان عليه . ومن مزاياه أنه يفهمنا كيف كانت اللغة نتاجاً طبيعياً للنشاط الإنساني نتيجة لتطابق ملكات الإنسان على حاجاته الاجتماعية .^(٢) غير أنه يجب البدء من الشعور بالعلامة . وإذا ما حصل على هذه الحقيقة تابعت اللغة . كلها بطريق التنويعات المتتابعة .

* * *

إنه لمن المجازفة بعد الذي قيل في الصفحات السابقة أن نعمد إلى تحديد أدق وأن نسمى إلى معرفة الكيفية التي جرى عليها التخالف (Différenciation) . والمراحل التي مر بها منذ صيحة الإشارة حتى وسائل التعبير الكثيرة التنوع التي تقوم عليها ثروة لغة كاللغة الفرنسية . ومما يطلب إلى العالم اللغوي ، اعتماداً على

(١) بورنسكي رقم ١٤٦ ص ٣٨ .

(٢) « لما كان الكلام هو النظام الاجتماعي الأول فإنه لا يدين بصورته تلك إلا لأسباب طبيعية » . ج . ج . روسو : « بحث في أصل اللغات » .

الفكرة القائلة بأن كل لغة فيها أجزاء أساسية تتميز عن الإضافات اللاحقة ، أن يحدد هذا العالم طبقات اللغة المختلفة وأن يميز منها الأجزاء التي كانت لها الأولية في التكوين . وقد يتجازف العالم فيلقى بالجواب في بعض الأحيان . ولكن يجب أن نعترف في شجاعة بأن كل هذه الأجوبة لا قيمة لها . فالطريقة التي تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول عاجزة هنا ، لأن المبادئ التي يبني عليها تطور اللغات التي نعرفها لا تنطبق ضرورة على لغات كان يتكلمها أفراد تتجه عقليتهم اتجاهها يخالف اتجاهنا . ودراسة اللغات تعلمنا أن نشوء اللغات ونموها لا يتم في تتابع منطقي ملتزماً في سيره طريقاً مستقيماً . فن الخطأ أن نتصور أن الخطوة التي بنيت عليها دراسة « الپور رويال » النحوية قد فرضت نفسها منذ البداية على العقل الإنساني ليتخذ منها إطاراً يملؤه بالتدرّج وعن طريق التتابع المنظم .

هذا وإنه ليوحد بين العلامة والشيء المدلول عليه بها ، بين الصيغة اللغوية ومادة التصوير أي رباط مستمد من الطبيعة ، ولكنه رباط مأخوذ من الظروف فحسب . ولقد ساد زمناً طويلاً الاعتقاد بأن الحقيقة الأولى للغة كانت تقوم على إعطاء أسماء للأشياء ، أي على خلق مفردات . وتلك هي الفكرة التي عبر عنها لكريس Lucrèce في بيته الذي كثيراً ما ينشد وهو :

Utilitas expressit nomina rerum,

« إن الضرورة هي التي تخلق السميات » ،

الذي يعزو فيه بحق اللغة إلى سد الحاجات . وفي القرن الثامن عشر في فرنسا حاول الرئيس دي برس De Brosses ^(١) أن يفسر الصورة الخارجية للكلمات بالمعاني التي تعبر عنها هذه الكلمات . وكان غرضه أن يكتشف للأصوات نوعاً من الرمزية ، رغم أن الأولين من البشر استخدموها في خلق كلماتهم . هذا المشروع لا يثير في أيامنا هذه إلا الابتسام . فإن ماهو مهم ليست تسمية الأشياء بهذه الكلمة أو تلك ، وإنما هو إعطاء الكلمات بنوع من الاتفاق الضمني بين المتكلمين قيمة اسمية ، إنما هو اتخاذها وسائل للتبادل ، كما استعويض عن مقايضة الأشياء بعضها ببعض بالنقود أو بالأوراق النقدية .

(١) Traité de la formation mécanique des langues باريس ١٧٦٥ ،

وغارن R. M. Meyer رقم ٣٠ مجلد ١٢ ص ٢٤٣ .

بعض علماء اللغة ممن هم أقرب إلينا قد تخيلوا نظريات ذهبوا بمقتضاها إلى أن كل المفردات قد خرجت من صيحة تشبه نباح الكلب أو من سلسلة من الأصوات توحى بتمثيل الأشياء عن طريق المحاكاة ^(١) . وكان في هذا الوقت نفسه أن راح العلماء المشتغلون بالقيديا يفسرون كل الأساطير بنار البرق أو مسير الشمس . وكلا الفريقين من علماء اللغة وعلماء الأساطير كانوا في ذلك الحين يعنون بإدراك الأشياء على نحو ساذج . وكانوا يتناقشون لمعرفة ما إذا كانت اللغة قد بدأت بالاسم أم بالفعل : الفعل الذي يعبر عن الحدث والاسم الذي يعبر عن ماهية الأشياء وصفاتها . ولكن مما بدا لنا من الاختلاف بين الاسم والفعل ، فإن التعارض بين « قطبي » نحونا هذين ليس أمراً ضرورياً ؛ وإلا فإذا يعنى نباح الكلب : أيعنى « أنا جوعان » أو « أعطنى ما آكل » أو « هذا حسن » أو « انتهيت من الأكل » ؟ لا هذا ولا ذاك أو كل هذا معاً ؛ ويمكننا أن نقسره على السواء بفعل أو باسم ، بالأمر أو بالماضى . وقد بقى ، رغم كل ما بذل من جهود بين النباح البدائى وأقدم ما عرف من لغاتنا ، فراغ يتعذر سدّه .

وما أغرى العقول بالبحث عن الصور البدائية للغة إلا المقارنة التى كانت تقام بين علم اللغة والعلوم الطبيعية ، من جغرافية ونبات وحيوان . وقد جرّت هذه المقارنة غير الصحيحة إلى أخطاء مرذولة ؛ فإذا أريد إيجاد نوع معادل للغة وجب البحث عنه على الأصح فى التاريخ الاجتماعى . وكان ميشيل بريال Michel Bréal مأخوذاً بمقارنة تصريف الفعل فى اللغة الهندية الأوروبية « بتلك النظم السياسية والقانونية الكبيرة — البرلمانات أو مجلس الملك — التى رأت نفسها بعد أن ولدت من حاجة أساسية تنوع وتمدد من سلطان اختصاصاتها حتى حلّ زمن جديد فوجد هذا الدولاب ثقيلاً فى مجموعته ، فشطر منه جزءاً ومزق وظيفته بين عدد متباين من هيئات حرة ومستقلة ، وإن كانت لا تزال تشترك فى الخطة التى

(١) أنظر التفاصيل فى جيسپرسن Jespersen ، رقم ١٣٤ الطبعة الثانية ، ص ٣٣٠

وما يليها ، وبورنسكى ، رقم ١٤٦ ، ص ١١ وما يليها ثم ص ٣٩ .

بنيت عليها منذ المبدأ إلى حد ما وبشكل يدلّ بوضوح على تضامنها القديم. (١) «
هذه المقارنه يمكن أن تطبق على اللغة في عمومها لأن اللغة إحدى هذه النظم
ومع ذلك ففي اللغة عناصر أكثر ثباتاً وأقل خضوعاً للتحكم الإنساني مما في النظم
السياسية. وهذه العناصر هي في الواقع الأصوات التي سنبدأ بها هذه الدراسة.

الجزء الاول الأصوات

الفصل الأول

المادة الصوتية^(١)

إن ما يسمى صوتاً هو الأثر الواقع على الإذن من بعض حركات ذبذبية للهواء .
والذبذبات في اللغة يحدّثها الجهاز الصوتي للمتكلّم . والعلم الذي يبحث في الأصوات ،
أو بعبارة أخرى علم الصوتيات ، يجب أن يشتمل على ثلاثة أجزاء : الجزء الخاص
بإنتاج الصوت والجزء الخاص بانتقاله ، والجزء الخاص باستقباله . فالإنتاج والاستقبال
ظاهرتان متساويتا الأهمية في اللغة إذ أنه يجب لتكوين هناك لغة ، أن يوجد متحدثان
على الأقل وأن يوجد السكّلام مقصوداً به أن يسمع . هذا إلى أن استقبال الصوت ،
أو بعبارة أخرى السماع يلعب دوراً هاماً في انقلابات اللغة ؛ فن طريق الأذن يحصل
كل متكلّم نظامه الصوتي ويثبته . فن الوجهة النظرية لا يمكن أن يستكثر على السماع
أى مكان ، مهماً كبر ، يخصص له في دراسة اللغة .

ومع ذلك فالواقع أن علم الصوتيات قد حصر مجهوده زمنياً طويلاً في دراسة
إنتاج الصوت .

علماء اللغة لا يكادون يشتغلون بالسماع ؛ بل يتركون دراسته إلى علماء وظائف
الأعضاء . وهذا التجديد له ما يبرره ففيما يخص اللغة لا يكون للصور السمعية لسماع
قيمة إلا إذا كان هذا الأخير جديراً بتحويلها إلى صور محرّكة ليصير بدوره

(١) راجع بصفة عامة مؤلفات رسلو Rousselot وروديه Roudet وپوارو Poirot
وياسيه Passy وسويت Sweet وجيسرسن و . ا . غيرل سكرپتر E. Wheeler
وفيتور Vietor وجوترمان Gutzmann وسيفرز Sievers وتروتمان Trautman .

متكلماً . وبعبارة أخرى يجب أن يكون السامع حائزاً بالقوة على ما يحققه المتكلم بالفعل . على هذا الشرط يتوقف وجود الكلام . ويترتب على ذلك أنه يمكن إسقاط الجزء السمعى من اللغة فى دراسة الصوتيات مادام السامع يفترض وجود قوة مساوية من إحداث الصوت عند ما يتكلم شخصان لغة واحدة فيما بينهما . فليس هناك فى الواقع إلا وجهان من وظيفة واحدة ؛ وحدودها واحدة . نعم أغلب الظن أن تحليل المراكز العصبية يسمح بالتمييز بينهما ؛ ولكن هذا التحليل ليس من اختصاص علم الصوتيات .

يظهر أن انتقال الصوت يكون فى أيامنا هذه الموضوع الأساسى من دراسة علماء الصوتيات^(١) ؛ فالواقع أنهم أميل إلى الاشتغال بالتوجات ؛ ذلك الميدان الشاسع من البحوث الذى يجنح نحو علم الطبيعة البحتة ولا يمكن الاقتراب منه دون تحضير رياضى متين . ومن هنا اكتسب علم الصوتيات دقة غريبة ؛ فقد أصبحت لديه الوسيلة لتحديد الأصوات بعدد الذبذبات التى تحددها صورها ؛ أما نحن فسنقف هنا عند عادات المدرسة القديمة فنقتصر على دراسة إنتاج الصوت ، أعنى التصويت phonation ، وعلى وصف نتائج التصويت ، يعنى « الأصوات » .

* * *

يشتمل جهاز الإنسان الصوتى على الأجزاء الرئيسية الآتية : منفاخ ، هو الرئتان ، وقناة صوتية هى القصبة الهوائية ، وهى مغلقة من طرفها الأعلى بواسطة تضخم مزدوج ، وهو ما يسمى بالأوتار الصوتية ، أو فتحة الحنجرة Glotte بالاختصار ؛ فهو آلة هوائية ، آلة ذات مبسم مزدوج . ويسدو من نظام الحنجرة سمو الجهاز الإنسانى على جميع الآلات الأخرى . والأوتار الصوتية على جانب من المرونة لا يصل إليها مبسم الزمار الموسيقى الذى هو صلب بالضرورة . وتستطيع هذه الأوتار ، بفضل نظام للخرقة لطيف التدوير يدير عدة أزواج من العضلات ، أن تأخذ أوضاعاً مختلفة . فيمكن إبقاؤها مغلقة أو فتحها فتحاً تاماً أو شبه تام

(١) أنظر خاصة رسالو رقم ١١٥ وپوارو رقم ١٩١ .

وجعلها تتذبذب كلا أو جزءاً والتعديل من مقدار توترها . ومن هنا تنتج تنوعات المصادر التي يغترف منها التكلم .

ومع ذلك فإن هذا الجهاز الصوتي يكون ناقصاً لو أنه كان مكوناً من الحنجرة وحدها ؛ وما كان يستطيع في هذه الحال أن يسمع إلا الحركات ويسمعه على درجة من التخالف أقل بكثير مما ننتقها به عادة .

الواقع أن التيار الهوائي الذي تدفعه الرئتان يحدث الصوت بذبذبة للأوتار الصوتية . ولما كانت الذبذبات تستطيع الاستمرار بقدر ما تسمح به كمية الهواء المخزنة ^(١) وكان يمكنها من جهة أخرى تغيير الصوت من حيث الإشباع amplitude والقوة force ، كان للصوت إذن ثلاث صفات مميزة وهي : الطول durée والحدة الموسيقية hauteur musicale والشدة intensité كما أنه يختلف هو نفسه تبعاً للحركات ، من حيث أن حركة العضلات تسمح بارتفاع فتحة الحنجرة وانخفاضها بحيث تطيل القناة الصوتية أو تقصرها .

ولكن التكملة اللازمة للجهاز الصوتي تأتيه من التجاويف التي تفتح عليها الحنجرة ، أعني تجاويف الحلق pharynx والحفر الأنفية وخاصة تجويف الفم . وجوانب هذه التجاويف جميعها ، وهي مطاطة إلى حد كبير ، تقوم للصوت مقام فراغ رنيني فتخلع على كل صوت طابعه الخاص . ويوجد في هذا التجويف الرنان أعضاء مرنة قابلة للسحب تستطيع أن تعدل أبعاده وتغير من طاقته ؛ فعندنا أولاً غشاء سقف الحلق ويستطيع أن يغلق الطريق المؤدى إلى الحفر الأنفية فيمنع حدوث أى رنين من هذه الناحية ؛ ولكن اللسان بوجه خاص هو الذي يلعب مع الحنجرة الدور الرئيسى في التصويت . فعند إصدار الحركة (a) أى الفتحة يكون اللسان على وجه التقريب مسجى في الفم في وضع مسطح ؛ ولكن عندما يدور الأمر من حول حركات أخرى ، يغير اللسان من وضعه ليكون الرنين المناسب لكل منها . فتارة يتقدم إلى الأمام ويرتفع ليقفل من سمة الجزء الخلفي من الفم ،

وتارة يرجع إلى الخلف مقلداً من سعة الجزء الأمامي . في الحالة الأولى يصير اللسان عامل الرنين للحركات المسماة بالحركات الخلفية أو حركات أقصى الحنك وهي ، ابتداء من a ، e مفتوحة و o مقفولة و i مفتوحة و i مقفولة . وفي الحالة الثانية تنتج الحركات المسماة بالحركات الأمامية أو حركات مقدم الحنك . أعني ، ابتداء من a أيضاً u المفتوحة و u المقفولة و u المفتوحة و u المقفولة .^(١) في كل واحدة من السلسلتين ، الخلفية والأمامية ، نرى أن ال i وال u هما أكثر الحركات انفتاحاً ، وهما الحركتان اللتان فيهما يصل وضع اللسان إلى أقصى حد في الارتفاع ، أى إلى أقرب وضع من غشاء الحنك . أما ال a فهي أكثر الحركات انفتاحاً . هذا إلى أنه يوجد لكل حركة أنواع مختلفة الطابع تقابل عوامل الرنين المتباينة وتتبع أوضاع اللسان المتنوعة . فال a في فرنسية باريس تنطق على صور ثلاث من اليسير على الأذن أن تفرق بينها : ففحن نطق a مقفولة في pâte و a مفتوحة في patte ومتوسطة في carotte .

ليس اللسان وحده هو الذي يلعب دور تكوين عامل الرنين الخاض بكل حركة إذ لا ينبغي أن ننسى الشفتين اللتين يختلف وضعهما مع كل حركة . وهناك منظر مشهور من مناظر مسرحية مولير « النبيل البرجوازي » « Bourgeois Gentilhomme » يعلمنا في شيء كثير من الدقة أوضاع الشفتين عند إصدار الحركات . وفقرة لديني داليكرناس Denys d'Halicarnasse ، ترينا كيف كان الإغريق يعرفون في هذا الصدد بقدر ما عرف معاصرو مولير ، وإن لم يكن الإغريق من المبرزين في الصوتيات . والواقع أنه يلاحظ أن الشفتين ، عند ما تنطق بال u تمتدان إلى الأمام وتستديران كما في حالة (التبويز) ؛ وعند نطق ال i تنفجر زاويتي الشفتين لترجعا بهما إلى الوراء . هذان هما الوضعان المتطرفان ، وبينهما أوضاع تقابل نطق ال o (مفتوحة أو مقفولة) وال e (مفتوحة أو مقفولة) . وقد استفادت اللغة من وجود الأوضاع الشفوية

(١) يرسم هنا « U » على حسب المتبع في الصوتيات ، ما يكتب بالفرنسية « OU » أى الضمة الصريحة .

والأوضاع اللسانية معاً خلق سلسلة مركبة منهما ، هي سلسلة آل eu . فتركيب الوضع الذى يتخذ اللسان فى نطق الحركات الخلفية (i , é , è) ، والوضع الذى يتخذ الشفتان فى الحركات الأمامية (u , ô , ô) ، يمكن إلى حد يكاد يكون مضبوطاً من النطق بالأصوات الفرنسية الثلاثة eu مفتوحة فى (beurre) و eu مقفولة فى (quene) و u فى (flûte) ، وهذه الأخيرة ترسم فى الكتابة الصوتية على العموم ii .

وتختلف أنواع الحركات من لغة إلى أخرى اختلافاً كبيراً ، فالإنجليزية مثلاً لا يكاد يكون فيها حركة واحدة تشترك فيها مع الفرنسية .

* * *

تقسم الأصوات عادة إلى سواكن وحركات . هذا التفريق يمكن تبريره من الوجهة العملية بتعريف المقطع (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل الثالث) ؛ ومع ذلك فإن نفس الأصوات يمكن أن تلعب فى المقطع دور الساكن أو دور الحركة على السواء . وإذا كان بين الاثنين فرق فى الوظيفة ، فليس بينهما فى الواقع أى فرق فى الطبيعة ، والحد الذى يفرق بينهما ليس حداً فاصلاً . فالسواكن والحركات تكون جزءاً « من سلسلة طبيعية ولا يتضح الفرق بين عراها بجلاء فى طرفها » .

فى أحد طرفى السلسلة توجد الحركات a أو e أو o على نحو ما عرفناها ، وفى الطرف الآخر توجد السواكن الانفجارية p و t و k . هذه السواكن ليست إلا نوعاً من الضوضاء ؛ وتقوم على أن الهواء يتوقف مؤقتاً بفعل عقبة تصادفه لدى عبوره . والعقبة توجد فى الفم على وجه العموم ؛ وتكونها الشفتان أحياناً وطرف اللسان تارة وظهر اللسان تارة أخرى . فى الحالة الأولى يسكون الانفجار شفويّاً وفى الثانية أسنانياً وفى الثالثة حلقياً . ولكن هناك من الانفجارات أيضاً ما تكون نقطة نطقه فى أقصى الفم : وهى أصوات من وسط الحلق أو من أدناه أو من أعلاه .

ولما كان إغلاق الفم يقع فى نقطة انطباق واحدة لا تتغير ، لم يكن هناك

انغلاق شفوى إلا واحد فقط صامت ؛ ومن ثم كانت الـ P من حيث نقطة الإغلاق واحدة في كل اللغات إذا استثنينا الاختلافات في القوة . أما طرف اللسان فتحرك على العكس من ذلك ، وظهر اللسان يستطيع أن يتنقل على طول امتداد الحنك الصلب والحنك الرخو . فهناك إذاً مواضع تماس متنوعة ، ويمكن أن تتصور ، تبعاً لنقطة الإغلاق ، عدة أنواع من الأسنان والحلقية . وفي غالب الأحيان ينطبق طرف اللسان على الأسنان العليا ، ولذلك يسمى الساكن الذي ينتج على هذا النحو أسنانياً ، كما هي حال التاء العربية و « t » الفرنسية . ولكنه يستطيع أن يتركز أيضاً على أصول الأسنان ، كما هي الحال بالنسبة للأسنان الإنجليزية « t » take وفي tire الذي هو من أصول الأسنان . وأخيراً يمكنه بشيء من التقلص أن يمس سقف الحنك ، فنحصل على ما يسميه بعض علماء اللغة بالقمية Cacusmiales أو المخية Cérébrales وما هي إلا فروع من الأسنان كذلك التي تخرج من أصول الأسنان .

أما ما نسميها بالحلقية فإنها تتضمن فروعاً أكثر من تلك عدداً ؛ إذ يكفي أن تلمس أى نقطة من ظهر اللسان أى نقطة من سقف الحنك حتى نحصل على صوت جلقى . فإذا حصل الانفجار على جزء الحنك الصلب ، حصلنا على واحد من أدنى الحنك (الكاف k في الكلمة الفرنسية qui) ؛ وإذا وقع على الحنك الرخو في اتجاه الغشاء الحنكي حصلنا على واحد من أقصى الحنك كالـ k الألمانية في kuh . وأصوات أقصى الحنك وأدنى الحنك تشمل عدة فروع ؛ فيمكننا أن نميز مثلاً بين الأصوات الحنكية الأمامية والحنكية الخلفية ، بحسب ما إذا كانت نقطة التماس متقدمة قليلاً أو كثيراً بالنسبة للحنك الصلب .

بعد أن عرفنا نقطة التماس على هذا النحو ، لنبحث الآن آلية الانفجار . يطرد الهواء من الرئتين ؛ فيعبر الحنجرة وهي مفتوحة ساكنة ؛ وينفذ إلى التجويف الحنكي حيث يوقف فجأة عند الشفتين أو عند الأسنان أو في الحنك على النحو الذي وصفناه . ثم فجأة يكف التماس ، ويستطيع الهواء أن يستمر في مسيره نحو الخروج . ففي كل ساكن انفجاري إذن ثلاث خطوات متميزة :

الإغلاق أو الحبس ، والإمساك الذي قد يكون طويل المدى أو قصيره والفتح أو الانفجار^(١) عند إصدار ساكن بسيط مثل التاء t ، فإن الانفجار يتبع الحبس مباشرة ؛ والإمساك يضؤل إلى مدى لا يكاد يحس . وعلى العكس من ذلك ؛ تظهر الخطوات الثلاث بوضوح فيما يسمى بالسواكن المضعفة ، وهي ليست إلا سواكن طويلة ، كما أنها تنطق بقوة أشد مما في حالة القصيرة . فإذا تركنا مسألة الشدة جانباً وجدنا أن مجموعة مثل (ata أتا) تتميز عن المجموعة (ata آتا) بوجود مسافة بين الحبس والانفجار يمكن للأذن أن تقدرها . ومن الخطأ أن يقال بأنه يوجد ساكنان في آتا atta وساكناً واحداً ata آتا ، فالعناصر المحصورة بين الحركتين في كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انحباسي يتبعه عنصر انفجاري . ولكن بينما نجد العنصر الانحباسي في ata يتبعه العنصر الانفجاري مباشرة ، نجده في atta منفصل عنه بإمساك يطيل مدى الإغلاق .

الفرق بين عنصري الانحباس والانفجار يكون محسوساً عند ما يكون هناك انتقال في نقطة التماس . لتتصور أن طرف اللسان أعتمد على الأسنان في لحظة مرور الهواء ، ولكن ظهر اللسان انطبق فجأة - بعد أن تم الإغلاق - على الحنك ليحصل الفتح وهو في هذا الوضع ؛ في هذه الحال نحصل على تاء t انحباسية وكاف k انفجارية أى على المجموعة tk تك ، في atka مثلاً . وبالعكس إذا حصل تماس أولاً بظهر اللسان واعتمد طرف اللسان على الأسنان في أثناء الانفجار ، فإننا نحصل على كاف k انحباسية تتبعها t انفجارية كما في المجموعة akta أكتا .

ويمكننا مما سبق ، أن نحكم على الفرق الذي يفصل بين حركة مثل الفتحة a وبين ساكن مثل التاء t . من جهة وظائف الأعضاء ، لا يوجد اشتراك بين هذين الصوتين إلا في كونهما ناتجين من هواء مدفوع من الرئتين . غير أنه يوجد بين هذين الطرفين من سلسلة الأصوات مكان لكثير من الأصوات الوسطى .

(١) روزابلي Rosapelly : Valeur relative de l'implosion et de l'explosion :

dans les consonnes occlusives مجلد ١٠ ، ص ٣٤٧ — ٣٦٣ .

لنتصور أولاً أن الإغلاق غير محكم وأنه يسمح للهواء بمنفذ معها كان ضيقاً ،
فبدلاً من أن نحصل على انفجاري أي مؤقت فإننا نحصل على رخو أو احتكاكي
spirante ، الذي يسمى أيضاً احتكاكياً fricative لأنه يتميز بضوضاء احتكاك .
لم يعد الأمر هنا يدور حول الباب المغلق الذي يفتح فجأة ليسمح للهواء المخزن
بالمرور ؛ بل هو الباب الذي يظل على معارضته ويسمح للهواء بالصفير .

وبالطبع تسمح الاحتكاكيات بجميع نقط النطق التي للانفجارية ؛ ففي كل
نقطة من نقط التماس التي تنتج فيها هذه الأخيرة يمكننا أن نتصور انغلاقاً
مقابلاً طالما تدع الشفتان أو طرف اللسان أو ظهره منفذاً لتسرب الهواء . وهناك
انغلاقية أسنانية شفوية (الفاء f الفرنسية) وأسنانية (السين s الفرنسية)
ومن أصول الأسنان (الثاء الإنجليزية th في thick و thank) وحنكية مثل
(cli الألمانية في ich) ومن وسط الحنك médio-palatale (الشين ch الفرنسية
في cheval) ومن أقصى الحنك Vélair (مثل الخاء ch الألمانية Buch) ،
مع كل الفروع التي تحتلها الاختلافات في الوضع . وهناك أيضاً في أقصى
التجويف الحنكي احتكاكيات أو حلقيّة أو من أدنى الحلق أو من الحنجرة مثل
العين العربية .

وتوجد سلسلة من الأصوات اللغوية المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية ؛
وهي ما تسمى شبه الانفجارية Semi-occlusives أو بعبارة أوضح الانفجارية
الاحتكاكية affriquées وتتميز بالإغلاق الذي لا يستمر إحكامه . وفيها كما في
الانفجارية حبس ؛ ولكن هذا الحبس يتبعه حركة خفيفة من الفتح ، بحال يجعل
الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي . فالانفجاري الاحتكاكي affriquée انفجاري
فاشل . بعض اللغات يكثر من استعمال الانفجارية الاحتكاكية ، ويمكن رسمها
صوتياً هكذا pf ، و ts ك kch وقد بقي هذان الأخيران في لهجات ألمانيا
الجنوبية زمناً طويلاً ؛ ويمكن حتى الآن أن نسمع بوضوح الك kch في الألمانية
المتكلمة في بياريا وسويسرا .

وإننا مع الانفجارية الاحتكاكية ، بل حتى مع الاحتكاكية ، مازلنا بعيدين

جداً عن الحركات . ومع ذلك فإنه لما كانت الاحتكاكية والحركات تشتركان في الدة ، كانت المسافة بينهما أقرب من المسافة التي بين الحركات وبين الانفجارية ، إذ يمكننا إطالة الفاء f والسين s والشين ch كما نشاء على قدر ما تسمح به الرئتان . ولكن هناك وسيلة لتقريب ما بين الحركات وبين الانفجاريات أو الاحتكاكيات أو الاحتكاكيات الانفجاريات : وذلك بأن نمدها بالرين .

لقد افترضنا حتى هنا بقاء الشفتين والحنجرة في حالة سكون عند إصدار الساكن . لذلك لم نحصل إلا على سواكن صامتة يعنى مجردة من الصوت «Voix» (stimmlos, unvoiced) كما يقول الإنجليز والألمان) . ولكن لندع الأوتار الصوتية تتذبذب كما تفعل في الواقع ، لكي تزود الحركات بالصوت فعندئذ نحصل على سواكن مجهورة (stimmhaft, voiced) . فالفرق الذي يميز المجهورة من المهموسة أنه عند إصدار الأولى تكون الأوتار في حالة ذبذبة ، مع التساوي في غير ذلك من الأشياء . ونحس هذا الفرق بكل يسر عند ما نطق على التتالي الانفجاريات p (پ) و b (ب) أو t (ت) و d (د) أو k (ك) g (ج) أو — وذلك أحسن دلالة — الاحتكاكيات f (ف) و v (ف) أو s (س) و z (ز) أو ش ch و j (ج) . وإذا راعى الإنسان أن يسد أذنيه ، عند النطق ، فإنه عند ما يصل إلى المجهورة يسمع الرنين الذي تنشره الذبذبات الحنجرية في تجاويف الرأس . بالطبع كل السواكن التي عدناها حتى الآن من انفجارية وانفجارية احتكاكية واحتكاكية ، تقبل الجهر . فإذا ما حسبنا حساب السواكن الممكنة ، وجب أن نضاعف عدد تلك التي ذكرناها في القائمة بإضافة المجهورة إلا المهموسة .

* * *

نصل الآن إلى سلسلة من الأصوات اللغوية وسط بين السواكن والحركات تسمى عادة أشباه الحركات (حروف اللين) لهذا السبب . ويمكن أن نسميها بالعنارة المعكوسة شبه السواكن ، لأن المسألة مسألة حركات مشوبة بعناصر سكونية أكثر منها مسألة سواكن مزودة بالجهر . في قائمة الحركات المذكورة

في الفصل الخاص بالفصائل النحوية ، اعتبرت الحركات \bar{a} (الضمة) و i (الكسرة) و \bar{u} (الضمة المشمومة الكسرة) حركات مقفولة تتميز بأن اللسان عند نطقها يرتفع في الفم (إلى الخلف أو إلى الأمام على حسب الأحوال) مقللاً من المسافة التي تفصله عن الحنك ، وذلك ليسكون عامل الرنين الخاص بها . وينتج من ذلك أن إصدار الضمة (\bar{u}) والكسرة (i) والضمة المشمومة الكسرة (\bar{u}) تصحبه ضوضاء احتكاك ناتجة من مرور الهواء بين اللسان والحنك ، وضوضاء الاحتكاك تلك عنصر سكوني . وهي على وجه التأكيد أقل ظهوراً عند إصدار هذه الحركات الثلاث منها عند إصدار أحد الاحتكاكيات المجهورة ؛ ولكنه مع ذلك يصير محسوساً إذا قورنت الحركات \bar{u} أو i بالحركة a (الفتحة) . وعلى كل حال ، هناك وسيلة لسماعها وذلك بأن تنطق على التوالي الحركات المختلفة موشوشة . ففي الكلام الموشوش الذي ليس فيه رنين وبالتالى يخلو من الجهر (الصوت $voix$) ، يصير كل شيء إلى هذه الضوضاء البسيطة^(١) ولذلك تكون الفتحة (a) في مثل هذه الحال أقل الحركات سماعاً ، بينما ترى الضمة (\bar{u}) والكسرة (i) والضمة المشمومة (\bar{u}) تسمع بيسر بفضل العنصر السكوني الذي تشتمل عليه . وكثيراً ما تستخدم اللغة هذا العنصر السكوني لتجعل من الضمة (\bar{u}) والكسرة (i) والضمة المشمومة (\bar{u}) سوا كن . والصوت هو هو دائماً ولكن في استعمالين مختلفتين . والساكن الذي يقابل الكسرة (i) والضمة (\bar{u}) يرمز له عادة بالياء (y) والواو (w) ونجد في الفرنسية في $yeux$ (عيون) و $meilleur$ (أحسن) و oui (نعم) و $ouate$ (قطن) . أما الساكن من الضمة المشمومة (\bar{u}) ، وهو نادر ، فليست له علامة خاصة : ويوجد في الفرنسية في $Cuire$ (ينضج أو جلد) lui (إليه و $tuer$ صيغة المصدر من قتل) و $Puise$ (استقى) .

ويعد في طائفة شبه الحركات أيضاً اللام والراء l, r المائعتين ، والأخيرة منهما

(١) أنظر ، عن الصوت الموشوش ، بول ألييه Paul Olivier ، رقم ٧ سنة ١٧٩٩ ،

تدعى أحياناً بالتذبذبة ، وهى تسمية أكثر دقة من الأولى . فهما ساكنان لهما نقطة نطق محدودة فى الفم وتعتمد على وضع ما للسان ويمكن أن تصحب أو لا تصحب بذبذبات حنجرية تنتج الجهر . وهما مجهوران أغلب الأحيان ؛ غير أنه يوجد فى بعض اللغات لامات وراءات مهموسة (صامتة) اللام المائعة حرف جانبي (حافى) وتتميز بأن طرف اللسان يرتفع فى النطق بها حتى يعتمد على الحنك وتنخفض حواف اللسان الجانبية بطريقة تسمح للهواء أن يمر من جوانبه . فيرى من هذا أن بينهما وبين الأسنان نقطة اشتراك . والواقع أن الحركة التى يقوم بها طرف اللسان واحدة بالنسبة للام وللدال فى الفرنسية . وهناك نوعان آخران من اللام المُبَلَّمة mouillée ، وتتميز باستعلاء الجزء الأمامى من اللسان نحو الحنك الصلب ؛ والأخرى من أقصى الحنك وفيها يتحدب الجزء الأوسط الخلقى من اللسان فى شكل ملعقة من جهة الحنك الرخو . واللام التى فى أقصى الحنك كانت توجد فى اللاتينية ؛ وهى مستعملة فى اللغات السلاوية حتى الآن .

والراء المائعة ترجع إلى ذبذبة فى الأجزاء المطاطة التى يشتمل عليها التجويف الحنكى وإلى ذبذبة اللسان أولاً وقبل كل شيء . وهناك الراء الأسنانى الناتجة من ذبذبة طرف اللسان ، والراء الحلقية التى فيها ظهر اللسان هو الذى يقوم بالتذبذبة . وهذه الراءات لها بالطبع نفس التفرعات التى للأصوات الانفجارية الأسنانى والحلقية . وأخيراً هناك الراء التى من اللهاة ، الناتجة من تذبذب اللهاة ، وهى الراء المسماة بالدسمة (grasseyée) ، وأحد الأصوات التى يضعب إنتاجها على من لم يستحوذ عليها بالطبيعة . والراء الأسنانى هى الراء التى فى الإنجليزية الحديثة : ونقطة نطقها ، كما هى الحال فى كل الأسنانى الإنجليزية ، فى أصل الأسنان .

بعد ما تقدم من وصف ، يمكن الحكم بأن الحرفين المائعين لهما كل صفات السواكن ؛ والواقع أن المائع فى الكلمات loquet, crapaud, claquer, tarin, milan, article, râteau يلعب نفس الدور الذى يلعبه الانفجارى فى الكلمات : taquin, mitan, tact, aptitude, bateau, coquet . ولكن وضع الفم فى إصدار اللام والراء يقتضى إيجاد عامل زنين كما فى حالة الحركات ؛ هذا إلى أن الموائع ليست من الأصوات التى يمكن إطالتها وعند ما تحتوى على الجهر ،

وهي الحالة العادية ، يمكن استعمالها استعمال الحركات لتكوين المقطع .
ففي الكلمتين الألمانييتين Löffel, Acker لا يكاد المقطع الأخير يحتوى غير اللام
والراء اللذين يلعبان فيه دور الحركة . وبعض اللغات التي تستعمل الراء على أنها
حركة مثل التشيكية إنما ترسمها بعلامة الراء الساكنة مثل krk « رقبة »
و pst « أصبع » و vrch « قمة » .

الأصوات التي تكلمنا عنها حركات كانت أم سواكن ، قابلة لاستعمال آخر
هو استعمال العنصر الثانى من حرف اللين المستعمل استعمال الساكن أو ما يسمى
diphthong (الحركة المركبة) . وما يسمى بالحركة المركبة هو الجمع بين
حركتين فى مقطع واحد ، ولكن الحركتين لا يستويان قيمة فى هذا المركب ؛
إذ يحتوى حرف اللين هذا diphthong على عنصر قوى وعنصر ضعيف هو
الثانى عادة . والحركتان المقفولتان الكسرة i والضمة u أصلح من غيرها للقيام
بدور العنصر الضعيف ، أى العنصر الثانى . وهكذا فإن ما يلى الحركة فى (١)
ي ey و أى oy و آى ay أو ew و أو ow و أو aw ليس من الحركات
ولا من السواكن بمعنى الكلمة ؛ بل عنصر من المركب diphthong وبعض
اللغات الهندية الأوروبية تدل على أن دور العنصر الثانى من هذا المركب يتميز عن
دور الحركة أو دور الحرف الساكن . وهذه اللغات نفسها قد أتاحت فى نفس
الوقت للام والراء المائعتين أن يستعملتا كعنصر ثان للمركب ؛ فالتبوانية حتى أيامنا
هذه قد احتفظت لـ آر وا آل (er, el) بنفس المعاملة الخاصة بالـ diphthong
وهي نفس المعاملة التي على المركبين آى ey و أو ew بالضبط (٢) .

وأخيراً هناك فصيلة هامة من الأصوات اللغوية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ،
وهي الأصوات الأنفية nasales (أو أصوات الغنة) ، إذ أنه قد افترض فى كل
الأوصاف المتقدمة أن يبقى حجاب الحنك لاصقاً بقمة القبو ، أى أنه بالتالى يمنع
تسرب الهواء إلى الحفر الأنفية . غير أن حجاب الحنك يمكن له أن يسقط نحو

(١) المقصود بالفتحة والكسرة الدلالة على الإمالة .

(٢) ميه رقم ٩٤ ص ٨٩ .

قاعدة اللسان ؛ وحينئذ ينفذ الهواء المدفوع من الرئتين إلى الحفر الأنفية ، فينصرف من الأنف كما ينصرف من بين الشفتين . والواقع أن الإغلاق التام نادر التحقق ؛ بل حتى انتاج الحركات التي تكلمنا عنها حتى الآن ينطوي على السماح لكمية ضئيلة من الهواء بالنفاذ إلى الحفر الأنفية . غير أن اللغة تستخدم الفتح الكامل لإنتاج ما يسمى بالحركات الأنفية . كل الأصوات اللغوية التي ذكرت سابقاً سواء أكانت حركات أم سواكن ، ما عدا بعض المستثنيات الناجمة من طبيعة الأعضاء ، لها فروع أنفية . وعند ما يبقى حجاب الحنك هابطاً أثناء إصدار الصوت اللغوي ؛ دون أن يعترى عملية النطق أى تغيير أو أن يعدل اللسان عن وضعه ، فإننا نحصل على صوت أنفى ساكناً أو كان أم حركة . وكل فرنسي على معرفة كافية بالحركات الأنفية ، بفضل لغته القومية التي تملك عدداً عظيماً منها . فالأشياء التي نرميها an, on, in, un إنما تمثل أصواتاً مفردة وقد أضيف إلى الطابع الخاص بكل حركة منها أنواع من الرنين الأنفى . فمعنى كون الحركة أنفية أن حجاب الحنك يبقى عند الإصدار هابطاً وأن جزءاً من الهواء الخارج من الحنجرة يتخذ طريق الحفر الأنفية . ومن الخير أن نلاحظ أن الحركات الأنفية an, in, un رغم الكتابة ، لا تقابل بالضبط الحركات a (فتحة) و i (الكسرة) و u (الضمة المشمة الكسرة) بل تقابل o و é و eu على التوالي .

هذه الآلية نفسها تستخدم لإنتاج السواكن الأنفية . وكل السواكن يمكن أن تصير أنفية : فنحن نعرف في بعض اللغات قاءات (v) ولامات (l) وراءات r أنفية ولكن يحتفظ عادة بمصطلح الأنفية للانفجاريات المجهورة المصحوبة بأنواع من الرنين الأنفى : فعند ما يبقى حجاب الحنك هابطاً في أثناء انفجار الباء b أو الدال d أو g ترانا نحصل على الأنفيات م (m) ون (n) والنون المنة n (وتكتب gn في الفرنسية) ؛ هذه الأصوات اللغوية يمكن إطالتها ولكن الهواء في هذه الحالة لا يخرج إلا من الأنف بالطبع لما كان الانفجار الحنكى يمنع من مرور الهواء . يوجد من الأنفيات بقدر ما يوجد من الانفجاريات المجهورة . أما تلك الأنفيات التي تقابل الانفجارية المهوسسة والتي تعد ممكنة الوقوع من الوجهة النظرية فلا تستعمل في الواقع إلا نادراً .

رأينا أن الأنفيات ، وهي قابلة للمدة ومزودة بالصوت *voix* (مجهورة) ، تستدعى رنين الحفر الأنفية : أى أنها مستعدة لأن. تقوم بدون الحركات أو المائعات على السواء . والواقع أن هناك عدداً من اللغات التى تملك حركات أنفية ، ونحن نعرف أنها كانت موجودة فى اللغة الهندية الأوربية . واليوم نستطيع أن نسمعها بوضوح تام فى المقطع الثانى من الكلمات الألمانية *Atem, biete* . ومن جهة أخرى ، كانت الهندية الأوربية تستعمل النون *n* والميم *m* الأنفيتين استعمال العنصر الثانى فى المركب ، فكانت تعامل مثلاً *on om* و *en em* كما كانت تعامل *oi ou* و *eu ei* ، واحتفظت الأغريقية القديمة فى نبرها بآثار من هذا الاستعمال ، وتستطيع اللتوانية حتى يومنا هذا أن تمدنا ببعض الأمثلة^(١).

الأنفيات تزيد زيادة محسوسة فى قاعة الأصوات التى يصدرها الجهاز البشرى . ومع ذلك فإننا لم نصل بعد إلى خاتمة الحساب . ومما يجعل قاعة الأصوات الممكنة لا تكاد تحدد أن العناصر التى تكونها عناصر تغيير إلى حد كبير ، وهى مزودة بكثير من أوجه الخلاف .

فالحركة تنطق على نفمة معينة بشدة معينة وتستمر مدة معينة : فهناك الحدة والشدة والكمية وهى تسمح بمضاعفة وجوه الاختلاف فى حركة . وكما يمكن أن يوجد عدد من الكميات فى كل لغة ، وبما أن الدرجة والشدة تسمحان بتنويع التنعيم والجرس ، فإن هذه التشكيلات المختلفة تحمل فى نفسها مبادئ تنويع أخرى يتضاعف عددها .^(٢)

لعبت الكمية فى اللغات الكلاسيكية دوراً يستطيع النظم «Versification» أن يعطينا فكرة عنه ؛ ونقول مثل ذلك فى السنسكريتية أيضاً . أما عن الحدة

(١) ميميه رقم ٩٤ ص ٨٩ .

(٢) فيما يخص بالكمية والحدة والشدة وعلاقة بعضها ببعض فى اللغات السلافية والبطبية : أنظر خاصة الدراسات المفيدة فرديناندى سوسير ، رقم ٦ ، مجلد ٨ ص ٤٢٥ ؛ ورقم ٣٠ أنز ، مجلد ٦ ص ١٥٧ ؛ وجوتيو رقم ٦ مجلد ١١ ص ٣٣٦ ؛ وانظر أيضاً غورتيناووف رقم ٢٧ مجلد ٢٢ ص ١٥٣ .

الموسيقية فلدينا منها أمثلة بيّنة في لغات الشرق الأقصى ، حيث يكفي الجرس وحده في تميز المعاني والقيم التي تؤدّيها بعض الكلمات مع اتفاقها في الأصوات .
فحين نرى أحد المقاطع مثلاً في الصينية يُنطق بست نغّات مختلفة أو بستة وجوه مختلفة الجرس ، فعنى هذا أن المقطع يدلّ على ستة مسميات مختلفة . أما في اللغة الأنامية^(١) فالتنوع أوسع من ذلك : فقد أمكن أن يعدّ للمقطع (كو Co) خمسة عشر وجهاً من النطق مختلفة ، تقابل دلالات يباين بعضها بعضاً كل التباين .^(٢)

هنالك أيضاً تنوعات أخرى ممكنة حتى في تكوين عامل الرنين الخاص بكل حركة . فهناك البدء الشديد «*attaque dure*» الذي يسميه الألمان *fester Einsaltz* والبدء اللطيف المسمى *attaque douce* وعند الألمان *leiser Einsaltz* والفرق بينهما ينحصر في الطريقة التي يجرى عليها انفتاح الحنجرة عند إصدار الحركة المبدئية . ففي حالة البدء الشديد تفتح الحنجرة فجأة وتعزل الحركة عن كل ما تقدمها ؛ وهذا هو المسلك المعتاد عند ألماني الشمال . وهو ذو طابع مميز حتى أنه يكفي لتمييز نطق الألماني من نطق الفرنسي والإنجليزي اللذين يارسان البدء اللطيف . ويستعمل أحد علماء الصوت الإنجليز وهو Ellis تشبيهاً جميلاً للإشعار بهذا الفرق : وصول النور في غسق الصباح يكون تدريجياً غير محسوس حتى ليستجّل تعيين النقطة التي عندها ينتهي الليل ويبدأ النهار ؛ هذا هو البدء اللطيف في الحركات . أما إذا فتحت أبواب النافذة فجأة عند الظهيرة ، فإن ضوءاً قوياً يندلع في الغرفة حتى يغمرها في لحظة واحدة ، ذلك هو البدء الشديد . بل إن هذا المسلك ليس مقصوراً على انفتاح الحنجرة . فبعض اللغات مثل الدغركية يستعمله أيضاً عند الإغلاق . هنالك لا يحصل الارتخاء أو الصدمة «*Choc*» كما تسمى *Stoss* بالألمانية و *Stod* بالدغركية إلا في نهاية الحركات بعد أن يتمّ الإصدار . وقد نعثر في الدغركية على كلمتين مثل *anden* (ذكر البط) و *anden* (الآخر) ، لا يختلفان فيما بينهما إلا بوجود الصدمة *stod* أو عدم وجودها . وبعض اللهجات الإنجليزية ، ولا سيما اللهجة المتكلمة في اسكتلنده ، تقدم لنا

(١) كاديير Cad:ère رقم ٥٨ ص ٧٩ وما بعدها .

(٢) جرامون رقم ٦ مجلد ١٦ ص ٧٥ .

كذلك أمثلة حسنة على مايسمونه «glottal stop» أى التوقف الحنجري (١) .
نطق السواكن أيضاً يحتمل اختلافات هامة جداً غير تلك الناشئة من الاختلاف
فى حركات الجهاز الصوتى التى تكلفنا عنها فيما سبق . ونوعان منها على الأقل
يستحقان الذكر هنا : تلك التى تنتج من المجهود العضلى وتلك التى تتوقف على
درجة انفتاح الحنجرة .

يجب أن ينفق الكثير من الجهد للوصول لإنتاج الحركات التصويتية فى كل
اللغات بقوة عضلية واحدة . ففى بعضها يقلّ المجهود إلى حدّ ضئيل ، فيتسلسل
الكلام مستمراً هادئاً فى تبادل متصل . وفى بعضها على العكس من ذلك ، يوجد
احتجاز عضلى يعطى للسمع طابع العنف وتتخلله أنواع من الاسترخاء المفاجئ
ومواقع الوزن والاصطدام .

وفى داخل كل لغة ، تتطلب بعض الأصوات اللغوية توتراً عضلياً أشد من غيرها .
هذه الحقيقة قد لفتت نظر الإغريق القدماء ، فجعلتهم يميزون فى سواكنهم بين
اللطيفة والقوية . وعلى العموم ، فالفرق فى الشدة مرتبط بالتضاد الذى بين المجهورات
والمهموسات . كانت تلك الحال موجودة فى الإغريقية القديمة ، وتلك هى الحال
فى الفرنسية حيث نجد السواكن الثلاثة ب p و t و k مضموسة وقوية فى
آن واحد ، والسواكن الثلاثة ب b و d و g على العكس منها بمجهورة
وضعيفة . ولكن من اللغات ما يجهل هذا التوزيع أو ينظمه على نحو آخر . فأحد
الفروق التى تميز الانفجاريات الفرنسية من الانفجاريات الألمانية ، ولا سيما ألمانية
الجنوب ، أن الانفجاريات المجهورة ب b و d و g قوية فى الألمانية مما يخل
لأذن الفرنسى أنها أصوات وسط بين المضموسة والمجهورة ، بل وفى بعض الأحيان
أنها أقرب إلى المضموسة منها إلى المجهورة . وعلى العكس من ذلك الانفجاريات
المضموسة ب p و t و k لطيفة غالباً فى ألمانية الجنوب ، إذا لم تكن
منقّسة كما سنرى .

هناك مبدأ آخر لإحداث وجوه الاختلاف فى نطق السواكن يحدث من

درجة انفتاح الحنجرة . فتوجد انفجاريات من حنجرة مفتوحة وأخرى من حنجرة مغلقة .

في النطق مع انغلاق الحنجرة ، كما هي الحال في الفرنسية وفي اللغات السلافية والإغريقية القديمة ، تقترب شفتا الحنجرة أو الأوتار الصوتية أثناء إصدار الانفجاريات . فهي إذن مستعدة تماماً للدخول في الذبذبة من أجل الحركة التي يتلوها إذا كان الانفجاري مهموساً ، ومنذ بدء الانحباس لإحداث الرنين من أجل الانفجاري ، إذا كان الانفجاري مجهوراً على العكس من ذلك . في النطق مع انفتاح الحنجرة الذي تتميز به اللغات الجرمانية على العموم^(١) ، يلزم للأوتار الصوتية بعض الزمن لتتمكن من اتخاذ الوضع الذي يسمح بالذبذبة ، سواء أكان ذلك في أثناء الحبس لإجهار الساكن أو بعد الانفجار مباشرة لإنتاج الحركة . وفي أغلب الأحيان يحدث تأخر طفيف ، نقص في التنسيق بين الانفجار وبين وضع الذبذبات الحنجرية في حالة السير . الفرق الأساسي بين الانفجاريات الألمانية والفرنسية يقوم على أن الذبذبات الحنجرية في الألمانية تنتج في وقت متأخر عنه في الفرنسية . وهذا سبب آخر يجعل الفرنسيين عند ما يستمعون ألمانياً ينطقون با، دا ، جا ba, da, ga. يفسرونها على أنها با ، تا ، كا pa, ta, ka ؛ لأن الساكن مجهور في الفرنسية منذ بدء الانحباس ؛ وفي الألمانية الجزء الأول من الساكن مهموس ، لأن الجهر لا يبدأ إلا بعد الانحباس بوقت محسوس .

النطق مع فتح الحنجرة يجر إلى نتيجة أخرى . فطوال مدة الانفجار لا يتكفّ الهواء المدفوع من الرئتين عن التراكم في الفم ، إذ لا شيء يفترض طريقه عند طرف القصبة ، بينما في حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تعترض شفتا الحنجرة خروج الهواء ولو جزئياً . وينتج عن ذلك أن الهواء يخرج من الفم عند الانفجار بعنف في حالة النطق مع انفتاح الحنجرة ؛ لأنه في حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تقوم الحنجرة في صورة ما بدور الملطف لتيار الهواء . ويكون عنف الهواء من القوة بحيث نسمع عادة عند الانفجار تلك الضوضاء المميزة لخروج الهواء والتي

(١) ميه : رقم ٩٥ ، ص ٣٦ ، ورقم ٤ مجلد ١٦ ص ١٥٣ ؛ وجرامون رقم ٢٨ ص ٨٤ .

تسمى بالشهيق «aspiration» وما هي إلا تسمية خاطئة . هذا ولما كان وضع الذبذبات الحنجيرية في حالة السير على نحو ما رأينا يقع متأخراً قليلاً بالنسبة للحركة التالية ، فإنه تنقضى مسافة زمنية طويلة أو قصيرة لا تكون الحركة خلالها قد وجدت بعد ، بينما يكون الساكن قد انتهى . هذه المسافة يشغلها الشهيق بطبيعة الحال ، فنحصل في نهاية الأمر على ساكن يسمى بالنفّس ؛ فبدل الپاء p والتاء t والكاف k تنطق به ph و t و th و kh . من السهل أن يسمع هذا التخالف من فم ألماني من الجنوب إذا طلب منه أن ينطق العبارات التالية : le pavé de paris, une tasse de thé, un Carreau de Cassé نحن بعيدون في هذا السرد عن استيفاء جميع الاحتمالات التي للأصوات اللغوية فإننا لم نمن حتى الآن إلا بالأصوات اللغوية الناتجة من زفر النفس . ولكن هناك أيضاً الأصوات اللغوية المسماة بالشهيقية . يمكننا من الوجهة النظرية أن نأخذ جميع أصوات القائمة السابقة ونتصور أنها أنتجت بواسطة الشهيق ؛ وعندئذ يتضاعف عددها . هذا وإن عبارة الشهيق أو المشقة عبارة غير صالحة ؛ لأنه ليس في إنتاج الأصوات اللغوية التي نحن بصدها إدخال للهواء في القناة التنفسية ، فهذه الأصوات تقوم على حركة من المص ؛ وتسمى لذلك أصوات المصصة « clics » (١) .

الأصوات اللغوية المشقة أو أصوات المصصة نادرة الاستعمال . ويؤكد بعضهم أن بعض لغات إفريقية تستعملها بصورة عادية . ولكنها غير موجودة في النظام الصوتي للغات الهندية الأوروبية . وإعناً تقابل هنا وهناك من باب المصادفة المحضة . ومما ثبت أن نشوء الپاء P في آخر الأفعال المسندة لمجمع التكلم في لغة أهل پريتانيا الفرنسية جاء من حدوث مصمصة clic (مثل karomp « محب » ، من karom (٢) . وهذه حالة استثنائية في لغات أوروبا الحديثة .

وعلى العكس من ذلك تستخدم المصمصات في كل اللغات لإحداث حالات

(١) ل . هاقية : رقم ٦ مجلد ٢ ص ٢٢١ ؛ ساكلو Sacleaux : رقم ١١٨ ص ٤٤ .

(٢) رسالو : رقم ١١٥ ، ١ ص ٤٩٢ ؛ وانظر أيضاً لوث Loth رقم ٨ مجلد ١٦

التمجيب . فالفرنسية تستخدم تاء t مشبهة للتعبير عن الشك أو لإثارة الانتباه ؛
وتشبهق تاء « t » من أصل الأسنان للدلالة على الإعجاب أو الدهشة ؛ وتشهيق
الفاء يعبر أحياناً عن رضا النهم وأحياناً أخرى عن الإحساس بجهد أو ألم حاد
قصير ؛ وكلمة oui « نعم » تنطق بالتنفيس إذا كانت تعبر عن الشك أو المجاملة ،
وكذلك الحال في كلمة « لا » non إذا نطق بها بصوت منخفض وفي غير
الكرات .

الفصل الثاني

النظام الصوتي و تغييراته

عدد الأصوات اللغوية الممكنة يكاد يمتد إلى ما لا نهاية . وليس هناك من آلة موسيقية تساوى الجهاز الإنسانى فى تنوع الأصوات التى يصدرها . ولكن اللغات بعيدة عن أن تستعمل فى وقت واحد جميع المصادر التى فى حوزة الكلام . وعلى العكس من ذلك فإن الأصوات المستعملة فى كل لغة محدودة العدد .

لسنا فى حاجة إلى العقول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات المستعملة فى لغة ما بعدد الحروف الموجودة فى أبجديتها . فكل لغة فيها من الأصوات أكثر مما فى كتابتها من العلامات . تلك حال الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية . ومنع ذلك فإن عدد الأصوات فى أية لغة لا يكاد يتعدى الستين عادة ؛ بل يمكن أن ينزل عن ذلك نزولاً محسوساً .

هذا الرقم ليس مما يثير الدهشة ؛ فإنه يُفسّر بداهة بتنوع الأصوات فى الجهاز الإنسانى ، تلك الأصوات التى لا يمكن استعمال عدد كبير منها فى لغة واحدة دون أن تسبب مشقة لمن يتكلمها . هذا إلى أن من بين الأصوات الممكنة ما يستبعد بعضه بعضاً بسبب تكوين أعضاء النطق .

فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، فهى تكون نظاماً متجانساً مغلقاً ، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها ؛ هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات ؛ وهى ذات أهمية قصوى ، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة ، بل من نظام من الأصوات .

أولئك الذين يمارسون لغات أجنبية يشعرون جيداً بوجود نظام لغوى خاص بكل لغة . وعند ما ينتقلون من إحداها إلى الأخرى لا يشغلون أنفسهم ، لحظة النطق بكل كلمة ، بوضع أعضائهم الوضع الذى يناسب الأصوات المكونة لهذه

الكلمة ، وإلا لتعذر عليهم الكلام بسلاسة تعذراً تاماً : بل يكف في اللحظة التي ينتقلون فيها من لغة إلى أخرى أن يزودوا أعضاءهم بنوع من التوجيه العام مرة واحدة . وإذا كانت اللغة التي يتكلمونها أليفة لهم ، حصل في أعضائهم بصورة غير شعورية ، نوع من التحول يجعل جميع الأصوات الصادرة تصدر على طريقة اللغة الجديدة . فمثل المتكلم بعدة لغات مثل لاعب الهرمونيوم الذي يستطيع بنقله للمشط أن يخلع على جميع الأصوات التي يخرجها قيمة خاصة . ويُحَسَّ هذا الانتقال من التعب الذي يعانيه الإنسان بعد أن يتكلم شطراً من الزمن لغة لما يعتد التكلم بها تماماً . لأن الأعضاء تكون قد قُبرت على أوضاع جديدة تستلزم جهوداً عضلية جديدة أيضاً . وإذا طالت هذه الممارسة التي تفرض عليها فإنها تجعل باتعاب هذه الأعضاء . وأولئك الذين يودون محاكاة نطق أجنبي في كلامهم بلغتهم هم ، يعرفون كذلك أنه يكفيهم الحصول على الأثر المطلوب بما يمكن أن يسمى بالتحول الصوتي ؛ فما دام هذا التحول قد وقع فعلاً أمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزي أو الألماني . وجود النظام الصوتي نتيجة لقانون من التوازن ، إذ ينشأ بين جميع الأعضاء التي تتعاون على التصويت نوع من الاتفاق الذي يقتضاه يميل كل واحد منها بالوضع الذي يتخذه إلى أن ينسجم مع أوضاع الأعضاء الأخرى . بل إن الاتفاق لا يقتصر على وضع الأعضاء ، وإنما يمتدّاه إلى الاتفاق العضلي ؛ فبعض الأصوات مثلاً يلزم لنطقها نفس أكثر مما يلزم للأخرى ، أو يتطلب مجهوداً أعظم من حركات الأعضاء الصوتية . هذا إلى أن فروق الكمية تربط بها عادة فروق طابعية .

في الفرنسية تختلف الفتحة (a) والضمّة التي ترسم (u) في الطابع بوجه عام حسب اختلافهما في الطول والقصر : فلنلاحظ مثلاً اختلاف النطق بين *patte* و *pâte* وبين *côte* و *cotte* ؛ وبين *saute* و *sotte* الخ ... ويوجد في الألمانية فرق مشابه بين *e* القصيرة و *e* الطويلة ، وبين *o* القصيرة و *o* الطويلة : هكذا في *Reh, stehen* في مقابلة *retten, Stelle* أو في *Boden Sohn* في مقابلة *Können* و *Gott* ، الخ . ويجرى الحال على هذا المنوال في كثير من اللغات .

النظام الصوتي يعيد كلّ البعد من أن يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات . ويستطيع الإنسان أن يفهم ذلك بسهولة إذا فكّر في الصورة التي ينتقل بها وفي الشروط التي تمسك عليه توازنه .

يستقرّ النظام اللغوي في السنين الأولى من العمر . ويظل سليماً طوال الحياة ، إذا صرفنا النظر عن الحوادث العرضية التي قد تصيب الأعضاء . ولكن تحصيل اللغة لا يقع دفعة واحدة . ففي أثناء هذه السنين الأولى التي لها أهمية عظمى في نشوء الكلام يختزن الطفل يوماً بيوم وبشكل مستمر الكلمات التي يجتهد في إبرازها كما حفظها . فليست الأصوات هي التي يتعلم النطق بها ، بل يتعلمه بالكلمات أو بمجموعات من الكلمات . وإذن يجب على أعضائه أن تخضع للنطق بترتيب من الأصوات قد تكون في بعض الأحيان على درجة كبيرة من التعقيد . وفلما يصل إلى الصواب من أول خطوة ، بل عليه أن يراجع الكرة مراراً مصححاً نطقه على نطق الأشخاص الذين يكلمونه حتى يعتقد أنه قد وصل تماماً إلى محاكاة ماسمع . والصورة التي يتخذها نهائياً في ختام تعلمه هي التي تكون نظامه الصوتي ، وهو يقيمه على تحسسات متتابعة واستبعاد للأصوات التي التقطها في صورة خاطئة وبما يكسب أعضائه من مرونة قصد الوصول إلى نطق كامل^(١) . بعد ذلك يتم له تنفيذ الحركات في صورة آلية . فهناك ذاكرة للأعضاء يمكن أن تقارن بذاكرة أصابع لاعب البيانو التي تنتقل بين الأزرار بصورة آلية كلما وقعت عينه على النغمة المسجلة فوق الصجيفة .

انتقال النطق من جيل إلى جيل غير متصل ، بمعنى أن الطفل مضطر إلى حفظ كل شيء . وأغلب الظن أن استعدادات الطفل الموروثة تلعب دورها في هذا التعلم . ولكن يمكننا أن نقدر دون عناء العوارض التي يمكن أن تعرض لسلامة النطق في كل جيل . فمن النادر جداً أن يكون نظام الطفل الصوتي بعد أن تنتهي مرحلة التعليم مماثلاً تماماً لنظام والديه . بل إن من علماء الصوت من يذهب إلى أن ذلك لا يقع مطلقاً .

(١) أنظر المؤلفات التي ذكرناها في نهاية الفصل السابق ومعها ١ . ميه رقم ٩ ج ١

في هذا اللعب بالحركات المعقدة الذي يكون النظام الصوتي ، قد يحدث لأحد الأعضاء أن يبالي أو أن يقتصر في أداء عمله ولو بقدر ضئيل ، أو قد يعرض لعضلة شيء من التراخي أو الإبطاء في إخراج إحدى الحركات ، أو قد يعرض لها على العكس من ذلك زيادة في القوة أو السرعة . ومن ثم يجيء الاختلاف في النظام الصوتي بين جيلين متتابعين . هذا الاختلاف قد يضئل وقد لا يثير لدى السامع أي تغيير محسوس ؛ ومع ذلك فهو خطير النتائج لأنه لا يبشّر بشيء أقل من انقطاع التوازن في النظام . هذا إلى أن الاختلاف قد يلحظ بوضوح في بعض الأحيان : الطفل ينطق مختلفاً عن أبويه ، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محل السلسلة التي كان يملكها أبواه . وهكذا . نرى الطفل الذي يضغط بطرف لسانه على قمة أصول الأسنان بدلاً من الضغط على الأسنان نفسها يصدر سلسلة الأسنانيات الإنجليزية *t* و *d* بدلاً من السلسلة الفرنسية .

هذا النوع من التغير الصوتي يقدم لنا عدة صفات على جانب من الأهمية . فهو أولاً غير شعوري . فالطفل الذي يتقدم لسانه إلى مدى بعيد أو إلى حدّ غير كاف لا يلتفت إلى ما يقع فيه من إسراف أو نقص . يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات التي يقوم بها أبواه مع أنه يخالفهما . فعدم شعورية التغير هو الذي يفسر لنا استمرار لأن الطفل قد يسمي إلى تصحيح خطئه لو أنه شعر به .

يزيد على هذا أن التغير مطلق ، ومعنى ذلك أنه يتحقق في صورة تامة لا مهدّ منها ، فليست المسألة خلقاً اختيارياً يضيف إلى النظام عنصراً جديداً ؛ بل إنها مسألة تحول في عنصر موجود . هذا التحول يفترض أن الطفل قد عجز عن تكرار الصوت المسموع تكراراً مضبوطاً . بل إنه لما يلفت النظر أن الصوت الذي استبدل به غيره يصير أشق الأصوات الغريبة على النظام وأعسرّها على من يريد النطق به . وليس أصعب على فرنسي اليوم من نطق اللام المائعة بعد أن فقدوا هذا النطق .

وأخيراً فالتغير مطرد ، بمعنى أنه يتمّ في اتجاه محدّد بالتغيرات السابقة . هذا الطابع يفسّر بطبيعة العناصر التي يقوم عليها توازن النظام . يوجد في كل نظام (م — هـ)

صوتى عناصر غالبية تسود غيرها . فيمكن دائماً ، إذا أريد وصف نظام اللهجة ما ، إرجاع كل تفاصيل هذه اللهجة إلى بضع قواعد عامة من وضع اللسان وشدة النفس والمجهود العضلى . . . الخ . هذه القواعد العامة ذات قيمة مؤقتة مادام النظام الصوتى يتغير إن قليلاً وإن كثيراً من سنٍّ إلى أخرى ؛ ولكنها مادامت موجودة فإنها تكون أساس اللغة وكأنها بمثابة هيكلها العظمى . فإذا ما نظرنا إليها باعتبار توالى العصور رأينا أنها تنبئ عن اتجاهات اللغة . ومن هنا نلاحظ ، إذا فهمنا حالات اللغة التاريخية المتتابعة ، أن التغيرات التى تبدو فى حالات اللغة المتأخرة كانت توجد أجنة فى حالاتها السابقة .

المثال الكلاسيكى الذى يذكر عادة لاطراد التغيرات الصوتية هو « الاستبدال المباشر للسواكن » فى الجرمانية ، ذلك الذى يسميه الألمان Lautverschiebung^(١) وتلاحظ هذه الظاهرة فى لغات أخرى غير الجرمانية مثل الأرمنية والأوسية^(٢) . وتنحصر نقطة البدء فى هذا الحذف فى الفرق بين النطق مع إغلاق الحنجرة والنطق مع فتحها (أنظر ص ٥٨) .

إذا اعتاد شعب على النطق مع فتح الحنجرة كما يفعل الجرمانيون ، تعرضت الانفجاريات المجهورة والمهموسة لسلسلة من التغيرات ناجمة عن التأخر فى وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة الحركة (أنظر ص ٥٩) . فمن جهة لما كان تذبذب الأوتار الصوتية لا يبدأ بعد الحبس مباشرة فى مجموعه مثل با ba أو دا da ، صار جزء من الساكن مهموساً ، سواء أكان هذا الجزء صغيراً أم كبيراً . وأخيراً ينتهى هذا الميل بتحويل المجهور كله إلى مهموس . ومن جهة أخرى فى مجموعة مثل تا ta pa ، يوجد بين انفجار الانفجارى وإنتاج الفتحة التى تليه وقت طويلاً أكان

(١) التفسير الذى تبنته هنا هو الذى يقول به عامة علماء اللغة الفرنسيين لهذه الظاهرة (ميه : رقم ٩٥ ص ٢٧ ؛ جوتيرو : رقم ٦ مجلد ١١ ص ١٩٢ ؛ فيدريس : رقم ٩٩ ص ١٣٠) . ولكنه ليس رأى الجميع ؛ ف . فونت : رقم ٢٢٣ ج ٢ ص ٤٠٥ ؛ ه . مير : رقم ٣٥ ج ٤٥ ص ١٠٧ وما يليها ؛ هيرت : رقم ١٦٧ ص ٦١٦ ؛ س . فيست : رقم ٢٦ مجلد ٣٦ ص ٣٠٧ ومجلد ٣٧ ص ١١٢ .

(٢) لغة أهل بلاد القوقاز الوسطى ، ويبدو أنهم من ذرية الإيرانية الأقدمين .

أم قصيراً . ولكن الانفجار يترك للهواء حرية المرور . ومن هنا يحىء الميل الطبيعي نحو تحول الانفجارى إلى تنفسى أو حتى إلى احتكاكى انفجارى إذا كان الانفجار على درجة شديدة من الحدة ولم تستطع الأعضاء أن ترجع مباشرة إلى وضعها فى حالة الاستراحة رغم اندفاع الهواء المفاجئ باحثاً عن سبيل للخروج . وعندئذ يتحول النطق إلى *tha* ، *pha* أو إلى *tso* و *pa* ؛ والمآل الطبيعى للتنفسية والانفجارية الاحتكاكية أن تصير الاحتكاكية (فاو ثا) إذا كان دفع الهواء يجعل الانفجار غير تام .

كلتا العمليتين اللتين عرضناها الآن تلعبان دوراً كبيراً فى تاريخ اللغات الجرمانية . فهما يجب أن نفسر كون الانفجاريات المجهورة فى الهندية الأوربية يقابلها دائماً مهموسيات فى الجرمانى المشترك (فى القوطية *skapjan* « يُشكّل » *itan* « يأكل » ، وفى الألمانية العليا القديمة *melkan* « يحلب » وذلك فى مقابلة الكلمات اللاتينية *mulgeo* , *edo* , *scabo*) ، والانفجارية المهموسة تقابلها دائماً احتكاكية ، (فى القوطية *hilfan* « يسرق » ، *thahan* « يسكت » فى مقابلة الإغريقية *Χύειν* واللاتينية *taceo*) . هذان وحدهما هما النوعان من أنواع الإبدال المباشر الميزان للجرمانية^(١) . لكن الاحتكاكى الناتج من الانفجارى المهموس لا يكون مهموساً دائماً ، فهناك حالات يكون فيها مجهوراً . وقد بين العالم اللغوى الدنمركى *Verner*^(٢) ، أنه لا يكون مجهوراً إلا فى الكلمات التى لا يكون فيها المقطع التالى منبوراً فى الهندية الأوربية .

الواقع أن عدداً من الاتجاهات الأخرى قد وجدت فاختلطت بأثر الإبدال المباشر . منها مثلاً ذلك الاتجاه الذى يظهر فى بعض اللغات الأخرى ويعمل على أن تصير الاحتكاكية المهموسة مجهورة إذا وقعت بين حركتين (اكتشف ثورنر لا يضيف إلى ذلك إلا بعض التصحيح) . ومنهنا ذلك الذى ينحصر فى أن

(١) اعتناه الألمان ، وتبعهم علماء اللغة فى البلاد الأخرى فى غالب الأحيان ، أن يسموا قوانين الإبدال المباشر فى الجرمانية قوانين جريم مع أن *Rask* الدنمركى قد اكتشفها قبل *چاكوب جريم* ؛ أنظر *پدرسن Pedersen* : رقم ٢٣٠ ص ٥٢ وما يليها .

(٢) فى مقال مشهور رقم ٢٧ ج ٢٣ ص ٩٧ .

الاحتكاكيات المجهورة تقاوم الضعف الذى يصيبها ، وذلك بفضل استدراك المتكلم ، فتصير انفجارية مجهورة . والحالة الثانية قد وقعت فى الألمانية ، فالكلمات الإنجليزية thin (رفيع) و thumb (إبهام) أو thorn (شوكه) يقابلها فى الألمانية الكلمات dünn و Daumen و Dorn التى كانت تبدأ باحتكاك قبل أن يصير انفجارياً . ولكن هذا التطور يظهر فى أوضح صورة فى حالة الأصوات الأسنانية ؛ بل إنه يمتد فى شكل مبستر خارج الميدان الألمانى (فى الإنجليزية gold « ذهب » wild « متوحش » فى مقابلة gulth و wiltheis فى القوطية) . فى هذا الميدان يلاحظ أن نفس التطور موجود بالنسبة لبعض الاحتكاكيات الأخرى ^(١) : ففى بعض اللهجات نرى القاء w تصير باء b إذا كانت فى أول الكلمة (bas بدلا من was أو beil بدلا من weil) أو ال J تصير g إذا وقعت بعد الراء (Ferge « قائد طيارة ، دليل » ، Scherge « جاوئش » ، وهما مشتقتان من الكلمتين القديمتين verju و scerjo) .

هذه الأمثلة ترينا أنه لا ينبغى أن نعزو إلى مبدأ واحد جميع التغيرات التى طرأت على السواكن الألمانية . ولكن مما تجدر ملاحظته أن الاتجاه العام الذى يظهر فى حالات الإبدال منذ ما قبل التاريخ يظل خلال جميع التقلبات الناتجة من ظروف خاصة ، محسوس الأثر فى تاريخ اللغات الجرمانية بأسره : فمثلا بعد أن أتمت الألمانية العليا القديمة حوالى القرن السادس بعد الميلاد إبدالا مباشرا فى الساكن المرة الثانية ، نرى الألمانية الحديثة — فى الأقاليم الجنوبية على الأقل — تمهد لإبدال ثالث ؛ وهناك إبدال جديد فى سبيل التحقق فى مكان آخر من هذا الميدان ، أعنى اللغة الدنمركية ^(٢) .

ظاهرة مثل ظاهرة الإبدال المباشر فى السواكن ، وهى من خير الأمثلة على الاطراد والاستمرار ، ترينا فى عين الوقت أن التغير الصوتى يمكن أن يمتد على مجموعة من السكان هامة فى غالب الأحيان . فلا يكفى إذن لتقويم طبيعة تغير من التغيرات

(١) بهاجل Behaghel : رقم ١٤٤ ص ٢٠١ و ٢٠٤ .

(٢) براونه Braune : رقم ٢٦ ج ٣٦ ص ٥٦٤ .

أن نقارن نطق طفل بنطق أبويه ، يعنى أن نعتبر فرداً واحداً منعزلاً فى كل جيل . لأن التغير الوحيد الذى يعتبر فى عين العالم اللغوى هو التغير الذى يظهر فى كلام مجموعة من الأفراد .

التغيرات اللغوية تنتج على وجه الخصوص فى الانتقال من جيل إلى جيل آخر . ولكن لا بد من التفرقة بين التغيرات الفردية والتغيرات المشتركة بين جميع الأطفال فى نفس الجيل . فقد يحدث أن أحد الأطفال لا يستطيع النطق ببعض الأصوات نتيجة لاستعداد خبيث موروث ، أى أن يكون عنده بعبارة أخرى نقص فى النطق . هذه الحالات من النقص الفردى ، فى غالب الأحيان ، لا تعنى غير الطيب . وغاية ما يعنى العالم اللغوى من أمرها أنه قد يستدل بها على اتجاهات اللغة . فأحياناً لا تكون هذه الأنواع من النقص فى الواقع إلا مبالغة فى ميل طبيعى . وفى هذه الحال يكون شأنها شأن الأعراض من حيث إنها تعلن عن نقط الضعف فى النظام ؛ فهى ترينا فى أى مكان تنهار المقاومة وفى أى اتجاه تهدد بعض الاتجاهات الجديدة أن تجرّ إليها اللغة . ولكن هذه الحال تتطلب من العالم اللغوى أشد الحذر ويمكن بوجه عام أن تتركه خارج دائرة البحث ، فللتعرف على وجود أى اتجاه يجب أن تشمل الدراسة أكثر من فرد .

ساد شرطاً طويلاً من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتى إنما يصدر عن الفرد وأنه لم يكن إلا تغيراً فردياً ثم عُمّم . وهذا إدراك للأشياء غير صحيح . فليس فى وسع أن فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبؤ عنه فطرتهم ؛ وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى . فلاجل أن يصير تغيير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية ، يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم^(١) . بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شئ . فإن النطق الشاذ لا يجلب أتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه .

قد يعترض معترض بتأثير الجدة ذلك التأثير الذى لا يمكن إنكاره فى بعض الحالات . فكلنا نعرف أن المجتمع الراقى فى عهد حكومة الديركتوار كان يعتمد

(١) ميه ، رقم ٩ ج ١ ص ٣١١ ، وج ٢ ص ٨٦٠ ؛ ورقم ٢ ج ٩ ص ٥٩٥ .

إلى عدم النطق بالراء محاكاة لآل بوهارنيه الذين كانوا لا ينطقون بهذا الحرف لعادة المولدين Gréoles : وقد أدى ذلك إلى « بدعة الأنكويابل » Les incroyables التي لم تستمر إلا وقتاً قصيراً ، ولم يبق منها إلا بعض الأساطير في الرسومات وكتب الأفاضل . وقد عرف العالم القديم بدعاً مماثلة . فالسياد كان من عادته أن ينطق الراء لامباً (أرسطوفان ، الزناير ، ص ٤٤ و ٤٦) ، فظن ابنه من الخير أن يحاكيه (أرشيپوس Archippos ونقل عنه بولتارك Plutarque في حياة ألسياد ، ص ٤١) . ويتهم كاتول Catulle على روماني معاصر له ، اسمه Arrius ، كان ينفس حرف C في اللغة اللاتينية ، محاكاة للاغريق ، فيقول chommoda بالشين بدلاً من commoda بالكاف .

هذه حالات استثنائية ، إذا فسرت تفسيراً لا تقاً أثبتت صحة القاعدة . إذ يلاحظ أن هذه التغيرات الصوتية لم تنته إلى نتيجة . فقد استمر الرومان على نطق الحرف C انفجارياً ؛ وتاريخ حرف C في اللغات الرومانية لا يبدو فيه أى اضطراب من جراء البدعة التي مثلها أريوس . بل ظلّ النطق الشاذ لهذا المتحذلق غريباً على النظام الصوتي عند اللاتينيين نعم لقد كان من الممكن أن يستمر في بعض الكلمات المنعزلة وقتاً طويلاً أو قصيراً . ولكن المسألة في هذه الحال لا تكون مسألة صوتيات بل مسألة مفردات . هذا إلى أنه يجوز لنا أن نتساءل إذا لم تكن الهواية التي يسخر منها كاتول إنما هي في الواقع مسألة مفردات لا أكثر من ذلك . إذ يبعد عن الاحتمال أن يكون أريوس قد غير جميع ال C (ك) في لسانه إلى ch (ش) ، أى أن يكون قد أبدل نطقاً من نطق بطريقة منظمة : بل لعله أحلّ الشين ch مكان الكاف C في بضع كلمات ليخلع عليها طابعاً اغريبياً .

تختلف عن ذلك حالة الأنكويابل الذين أدخلوا في الفرنسية العادية ، فرنسية باريس ، عادة نطقية من لهجة فرنسية أخرى ، هي لهجة المولدين في جزيرة المرتنيك . وإذن فإبعاد الراء من الفرنسية يبدو حينئذ مطابقاً لاتجاه عام في اللغة ،

على الأقل فيما يخصّ الرأى الحلقية التى تتميز بها فرنسية باريس . واليوم نرى هذه الرأى لا تحس إلا بقدر ضئيل فى بعض الأوضاع ، إذا جاءت بعد ساكن فى نهاية الكلمة أو وقعت بين حركتين . ولعلها كانت قد اختفت من اللغة الفرنسية لولا تأثير المدرسة والكتابة التقليدية . والرأى الإنجليزية التى من أصول الأسنان فى طريق الاختفاء أيضاً وإن كانت من مخرج آخر . فكثير من الإنجليز لا ينطقونها اليوم ، وإن كانوا لا يعرفون ذلك .

* * *

جرت العادة فى علم اللغة على أن يطلق على التغيرات الصوتية اسم القوانين^(١) ، مثل تلك التى تسمى قوانين « جريم Grimm » المتعلقة بالإبدال المباشر فى السواكن الجرمانية . ومن ذلك يستطيع المرء أن يكدّون فكرة عن القيمة التى يجب أن تعطى لكلمة « قانون » هنا .

وهناك جملة ظلت شهيرة ، تعلن أن « القوانين الصوتية تسير فى صورة عمياء ، وبجتمية عمياء (die Lautgesetze wirken blind , mitblinder) وبجتمية (٢) Notwendigkeit .

هذه الجملة التى أثارت فى حينها مناقشات حادة لا تثير اليوم سوى الابتسام . وأقل ما يقال فيها أنها جريئة ، إذ تضاف على القانون الصوتى سلطة لا مبرر لها . فالقانون الصوتى لا يمارس حدثاً وليس « ضرورياً » بالمعنى العلمى للمصطلح . وكلمة « قانون » ، وقد استعملت هنا على ضلال ، هى التى جرت إلى الخطأ . يُسنّ القانون إيهيمن على أعمال الإنسان ، ومن ثمّ كان فعله متّجها نحو

(١) أنظر مراجع Van Ginneken رقم ٧٧ ص ٦٢ ، وخاصة مييه : القوانين الصوتية رقم ٩ ج ١ ص ٣١١ : Wechessler : Gibt es Lautgesetze ? (هل توجد قوانين صوتية ؟) ; Das Wesen der Lautgesetze : B. Delbrück ; (ماهية القوانين الصوتية) رقم ٢٤ ج ١ ص ٢٧٧ — ٣٠٨ عام ١٩٠٢ ؛ ج . فندريس : تأملات فى القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ ص ١١٥ — ١٣٠ عام ١٩٠٢ ، Baudouin de Courtenay رقم ١٤٢ . (٢) هى للعالم اللغوى الألمانى هرمن ستوف Hermann Stoff (١٨٩٠) . وكان البدء فى إقامة القوانين الصوتية بين سنتى ١٨٢٠ و ١٨٨٠ بوجه عام . أنظر شوخارت ، رقم ٢٠٤ .

المستقبل : فقانون المقوبات يصفى حساب الجناة ، والقانون المدنى على المواطنين مسلحكمهم . لذلك كان من الاتساع المسىء أن أطلقت كلمة قانون على الحقائق الطبيعية الناتجة من الاختبار ؛ كما فى الطبيعة أوفى الكيمياء . والذي ساعد على هذا الاتساع أن العلاقات التى يكشف عنها الاختبار فى هذه العالوم بين الظواهر المختلفة هى علاقات دائمة ، حتى لبدو كأن القانون ، وهو تعبير مجرد عن هذه العلاقات ، سابق على الاختبار وإن كان فى الواقع متأخراً عنه . ولكن من إساءة الإستعمال فى اللغة على كل حال أن تضفى على القانون صفة الإلزام .

إن القوانين الصوتية لاتشبه حتى قوانين الطبيعة والكيمياء . فالذى يجمع بين حالين متتابعين فى لغة واحدة إنما هو رباط تخلقه وليس رباطاً طبيعياً ؛ لذلك لايمكن أن نعرف مقدماً كيف يتطور هذا الصوت أو ذاك ، لأنه يوجد دائماً فى تطور الأصوات عدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التى تنتج أثرها . ومع ذلك فالقانون الصوتى ، بوصفه تعبيراً عن تغير وقع فى الماضى ، له صفة الإطلاق . هذه الصفة نتيجة لانسجام النظام الصوتى واطراد التغيرات (أنظر ص ٦٥) . ولما كان التغير لاينحصر فى كلمة منعزلة ، بل فى آلية النطق نفسها ، فإن جميع الكلمات التى تتبع آلية واحدة فى النطق تتغير بنفس الصورة . هنا مبدأ القوانين اللغوية بأسره ؛ وهذه القوانين ليست إلا عبارات تلخص هذه العمليات ، وإلا قواعد من الارتباطات .

بواسطة القوانين الصوتية يمكننا أن نصوغ فى بضع عبارات تاريخ الأصوات فى لغة من اللغات أو أن نكشف عن سر التغيرات التى أصابتها . وإذا عرفت من اللغة كلمة يبرر القانون صيغتها ، عرفت مقدماً صيغة جميع الكلمات الأخرى التى تقع تحت طائلة هذا القانون . وإذا كان هناك لهجتان صادرتان عن لغة واحدة تبعاً لقوانين خاصة ، فإن مظهرها الصوتى يستبين بمعرفة هذه القوانين . وإذا عرفت أن الألمانية قد أبدلت ال « تس » من ال « ت » القديمة الواقعة فى أول الكلمة والتى احتفظت الإنجليزية بها ، أمكن تفسير Zähre فى مقابلة tear « دمة » ولكننا نفهم أيضاً المقابلة التى بين Zehn و ten « عشرة » وبين Zwingen « يقسر »

و twinge « يضنط » ، وبين Zunge و tongue « لسان » الخ . فالواحدة من هذه الكلمات تنبئ عن الأخرى . وقد حدث لبعض علماء اللغة أحياناً أن يننوا بادئ ذي بدىء صيغة لكلمة غير موجودة ، ثم وجدوا لها فيما بعد ما يبررها باكتشاف نص جديد . فالقوانين اللغوية أساس كل عمل يحس الاشتقاق . والاشتقاق الذى يستطاع من حسابه يضيع وقته عبثاً .

من السهل أيضاً إثبات ما يمكن أن تقدم هذه القوانين من خدمات فى دراسة اللغات الأجنبية . إذ يمكن فى تعلم لغة جديدة ، أن نحصل على مساعدة قيمة من معرفة قواعد الصلات التى بين هذه اللغة الجديدة واللغات التى نعرفها من قبل . وهكذا إذا عرفت أن الأسبانية تبدل من الفاء f اللاتينية هاء (h) عند ما تكون فى أول الكلمة ، فإنى أعرف مقدماً أن hacer هى فى الفرنسية faire « يعمل » و harina هى « farine دقيق » و heno هى foin « دريس » hierro هى fer « حديد » hijo هى fils « ابن » و hoja هى feuille « ورقة » و humo هى fumée « دخان » ، الخ . وهناك فى مثل هذه الأحوال نوع من الحس يقود الذاكرة بل يستعاض به عنها عند الحاجة فى العثور على صيغة الكلمة مع شىء من ضمان صحتها . ومع ذلك فبحال الخطأ موجود . بل هنالك من أخطاء الكلام ما هو ناجم من تطبيق القوانين الصوتية تطبيقاً خاطئاً أو مبالغاً فيه (من ذلك حالات المبالغة اللهجية أو المبالغة المدنية التى سنتكلم عنها فى أواخر هذا الفصل) . فى الحالة السالفة الذكر يخطئ الإنسان إذا أراد أن يبنى بادئ ، ذى بدء اسم النار « feu » بالأسبانية اعتماداً على الصيغ المقابلة لها فى اللاتينية focus والإيطالية fuoco والفرنسية feu . لأن الصيغة الحقيقية هى fuego وليست fuego لأن انتقال الفاء f المبدئية إلى هاء h لا يقع فى الأسبانية قبل حرف " إذا تلتته حركة . واللهجات الفسقونية تذهب فى هذا الصدد إلى أبعد مما تذهب إليه الأسبانية فتقول فى feu « نار » huek محققة انتقال الفاء f المبدئية إلى هاء h فى جميع الأوضاع ^(١) .

(١) أنظر ميه : علم اللغة التاريخي وعلم اللغة العام ، رقم ٢٢ ، (١٩٠٨) ، ص ٥ .

أول ما يجب العناية به على العالم اللغوى أن يحدّد باليضبط شروط تطبيق القانون ومدى انتشاره فى المكان والزمان .

الواقع أن التغيرات الصوتية محدودة بالزمان : فما دام التغير قد أصاب جميع الكلمات التى تقع تحت طائلته ، يصبح القانون الذى يفسره وكأنه قد نسخ . ويمكن للغة أن تخلق مركبات صوتية جديدة مشابهة كل الشبه للمركبات التى كان التغير يعمل فيها سابقاً . هذه المركبات تبقى دون تغير ؛ فيقال إنها لم تعد واقعة تحت سلطة القانون . وهكذا يوجد فى كل اللغات مزدوجات ، تمثل كلمات من منبع واحد دخلت اللغة فى حقب مختلفة ؛ وتعرف أقدمها بكونها أكثر تشويها ، فهى قد عانت فعل التغيرات الصوتية التى توقفت عن العمل فى التاريخ الذى دخلت فيه الأخرى . فعندنا فى الفرنسية ^(١) avoué و avocat (محام) وكذلك loyal (وفى) و légale (مشروع قانونا) ويرجع كل زوج منهما إلى أصل لاتينى واحد . وعندما دخلت الكلمة الثانية من كل زوج منهما فى اللغة الفرنسية ، وكان دخولها بطريق يخالف دخول الأولى ، كانت التغيرات الصوتية التى أثرت فى الأولى قد كفت عن العمل منذ زمن طويل .

وقد يحدث لبعض القوانين الخاصة بالعلاقات المقررة بين بعض اللغات أن تصير فى حالة نقص بسبب استعارات محدثة . ففى الألمانية تقابل السين المضعفة ss التاء البسيطة أو المضعفة فى الإنجليزية إذا كانت داخل الكلمة : فكلمة besser « أحسن » تقابل better (أحسن) ، كما تقابل كلمة wasser (ماء) كلمة water . ولكننا نجد اللغتين تعبّران عن كلمة زبد بلفظ واحد هو butter كما نجد فى الألمانية Messe وفى الإنجليزية mass « عيد » فى الكلمتين (Christmas و Lammas) وكل حالة من الحالتين تناقض القانون الصوتى السالف الذكّر فى اتجاه مخالف . ذلك أن butter و mass (Messe) مستعارتان من اللاتينية .

(١) المراد بهذا المصطلح رجل القانون الذى يعهد إليه الموكلون بمباشرة القضايا ، وهو نظام متبع فى القضاء الفرنسى . المرابن .

وحتى لو أننا حاولنا أن نعمل حساب الشروط التي تحرر طاقة القوانين الصوتية ومدى انتشارها وتسمح بتفسير الحالات التي ظاهرها الشذوذ على أنها أحداث طبيعية ، فإننا لا ننجح دائماً في تجنب جميع الصعاب ؛ لأن منها ما هو لاصق بالطريقة نفسها . ولأن القانون الصوتي من جهة أخرى لا يعطينا إلا معلومات ناقصة عن طبيعة التغير الذي يسجل نتيجته ، وليس هو بعد كل هذا إلا حلاً وسطاً يلخص عمليات مختلفة معقدة .

يجب في التغيرات الصوتية أن تميز تلك التي تحدث بالاستبدال من تلك التي تحدث بالتطور . فهناك تطور عند ما يتحول صوت إلى صوت من تلقاء نفسه بطريق التجدد الطبيعي . ففي فرنسية الإيل دي فرانس^(١) ، نرى أل « e » اللاتينية (فتحة مماله) وهي الطويلة المقفولة قد صارت على التوالي « وى » ثم « wa » (تكتب اليوم oi وفقاً لرسم قديم أصبح منذ القرن الثالث عشر لا يمثل النطق تمثيلاً صحيحاً) . فنحن ننطق « lwa » « لوا » و « rwa » و « روا » و « pwar » « پوار » و « lwar » « لوار » الكلمات التي تكتب « loi » « قانون » و « roi » « ملك » و « Poire » « كثري » و « loir » « حيوان قارض » . هذا هو النطق الطبيعي في باريس . فإذا سمع هذا النطق في لهجات بعض الأقاليم النائية ، فذلك ناشئ في غالب الأحيان استعارة من كلام باريس وليس تجديداً طبيعياً في هذه اللهجات . وبرهان تلك الحقيقة موجود في ذاك الكلام نفسه الذي لا يزال يحتفظ بنطقه الطبيعي في صوزة أقدم عهداً أو في كلمات خاصة متفرقة : فمثلاً قد نسمع في إحدى لهجات الريف . un lèr « لير » بدلاً من loir (لوار) إلى جانب كلمة une poire (پوار) . فنطقه « پوار » على هذا النحو من عمل المحاكاة ، يعنى الاستعارة^(٢) .

أهمية الاستعارة فيما يتعلق بالتغيرات الصوتية تتجلى في تكوين جميع اللغات الأدبية . فمن عمل الاستعارة ما نراه في لهجة ألمانيا الشمالية من استبدال « ai »

(١) الإيل دي فرانس : مقاطعة فرنسية قديمة كانت تشمل باريس والمقاطعات المحيطة بها المران .

(٢) عن طابع الاستعارات في اللهجات أنظر جرامون ، رقم ٧ ، مجلد ١٠ ، ص ٢٩٣ وتراشيه Terracher ، رقم ١٢٤ ، المقدمة .

و au أو مكان التكررة ؛ والضمة u البسيطتين ؛ فالتغير لم يقع من تلقاء نفسه .
كذلك الحال عند ما يعتق السكسونى النطق الألمانى العادى فيقول müssen
(بالضمة الهالة إلى الكسرة) و schon بدلاً من أن يقول missen (بالكسرة)
و schön (بالكسرة الهالة للفتحة) ، فهذا تغير بالاستبدال لا بالتطور^(١).

ولكن نص القانون الصوتى لا يكشف عن طبيعة التغير ؛ فلا بد إذن من
دلائل إضافية وتحقيق خاص لمعرفة إلى أية بقعة من الإقليم يكون التغير طبيعياً ناتجاً
من تلقاء نفسه ، وابتداء من أى حد يكون ناتجاً من الاستبدال بالمحاكاة . ولعله
مما يحدث غالباً فى تاريخ اللغات القديمة أنه عندما يصاغ قانون صوتى يشمل جميع
الإقليم فإنه يُدخل تحت هذا القانون أشياء مختلفة وذلك يؤدى إلى خلط الاستبدال
بالتطور عن غير قصد .

وهناك أسباب أخرى كثيرة تخفى على القانون الصوتى . فعندما نقول بأن الهاء
المنفّسة h أو الثاء w (digamma) قد اختفت من اليونانية فإننا نلخص
فى بضع كلمات تطوراً فى غاية التعقيد لا يعنى الصوتيات وحدها . فيجب أن نرجع
إلى العرض المجمل الذى عمله ميه^(٢) لئلا نرى التقلبات التى مر بها نطق هذين
الصوتين . وكيف ساعدت ظروف سياسية أو اجتماعية على الاحتفاظ به أو إحيائه
من جديد فى بعض اللهجات ، وعلى استبعاده فى البعض الآخر . والواقع أنه إذا
كانت الهاء h البدئية قد اختفت من لهجات اليونان الحديثة فإن تاريخ اختفائها
يمتد على حقبة طويلة من الزمن ؛ لقد اختفى النطق بهذه الهاء فى يونية آسيا
وإبولية لسبوس فى زمن مبكر ، ولكننا نجد آثاراً أكيدة من وجودها بعد الميلاد .
وأطول من ذلك الوقت الذى لزم لإختفاء الثاء w ؛ فقد فقدتها اليونانية والأتيكية
فى فترة ما قبل التاريخ ، أما فى لاكونيا فقد ظلت تنطق حتى العهد الذى جمع فيه
القاموس الذى نقل عنه هيرخيوس Hésychius ولعلها تختفى اختفاء تاماً من
هذا الإقليم فى يوم من الأيام ، إذ يبدو أن التساكونية الحديثة ما زالت محتفظة

(١) يوارو : رقم ٢ ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ ؛ وانظر برير ، رقم ١٤٧ ، ص ١١ ؛

وعن اللغة الإنجليزية أنظر ستورم ، رقم ٢٠٩ ، ص ٨٢٠ .

(٢) رقم ٩٣ ، صفحات ٢٤ ، ٢٧ ، ١٦٧ .

بها إذ أننا نراها تنطق Vanne. فان « سَحَلْ » (وهي الإغريقية القديمة Faqviou) ومع ذلك فمن الحق أن أيجاد الإغريقية العام في كل لهجاتها كان يذهب إلى إسقاط هذه الهاء h وهذه التاء معاً ؛ ولذلك حق للعالم اللغوى أن يذهب إلى أن إسقاطها قانون من قوانين اللغة الإغريقية ، رغم شذوذ التناكونية عنه حتى يومنا هذا . فصيغة القانون على هذا النحو تعبر عن أيجاد اللغة وتلخص التطور الصوتى الذى مرّ فى الواقع بعدد من العمليات والمظاهر اختلفت باختلاف العصور والأماكن .

لعمل اختبار الجزء الأعظم من القوانين الصوتية الكبيرة التى تتميز بها اللغات يقودنا إلى تقرير هذه النتيجة .

فالقوانين اللغوية التى يصوغها علماء اللغة لا تعبر إلا عن حالات وسطى ، سواء أكان ذلك فى الزمان أم فى المكان . إذ لا يتم التحول الصوتى دفعة واحدة على رقعة من الأرض مترامية الأطراف كتلك التى تتكلم فيها الفرنسية أو الألمانية ، الإغريقية أو اللاتينية . ومع ذلك فى وسعنا أن نقرر بأن الفرنسية قد غيرت الفتحة المائلة المقفولة (e) — التى كانت فى اللاتينية — إلى (o) وأن الألمانية تستعمل فى داخل الكلمات السين المضعفة مكان التاء t فى الإنجليزية سواء أكانت بسيطة أم مضعفة . لأننا إذا رجعنا إلى القاموس واستعرضنا جميع الأمثلة واحداً واحداً بعد أن نستبعد منها بالطبع المستثنيات الناتجة من الإستعارة ، لم نجد فيها واحداً فقط ينقض هذه القاعدة .

فالقانون يكاد يكون مطلقاً بالنسبة لمؤرخ اللغة الذى لا يختبر إلا النتائج ولا يشمل بنظره إلا تطور اللغة فى مجلته . أما من يلاحظ اللغة المتكلمة ويحسب فى إقليم على درجة ما من الاتساع ، إقليم يشهد تحولاً صوتياً ، فإنه يرى الأشياء بعين مختلفة : فإذا ما أراد أن يثبت تاريخ ذلك التطور الصوتى من حيث المكان والزمان رأى محتوماً عليه أن يكتب فى باعتبار فرد واحد مع مقارنته بأسلافه وأولاده المباشرين .

إذا جمعنا النتائج التى تقدمها لنا لهجات لغة واحدة فى أطوار تاريخها المختلفة ،

حصلنا على خط يبانى مطرد لتطور كل صوت لغوى (ص ٦٥) . بل حتى لو اعتبرنا المسألة من وجهة نظر جغرافية محضة وراقبنا تغيراً صوتياً ، على رقعة معينة من الأرض لوجدنا خطوات هذا التطور تتدرج من قرية إلى قرية .

فهناك ميل فى البريطانية الحديثة نحو تغيير الصوت اللغوى المعقد الذى يرسم c'hw إلى f . وهذا الصوت يشتمل على احتكاك كى حلقى مهموس متبوع بشبه حركة w « و » ينطق كما فى الإنجليزية . فى شمال المنطقة البريطانية ، فى ليونار ، يمكننا حتى الآن أن نسمع هذا الصوت بوضوح : c'hwech « ستة » و c'hwero « مر » ؛ وفى الجنوب الغربى من هذه المنطقة ، بين دوارينز Douarnenez ورأس الاز Pointe du Raz ، نسمع نفس الكلمتين تنطقان fero و fèc'h بالفاء الاحتكاكية كما نراها فى fève « فول » و faire « يعمل »^(١) .

يمكننا من الوجهة النظرية أن تتمثل خطوات التطور دون مشقة فلا بد أن ال c'h قد مرت أولاً بخطوة التنفيس البسيط ، على نحو الصوت اليونانى المقابل المسمى بالفرنسية : « esprit rude » والهاء الألمانية la . ونحن نعرف هذا الانتقال فى لغات أخرى ، وفى الألمانية نفسها بوجه خاص . وفى الوقت نفسه اتجه ميل الواو w إلى أن تصبح احتكاكية أسنانية شفوية لتنتهى إلى الفاء v البسيطة ؛ وهو تغير معروف أيضاً خير معرفة نستطيع أن نسميه تغيراً تقليدياً ، لأنه وقع فى كثير من اللغات ابتداء من اللاتينية الدارجة والألمانية . ومن ثم تحولت المجموعة القديمة c'hw إلى hv . ثم عانت المجموعة الأخيرة بدورها تحولاً كان منتظراً . إذ أخذ التنفس المدفوع للنطق بالهاء h يوقف الذبذبات الحنجيرية ويطنى على الفاء v فجعل منها فاء مهموسة f . وهذا ما وقع فى الإيرلندية القديمة حيث نجد المجموعة hv (الصادرة من sw س ولا من c'hw كما فى البريطانية) تنمخض عن فاء F . فتطور المجموعة البريطانية c'hw يفترض إذن عدداً من الخطوات الانتقالية ، ولكنها جميعاً مشروعة ومتفقة مع وقائع شوهدت فى غيرها .

(١) ج . لوث ، رقم ٨ مجلد ١٨ ، ص ٢٣٨ وفتدريس رقم ١ مجلد ١٦ ص ٣٩٠ .

فإذا تركنا إقليم الليونار متجهين نحو دوارنينيز Douarnenez مارّين بشاتولان Chateaulin ولسكرونان Lacronan قابلتنا عملياً ، مبعثرة في أماكن متباعدة ، هذه الخطوات التي وصلنا إلى استنباطها من اعتبارات نظرية . على هذا النحو يستعيد الإنسان تاريخ اللغة في نفس المكان الذي حدثت فيه التغيرات : فيُنتقل إذن من c'hw إلى hw ، ثم إلى hu ، ثم إلى f ؛ والمناطق الجغرافية للأصوات تهبط إذن في درجات متتابعة . ومن العدل أن نقول بأن انتقال c'hw إلى hw إلى الفاء f ناتج من أحد اتجاهات اللغة البريطانية الحديثة ، ولكن هذا الانتقال لا يتحقق تحققاً تاماً إلا في جزء واحد من الإقليم ، ويفترض حدوث سلسلة من العمليات المعقدة التي لا يشير إليها علم الصوتيات .

وحالات الاستثناء من التغيرات الصوتية أمر لا يستطاع تجنبه . ونحن نعرف منها عدة أمثلة كان سببها في غالب الأحيان أن كلمات دخلت اللغة بعد ما توقف تأثير القوانين التي كانت تستلزم تعديلها . فلكل مسألة استعارة ولها تاريخها في ميدان الألفاظ المستعارة . فيوجد في تاريخ جميع اللغات عدد كبير من المستثنيات ناتجة من الاستعارة ، أي أنها ترجع إلى تأثيرات خارجية .

كثير منها أيضاً يرجع إلى تلك التأثيرات الداخلية التي تلتخص فيما يسمونه القياس analogie . وينحصر القياس في أن التغير الذي يفرضه القانون الصوتي على كلمة من الكلمات قد يتوقف أو يعدّل تحت تأثير كلمات أخرى من اللغة . فمثلاً يفرض قانون فرنسي مطرد أن تصير الكاف اللاتينية c شيئاً ch في الفرنسية إذا كانت واقعة قبل فتحة قديمة (a) فتقول chien « كلب » و chèvre « عذرة » و cheval « حصان » و chantre « مغنٍ » من canem و capram و caballum و cantor . ومن كلمة capsa اللاتينية جاءتنا كلمة chasse « صندوق معدّ لحفظ مخلفات الصالحين » . وقد جاءنا منها ، بطريق الاستعارة عن إحدى اللهجات الجنوبية ، كلمة caisse « صندوق » التي دخلت الفرنسية في تاريخ كان فيه القانون الذي نحن بصددّه قد توقف عمله : هذه حالة تدخل تحت ما سميناه سابقاً بالتأثير الخارجي . ولكن من vincat اللاتينية (صيغة النصب من

vinco ومعناه يهزم) كان يمكن أن يقال في الفرنسية *qu'il vainche* «لأن يهزم» بالشين : فإذا كنّا نقول *qu'il vainque* بالكاف فذلك لأننا أثبتنا الانفجاري في هذا الفعل المنصوب قياساً على صيغ أخرى كاسم المفعول *vaincu* « مهزوم » الذي أبقى فيه على الانفجاري اطراداً لأنه واقع قبل *u* . القياس لا يكف عن أن يصحح أثر القوانين الصوتية أو أن يعوقها . فكثيراً ما يعرقل تطور الأصوات في سيره المطرد ؛ مما جعل عالماً اشتقاقياً لامعاً محباً للنظام والوضوح يقول بأنه في بعض الأحيان « تعثره نوبات من الغضب من جراء تحريكات القياس ^(١) . » والواقع أنه لا تكاد تمر عملية صوتية دون أن يصيبها منه بعض الاضطراب إن قليلاً وإن كثيراً . وغالباً ما يكون معنى الكلمات هو الذي يحدث أثره : ومن هنا تولد أحداث من الاشتقاق الدارج الذي هو أيضاً من « آفات » الصوتيات . وسنعاود الكلام في هذا في الفصل الأول من الباب الثالث .

يجب أن نلحق بهذا الباب حالات الإسراف في المدنية والإسراف في اللهجية ^(٢) . وما يسمى الإسراف في المدنية هو المبالغة التي يؤدي إليها ولع صحة الكلام عند من يفخر بجمال العبارة . كالذي حدث أن فلاحاً إيطالياً أراد أن يتكلم لاتينية روما ، وكان يعرف أن حركة *o* الطويلة في لهجته يقابلها غالباً *au* الـ *diplongue* في لغة العاصمة فراح يقول *plaustrum* (بلوسترم) بدلا من *plostrum* و (كودا) *cauda* بدلا من *Coda* (كودا) و *plaudere* (بلودير) بدلا من *plodere* (بلوديره) ذلك هو الإسراف في المدنية فحركة *al* هنا أقدم من الناحية الاشتقاقية . ولكن المدني أيضاً كان ميالا بطبعه إلى المبالغة في المدنية حتى لا يتهيم بالكلام على طريقة الفلاحين ؛ فكان يستعمل عن طيب خاطر الكلمات التي ذكرناها بالنطق الذي أشرنا إليه . إذ الواقع أننا نعرف أن مثل هذه الطرائق من النطق كانت تستعمل في روما نفسها ، وربما كان الناطقون بها من قدماء الرومان . فيروى أن السناتور فلوروس *Florus* كان قد أخذ يوماً

(١) ١ . توما : رقم ١٢٥ ، مجلد ٣ ص ٣٢ .

(٢) هـ . أورتل *H. Oertel* : رقم ١٣٧ ، ص ١٤٨ وما يليها .

على فيسبيان Vespasien أنه يقول plaustrum فأجاب الأخير السناتور
مازحاً وهو يستجوبه : « تحية يا فلورى Salve, Flaure ». والحق في جانب
فيسبيان لأن plostrum هي الصيغة الصحيحة ؛ أما پلوسترم plaustrum
فهى من إسراف في المدينة كما يمكن أن تكون فلورس Flaurus
كذلك .

وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطاء بسبب التردد في صيغة
الكلمات ؛ فمن الأخطاء الشائعة الغلو في مراعاة الصحة ؛ أو خطأ التطرف في
الحنبلية . هذا الخطأ كان كثيراً ما يقع من الإغريق عندما يحاولون الكتابة بلغة
غير لغتهم . ففي دورية المؤلفين الفيثاغورثيين يوجد الكثير من الإسراف في
اللهجية : إذ لما كان هؤلاء المؤلفون (أو ناسخوهم ؟) يعرفون أن η في الأتيكية
يقابل غالب الأحيان α في الدورية ، فقد غيروا η إلى α في أحوال كثيرة يبق
فيها الحرف η في الدورية على ما هو عليه . ويمكننا من ذلك أن نتصور وقوع أخطاء
كثيرة من هذا القبيل في الفترة التي فيها أخذت اللهجات اليونانية تندمج بعضها
في بعض لتكوّن اللغة المشتركة كلها أريد الكتابة بإحدى اللهجات الخالصة .
ومن الأسباب التي كانت توقع في الخطأ اختلاف الألوان في داخل اللهجة وامتلاؤها
بصيغ مشتركة ، فيصعب عند الكتابة التمييز بين ما هو من صميم اللهجة مما ليس
منها . بل حتى الأشخاص الذين يتكلمون اللهجة منذ ميلادهم يتعرضون لأخطاء
الإسراف في اللهجية .

* * *

رأينا في العرض المتقدم حالات كثيرة تصطدم فيها النزعات الصوتية المطردة
مع نزعات من طبيعة مختلفة . ولا بد أن مثل هذه الحالات قد مرّت كثيراً في
تاريخ اللغات ؛ وإليها يجب أن تعزى الشواذ التي تقابلها في التاريخ الصوتي قاطبة .
وقد كان يحدث ، على وجه الخصوص ، أن يغير شعب لغته وبالتالي كانت اللغة
الواحدة تتكلمها شعوب مختلفة . فتارة يفرض فاح لغته على مهزوم . وتارة تحمّل
الظروف السياسية والاجتماعية شعباً من الشعوب على اتخاذ لغة جارة . ومن هنا

كانت الانقلابات السريعة الغربية في تطور بعض اللغات . لأن الشعب الذي يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحياناً عوائد النطق في اللغة التي تركها . وعلى هذا الأساس اضطر الدارسون إلى البحث عن تأثير لغة الجول^(١) في اللغة اللاتينية الدارجة التي كانت تتكلم في بلاد الجول ؛ ولكن يجب الاعتراف بأن علماء اللغات الرومانية غير متفقين في هذه النقطة^(٢) . غير أنه من المحقق ، من جهة أخرى ، أننا نلاحظ وجود تطورات صوتية مشابهة في لغات شعوب مختلفة الجنس ولكنها متجاورة جغرافياً كما في الليثونية (وهي لغة فينية) والليتوانية^(٣) (وهي لغة هندية — أوروبية) ، وكما في الأرمنية (لغة هندية أوروبية) والجورجية .

كان بعض علماء اللغات يميلون إلى المبالغة في تأثير تغيير اللغة فيجعلونه أصلاً للتغيرات الصوتية الرئيسية^(٤) . والواقع أن هناك تغيرات صوتية ذاتية تنتج من التحذار الطبيعي في النظام ويدعو إليها استعمال اللغة نفسه ويبررها كذلك .

دراسة تطورات اللغات تسمح لنا بأن نميز في سلسلة من التحولات الصوتية ما يرجع فيها إلى ظروف أجنبية . والعالم اللغوي الذي دأب بأدى ذي بدء على معرفة النظام الصوتي للغة من اللغات في فترة من فترات تطورها معرفة عميقة ، يستطيع دون مشقة أن يتعرف في التاريخ اللاحق لهذه اللغة آثار الاتجاهات الطبيعية التي كانت تحتويها اللغة بذوراً في عهد سابق . هذه الدراسة تبشر بدراسة ذات قيمة عامة . فإن من ينجح في استخراج التعليمات التي تقدمها له جميع اللغات التي يعرف تاريخها ، وفي تسميتها ، يستطيع أن يحرر العمليات المطردة للتغير الصوتي . ولكن هذا العمل لم يعمل حتى الآن . ومع ذلك فأى عالم لغوي على علم بالصوتيات التاريخية لعدد من اللغات لا يكاد منذ الآن يتردد إذا ما رأى أمامه حالتين صوتيتين واردتين ، في أن يقرر أيهما أسبق وفي أى اتجاه قد وقع التغير .

-
- (١) المراد بالجول هنا فرنسا القديمة قبل الفتح الروماني . المربران
(٢) ماير لوبكه Meyer - Lübke رقم ١٨١ ص ١٧٠ ، عن تأثير اللغة السلافية على لغة رومانيا أنظر دنسيانو Dansusianu رقم ٦٦ ، مجلد ١ صفحة ٢٤١ .
(٣) جيسرسن : رقم ١٢٣ ، صفحة ٧٩ .
(٤) أنظر خاصة Jamillscheg : عن تبادل الأصوات (المسائل الأساسية لعلم اللغات الرومانية صفحة ١٦٢ — ١٩١) عام ١٩١١ ؛ وقارن دلبوك : رقم ٢٥٣ صفحة ١٥٢ .

الفصل الثالث

الكلمة الصوتية والصورة اللفظية

التغيرات الصوتية التي تكلمنا عنها حتى الآن تنتج من التحول في النظام الصوتي للغة . وسبب التحور الواقع في الأصوات اللغوية كان يبحث عنه في العلة بين هذه الأصوات وبين النظام الصوتي . ولكن هذا النوع من التغير ليس الوحيد الذي ينبغي للعالم اللغوي أن يحسب حسابه .

لا توجد في اللغات أصوات لغوية منعزلة . وهذا لا يعني فقط أن الأصوات اللغوية لا توجد مستقلة وأنها لا تحلل على انفراد إلا بنوع من التجريد إذ أنها في كل لغة تكون نظاماً مترابطاً . ولكن معنى ذلك أيضاً أنها لا تستعمل على انفراد : فلا يتكلم إلا بمركبات من الأصوات اللغوية . فأقل جملة ، وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة وقد تركبت فيما بينها . ومن هذه المركبات تنتج أفعال متبادلة تؤدي إلى أنواع مختلفة من التحوير . والتغيرات التي تصيب الأصوات من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة هي ما يمكن أن نسميها بالتغيرات التركيبية . وأهميتها في تاريخ اللغة لا تقل عن أهمية التغيرات السابقة^(١) . ولكن يجدر بنا قبل أن نبدأ في درسها أن نبين حدود المجموعة الصوتية التي في داخلها تحدث التغيرات التركيبية ، أو بعبارة أخرى ، أن نحدد الكلمة الصوتية .

* * *

السؤال الذي يتطلب الإجابة سؤال مزدوج . وينحصر في أن نبين أولاً عاماً إذا كانت الجملة في لغة من اللغات ، إذا ما اعتبرت من جهة الأصوات اللغوية التي

(١) سيقرس : رقم ٢٠٥ ص ٣٧٧ ، والعرض القيم للحقائق السلافية لبروخ .

تتركب منها مخسب ، تتضمن أقساماً يحسبها التشكلم أم لا ؛ ثم عما إذا كانت هذه الأقسام تطابق أقساماً نفسانية أم نحوية .

أما عن النقطة الأولى فيمكننا أن نجيب بالإيجاب دون تردد . فليس مما يشك فيه أنه توجد في كل جملة أيّا كانت أقسام صوتية طبيعية . بل إن هذه الأقسام عديدة الأنواع .

التقسيم إلى مقاطع يعد واحداً من أظهر هذه الأقسام . كل متكلم يشعر به كما يبرهن عن ذلك علم الأمراض العقلية^(١) . فقد لوحظت حالات من فقدان الذاكرة ظل فيها الإحساس بالمقاطع حياً بعد نسيان الكلمة نسياناً تاماً . مثل هذا المريض لا يستطيع تعيين الأشياء إلا بعد المقاطع التي تكون الكلمة الدالة عليها ؛ فعجزه عن التعبير بكلمة غطاء أو مقعد ، فإنه يعرف مع الإشارة بأصبع يده أن كل واحدة من الكلمتين تتكون من مقطعين . فقد ضاعت من ذاكرته الحركات النطقية التي يجب القيام بها للنطق بالكلمة ولكنه مازال يعرف كم عددها . نعم قد يمكن أن ترد شهادة هذا الاختبار بحجة اختلاطه بمبادئ محصلة لدى تعلم القراءة وأنه من المستحيل التمييز بين ما يرجع إلى اللغة المكتوبة وما يرجع إلى اللغة المتكلمة ؛ فقد يمكن لعوائد اليد التي تخط الحروف وعوائد العين التي تدركها أن تختلط هنا فتفسد نقاء الصلات التي تربط الحقائق بعضها ببعض .

يستخرج من النظم نتائج أخرى أكثر قوة من سابقتها . ففي عدد كبير من اللغات يقوم الوزن على عدد المقاطع ، وذلك في لغات كانت تجهل الكتابة وحياة الشعر فيها كانت قائمة على تقاليد شفوية . ففي الهند وفي اليونان ، أول ما بدأت الآداب ، كانت تنظم قصائد طويلة يحسب فيها عدد المقاطع بشدة صارمة . وهذا على الأقل إذا جاز لنا أن نبني حكمنا على ورثة كتاب التيدا المباشرين أو على مؤسسي الشعر الغنائى اللسي^(٢) . وبدايات الكتابة تركز هذه الشهادة ، ففي الكتابة الصوتية بدى في تسجيل اللغة بتسجيل المقاطع . فالتقسيم إلى مقاطع سبق التقسيم

(١) أنظر روسلو ، رقم ١١٥ ، ج ٢ ، ص ٩٦٩ .

(٢) ل . هائية : رقم ٨٠ ص ١٦٦ .

إلى حروف ، بل عاقه مدى طويلا أو قصيراً (أنظر الجزء الخامس) . وكان لابد من تحليل طويل دقيق لتمييز عناصر المقطع . أما الأبجديات الأولى فسابقة على هذا العمل : فهي مقطعية .

بل إن التقسيم إلى مقاطع قد سبق التقسيم إلى كلمات . ففي أقدم النصوص لكثير من اللغات لا يفصل بين الكلمات . ففيها آخر كل كلمة مركب مع مبدأ الكلمة التالية تبعا لقواعد الكتابة المقطعية ؛ تلك هي الحال في كتابات الهند القديمة ، وكذلك في الكتابة القبرصية ، وهي بدورها كتابة مقطعية .

يبدو أن التقسيم إلى مقاطع هو أول ما يحتل ذهن القارئ الذى يود أن يقيد بالكتابة جملة سمعها أو نطقها : ونحن نعرف مقدار المشقة التى يعانها أشخاص غير مثقفين لفصل الكلمات فصلا صحيحا ، وعلى العكس من ذلك مقدار دقة حسهم فى التقسيم إلى مقاطع : فيظهر أن هذا الأخير أقرب إلى الطبيعة وأن الأول فيه قسط من التوافق الذى يحتاج إلى دراسة ومران .
ومع ذلك فإن تعريف المقطع أمر عسير^(١) .

فلنأخذ أبسط الحالات : الحالة التى تحتوى على سلسلة من السواكن والحركات مرتبة ترتيبا تبادليا ، وتكن مجموعة مثل المجموعة الفرنسية L'Académie des Beaux-arts ، منطوقة هكذا Lekadémidébozar « لا كاديي ديبوزار » . يمكننا من التجديد الذى حددناه فيما سبق للسواكن والحركات أن نستخلص قاعدة تنظم هنا التقسيم إلى مقاطع . فالحركات تقتضى فتح الفم : وهذا الفتح مهما اختلف سمته ، فهو دائما أكبر من ذلك الذى يصحب السواكن . بل إن بعض السواكن ، وهى الانفجارية ، لا يصحبها فتح قط ؛ والأخرى التى يصحبها فتح فى التجويف الحلقى تتميز بضوضاء احتكاكية ، مما يفترض ضيق فتح الفم نسبيا . تقدم إذن مجموعة الأصوات التى افترضناها سلسلة متتابعة من الفتح والتضييق الذى يذهب أحيانا إلى حد الإغلاق . فحالات الفتح تقابل

(١) هذه السطور كانت قد كتبت عندما نشر كتاب فردينا ندى سوسير ، رقم ١٢١ حيث تعرض فى ص ٦٤ ومايلها (ولاسيا ص ٨٩) نظرية عن المقطع تعد جد غريبة .

الحركات وحالات الإغلاق تقابل السواكن . هذه الحقيقة تتجلى بشكل مقنع في الصورة التي ترسمها الإسطوانة المسجلة . فإذا تتبعنا حركات الريشة ، أمكننا قراءة التقسيم إلى مقاطع . فالحركات ترسم منحنيات تختلف فيما بينها في درجة الانحناء ويدل مكان النزول منها على أوقات الإغلاق التي تكون السواكن .

أما موضع الدقة فينحصر في تحديد النقطة التي تبدأ وتنتهي عندها المقاطع . يرى الأستاذ روديه M. Roudet أن التقطيع يظهر في ثلاثة وجوه تبعاً لوجهة النظر التي يرى منها . يقول : « يوجد عند الانتقال من مقطع إلى مقطع تغير مفاجئ يصيب كلا من الجهاز التنفسي والحركة النطقية والإدراك السمي معاً^(١) . » هذا التغير الثلاثي يسمح ، في بعض الأحوال ، بتعيين حدود المقاطع ؛ ويكون التقسيم تحكيمياً في أحوال كثيرة أخرى . لذلك يكون من العبث أن نسمي إلى تحديده كما لو أردنا أن نحدد النقطة التي يوجد عندها قاع واد يقع بين جبلين .

أما تعريف الكلمة الصوتية فالتحكم الذي يعتريه لا يقل عن سالفه ، بمعنى أن كثيراً من المقاطع بل ومن مجاميع المقاطع لا نعرف ما إذا كنا نردها كلمات مستقلة أو أن نصلها بالكلمات المجاورة لها . فالتقسيم يكون قاطعاً أو غير قاطع تبعاً للغات المختلفة .

كان يجب أن نجد في النبر وسيلة لحل المسألة . لقد رأينا أن إصدار النفس ، عند خروجه من القصب ، لا يحدث بصورة مطردة متساوية . فتصريف كمية الهواء غير متصل لأن العضلات التي تهيم على المنفاخ الصوتي تعجل حركته تارة وتبطئ فيها تارة أخرى .

وإذن فهناك حالات من الإسراع ومن التقطيع الوزني ومن تخفيف السرعة ومن أوقات التوقف ، يقع كل هذا بعدد يقل أو يكثر تبعاً للغات وتبعاً للمتكلمين . وبعبارة أخرى ينطوي الكلام في حد ذاته على مبدأ من الوزن مع فترات من القوة وأخرى من الضعف . كما نستطيع تقسيم الجملة الموسيقية ، باستثناء الميلودية Mélodie ، إلى تفاعيل (وحدات) Mesures ، كذلك يمكننا أن نجد في كل

جملة أيا كانت ، إذا استثنينا المعنى ، عدداً من التسميات لعلها أقل اطرادا وطولها أشد اختلافاً منها في الموسيقى ، ولكنها كذلك قائمة على التكرار المنتظم لفترات القوة . فاللغة فيها قم وأغوار .

ولكن هذه القيم لها في الغالب قيمة سيكولوجية . حتى يجد الإنسان نفسه مسوقاً في بعض الأحيان إلى القول بأن الحركات العضلية التي تنتج الشدة والعلو تسيرها أسباب سيكولوجية . فكأن النبر ينفث الحياة في هيكل الأصوات العظمى أو على حد تعبير مجازي لقدامى النحاة ، النبر « روح » الكلمة . فهو الذى يعطى للكلمة طابعها وشخصيتها ، سواء أكان نبر علو أم نبر شدة . ولكن النبر مع كل هذا لا يكفي لتحديد الكلمة ^(١) .

أولاً لأنه لا يمتن حدودها إلا بصورة ناقصة . نعم إن النبر في بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفي البعض الآخر مبدأ الكلمة هو المنبور . ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات . فمن اللغات ما لا يميز نبرها المتغير إلى نهاية الكلمة . هذا إلى أنه قد لا يوجد في مجموعة من الكلمات إلا نبر واحد ، وعلى العكس من ذلك قد يوجد نبران في كلمة واحدة . فقد كان في الهندية الأرية ، كما تبرهن عليه الإغريقية والسنسكريتية ، ما يسمى بالكلمات الملحقة ، وهى كلمات قصيرة لا توجد مستقلة بل توصل بما قبلها . وفي لغاتنا الحديثة التى تستخدم نبر الشدة تنطق بعض مجاميع الكلمات بدفع صوتى واحد يرتفع فيه النفس على مقطع واحد من المجموعة كلها . ومن جهة أخرى فإننا نعرف فى السنسكريتية كلمات مزودة بنبرين ، وإنه كثيراً ما ينشأ فى اللغات التى تستخدم نبر الشدة ، نبر ثانوى إلى جانب النبر الأساسى .

فمن المتعذر أن نجد رابطاً نهائياً دائماً بين النبر والكلمة ، إذ نجد فى بعض اللغات التى تستخدم نبر العلو كلمات أساسية تخلو من النبر ، كالفعل السنسكريتى فى كثير من استعمالاته : فهنا كانت أهمية الفعل فى الجملة السنسكريتية ، فإنه لا ينبر فى الجملة الرئيسية . فينبغى إذن ألا نخلط بين استقلالية الكلمة وتعبيرتها وتنبرها . فهناك أمثلة من الروسية يوصل فيها الاسم بالحرف ، مثل « ù morja » « قريب من

(١) عن النبر فى الفرنسية انظر الملاحظات التى كتبها الأستاذ جرامون رقم ٧٨ ، ص ١٢١ .

البحر ، « nà zeml'ju ، على الأرض » ، pò gorodu « فى المدينة » (١) .
وسنرى من جهة أن النبر لا يقع بالضرورة على أهم مقطع فى الكلمة : فعندنا النبر
فى الفرنسية على المقطع الأخير فى أغلب الأحيان ، يعنى على عناصر تكوينية أى
لواحق بينما يبقى الجزء الأصلى من الكلمة غير منبور (٢) .
كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية مستقلة عن النبر .

فى كثير من اللغات تنفرد « القطعة » النهائية من الكلمة — على حد تعبير
علماء الأصوات — بمعاملات خاصة لا تعرفها القطعة المبدئية ، ولا القطع
الداخلية (٣) . ذلك على وجه التأكيد أمثل حجة للبرهان على وجود الكلمة
الصوتية . والقطعة النهائية من الكلمة خاتمة القوى من حيث هى نهائية ، بصرف
النظر عن قيمة الكلمة الصوتية وأبعادها ونبرها ، وذلك ما يبينه جوتيرو . هذا
المبدأ العام لخوارزمية النهايات يستتبع مظاهر مختلفة ؛ والخوارزمية قد يكون خطيراً وقد يكون
ضئيلاً . ولكن يمكننا أن نجد فى الظروف التى نخضع لها هذا المبدأ ما يقوى
المبدأ نفسه ؛ لأن نتائج الخوارزمية تزيد جلاء بقدر استقلال الكلمة وقيامها بنفسها .
فنطق النهايات بطريقة خاصة ناجم عن وجود الكلمة ويعين حدودها .

* * *

ما دمنا قد سلمنا بوجود الكلمة الصوتية ، فقد أمكننا أن ندرس التعديلات
التي تحدث فيها بسبب ما للعناصر التى تكونها من فعل بتبادل .
والواقع أن الحقيقة الأخيرة التى لفتنا النظر إليها هى إحدى الحقائق العامة
التي تنتج من وجود الكلمة الصوتية ؛ وتصلح مثالا على ما يسمى التغيرات التركيبية .
فالنهية تتطور فى اللغات الهندية الأوروبية بوصفها نهية ، أى بسبب المكان الذى
تحتله بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ؛ وإذا وجد فى بعض اللغات حالات مخففة
من مبدأ الضعف العام ، بل وحالات من الاستثناء أتاحت لهذه النهاية أو تلك أن

(١) بويه Boyer وسبيرنسكي Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ٣١ هامش ٢ و ص ٩١

هامش ٢ .

(٢) جيسپرسن ، رقم ١٣٣ ، ص ٢٦ وما يليها .

(٣) جوتيرو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

تبقى سليمة ، كذلك لأن جميع اللغات ليست سواء في الاحتفاظ التام لنهاية الكلمة بطابعها من جهة ؛ ومن جهة أخرى لأن آثارا خاصة عارضت الأثر العام الذي يضعف النهايات .

وهكذا سقطت الميم m النهائية من النطق في اللغة اللاتينية منذ عهد مبكر ؛ ولكن كلمة rem احتفظت . بأنقيتها التي بقي منها آثار في الكلمة الفرنسية rien « لا شيء » . وذلك لأنها كلمة قصيرة ، وحيدة القطع ؛ والكلمات القصيرة كثيراً ما تقاوم الانحرافات التي تصيب الكلمات الطويلة باطراد . أما الكلمات الطويلة فعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا في بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها ^(١) . هذه بوجه خاص هي الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثم يمكن فهمها قبل النطق بها إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفى نفسه من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها في صورة مختصرة . فالبلي الصوتي واضح فيها بدرجة خاصة . هذه الألفاظ في عمومها إما آلات مساعدة في اللغة وإما عبارات محفوظة متداولة ولذلك ليست في حاجة إلى وضوح النطق الذي تقتضيه الرغبة في الإفهام . ويوجد في كل اللغات أدوات وحروف جر وحروف وصل أصلها في غالب الأمر كلمات قادمة بنفسها تحولت إلى آلات نحوية (أنظر الفصل الخامس من الجزء الثاني) . ففي الإغريقية الحديثة مثلاً الأداة θά α الأولى علامة لاستقبال الفعل والثانية علامة لنصبه ^(٢) مثل : Xávω « أفقد » و Θάxávω « سأفقد » εἶμαι و « أكون » αἶ εἶμαι « لأكون » . الأولى تنحدر من Θὲ vā التي بدأت تظهر في القرن الثالث عشر وليست إلا مركبة من Θέλωiva « أريد أن » ؛ والثانية من ἀπερ بعد أن تقلصت ، وهي في الإغريقية القديمة فعل أمر معناه « دع » (قارن العبارة الإنجليزية let us go « لنذهب » let him write « دعه يكتب ») ، فالتقلص في الحالتين يتجاوز ، ويتجاوز بكثير القواعد المادية للغة ؛ ويمكن تفسيره بالطابع النحوي للكلمات التي تقع في حوزته .

(١) ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٢٦ .

(٢) يرنو : رقم ١٠٩ ، ص ١٢٥ ، ٢٣٦ ، ملاحظة رقم ١ .

ومن الشائع في الفرنسية أن يقال ومُسييه « wimsyoe » و « wimmzel » ومُزِلْ بدلاً من oui, monsieur « نعم سيدي » و oui, mademoiselle « نعم آنستي » وفي الأسبانية يقال « أُسْتَد » usted بدلاً من vestra merced ؛ وفي الألمانية moen gmoen بدلاً من Guten Morgen (جوتن مورجن) (صباح الخير) و phyatdigot ، « حفظك الله » بدلاً من behüte dich Gott . وقد جرت محاولات لتفسيرها بنظرية حركة الكلام Sprech tempo . وعند أصحاب هذه النظرية الصيغتان gmoen, wimsyoe ، من صيغ السرعة « الأللجرو allegro » أما الصيغتان oui, Monsieur و guten Morgen من صيغ البطء « اللنتو lento » . ولكن هذا التفسير لا يقنع أحداً . نعم إن سرعة إرسال الكلام تختلف من لغة إلى أخرى : فالفرنسيون أو الإنجليز أسرع من الألمان في الكلام ، والألمانيو الشمال أسرع من الألماني الجنوب . ولكن من غير الصواب أنه توجد في داخل اللغة نفسها صيغتان في آن واحد وأنه يمكن استعمال هذه أو تلك تبعاً لسرعة المحادثة . والواقع أن هناك كلمة morgen أو كلمة monsieur وكتابتها موجودة في الفكر ، وكلمة moen أو msyoe وهما اللتان تنطق بهما الأعضاء . وقد نشأت الصيغتان الأخيرتان من اتجاه في اللغة طُبِّقَ إلى أبعد الحدود ؛ وهما تبيينان إلى أي حد يصل تأثير الاتجاه الصوتي في اللغة إذا لم يعقه عائق : فهما في الواقع من الصيغ المتطرفة في اللغة ^(١) .

من العسير أن تكون عناصر الكلمة الصوتية متساوية القيمة في داخلها . فمنها القوى ومنها الضعيف ؛ منها ما يسود ومنها ما يُسَاد ؛ ومنها ما يقاوم آثار العوامل الهدامة ومنها ما يستسلم لها بسرعة ^(٢) . السيادة والغلبة ، هاتان هما الصفتان الجوهريتان اللتان على مؤرخ اللغة قبل كل شيء أن يعين حدودهما وأسبابهما في داخل النظام الصوتي للغة التي يدرسها : والواقع أن التكوين الصوتي لكل لغة يقضى بوجود أنواع من السيادة ومن المقاومة الخاصيتين . ولا يمكن أن تختلف اللغات بعضها عن بعض في التطور الصوتي إلا بصراع ينشأ بين الأصوات من

(١) انظر ثندريس : خواطر عن القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ ص ١٢٢ .

(٢) انظر جوريه Juret رقم ٨٦ .

جاء التوازن . غير أنه فيما عدا التأثيرات الصوتية الخاصة بكل لغة ، توجد تأثيرات عامة تتجلى في كل اللغات وهي نتيجة لاتجاهات طبيعية فيسيولوجية ونفسية معاً .
ففى الأصوات الانفجارية يوجد فرق بين العنصر الانحباسى والعنصر الانفجارى ، فالأول أقل حساسية للسمع لأن انطلاقه أقل صلابة من الثانى .
هذا الفرق يعرض الانحباس لعوارض مختلفة . فجموعة مثل « أ كتا » *akta* فيها الكاف *k* وهي انحباسية أقل مقاومة من التاء *t* الانفجارية (أنظر ص ٢٩) .
ويمكن لاتجاهين متعارضين أن يؤثرأ معاً ، وتكون النتيجة تعديلا فى المجموعة .
فإما أن يتخلى المتكلم كسلا عن تحقيق الحركات النطقية للكاف *k* فينتقل طرف لسانه تَوَّاءً منذ الاحتباس إلى موضع التاء *t* فنحصل فى النهاية على *atta* (آتأ) بناء طويلة .
هذه العملية قد وقعت فى اللغة الإيطالية حيث نجد الكلمات اللاتينية *actus* (اكتُس) و *strictus* (سُتركتُس) قد صارت *atta* (آتأ) و *stretta* (سُترتأ) . وإما أن تدفع المتكلم الرغبة فى توضيح نطق الكاف *k* إلى أن يتبع الكاف الانحباسية بانفجار طفيف يقوم به فى نفس النقطة قبل الانتقال إلى انفجار التاء *t* ؛ وهذا النطق نسمعه فى الفرنسية غالباً عند أولئك الذين يغالون فى صحة الأداء ، ويمكن رسمه بكتابة *faqueteur* (فكثير) بدلا من *facteur* (فكثير) « ساعى البريد » . فانفجار الكاف *k* فى الواقع مهما بلغ من القصر ، يقع حتما على شبه حركة ، هى الحركة الضامرة المخنوقة التى يشار إليها بال *e* الصامتة . فى الحالة الأولى حدث توافق^(١) وفى الثانية انفصال .

هناك مسلك ثالث : وذلك بالآ يتجه الصوتان التماسان إلى التوافق بين عناصرهما بزيادة المشابهة التى بينهما ، تلك المشابهة التى تصل أحيانا إلى التماثل التام ، ولا أن يتحصن كل منهما ضد الآخر بوضع نوع من العازل يكون عقبة فى سبيل التأثير المتبادل بينهما ، بل على العكس من ذلك ، بأن يستغلا ما بينهما من فروق فيعمماها إلى حدّ ألا يبقى بينهما شئ مشترك ، ثم زيلا كل نقطة للتشابه . وتلك هى عملية المفارقة^(٢) التى هى ضد التوافق . وهكذا ، فى مثل المجموعة السابقة *kt* (كت)

(١) فندريس ، رقم ٦ ، مجلد ١٦ ، ص ٥٣ (١٩٠٩) .

(٢) ميه : رقم ٤٥ مجلد ١٢ ، ص ١٤ وما يليها (١٩٠١) .

نجد بعض اللغات كالإيرانية والكلتية تقلب الانفجاريّ الأول إلى احتكاكيّ فنحصل في نهاية الأمر على *chl* — (شت) . وطبيعة التغير في حالة التوفيق أو الفصل أو التخالف تتوقف على الشروط العامة لنظام اللفّة الصوتي . هذه العمليات الثلاث كثيراً ما تتدخل لإزالة المجاميع الصوتية التي يصعب نطقها .

وتعمل اللغات على إبعاد الأصوات أو مجاميعها التي من هذا القبيل لأسباب عضوية على وجه العموم . وعسر النطق كعكسه ، وهو اليسر ، من المسائل النسبية المحضة التي يحسمها التكلم بوضوح على ما يبدو ، ولكنها تختلف في كل لغة عنها في الأخرى . ولا يمكن تقويمها دون معرفة اللغة معرفة دقيقة . والواقع أن أصلها يرجع إلى العادات المكتسبة من الحركات النطقية . لذلك كانت هذه المجموعة أو تلك التي يعسر نطقها على شعب من الشعوب ، ينطق بها جاره دون صعوبة .

يبد أن هناك مجاميع عسيرة النطق بصفة عامة ، وبسبب الاستعداد الطبيعي للأعضاء . ويمكن أن تطلق عليها اسم المجاميع غير الثابتة . فكما أدت الظروف إلى نشوئها في اللغة ، أمكننا أن تنبأ بأن اللغة ستدبر الأمر للتخلص منها ولكن خطة التخلص منها تختلف .

فالمجموعة *tn* — (تن) مجموعة غير ثابتة . فلما كانت نقطة الحركة النطقية للتاء هي عين نقطة النون في تركيب مثل أثنا *atna* ، كان على اللسان ألاّ يتحرك بين الفتحتين : وتسكفي حركة بسيطة من غشاء الحنك مع وضع الذبذبات الحنجرية في حالة حركة للتفريق بين التاء والصوت الأنفي . وهذه آلية على جانب من اللطف تتطلب كثيراً من الدقة . ويستطيع الإنسان أن يستعد لها عندما يدور الأمر حول كلمة علمية ، مثل إسم العلم إتنا *Etna* . والحقيقة أن أسماء الأعلام تقاوم أكثر من غيرها الانحرافات الصوتية التي تنشأ من التغيرات التركيبية . ولكن الإنسان في الكلمات الكثيرة الدوران في الكلام على العموم يدبر أمره للتخلص من المجموعة غير الثابتة *nt* (نت) . فطوراً يحصل توافق ؛ ينخفض حجاب منذ بدء المجموعة — وتستمر الأوتار الصوتية في الذبذبة دون توقف بين الفتحتين فتكون النتيجة — *anna* (أنا) ، (هذه هي الحال في الكلمة اللاتينية *annus*)

« آئس » إذا قورنت بالقوطية athnus « أنيس » وكلاهما مأخوذتان من atnos « أنيس » التي تعد أقدم منهما). وطوراً يحصل تخالف يتجه على حسب الأحوال إما نحو الانفجاري وإما نحو الأنفي، فيوسع اللسان من شقة الخلاف بين الصوتين ليتجنب البقاء في وضع من التوازن يصعب عليه الإحتفاظ به : فنحصل مثلاً في بعض الأحيان على akna (كما في الأميرية^(١)) حيث نجد فيها كلمة aknus (أكُنُس) تقابل annus (أنس) في اللاتينية) ، وفي بعض الأحيان atra (أترَا) ، كما وقع في عدد من اللغات الكلتية ، وعلى الخصوص في اللهجة البريتانية ، حيث تنحدر كلمة traon (تراؤن) « قاع ، واد » من الكلمة الأقدم منها tnaou (تناؤو) . وهناك مسلك ثالث للتخلص ينحصر في الفصل . إذ لما كان تلامس التاء والنون هو مصدر الصعوبة في النطق ، أمكن حذف هذه الصعوبة بإدخال حركة بينهما مثل : lyno (تنو) في الغالية (تنطق بالفرنسية teno بـ e صامتة) التي تقابل traon في اللهجة البريتانية .

في الأحوال السابقة كان الأمر يتعلق بأصوات متلامسة ؛ ولكن حالات التوازن وتبادل التأثير تصيب أيضاً أصواتاً يفصل بينها عدة عناصر ، بل أصواتاً أيضاً تنتسب لمقطعين مختلفين وتوجد في أما كن يبعد بعضها عن بعض في الكلمة الصوتية . والعمليات التي تنتج هنا هي عمليات التشابه والانتقال والتخالف^(٢) .

يقال إن هناك تشابهاً عندما يستمر واحد من صوتين منفصلين عنصراً أو أكثر من عناصر الآخر إلى حد الاختلاط به . والصوت المشبه يسبق في أغلب الأحيان الصوت المشبه به . أي أن هناك في الواقع حالة تمجّل : فالمقل بامتثاله بنطق صوت ما في داخل مجموعة صوتية يجعله يصدره قبل أوانه ، وينتج مرتين

(١) الأميرية ombrien : لهجة إيطالية قديمة عرفت من بعض نصوص منقوشة على

الآثار . المربان

(٢) انظر خاصة جرامون ، رقم ٧٩ . والمقالات العديدة التي نشرها عن الانتقال المكناني في كثير من اللغات ولا سيما في رقم ٦ مجلد ١٣ ، ص ٧٣ وما يليها ، رقم ١٠١ ص ١٧٩ . وانظر أيضاً پرنو Pernot رقم ١٠٨ ، ص ٥٤٠ .

متتابعتين الحركات الصوتية التي يقتضيها هذا الصوت . ويكون الصوت المشبه عادة قريباً من الآخر إلى حد ما لتبرير الخطأ . وهكذا كان أسلاف اللاتينيين يقولون *quequo* كوكوا بدلاً من *pequo* ومن ثم جاءت *coquo* (كوكو) « أنضج » في النصوص التاريخية . ولكن التشابه يستطيع أن يسير في طريق عكسي ؛ فنجده في الفرنسية الدارجة *juchque* (جُشْك) بدلاً من *jusque* (جُسْك) « حتى » ؛ على أن التشابه هنا ينحصر فقط في إحلال موشوس محل صفيري دون تأثير على صفة الجهر .

والانتقال المكاني يصدر عن نفس الأصل الذي صدر عنه التشابه . إذ أن مراد الأمر في كليهما إلى الخطأ ونقص الالتفات . ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف فبدلاً من تكرار الحركة النطقية مرتين ، يقتصر على تغيير مكان حركتين ، وأخيراً يبدو الانتقال المكاني كما لو أن جزأين في كلمة واحدة قد تبادلا أحد العناصر . فبدلاً من « فِستْرا » *festa* « نافذة » يقال في البرتغالية *fresta* (فرِستا) ؛ ويقال في بعض اللهجات البرتغالية *drehi* بدلاً من *dehri* (دِبرى) « يأكل » .

وأخيراً ينحصر التخالف ، وهو المسلك المضاد للتشابه ، في أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة وكان من حقها أن تعمل مرتين^(١) . فمن الكلمة اللاتينية *arborem* (أَرْبُورِم) « شجرة » نشأت الكلمتان الأسانية *arbol* (أَرْبُل) والپروئنسية *albre* (أَلْبِر) فالذي حدث في كلتا الحالتين ، مع اختلاف الترتيب ، هو أن المتكلم اقتصر على القيام بحركة واحدة فقط من الحركات التي يتطلبها إنتاج الراء *r* بدلاً من أن يقوم بحركتين ، واستعاض عن الأخرى بحركة من الحركات التي تنتج اللام المائعة . بل كثيراً ما يحدث أن تكون نتيجة التخالف اختفاء الصوت لا أكثر ولا أقل : كما في الإغريقية القديمة « *δρυφραχτος* » « سور من الخشب » جاءت من *δρυφραχτος* .

(١) فضلاً عن كتاب جرامون ذلك الكتاب الأساسي ، انظر ك . برجمان : « معنى

التشابه الصوتي » . لينرج ١٩٠٩ .

والنظام الذى تم به العمليات الثلاث المتقدمة يتوقف على أسباب خاصة على العالم اللغوى أن يجررها فى كل حالة على حدة : فضغط الشدة أحد الأسباب التى تتحكم فى آلية الانتقال المكاني والتخالف . كما يجب ألاّ نسقط من حسابنا طبيعة الأصوات ولا مكان كل منها فى داخل الكلمة .

التغيرات التركيبية لا تنتج منها أصوات لغوية جديدة . فالتخالف مثلاً لا يخلق أبداً أصواتاً جديدة غير معروفة فى اللغة التى يحدث فيها ؛ « عندما يكون على فعل التخالف الطبى أن ينتهى بإنتاج صوت جديد ، يحدث أحد أمرين : إما أن يستعاض فى الحال عن هذا الصوت المريب بأقرب صوت إليه تعرفه اللغة ، وإما أن يبقى الصوت أو مجموعة الأصوات التى كانت عرضة للتخالف على حالها دون تغير ، وذلك عندما تتمتع الاستعاضة ، أى عندما يكون أقرب الأصوات إليه فى اللغة لا زال يبعد عنه بعداً شاسعاً » . (م . جرامون) فى هذه الحال لا يحدث التخالف ؛ أو إذا حدث ، حدث فى اتجاه عكسى . وإحساس الإنسان اللاشعورى بأنه سيُحمل على نطق ما لا يُنطق ، يمسكه عن المضى فى طريق التخالف ، ويقلب كيان القوى التى فى الكلمة ويخلع على الحرف الذى كان يجب أن يختفى فضلاً من القوة يعمل بكفة الميزان فى مصلحته : ويقال حينئذ إن التخالف قد انعكس .

وكذلك لا ينتج التخالف لباعث نفساني ، إذا كان اشتقاق الكلمة جلياً بالنسبة للمتكلم . وإذا كان هذا الأخير يعرف اشتقاق جزء الكلمة الذى يجب أن يقع عليه التخالف فحسب ، حصل التخالف عادة فى طريق عكسى : أما إذا كانت أجزاء الكلمة كلها واضحة الاشتقاق بالنسبة إليه ، لم يحصل تخالف قط . وتكون القوة أحياناً فى جانب الجزء اللاحق باللفظ وأحياناً فى جانب جزئه الأسمى . فكلمة *pruneraie* « رُنيريه » كان يجب أن تكون عند التخالف *pluneraie* (بلنيريه) فى الفرنسية ولكنها صارت *prunelaie* (رُنيليه) « مزرعة برقوق » لكون الجزء الأسمى أقوى الجزأين ؛ هذا إلى أن وجود كلمة *prunelle* (بروينل) « نوع من البرقوق الوحشى صغير الحبة » قد ساعد على حدوث التخالف . أما

في حالة الكلمة الأسبانية sombrero « شمبيريو » « قبعة » فلم يحدث تخالف لأن العناصر المقطعية التي فيها الراء r ذات دلالة بالنسبة لمن يتكلم . وقد استطاع الأستاذ جرامون أن يجمع كل أحوال التخالف تحت قانون واحد هو : الصوت اللغوي القوي يقتضى بالتخالف على الضعيف . وإذا كان الصوتان في قوة واحدة بقى كل منهما .

فنحن أمام صراع من السيطرة والمقاومة . ولكن هذا الصراع لا يمس الأعضاء وحدها . نعم يوجد في بنية كل لغة عناصر تفوق غيرها قوة (. أنظر الفصل السابق) ولكن القوة الخاصة بكل عنصر مقرها المخ على وجه الخصوص . فالتغيرات التركيبية تأتي من نقص في التناسق بين الفكر والأعضاء ، وتنتج من خطأ في الالتفات . فأحياناً يصل الالتفات إلى درجة كبيرة ويتركز بإسراف في نقطة واحدة على حساب غيرها أو يوزع نفسه بصورة غير متساوية على العناصر المختلفة التي تكون الكلمة ؛ وأحياناً على العكس من ذلك يفر تاركاً العضو لكسله الطبيعي .

لتقدير قيمة هذه التغيرات على حقيقتها ، يجب أن تكون لدينا معرفة دقيقة بعلم الصوتيات العام وكذلك بالنظام الصوتي الخاص بكل لغة ؛ ولكن يتبقى لنا فضلاً عن ذلك أن نستطيع إرجاع التغير إلى عملية نفسانية . لأن عقل المتكلم هو المسئول عن ذلك في نهاية الأمر .

تسوقنا هذه الخاتمة إلى أن نقول كلمة عن الصلة بين الكلام وبين الفكر . إذ أن هذه المسألة وإن كانت مسألة سيكلوجية قبل كل شيء فلا يسوغ للعالم اللغوي أن يهملها بأية حال^(١) . عندما نسمع لغة أجنبية لانعرفها لا ندرك أذننا منها إلا بمجاميع من الأصوات على شيء من الطول يقل أو يكثر ، ويفصل بينها

(١) انظر خاصة ب . إردمان B. Erdmann : « الأسس السيكلوجية بين الكلام والفكر » في (Archiv . f . system : philosophie) مجلد ٢ ، عام ١٨٩٦ ، ص ٣٥٥ — ٤١٦ . وموتز Manthner رقم ١٧٨ مجلد ١ ، ص ١٦٤ . ويوجد في ثابن جينكين van Ginneken رقم ٧٨ ، مراجع عديدة عن هذه المسألة في أماكن متفرقة .

فترات من الصمت . فإذا كنا نفهم اللغة التي يتكلم بها أيقظت في ذهننا هذه المجاميع من الأصوات مجاميع تصويرية مرتبطة كل منها بالأخرى وتكون ما يسمى جملة في الاصطلاح النحوى . أصوات وجل ، هاتان هما الحقيقتان اللتان يميزها للوهلة الأولى تحليل الكلام تحليلاً سريعاً مبنياً على الفرق بين الأثر الذى يحدثه فينا سماع لغة نجهلها وبين الذى يحدثه سماع لغة نفهمها .

من الحق أننا لانعبر بأصوات عن كل ما في ذهننا من وحدات تصويرية . فالتأمل مثلاً لا يقتضى تمرين الأعضاء المنتجة للصوت ؛ ولكن التأمل كلام داخلى فيه تتسلسل الجمل كما في الكلام المنطوق^(١) . وكل واحدة من جمل التأمل تنطوى بالقوة على جميع الحركات النطقية للكلام . فالتفكير يسير معتمداً على الأصوات ، حتى عند ما تكون الأصوات غير منطوقة . لذلك نرى أنفسنا في بعض لحظات التأمل مسوقين بطريقة غير شعورية إلى نطق بعض الكلمات التي تقابل تفكيرنا . فكان الفكر ، وقد ثقلت وطأتها على العضو ، قد وضعت الآلية في حالة حركة على غير إرادة منها ؛ على نحو ما يفعل أخرق أو أهوج وقد أراد أن يجرب جهازاً ما فلم يكتف بالتمثيل التوضيحي ، بل راح ينفذ العمل على حقيقته .

يجب أن تترك لعلماء النفس أن يبينوا إلى أى حد تكون الإمكانيات الصوتية ضرورية للكلام الداخلى . هذه الضرورة ناتجة من المادة على وجه التأكيذ ، وليس إلزاماً من الطبيعة . ولكن يمكن الجزم بأن تأمل الأصم الأبكم يختلف عن تأمل الإنسان السليم الذى وهب الكلام . فالصورة التي نعبر بها تسجن التفكير بشكل يجرده من الوجود المستقل ولا يسمح له بالانفصال عن الأصوات التي تحقق ماديته ، ولا بالانفصال عن إمكانيات الأصوات عندما لا يحدث في الواقع التحقق المادى . والحالة التي فيها تدور الأعضاء في الفراغ ، دون عمل التفكير ، لاتناقض هذا المذهب . فإذا أردنا أن نسمع سلسلة من أصوات متنوعة مجردة من المعنى ، فإن تنوعها لا يساوى أبداً ذلك التنوع الذى يستلزم التعبير المنطوق عن فكرة من الأفكار . وأغلب الأمر ، أن يقتصر الإنسان على إنتاج

(١) ف . إيجيه (V. Egger) : الكلام الداخلى : باريس ١٨٨١ .

مجاميع من الأصوات موجودة في اللغة ، أى مما اعتادت الأعضاء على النطق بها ويجرى استعمالها مزودة بمعنى من المعانى .

يمكننا أن نسمى الوحدة النفسانية السابقة على الكلام بالصورة اللفظية ، وهى تصوير أعدّه الفكر قصد التعبير الكلامى ، وهى فى الوقت نفسه مجموعة من الإمكانيات الصوتية على استمداد للتحقق الفعلى . فالصورة اللفظية صورة مزدوجة الوجه تنظر بإحدى ناحيتيها فى أعماق الفكرة وتنعكس بالأخرى فى الآلية المنتجة للصوت . إذا اعتبرت من وجهة تحققها المادى ترجت بالأصوات ؛ ولكنها بأصولها النفسانية من نتاج عمل العقل . ففيها يتحد طرفا الثنائية التى كنا فى سبيل الكلام عنها فيما سبق ؛ وفيها يلتقى ميدان العالم اللغوى بميدان العالم النفسى .

علماء النفس^(١) يعتبرون الصورة اللفظية نتاجاً معقداً ناشئاً من انطباق صور أربع بعضها فوق بعض أو من اشتراكها ، وهى صورة شفوية وصورة سمعية وصورة بصرية وصورة يدوية . وهذا التمييز بين الصور الأربع قديم جداً ؛ قال به منذ سنة ١٧٤٠ دافيد هارتلى David Hartley فى ملاحظاته عن الإنسان Observations on man . ونحن نعرف المكان الذى احتله هذا التمييز فى أعمال مدرسة Charcot . فهذا الأخير كان يعلم أن كل كلمة تتكون من عناصر أربعة تجتمع مثنى مثنى فى صور حسية (سمعية وبصرية) ومحركة (شفوية ويدوية) أو — وذلك بنوع من التوزيع الذى يتلاقى مع السابق — فى صور صوتية (سمعية وشفوية) وكتابية (بصرية ويدوية) . هذا التحديد يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا طبق على الصورة اللفظية لا على « الكلمة » (قارن الصفحة الأخيرة فى هذا الفصل) . ومع ذلك فإن تحليل الصورة اللفظية تافه الأهمية بالنسبة للعالم اللغوى . لأن أحوال النشاط الخفى التى هى شغل العالم النفسى الشاغل تخرج عن دائرة اختصاص العالم اللغوى .

نستطيع هنا أن نعتبر الصورة اللفظية كلاً يغيب عنا تكوينه . فنعصران على الأقل من العناصر التى يعرفها لها علماء النفس (أعنى البصرى واليدوى)

(١) أنظر ديان بورفريه ، رقم ١٠ ، مجلد ١٦ ، ص ٤٦٦ ، وما يليها .

لا يدخلان في حسابنا لأنهما لا يعنيان غير الكلام المكتوب . ولا يدخل في الحساب بالنسبة للشخص الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلا الصورتان الشفوية والسمعية ؛ ولكننا ، حتى منذ ابتداء الفصل الأول ، قد ذكرنا من البواعث ما يدفعنا على جعلهما صورة واحدة (أنظر ص ٤٤) .

ومن جهة أخرى ليس علينا أن نعمل حساباً للاختلافات التي تنتج في نشأة تكوين الصور اللفظية . فنحن نعتبرها مكونة نهائياً في مخ المراهق الذي يتكلم لغته القومية . ونحن نأخذ كلام المراهق كما يسير سيره العادي ، بناء على التحصيل الذي تلقاه منذ طفولته الأولى .

على كل طفل أن يخلق هو نفسه ومن كل وجه كلامه ؛ وإذن فالصور اللفظية التي ليست إلا بعض وقائع الاختبار تحولت في المخ إلى إمكانيات لغوية ، وعلى الطفل أن يحصلها شيئاً فشيئاً وأن يربطها . وإنه ليعتمد علينا أن نتمثل أطوار هذا التحصيل بناء على الصورة التي بها نتعلم لغة أجنبية في سن المراهقة . لأن تعلم لغة أجنبية يقوم دائماً على أساس اللغة القومية . فإن الإنسان يسير بطريقة الاستبدال ، ويسمى إلى تكوين معادلات بأن يرص في ذاكرته كلمات وجمل من اللغة التي يتعلمها إلى جانب كلمات لغته القومية وجملها . كما يعتمد هذا التحصيل في غالب أحيانه على الكتب ؛ فيعتمد على الكلمات المكتوبة ويتخذ أساساً له نوعاً من البنية النحوية المصطنعة إن قليلاً وإن كثيراً .

أما العمل الذي يتم في دماغ الطفل فيختلف عن هذا اختلافاً كلياً . فإن الطفل يتلقى عن محيطه به جملاً جاهزة تفيد التعبير عن بعض الأوامر أو بعض الحاجات ، أو عن بعض الوقائع فحسب : « انصرف » ، « أنا جوعان » ، « الجو صحو » . . . الخ . كل هذه تخزن في الدماغ وتكون بعددها صوراً لفظية ، صوراً تُصقل وتحدد كلما تكاثرت : لأن هذه الصور تصير — بواسطة الاستبدال الذي يعتاد عليه عقل الطفل بسرعة — جديرة بالتعبير عما في الأشياء والأفكار والمواقف من تنوعات جمّة ، وتتلون بجميع ألوان التفكير على اختلافها . فإذا ما انتهت مرحلة التحصيل ، كان في حوزة الطفل مجموعة من الصور اللفظية التي تظهر من تلقاء نفسها في الدماغ كاملة التكوين ، وعلى استعداد تام لتحقيقها عملياً .

في الكلام ، كما عنّ له أن يلقي أمراً أو أن يعبر عن حاجة أو أن يصوغ واقعة من الوقائع . ولا يلبث المجهود العقلي الذي تتمخض عنه الصورة اللفظية أن يصير من البساطة والألفة بحيث لا يشعر به الإنسان وبحيث يتبع مباشرة إنتاج الصورة اللفظية الإحساس بالحاجة أو استيقاظ الإرادة ، ثم تتلى الصورة نفسها على التوّ بالتحقق العملي في اللغة .

يستسلم الطفل في مرحلة التحصيل التي تفرض عليه إلى رياضات معقدة . فيموّد أعضائه على إنتاج الأصوات التي يسمعها . ولكنه لا يسمع إطلاقاً أصواتاً منزلة ، بل تقدم إليه الأصوات في كلّ ذي معنى ، فيتعلم في نفس الوقت كيف يخضع أعضائه إلى أوضاع متنوعة تقابل الأصوات المختلفة وكيف يربط مجاميع الأصوات التي تصدر على هذا النحو بمعنى من المعاني . والأصوات ليست جميعاً على درجة واحدة من الأهمية ؛ بل منها ما يسود غيرها كما رأينا في دراسة التغيرات الصوتية . ولكن العناصر العقلية التي تكون تلك المادة التي تصاغ في الأصوات تحمل بدورها درجات مختلفة من السيطرة ؛ فمنها ما تطفو وتفرض نفسها على الانتباه بدرجة من الوضوح أعلى مما لغيرها . ويترتب على ذلك أن الصور اللفظية ، من وجهة نظر العناصر التي تؤلفها نفسها ، تتكون شيئاً فشيئاً بواسطة تحسينات متتامة تضاف إلى التجربة الأولى التي تعدّ بطبيعة الحال غير كاملة ولا تظهر في تلك التجربة البدئية إلا بعض الملامح المميزة ، وهي تلك الملامح التي تقابل قم السيطرة سواء في الصوتيات أو في العقليات ثم تُمثّل في الصورة شيئاً فشيئاً الملامح الثانوية في أدق تفاصيلها .

ومهما كان الوقت الذي يستغرقه التحصيل حتى يصل إلى التكوين النهائي للصورة اللفظية ، بل مهما كانت الفترة التي تسدّر لاستكمالها ، فإن الذي يميزها في عين العالم اللغوي إنما هي وحدتها . فكل العناصر المكوّنة لها تندمج في عمل واحد هو العمل اللغوي الجوهرى ، الذي لا يملك العالم اللغوي أية وسيلة يستطيع بها أن يتعداه . فمئداً يقول الطفل « pas poupe » يقصد أن يقول بأنه لا يحب الحساء الذي يقدم إليه ، أو أنه يرفض شربه ، فإن الصورة اللفظية التي في ذهنه والتي

تهيمن على التعبير بجملته تعدّ كلاً محكم التناسق وإن كان بدائياً . بعد ذلك فى سن المراهقة ، يستطيع أن يقول على حسب الأحوال : « لا آخذ حساء » أو « أحب ألا آخذ حساء » أو « أفضل ألا تعطونى حساء » . الصورة اللفظية التى تقوم على أساسها كل واحدة من هذه الجمل أغنى وأعمر بالألوان المتنوعة من جملة الطفل . وهذه وتلك تنطوى على نفس الوحدة .

يمكن تعريف الجملة بالصيغة التى يعبر بها عن الصورة اللفظية والتى تدرك بواسطة الأصوات . والجملة ، كالصورة اللفظية ، عنصر الكلام الأساسى . فبالجمل يتبادل المتكلمان الحديث بينهما . وبالجمل حصلنا لغتنا ؛ وبالجمل نتكلم ، وبالجمل نفكر أيضاً . الصورة اللفظية يمكن أن تكون فى غاية التعقيد ؛ والجملة تقبل بمرورها أداء أكثر العبارات تنوعاً ؛ فهى عنصر مطاط . وبعض الجمل يتكون من كلمة واحدة : « تعال » و « لا » و « وأسفاه » و « صه ! » ؛ كل واحدة من هذه الكلمات تؤدى معنى كاملاً يكتفى بنفسه .

غير أن الجملة لها امتداد الصورة اللفظية بالضبط ؛ بل إنها غير محدودة بالطاقات الصوتية ، إذ أنه فى غالب الأحيان لا يكفى نفس واحد لنطق جملة بتمامها ، وقد يحدث أن تشمل جملة واحدة بعينها مجموعتين تنفسييتين أو أكثر . وعمل العقل يسيطر على عمل الأعضاء ، ولا يمكن أن تكون عدم كفايتها سبباً فى وقوفه ، كما لا ينبغى أن يكون فى ضرورة أخذ الشهيق عائق لنافخ الغاي أو « للسلامية » . والجملة تنظم جميع الدرجات ، من الحركات النطقية البدائية التى يصوغ بها الطفل حاجة من حاجاته إلى الصورة المستكملة المؤتلفة ألطف ائتلاف تلك التى تكسو فكرة فنان من نوع ديموستين أو شيشرون أو بوسويه .

يرى من كيفية تعريفنا للجملة أنها تشمل الصورة اللفظية ؛ فكلماتها لاحد لها إلا فى موهبة التأليف التى للعقل . فيجب بناء على ذلك أن يعطى للصورة اللفظية امتداد أوسع مما يعطى لها عادة وألا تقتصر على الكلمة . ولا خلاف بين الصورة اللفظية والجملة إلا فى أنه لما كانت الجملة حقيقة واقعية مشخصة ، كانت معرضة لكل العوارض التى يستتبعها التحقق الواقعي . فالخزاف الذى يضع فى فرنه فنجاناً

من الخُزف لا يمكنه أن يقطع بالنتيجة التي سيحصل عليها بعد الحريق ؛ لأنه يخشى دائماً من نار عادية تُحِيل الطينة فخماً أو من نار ضعيفة لا تقوى على إبراز اللون . كذلك الصورة اللفظية ، وقد حُضرت في المراكز العصبية ، لا تستطيع المرور بالأعضاء دون التعرض للأحداث .

ويمكننا أن نضرب مثلاً نوضح به ما تقدم : أتخيل أن جاراً لي وخزني غير عامد ، فأصبح قائلاً : « آه ! لقد وخزنتي ! » .

من اليسير أن نستعيد تتابع الأفعال التي تمت . فهناك إحساس بالوخزة ، نُقل إلى المراكز العصبية ، واستدعاء مفاجئ لصورة لفظية ، ترجمت على الفور في اللغة بالجملة الآتية الذكر . وكان التتابع من السرعة بحيث تبعت الصيحة الوخزة مباشرة . فما نسميه صورة لفظية إنما هي الصورة التي أعطاها الفكر ، وفقاً للعوائد المكتسبة ، إلى الصيحة التي صحتها . وتختلف الصورة اللفظية في لغة ليس فيها أفعال متعددة أو تعبر عن الحدث في صيغة المبني للمجهول : « أنا ممدوغ منك » . واختلاف الصورة اللفظية كثيراً ما يكون الاختلاف الوحيد الموجود بين اللغات . وهكذا يقال في الألمانية « أنا هو » على حين يقال في الفرنسية : « إنه أنا » . فالصورة اللفظية مختلفة التركيب . جملة « آه ! لقد وخزنتي ! » تقابل الصورة اللفظية للفرنسية السليمة . فلنفترض الآن أن لساني قد انحرف فقلت : « آه ! لقد وخزنتي ! » مرتكباً « قلباً صوتياً » (بالألمانية Schüttelform ^(١)) . ومع ذلك فالصورة اللفظية لم تتغير . وإذا كانت لم تتحقق إلا تحقّقاً ناقصاً ، فرجع ذلك إلى خطأ قد عرض في التنفيذ . فالجملة التي نطقت بها لا تتفق مع الصورة ؛ وقد وقع الخطأ في الانتقال من إحداها إلى الأخرى .

لسنا في حاجة إلى القول بأنه توجد حالات تكون فيها الصورة اللفظية مسؤولة عن الخطأ المرتكب . فرغم معرفتي التامة لاسم صديقي ديران ، أراي أدعوه في المحادثة باسم لبران ، وهو اسم شخص آخر من أصدقائي . فمثل هذا ليس عارضاً مادياً يمكن أن يعزى إلى الأعضاء . وإذا اتفق مثل ذلك لفرد

من أفراد الشعب لسمعناه يقول : « لا أدري لماذا كان إبران في ذهني » . والواقع أن انزلاق اسم مكان آخر قد حدث في نفس الصورة اللفظية التي يؤلفها العقل . وهذا هو وجه الاختلاف .

إذن تتألف الصورة اللفظية والجملة من عناصر واحدة . هذه العناصر هي التي تسمى في النحو المعتاد بالكلمات . وقد درسنا في هذا الفصل الكلمة الصوتية ؛ ولكن الكلمة الصوتية قد تشتمل على عدة كلمات بالمعنى الذي يقصد في النحو المعتاد ؛ بل إن حدودها قد تكون جلية الوضوح تبعاً للغات . فلأجل أن نحددها تحديداً كاملاً يجب أن نحلل عناصرها من وجهة نظر نحوية . وذلك هو موضوع الفصل التالي .



الجزء الثانى

النحو

الفصل الأول

الكلمات والأصوات

تنظم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولاً التعبير عن عدد ما من المعانى التى تمثل أفكاراً ، وثانياً الإشارة إلى بعض العلاقات التى بين هذه الأفكار . فإذا قلت : الحصان يجرى ، فى ذهنى فكرة الحصان وفكرة الجرى ، وقد جمعت بين الاثنين فى هذا الإثبات الذى هو « الحصان يجرى » . وإذا قلت منزل بطرس كبير ، فإن الأفكار البيت و بطرس والكبر تتركب كذلك فى الإثبات الذى يكون جملى . ويحسن أن نذكر أننا نأخذ الأحداث كما يقدمها لنا الكلام ، أى أننا ننظر إلى الصور اللفظية فى نفس الصورة التى تظهر عليها فى الكلام . هذا هو المعنى الذى يجب أن نفهمه من الفكرة التى عبرنا عنها فيما تقدم بقولنا « نحن نفكر بجمل » . فنحن نفترض أن الفعل العقلى الذى يضيف اسماً إلى أحد الأشياء (هنا الحصان) ويجعل هذا الشيء متعلقاً بحدث من الأحداث ، ويحصر هذا الحدث فى حدود من الزمن ليقول : الحصان يجرى ، فأما نفترض أن هذا الفعل العقلى يتم فى الدماغ تبعاً لعوائد لا يشعر بها المتكلم نفسه .

هذا الفعل العقلى الذى تفترضه اللغة ينتظم عمليتين متتابعتين : عملية تحليل عندما يميز العقل فى التصور ، وقد أعطى ، عدداً ما من العناصر التى تقوم بينها

علاقة (هي هنا الحصان والجري) ثم عملية تأليف — عندما يروح العقل وقد انتهى من تعرف هذه العناصر المختلفة وتحليلها — يؤلف بينها من جديد ليكون الصورة اللفظية . والتأليف وحده هو الذى يهيم علم اللغة ، ويهيمه بدرجة قصوى : لأن الاختلافات فى البنية بين اللغات تنتج من الكيفيات المتنوعة التى تتوقف عليها عملية التأليف^(١) .

نفترض أن جميع الأدمغة الإنسانية تتلقى كلها على السواء عين الطابع البصرى للحصان الذى يجرى ولنسلم — وذلك مما لا نزاع فيه — بأنها تحلل هذا التصور بطريقة واحدة بعينها ، وأنها تقيم بين الحصان وبين الجرى نفس العلاقة بالضبط ، فإن التعبير عن هذه العلاقة يحصل فى كل لغة بطريقة خاصة : الصورة اللفظية تؤلف تأليفاً مختلفاً . فالتفريق المشار إليه فى أول هذا الفصل ليس إذاً نظرياً بحتاً وهو يقابل ما يصح أن نسميه دوال النسبة Morphèmes ودوال الماهية sémantèmes . ويجب أن نفهم من دوال الماهية تلك العناصر اللغوية التى تعبر عن ماهيات التصورات : فهنا ماهية الحصان أو ماهية الجرى ؛ ونفهم من دوال النسبة العناصر التى تعبر عن النسب بين الماهيات : هنا كون الجرى المسند إلى الحصان على العموم محمولا على الشخص الثالث المفرد الإخبارى . وعلى ذلك تعبر دوال النسبة عن النسب التى يقيمها العقل بين دوال الماهية . هذه الأخيرة ليست إلا عناصر التصور الموضوعية ؛ وستدرس على حدة فى الجزء المخصص للمفردات من هذا الكتاب .

دال النسبة فى غالب الأحيان عنصر صوتى (صوت أو مقطع أو عدة مقاطع أحياناً) يشير إلى النسب النحوية التى تربط الأفكار الموجودة فى الجملة بعضها ببعض .

فى جملة من اللغة الإغريقية القديمة مثل : « سيمونيد أقام محراباً جميلاً » ، من السهل علينا أن نعرف أنه يوجد إلى جانب المقاطع التى تعبر عن الأفكار الأساسية

في الجملة وهي : سيمونيد والإقامة والمخرب والجمل ، مقاطع أخرى ينحصر دورها في الإشارة إلى أن صفة جميل تنسب إلى المخرب وأن سيمونيد هو الذي فعل في الماضي حدث إقامة المخرب المذكور . فأول هذه المقاطع من دوال الماهية والثانية من دوال النسبة . لناخذ أيضاً من العربية مجموعة من الكلمات مثل مجموعة أن يعطى ، أُعْطِيَ ، الإعطاء ، مُعْطُون ، إلى المُعْطَى : فالتحليل يجد فيها دون عناء عنصراً دائماً هو « ع ط ي » الذي يصل كل هذه الكلمات بفكرة الإعطاء . ولكنه يجد فيها فضلاً على ذلك عدداً من العناصر الصوتية التي تستخدم للإشارة إلى أن الكلمة فعل أو اسم ، ومن أي نوع هي ، أو للدلالة على الفصيصة النحوية (النوع والعدد والشخص) التي تنتمي إليها الكلمات ، وكذلك على العلاقة التي تربطها بكلمات الجملة الأخرى فهذه العناصر دوال للنسبة .

وبعض هذه الدوال ليس له وجود مستقل ، فيجب تحليل الكلمة لاكتشافها وهذه تسمى لواحق أو زوائد ، والبعض الآخر كالضمائر والأدوات (في الفرنسية مثلاً) منفصلة عن الكلمة في الكتابة . ولكن هذا الفرق عديم الأهمية هنا . وإذا أدخلنا على الجملة الإغريقية المتقدمة كلمة « لكان » لتغير المعنى في الحال . فهذه الكلمة « لكان » دالة نسبة تلون الجملة بلون فرضي من طابع خاص ؛ فبإضافة هذه الكلمة التي تستعمل للتعبير على ما لم يقع ، تصير الجملة : « لكان أقام محراباً جميلاً » . كذلك لو أضفنا إلى أية جملة في السنسكريتية المقطعين iti (إيتي) لدلت هذه الزيادة على أن الجملة حكاية مياشرة لكلام قائل : فإيتي iti من دوال النسبة . والفرنسية العامية فيها دالة من هذا القبيل في صورة « كيدى » quidi (للمذكر) أو « كيدى » (للمؤنث) : قارن العبارتين « tu as tort » أنت مخطئ ، قيل . « فتحنس على الفور أن الجملة الأولى خطاب مباشر والثانية جزء من اقتباس ، وعليها طابع الحكاية .

ولا يهمننا هنا النظام الذي بمقتضاه تستعمل دوال النسبة في الجملة ، ولا المكان الذي تحتله فيها ، ولا المدى أو الأهمية اللذان تحملهما اللغة عليها . فنحن نعد من

هذه الفصيلة الزائدة — e واللاحقة -σ واللاصقة -ev من الإغريقية εποίησαν « هو عمل » (بالفرنسية Il a fait) ، كذلك نعدّ منها المقطعين الأولين في Il a fait . وهذه العناصر مهما اختلف أصلها فإنها تلعب دوراً بعينه كلّ منها في لغته .

ولا نهتم كذلك بأن تكون دالة النسبة مما يعرب أو مما لا يعرب . ففي العربية الفصيحة « كان زيد يقتل » معناها فقط « Zaid tuait » . ذلك أن المضارع في العربية يُسبق بفعل السكون ليدل على الاستمرار في الماضي ؛ ويتصرف الفعلان كلّ منهما على حدته ^(١) :

الشخص الأول	كنت أقتل
الشخص الثاني المفرد المذكر	كنت تقتل
الشخص الثاني المفرد المؤنث	كنت تقتلين
الشخص الثالث المفرد المذكر	كان يقتل
الشخص الثالث المفرد المؤنث	كانت تقتل

فالمقل يحس الفعلين وكأنهما وحدة رغم أنه يمكن وضع كلمة بينهما ؛ فالفعل الأول من دوال النسبة .

وأخيراً لا يهمنا أن تكون دالة النسبة تشتمل على عنصر واحد أو على عنصرين صوتيين منفصلين . فهناك دوال نسبة تنتج من كلمتين منفصلتين يجمع بينهما المقل وتكون لهما رغم انفصالهما وحدة لا تقبل التمزيق . ففي الفرنسية يعبر عن النفي بعنصرين لا يكادان يتجاوران مطلقاً في الجملة : ومع ذلك فإن je ne mange « pas » لا آكل في الفرنسية لها من الوحدة ما « nitoimlin » في الأيرلندية .

كل دوال النسبة هذه ، سواء أ كانت مفردات أم مجموعات ، تعدّ من الفصيلة الأولى لدوال النسبة ، تلك التي يعبر عنها بعناصر صوتية تدخل في الجملة وتوصل بدوال الماهية .

هناك فصيلة ثانية ، دوال النسبة فيها تتكون من طبيعة العناصر الصوتية الدالة

على الماهية أو من ترتيبها . وهذه الفصيحة تعدّ أكثر خفاء من السابقة وإن كانت لا تقل عنها أهمية في اللغة .

ونجد في تبادل الحركات في اللغات الهندية الأوربية أو في السامية خير الأمثلة لتوضيح هذه الفصيحة . لسنا هنا نضيف عنصراً صوتياً إلى دالة الماهية ليخلع عليها قيمة صرفية . بل يكتفى في الإشارة إلى دور دالة الماهية الصرفي بالعناصر الصوتية لهذه الأخيرة نفسها . فالإنجليزية تقابل بالجمعين men و feet المفردين man « رجل » و foot « قدم » ، و تقابل اسمي المفعول held و struck بالمصدرين hold « يمسك » و strike « يضرب » — فالاختلاف الذي بين هذه الصيغ اختلاف في جرس الحركة الذي يلعب على هذا الوضع دور دالة النسبة ، إذ أنه وحده يشير إلى قيمة الكلمة الصرفية . ونجد نفس الشيء في اللغة الألمانية حيث نرى wir gaben « كنا نعطي » تقابل wir geben « نعطي » و gib « أعط » . وكذلك في الغالية الوسطى حيث نرى الجروع brein و myr و wÿn تقابل المفردات bran « غراب » و mor (بحر) و oen (خروف) . فالتبادل الصوتي عنصر صرفي ضروري في أقدم اللغات الهندية الأوربية كالإغريقية والسنسكريتية . ويمكننا أن نقول بأن القيمة الصرفية لكل كلمة في الهندية الأوربية كانت محددة تحديداً تاماً أو ما يقرب من التام بجرس حركة الأصل . وكذلك الحال في السامية ، كما نعطينا عنها العربية هذه الفكرة حتى يؤمننا هذا : حمار جمعها حمير^(١) . وهذا على درجة من الحياة في العربية جعلتها تطبقه على كلمات مستعارة منذ تاريخ حديث من الأسبانية أو الفرنسية : رسيبو resibo « إيصال » والجمع رواسيب ؛ بابور والجمع بواوير ؛ شمبيت « حارس ريفي » ، والجمع شوّمبيت .. الخ . وهذا ما يسمى بجمع « التكسير » أو الجمع « الداخلي » .

ويشير المصطلح « إعراب داخلي » بوضوح إلى أن تبادل الحركة يلعب نفس الدور الذي يلعبه العنصر الإعرابي الذي يمكن أن يضاف للكلمة . والواقع أن علامة الجمع في الأسماء تكون في الإنجليزية والغالية على وجه العموم بإضافة لاصقة

خاصة : في الإنجليزية boot « حذاء » وجمعها boots ؛ loss « خسارة » وجمعها losses ؛ وفي الغالية penn « رأس » وجمعها pennau « coed » « خشب » والجمع coedydd ، الخ . وفي العربية تجمع الكلمات المؤنثة كلها بإضافة زائدة . كذلك في الألمانية يختلف الماضي غير التام عن الحاضر باستعمال لاحقة ، هي « ت » . Ich rede « أنكلم » والماضي غير التام Ich redte (كنت أتكلم) Ich lebe « أحيأ » والماضي غير التام ، ich lebte (كنت أحيأ) الخ . بمقارنة هذه الأمثلة بالأمثلة السابقة ترى أن تبادل الحركات واللواحق نوعان متساويان من دوال النسبة .

النبر أيضاً من دوال النسبة الهامة جداً ، فهو يشترك في بعض اللغات في تحديد القيمة الصرفية للكلمات . ونقصد بالنبر هنا نبر الارتفاع أى النغمة . فالنغمة في الإغريقية والسنسكريتية عنصر يميز الكلمة بقدر ما تميزها اللاحقة أو اللاصقة . وشهادة هاتين اللغتين تركبها لغات أخرى من نفس الأسرة كالسلافية والتوانية . فبعض الصيغ المتماثلة كل التماثل لا تتميز بعضها عن بعض في الغالب إلا بالنغمة : إذ أن النغمة هي التي تعطى γράφειν « أن يكتب » قيمة الحاضر ؛ والنغمة هي التي تميز ταμείν « قَطَعَ » من τόμος « قَاطِعٌ » ؛ وهي وحدها أيضاً التي تكون الفرق بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول في الأفعال الإغريقية المركبة . در النغمة هذا يلفت نظرنا إلى أن اللغات الهندية الأوروبية كانت ، لثرائها بنظامها الصرفي ، تملك وسائل شتى للتعبير عن الروابط التي بين الكلمات وعن دور الكلمات في الجملة .

نفهم أن النغمة تلعب دوراً أخطر في لغات الشرق الأقصى حيث العناصر النحوية قليلة العدد . فهذه اللغات استغلت مرونة النغمة التي تحتملها أصواتها ، واتساعها وتنوعها للغايات الصرفية خير استغلال^(١) . وتوجد هذه الظاهرة نفسها في بعض اللغات الإفريقية^(٢) في اللغة الفهلية يعبر التنغيم عن النفي^(٣) : مجموعة

(١) انظر عن الأنامية جرامون ، رقم ٦ مجلد ١٦ ، ص ٧٥ .

(٢) الدكتور وسترمان Westermann ، رقم ٢٢١ ، ص ٣٧ وما يليها .

(٣) اللغة الفهلية هي لغة قوم من البربر اختلطوا بالعرب والزنج ، ويقعون الآن في إفريقية الغربية الفرنسية . العربان

مثل : مِىْ وَرَتَ mi warata معناها « سأقتل » (أو « أقتل ») فى الحاضر الدال على العادة) إذا نطقت الفتحة النهائية بنفس النغمة التى لباقي الجملة ؛ ويصير معناها « لن أقتل » إذا نطقت الفتحة النهائية بنغمة أعلى . فارتقاء الصوت له إذن من القيمة ما لدالة النسبة .

من النغمات المختلفة ذات القيمة الصرفية ، نغمة لها أهمية فى بعض اللغات ، وهى نغمة الصفر ، أى عدم وجود النغمة . فى السنسكريتية مثلاً يكون الفعل منغمّاً أو غير منغمّم تبعاً لبعض شروط الاستعمال فى الجملة . ولكنه بالطبع فى استعمالاته المختلفة يتميز تميزاً واضحاً بغياب النغمة كما يتميز بوجودها .

وهذا يؤدى بنا إلى أن نضيف إلى دوال النسبة المشار إليها فيما سبق نوعاً من هذه الدوال أكثر من غيرها دقة ولكنها ليست أقل منها تعبيراً ، ونعنى تلك التى يصح أن نطلق عليها دوال النسبة الصفرية . فى الميدان الصرفى تلعب درجة الصفر دوراً هاماً . والقيمة التى تملكها هى قيمة تقابل على وجه الخصوص ؛ ولكن ذلك لا ينقص من خطرها . فكثيراً ما يكون للصمت فى الموسيقى من التعبير ما للميلودية التى يعترض طريقها ويقطع تدرجها ؛ وفى الحديث لحظات من الصمت البليغ . فى اللغة تعتبر دالة النسبة الصفرية دالة نسبة كغيرها من دوال النسبة . فقد كان فى الهندية الأوربية بعض الأسماء التى لا يحمل مرفوعها أية لاصقة مميزة ؛ أى أنها كانت تحمل فى هذه الحالة لاصقة الصفر . فعدم وجود اللاصقة يكفى ، فى مقابلة اللواحق المتنوعة التى تتمتع بها الحالات الأخرى ، لتمييز المرفوعات التى نحن بصدددها . بل إن هناك حالة من حالات الإعراب فى الهندية الأوربية تتميز دائماً بتلك الصورة فى الفترة القديمة على الأقل : ألا وهى حالة المنادى . وتقابلنا هذه الخاصة أيضاً فى صيغة فعلية قريبة من المنادى ، وهى صيغة الشخص الثانى المفرد فى حالة الأمر . فدرجة الصفر تلعب دوراً لا يقلّ عن دور غيرها فى تبادل الحركات فى اللغات الهندية الأوربية والسامية .

وأخيراً نصل إلى فصيلة أخرى من دوال النسبة أقل تشخيصاً أيضاً من السابقة وتتكون فقط من المكان الذى تحتله فى الجملة كل واحدة من دوال الماهية .

إذا قلنا باللاتينية *regis domus* « بيت الملك » . كانت علاقة الإضافة التي تجمع بين هاتين الكلمتين معبراً عنها بالصفة الإعرابية ؛ فالواحد تشير إلى الدور الذي تلعبه كل كلمة من هاتين الكلمتين بالنسبة للأخرى . أما في العبارة الفرنسية *la maison du roi* « البيت [بتاع] الملك » ، فإن العنصرين الصغيرين *la* « أل » و *du* « بتاع أل » يقومان بنفس الوظيفة التي تقوم بها اللواحق في اللاتينية . وفضلاً على هذا الاختلاف يوجد اختلاف آخر بين اللاتينية والفرنسية ينحصر في أن ترتيب الكلمات في الأولى أكثر حرية منه في الثانية : فيمكننا أن نقول دون تقريب *regis domus* « الملك بيت » أو *domus regis* « بيت الملك » . أما في الفرنسية فلا يكاد يسمح بالقلب على هذا النحو ، *du roi la maison* « [بتاع] الملك البيت » إلا في الشعر . ومع ذلك فإن ظهر هذا القلب غربياً بعض الشيء ، فإنه لا يصدح الحس وتبقى العلاقة بين الكلمتين مفهومة . على العكس من ذلك توجد لغات لا يعبر فيها عن هذه العلاقة إلا بـ « منزل » و *brenhin* (من *ti* ، تي « منزل » و *brenhin* برهنين « ملك ») مع وضع المالك دائماً بعد الشيء المملوك ، ويقال في الصينية *wang tien* (من *wang* ونج « ملك » و *tien* « بيت » مع وضع الشيء المملوك قبل المالك على عكس المثل السابق . وفي كلتا هاتين اللغتين لا يعبر عن علاقة التبعية بأية علامة خارجية ؛ ولا يشار إليها إلا بترتيب وضع الكلمات الذي يجب لذلك بالطبع أن يكون ثابتاً لا يعتره تغيير . فاللغات التي فقدت إعراب الحالات على وجه عام ؛ استعاضت في تأدية العلاقات التي كان يعبر عنها بالإعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر ، أدوات .. الخ) وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى ^(١) .

إذا قلنا في الفرنسية *Pierre frappe Paul* « پير يضرب پول » كانت دالة النسبة الوحيدة المعبر عنها صوتياً هنا هي الصفر : فالصفة الفعلية *frappe* « يضرب » تنفرد في الواقع بعدم وجود اللاصقة ، وبذا تتميز عن الصيغ

(١) عن الإيرانية أنظر جوتيو Gauthiot رقم ١٠٠ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

الفعلية الأخرى مثل *frappons* فرّڤن « انضرب » و *frappez* فرّڤيه « اضربوا » أو *frappera* فرّڤرا « سيضرب » و *frappant* فرّڤن « ضارب » الخ . فعدم وجود اللاصقة هو الذى يبيّن هنا أن لدينا فعلاً إخبارياً حاضراً مسنداً إلى الشخص الثالث المفرد . ولكن نسبة الفاعل إلى الفعل والفعل إلى المفعول لا تدل عليها علامة خارجية : وذلك ما يميز الفرنسية عن اللاتينية حيث نرى اللاصقتين *us* « أس » « علامة الرفع » وأم *um* « علامة النصب » فى جملة *Petrus caedit Paulum* تكشفان عن الدور الذى يلعبه الاسمان فى الجملة ، دالتين على أيهما الفاعل وأيهما المفعول . أما القرينة الوحيدة التى تقدمها الفرنسية فهى فى ترتيب الكلمات : فتريّيب الكلمات هنا دالة من دوال النسبة . لذلك يمكننا أن نغير فى اللاتينية وضع كل كلمة من الكلمات الثلاث كما نشاء دون أن نمسّ وضوح الكلمة بأدى ضرر ، أما فى الفرنسية فيستحيل أن نمس نظام الكلمات دون أن نغير المعنى ؛ فلو قلنا فى الفرنسية *Paul frappe Peirre* « پول يضرب پير » بدلا من *Peirre frappe Paul* « پير يضرب پول » لارتكبنا نفس الغلطة التى ارتكبها فى اللاتينية لو أخطأنا فى استعمال الإعراب فقلنا : *Paulus caedit Petrom* « پولص يضرب بطرس » بدلا من *Paulum caedit Petrus* « پولص يضرب بطرس » .

* * *

بعد أن عرفنا الفصائل الثلاث الأساسية من دوال النسبة ، يجدر بنا أن نبحت مسلك هذه الدوال بالنسبة لدوال الماهية .

يتركب العنصران فى بعض اللغات بشكل يجعل كل كلمة تتضمن التعبير عن قيمتها العنوية ، وعن دورها الصرفى فى آن واحد . وكانت السامية والهندية الأوروبية لغات من هذا القبيل . فكلمة مثلاً كالكلمة الإغريقية *ἔδωκε* فيها شئ يعّد كاملاً ونهائياً : دالة الماهية ممثلة فيما يسمى الأرومة ، وهى هنا *-δω-* التى تعبر عن فكرة الإعطاء ؛ وعناصر الكلمة الأخرى تدلنا على أن هذه الفكرة ترجع إلى الماضى وأن لها فاعلاً مفرداً : « أعطى » . وكل واحد من عناصر

الكلمة ليس له وجود مستقل : لا الأصل الذى سبق ولا اللائحة -% ولا اللاصقة -% ولا الزائدة ، كلها لا توجد خارج ذلك التركيب أو التراكيب الماثلة له . ففى قطع تغيير لا أكثر ، إذ أننا نستطيع تنويع الأصل واللائحة والزائدة على السواء . ولكن الذى يعطى للكلمة وحدتها وتآلفها رغم تعقد عناصرها ، إنما هو كون كل واحد من هذه العناصر له ترتيب ثابت لا يقبل التغيير : ففى تمسك بعضها ببعضاً وتقوى بعضها بعضاً ، وتظهر للعقل فى طابع تصوّر واحد ، هو الطابع الذى نراه فى الفرنسية فى « Il a donné » « هو أعطى » بما فى ذلك من تعبير عن الزمن والعدد .

وتصريف الفعل فى السامية يقدم لنا أمثلة مشابهة . فما دمنا قد تحققنا من السواكن الثلاثة الأصلية فى كل الصيغ المشتقة من أصل واحد ، لم يبق علينا إلا النظر فى اختلاف الحركات واللواحق والعلامات . فالصيغة العربية قتل صيغة واحدة كما رأينا فى الإغريقية تماماً ؛ إذ أنها تشتمل على دالة ماهية ، هى الأصل ق ت ل ، ودوال نسبة تميز صيغة قتل عن جميع الصيغ المأخوذة من نفس الأصل : قاتل وتقاتلا ومقتول واقتل ويقتل وقاتل الخ . يزيد على ذلك أن تصريف الفعل فى السامية يعبر عن الجنس أيضاً : فقاتلت للمذكر فى مقابلة قاتلت للمؤنثة ؛ وفى الشخص الثالث أيضاً مثل قتل فى مقابلة قتلت .

تركب اللغات الهندية الأوربية والسامية نوعين من دوال النسبة كما رأينا : تباذل الحركة والالصاق ، ولكن بدرجات مختلفة . فتبادل الحركة يلعب فى السامية دوراً أوسع مما فى الهندية الأوربية . « خاصة هذه اللغات فى تعبيرها بالسواكن عن أساس الفكرة وعن تفرعاتها الثانوية بالحركات يجعلنا فى حل من القول بأن التصريف فى هذه اللغة يقع داخل الكلمات ^(١) » . « الأصل فى العربية لا يتميز إلا بسواكنه ؛ أما عن الحركات فشكل ساكن من سواكن الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة أو بالسكسة القصيرة أو الطويلة أو بالضمّة القصيرة أو الطويلة أو بالصر ، فعندنا سبع صور . وكل واحدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة النحوية ^(٢) » . وذلك يسمح للغات السامية بصياغة

(١) رينان : رقم ١١١ . (٢) ميه : رقم ٩٤ ، الطبعة الرابعة ، ص ١٣٣ .

عدد من الكلمات المشتقة دون حاجة إلى لواصلق : ففي العربية كَتَبَ وكتاب وكتاب . . . الخ .

توليد الكلمات على هذا النحو في الهندية الأوروبية لا يقع دون التجاء إلى لواصلق . ولكن من أثر تبادل الحركات في الهندية الأوروبية والسامية كلتيهما ، أن تعطى قيمة خاصة لما يسمى الأصل بتخليصه من شبكة اللواصلق إذا أردنا أن نركز عليه أعلى درجة من التعبيرية ، إن صح لنا هذا التعبير . الأصل حقيقة حساسة بالنسبة للمتكلم من جهة أنه ينتظم حالات مختلفة من الحركات ، كل حالة منها تقابل استعمالاً مختلفاً . وحقيقته الأصل ترجع إلى قبوله للتنوع ، ومبدأ التبادل يجعل هذه العناصر تلعب دور التعارض . وهو لعب في غاية اللطف والدقة اعتادته عقول الساميين والهنديين الأوروبيين .

ينبغي ألا نخلط بين الأرومة « racine » والأصل radical . ففي الفرنسية نستطيع بعد التحليل أن نعثر على العناصر Part, aim, recev في المصادر recevoir, partir, aimer ؛ ولكن هذه العناصر ليست إلا كائنات نحوية وليس لها وجود حقيقي في شعور المتكلم . ويسمى النحويون الفرنسيون « أصولاً » . وفي الألمانية تدخل قاعدة تبادل الحركات في الأصول قيمة أوضح : فالتقابل الذي بين geben « أن يعطى » و gab « أعطى » أو بين nehmen « أن يأخذ » و nahm « أخذ » و genommen « مأخوذ » يمكن إلى حد ما أن يعطينا فكرة عن عنصر بعينه يتميز بالساكنين g . b « ج . ب » أو n . m « ن . م » وفي داخله تبادل بعض الحركات تبعاً للمعنى الذي يراد التعبير عنه . أما عن الأرومة فيجب في اللغات الهندية الأوروبية الضعود حتى الإغريقية القديمة وحتى السنسكريتية على وجه خاص لنكون على بيّنة منها .

ومع ذلك فالهندية الأوروبية بل والسامية تضيف عادة إلى التبادل في الحركات استعمال لواصلق (لواصلق أو علامبات) . ومن النادر جداً في الهندية الأوروبية أن يكون تبادل الحركات وحده هو المميز للكلمة . وإذا وقع ذلك فإن على العالم اللغوي أن يسلم بأن الكلمة مزودة باللاحقة الصغرية . فالأرومة في الهندية

الأوربية إذن ، رغم مالها من أهمية صرفية عظيمة ، ليس لها وجود مستقل ؛ فلا شيء غير الموافقة ، الموافقة القائمة على نوع من التحليل للحقائق الذي كثيراً ما يكون تحكيمياً ، هذه الموافقة هي التي عودت النحويين الهنود تحليل كلماتهم ليكتشفوا فيها أرومات حتى لنرى القواميس السنسكريتية ترجع الصيغ الفعلية إلى صورة مثالية تسمى الأرومة وتفترض أن جميع الصيغ قد خرجت منها بواسطة اللواحق .

واللاحقة أيضاً ليس لها وجود مستقل ، وإنما تستمد كيائها جميعه كالأرومة من تبادل الحركات ومن المعنى الذي يسند إليها ، وهو معنى يحدّد في غالب الأحيان . نرى تبادل الأصوات في كلمة عزيمية مثل كاتب^١ وكاتبون يحدد معنى اللاحقة (— و ن في كاتبون) في جميع الحالات التي يمثّل فيها .

أما العلامات فيمكن مقارنة باللواحق من كل وجه ؛ فهي أيضاً عناصر تضم إلى الأرومة . ولا يمكن تمييزها عن اللواحق إلا بالاستعمال ، فاللاحقة تشير إلى النوع العام الذي تنسب إليه الكلمة (اسم فاعل ، مصدر ، اسم آلة ، مكبر ، مصغّر . . . الخ) بينما تشير العلامة إلى مجرد الدور الذي تلعبه الكلمة في الجملة . فالعلامات تقوم بدور مخالف لدور اللواحق ؛ ولكنها جميعاً ، من جهة بناء الكلمة ، دوالّ نسبة من طبيعة واحدة في الهندية الأوربية والسامية على السواء . اللواحق والعلامات تضاف إلى الأرومة ، ذلك هو المسلك المعتاد في تركيب الكلمات في الهندية الأوربية ؛ ولكنه ليس المسلك الوحيد . فالزائدة التي توضع قبل الأصل يمكن أن تعتبر استثناء من ذلك : ففي الفعل λύω , λύσα ، تشير الزائدة ο إلى الماضي كما تشير λύσω إلى المستقبل تماماً .

ولا ينبغي لنا أن ندهش إذا قابلنا لغات أخرى يجري فيها التغيير من الأمام على على عكس الهندية الأوربية . فالفرنسية مثلاً تعطينا فكرة ما يجمعها الذي يعبر عنه ، في الكلمات التي تبدأ بحركة ، بصوت صفيري يضاف من الأمام : (آربر) arbre « شجرة » ، والجمع ز - آربر arbres - « شجر » ؛ homme (أم) « رجل » ، hommes - « ز - م » (رجال) ، oie (وَا) « وزّة » oies - « ز - وَا » ، واللغة الدارجة تقدم لنسباً مثلاً غريباً للتوسع في هذا

الاتجاه وذلك في الفعل zyeuter (يلتهم بعينه) «زيئتيه» المأخوذ من z-yeux «عيون» جمع mil (أي) «عين». ويقال في بعض لهجات اللورين zous et zelles (زوس إي زل) بدلا من eux et elles «هم وهن» و zout «زوت» (إليهم) (قياساً على no vont)^(١).

ولكنها في الفرنسية حالة استثنائية معدومة الأثر. وهناك على العكس من ذلك لغات سامية كاللغة العربية تملك نظاماً حقيقياً من التعبير الذي يضاف إلى أول الكلمة. وهكذا نرى الأشخاص في أحد الزميين اللذين يصرف إليهما الفعل في العربية، وهو المضارع، يشار إليهم بلاصقة تضاف إلى أول الكلمة:

الشخص الأول المفرد	أَقْتُلُ	الجمع	تَقْتُلُ
الشخص الثاني المذكر المفرد	تَقْتُلُ	»	تَقْتُلُونَ
الشخص الثاني المؤنث المفرد	تَقْتُلِينَ	»	تَقْتُلْنَ
الشخص الثالث المذكر المفرد	يَقْتُلُ	»	يَقْتُلُونَ
الشخص الثالث المؤنث المفرد	يَقْتُلُ	»	يَقْتُلْنَ

ونجد كذلك في الجرجية، وهي من عائلة غير العائلة السامية، أمثلة لافتة للنظر للتغيير الواقع في أول الكلمة. نستنبط من هذا أن مسلك الإلصاق ينحصر في إضافة عناصر صرفية إلى الأصل توضع تارة في رأس الكلمة وتارة في ذيلها دون تفريق.

وفي مقابلة اللغات التي من قبيل الهندية الأوروبية والسامية التي فيها تقدم لنا الكلمة المكونة من الأصل واللواحق كلاً كاملاً قائماً بذاته، نجد سلسلة أخرى من اللغات فيها دوال النسبة مستقلة عن دوال الماهية استقلالاً قد يكون كبيراً وقد يكون ضئيلاً. وأوضح أمثلة هذا النوع تلك اللغات التي تميز بين طائفتين من الكلمات، طائفة الكلمات الفارغة وطائفة الكلمات المليئة — على حد تعبير

المصطلحات الصينية . فالكلمات المليئة هي دوال الماهية والكلمات الفارغة دوال النسبة . والكلمات الفارغة لا تنبر إطلاقاً . فكلمة *ta* التي تشير إلى الإضافة كلمة فارغة : *wo tieul — tseu* و *وُ تى أول تسي* : « ابني » وكلمة *وو* « أنا » أو على الأصح باء المتكلم ، وأول — نسي « ابن » . و « تى » تلعب نفس الدور الذي يلعبه في الفرنسية الحرف *de* أو *s* في الإنجليزية ؛ بل إنها تستخدم أيضاً في الإشارة إلى تعلق جملة بجملة ، وفي هذه الحال تكون مساوية لحرف الوصل . وليست الكلمات الفارغة في غالب الأحيان إلا صيغاً متخصصة (وغير منفصلة) من الكلمات المليئة . فالكلمتان المليئتان *تسى* و *أول* ، ومعناها معاً « ابن » تضمان بوصفهما كلمتين فارغتين وتفقدان معناها فقداناً تاماً : فكلمة *men* من « باب » وكلمة *tao* تاوو « سكين » تصيران بعد إضافة اللاصقة الاسمية : أول أو تسو ، *men — eul* (وتنطق *moul* مول) أو *tao — tseu* (وتنطق *tao — zse*) . والفعل *leao* « يتم » لياو يستعمل بوصفه كلمة فارغة (في صورة *la* لا) للتعبير عن الماضي : فعبارة *lai la* ومعناها الحرفى « بجىء إتمام » « مصدر » تعبر عن « جىء » ؛ ويمكن تركيب صيغتين من كلمة واحدة ، مرّة تكون مليئة ومرّة أخرى تكون فارغة : *leao la* لياو لا « أُتم » .

وليس معنى هذا أننا لا نقابل في اللغات الهندية الأوروبية أمثلة مماثلة للكلمات الفارغة . فالكلمة السنسكريتية *iti* التي تشير إلى اقتباس كلمات متكلم بنفسها ليست إلا كلمة فارغة . كذلك كلمة *av* في الإغريقية القديمة وكلمة *av* أو *av* في الإغريقية الحديثة (انظر ص ٦٩) . ومن المستحيل ترجمة هذه الكلمات في قاموس ؛ إذ ليس لها معنى مشخص ، بل هي عوامل تقويم أو أسس أو قيم جبرية أكثر منها كلمات . ومن ثم لم تكن توجد بمنزلة ؛ أو تأخذ معناها . إلا إذا وصلت بمنضر لغوى آخر فتكوّن معه كلاً يظهر للعقل كأنه وحدة ؛ و *av* الإغريقية لا معنى لها إذا كانت وحدها ؛ ولكن *ἀνέποιεῖ, ἀνποιῇ* لها في الإغريقية معناها المحدد . والفرنسية مثلاً فيها كلمات فارغة هي حروف الجر . فمن المستحيل أن نترجم الحرف الفرنسى *a* بحرف واحد بعينه من الألمانية ؛ *a-peid*

« على القدم » (في الألمانية zu Fuss) ، ! à Berlin ، « إلى برلين » (في الألمانية nach Berlin !) ، « على الشاطئ » (في الألمانية an der Küste) ، à l' étroit « في ضيق » (في الألمانية in der Enge) ، à regret « أو بالأسف » (في الألمانية mit Bedauern) ، à mes frais « على نفقتي » (في الألمانية auf meine Kasten) ، à part « إلى جانب » (في الألمانية bei Seite) ، à six heures « في الساعة السادسة » (في الألمانية umsechs Uhr) ، الخ .
وأفعالنا المساعدة être « فعل الكون » و avoir « فعل الملك » ليست إلا كلمات فارغة ، مثلها في ذلك مثل الأفعال المساعدة الإنجليزية to do « فعل الفعل المطلق » و to will و to chall ؛ كذلك في الدغركية المساعد mon (مُبْن) الذي بعد أن كان في وقت ما يعبر عن فكرة الاستقبال في شيء من الغموض ، صار يصحب الفعل مجرد صحة ، ولا سيما في حالة الاستفهام حتى قيل بأن mon أصبح الآن أداة استفهام أكثر منه فعلا : mon han kommer ؟ ، « من هن كומר ؟ » « هل سيأتي ؟ » بمعنى « لو يعرف أنه سيأتي ! » .

مع أن اللغات الهندية الأوربية قد خلقت لها على هذا النحو كلمات فارغة ، فإن الذي يميز الكلمة الهندية الأوربية بوجه عام وكذلك الكلمة السامية إنما هي وحدتها : ففيهما دوال النسبة ودوال الماهية متصلة بعضها ببعض بصورة لا تقبل الانفصام . وعلى العكس من ذلك توجد لغات فيها العروة التي تجمع بين دالة النسبة ودالة الماهية مخلخلة إن قليلا وإن كثيراً .

ومع أن مكان الكلمة الفارغة في الصينية محدد بصورة مطلقة وأنه لا يستطيع نقل الكلمة الفارغة فيها من مكانها بأكثر مما يستطيع ذلك في الفرنسية أو الإنجليزية ، فإن للكلمة الفارغة فيها مع ذلك شيئا من الاستقلال ، أولا من قبل أنه يمكننا إسقاطها ، إذ يمكن أن نقول على السواء من men أو men - eul ومول « باب » ، وثانيا من قبل أنه يمكننا — على عكس الحالة السابقة — تكرارها في بعض الأحيان لإبراز الفكرة التي تعبر عنها وذلك بفصلها عن الكلمة التي تتصل بها : Icao la che la ، « ليأو لا تشه لا » « قد انتهى الشيء » .

ولعل اتصال دوال النسبة بدوال الماهية على أقل ما يكون إحكاماً في اللغات
 الفنلندية الأوجرية واللغات التركية التترية . ففي بعض الحالات في اللغة المجرية إذا
 كان هناك سلسلة متتابعة من الكلمات المتفقة فيما بينها والتي تلعب دوراً واحداً
 في الجملة ، لا يوضع دال النسبة إلا مرة واحدة في نهاية الكلمة الأخيرة فيقال
 (az - nak jo - nak ember nek) أي « أمبر نك » للرجل الطيب ، بدلاً من az - nak jo -
 (nak ember - nek) « آز - نك - يو - نك » أمبر نك » و a nagy
 varos - ban « آنجي قاروس بن » في المدينة الكبيرة ^(١) ، وفي التركية تحشر
 علامة الجمع - lar - لَر في داخل كلمة مثل Kizlari (بناته) ، حيث توضع بين
 دال الماهية kiz كز « ابنة » ولاحقة الملكية i = ي (kizi « ابنته »
 بالمفرد ^(٢)) .

وفي التركية أيضاً نجد ارتباط المنصرين مخلصاً إلى حد يجعل نظام دوال
 النسبة غير ثابت . فمثلاً لا نستطيع أن نقول في الفرنسية nous avons le vu
 « نحن رأينا ه نا » بدلاً من nous l'avons vu « نحن رأيناه » ولا j'aime te
 ne pas « أحب لك لا » بدلاً من Je ne t'aime pas « لا أحبك » . بينما يقال
 في التركية دون تفريق : sevmishlerdir « أحبوا » أو sevez ek lerdir
 sevmishdirler « سيحبون » أو seviyorlar idi « كانوا »
 sevmishdirler « يحبون » أو seviyor idiler ؛ و sevdim idi « كنت قد أحببت » أو
 sevdim « لو أحببت » أو sevse idim .

يمكن لكل واحدة من هذه المجموعات أن تحلل وتفرق عناصرها ؛ فالأرومة
 لها مكانها الثابت في رأس الكلمة ، أما باقي العناصر التي تعبر عن الزمان والشخص
 والعدد فعلي جانب من الاستقلال بالنسبة للأصل وبالنسبة للعناصر المجاورة ، لذلك
 يمكن أن توزع داخل الكلمة في شيء من الحرية . وليس لها على وجه العموم أي

(١) شليشر Schleicher و ف. ثومسن V. Thomsen في اقتباس عنهما أيسبرسن رقم

١٣٤ ، ص ٣٧ .

(٢) جوتيو : رقم ٧٣ ، ص ٣١ — ٣٢ .

وجود مستقل ؛ فالعنصر لار (lar (ler لا يستعمل منفرداً كما لا تستعمل العلامات الإغريقية واللاتينية منفردة . ولكن ارتباطه بدالة الماهية أكثر تخلخلاً من ارتباط العلامة الإغريقية بالعنصر المقابل . فالعنصر dir هو الشخص الثاني المفرد من فعل الكينونة ؛ وإذا ما أريد بناء الجمع المقابل منه أضيف إليه ler . ولكن قبول هذين العنصرين لتبادل الوضع كان بيننا في المئمانية الفصيحة القديمة حتى عند استعمالهما في دورها الأصل ، يعنى في التعبير عن جمع الشخص الثالث من فعل الكينونة .

* * *

يتكرر عدد استعمال دوال النسبة أو يقل باختلاف اللغات . فالتركية كما رأينا تنقل هذه الدالة أو تلك من مكان إلى مكان دون ضرر ، ولكنها لا تكررهما أكثر من مرة : فهي تقول دو تفريق seviyor - idiler أو seviyorlar idi ولكنها لا تتركب العبارتين قط لتقول seviyorlar idiler . وعلى العكس من ذلك فإن مسلك التكرار ، هذا الذى ذكرنا سابقاً أنه موجود فى الصينية ، مسلك محبب فى بعض اللغات كما فى مجموعة لغات البنتو « Bantou » التى فيها كل فصيلة نحوية يقابلها معلم يذكّر مع كل كلمة مهما كان عدد الكلمات . فجملة مثل « البنات يمشين » تقل: فى السوية با — كازانا — با إندا ba - enda ba - kazana ba أو b--o ba-kazana ba enda با — أبا — كازانا با — إندا ، وبا ba هى معلم الشخص فى حالة الجمع ؛ « والرجل الجميل » يقال mu - ntu - mu - lotu مؤ تيو مؤ لتو ، معلم الأشخاص فى حالة الأفراد . ويوجد فى البنتو من هذا القبيل سبعة عشر معلماً ؛ ويصل عددها إلى ثلاثة وعشرين فى بعض اللغات . والسوابق فى البنمية يقابلها : لواحق فى الفهلوية وفى مجموعة اللغات الغربية فى إفريقية ، التى تسمى مجموعة اللغات القلتية . ويوجد من ذلك فى الفهلوية إحدى وعشرون فصيلة منها أربع للجمع . فمن الأرومة لام lam التى تعبر عن فكرة الرئاسة يمكن أن يشتق ما يلى : لام دو lam do (فصيلة الضمير أ o) « رئيس » ولام — أو-lam (فصيلة الضمير نجو ngu) « مُلك ، لام

— دِه I a m-de (فصيصة الضمير نده) « nde » « رياسة أو قيادة » ولام —
 به I a m-be (فصيصة الضمير ب) « ملوك ، رؤساء ، الخ . ولا توجد الأرومات
 منعزلة في هذه المجموعة من اللغات ، بل تكون دائماً مصحوبة بما يدل على الفصيصة .
 وهذا الدال على الفصيصة يتكرر في كل عنصر من عناصر الجملة : debb-o-dan-
 e - dyo e دَب — أو دن — إِي دِيُو آه « هذه المرأة البيضاء » rew - be
 ran - é .. be be رَو — به رن — إِي — به به « هؤلاء النساء البيض » الخ .
 قواعد الصرف في هذا النوع من اللغات مختلطة اختلاطاً دقيقاً ؛ ولا يمكن
 تمييز ذوال النسبة فيها إلا بنوع من التحليل في غاية الدقة فيه يُشرح الجملة
 تشریحاً تاماً ويفتتها حتى تفقد معالمها في نهاية الأمر .
 يضاد ذلك على خط مستقيم بعض اللغات الأمريكية التي تدرك ذوال النسبة
 على انفصال وتذكرها منفصلة . فهناك تجمع مقدماً ، وفي مبدأ الجملة ، جميع الدلائل
 الصرفية فكأنهم يبدأون على نحو ما بملخص جبرى للفكرة ، فيه كل شيء ما عدا
 التصورات التي لا تأتي إلا تالية . فلاجل أن يقال : الرجل قتل المرأة بسكين ،
 تصير الجملة على هذا النحو : هو هي هذا ب II قتل رجل امرأة سكين (لغة
 الشنوك ^(١)) .

فكل ما تقدم الخططين الرأسيين إنما يشتمل على دلائل نحوية ، أى دوال نسبة ؛
 أما دوال الماهية فلا تذكر إلا بعد .

لا ينبغي أن ندهش من بنية على هذا النحو من العرابية . فلغة الكلام في
 الفرنسية فيها حالات من التركيب تقرب من تلك الحالات كل القرب . فنحن
 نسمع من الشعب : Elle n'ya encore pas Il voyage , la cousine , en :
 Afrique « هي لم فيها بعد II تسافر قريبتك إلى إفريقية » أو Il l'a - ti jamais
 Il attrapé le gendarme , son voleur ? « هو ألم إطلافا II عيسك
 الشرطي سارقه ؟ » فكل ما هو سابق على الخططين الرأسيين لا يشتمل أيضاً إلا
 على دوال نسبة : إشارات إلى الفاعل أو إلى المفعول (مباشر أو غير مباشر)

أو إلى النوع أو إلى العدد أو إلى الزمن أو إلى صفة الجملة أهي استفهام ، أم نفي : فلدينا هنا ، وقبل أن نعرف عمن وعماداً يدور الأمر ، جميع العناصر النحوية للجملة . فلا يبتنى إلا تعيين الأشخاص والحدث الذي ساهموا فيه ، وبالاختصار الوقائع والفاعلين ؛ وهكذا توضع المعاني التجريدية في رأس الجملة والمشتخصات في ذيلها .

* * *

تنوع الإجراءات الصرفية يجعل تعريف الكلمة يتنوع على حسب اللغات . وإذا كانت هناك لغات يسهل فيها تحديد الكلمة كوحدة لا تتجزأ فهناك لغات أخرى تذوب فيها الكلمة على نحو ما في جسم الجملة ولا يمكن تحديدها حقاً إلا بشرط أن تدمج فيها كتلة من العناصر المتنوعة . ففي الجملة الفرنسية *je ne l'ai pas vu* ، يوجد بالتحليل سبع كلمات مختلفة على رأى النحو الجارى ؛ والحقيقة أن ليس هناك إلا كلمة واحدة ولكنها كلمة معقدة مكونة من عدد من دوال النسبة وقد اشتبك بعضها ببعض ، وليس لها وجود مستقل ؛ وإنما قيمتها في أنها لدى العقل قابلة للتبادل ولأن يحل بعضها محل البعض على حسب الحاجة مادام في الإمكان أن يقال *Je ne t'ai pas vu* « لم أرك » ، *tu ne m'avais pas vu* « كنت لم ترى » ، *nous ne vous aurons pas vu* « سنكون لم نركم بعد » الخ ، مع تنويع عناصر الإبدال في الكلمة على حسب الإرادة . مما لا ريب فيه أنه لا ينبغي لنا أن نسقط من حسابنا ما بين هذه العناصر من فروق نسبية : فالضمائر *je* « ضمير الشخص الأول في حالة الدفع » و *me* « الشخص الأول في حالة النصب » و *tu* « الشخص الثانى في حالة الرفع » ، و *te* « الثانى في حالة النصب » و *le* « الثالث المذكور في حالة النصب ما هي إلا مجرد دوال نسبية محرومة من كل وجود ذاتى ؛ ولا تستعمل منفصلة إطلاقاً . فال *je* لا توجد إلا في تراكيب من مثل *je parle* « أتكلم » ، حيث *je* تقابل الهمزة « و *je cours* « أجرى » ولا تستعمل *me* إلا في مثل *Je me dis* « حرفياً : أقول لي » *tu me frappes* « تضربني » فلو لم يكن في الإمكان وضع بعض العناصر بين الضمير والفعل

(Je dis « أقول » ، Je le dis « أقوله » ، Je ne le dis pas « لا أقوله »
لأمكننا اعتبار Je في Je dis كالنهاية اللاتينية O « أ » في قوله o - dic
« أقول » وتصورنا أن الفرنسية فيها تصريف في مبدأ الكلمة: Je dis « أقول »
tu dis « تقول » ، il dit (وتنطق idi إيدي) « يقول » ولكننا لم نصل
إلى هذا الحد ، وإن كنا نلاحظ أن ضمير الفاعل لا يزداد منذ عدة قرون إلا ميلا
إلى اللصوق بفعله . فلن نستطيع اليوم أن نقول كما قال رابليه Rabelais :
« Je dit Picrochole, je les prendrai à merci » قال بكروشول :
سأضعهم تحت رحمتي (مع وضع عبارة قال بكروشول بين الفاعل وفعله) . على
العكس من ذلك اللغة العامية فكثيراً ما تستعمل ضمير الشخص الثالث حتى عندما
يكون الفاعل اسماً صريحاً : « الوالد ، هو يقول ما يريد » ، « البرجوازيون هم لهم
حظ سعيد » ، الخ . من جهة أخرى دوال النسبة التي مثل nous « نحن » ،
نا مفعولاً أو مجروراً « و vous » أنتم ، كم - (مفعولاً أو مجروراً « قريبة من
الكلمة إلى حد ما إذ أنها تستعمل بصورة واحدة للتوكيد ، وتقابل في نفس
الوقت je و me من جهة و moi « أنا » أو toi , te , tu « أنت » أو lui
il , le . وذلك يعقب من تحديد الكلمات ، على نحو ما يعقده وجود ظروف
تتأرجح بين دوال النسبة وبين الكلمات وسط صيغة فعلية . فيمكننا القول بأن
الكلمة في اللغة الفرنسية لا تخلو من سوء في التحديد .

ذلك صحيح أيضاً بالنسبة للغات من قبيل اللغة التركية حيث تتذبذب العناصر
الصرفية بين دالة وأخرى من دوال الماهية ، أو تتعلق بعضها ببعض في صورة واضحة
من الحرية . والذي يجعل للكلمة التركية وحدتها إنما هي ظاهرة صوتية ، هي
ائتلاف الحركات ، تلك الظاهرة التي تنسق تحريك المقاطع المختلفة وفقاً لمقطع
مسيطر . أما وحدة الكلمة في لغات البنطو فتتعلق بسبب آخر ، هو استعمال المعالم
التي تتبع في كل فصيلة صرفية الدور الذي تلعبه الكلمة في الجملة . ولكننا
مضطرون إلى أن نجمع تحت مصطلح الكلمة في البنطو أو الفرنسية أو التركية ،
عناصر استبدالية متنوعة ، هي عناصر يحسبها بصفاتها هذه ، ولذلك لم ترتبط بدوال

الماهية إلا برابط مخلص^(١) . كذلك الحال في بعض اللغات الأمريكية كالجرينلاندية حيث يعجز الإنسان عن تقسيم الجملة فيها إلى أقسام وحيث يغلب الاتجاه فيها إلى عد كلمات بقدر الجمل وجل بقدر الكلمات^(٢) .

أما اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية القديمة كالسنسكريتية أو التيدية أو الإغريقية القديمة فالكلمة فيها استقلال مطلق يظهر في كثير من المعاملات الصوتية التي تميزها ، مثل معاملتها من جهة الأجزاء الأخيرة ، أو مثل ذلك التوازن الدقيق الذي للنبر . فالكلمة تحمل في نفسها علامة استعمالها والتعبير عن قيمتها الصرفية ؛ فهي على درجة من الامتلاء لا تحتاج معها إلى مزيد . والكلمة الصينية يمكن تحديدها دون عناء أيضاً لأسباب أخرى غير السابقة ؛ ولكنها إذا نزع من النص التي هي فيه فقدت كل قيمتها التعبيرية ولم يبق فيها إلا معنى غامض مجرد لا يمكن إرجاعه إلى أى استعمال .

ليس للكلمة إذن حد عام يمكن تطبيقه على كل اللغات ، اللهم إلا إذا كان هذا الذي يقترحه الأستاذ ميه ، وهو يترك الصورة التي يعبر بها عن الاستعمال النحوي للكلمة : « تنتج الكلمة من ارتباط معنى ما بمجموع ما من الأصوات قابل لأن يستعمل استعمالاً نحوياً ما^(٣) . »

(١) جوتيو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ و ٣٥ .

(٢) فنك Finck رقم ١٦١ ، ص ٣١ .

(٣) رقم ١٠ ، ١٩١٣ ، ص ١١ .

الفصل الثاني

الفصائل النحوية

يراد بمصطلح الفصائل النحوية المعاني التي يعبر عنها بواسطة دوال النسبة^(١) فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة... الخ ، كلها فصائل نحوية في اللغات تسمى دوال النسبة إلى التعبير عنها . ويستطيع كل منا أن يتصور ضخامة عددها وتنوع مذاهبها بالرجوع إلى معارفه اللغوية . وكما يختلف عدد دوال النسبة تبعاً للغات ، كذلك يختلف بطبيعة الحال عدد الفصائل . وكلما ضؤل نحو اللغة ، بالمعنى المشار إليه في الفصل السابق ، قلت الفصائل النحوية في هذه اللغة . ولكن بعض اللغات فيها عدد كبير منها .

مهما كانت اللغة التي ننظر فيها إلى الفصائل النحوية ، لا يمكن تحديدها إلا بالصيغة التي تعبر عنها . ففي الإغريقية حالة فعلية تسمى حالة التخيير ، وهي تقابل في بعض استعمالاتها حالة الشرط في الفرنسية ، وتستعمل على وجه العموم للتعبير عن الرغبة . وليس من حقنا أن نتكلم عن حالة التخيير في لغة لا تملك صيغة خاصة للتعبير عن هذه الحالة ؛ وفي اللغات التي اختلطت فيها حالة النصب subjonctif بحالة التخيير — كما هي الحال في أغلب اللغات الهندية الأوروبية — لا يميز أولئك الذين يتكلمونها في الصيغة الوحيدة بين الاستعمالين اللذين كانا يقتضيان صيغتين متميزتين في زمان سابق . بل لم تبق إلا حالة واحدة يمكن تسميتها ، دون تفريق ، حالة التخيير أو حالة النصب إذا شئنا . هذا الإحساس يرجع إلى وحدة الصيغة مهما اختلفت الاستعمالات . وهذا لا يمنع من خلق صيغ جديدة فيما بعد تقابل استعمالات لم تكن لها عبارات خاصة في اللغة من قبل . وهكذا أدى اختلاط الأورست

(١) ف . جوبل : الفصائل النحوية (رقم ٣٢ ، ج ٥ ، ص ١٨٩ وما يليها . يارنجر ٣ فرع ١) ؛ فان جنكين : رقم ٧٧ ص ٦ وما يليها .

(من أزمان الفعل) بالتام أو بالأحرى تحول التام القديم إلى زمن تاريخي قد أدى إلى حذف وسيلة التعبير عن التام في كثير من اللغات . وبعض اللغات استسلمت إلى عدم وجود التام فيها وعاشت دونها ؛ وبعض آخر خلق لنفسه تاماً جديداً ، بطرق جديدة ، تبعاً لخطّة مختلف عن التام القديم الذي قد نسخ .

الفصائل النحوية إذن شيء نسبي تبعاً للغة التي تتصل بها ووفقاً لفترة ما من تاريخ هذه اللغة . فلم يكن هناك حالة اختيار فعلية في الإغريقية القديمة إلا في فترة من الزمن يمكن تحديدها على وجه الدقة . ونحن نعرف في أي فترة خلقت الجرمانية ، إلى جانب صيغة الماضي الوحيدة ، صيغة جديدة تقابل التام القديم من جهة المعنى . فتاريخ الفصائل النحوية يمكن تحقيقه بالضبط في غالب الأحيان في كل لغة . ولكن نظام الفصائل يظهر في أشكال مختلفة تبعاً للغات . وقد قام ببناء النحو عندنا في القرنين السابع عشر والثامن عشر على مثال كتب النحو في الإغريقية القديمة أو اللاتينية ؛ وقد خرج من ذلك زائفاً وبقى زائفاً . فنحن لأنزال بعضه بمسميات لا تتفق مع الحقائق وتعطى عن بنية لغتنا فكرة غير صحيحة . فلو أن المبادئ التي نتخذها مقياساً لنا كانت قد وضعها قوم من غير أتباع أرسطو ، إذن لتغيرت معالم النحو الفرنسي على وجه التأكيد .

تصنيف الفصائل النحوية عمل من أعمال الصرف العام الذي لا يزال حتى الآن ينشد من يقوم بعمله . وإذا سلمنا بأن هناك من الفصائل النحوية بقدر ما يوجد من دوال النسبة في كل اللغات ، اضطررنا إلى توسيع عدد الفصائل إلى أقصى حد . فبمنقصر عملنا هنا ، اتباعاً لطريقة أملتنا علينا ظروف البحث ، على دراسة عدد من الفصائل اختيرت من بين أعماها ، الجنس والعدد والزمن والبناء للمعلوم أو للمجهول . وسنخرج من هذه الدراسة ببعض معلومات سنعمل على تلخيصها . فصيلة الجنس كما توجد في الهندية الأوربية والسامية منذ أقدم عهدهما^(١)

(١) عن الجنس ، أنظر آدم Adam ، رقم ٤٣ ؛ ه. فبكر H. Winkler ، رقم ٢٢٢ ،
ك. درجمان K. Drugmann ، رقم ٣١ ، مجلد ٤ (١٨٨٩) ص ١٠٠ — ١٠٩ ؛ بارون
Barone ، رقم ٢٢٤ .

تفرض نفسها بدرجة من الصرامة تجعل العقل لا يكاد يستحضر اسماً حتى يبدو الاسم أمامه مزوداً دائماً بنوع يميزه بجلاء ، بل كثيراً ما يسكو النوع هو المميز الوحيد الذي يملكه هذا الاسم . فبالجنس وحده نستطيع أن نميز في الفرنسية « le poids » « الوزن » من « la poix » « القار » و « le père » « الأب » من « la paire » « الزوج » التي لا تختلف كل منها عن قريبتها إلا بالرسم ، ومن باب أولى « le livre » « الكتاب » و « la livre » « الرطل أو الجنيه » أو « le poêle » « بساط الرحمة » و « la poêle » « موقد أو مقلاة » التي يرسم كل زوج منها بصورة واحدة ، كما في الألمانية « die Kiefer » « البلوط » و « der Keifer » « الفك » . وليس هناك من غلطة تصدم السامع من فم أحد الأجانب أكثر من الخلط في الجنس . فإذا ما تجاوز تكرارها تعذر فهم الكلام . ومع ذلك فالتمييز بين الأجناس النحوية لا يقوم على شيء من العقل : إذ لا يمكن لإنسان كائناً من كان أن يقول لماذا كانت « table » « مائدة » و « chaise » « مقعد » و « salière » « إناء الملح » مؤنثة ، في حين كانت « labouret » « مقعد مطبخ » و « fauteuil » « مقعد بجوانب » و « sucrier » « إناء السكر » مذكرة . وكثيراً ما تختلف الآية في لنة مجاورة فيقال في الألمانية « der Sessel » « المقعد ذو الجوانب » و « der stuhl » « المقعد » ، وتقدم لنا الكلمتان « der Löffel » « ملعقة » و « der kegel » « وتد » جنساً مضاداً لما يقابلهما في الفرنسية على خط مستقيم : la quille , la cuiller .

هذا ونحن نعرف مقدار السهولة التي يتغير بها الجنس خلال العصور . فقد كانت تغيرات الجنس عديدة في تاريخ اللغات الرومانية والجرمانية والكلتية ؛ وفي الفرنسية كثيراً ما جرت نهاية التذكير أو التأنيث معها الجنس المقابل لها ؛ يقع ذلك إلى درجة أن عدداً كبيراً من الكلمات المنتهية بنهاية مؤنثة والتي تعتبرها اللغة الصحيحة مذكرة حتى يومنا هذا ، استعملت أو ما زالت تستعمل في اللغة الدارجة على أنها مؤنثة ولا سيما إذا كانت مبدوءة بحركة تمنع اصطحابها بالأداة المؤنثة ، مثل الكلمات : « exercice » « تمرين » و « orage » « عاصفة » و « ouvrage » « عمل » ، الخ . بل إن الكلمتين « prophète » « نبي » و « pape » « بابا » استعملتا

مؤنثتين في المصور الوسطى بسبب النهاية المؤنثة في آخرهما . وهذا يرينا مقدار اختلاف الجنس الطبيعي عن الجنس النحوى . ومازلنا نستعمل *ordonnance* « جندى مراسلة » و *sentinelle* « حارس » بالتأنيث مع أن الكلمتين تعينان أفراداً من الجنس القوى ، وذلك جرياً على عادة اللاتين إذ يقولون : *auxilia* و *vigilice* .

الجنس النحوى عندنا قليل الصلاحية للتعبير عن الجنس الطبيعي حتى أننا لا نجد في أغلب الوقت أية وسيلة في الفرنسية للتعبير بواسطة الجنس النحوى عن الفرق بين الجنسيتين الحقيقيين . فالكلمتان *médecin* « طبيب » و *professeur* « أستاذ » ، لا مؤنث لهما ، ونجدنا في غاية الارتباك لتطبيقهما على المؤنث : إذ لا نستطيع أن نقول *médecine* و *professeuse* (بنهاية المؤنث) . ولعلنا لا نستطيع تفسير ذلك في حالة الكلمة الأولى فقط لوجودها بعينها مستعملة في معنى مختلف هو الطب ، ولكننا لا نستطيع أيضاً استعمالهما على حالهما مصحوبتين بالأداة المؤنثة مع أداة التأنيث كما كان اللاتينيون يقولون *illum senium* (Terence) فكان ذلك يزيل الإشكال : ذلك بأن *la professeur, la médecin* (مع أداة التأنيث) تصدم آذاننا . فيضطرب الفرنسي المهنذب إلى أن يقول *la femme médecin* « المرأة الطبيب » و *la femme professeur* « المرأة الأستاذ » معتبراً كلمة *femme* « امرأة » دالة نسبة تشير إلى الجنس . فشأننا في ذلك شأن لغة لا تميز مطلقاً بين الجنسيتين : في هذه الحال تستعمل اللغة الإنجليزية الضميرين *he* « هو » و *she* « هي » استعمال دوال النسبة فتقول *he-goat* « حرفياً هو عز أى جدى » و *she-goat* (حرفياً هي عز أى معزة) وتستعمل الإيرلندية السابقة *ban* بن (مأخوذة من *ben* بن « امرأة ») : *ban-dia* « إلهة » و *ban-file* « شاعرة » *ban-tuath* « ساحرة » ، الخ . ونحن نقول *cocher* « حوذى » *femme cochère* « امرأة حوذية » متمسكين إلى هذا الحد بدالة النسبة : امرأة ؛ وإذا قلنا *cochère* « حوذية » دون *femme* « امرأة » بدا ذلك لنا مستهجناً .

حالة الفرنسية الراهنة كانت هي الحال في الهندية الأوروبية ، حيث لم يكن يعبر عن الجنس الحقيقي فيها بوسيلة صرفية ^(١) . وأكثر من هذا أنه لم تكن في الهندية الأوروبية كلمة واحدة تتميز من ناحية الجنس بصيغتها الخارجية : toga « ثوب أشراف الرومان » و scriba « كاتب » أو aesculus « سنديان » و famulus « خادم » أو arbor « شجرة » و dolor « ألم » ، تتصرف في اللاتينية على صورة واحدة ؛ مع أن كل مجموعة منها فيها الكلمة الأولى مؤنثة والثانية مذكرة . وإذا كانت هناك لغات اختص فيها كل من الجنسين بنوع من اللواحق كالفوطية مثلاً التي تعتبر كل الكلمات المقابلة للتصريف اللاتيني الأول (نوع toga) مؤنثة وكل الكلمات المقابلة للتصريف الثاني (نوع famulus) مذكرة ، فإن ذلك يعدّ ضرباً من التجديد . إذ أن الكلمات الإغريقية πατήρ « أب » و μήτηρ « أم » أو υἱός « ابن » و νύξ « كنة » كانت تتصرف في الهندية الأوروبية على صورة واحدة .

نعم ، يجب أن ندع البسهم neutre جانباً . فهذا الجنس هو الوحيد الذي تحدده صيغته : ففي الإغريقية τέχνη « طفل » و σίναπι « مستردة » و μέθυ « شراب من العسل » ، وفي اللاتينية templum « معبد » و corpus (في حالة الإضافة corporis) « جسم » و mare « بحر » و cornu « قرن » ، كل هذه الكلمات تعلق عن أنها من جنس مبهم . والمبهم في الهندية الأوروبية جنس على حدته ، فهو يقابل الجنسين الشخصيين معاً ، ولكنه أقل انتشاراً منهما : فليست له صيغة خاصة به إلا في حالة واحدة ، ويظهر أن هذا يشير إلى كونه من فصيلة في سبيل الانقراض ، وليس لها في هيكل النظام استقلال تام . ويلعب في مقابلة الجنسين الآخرين دوراً تكميلياً من حيث أنه يعبر عن بغض المعاني المستقلة في التقابل بين المذكر والمؤنث ، فهو مثلاً يدل في غالب الأمر على أشياء تعتبر غير فاعلة ولا قابلة لأن تزود بقدرة شخصية ؛ ويظهر أنه في بعض الأحيان يعبر عن معنى جمى .

(١) إرنوت Ernout ، رقم ٩٨ ، من ٤١١ .

فما معنى الجنس في الهندية الأوربية إذن ؟ إنه ينحصر في مسألة الاتفاق . فالذى يجعل *πατήρ* مذكراً في الإغريقية أننا نقول *ὁ πατήρ ἀγαθός* و *ἡ μήτηρ* مؤنثاً أننا نقول *ἡ μήτηρ ἀγαθή* فالأداة والصفة اللتان تصحبان الاسم تختلفان في الصيغة تبعاً لاختلاف الجنس . هذه الحقيقة كان لها في تاريخ الجنس نتيجة هامة . لأن الجنس قد تبع تقلبات العبارة الصوتية الناشئة عن المطابقة : فحيث كفت المطابقة عن الظهور أو عن الظهور الكامل بسبب عوارض صوتية مات الجنس أو بلى . ولا يبقى على الجنس في الفرنسية إلا الأداة والصفة ، كما كانت الحال في الإغريقية القديمة ، غير أن صورة الأداة واحدة أمام الكلمات التي تبدأ بحركة مثل : *l'aurore* « لورور » « نور الفجر » و *l'abîme* ، « بيم » « الهاوية » . فالجنس في هذه الكلمات ليس له وضوحه في غيرها ؛ لذلك كانت الكلمات التي تبدأ بحركة على وجه العموم هي التي تعرضت لتغير الجنس في تاريخ اللغة الفرنسية . وإذا كانت الصفة التي تصفه غامضة الجنس ، لم يبق شيء يعبر عن الجنس مثل : *l'aurore est splendide* « ضوء الفجر بديع » . ولا يكون لهاتين الكلمتين *abîme* ، *aurore* جنس إلا عندما تقول *L'aurore est belle* « ضوء الفجر جميل » ، *l'abîme est profond* « الهوة عميقة » [حيث الصفة تختلف نطقاً في حالة التذكير عنها في حالة التأنيث] .

وكانت الإنجليزية في ذلك أوغل من الفرنسية . فقد كانت الإنجليزية القديمة تميز في الأداة ثلاث صيغ مختلفة للأجناس الثلاثة المختلفة : *sé* و *séo* و *thaet* ؛ بل كانت تحتوى على تصنيف كامل للأداة ، فيه أربع حالات مختلفة لكل فرع من فروع العدد . ولكنها ما لبثت أن بسطت هذا التصنيف . إذ أنها قالت أولاً في حالة الرفع بتأثير القياس : *thé* ، *théo* ، *thaet* ؛ ثم جمعت بين المذكر والمؤنث في صيغة واحدة *thé* ؛ وأخيراً أسقطت المبهم ، فلم يبق لها في المفرد إلا صيغة واحدة ، وفضلاً على ذلك كانت هذه الصيغة هي صيغة الجمع . ولما فقدت الأداة تصرفها حرمت اللغة من التعبير عن الجنس لأن الصفة من جهتها صارت مجردة من التصنيف . أما المرحلة التي وصلت إليها الدمركية فأقل تقدماً من تلك ؛ فهي

تقول den دِن المذكر — المؤنث ، و det دَت للمبهم ؛ وللجمع بأجناسه الثلاثة دِه de . فقد سمح لها تطورها الصوتي بالاحتفاظ بجنسين ولكنها ، من حيث أصلها ، لا تقابل المذكر والمؤنث كما في الفرنسية .

ليس هنا مكان البحث عن أصل الجنس النحوي في الهندية الأوربية^(١) . وقد حاول ذلك بعض اللغويين دون أن يصلوا إلى نتيجة مرضية . ذلك بأن المسألة تتعدى نطاق النحو الهندي الأوربي ؛ إذ أنها مسألة من مسائل علم اللغة العام وتتطلب البحث في مجموعات أخرى من اللغات . ومن علماء الأتروبولوجيا من زعم ، مثل فريزر بأنه حل المسألة بتصوره أن الخلاف بين الجنسين يتصل بلغة النساء الخاصة ؛ فعند هؤلاء العلماء أن الاسم كان على صيغتين : صيغة تتكلمها المرأة وصيغة يتكلمها الرجل^(٢) . وهذا تبسيط ساذج للمسألة : فالأجناس لا تنحصر في المقابلة بين المذكر والمؤنث فحسب ، إذ أن الهندية الأوربية فيها جنس ثالث ، هو المبهم .

يبدو الجنس في مظهر خاص في بعض لغات إفريقية أو أمريكا . ف لغة الألجونكين algonquin تميز بين جنس حي و جنس غير حي^(٣) . ولا يهمها بعد ذلك ما يدخل تحت كل واحد من الجنسين من أشياء : فقد تضع الألجونكين بين الأشياء المدلول عليها بالجنس الحي إلى جانب الحيوان : الأشجار والأحجار والشمس والقمر والنجوم والرعد والثلج والجليد والقمح والخبز والطباق والزخافة والولاعة . الخ . والحقيقة « أن هذا التمييز في الجنس مطلق وأساسي ، لأنه يطبق

(١) أنظر خاصة المؤلفات المذكورة في (هـ . فنكلر H. Winkler و ك . برجمان K. Brugmann ، وماريو بارونه Mario Barone ، وأنظر أيضا ب . ا . هويلر B. I. The origin of gram matical gender: Wheeler ، رقم ٢٣ ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٤٥ (١٨٩٩) .

(٢) فان جنب Van Genneep ، رقم ٧٤ ص ٢٦٥ .

(٣) ج . ب . ب دى چسلان دى چنچ DeWaa : J. P. B. de Josselin de Jong « deeringsonderscheiding van (levend) en (levenloos) in het Indoeuro - peesch vergeleken met hetzelfde perschijsnel in enkele Angonkintalen رسالة في ليون (١٩١٢) .

على الأسماء والتعبير عن الملكية وضمائر الإشارة والأفعال والصفات ^(١) . أما في توزيع الأشياء بين الجنسين فقد حدثت أحداث قياسية خاصة . ويوجد في السلائية جنس للأحياء أيضاً يمكن تفسير نشوئه وخاصة شيوعه بتطور صرفي مطرد توجد آثاره في الهندية الأوروبية ^(٢) . وهناك اتجاه لمقابلة المادة الحية بالمادة غير الحية في الأرمنية ^(٣) والأسبانية بعد الفعل ، بل في الفرنسية القديمة أيضاً بعد الاسم : (le bourg le roi, les maisons du bourg) « البلد الملك ، منازل البلد » . وعلى العكس من ذلك توجد في غير هذه اللغات مقابلات أخرى : ففي لغة الماساي Masai ، من شعوب شرق إفريقية ، يوجد جنس لما هو كبير وقوى و جنس آخر لما هو صغير وضعيف ^(٤) ؛ وهذا ما يترجمه بعضهم تحكماً بالمقابلة بين الذكر والمؤنث : ol tungani أَلْ تُنْجَانِي « الرجل الكبير » en dungani ، آن دُنْجَانِي « الرجل الصغير » ؛ ولعل من الأوفق أن يقال بكل بساطة : جنس قوى و جنس ضعيف . والفصيلة هنا تجاوز ما نسميه في غير هذا المكان بالمصغرات .

في الميدان الإفريقي يطلق على الجنس اسم « الطبقة » . فاللغات البنطية يسيطر عليها وجود « الطبقات » ، التي تمتاز كل منها بلاصقة خاصة ، وعليها توزع جميع الكلمات الموجودة في اللغة . وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سبق (ص ١٢١) . والإشارة إلى الطبقة ، لها أهمية الإشارة إلى الجنس في كلمة إفريقية أو لاتينية . إنها ضرورة فرضها الفعل على نفسه . ومَعْلَم كل كلمة (هكذا نسمى العنصر الصوتي الذي يشير إلى الطبقة) من الأهمية بحيث نراه يتكرر في أثناء الجملة مع جميع الكلمات التي تتعلق بهذه الكلمة : فكأن الكلمة الأساسية تفرض لون زيتها على جميع الكلمات التي تتعلق بها .

(١) ل. آدم L. Adam ، رقم ٤٣ .

(٢) ميه : رقم ٩٦ .

(٣) أدجاران ، Adjarian : Classification des dialectes arméniens ،

باريس ، ص ١٨ و ٤٧ .

(٤) مركر Die Masaj ، Merker ، يقتبس عنه فايس Feist ، في رقم ٣٦ ، ٣٧ ،

ص ١١٨ .

الجنس في لغاتنا الأوربية ليس إلا طبقة على طريقة البنطو . فهو محاولة قام بها العقل لتصنيف المعاني المتنوعة التي يعبر عنها بواسطة الأسماء . وأغلب الظن أن هذا التصنيف يقوم على التصور الذي كان في ذهن أسلافنا الغابرين عن العالم ، وقد ساعدت عليه بواعث غيبية ودينية . وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد أن عجز من يستعملونه عن فهم علته .

هناك فصائل نحوية بينها وبين الواقع علاقة أحكم مما في حالة النوع ، ولها ما يبررها عقلياً في تصورنا الحالي للعالم : من ذلك فصيلة العدد وفصيلة الزمن . فعلى حسب ما أقول : الجوادياً كل أو الجياد ستاً كل ، أراني أعبر عن فكرتين فيهما الوحدة [المفرد] تقابل الجمع والزمن الحاضر يقابل الزمن المستقبل . وذلك يقوم على حقائق الاختبار . ولكن إذا ناقشنا كيف يعبر في اللغات المختلفة عن هاتين الفصيلتين ، وهما من أعم الفصائل ، أدركنا أولاً أنهما يظهران فيها على صور تحد من عموميتهما وثانياً أنه من البادر أن نجد لهما في الاستعمال العبارة الدقيقة التي كنا نتظرها .

عندنا في الفرنسية مفرد وجمع . ولكن التمييز بين الوحدة والجماعة ، وهو ما يكون العدد عندنا ، ليس مظهر هذه الفصيلة الوحيد . فن اللغات ما كان فيها أو ما يزال فيها مثني . والهندية الأوربية كان فيها مثني أبقى عليه في الزمن التاريخي فترة طويلة أو قصيرة على حسب اللغات ، ثم أبعدها جميعاً تقريباً شيئاً فشيئاً^(١) . ففي الهند نجد المثني في السنسكريتية ، فيدية كانت أم كلاسيكية ، وذلك على عكس البراكريتية Prākrits والبياليه Pāli اللتين فقدتاها . وكانت الفارسية القديمة والزندية تستعملانه في صرامة ، ولا يوجد منه أثر في اللغة الفهلوية . ولا يوجد المثني في الأرمنية ولا في اللاتينية منذ أقدم تاريخ نعرفه لهما . أما في السلاوية القديمة فهو يتمتع بالحياة ، بكل الحياة ، ولا زالت بعض لهجاتها تستعمله حتى يومنا هذا مثل السلوفينية [من لهجات يوغسلافيا] وصورايبية اللوزاس [إقليم مشترك بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا] . وهو في بعض اللهجات اللتوانية في سبيل الانقراض . وكانت القوطية

تعبّر عنه في الضمير والفعل فحسب ؛ ولم يبق منه في الألمانية العالية القديمة إلا آثار في الضمير وحده ، ولكن هذه الآثار بطيئة الاختفاء : إذ أننا لا زلنا نقابل في بعض لهجات بشاريا الحالية الضميرين *os* أو *enk* ، بعد أن اختفيا من لغة الكتابة منذ آخر القرن الثالث عشر . ولم يحتفظ بالثنى من اللغات السكتية إلا الأيرلندية في أقدم عصورها ، وذلك في تصريف الأسماء ؛ ولكن هذا العدد لا يشغل فيها إلا مكاناً ضئيلاً ، لأن الاسم المثنى يجب أن يكون مصحوباً باسم العدد « اثنين » . وتقدم لنا الإغريقية القديمة مجموعة في غاية التنوع تفيدنا علماً من نواح شتى ، ولكنها انتهت مع ذلك بإقصاء المثنى ^(١) . وذلك هو الميل العام في اللغات الهندية الأوروبية . فإذا كان هذا الاستبعاد قد تمّ في أزمان مختلفة اختلافاً محسوساً تبعاً للغات ، فرد ذلك إلى أسباب تاريخية .

يجب أن نعتقد أن استعمال المثنى كان يسد حاجة أخرى غير الحاجات التي يمكن أن توحى بها عوائد تفكيرنا الحديثة . فنحن لا نرى اليوم أية علة لمقابلة التثنية بالجمع . ولكن هناك في فصيلة العدد معاني أخرى متميزة لا نعبّر عنها وإن كانت تستحق أن يكون لها صيغة نحوية . من ذلك معنى الجمعية ومعنى الإفرادية . فليس لدينا في الفرنسية وسيلة للتعبير عن هذين المعنيين ؛ وذلك نقص كثيراً مانعاً آثاره . فكل المناقشات التي تثار بين بعض النحاة عما إذا كان يجب أن نكتب *gelée de groseille* « مربى عنبه الذئب » أم *gelée de groseilles* « مربى عنبات الذئب » و *confiture de pomme* « مربى التفاحة » أم *confiture de pommes* « مربى التفاح » ترجع هذه المناقشات كلها إلى الخلط بين الجمع والجمعي ، وسببها عدم وجود فصيلة نحوية للجمعي . كذلك نشعر بشيء من الضيق حينما لا نستطيع أن نعرف على وجه التخصيص من قولنا *le cheval court* « الحصان يعدو » إذا كان يراد حصان ما مأخوذ على انفراد أو يراد الخيل في مجموعها بوجه عام . فنحن لا نميز الفرد من الجنس ولا الخاص من العام .

(١) كوني Cuniy رقم ٦١ ، وانظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

واللغات الهندية الأوربية كلها تقريباً^(١) على نفس الحال التي عليها اللغة الفرنسية ،
ليس فيها عبارة مطردة لبعض المعاني الهامة من فصيلة العدد .

فصيلة الزمن أيضاً فيها نواح من النقص^(٢) . والذي يعبر عنه الفعل أساساً
في لغة كالفرنسية أو الألمانية إنما هو الزمن . ويسمى الفعل في الألمانية Zeitwort
(كلمة الزمن) فعندنا في الفرنسية سلم من الأزمان المتنوعة ، لا تعبر فقط عن أقسام
الزمن الثلاثة من ماض وحاضر ومستقبل بل أيضاً عن الفروق النسبية للزمن : إذ لدينا
الوسيلة للتعبير عن المستقبل في الماضي والماضى في المستقبل . ولا توجد إلا لغات
قليلة لها ثروة اللغة الفرنسية في هذا الصدد . فلا يكاد يوجد في الألمانية إلا زمن
ماض واحد ؛ إذ أنها تخلط في صيغة واحدة غير التام imparfait^(٣) والماضى
المحدد défini ؛ هذه الصيغة هي : ich liebte « أحببت أو كنت أحب » وهذه
الصيغة الوحيدة تميل إلى أن تحمل محل الماضى التحليلي من نوع Ich habe geliebt
« أحببت » في بعض أجزاء ألمانيا بينما يسمى الماضى التحليلي لاحتكار التعبير عن
الماضى بأمسه في بعض الأجزاء الأخرى . وثروة اللغة الفرنسية تلك قد أتت من
اللغة اللاتينية التي كانت من جهة الأزمان مزودة بسلسلة زاخرة من الصيغ .
غير أن التعبير عن الزمن تجديد من اللاتينية . لأن النحو المقارن يعرفنا أن
الهندية الأوربية كانت لا تهتم خاصة إلا بالتعبير عن صفة الحدث aspect^(٤) .
يطلق اسم صفة الحدث على فصيلة الاستمرار^(٥) . والأزمان الفرنسية تعبر

(١) أوجدت اللغات الكلتية لنفسها اسماً فرادياً ؛ أنظر بدرسن ؛ رقم ١٨٩ ، جلد
٢ ، ص ٥٨ .

(٢) أنظر هريج Herbig ، رقم ٣٠ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٠ وما يليها .

(٣) غير التام يشبه في العربية « كان يكتب » والماضى المحدد هو الماضى التام المحدد
يزمن صراحة أوضناً ويسمى أيضاً الماضى البسيط أو الماضى التاريخي . وهو أحد المعاني العديدة
التي تعبر عنها العربية بصيغة الفعل الماضى .

(٤) بروجان : رقم ١٥٠ ، ج ٢ ، مجلد ٣ ، ص ٦٨ .

(٥) بربلني : رقم ٤٧ ؛ وبارونه : رقم ٢٢٥ .

عن اللحظة التي فيها تمّ أو يتمّ أو سيتمّ أحد الأحداث ؛ ولا تدخل في حسابها المدة التي يستغرقها وقوع الحدث . ومع ذلك فهو أمر هام ، بل أمر يطغى في بعض الأفعال على كل اعتبار آخر للمعنى . فالهندية الأوربية كان اهتمامها بالدلالة على الزمن أقل بكثير من اهتمامها بالدلالة على صفة الحدث من الوجهة الاستغرافية . فهي لا يعنينا أن تبين في أي لحظة يتحقق الحدث (في الماضي أو الحاضر أو المستقبل) بل أن تشير إلى ما إذا كان هذا الحدث يُواجه من ناحية استمراره أم في نقطة فقط من سيره ، وهل هذه هي نقطة الابتداء أو نقطة الانتهاء ، وإذا كان الحدث يقع مرة واحدة أو يتكرر ، وإذا كان ذا نهاية ونتيجة أو لا ، ومن ثم جاءت هذه المفارقات التي يراعيها النحو المقارن في تقسيمه للأفعال إلى استمرارية أو وقتية غائية أو غير غائية وإلى تدرجية وتكرارية وانتهائية ... الخ . ومن المستحيل أن نفهم شيئاً من نظام الفعل في السنسكريتية أو في الإغريقية القديمة إذا لم ندخل في حسابنا هذه الفروق الدقيقة أو إذا رحنا نبحث فيها عن التعبير عن الأزمنة المختلفة ، بهذه الفكرة التي تعد طبيعية في لغاتنا . والفروق التي نجدّها في الإغريقية بين الحاضر والأوورست والتام ليست إلا فروقاً في صفة الحدث الذي يؤديه الفعل . وقد احتفظت اللغات السلافية بغلبة الصفة على الزمن في الحدث مدة طويلة وما زالت تحتفظ بشيء منها حتى يومنا هذا . فكل فعل فيها ينتمى إلى فصيلة من « صفة الحدث » تميّزه وتحدده كما يميز الماضي والمستقبل في لغتنا^(١) . وهذا فرق أساسي بين الروسية والفرنسية وعقبة من أشد العقبات التي تقابل الفرنسي في دراسته اللغة الروسية .

وتشبه اللغات السامية ، من جهة التعبير عن الأزمان ، اللغات الهندية الأوربية في نظامها المتيقن شهاً كبيراً . فليس في السامية المشتركة أية وسيلة للتمييز بين أزمنة الفعل المختلفة ، ولكننا ندهش عندما نرى فيها هذه المجموعة الكبيرة من الوسائل للتعبير عما بين الفعل والفاعل من صلوات ، للتعبير مثلاً عن السببية causatif والكثرة conatif والشدة intensif ، والتمنى désiratif والرجاء putatif والأمر jussif ، والمفاعلة réciproque والمطاوعة réfléchi . كل هذه

المصطلحات الفنية لا تزال تشير إلى فصائل في الفعل السامى ، ولا يزال محتفظاً بها على درجات متفاوتة في اللهجات المختلفة للغة السامية . أما الزمن بمعناه الحقيقي فلا يوجد منه فى السامية إلا إثنان : غير التام والتام ، وهما مشتقان من أصلين مختلفين ولكن لا ينبغي ألا نفهم من هذين الاسمين ، تام وغير تام ، أى شىء مما يشبه الأزمنة المستعملة فى الفرنسية ، بل يجب أن يؤخذ على معناها اللغوى ؛ فهما يدلان على انتهاء الحدث أو عدم انتهائه ، أى أن السامية مثل الهندية الأوروبية يسيطر فيها التعبير عن الاستغراق *durée* لا التعبير عن الزمن . فالأشورية مثلاً تستعمل التام (الماضى) فى معنى الحاضر والمستقبل . وفى العربية يعبر غير التام (المضارع) عن الحاضر وعن المستقبل . « وفى العبرية ترى الصيغة المسماة خطأ بصيغة الاستقبال تستعمل فى القصص للتعبير عن الماضى ، ومن جهة أخرى يمكننا كلما شئنا أن نستخدم الصيغة المسماة بصيغة الماضى للتعبير عن المستقبل . ونحن نعرف مقدار ما أصاب تفسير النصوص النبوية من صعوبات لهذا السبب . جاءت هذه الفوضى من أن فكرة الزمن قد أدخلت فى صورة عرجاء ، وبعد أن لم تكن موجودة ، على تصرف فلى لم يكن قد هيئ لاستقبالها^(١) » .

فصيحة الزمن النحوية تحتوى ، مثل فصيحة العدد ، على نواح من النقص ؛ بل بل إنها حتى فى داخل الحدود التى تجول فيها لا تنجح دائماً فى استعمال صيغة تنطبق حقاً على المعنى الذى يراد التعبير عنه . فكثير من اللغات الهندية الأوروبية تستعمل أحياناً للتعبير عن المستقبل أو الماضى صيغة ليست للمستقبل ولا للماضى . فع أن اللاتينية فيها صيغة للاستقبال ترى *Plaute* يستعمل الحاضر للتعبير عن حدث واضح فيه أنه للاستقبال ، وذلك حين يقول (Captifs 749) : « peristis nisi iam hunc abducitis » ، « أنت تهلك [إنك لهالك] إن لم تأت به فوراً » . والقارىء لا يتردد لحظة فى الزمن الذى ترجع إليه هذه الجملة . يقع ذلك أيضاً فى الفرنسية ، فنقول فى كلامنا الجازى : « j'y vais » ، « أنا رايح هناك » بدلاً من « je vais y aller » « أنا رايح أروح هناك » أو « je m'apprete à y aller » ، « أستعد للذهاب إلى هناك » أو « j'irai » « سأذهب » .

ومن ذلك ما كتب راسين في بيرينيس Bérénice :

Peut - être avant la nuit l'heureuse Bérénice

Change le nom de reine au nom d'impératrice .

« لعل بيرينيس السعيدة تستبدل قبل أن يقبل الليل لقب امبراطورة بلقب ملكة » . وتستعمل الألمانية الحاضر مكان المستقبل بصورة مطردة : فهذه العبارة الثقيلة « Ich werde kommen » ، « سأتى » لا توجد إلا في كتب النحو وعلى السنة الأجانب الذين يتكلمون الألمانية . أما الألمان فيقولون بكل بساطة في محادثاتهم : « Ich komme » « آتى » . واستعمال الحاضر في وظيفة المستقبل يقوم على اتجاه عام في الكلام : فالروسية تستعمل للمستقبل حاضراً قديماً وكذلك القوطية والغالية وكنيتية اسكتلندية وغيرها أيضاً .

وفي الفرنسية يستطيع المستقبل البسيط التعبير عن الحاضر (Il sera à Paris)
(à l'heure qu'il est » سيكون في باريس في الساعة التي نحن فيها » ، كما يمكن أن يكون للماضى السابق futur antérieur قيمة الماضى (« La Bruyère :
« Nul ne se ressouvient d'un mot qu'il aura dit. ») لا برويير :
« لا يستطيع أحد أن يتذكر كلمة سيكون قد قالها . » أغلب الظن أن المستقبل في كلتا الحالتين يدخل على الجملة معنى خاصاً (الإمكان ، الاحتمال) ، ولكن الحقيقة الواقعة هي أن المستقبل هنا مستعمل مكان حاضر أو ماض .

الماضى أيضاً يمكن أن يعبر عنه بالحاضر . وهو استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي . وفيه يجد المثقفون سحراً خاصاً ؛ يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغ وصفاً حتى يجعل النظر يحيا من جديد أمام عيني القارئ ويرجع يفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحدث . وهذا حق . ولكن هذا التعليل الذي قد يمكن أن ينطبق أيضاً على استعمال الحاضر مكان المستقبل ، لا قيمة له في نظر النحوى . فهو ملزم بأن يتمسك بوجهة النظر التالية : يستطيع الكاتب أن يستعمل عبارة رآها أبلغ تعبيراً أو أكثر أناقة من غيرها ، فعلى اللغة أن تمد بهذه العبارة ؛ وفي هذه الحال يجب أن يكون ميدان الحاضر وميدان الماضى غير مغلقين أحدهما بالنسبة للآخر في اعتبار النحو ، حتى يمكن الانتقال من

أحدهما إلى الآخر بسهولة ودون خطر على الوضوح .
والواقع أن الماضي بدوره يمكن استعماله للدلالة على الحاضر ؛ فالإغريقية القديمة تستعمل الزمن الذى يدل به على الماضي فى التعبير عن الحاضر ، الذى يقال له حاضر العادة ، وذلك فى الجمل ذات المرى العام ، فى الأحكام والحكم ؛ فكان لهم أن يقول مثلاً :

ὅς κε Θεοῖς ἐπιπείθεται μάλα τ' ἔκλυνον αὐτοῦ

مستعملاً آورست يترجم بالطبع في الفرنسية بفعل حاضر فنقول : « من يطيع الآلهة ، تستجيب له الآلهة » . وذلك هو آورست الوعظ الذي يستعمل في التعبير عن حدث لا ينتمى في الواقع إلى أى زمن ، ويمكنه ككل حقيقة من حقائق التجربة أن يصدق في المستقبل وفي الحاضر وفي الماضي . والحاضر هو الذي يبدو لنا في الفرنسية وفي معظم اللغات صالحاً لهذا الاستعمال العنام . ولكن الفرنسية تستطيع أن تستعمل فيه المستقبل أيضاً ، وكذلك اللاتينية : *pulcra* « *Mostellaria* ، بيت ٢٨٩ ؛ وقارن بيت ١٠٤١) : « المرأة الجميلة العارية أجمل منها ولو ارتدت أنفخر الثياب . »

مانسميه الحاضر في الفرنسية زمن مطاط يصلح كما رأينا للتعبير عن المستقبل والماضي ، وينطبق دون تفريق على الحدث المحدد بالحاضر الحالي تحديداً محكماً (ها هو الترام يمر) أو على الحدث الدال على العادة (أمرٌ به كل أحد) أو الحدث الذي لا يستند إلى أى زمن محدد (الترام يمر في هذا الشارع) .

يطول بنا الحال إذا أردنا أن نعدد كل وجوه النقص التي يعرضها علينا في كل لغة استعمال الأزمنة . أليس مما يدعو إلى الدهش أن نرى الفرنسية تستعمل في الماضي الشرطي ، أو على الأقل ما يطلق عليه هذا الاسم وهي تتكلم عن المستقبل ؟ وذلك كأن يقال « لو أسندت إليّ هذا المسألة لانبهت منها سريعاً » لا أظننا نلاقي أي عناء في أن نكتشف أصل هذا الاستعمال : فهو أثر من آثار القياس . جواب الشرط عندنا مستقبل غير تام imparfait du futur ؛ وقد صدر القياس أولاً عن الجمل التي فيها فعل الشرط حاضر وجواب الشرط مستقبل مثل : « إذ أسندت إليّ هذه المسألة فسأنتهي منها سريعاً » وذلك يرينا إلى أي حد من الرونة تستعمل

اللغة ما لديها من الوسائل ، ولكنه يطلعنا في نفس الوقت على مقدار الصعوبة التي نلاقها في محاولة تنظيم فصيلة الوقت ؛ إذ أنها دائماً سيئة التحديد .

* * *

أما فصيلة المبني للمعلوم والمبني للمجهول فأسوأ تحديداً^(١) . ونعني بعبارة البناء للمعلوم والبناء للمجهول صورة من صفة الحدث الفعلي في علاقته مع المسند إليه حسبما يعتبر الحدث واقعاً من المسند إليه أو واقعاً عليه ؛ واقعاً في مصلحته أو باشتراكه فيه . والطابع الكلاسيكي من ذلك يوجد في المقابلة الإغريقية بين المبني للمعلوم والمبني للوسط والمبني للمجهول : $\nu\acute{\iota}\omega$, $\nu\acute{\iota}\sigma\sigma\alpha\iota$ « أغسل » أو « أغتسل » (حرفياً : أغسل نفسي) ، أو « أٌغسل » (بواسطة آخر) . ولكن تميز الأبنية الثلاث في الإغريقية قليل الوضوح . فالجار والمجرور هو الذي يكون المبني للمجهول أكثر من الصيغة الفعلية نفسها . ففي الإغريقية عبارة : $\epsilon\kappa\tau\omicron\rho\omicron\varsigma$ $\delta\alpha\mu\epsilon\acute{\iota}\varsigma$ « مذبذب هكتور » تعتبر مبنية للمجهول ولكن $\epsilon\kappa\tau\omicron\rho\omicron\varsigma$ $\pi\epsilon\sigma\omega\upsilon$ « مستهدف لضربات هكتور » ليست مبنية للمعلوم إلا في الاصطلاح النحوي : وكلتا العبارتين تعبران عن فكرة واحدة ، بل لعلهما في الأصل متساويتان في نزجة البناء للمجهول . وفي اللاتينية بعض المبني للمجهول مثل $uapulo$ « أضرب » له صيغة المبني للمعلوم . فلعل ما يسمى بالمبني للمجهول في لغاتنا الكلاسيكية يعرف بصفة عامة بلاحقة أو بزائدة ، وليس المعنى هو الذي يحدده : فإذا قلت « أعطى » je donne أو je frappe « أقرع » كان ذلك من المبني للمعلوم ، وكيف يمكن أن يكون منه مثل je dors « أنام » و je meurs « أموت » و je souffre « أتألم » ؟

تتميز الأفعال المبنية للمعلوم من الأفعال المبنية للمجهول في معظم اللغات الهندية الأوربية عمل خداع ، لأن المبني للمجهول في كل حالاته تقريباً لا يمكن أن يعتبر عكس المبني للمعلوم . إذ يدخل في المبني للمعلوم عادة معنى خاص يعدل من صفته . فالمبني

(١) عن مقابلة المبني للمعلوم بالمبني للمجهول ، أنظر : أهلنبيك Uhlenbeck رقم ٣٠ ، جلد ١٢ ص ١٧٠ ؛ وشوخارت Schuchardt : رقم ٣٠ ، مجلد ١٨ ص ٥٢٨ — ٥٣١ ؛ وفينك : رقم ٣٧ ، مجلد ٤١ ، ص ٢٠٩ — ٢٣٢ .

للمجهول يعبر في الغالب عن حدث تحقق ، وانتهى تماما ؛ ومن ثم كان الكثير من الأفعال الفرنسية يعبر عن الماضي بواسطة فعل الكون . وكانت هذه هي الحال في اللاتينية . يزيد على ذلك أن المبنى للمجهول في هذه اللغة له استعمال خاص يقال له خطأ المبنى للمجهول غير الشخصي le passif impersonnel وكان يجب أن يسمى غير الشخصي فقط ، إذ لا شيء فيه من المبنى للمجهول ؛ وذلك مثل : curritur « on court » (يجرى) (على أن الفاعل هنا غير شخصي لا يعود على شيء ، وإنما جرى به لأسناد الحدث فقط) ، luditur « on joue » (يلعب) itum est (ذهب) . فنحن في هذه الحال نستعمل في الفرنسية الضمير غير المحدد « on » أو المطاوع le réfléchi فنقول مثلاً : « ينكسر كوب كبير » و « ينصدع بناء شامخ »^(١) .

إذ أن المطاوع في الفرنسية كما في كثير غيرها من اللغات يعد وسيلة من وسائل التعبير عن المجهول « Cela se dit, cette robe se porte » (ده يتقال ، الفستان ده يتلبس) ، وصفة هذه العبارات المميزة هي أن فاعل الحدث غير معبر عنه ؛ ولكن لا يمكن اعتبارها مبنية للمجهول ، اللهم إلا إذا أضفينا على المبنى للمجهول معنى خاصاً لا يجعله عكس المبنى للمعلوم .

هذا الخلط الذي نشكو منه في لغاتنا يرجع إلى معان ثنائية أدخلت في التعبير عن المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول فأضعفت بينهما درجة التقابل الأساسية . ولكن هل هناك ما يبرر هذا التقابل الأساسي ؟ لو كان الفرق بين الفعلين أقرع je frappe وأقرع je suis frappé ينحصر في العلاقة النحوية بين الشخصين فحسب ، لم يكن هناك محل للوقوف عنده ، ولضارت المسألة مسألة اصطلاح بحث نتج من العادة أو من مراعاة التيسير : فيقال بطرس ضرب پول . أو پول ضرب من بطرس دون تفريق ؛ وكانت بعض اللغات تفضل استعمال العبارة الأولى ، وبعضها

(١) الأمثلة التي ذكرها المؤلف هي : « Il se joue un grand jeu » و « Il se fait une grande course » ، وقد استبدلنا المثليين بغيرها لعدم وجود صيغة المطاوعة في العربية للفعلين الواردين في النص . وترجمنا المثاليين الآخرين بالعامة مراعاة لغرض المؤلف وحرصاً على الدقة .
المعربان

يفضل استعمال الثانية ؛ وفريق ثالث منها يسمح باستعمال الاثنين ، وفي تلك الحال كنا لانرى في كل هذا إلا نتيجة لعملية تاريخية . وفي الواقع أنه إذا كان يوجد في الفرنسية مبنى للمعلوم ومبنى للمجهول (وهذا الأخير في حدود ضيقة) فإن الهندية الأوروبية لم تعرف إلا المبنى للمعلوم ؛ وهناك لغات أخرى تميل إلى جعل الصيغتين صيغة واحدة ، هي صيغة المبنى للمجهول .

الواقع أن هناك طريقتين لمواجهة صلة المسند إليه بالعالم الخارجى ؛ فتارة يكون المسند إليه فاعلا ، أى أنه يحدث أثراً ما على ما يحيط به بواسطة عمل إرادى (بطرس يضرب بولص) وتارة يكون قابلاً ، أى أنه يستقبل من المحيط الذى حوله أثراً يصيب حساسيته (بولص ضُرب من بطرس) . والتقابل واضح في هذين المثالين : أحدهما يعطى الضربات والثانى يتلقاها ؛ لذلك لم يكن هناك محل للتردد . ولكن هناك حالات تتوازن فيها الفاعلية والاستقبالية وتختلطان ، وهناك حالات أخرى تطفئ فيها الأولى على الثانية . فإذا قلت بطرس يرى بولص أو بطرس يحب بولص ، فإن الشخصين يوقعان كل منهما على الآخر أثراً يمكن أن يعتبر من جهة الفاعلية أو من جهة الاستقبالية على السواء . ذلك بأن الرؤية ظاهرة استقبالية : إذ أن شبكة بطرس تتأثر بصورة ما . كذلك الحال في الحب أو في الصداقة : في كل منهما بطرس يعانى عاطفة ما . وليس في ذلك شيء من الفاعلية . فيرى الإنسان الأقرب إلى المنطق أن نسمى الأفعال فاعلة actifs في حالة ما إذا كان الحدث مؤثراً effectifs وأن نستعمل طرازاً آخر من الأفعال نسميها أفعالا سلبية passifs أو انفعالية affectif حسبما يراد ، وذلك في حالة ما إذا كان الفاعل يعانى تغيراً في استعداداته الانفعالية .

تلك هي نقطة البدء التي عنها تصدر فضيلتان عظيمتان من فصائل الفعل في بعض اللغات مثل اللغة الجرجية^(١) . ففي الجرجية طرازان من التصريف . visurverb « أرغب » و msurs « رغبة لى » و vikvareb « أحب »

(١) أظفر أمثلة منقولة عن فلك : رقم ١٦١ ، ص ١٣٣ ؛ وانظر أيضاً شوخارت :

رقم ٣٩ ، مجلد ١٣٣ (١٨٩٥) ، ص ١٠ — ٩١ .

و mikaars « حبُّ لي » ... الخ . وقد نشأ عن هذين الطرازين تصريفان للفعل منفصلان ، الفاعل والانفعالي ، وتستعملهما اللغة الجورجية جنباً إلى جنب في نفس الفعل (وحينئذ تدخل فيهما عادة اختلافاً زمنياً) أو توزعهما على الأفعال تبعاً لدلالاتها : فمثلاً نراها تقول على وجه العموم mesmis « سمع لي » « أسمع » انفعالياً ، ولكنها تقول vxédav « أرى » فاعلاً ، وتقول mdzéra « اعتقد لي » (أعتقد) mgonia « تفكير لي » (أفكر) انفعالياً ، ولكنها تقول : vaseneb « أبني » و vtser « أكتب » فاعلاً ... الخ . ولا تعرف اللغات الهندية الأوروبية هذه التفرقة .

ومع ذلك فعندنا في الفرنسية فكرة عنها في المقابلة je crois « أعتقد » و m'est avis « يأتني لي » وفي je vois « أرى » Il m'apparaît « يظهر لي » ، فذلك يمثل الفرق بين الفاعلي والانفعالي تمثيلاً جيداً . ونحن نفضل الفاعل عادة حتى أننا نقلنا إلى الفاعلية عبارة مثل Il me souvient « يأتني في ذاكرتي » فأصبحنا نقول مخالفين في ذلك كل منطق Je m'en souviens « آتية في ذاكرتي » وهي عبارة منافية للعقل والذوق على السواء ؛ ومع ذلك فإن ثوجيلا Vaugelas يقرر أنها كانت في زمنه أكثر دوراناً على الألسنة « في البلاط » أكثر من عبارة : il m'en souvient « يطفو في ذاكرتي » . وقد وقع نفس الاشياء بالنسبة للفعل regretter « يأسف » ، فعبارة (je regrette « آسف » جاءت من il me regrette « آسف لي » ؛ وقارن العبارة الإيطالية mi rincresce « أنا آسف ») . وزي في الألمانية أيضاً نفس الشيء في أفعال مثل ahnen, grauen « اشتباه وارتعاد » فعبارة ich abne etwas « أشتبه في شيء ما » أصلها es ahnt mir أو [mich] etwas « اشتباه لي في شيء ما » ويقال ich graue mich vor etwas « ارتعد أمام شيء ما » بدلا من es graut mir vor etwas « ارتعاد لي أمام شيء ما » ؛ والفعل اللاتيني poeniteo « آتوب » أصله من me poenitet « توبة لي » .

انتقال الانفعالي إلى الفاعلي هو في نفس الوقت انتقال من غير الشخصي إلى

الشخصى : والواقع أن من اللغات ما يفضل التركيب الشخصى بوجه عام . هذا الاتجاه واضح فى اللاتينية حيث نجد المبنى للمجهول الشخصى قد جاء من المبنى للمجهول غير الشخصى فعبارة : *invidetur mihi* « حسد لى » قد سبقت *inuideor* « أحد يحسدنى » ، كذلك عبارة *uitam uiuitur* يحيا [الإنسان] حياته (إنيوس الماسى ، بيت ١٩٠) قد سبقت *uita uiuitur* « عشت الحياة » ؛ كذلك يقال فى الدنمركية *jeg blev budt to heroner* « قدم أحد لى تاجين » بدلاً من *jeg blev forbu dt Adgang til ... , mig blev dudt to kroner* « حرّم أحد على دخول ... » بدلاً من : *mig blev forbudt Adgang til ..* وهما العبارتان اللتان تعدّان منطقياً صحيحتين دون سواها . فنرى أن التمييز بين فصيلتى الفاعل (المبنى للمعلوم) والسالب (المبنى للمجهول) يقوم على أساس واهٍ . أما التمييز بين المتعدى واللازم الذى يلعب دوراً هاماً فى النحو الكلاسيكى فأساسه ليس أمتن من سالفه . والنحاة يسيرون دون انقطاع على هذا التمييز ؛ وبلغوا فى تسليمهم به حدا جعلهم يعفون أنفسهم من عناء تحديده كأنه إحدى البديهيات . والواقع أنه لا شئ أبعد منه عن التحديد . يسمى الفعل متعدباً فى اللاتينية إذا قبل أن يكون له معمول مباشر منصوب (*Amo patrem* « أحب والدى ») وفى الفرنسية إذا تلاه معمول مباشرة دون وساطة حرف الجر *à* « لى أو إلى » (*j'aime mon père*) « أحب والدى » . وعلى العكس من ذلك يعتبر الفعل لازماً إذا كان معموله مجروراً فى اللاتينية مثل *noceo patri* « أسىء إلى والدى » أو مسبوqاً بحرف الجر *à* فى الفرنسية مثل *je nuis a mon père* « أسىء إلى والدى » . ولكن العلاقة الموجودة بين « أحب » و « والدى » بالنصب هى نفس العلاقة التى بين « أسىء » و « والدى » بالجر . ونحن نعلم أن الخلاف بين البنائين خلاف عارضى محض . بل من الجائز أن تكون عبارة *norcere alicui* مقيسة على : *obesse, officere alicui* ؛ فأحد التركيبين قد استتبع الآخر . وفى مجرى التطور الذى تسلكه لغة بعينها نجد الأبنية تتبادل

بعضها مع بعض ونرى الأفعال اللازمة تصير متعدية والمتعدية تصبح لازمة^(١).
إذ نرى الفعل اللاتيني *mederi* « يعني » كان ينصب مفعوله في بادى الأمر ثم صار يتعدى بحرف الجر *mederi oculos* « يعني عينه » ، *mederi oculis* « يعني بعينه ». وأخيراً نجد التعبير عن إحدى الأفكار يختلف في لغة عنه في غيرها ، فهذه تعبر عنها بفعل لازم وتلك بفعل متعد . فالفرنسية تقول *j'aide ma mère* « أساعد أمي » ، و *je suis mon pere* « أتبع أبي » ؛ على حين تقول الألمانية : *ich folge dem Vater* « أساعد [ل] أمي » و *ich helfe de Mutter* « أتبع [ل] أبي » ؛ وتقول الروسية *blagodarju vas* كما تقول الفرنسية *je vous remercie* « أشكر لك » ، أما الألمانية فتقول *ich danke Ihnen* « أشكر لك » ، واللاتينية تستعمل الجر بعد الأفعال *nubere* و « يتزوج » *parcere* « يقتصد » و *benedicere* « يبارك » .

قد يكون لهذا التميز ما يبرره في نظر النحوى الذى يعلم اللغة إذ يرى أمامه تراكيب مختلفة ويعرف أن التكلم إذا قال *noceo patrem* « أسىء والدى » أو *ich helfe die Mutter* « أساعد أمي » بالنصب كان مخطئاً ، غير أنه اختلاف شكلى محض : إذا علمه التاريخ وفسره لم يستطع العقل أن يبرره .

قد يتصور الإنسان المقابلة بين الأفعال المتعدية والأفعال اللازمة تصوراً أفضل على النحو الآتى . لما كانت فكرة التعدية تستلزم معمولاً ، كان لنا أن ننتج بالتعدية كل فعل صُرح فى الجملة بما يقع عليه حدثه وباللزم كل فعل لا معمول له فى الجملة . وعندئذ يجب أن نفرق بين عبارات مثل *j'aime Rose* « أحب روز » و *la mison ou j'aime* « البيت الذى فيه أحب » ، ومثل « هذا الرجل يشرب نبذاً » و « من شرب سيشرب » . فالفعل إذا استعمل دون معمول كان لازماً ؛ والحدث الذى يعبر عنه لا يقع إذن على شئ . ولكن هذه المقابلة ، وإن كانت منطقية حقاً ، لا يستطيع الأخذ بها زمناً طويلاً دون إضرار بالمنطق نفسه .

(١) عن الفرنسية فى القرن السادس عشر أنظر برينو Brunot ، رقم ٥٧ ، مجلد ٢ ،

ils prennent ces allumettes مثل أخرى عبارات في مثلا نجدها في « ياخذون هذه الأعواد من الثقب » و Ces allumettes prennent « هذه الأعواد من الثقب تأخذ (يعنى تشتعل) » ومثل le chien a crevé la toile « الكلب فجر الخرقة » و le chien a crevé « الكلب فجر » (يقال ذلك في الفرنسية عن الحيوان ويراد به أنه نفق) . ولكن هذه الحالة تختلف عن الحالة السالفة كل الاختلاف . ففي الجملة الثانية من هذين الزوجين يستعمل كل من الفعل (أخذ وفجر) في معناه المطلق والحدث يرجع إلى المسند إليه . أما في الجمل السابقة فإن كلا من الفعلين (أحب وشرب) يعبر في الجمل التي لا مفعول لها عن حدث غير محدد . ومن جهة أخرى نستطيع في هذه الحال أن نعتبر فعلا مثل « أرحل إلى باريس » متعدياً إذ أن الجملة تحتوى على معمول يعتبر غاية الحدث وأن هذا المعمول يعبر عنه بالمنصوب في كثير من اللغات (اللاتينية والإرلندية والإغريقية والسنسكريتية و... الخ) ، فيقال في اللاتينية : peto urbem « أرحل المدينة » . ولكن هل ينبغى أن تعتبر من اللازم الفعل partir «يرحل ، ينطلق » في عبارة مثل : je pars dimanche ، حيث نرى الجملة تحتوى على ظرف زمان بدلا من ظرف المكان ؟ هذه مسألة تحتاج إلى بحث . وكيف نفرق بين « انتظر بطرس » و « انتظر إلى الغد » . كذلك كيف نبين الفرق بين : « أدر الحجر » و « درُ إلى اليمين » ؟ وإذا اعتبرنا هذين الفعلين من الأفعال المتعدية (وكيف لا نعتبرها كذلك إذا « درُ قربنا » [حول] الزواية « بمبارة » « درُ إلى اليمين » ؟) أمكننا أن نقول بأن الكلمة الواحدة تستخدم لأداء وظيفتين مختلفتين كل الاختلاف ، لأن الفعل سبى في « أدر الحجر » أى (« اجعل الحجر يدر ») وفى « درُ إلى اليمين » انعكاس بمعنى أن المسند إليه هو فى الوقت نفسه غاية الحدث (اجعل نفسك تدر إلى اليمين) . وكذلك الحال فى اللاتينية فى saepe stylum uertas «در (بمعنى أدر) أسلوبك غالبا » وفى uerte hac «در من هنا»^(١).

* * *

كلما توغلنا في تحليل الفصائل النحوية للغة من اللغات زدنا إدراكا لاستحالة إرجاعها إلى نظام منطقي . وذلك مما يمكن تفسيره من جانب النحو بعمل في غاية الوضوح : ذلك بأن النحو في أية لغة وفي أية فترة من فترات تاريخ هذه اللغة ليس إلا نتيجة لأنواع مختلفة من النشاط يصيب نواحي النظام النحوي المختلفة ويصيبها مستقلة بعضها عن بعض . فإذا كانت نقطة البدء في التغيرات الصرفية تنحصر فيما يسمى بالقياس ، فإن نتيجة هذا القياس ليس من شأنها أن تجعل المنطق يسود النظام النحوي من جهة كونه كلاً .

من جهة أخرى لا شيء يبرر الفرض القائل بأن الفصائل النحوية كانت في فترة بدائية من تاريخ اللغة منطبقة تماماً على الكليات المنطقية للعقل وأنها بمرور القرون بعدت عنها شيئاً فشيئاً تبعاً للتغيرات الناجمة من الاستعمال ، إذ أننا مهما تعمقنا في التقصي في تاريخ اللغة لا نصل إلا إلى حالة لغوية على درجة كبيرة من التطور . فأقدم صورة نعرفها للغات المتكلمة في زماننا هذا ليست أكثر منطقية ولا أقل منطقية من هذه اللغات نفسها .

مما لا يخلو أبداً من المخاطرة أن يراد الحكم على عقلية أمة بالفصائل النحوية الموجودة في لغتها . فهناك لغات تحتفظ زمناً طويلاً بفصائل لم يبق لوجودها مبرد وتستمر على اعتبارها وسائل نحوية . وعندنا مثل من ذلك في فصيلة النوع : فلو أن شخصاً قدم لنا جملة فرنسية فيها كلمة مائدة تضاد كلمة مقعد وقال لنا بأنها مأخوذة من لغة المتوحشين لا تجبه ذهننا فوراً إلى لغة البنطو . وقد أعطانا الأستاذ بلي Bally أمثلة عديدة بينة على المشابهة التي تقيمها بين لغة المتحضرين ولغة المتوحشين استعمال بعض الفصائل النحوية والاحتفاظ بها^(١) .

قد يحصل أن تهجر بعض الفصائل اللغوية أو أن تتغير كما يقع لأخرى أن تنشأ ؛ وقد أراد البعض أن يستنتج من هذه الحقيقة أن العقل الإنساني يتقدم في طريق التجريد . هذا الاستنتاج له ما يبرره في بعض الأحيان (أنظر فصل الخاتمة) . ولكن لا ينبغي اللجوء إلى التعميم بأية حال . فالهندية الأوروبية لم يكن فيها مصدر ؛

فما كانت تستطيع أن تقول « سَحَلْ » أو « فَعَلْ » وإنما كانت تقول « أَحَلْ » أو « أَفَعَلْ » فحسب . فخلق المصدر ، الذى وقع فى كل واحدة من اللغات الهندية الأوروبية على انفراد ، كان خطوة واسعة فى سبيل التجريد . ومع ذلك فبعض هذه اللغات قد فقد المصدر كالإغريقية الحديثة والبلغارية مثلاً . وهذا لا يحتم أن يكون الإغريق أو البلغارى قد فقد ملكة إدراك الحدث الفعلى إدراكاً تجريبياً . كون بعض الشعوب المتوحشة يملك مثلاً إلى جانب المثنى لا يحتم كون هذه الشعوب لا تستطيع العدد إلا إلى ثلاثة^(١) . ذلك لأن فصيلة العدد النحوية مستقلة عن معنى العدد . وكذلك قد أبان الأستاذ پلانرت Planert أنه يجب التمييز بين فكرة السببية وبين الفصائل النحوية التى تستخدم للتعبير عنها ؛ فإذا كان سكان الملايو لا يعبرون عنها ، فإن ذلك يمنعهم من أن يفكروا تفكيراً سببياً^(٢) . فهناك وسائل مختلفة من التنغيم أو الإشارة يستعاض بها عن الفصائل غير الموجودة . وإذا كانت اللغات تحتفظ فى بعض الأحيان بفصائل نحوية لافائدة منها فإنها لا تعجز يوماً عن خلق فصائل جديدة عند الحاجة . لقد قابلنا فيما سبق بين اللغات التى تعبر عن الزمن واللغات التى تعبر عن صفة الفعل . فإذا نظرنا إلى الوقائع على نحو ما يقدمها لنا تاريخ اللغات الهندية الأوروبية ، اظننا أن فكرة الزمن أحدث من فكرة الصفة وأنها حلت محلها . ومع ذلك ففكرة الصفة ليست مجهولة فى لغاتنا الحديثة التى تعبر عن فكرة الزمن على خير ما يكون التعبير عنها .

استعملت اللغات الجرمانية مثلاً للتعبير عن الزمن الاستمرارى الذى لم يكن فيها إسم الفاعل مصحوباً بفعل الكون . فإننا نجد فى الألمانية العليا المتوسطة تراكيب مثل : all die mich sehende sint (كل أولئك الذين يروننى » der arme Heinrich ، البيت ٦٧٣) أو der riter ... mit tem der lewe varend ist (الفارس ... الذى معه يسافر الأسد » Iwein بيت ٢٩٨٦) . هذه الحاجة نفسها هى التى بعثت على نشوء التركيب الإنجليزى I am going ،

(١) ليفى برون : رقم ٨٨ ، ص ١٥٧ .

(٢) پلانرت : الفصائل النحوية فى علاقتها بالسببية . بحث فى لغة مدغشقر (رقم ٣٤ ،

مجلد ٩ (١٩٠٦) ص ٢٥٩ — ٧٦٨) .

I was reading الذى شاع شيوعا هائلا . ويلاحظ في فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمرارى من هذا القبيل بواسطة الفعل être « كان » aller « ذهب » : ولكنه اندثر بعد أن حكم عليه مالرب Malherbe وميناج Ménage بالإعدام . ومع ذلك فإننا نرى ثوابير Voiture يقول : « cette prison qui va vous renfermant. » هذا السجن الذى يطبق عليك » ويقول لافونتين : « Je me vais désalterant » (أطفئ ظمئى) .

الفرنسية التى تمتاز من بين جميع اللغات بثرائها في وسائل التعبير عن الزمن قد وجدت وسيلتين للتعبير عن الصفة وهى تستخدمهما مجتمعتين منذ بضعة قرون^(١) . إحدى هاتين الوسيلتين تنحصر في استعمال السابقة الفعلية re للدلالة على الحدث الوقتى في مقابلة الحدث الاستمرارى . فكلمتا rabaisser ، rabattre « يخفض » لا تعنيان أن نخفض من جديد أو أن نزيد في الخفض بل تعنيان خفض اتباع الرفع بالخفض دون اعتبار للزمن الذى يلزم لذلك . فإذا تمثل الحدث أمام الذهن في المسدة التى يستغرقها ، وحتى نهاية تنفيذه ، استعملت الصيغة البسيطة abattre أو abaisser « خفض » كذلك : réveiller quelqu'un « إيقاظ أحد الناس » معناه جعله يكف عن النوم أو أن يصحو؛ و remarquer une chose « علم شيئا » معناه أن يضع علامة لهذا الشيء وأن تبقى هذه العلامة . وفي اللغة الشعبية يميل الفعل المركب مع re في كل مكان إلى أن يحل محل الفعل البسيط عندما لا يراد إلا نتيجة الحدث : فالفعل unir في unir deux personnes « يجمع بين شخصين » لم يعد يستعمل إلا في الاحتفال بالزواج ، وفي غير ذلك يقال réunir « يجمع » ؛ و remercier « يشكر » حل محل mercier « يشكر » الذى كان لا يزال يستعمل في القرن السادس عشر ؛ و ralentir « يبطئ أو يستطىء » معناه تقليل السرعة ، كذلك الأفعال ramasser « يجمع بالالتقاط » و recueillir « يلتقط أو يجنى » و regarder « ينظر إلى » أخذت معاني جديدة تخالف معاني garder , cueillir , amasser و rattraper quelqu'un (يقبض على أحد

الناس) يستعمل الآن في المعنى الحقيقي ولم يعد attraper (يلوم) يستعمل إلا في المعنى المجازي . ويقال rapportez أو remportez-moi (حرفياً كان يجب أن يكون المعنى : أحضر إليّ هذا من جديد) في معنى apportez أو remportez (أحضر إليّ هذا) ، renfermez le chat (أحبس القط ، أصلاً أعد حبس القط) refermez la porte (أغلق الباب ؛ أصلاً أعد إغلاق الباب) و rentrez donc (ادخل) (أصلاً أدخل من جديد) بدلاً من entrez donc (ادخل) يقال لك ذلك في بيت لم تدخله من قبل إطلاقاً prends garde (un liquide) de répandre « إحذر أن تريق (سائلاً) » أصلاً أن تريق ثابتيه . . .) الخ . مثل هذه الأمثلة موجودة في الفرنسية القديمة ، إذ نقرأ عند إيمري دي نربون Aimeri de Narbone : « ralez vos en » (انصرف) (أصلاً انصرف ثانية) بدلاً من allez-vous-en : فاللاصقة تزيد من درجة التعبير بشكل واضح . هذه العملية ، وقد ظلت متمسكة بالحياة في الفرنسية ، توجد في اللاتينية أيضاً ، بل إن أصلها سابق على اللاتينية نفسها ، إذ أننا نعثر عليها أيضاً في الجرمانية وفي البلطية السلافية .

ولكن الفرنسية لا تقتصر على هذه الطريقة ، بل إن لديها طريقة أخرى للتعبير عن فكرة صفة الفعل : وهي استعمال الفعل الانعكاسي (يقابل المطاوع في العربية من بعض الوجوه) . قارن défiler « يرون في صف » و trotter « يركض » بالفعلين se défilier « حرفياً : يمرر نفسه في صف » و se trotter « حرفياً : » يركض نفسه أي يركض » : فترى أن الفرنسية تستخدم الفعل الانعكاسي وتضيف له لاصقة فعلية ، واللاصقة في هذه المرة إما — é أو — en : s'en aller « ينصرف » (بالدقة يضع نفسه في حالة انصراف) و s'enfuir « يهرب (يضع نفسه في حالة هرب) » و s'envoler « يطير (يضع نفسه في حالة طيران) » و s'écrier « يصيح (يضع نفسه في حالة صياح) » و s'écraser « ينهار (يضع نفسه في حالة انهيار) » الخ . فهذه الأفعال ، إذا قورنت بمقابلاتها البسيطة ، تقدم لنا خير المثل على هذه الحقيقة : فالفرنسية إذن لا يعجزها

التعبير عن الصفة ما دامت تجد الوسيلة إليه بمجرد أن تشعر بالحاجة إلى ذلك . غير أن الصفة ليس لها في الفرنسية فصيلة نحوية مطردة . إذ لو عرض علينا فعل فرنسي لم نستطع أن تبين منه ما إذا كان يدل على الاستمرار أو على الشروع على نحو ما تبين منه ما إذا كان يدل على المستقبل أو على غير التام . وإذا كانت هناك لغات كالروسية تغلب فيها فكرة الصفة إلى حدّ تصير معه قاعدة للنظام الفعلي ، فإنّ هذه الفكرة ليست في الفرنسية واللاتينية إلا بقايا متناثرة أو أنها لا تسدّ إلا حاجة عارضة .

إذن تختلف الفصائل النحوية في الأهمية تبعاً للغات . فالنظام الصرفي لا يمكن أن يحتوي إلا على عدد محصور من الفصائل التي تفرض نفسها والتي تعم وتظهر . وإنما توجد في كل لغة ، إلى حد كبير أو صغير ، نظم أخرى تتداخل وتتقاطع وزاها تمثل ، إلى جانب الفصائل النحوية التامة الازدهار ، فصائل أخرى في طريق الفناء أو — على العكس من ذلك — في طريق التكوين .

من جهة أخرى يمكننا أن نقيم بين الفصائل النحوية نوعاً من الترتيب التدريجي : فبعضها ليست إلا صوراً خاصة من فصائل أعم منها . فقد أمكننا مثلاً أن نتكلم عن المبني للمعلوم والمبني للمجهول على أنّهما فصيلتان نحويتان ، ولكننا نستطيع أن نرجعهما إلى فصيلة واحدة دون عناء . نعم ، نحن لا ننكر أن لغة تخلو من المبني للمعلوم لا تستطيع مثلاً أن تترجم جملة مثل *je vous aime* « أخبرك » ؛ ونعني بذلك أنه يستحيل ترجمتها من الفرنسية ترجمة حرفية ؛ لأن النسبة التي نعبر عنها بالفعل المسمى المبني للمعلوم يمكن التعبير عنها في تلك اللغة المفترضة ولكن في صورة مخالفة .

كذلك ما نعنيه بمصطلح المضاف إليه في الإغريقية أو اللاتينية ليس له نظير في الصينية ، وكذلك الفرنسية والغالية تخلوان من مثيل له . فإننا نقول في الفرنسية *Le livre de Peirre* « الكتاب [بتاع] بيير » بدلاً من *liber Petri* « كتاب بطرس » . والصينية تعبر عن هذه النسبة بين الاسمين بواسطة ترتيب الكلمات ، فتضع المضاف إليه قبل المضاف فتقول *Hantchaou* « هن تشاو »

« دولة الهون » (حرفياً الهون دولة) ؛ والغالية تستخدم عكس هذا الترتيب فتقول Aber yr afon « مصبّ النهر (حرفياً المصب النهر) » (أنظر ص ١١٢) . فمن الخطأ أن نتكلم عن مضاف إليه في الغالية أو في الصينية ، أو في الفرنسية أيضاً . ولسكنا نعرف أن المضاف إليه الاسم في اللاتينية يمكن الاستعاضة عنه بصفة : فنستطيع أن نقول uirtus Caesarea « الفضائل القيصرية » بدلا من uirtus Caesaris « فضائل قيصر » . وقد صار ذلك قاعدة في اللغة الروسية . بل إن التركيب le livre de Peirre « الكتاب [بتاع] پير » ليس التركيب الوحيد المستعمل في الفرنسية ؛ فإننا نقول أيضاً : palais royal « القصر الملكي » أو livres Sibyllins « الكتب السبيلية » و La maison à Peirre « البيت [بتاع] پير » l'hôtel - Dieu « بيت الله (حرفياً) البيت — الله » la rue Gambetta « شارع غمبتا (حرفياً) : الشارع غمبتا » ، فهنا أيضاً لا توجد فصيحة نحوية للتعبير عن فصيحة عقلية واحدة . فالألمانية فيها مضاف إليه في Vater's Haus أو das Haus des Vaters « بيت الوالد » ولكنها تستطيع كذلك أن تقول meinem Vater sein Haus « [ل] والدي بيته (بمعنى بيت والدي) » ، وهذا تركيب مختلف كل الاختلاف . فإذا ما راعينا هذه الاختلافات التي ترجع إلى الطريقة التي بها تتكون الصورة الكلامية ، جاز لنا أن نقرر وجود فصيحة عامة واحدة في كل اللغات التي تكلمنا عنها ، هي فصيحة التبعية . ونضم المضاف إليه الإغريقي واللاتيني وترتيب الكلمات الضميني والغالي واستعمال الحرف « de » في الفرنسية .

وفصيحة التبعية التي تبدو لنا واحدة ينضوي تحتها فروع يبررها المنطق . فنحن نقول في الفرنسية sa beauté est éclatante « جمالها وضاء » أو la beauté en est éclatante « الجمال فيها (أو في ذلك) وضاء » تبعاً لما إذا كان الكلام مثلاً عن امرأة أو عن صورة زيتية ، أو بعبارة عامة ، عن شخص أو عن كائن غير حي . على حين أننا نقول من غير تفريق le pere de Pierre « الوالد [بتاع] پير » la culotte de Pierre « السراويل [بتاع] پير »

دون أن نتخيل وجود خلاف في النسبة التي تجمع بين الكلمتين في كل من العبارتين . وعلى العكس من ذلك تميز اللغة المندنجية le mandingue ، إحدى لغات إفريقية الغربية ، بين afa (آفا) « أبوه » و a-ta kursi (آستا — كرسى) « سراويله » : فضمير الملك يختلف في كلتا الحالتين ، لأن الأب لا يتبع ابنه على نحو ما يتبع السراويل مالكة^(١) . ففصيلة التبعية في هذه اللغة تزيد تعقيداً بتمييزها بين تبعية الملكية وتبعية غير الملكية . أما الفرنسية فلا تشير إلى هذا الفرق وإن كان يبدو مساهماً به عند التفكير .

* * *

يرجع الخلاف بين النحو والمنطق إلى أن الفصائل النحوية والفصائل المنطقية لا تلتقى إلا نادراً ؛ فإن عدد الثانية لا يتفق مطلقاً مع عدد الأولى : فإذا حاولنا أن ندخل في مسائل النحو شيئاً من النظام بتصنيفها وفقاً للمنطق ، رأينا أنفسنا منساقين إلى توزيعها توزيعاً تحكيمياً : فطوراً زارنا نفرق بين مسائل ذات صفة نحوية واحدة في فصيلتين متميزتين من فصائل المنطق (وفي ذلك إكراه للغة) ؛ وطوراً زارنا نجمع في فصيلة نحوية واحدة مسائل لا يربط بينها شيء من المنطق (وفي ذلك إكراه للعقل) . فالأيسر إذن أن نختار طريقة وسطاً بين هاتين الطريقتين من طرق التصنيف . وفي ذلك تبرير لمسلك النحاة الذين لا نعدم أن نجد قيمة نحوية في مصطلحاتهم وإن كانت تحكيمية وخالية من المنطق في غالب الأحيان . والشيء الوحيد الذى نطالبهم به هو أن تكون تصنيفاتهم ، وقد ضحوا فيها بالمنطق ، متفقة مع الأوضاع النحوية للغة التى يدرسونها ؛ إذ أن الفصائل ، وإن اختلفت من لغة إلى أخرى ، لها فى الواقع سلطان يطغى على نشاط العقل فى اللغة التى توجد فيها .

من اختصاص المناطق أن يحددوا الكليات المنطقية وأن يقرروا ما إذا كان وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجرى على كل اللغات وتفرض نفسها عليها جميعاً بحكم تركيب المخ البشرى . ولنفترض أننا قد وجهنا هذا السؤال

إلى رجل من رجال القرن السابع عشر مشبع بالفلسفة الديكارتية ومنطق الپوررروبال ، فإنه يجيب عنها بالإثبات دون أدنى تردد . قال ديكارت : « صدق الحس هو الشيء الذى قد وزع على الناس خير توزيع . . . وهو الشيء الوحيد الذى يجعلنا آدميين ويميزنا من الحيوان ؛ وإنى لأميل إلى القول بأنه يوجد كاملا فى كل فرد . » وقال لبروير *la Bruyère* مبالغا فى فكرة الفيلسوف : « العقل فى كل الأقطار موطنه . وإن التفكير ليستقيم فى كل مكان يوجد فيه الناس . » هذا التصور لعقل إنسانى ذى قوانين ثابتة لا تتحرك ، مماثل تمام التماثل فى كل الأرجاء ، كان محل تسليم الجميع فى ذلك الحين . ولكنه فى يومنا هذا يبدو محلا للنظر ^(١) .

ومع ذلك فلا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العادات العقلية بين شعوب الأرض المختلفة . فهناك منطق إنسانى وتوجد كليات منطقية كبرى عند جميع البشر الذين يفكرون . وهى بطبيعة الحال أساس الفصائل النحوية . فمن أين تستمد هذه وتلك قيمتها ؟

يعزو إميل دركهايم ^(٢) وجود الفصائل إلى نوع من الضرورة تقف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاقى بالنسبة للإرادة : يعنى أن الفصائل ذات أصل اجتماعى وتتوقف على المجتمع . هنا نجد أثر العامل الاجتماعى الذى ظهر لنا بوضوح فيما سبق أنه أصل التغيرات الصوتية . فهو وجده القادر على تفسير القانون الصوتى : فنوع الضرورة الذى يفرض على مجتمع بعينه أن يحركوا جهازهم الصوتى بصورة واحدة ليس له أصل فىزيق أو ميتافيزيقي ؛ كذلك لا يمكن أن يفسر على أنه عارض فردى ثم نعلم : فليس هنالك من سلطة تكفى لأن تفرض محاكاة خاصة فردية : والقسر الذى تفرضه الصوتيات له من القوة ما لا يستطيع معه فرد أن يتخلص من نيرها . وكذلك الحال بالنسبة لسلطان الفصائل وكلاهما يستمد قوته من قوة الرباط الاجتماعى .

(١) ليشى بريل : رقم ٨٨ ص ٧ .

(٢) رقم ١٠ ، عام ١٩٠٩ ص ٧٤٧ .

الفصل الثالث

الأنواع المختلفة للكلمات (١)

تبلغ الصعوبة في تصنيف أجزاء الكلام حدًا يموقنا حتى الآن عن الوصول إلى تصنيف مرضٍ . وما زال نحونا التقليدي يعلمنا أن نقسمها إلى عشرة أقسام تبعاً لتقليد قديم يرجع إلى منطقة الإغريق . ولكن هذا التصنيف لا يثبت أمام الامتحان : فإن تبرير تطبيقه على اللغة التي خلق من أجلها لا يخلو من عناء ؛ فن باب أولى أن توجد لغات كثيرة لا ينسجم معها هذا التقسيم إطلاقاً . وبمناقشته عن كذب نرى أنفسنا مضطرين إلى تصحيحه .

من المناسب قبل كل شيء أن نبعد من هذا التصنيف حرف التعجب interjection فإن في حرف التعجب مهما كانت أهميته في الاستعمال ، شيئاً يضعه بمعزل عن بقية أجزاء الكلام الأخرى ، ولا يمكن أن يدرج معها في تصنيف واحد . فهو لا يخضع دائماً للقوانين الصوتية ، وكثيراً ما يشتمل على أصوات خاصة به ، مثل المصمصات في كثير من اللغات الحديثة أو الانفجاري الاحتكاكي pff « پف » في الفرنسية وليس له على العموم أى صلة بالصرف . بل يمثل شكلاً خاصاً من اللغة ، اللغة التأثرية affectif وأحياناً الفاعلة actif ؛ فهو على كل حال لا يدخل في بنية اللغة العقلية . وسنلتقي به في الفصل التالى .

بعد ذلك يجب أن نبعد الأصوات . فإن عدداً كبيراً من « أجزاء الكلام » في نحونا ليس شيئاً آخر . كذلك هذه الأدوات التي تسمى بحروف الجر وحروف الوصل ؛ فإن الدور الذي تلعبه يمكن أن تقوم به في لغات أخرى عملية صرفية تختلف عنها كل الاختلاف . فالفرنسية تقول Le livre de Pierre « الكتاب

[بتاع] پير . ترجمة للعبارة اللاتينية liber Petri « كتاب بطرس » ،
وتقول الفرنسية أيضاً « on desait que le comte était mort » قيل إن
الكنت قد مات « بينما تقول الألمانية (man sagte der Graf sei gestorben)
مكتفية بنصب الفعل (استعمال صيغة ال subjunctif عن حرف الوصل dass ،
أن بالعربية ، que بالفرنسية) في الإشارة إلى تبعية الجملة التابعة ؛ و ترى أن
دوال النسبة تتنوع في اللغة الواحدة : فالألمانية تستطيع أن تقول أيضاً man
sagte dass der Graf gestorben ist » قيل إن الكنت قد مات (باستعمال
حرف الوصل dass) . كما تستطيع أيضاً أن تقول : man sagte der Graf
sei gestorben » (باستعمال الفعل في صيغة التبعية . واللاتينية تستعمل أيضاً
المبارتين : rogo venias (أرجو تعفو) أو rogo ut venias (أرجو أن
تعفو) . وقد ظلت الفرنسية وقتاً طويلاً تقول « le bois le roi » الغابة الملك
[يعنى غابة الملك] « و « le bois la dame » الغابة السيدة (غابة السيدة)
وذلك إلى جانب قولها : le chemin du bois « الطريق [بتاع] الغابة »
l'arbre de la forêt « الشجرة [بتاعة] الغابة » . فالكلمات « بتاع »
que « أن » و dass « أن » و ut « أن » عبارة عن دوال نسبة تستعمل
ليبان الصلات التي بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة . حروف الجر تختلف في صفها
عن حروف الوصل بوجه عام . ولكننا نعرف مع ذلك لغات تعبر بصورة واحدة
عن بعض العلاقات بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة على السواء . فالصينية تستعمل
المنصر ti « تى » للدلالة على تبعية الأسماء كما تستعمله للدلالة على تبعية الجمل
(أنظر ص ١٠٨) .

وأداة التعريف في اللغات التي فيها أداة للتعريف ليست إلا دالة من دوال
النسبة ، وليست الأداة على وجه العموم إلا اسم إشارة ضعف معناه ؛ وتستعمل
كوسيلة للتصنيف ، فهي في الأسماء تبين النوع والعدد وفي أغلب الأحيان تدل على
التعريف أيضاً (أنظر أواخر هذا الفصل) أى أنها تحتوى على كل الخصائص
التي تجعل منها آلة نحوية .

وكذلك حالة الضمائر الشخصية : je lis أنا أقرأ تساوى lego « أقرأ » وكذلك tu lis « أنت تقرأ » و il lit « هو يقرأ » تساويان في اللاتينية legis « تقرأ » legit « يقرأ » . فالفرنسية تعرب : je « أنا » و tu « أنت » و il « هو » عما يعبر عنه في اللاتينية بواسطة التصريف . فإذا كان الضمير قائماً بذاته أو مؤكداً كما يسمونه ، فإنه يلعب دور الاسم بالضبط ، ولذلك وجب أن نسلكه في فصيلة الأسماء : ويمكننا للتحقق من ذلك أن نقارن الجملتين : — Viens tu, toi? « أنت تأتي ، أنت ؟ » و Viens - tu, Peirre? « أنت تأتي ، [يا] بيير ؟ » أو Moi , je suis grand et Peirre, il est petit « أما أنا فأنا كبير و [أما] بيير ، فهو صغير . » فالضميران toi « أنت (الثانية) » و moi « أنا (الأولى) » لهما القيمة التي لبيير بالضبط . كما أن الضمير الشخصي يقترب من الفعل في بعض الوجوه . إذ أنه لما كان يقوم في كثير من الأحيان بدور الدالة على النسبة في الفعل ، كان إلى حد كبير مرتبطاً في الفعل بفصيصة الأفعال ومعرضاً لأن تتأثر صيغته بصيغة الفعل . ^(١) فالضميران الإيطاليان : elleno و eglino « هم و هن » قد أخذتا نهاية فعل الغائب الجمع المقابلة لهما ؛ وكذلك الحال في الغالية حيث يقال hwynnt « هم » بدلا من hwy وذلك تحت تأثير النهاية الفعلية ynt — . ونحن نعرف من جهة أخرى أن اللغات التي احتفظت بالثنى في الفعل احتفظت به أيضاً في الضمير حتى ولو هجرته في الاسم ؛ وعلى العكس من ذلك اللغات التي فقدت الثنى في الفعل هجرته أيضاً في الضمير حتى ولو استبقته في الاسم (أنظر صفحة ١٢٤) . فالضمير ، وإن كان اسمي الاستعمال ، يصيبه تأثير الفعل أحيانا ولكنه لا يكون قسماً مستقلاً من أقسام الكلم .

والصفة من جهتها لا يمكن تمييزها من الاسم تمييزاً واضحاً . إذ يبدو أنهما في اللغات الهندية الأوروبية صادران عن أصل مشترك وأنهما في كثير من الحالات يحتفظان بصيغة واحدة . إذ لا شيء يدلنا على كون كلمة bonus « حسن » في

اللاتينية صفة ولا على أن كلمة equus « حصان » اسم ؛ إذ أن علامة الإعراب واحدة فيهما . ولعله لا يستطيع التمييز بينهما إلا بالاستعمال (أنظر أواخر هذا الفصل) . ولكن يجب أن نضيف إلى ما تقدم أن من الاستعمالات ما هو مشترك بينهما على التساوى . فيمكن أن يقال : « أنا قوى » كما يقال « أنا ملك » و « الرجل عظيم » و « العظيم رجل » ، فالاسم والصفة يتبادلان الدور في كل اللغات ؛ ولذلك لم يكن بينهما حدّ فاصل من الوجهة النحوية . فيمكن الجمع بينهما في فصيلة واحدة هي فصيلة الاسم .

إذا تابعنا السير في عملية الاستبعاد هذه ، لم يبق لدينا من أقسام الكلم إلا قسمان : الفعل والاسم . وكل ما عداها من أقسام ينضوى تحت لواء هذه الثنائية . وينبغي أن نعرف ما إذا كان الاسم والفعل يمثلان وظيفتين مختلفتين اختلافا جوهريا .

إذا حصرنا نظرنا في مجموعة خاصة من اللغات كاللغات الهندية الأوربية ، لم نتردد في الاعتراف بأن الاسم والفعل بينهما فرق أساسي . بل أن مجرد فكرة الخلط بينهما تعتبر من الحماقات . فالواقع أن الصرف في اللغات الهندية الأوربية يخص كل منهما بسلاسل من اللواحق وعلامات الإعراب تختلف في أحدهما عنها في الآخر . وذلك إلى حد أننا في السنسكريتية والإغريقية نعرف ، تسع مرات من عشر ومن النظرة الأولى ، ما إذا كانت الصيغة التي أمامنا اسما أو فعلا . وفي كل منهما يعبر عن الفصيلة الواحدة بطريقة تختلف عنها في الآخر ؛ ومن ذلك الشخص والعدد . تقول الإغريقية λέγω بمعنى « أتكلم » و ὁ λόγος μου بمعنى « كلامي » ؛ فالمرء الذي يرمز به للشخص الأول يختلف في كلتا الحالتين . وعلامة الجمع في الاسم لا تجت بصلة إليها في الفعل . فالواقع أن لدينا نظامين من التصريف متوازيين ، وكل منهما مستقل عن الآخر .

غير أننا إذا انتقلنا من اللغات الهندية الأوربية إلى اللغات السامية لم نجد هذا التمييز الفاصل . فالعربية ملأى بالعلامات المشتركة بين التصريفين الاسمي والفعل . إذ ترى النهاية « —ون » التي تستخدم في المضارع المسند إلى الشخصين الثاني والثالث

المذكرين في حالة الجمع تستخدم أيضاً علامة للجمع في كثير من كلمات اللغة المذكورة . وفي حالة المثنى تستخدم لنفس الشخصين المتقدم ذكرهما العلامة « — آن » التي هي علامة الاسم المثنى الوحيدة . ولا تقتصر العلامة بين التصريف الاسمي والتصريف الفعلي في العربية على بعض وجوه الشبه في العلامات ؛ بل إنها تمس جوهر الأشياء في ذاته . فهناك توافق غريب بين الحالات الإعرابية الثلاث (حالة المسند إليه وحالة المفعول المباشر وحالة المفعول غير المباشر) وبين حالات المضارع الإعرابية الثلاث (المرفوع والمنصوب والشرطي أو [المجزوم كما يسميه بعضهم]) . وقد فطن نحاة العرب أنفسهم إلى هذا التشابه فنرى أثره في المصطلحات التي ابتكروها .

مواطن الشبه بين الاسم والفعل في اللغات الفينية الأجرية بلغت من الكثرة حداً جعل بعضهم يقرر — وإن كان على خطأ — أن لا خلاف بينهما . والحقيقة أن الفعل فيها من أصل اسمي في غالب الأحيان ، ولا يزال يقع تحت سلطان العناصر الصرفية الاسمية في بعض الأحوال ^(١) . ففي الفجولية يقال : mini ميني « يذهب » . ali (ألي) « يقتل » . ييجيثان بنفس الصيغة التي تجيء عليها puyi (پوي) « آخذ » uri « ماسك » ؛ وفي الفنلندية antaa « يعطى » معناها الحرفي « مُعطى » . وليس ذلك إلا نتيجة لاستعمال الجملة الاسمية البحتة . (انظر الصفحات التالية) . ولكن هناك حقيقة أخرى أكثر أهمية ونعني بها الاشتراك في العلامات . ففي التشيريمية وفي المردفية تستعمل التاء في بناء الجمع من الأسماء وفي إسناد الفعل إلى ضمير الجمع للغائبين على السواء ، ونجد ذلك حتى في الفنلندية في بعض لهجاتها حيث يقال menit « ذهبوا » menisit « قد ذهبون » في مقابلة meni « ذهب » و menisi « قد يذهب » وذلك يشبه تمام الشبه kalat « السمكات » في مقابلة kala « السمكة » و puut « الشجرات » في مقابلة puu « الشجرة » . وفي المجرية حالات من هذا النوع عينه : ففيها vartak « انتظروا » kértak « طلبوا » جمعا ل vart « انتظر » و kért « طلب » ، كما أن

(١) انظر J. Szinnyei : رقم ٢٨ ، مجلد ٥ (١٩٠٦) ، ص ٦٢ .

harsak « أشجار الزيفون » وnevek « الأسماء » جمال hars وnév. ولكننا لا نجد في اللغات الهندية الأوروبية حالات من هذا القبيل .
وهناك لغات أخرى كلغات الشرق الأقصى يعتبر عدم تميز الفعل من الاسم إحدى خصائص نحوها الجوهرية . ففي الصينية القديمة مثلاً يمكن استعمال الكلمة اسماً أو فعلاً على السواء ؛ وموضع الكلمة وحده هو الذي ينبئ عن أي الاستعمالين أريد .

ونجد مثلاً تقليدياً من هذه الحالة في الجملة : lao lao yeou yeou (لاؤو لاؤو ييئو ييئو) « عامل الشيوخ على أنهم شيوخ والأطفال على أنهم أطفال » حيث نجد الكلمة التي تستعمل للدلالة على شيخ والكلمة التي تستعمل للدلالة على طفل هما نفس الكلمتين اللتين تستعملان للدلالة على « عامل الشيوخ » و« عامل الأطفال » . ولكن الأمثلة التي لها هذه القوة في الطابع نادرة . فاستعمال الكلمة على أنها فعل يصحبه على العموم تغير في النغمة وبالتالي يحصل في الكلمة بتر في الحرف الأول إذا اقتضى الأمر ذلك ، وهذا البتر هو الذي أنتج ما نراه اليوم من فرق بين النفس وغير النفس . فيقال haò « حسن » haò « يجب » وtsàng « كثر » وts'ang « يخفى » ، tschouàn « تعليق » tch'ouàn « ينقل » .
وأخيراً يوجد في الاستعمال الحديث وسائل أخرى لتمييز الاستعمال الفعلي من الاستعمال الاسمي لأول وهلة . وإذا غبضنا النظر عن ترتيب الكلمات وعن أهمية تنابع الجملة على هذا النحو : المسند إليه فالفعل فالعمول ، فإننا نجد من اللواصق ما يرشدنا إلى طبيعة الكلمات : فالأسماء تتميز باللاصقة eul أو باللاصقة tseu (انظر ص ١١٧) ؛ والأفعال تتميز باللاصقة tcho (مأخوذة من tchao « يطبق ، يضع ») ، وذلك في مثل tso tcho « يجلس » و tchao tcho « يضع (ثوباً) » كما يتميز الفعل خيراً من ذلك باللواصق الزمنية leao أو kouo الماضي و yao للمستقبل .

وإذا حدث أن استعملت الكلمة بذاتها فعلاً أو اسماً في الصينية ، فإن التكلم يفرق بجلاء بين هذين القسمين من أقسام الكلم . فالنحويون المليون يميزون

بين الكلمات المليئة (انظر ص ٩٨) و « والكلمات الحسية » (houo tseu) و « الكلمات الميتة » (ssen tseu) ؛ ويقولون بأن الأولى ذات معنى فاعلى والثانية ذات معنى انفعالى . فالأسماء والصفات تعتبر من الكلمات الميتة وعلى العكس من ذلك تعد الأفعال ، وهى تستلزم الحدث ، من الكلمات الحية . ومن نتيجة هذا المبدأ أن الفعل إذا استعمل مبيناً للمجهول يمكن أن يعطى نفس التثنيةم الذى للاسم ، وبتغيير نغمته يصير كلمة ميتة . فعدم التمييز بين الاسم والفعل الذى يعزى إلى الصينية عادة ، ظاهرى أكثر منه حقيقياً . إذ لا يوجد إطلاقاً تردد فى معرفه القيمة الاسمية أو الفعلية فى الكلمات التى تستعمل .

هناك لغة تقرب من الصينية إلى حد كبير من هذه الوجهة ، وهى اللغة الإنجليزية . فعظم الأسماء فى هذه اللغة يمكن استعمالها أفعالاً أيضاً ، فهى تميل إلى التسليم باستعمال كل اسم أيا كان استعمالاً فعلياً . فيمكن لكلمة مثل fire « نار » أن تكون اسماً أو فعلاً دون تفريق ؛ بل يمكنها أيضاً بوصفها اسماً أن تقوم بدور الصفة أو الاسم على السواء ، وبوصفها فعلاً لا تعنى بالتمييز بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول . فهى فى الحقيقة فكرة تجريدية تصلح لكل التطبيقات الشخصية التى تراد منها . تشهد بذلك الجمل الآتية التى لا تتغير فيها الصيغة الخارجية للكلمة بتغير قيمتها : put a fire in my room « ضغ ناراً فى غرفى » ؛ I fire my room « أوقد غرفتى » ؛ a fire fly « ذبابة نارية » ؛ O people , so easy to fire « أيها الشعب السريع إلهابه » . وقليل من الكلمات فى الإنجليزية لا يمكن إخضاعها لهذه الخططة فمن كلمة frown « حاجب » يمكن أن يؤخذ to frown « يعبس الحاجب » ومن book « كتاب » يمكن أن يؤخذ to book « يستعمل فى مذكرة » ومن bomb « قنبلة » يمكن أن يؤخذ to bomb « يقذف بالقنابل » ، الخ .

ومع ذلك فيجدد بنا ههنا ألا نترك أنفسنا فريسة للانخداع . نعم إن كلمة fire « نار » تصلح من حيث المبدأ أن تكون اسماً أو فعلاً دون تفريق . ولكن ذلك لا يطعن فى حقيقة كون فكرة النار التى تحرق تتميز عن فكرة عمل نار للاخراق

فإذا قلت « توجد نار » أو « أشعل ناراً » ، كان في ذهني فكرتان متميزتان
تثيران في ذهن سامعي أثرين مختلفين . لأنني في الحالة الأولى أعبر عن حقيقة وفي
الثانية أصدر أمراً . فليس يوجد إذن في الإنجليزية ، كما رأينا أنه لا يوجد في
الصينية ، أى تردد حول تعيين قيمة كلمة مثل fire عندما يكون هناك محل لإظهار
الفرق بين الحالتين . فالسامع يحس على الفور ما إذا كانت الكلمة اسماً أو فعلاً
تبعاً لاستعمالها في الجملة وعلى الخصوص تبعاً لدوال النسبة التي تصحبها .

ذلك أني حسباً أقول (the) fire ، (أى بأداة التعريف أو أداة التنكير)
أو fire to (مع سبق الكلمة بالحرف أن) أو my fire (مع إضافتها لضمير
التكلم) أو I fire (مع إسنادها لضمير المتكلم) أعين أى القيمتين أريد بالكلمة
قيمة الاسم أو قيمة الفعل ، فجرد الفرق بين دوال النسبة يكفي لإظهار الفرق
بين قيمتي الكلمة ، وذلك دون أى تردد ممكن . فدوال النسبة (the ، a) و (I)
تقوم هنا بدور علامات الإعراب والتصرف في لغة كالإغريقية القديمة : فعبارة
I fire « أشعل » هي العبارة αἰθω كما أن (the) fire ، a ، « النار أو نار »
هي بعينها αἰθος .

* * *

تمييز الفعل من الاسم الذي يظهر دائماً في الكلمة الإنجليزية أو الصينية إذا
إذا أخذت على انفراد ، يتجلى على الفور إذا وضعت هذه الكلمة في جملة ؛ فالسألة
ليست مسألة صيغة بل مسألة استعمال . وبعبارة أخرى يجب أن نواصل المسير حتى
نصل إلى تكوين الصورة الكلامية حيث تتألف عناصر الكلم لكي نبرز التمييز
بين الفعل والاسم . فإذا كانت هناك لغات لا تحتوي على صيغة متميزة لكل من
الاسم والفعل ، فإن جميع اللغات تتفق في التمييز بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية^(١) .

بالجملة الفعلية يعبر عن الحدث مسنداً إلى زمن منظوراً إليه باعتبار مدة
استغراقه منسوباً إلى فاعل موجهاً إلى مفعول ، إذا لزم الأمر : اسمع الموسيقى ،
يميركان يشرب نبيذاً ، سيجر الحصان العربية ، الخ . فموضوع الجملة الفعلية أن

(١) أنظر على الأخص ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٤ ، ص ١ وما يليها .

تأمر بحدث أو أن تقرر حدثاً أو أن تتخيل حدثاً : والأمر والإخبارى والتبعى ، تلك التى يجب أن نضيف إليها المستقبل والشرطى ، كلها تمثل بدرجة كافية من الوضوح هذه الصفات الثلاث للجملة الفعلية . ويمكن أن تتكون هذه الجملة من كلمة واحدة : مثل الكلمة الفرنسية prends « خذ » واللاتينية Uniam « سأتى » والعربية قالوا . بل من المستطاع أن تتكون هذه الكلمة الواحدة اسماً : فعندما نقول « نار ! » أو « سكوت ! » أو « وقوف ! » أو « النفات ! » ترانا تأمر بتنفيذ حدث بالضبط كما لو كنا نقول : « خذ » أو « تعالوا » أو « توقفوا » . ولا يعبر عن الحدث فى اللغة المنطقية غير الفعل . غير أن الأمر لا يدخل فى اللغة المنطقية إلا جزئياً . فهو صورة اللغة الفاعلة (انظر الصفحة الأولى من الفصل الرابع) . ويمكن التعبير عنه بصيغة . إذا أنا نتطالب السكون بقولنا « هس ! » أو « صه ! » ؛ ونحن نسير الحصان بقولنا « شيه ! » فتلك صيغ أمرية لا تدخل فى النظام النحوى للفعل .

تحليل الجملة الفعلية يقدّم لنا نوعاً من الترتيب التنازلى لصيغ الفعل : فأولها الأمر الذى يظل من بعض الوجوه خارجاً عن الفعل المنظم إلى حد أنه يمكن التعبير عنه بالاسم وبصورة أوسع بالمصدر ؛ ثم الإخبارى (حاضر أو ماضياً) الذى يقرر وجود واقعة ؛ وأخيراً صيغ الاحتمال أو الحدس .

تختلف الجملة الاسمية كل الاختلاف عن الجملة الفعلية ، فهى تعبر بها عن نسبة صفة إلى شئ : البيت جديد ، الغداء حاضر ، الدخول على اليمين ، قبيز ملك ، زيه حكيم ، والجملة الاسمية تتضمن طرفين : المسند إليه والمسند ، وكلاهما من فضيلة الاسم ، وقد أحس الماطقة من أتباع أرسطو بالفرق بين هذين النوعين من الجملة ، ولكنهم أرجعوهما إلى نوع واحد بأن حللوا الجملة الفعلية على نحو يدخل فيها فعل الكون : « جملة الحصان يجرى » = الحصان (يكون) جازياً . وذلك خطأ لم يحاره فى طول العمر إلا القليل من الأخطاء ؛ وقد شد من أزرة الأفكار الميتافيزيقية التى اتصلت بها : فبعض الفلاسفة ، وقد خدعوا باسم فعل « الكون » ، أخذوا يضمعون الكون المطلق الذى يمثل فعل الكينونة فى مواجهة العوارض التى تعبر

عنها المسندات . وقد بنى منطق بأسره على وجود فعل الكينونة وجوداً حتمياً بوصفه رباطاً ضرورياً بين طرفي الجملة أياً كانت ، وبوصفه تعبيراً عن كل إثبات وأساساً لكل قضية . ولكن علم اللغة لم يعضد هذا التركيب المدرسي -Scolas-tique ، بل نقضه من أساسه . فغالبية اللغات تشهد بأن الجملة الفعلية لا شأن لها بفعل الكون وبأن هذا الفعل نفسه لم يتخذ مكان الرباط في الجملة الاسمية إلا في زمن متأخر .

الصورة المعتادة للجملة الاسمية في الهندية الأوروبية لا ترباط فيها ، وهي ما يسمى بالجملة الاسمية البحتة . ففيها يوضع المسند إلى جانب المسند إليه لا أكثر ولا أقل ، وقد تحدّد موضع كل منهما بالنسبة لصاحبه بواسطة قوانين خاصة بكل لغة على حدتها . فالإغريقية تقول باطراد : « لأن الملك أكثر قوة » (الإلياذة ، البيت ٨٠) ، و « آخرون قريبون مني » (الإلياذة : القسم الأول ، بيت ١٧٤) دون ذكر فعل الكينونة ، ومثلها الفارسية القديمة إذ تقول : *manā pitā Vishtāspa* : منابتا فشتاسپ « أبي فشتاسپ » والسنسكريتية تقول : *tvām varunas Varuna* : « أنت فارونا » . وقد احتفظت الروسية بالجملة الاسمية البحتة فتقول *zavtrak' gotov' « الغداء حاضر »* أو *dom' nov' « البيت جديد »* . وصيغة الصفة هي عين صيغة المسند ؛ ولكن عبارة « البيت الجديد » يمكن أن يقال أيضاً هكذا *dom' novy* . وهذه المغايرة يدل عليها في الإيرلندية القديمة بموضع الطرفين فيقال *infer maith « الرجل الطيب »* *maith infer « الرجل طيب »* ؛ وتمطينا الفرنسية فكرة عن ذلك إذا قلنا عبارة *les marrons chauds « القسطل الساخن »* بعبارة *chauds, les marrons « ساخن القسطل »* . وهذه المغايرة مطردة في الصينية فعبارة *ta kouk* (تاكوك) معناها « الدولة العظيمة » ولكن *kuok ta* كوك تا معناها « الدولة عظيمة » .

معظم اللغات يعرف الجملة الاسمية البحتة ، فهي في اللغات السامية والفينية الأجرية مطردة الاستعمال . فتقول العربية : « زيد عاقل » ، كما تقول المجرية *az ég kék*

« السماء زرقاء »^(١) . وانتشار الجملة الاسمية البحتة في الفينية الأجرية من الكثرة بدرجة جعلت من المستطاع أن يفسر بلغات هذه العائلة بقاء هذا النوع من الجملة في الروسية^(٢) . والجملة الاسمية البحتة هي القاعدة في لغات الأسرة البنيتية كذلك^(٣) ، فيقال في اللغة السواحلية مثلاً simba mui (سبامووى) « الأسد مؤذٍ » ، والذي يشير إلى الخبر هنا هو نبر الشدة الذي يقع على المقطع mu مو . وفي بعض الأحيان يوضع ضمير بين الطرفين (المسند إليه والمسند) زيادة في بيان العلاقة بينهما مثل : mti u mkulu متى أو مَكُولُو « الشجرة هي كبيرة » ، وهذا هو السبب في أن الأهالي إذا تكلموا الفرنسية قالوا l'homme lui fort « الرجل هو قوى » بدلا من أن يقولوا l'homme est fort « الرجل يكون قويا » . وهذا الضمير كثيراً ما يحل محله الضمير الثابت غير المحدد « i » الذي ينتهى بتركبه مع بعض العناصر الإشارية المختلفة إلى أن يصير فعلا رابطاً في اللغة السواحلية حيث يقال : mti mi mkulu متى مِ مَكُولُو « الشجرة تكون كبيرة » .

هنا نجدنا أمام طريقة لتكوين الفعل الرابط . وهذا الرابط في اللغات الهندية الأوروبية على العموم عبارة عن فعل قديم قائم بذاته وأفرغ من معناه الحقيقي (راجع حوالى منتصف الفصل الخامس) . أما إدخال الرابط في الجملة الاسمية فيمكن تفسيره بسهولة ، إذ أن هناك فكرة في الواقع لا يمكن التعبير عنها بمجرد وضع المسند والمسند إليه أحدهما بجانب الآخر ، وهي فكرة الزمن . عندئذ صار استعمال الفعل ، وهو رمز الزمن ، أمراً ضرورياً . فالمجرية إذا أرادت أن تترجم le ciel était bleu « السماء كانت زرقاء » تضطر إلى أن تقول az ég kék « سيكون » vala فتستعمل الماضى غير التام من فعل الكون الذى يدل على معناه ويؤدى عمل الرابط في الوقت نفسه . ويستعمل هو مير الفعل المستقبل « سيكون »

(١) Szimonyei : رقم ٢١١ ، ص ٤٠٣ .

(٢) جوتيو ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ٢٢٥ .

(٣) ساكلو Saclex ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٥٢ وما يليها .

في قوله : τὸ δὲ τοι ξεινῆιον ἔσται « تلك ستكون هدية الضيافة إليك » ، لأن الإشارة إلى الزمن أمر ضروري هنا . وصفة الفعل كذلك تمتد من المعاني التي يعبر عنها ببنية الفعل الصرفية ؛ ومن ثم كان من الضروري أن يذكر الرابط في الجملة إذا ما أريد الإشارة إلى صفة الفعل .

فإذا ما أدخل الرابط في الجملة الاسمية عندما تدعو الحاجة إلى إدخاله للتعبير عن الصفة أو عن الزمن ، أمكن إدخاله فيها أيضاً في بعض الأحيان حتى عندما لا يحتاج المعنى إليه . فالجملة الاسمية البحتة في اللاتينية مثلاً تعتبر من المستثنيات ، إذ أنها لا تخلو من الرابط Deus bonus est auarus est homo « الله يكون كريماً والإنسان يكون شراً » وكذلك الحال في الفرنسية : les marrons sont chauds « القسطل [يكون] ساخناً » وفي الإنجليزية life is short « الحياة [تكون] قصيرة » وكذلك في الأرمنية وبعض اللغات السلافية غير الروسية ... الخ . ومن ثم ظن بعض النحاة أن الرابط عنصر أساسي في الجملة . ولكن تاريخ الكلمات نفسه يبرهن على فساد هذا الزعم . فالرابط في كل اللغات الهندية الأوروبية مأخوذ من أرومات فعلية بعد ما ضعف معناها شيئاً فشيئاً . فالأرومة — es التي زودت الجملة الأسمية بالرابط منذ زمن قديم جداً تدل بمعناها الحقيقي على الوجود ، على الحياة ، واسم فاعلها sat يدل في السنسكريتية على كائن حقيقي وكلمة satyas المشتقة منه معناها « حق » ويمكننا أن نتبع هذا العمل الانحلالى الذى أدى بفعل الوجود إلى أن يلعب دور الرابط .

هذا إلى أن هناك لغات كثيرة لم تكف بالأرومة — es للقيام بهذا الدور^(١) . فلدينا عدد لا بأس به من الإبدال التي يستعاض بها عن فعل الوجود في القيام بدور الرابط . ومن أكثر هذا الإبدال شيوعاً فعل معناه الحقيقي « ينبت ، ينمو » وقد احتفظ بهذا المعنى في الإغريقية ، في φύειν ، ولكنه في السنسكريتية bhāvati اتخذ معنى « يصير » ثم معنى « يكون » لا أكثر من ذلك .

(١) انظر ماروزو Marouzeau ، رقم ١٠٠ ، ص ١٥١ ، وكذلك المراجع المذكورة فيه .

وفي الإنجليزية القديمة léo معناه « أكون » مثل biu في الأرنلدية ، ومن هذه الأرومة اشتقت اللاتينية إحدى صيغ الماضي المسمى fuit : prétérit « كنت » ، كما اشتقت السلافية سلسلة من صيغ فعل الكون (byti « أن يكون » bychū « كنت ») ، الخ وكذلك استعملت أرومات أخرى غير هذه الأرومة : ففي الإغريقية γίγνομαι قريب جداً من فعل الكون ، مثل Uersor « يوجد عادة » في اللاتينية ؛ وكذلك stare « يستقر » في اللاتينية زودت الفرنسية بالماضي غير التام j'étais « كنت » ؛ واشتقت الجرمانية من أصل معناه يقطن (في السنسكريتية vásati « يقطن ») جزءاً من صيغ فعل الكون فيها (ich war « كنت » gewesen « اسم المفعول من كان ») . ولعل الأفعال التي يستعاض بها عن فعل الكون في الروسية أكثر تنوعاً ، فيقال فيها تبعاً للمعنى الذي يراد إبرازه sidjët' « أن يكون جالساً » ležet' « أن يكون راقداً » stojät' « أن يكون واقفاً » sostojät' « أن يكون مركباً » predstavljät'soboiu « يبدو كأن ... » الخ^(١) . ومع ذلك فليست الجمل التي تستعمل فيها هذه الأفعال إلا جملاً شبه اسمية ؛ لأن قيمة الرابط التي هي أساس استعماله في الواقع تبرز بالمعاني الأصلية لهذه الأفعال . ولذلك كانت شديدة القرب من تلك الجمل الشائعة الاستعمال في اللغات القديمة والتي نرى فيها الصفة المسندة مصحوبة بفعل ما ، مثال ذلك في اللاتينية ibant obscuri « هم يسرون في الظلام » ، وفي السلافية القديمة : pade nici « سقط على الأرض . »

مثل هذه الجمل يمكن تسميتها بالجمل الاسمية الفعلية ، لأنها تجمع بين خصائص هذين النوعين من الجمل اللذين قابلنا بينهما فيما سبق . فهي في الواقع جمل اسمية ولكن ، أدخل فيها فعل . ويوجد ، على العكس من تلك ، جمل فعلية إسمية . وهي الجمل التي يستعاض فيها عن الفعل بعبارة اسمية ، مثل الأمثلة التي تقدم ذكرها في الفصل السابق « إنه يكون لي رأى » بدلا من « أرى » ؛

(١) بويه سبرنسكي Boyer-Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ٢٤٩ وما يليها . مثل هذه الأبدالات شائعة أيضاً في البولونية .

وفي اللاتينية *opus est mihi* « إنه تكون لي حاجة » بدلا من *egeo* « أحتاج » ؛ وبعض اللغات لها ميل خاص إلى استعمال الجمل الفعلية الاسمية . فنجد في طرف الميدان الهندي الأوربي مجموعتين من اللغات يشيع فيهما استعمال الجمل الفعلية الاسمية : وهي مجموعة اللغات الهندية من جهة ومجموعة اللغات السكتية في إيرلندة وبريطانيا العظمى من جهة أخرى .

نجد في السنسكريتية الكلاسيكية ، بل ومن قبلها في اللغة الماههاراتية *Mahābhārata* ميلا إلى الاستعاضة عن صيغ الفعل الشخصية باسم المفعول منصوبا بصيغة من الرابط إذا اقتضى الحال . ويعتبر ذلك طغيانا من الجملة الاسمية على الجملة الفعلية أكثر مما يعد استعاضة بإحداها عن الأخرى : لأن الفكرة التي يعبر عنها تظل هنا من الأفكار الخاصة بالفعل : إما حدث أو حالة ، ولا تكون صفة . هذه هي الحال عندما يقال *kva yūyam ushitās* (يتنجالي) « أين قطنتم ؟ » باستعمال اسم الفاعل *ushitās* مرفوعاً مجموعاً بدلا من *ūsha* الذي هو الفعل مسنداً إلى جمع المخاطب . وتريد نسبة الجمل التي من هذا القبيل يوما بعد يوم ؛ وتبلغ درجة كبيرة في السنسكريتية الكلاسيكية التي من أبرز صفات الاستعمال فيها استعمال اسمي الفاعل والمفعول . وقد ساعد الاتساع في استعمال هذه الجملة على الاستعاضة بالمبنى للمجهول عن المبنى للمعلوم في حالات كثيرة (أنظر صفحة ١٤١) . فنجد في القطع النثرية من الماههاراتية جملا مثل : *mayā vrta upādhyāyas* « اخترت سيدي » والترجمة الحرفية « بي مختار سيد » *tvāya parāddham* « ارتكبت خطأ » (حرفياً : بك مرتكب خطأ) ، *avābhyām apūpo* ، *dattas* « نحن الاثنين أعطينا فطيرة » (حرفياً : بنا الاثنين فطيرة معطاة) .

أما في السكتية فالمصدر هو الذي توسع فيه على حساب الصيغ الشخصية . إذ تفضل الصيغة الاسمية على الصيغة الفعلية في تقديم الكلمات التي تعبر عن الحدث في الجملة ؛ كما نرى في الجملة الآتية المأخوذة من غالية الماينوجيون :

gobeith yw gennyf, y neges yd eloch ymdanei, ychaffel

« أوأم أنك ستربح الصفقة التي ستذهب للمفاوضة فيها » (حرفياً : أوأم لي ،

الصفة التي ستذهب بصدها ، ربحها .) كذلك نرى في الإيرلندية الحديثة في قصة رمويد ياد Diarmuid وجرين Grainne الشهيرة : creud adhbhar na moichéirghe sin ort « لاذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة ؟ » (حرفياً : ما سبب هذا التبكير منك ؟) وكذلك : na biodh fios ar d- turais ag aon duine go teacht tar ats duinn aris « لا يعرف أحد أننا في رحلة حتى نرجع » (حرفياً : لا تكون معرفة عن رحلتنا لأحد حتى رجوع لنا من جديد .) والأسماء الفعلية في اللغة الكلتية تقترب من الأفعال إلى حدٍّ يجعلها تقبل اللواحق الفعلية التي تستعمل في التصريف للدلالة على الزمن ؛ فمثلاً لما كانت اللاصقة الفعلية ry تشير إلى الماضي ، أمكن أن يقال في الغالية الوسطى : gwedy clybot yn Rufein ry oresgyn O Carawn ynys Brydein « عندما علم في روما أن كارون قد فتح الجزيرة البريطانية » (حرفياً : بعد معرفة في روما فتح كارون الجزيرة البريطانية .)

* * *

يوجد من بين استعمالات الاسم والفعل استعمالات متقابلة تعبر عن صورتين مختلفتين من صور التفكير ، ولكن منها أيضاً استعمالات تسير جنباً لجنب وتنتهي بأن يختلط بعضها ببعض . هذه المنزلة بين المنزلتين تحتلها الجمل الاسمية الفعلية والفعلية الاسمية التي تكلمنا عنها . والعنصر الأساسي في هذه الجمل كلمة تشترك بين الفعلية والاسمية . فأحياناً تكون فعلاً من فصيلة ما يسمى بالمبنى للمجهول في الصينية (أنظر الصفحة الخامسة من هذا الفصل) ، وأحياناً تكون اسماً ذا صفة فعلية ، اسماً أو صفة تدلّ على الحدث ، يعني بمصدرها أو اسم فاعل أو مفعول . ويرينا التقليد الجارى في السنسكريتية والكلتية ، أنه يستطاع التعبير في بعض الحالات عن فكرة فعلية بواسطة الاسم ، وذلك بفضل استعمال الأسماء الفعلية المشار إليها . هذا الاحتمال يعرفه كل من تصدى لترجمة نص إغريقى أو لاتينى . ونرى مدارسنا تعلم تلامذة البلاغة الفرنسى الذى به يستطاع في بعض الأحيان الاستعاضة باسم عن فعل أو العكس ، وذلك إما ابتغاء احترام ترتيب الكلمات في

النص القديم وإما لباعث من الجمال أو التناسق . لذلك يجدر بنا أن نختبر عن كسب قيم الأسماء الفعلية .

المصادر أسماء أحداث بمعنى الكلمة ، ولكن أسماء الأحداث ليست كلها مصادر ، إذ يوجد في معظم اللغات الهندية والأوربية أسماء أحداث تبنى بواسطة لواحق تدل على أنها أسماء أحداث . وهى على العموم تتصل مباشرة بأصل فعلى وتعتبر إلى حد ما جزءاً من النظام الفعلى . وقد جعلتها صلتها الوثيقة بالفعل تحتفظ منه بأكثر من أثر . فنحن نعرف بماذا يتميز الاسم عن الفعل نحوياً ، وهو أن هذا يقبل معمولاً منصوباً وذلك يقبل معمولاً مجروراً . غير أن بعض اللغات تنصب معمول اسم الحدث . وقد احتفظت اللاتينية ببعض بقايا هذا الاستعمال إذ أننا نجد عند پلوت Plaute جملاً مثل : *quid tibi nos factio 'st ?* « ما مساسنا بك ؟ » أو : *quid tibi hanc rem curatio ?* « ما عناؤك من هذا ؟ »

كذلك ينتسب المشتق إلى فصيلة الأسماء بأعم معانيها فى دلالته على الشخص المقصود بالحدث ، أى الشخص الذى يوجد الحدث أو يقع الحدث منه أو عليه ، حسبما يكون مبنياً للمعلوم أو مبنياً للمجهول . وتسمى هذه الأسماء بأسماء الفاعلين ، ولكن اسم الفاعل على العموم كالمصدر لا يشير بصيغته إلى الفرق بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول (أنظر الصفحة السابقة) . فاسم الفاعل يعمل أحياناً عمل الفعل فى نصب الممول . فى اللاتينية : *imitatus est eum* « المحاكى إياه » مثله مثل : *imitor eum* « يقلده » . وهذا العمل يمتد إلى مشتقات أخرى غير اسم الفاعل ، فتقرأ لپلوت : *orator iusta* « الطالب مطالب عادلة » . ولا بد أن ذلك كان تركيباً شعبياً شائعاً لأنه قد ظهر من جديد فى عصور متأخرة : *peccatorum* *ueniam promittor* « الذى يعد بالغفران للمذنبين » . ولكننا نجد فى لغات أخرى أيضاً ، فى السنسكريتية : *dāta vāsūni* « المعطى الطيبات » أو فى الفارسية القديمة : *ahuramazdā thuvām daushtā biyā* « فليجيبك

أهورامزدا (حرفياً : ليسكن محباً إياك) ؛ وفي لغة الزند : puthrem varshta « المنجب الولد » ؛ وفي الإغريقية κακὰ αὐτοφύονα πολλά (أخيل ، أجاممنون : بيت ١٠٩٠) « الشريك في عدد كبير من حوادث الانتحار الإجرامية » .

أسماء الأحداث وأسماء الفاعلين التي تتميز عادة بدوال نسبة خاصة (أنظر ص ١١٧) لا تختلط إطلاقاً . فهما في وسط فصيلة الأسماء العامة يكونان فصيلتين خاصتين تتميز إحداها عن الأخرى تمام التميز . ويمكن أن يضاف إليها أسماء الآلة والأسماء التي تعبر عن نتيجة الحدث . فأسماء الآلة أيضاً تحتوي على لواحق خاصة ، مثل : $\tauρον$ — في الإغريقية و $trum$ — أو $clum$ — في اللاتينية ؛ وهذه اللواحق تضاف إلى أرومات الأفعال . فكلمة : $\varrhoοοτρων$ ، aratrum تدل على الآلة التي تستخدم في الحرث « المحراث » و $ποclum$ تدل على الآلة التي تستخدم للشراب ، « القدح » فهذه كلمة قريبة من أسماء الفاعل بمعناها وبصيغتها معاً ، كما يستبين لنا من مقارنة لاحقة اسم الآلة $-tro-$ بلاحقة اسم الفاعل $-ter-$ أو $-tor-$.

أما الاسم الذي يعبر به عن نتيجة الحدث أو موضوعه ، فإنه يخرج من اسم الحدث نفسه في غالب الأحيان . فالقطع $Coupure$ هو ما فعل القطع $couper$ كما أن الرعى $pature$ هو فعل الرعى $paître$ والحجاز $bordure$ ما حدث من فعل الحجز ولكن كلمة $coupure$ تستعمل أيضاً للجرح الذي يحدثه الطفل في إصبعه بمبراته ، أو بمعنى قطعة قصت من صحيفة ؛ ويطلق لفظ $pature$ على العلف أو الغذاء و $bordure$ على حافة الجزء الخارجى للشوب أو على رقعة أرض فيها خضرة . فمعظم أسماء الحدث في الفرنسية يمكن استعمالها أسماء أشياء . وهذه حقيقة نجد لها أمثلة في كل اللغات الهندية الأوروبية .

تشتمل الفصائل التي استعرضناها على عدد كبير من الأسماء المشتركة . والواقع أن كثيراً من أسماء الأشياء المتداولة ، بل ومن أسماء الحيوانات أصلها أسماء أحداث أو أسماء فاعل أو أسماء آلة ثم خصصت . فاسم الفاعل أو الصفة المشتقة من الفعل التي ليست إلا صورة أعم من اسم الفاعل قد قدمت عدداً كبيراً

من الأسماء المشتركة : فكلمة serpens « ثعبان » معناها « الزاحف » ، الذى يزحف » ؛ والكلمة الإغريقية ódonis وكذلك اللاتينية dens « السن » معناها الآكل ، كما أن السنسكريتية radanas « السن » معناها « الذى يقرض » (radati : يقرض) . كل هذه الأسماء التى ترجع إلى أصول فعلية يمكن تفسيرها بسهولة على أساس الجملة الفعلية .

نجد فى الجملة الاسمية المقابل الصحيح لما يكون عليه اسم الحدث فى الجملة الفعلية : أعنى اسم الصفة المجرد . ولنأخذ الجملتين : أعبد الله والله رحيم ، فالرحمة صفة أن يكون (الموصوف) رحيمًا ، والعبادة هى فعل أن نعبد . وإذن فالاسم المجرد يخرج بطبيعة الحال من الجملة الاسمية . وهناك حالات يقترب فيها الاسم المجرد من اسم الحدث أشد الاقتراب . وذلك مثلاً عندما يتصل اسم الحدث بفعل يكون معناه أوغل فى الانفعالية منه فى الفاعلية . فالجمل الفعلية التى تشتمل على فعل من هذا القبيل تقترب من الجمل الفعلية الاسمية التى تكلمنا عنها فى صفحة ١٦٨ أو تستطيع أن تستبدل بها . ففى الدنمركية مثلاً نجد أن اسم الحدث الذى يلحق الفعل elske « يحب » هو kjoerlighed « حنان » (صفة أن يكون الإنسان kjoerlig « حنوناً ») . وفى الفرنسية نرى كلمة endurance « التحمل » اسم حدث واسماً مجرداً فى نفس الوقت : فمن الجملة الفعلية : « پير يتحمل الجوع » ، ويمكننا أن نأخذ : تحمل الجوع (= حدث التحمل) ؛ فى حين يمكننا أن نأخذ من الجملة الاسمية پير متحمل : تحمل پير . فالتحمل إذن صفة أن يكون الإنسان متحملاً ، كما أن الرحمة clémence أو الصبر patience صفتا أن يكون الإنسان رحيمًا أو صبوراً .

يخرج الإنسان من فصيلة الأسماء المجردة (أسماء المعنى) إلى فصيلة الأسماء المشخصة (أسماء الذات) . لأن الاسم المجرد كثيراً ما يستعمل بقيمة مشخصة . ذلك أن ما يعبر عنه اسم المعنى بقوة يظهر للعقل يسيراً عند تحققه فى الواقع . لذلك كانت اللواحق التى تتميز بها الأسماء المجردة مثل — tut — أو — tat — فى اللاتينية وté — فى الفرنسية وung — فى الألمانية توجد أيضاً فى بعض الأسماء المشخصة .

فليس الانتقال من المجرد إلى الشخص في مثل هذه الحال غالباً إلا الاستعاضة بالصورة عن الفكرة . وتيسر تلك الاستعاضة عملياً باستعمال الجمع أحياناً وباستعمال الكلمة صفة أحياناً أخرى . فجمع *virtus* « الفضيلة » مثلاً يستعمل في الدلالة على الأعمال الفاضلة (بل تطلق الكلمة باستمرار في لغة الكنيسة على « المعجزات ») ؛ وجمع كلمة *laus* « مجد » يستعمل للدلالة على « المدائح ، الأفعال أو الأقوال المرضية ، المجيدة (*laudes*) » . وكلمة مثل « السعة » *largesse* أو « التفضل » *complaisance* تثيران في الذهن أفكاراً مجردة . ولكن جمعهما *largesses* « سعات » و *complaisances* « تفضلات » يدل على معان ذاتية ، على وقائع يتحقق بها التجريد في الواقع . واستعمال الجمع هو الذي يغير قيمة الكلمة هذا التغير . أما استعمال الكلمة استعمال الصفة فليس أقل من ذلك تأثيراً ؛ فالعذوبة « *douceur* » عبارة عن صفة ما هو عذب ، ولكنها الشيء العذب أيضاً عند ما نقول : *ce remède est une douceur* « هذا الدواء عذوبة » . وكذلك الكلمات الألمانية *Bescherung* « حدث الإهداء ، هدية » *Schande* « عار » تطلق على أشياء في الجمل التي من هذا القبيل : *das ist eine schöne Bescherung* « هذه هدية جميلة » و *Schande für eine Familie* « هذا المسلك عار من أسرة (أى أنه عمل يجلب العار) » ... الخ

والنتيجة الأخيرة لتطور كلمة مجردة نحو الذاتية هي أن يعمل منها صفة ، ففى جمل من قبيل : هذا الرجل طيبة خالصة ، وهذه المرأة هي الفضيلة بعينها ، نرى كلمة *bonté* « طيبة » وكلمة *vertu* « فضيلة » تلعبان دور الصفة . ومن ثم نرى أن من الصفات أحياناً ما كان أصلها أسماء فيما سبق . فكلمة *uber* « خصب » في اللاتينية ليست إلا الاسم *uber* « الثدي » قد تحول إلى صفة . هذا الاستعمال خرج من تركيب مثل *ager uber* « حقل هو ثدى » أى أنه ينتج بغزارة ويغذى . وهنا ينحصر التجديد في أن الاسم يصرف التصريف المتعدد للصفة . فبدلاً من أن يقال : *agri ubera* حيث الاسم الثانى وضع بدلاً من الأول ،

قيل : *agri uberes* . وذلك لأن الاتحاد الخادع في مثل : *arua ubera* قد مهد السبيل إلى هذا التجديد . بل قد تقابل أسماء مستعملة استعمال صفة التفضيل من الدرجة الأولى *comparatif* . أو من الدرجة اثنائية *superlatif* ، مع أن درجات التفضيل من اختصاص الصفات : ففي الألمانية الوسطى كلمة *schader* « أخسر » تفضيل من *schade* « خسارة » . والواقع أننا عندما نقول بالألمانية *es ist Schade* أو بالإنجليزية : *it is a pity* أو بالفرنسية : *C'est dommage* « هي خسارة » نحس أن الاسم وقد قام بدور الصفة يجب أن يكون في قدرته التمييز عن درجات التفضيل .

كون الاسم يستطيع أن يصير صفة بملك السهولة يرينا أنه لا يوجد فرق جوهرى بين هاتين الكلمتين . مما لا ريب فيه أنه يوجد بين « *بيب* طيب » و « *الطبية* فضيلة » ذلك الفرق الذى ينحصر فى أن « *طيب* » تعبر عن الصفة بعد أن صارت فردية وشخصت فى كائن ما هو *بيب* ، وأن « *الطبية* » عبارة عن الصفة نفسها تُصورت تصوراً تجريبياً . ومع ذلك فإننى عندما أقول « *طبية بيب* كثيرة » فإننى بإضافتى لكلمة *طبية* قد حددت الفرد الذى يتصف بها ويصير معنى الجملة نفس المعنى فى قولنا « *بيب طيب بكثرة* » . فالفرق بينهما ينحصر فى بنية الصورة الكلامية لا أكثر من ذلك .

لعلنا نفهم تعارض الاسم والصفة فهماً أدق إذا قارنا جملتين تستعمل فيهما كلمة واحدة بعينها فى وظيفتين مختلفتين^(١) . فلنأخذ مثلاً « *الجرى الألمان* » و « *الألمان الجرى* » أو « *علماء صم* » و « *صم علماء* » . فليس من شك فى أن الكلمات الأولى من هذه العبارات هى أسماء والكلمات التالية صفات . ذلك أننى إذا اعتبرت مجموع *الجرى* فإننى أميز من بينهم طوائف من جنسيات مختلفة فأقول *الجرى الألمان* ، *الجرى الفرنسيين* ، *الجرى الروس* . . . الخ . وإذا نظرت إلى مجموع الجنود الألمان ، فإننى أميز من بينهم طوائف من الموتى وطوائف من *الجرى* وطوائف من المختفين وطوائف من السالمين الخ ، فأقول *الألمان الجرى* ،

الألمان الموتى ، الألمان السالمون الخ ، وكثيراً ما يقال في التعبير عن هذا الفرق بأن الصفة أشمل مضموناً من الاسم . وهذا حق ولكن على شرط أن تضاف إليه العبارة التالية : في نظر المتكلم . إذ لا يعنيننا في الحقيقة أن نعرف ما إذا كان عدد العلماء أكثر من عدد الصم أو أن عدد الصم أكثر من عدد العلماء ؛ إذا كان عدد الجرحى أكثر من عدد الألمان أو عدد الألمان أكثر من عدد الجرحى ، بل ما إذا كان المتكلم ينظر إلى فصيلة العلماء أم إلى فصيلة الصم ، إلى مجموع الجرحى (في مستشفى مثلاً) أم إلى مجموع الألمان (في كتيبة مثلاً) .

هذا الفرق في الشمول قد يوجد أيضاً بين اسمين . فيقال من باب المعارضة : « الطفل الملك » أو « الملك الطفل » ؛ فالكلمة الثانية في كل عبارة تقوم بدور الصفة بالنسبة للأولى . إذ أن المتكلم ينظر في الحالة الأولى إلى فصيلة الأطفال أولاً وقبل كل شيء وفي الثانية إلى فصيلة الملوك . فهما وجهتا نظر مختلفتان .

وتستطيع الصفة بدورها أن تصير اسماً . وهذا يحدث كلما أضيف الوصف العام الذي يعبر عنه بالصفة إلى فرد خاص ، أي كلما صارت الصفة — وهي شائعة بطبيعتها — معرفة . وهذا الفرق على درجة من الأهمية جعلت معظم اللغات تدل عليه صرفياً . ففي السنسكريتية وفي الإغريقية القديمة يكتفى بالنبر للدلالة عليه : λευκός « أبيض » وهي من λεῦκος « سمكة بيضاء » . ويدل على التعريف عادة باللاحقة خاصة تضاف إلى الصفة . ففي الإغريقية واللاتينية هي اللاحقة الأنفية . فكلمة στυγνός معناها « أحول » ولكن στεῖρος معناها « من عنده حول ، الأحول » ؛ و catus معناها « ماكر » ولكن cato (في حالة الإضافة catonis) معناها « الماكر » و rufus « أصهب » ، ولكن rufo (في حالة الإضافة rufonis) معناها « الأصهب » ؛ ومن ثم جاء استعمال هذه الصفات المعرفة في أسماء الأعلام . وفي الفرنسية يدل على التعريف بواسطة الأداة . فقارن : Vous êtes impertinent « أنت وقح » بجملة Vous êtes un impertinent (نفس العبارة مع استعمال أداة المفرد المنكر مع الصفة) أو بعبارة l'impertinent « الوقح ! » . فعندما تلحق الأداة

بالصفة لا يكون المعنى فقط أن هذا الشخص موصوف بالواقحة ولكن سر هذه الصفة تتركز فيه ، وهى التى تصنفه وتعيّنه . وذلك هو السبب فى أن أسماء الأعلام التى أصلها صفات تستعمل بالتعريف . والمناديات من هذا القبيل أيضاً ؛ إذ ليس الذى يعيننا عندما ننادى أحداً أن نشير إلى أنه يملك هذه الصفة أو تلك بل أن نعينه فردياً بواسطة الصفة التى يملكها . وللصفة فى الجرمانية كما فى السلافية نوعان من التصريف وفقاً لما إذا كانت منكراً أو معرفة ؛ والصورة المعرفة هى التى تكون عليها الصفة ، والقوطية مثلاً فى حالة المنادى مثل : *atta weiha* « أيها الأب المقدس » ، *brothrjus meinai liubans* « يا إخوانى الأعزاء » . أما الفرنسية فتدل على التعريف بواسطة الأداة كما رأينا فى الأمثلة السابقة وكما نرى فى تعريف : *un monsieur impertinent* « سيد وقح » إذ يقال *monseieur l'impertinent* « سيد الوقح » ولذلك يقال فيها أيضاً : *hé le gros* « هيه » السمين ! (يعنى أيها الضخم) أو *le poilu* أيها المشعر ! (يقال عادة للجندى) *l'enflé* « المتورم » ! (أيها المتورم) . ومن ثم جاء استعمال الأداة فى أسماء الأعلام من مثل : *Lebeau* « الجليل » *Legrand* « الكبير » و *Leroux* « الأصهب » .

ولما كانت الأداة فى الفرنسية تعبر عن التعريف ، فإن فى استطاعتها أن تعطى القيمة الاسمية لأية عبارة لغوية ، فيقال : *un pourquoi* « لماذا واحدة » *des si* « بضعة إذا » و *des mais* « بضعة لكن » . بل قد يمكن الجملة أن تصير اسماً ، إذ أنه لو أعطيت صفة العمومية إلى الجملة الفعلية وتُصورت تصوراً مجرداً ، لأصبحت رمزاً اسماً . فالطفل الذى يحضر قيام قطار يسمع القاطرة تصفر ويرى العربات تتحرك ؛ فيلخص ما انطبع فى ذهنه بقوله « وُو وُو ينطلق » جامعاً بين هذا الانطباع المزدوج وبين التحرك . وتلك جملة فعلية . ولكن الطفل يعمم ويطلق على القطار اسم « وُو — وُو ينطلق » ؛ فالقطار عنده شىء ينطلق محدثاً وُو وُو ، وقد يقول بعد ذلك الـ وُو — وُو ينطلق غادر مكانه ، أو الـ وُو — وُو ينطلق كان مزدحماً أو طويلاً أو محملاً بالبضائع ، الخ . فيمكن عمل اسم من الجملة الفعلية

بوضع الأداة أمامها . وهذا أصل لكثير من الكلمات الفرنسية : un m'as - tu vu? « هل رأيته واحدة » و : le qu' en dira -t- on « اماذا يقول الناس عن ذلك » و : au décrochz - moi ça « إلى [أل] اخلع لي هذا » . و le Marie couche - toi là « أل مريم اضجعي هنالك » .^(١) ، واللغات العربية تضع كلمات من هذا القبيل بواسطة علامة من العلامات . فالبيان Ulpien خطيب تير ، كان يلقب ب « Κεϊτούχειτος » بسبب العبارة التي كان لا يفتأ يرددها χεϊται η ου χεϊται « أيوجد ذلك أم لا ؟ » ، وعدد كبير من الأسماء المركبة في السنسكريتية تتكون من جمل مختزلة فري Ahampūrvas (ومعناها حرفياً « أنا الأول ») ترد في رجفيدا Rig-Veda (١ و ١٨١ و ٣) وصفا لعربة (يريد أن تحمله إلى السباق) . ومما كان يوقع في التردد أحياناً الأطراف الأولى من الكلمات الإغريقية التي من قبيل ἐλχεσίπεπλος « جرّ الثوب (بمعنى ذيل الثوب) » و ιτανυσίπερος « ينشر — الجناحين » أو ὀαχέθυμος « يأكل — القلب ؟ » أي أفعال أم أسماء^(٢) . والواقع أنه لا يوجد مجال للتردد : فهي أفعال يلا ريب كما هي الحال في الكلمات الفرنسية : prie-Dieu « يدعو الله » (اسم لمقعد يجلس عليه المصلّي أحياناً) traine-misère « يجر البؤس » (اسم للشخص الفارق في البؤس) meurt-de-faim « يموت — من — الجوع » (اسم يطلق على المترب) و vide-gousset « يفرغ — الجيب (لص) » . الخ . وعندنا في لغة الأطفال نوع من العطر يسمى sent-bon « يطيب رائحة » ولكن كل واحد من هذه المركبات في مجموعها اسم لاشك فيه .

هكذا يبرز أمامنا تصنيف للأسماء تدخل فيه جميع الأسماء والصفات (بما في ذلك بطبيعة الحال الصيغ التي تستعمل أحوالاً adverbial) . فعدنا

(١) في مثل هذه التراكيب في اللغة الهندو أوروبية انظر Szimonei : رقم ٢١١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) استوف : رقم ١٨٧ ؛ ف ، مونييه : les composés syntactiques ،

پاریس عام ١٨٧٢ .

من جهة أسماء الأحداث وأسماء الفاعلين (والمفعولين) التي تحددها الجملة الفعلية والتي تشتق منها أسماء الآلة وأسماء الأشياء . ومن جهة أخرى عندنا في وضع موازٍ لهذه الأسماء المتقدمة أسماء الصفة مجردة كانت أو مشخصة (أسماء وصفات) كما تحددها الجملة الاسمية ، وهي أيضاً تمدنا بعدد كبير من أسماء الأشياء . كذلك قد أشرنا إلى وسيلة لتصنيف الأفعال أيضاً وفقاً لصفة الفعل المدلول عليها بالصيغة (إشارية أو أمرية أو تبعية [استقبالية أو شرطية]) . والأسماء والصفات تمثل عناصر اللغة الحية وذلك في مقابلة الأدوات النحوية (من حروف جر وحروف وصل وأدوات وضائر) . فنرى أنه لا يستحيل تصنيف الكلمات تصنيفاً عاماً يقوم على خطة يبررها المنطق ولا يناقضها نحو اللغات الهامة . فأنواع الكلمة المختلفة التي تكلمنا عنها تتميز غالباً في كل لغة بدوأل نسبة خاصة .

ولكن هذا التصنيف المنطقي ليس التصنيف الوحيد الذي تسمح به كلمات لغة من اللغات . فيمكننا أيضاً أن نتصور تصنيفاً سيكولوجياً لا يقوم فقط على طبيعة الدلالات المشتملة عليها الكلمات بل أيضاً على مقدار الأهمية التي يعلقها العقل على هذه الدلالات ^(١) . والجانب السيكولوجي يعادل في غالب الأحيان الجانب المنطقي ، وبانطباقهما على هذا النحو يوضح كل منهما الآخر . ولكن الأول أكثر تنوعاً من الثاني في بعض الأحيان ويشتمل على فصائل لا يعنى بها المنطق . هذا إلى أنه يمتاز بقوله للاثبات التجريبي . إذ الواقع أن علماء النفس بدراستهم لظواهر الذاكرة يستطيعون أن يقيسوا كيفية « ارتباط » الكلمات بالمش . ويمكن أن يستخلص من نتائج هذه الدراسة تصنيف للكلمات على حسب السرعة التي بها تمحى الألفاظ من الذاكرة .

توجد وسيلة يسيرة لمعرفة الأهمية النسبية لعناصر جملة من الجمل . وذلك أن تقرأ هذه الجملة على عدة أشخاص مختلفين وأن تطلب إليهم أي الكلمات قرعت أذهانهم أكثر من غيرها وقبل غيرها . فنجد الأجوبة على العموم واحدة لا تتغير :

(١) أنظر فان جنين : رقم ٧٧ ، ص ٦٢ وما يليها ، مع ما يذكره اقتباساً عن ييميه

وذلك أن الكلمات الحقيقية تفرع الذهن أكثر من دوال النسبة ، والأسماء أكثر من الأفعال ، والأسماء المشخصة أكثر من الأسماء المجردة . فالكلمات التي تفرع الذهن أكثر من غيرها هي التي توقظ على الفور صورة بصرية ولا سيما أسماء الأعلام التي تطلق على أشخاص أو أماكن (على شرط أن يكون السامع عارفاً لها) . قل لإنسان مثلاً : « أنا ذاهب إلى فلان » أو « لم أستطع أن أذهب إلى فلان » أو « ربما ذهبت إلى فلان » ؛ فأول صورة تمثل أمام الذهن وبشكل طبيعي في هذه الأحوال الثلاث ، هي صورة تلك المدينة الصغيرة في عشنا السندسى ، تتدرج سقوفها الشهباء على سفوح التل ؛ ويرى عقود الجسر الحجري تحلق على السين ، وعلى ضفتيه يرى ستاراً من أشجار الحور العالية أو يلحج المنارة الشاهقة التي تسيطر على المدينة أو ذلك المنزل الذي يألفه في أحد أحيائها العتيقة . والرؤيا هنا فورية تلقائية . وبعد ذلك كله تمثل في الذهن فكرة الرحلة والتفكير فيما إذا كانت تتم أو لا تتم . فالنفي ككل ما يدل على النسبة مجرد من كل قيمة شعرية .

هذه الحقيقة لها نتائجها عند استعمال اللغة استعمالاً جمالياً . ومن الكتاب من لم يتنبهوا لها فوقعوا في أخطاء حقيقية فيما يختص بموسيقى الكلام . إذ لا يكفي لجمل القارئ يحس بأثر عكسي لانطباع ما ، أن نلصق النفي بالكلمات التي تعبر عن هذا الانطباع . لأننا بذلك لا نقضى على الانطباع الذي نريد تجنبه ، بل نثير الصورة التي نظن أننا قد أبعدناها . أراد أحد شعرائنا المعاصرين أن يصف حديقة ثقّلها وطأة الشمس في ظهيرة يوم فائظ من أيام الصيف فقال :

D'entre les rameaux que meut nul essor
d'ailes et que pas une brise ne balance,
dardent de grands rayons comme des glaives d'or .

« من بين العصون التي لا تحرك خفقة واحدة من جناح » ،

« ولا تميل بها نفخة واحدة من رياح » ،

« تنبعث أشعة كبيرة كأنها سهام من ذهب » ،

فهذه الأبيات جدرة بأن تعطينا صورة صادقة لخفقان أجنحة الطائر

أو لسريان النسيم ، وليس في مقدور النفي الذى يستعمله الشاعر أن يقصى هذه الصورة من ذهن القارئ .

وكان دى هيرديا de Hérédia أكثر توفيقاً حين قال في بيت واحد :

Tout dort sous les grands bois accablés de soleil .

« كل شيء نائم في هذه الغابات الشاسعة التى ناءت تحت الشمس . »

والدالة النحوية شيء آخر غير تلك التى يصح أن نسميها دالة التعبير .

يمكننا أن نتصور دون عناء إقامة نوع من الترتيب التدريجى للكلمات وفقاً لقيمتها الشعرية ، يكون طرفه الأول اسم العلم الذى يستحضر في الذهن شخصاً أو مكاناً وطرفه الثانى دال النسبة الذى هو أداة نحوية بسيطة كحرف الجر أو أداة التعريف أو النفي . وبينهما يوجد كل هذا البعد الذى يفصل بين الشخص والتجريدى ، وهذه المسافة تتضمن جميع المفردات . ونحن نعلم أن اختفاء الكلمات من الذاكرة يحدث في أثناء الانتقال من الشخص إلى المجرد وكانت . ريبو Th. Ribot قد رتب اختفاء الكلمات من الذاكرة على هذا النحو : أو لا أسماء الأعلام ، ثم الأسماء المشتركة ، ثم الصفات ، ثم الأفعال . ولعل هذا الترتيب يحتاج إلى تعديل ، لأن من خطئه أنه يقوم على التصنيف النحوى المعتاد . فبعض الأسماء المشتركة ، بل وبعض الصفات ، تبلغ درجة من التشخيص تساوى درجة أسماء الأعلام . والقيمة التجريدية أو التشخيصية للأسماء يمكن أن تختلف باختلاف الأفراد ، وتختلف كذلك باختلاف اللغات . فالفعل في اللغات القديمة بل وفي الفرنسية بصورتها الحاضرة يمثل دائماً محملاً بذوال النسبة التى تسلكه ، إن قليلاً وإن كثيراً ، في فصيلة الكلمات المجردة . ومع ذلك فمن الأفعال ما يرسم صورة على نحو ما تفعله الأسماء تماماً ، وإن كان منها ما يخلو من كل قيمه مرئية . مما لا جدال فيه أن أسماء الأعلام بوجه عام هي أول ما ننشأ ؛ ونفقد الأسماء المشخصة (التى ليست في الغالب إلا أسماء أعلام) بأسرع مما نفقد الأسماء التجريدية أو الصفات . والمصدر في الأفعال يبقى حياً بعد موت الفعل الإخبارى . أما أكثر العناصر ثبوتاً في الذهن فهي الأدوات النحوية . وبالاختصار نرى

التجريدى أكثر بقاء من الشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريدى ينفذ إلى المخ بعد مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركزاً ، أما الشخص فليس إلا انعكاس الأشياء فى مرآة الشعور . وهكذا نرانا ننسى الكلمات المشخصة بأسرع من غيرها ، مع أن الكلمات المشخصة فى جملة من الجمل توقظ صوراً أسرع مبادرة إلى ذهننا مما تفعل الكلمات المجردة . ولعل دقة تحدد الصورة يحمل الإنسان على ألا يتعلق بالاسم الذى يعبر عنها إلا قليلا .

توزيع أقسام الكلم الذى قد يقام على هذه القاعدة يختلف اختلافاً كلياً عن التوزيع المعتاد . إذ فيه تجمع الأفعال والصفات والأسماء بل وحروف الجر والظروف معاً وفقاً لنهج جديد . فيجب أن نعتبر كلمة *plein* « ملء » حرف جر فى مثل : *plein la rue* « ملء الشارع » و *plein les cheveux* « ملء الشعر » ؛ ولكن حرف الجر هذا أقل تجريدية من *à* (« إلى أوب ») فى مثل : *à la rue* (*aller*) « (الذهاب) إلى الشارع » أو (*prendre*) *aux cheveux* « (الإمساك) بالشعر » . ويظهر أننا حتى الآن لم نتجه جدياً إلى فكرة التصنيف على هذا النحو : فنكتفى هنا بالإشارة إلى إمكانها ووجاهتها . لأن فى الوقوف عندها أكثر مما فعلنا اعتداء على ميدان المفردات الذى خصص له جزء على حدته من هذا الكتاب ، وكذلك على ميدان اللغة الانفعالية الذى أفردنا له الفصل التالى .



الفصل الرابع

اللغة الانفعالية

لم ندخل في اعتبارنا حتى الآن إلا الصورة التي تصاغ فيها الأفكار صياغة منطقية ، أعني أننا لم ندرس اللغة إلا بوصفها أداة عقلية . ولكن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكاراً فحسب ، بل يتكلم أيضاً ليؤثر في أمثاله وليعبر عن حساسيته . أى أننا إذا اتخذنا قاعدة ما كان يدرس لنا في المدرسة من التفريق المثلث النواحي بين الذكاء والإرادة والحساسية ، أمكننا أيضاً أن نفرق بين اللغة المنطقية واللغة الفاعلة واللغة الانفعالية .

فاللغة الفاعلة لم تدرس أو لم تؤكد تدرس حتى الآن . ومع ذلك فلها أهميتها التي تظهر لنا بجلاء حينما نحاول أن نتصور اللغة الإنسانية في مهدها (أنظر ماتقدم في ص ٣٩) . هذا إلى أنها في مجرى التاريخ تسير على قوانين خاصة بها : فميدانها من الوجهة النحوية هو ميدان الأمر في الفعل وميدان النادى في الاسم ، وكل منهما له في فصيلته صيغ واستعمالات خاصة . وإذا كنا فيما سبق قد جمعنا في صعيد واحد فعلاً مثل : tais-toi « اسكُتْ » ! واسماً مثل : Silence « سكون ! » واسم فعل مثل : chut « صه ! » فإن هذا الخلط لم يتأت لنا إلا لأن الأمر فيها جميعاً يتعلق باللغة الفاعلة التي عندها تزول الحدود بين الفعل والاسم . واللغة الفاعلة مع كونها تستمد غذاءها في أحيان كثيرة من اللغة المنطقية التي تستعير منها بعض العبارات النحوية الجامدة في صورتها ، تستحق رغم ذلك أن تميز عنها ؛ لأنها تقوم بدور قد قصر عليها وحدها وتملك آلات خاصة بها . ولكن لم يشرع في دراستها حتى الآن .

أما اللغة الانفعالية فإنها ستشغلنا أكثر من هذا . فإنها أصبحت ، وخاصة منذ بداية هذا القرن ، موضوع بحوث عميقة حددت معالم ميدانها وأوضحت طرائقها^(١) .

ومنذ زمن غير قصير كان ج . فن درجيلنتس G.von der Gabelentz يقول : « الإنسان لا يستخدم اللغة فحسب للتعبير عن شيء ، بل للتعبير عن نفسه أيضاً » . ومن ثم لا ينبغي أن ندخل في اعتبارنا فقط الصورة التي تصاغ عليها الأفكار ، بل أيضاً العلاقات التي توجد بين هذه الأفكار وبين حساسية المتكلم . وبعبارة أخرى يجب أن نميز في كل لغة بين ما يعدنا به تحليل التصورات وبين ما يضيف إليه المتكلم من عنده : بين العنصر المنطقي والعنصر الانفعالي^(٢) .

ولا ينفك كلا العنصرين عن الاختلاط في كل لغة . وإذا استثنينا اللغات الاصطلاحية ، واللغة العلمية منها بوجه خاص — تلك التي تمد خارج الحياة بطبعها — أمكننا أن نقول بأن التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقاً من لون عاطفي . والسلام الانفعالي نفسه لا يحوى نعمة واحدة تخلو من العاطفة ؛ إذ ليس هناك إلا عواطف يختلف بعضها عن بعض .

فمن النادر جداً — عندما تتسابق في ذهننا ، ونحن في صدد التعبير عن فكرة ما ، عدة عبارات مختلفة — أن تكون إحدى هذه العبارات عقلية محضة . وأن تعبر عن استدلال منطقي بحت أو أن تصور حقيقة أو حادثاً ما في بساطته العارية من كل لباس . أرى حادثاً يقع أمامي فأصيح رائيّاً لحال صاحبه : « آه ! المسكين ! » وأصادف صديقاً لم أكن أتوقع لقاءه فأقول له : « أنت ! هنا ! » .

(١) راجع خاصة مؤلفات الأستاذين بلي Belly وسيشييه Sechehayé التي أوجت إلينا بهذا الفصل إلى حد كبير . شارل بلي : (الدراسة المنهجية لوسائل التعبير) في مجلة « اللغات الحديثة » (Neuere Sprachen) مجلد ١٩ ؛ « علم الأسلوب وعلم اللغة العام » رقم ٢٥ ، مجلد ١٢٨ (١٩١٢) ، ص ٨٧ — ١٢٦ ؛ ورقم ٤٥ ورقم ٤٦ ؛ وسيشييه رقم ١٢٢ . وانظر كذلك فسلر Vossler : رقم ٢١٨ . ونجد تطبيقاً عملياً لقواعد الأسلوب في مؤلفات الأستاذ لنسون Lanson : « توجيهات في فن الكتابة وفن النثر » .

(٢) سيشيه : رقم ٩٨ ، ص ١٨٤ وما يليها .

فهذه الجمل ذات قيمة انفعالية واضحة كل الوضوح . فإذا صيغت في لغة المنطق الجدلية صارت : « أرثي لهذا المسكين » أو « يدهشنى أن أراك هنا . » تخيّل أنى استعملت في الواقع هاتين الصورتين من صور الجملة ، أفترض أنهما أيضاً يخلوان من كل قيمة انفعالية ، قيمة تختلف بلا ريب عما في جملتي التعجب اللتين قيلتا في تلهف وإن كانت لا تقلّ عنها قرعاً للذهن ؟ بل قد يحس الإنسان فيهما إما رغبة في استخراج المغزى الأدبى من الحادثة وإما تفريماً للدهشة الناجمة من مقابلة صديق وإما كبتاً لحركة من الحساسية شديدة العنف تحاول أن تنطلق من عقالمها . ولكن محاولة التخلص من إظهار العاطفة في هذه الحال ليست إلا إظهاراً للعاطفة .

لا تكاد توجد جملة ، مهما كان حظها من الابتذال ، لا تخالطها عناصر انفعالية . فإذا قلت : « پير يضرب پول » بدا علىّ أنى أعبر بكل بساطة عن علاقة بين شخصين يجمع بينهما حدث الضرب . وهذا على الأقل كل ما يزدنى به التحليل المنطقى الزعوم . ولكن الواقع أن مثل هذه الجملة لا يمكن مطلقاً أن تكون عبارة منطقية عن علاقة ما ؛ إذ أنى أضيف إليها دائماً ألواناً انفعالية . فضرب پير لپول لا يمكن أن يكون عديم الأثر بالنسبة إلىّ ، إذ لو لم يكن له مساس بنفسى لما قلته . إذن فالجملة التى أنطق بها ذات قيمة تختلف عن القيمة التى تكون لها لو كنت قد قرأتها فى كتاب من كتب التاريخ يدور فيه الكلام عن ملك ما اسمه پير وملك آخر اسمه پول لا يعنينى من أمرها شىء . ذلك أن القصص التاريخية موضوعى دائماً . وهذا ما يجعل التلميذ الصغير ، الذى يحفظ دروسه فى التاريخ عن ظهر قلب ، يُقبل دون تفرز على تعداد الفظائع التى ارتكبها بنو البشر فى تناحرهم بعضهم مع بعض ؛ فهى لا تحركه لأنه يراها تقع فى ماضٍ سحيق تباعده عنه سنون طوال ؛ وإذن فهو يتسلّى بها . وعلى العكس من ذلك لا نستطيع أن نقرأ دون قسرة تسري فى أجسامنا خبراً لجريمة عادية وقعت أمام منزلنا . فإنى فى المثال المتقدم أرانى لدى نطقى بالجملة أحسّ فى نفسى بعواطف مختلفة من الحنق أو العقاب أو التهديد أو الغضب أو الرضا أو التشجيع أو القبول أو

الدهشة ، وذلك تبعاً لما إذا كان پير وپول ابنيّ أطفلين غريبين عني وتبعاً لسنهما وقوتهما وتبعاً لميولي وأتجاهاتي وتبعاً لظروف أخرى كثيرة يمكن تصورها بسهولة. هذه العواطف يمكن بطبيعة الحال التعبير عنها بواسطة التنغيم أو تغير الصوت أو سرعة الحديث أو الشدة التي يركزها المتكلم على هذه الكلمة أو تلك أو بالإشارة التي تصحب الكلام^(١). فالجملة الواحدة محتمل عند النطق مئات ومئات من وجوه الاختلاف التي تقابل أشد ألوان العاطفة خفاء . والفنان الدرامي الذي يقوم بدوره في المسرح عليه أن يجد لكل جملة التعبير اللائق بها والنفمة الحقة التي تناسبها ، وذلك أوضح ما يلاحظ على مواهبه . فالجملة التي يقرأها في صحيفة تعدّ ميتة ؛ خالية من التعبير . ولكنه يبعثها بنطقه وينفث فيها الحياة . وإذن فمعرفة كلمات الجملة وتحليل عناصرها النحوية ليس معناه استخراج كل مكشواتها . بل يبقى بعد ذلك تقدير قيمتها الانفعالية .

إنه لواجب يفرض نفسه على العالم النفسى الذى يدرس طبيعة العواطف ؛ وبدرجة مساوية على الفنان الذى يسعى إلى إبرازها على المسرح ؛ وعلى العالم اللغوى ولكن بدرجة أقل . فهذه العواطف لا تعنى هذا الأخير إلا عندما يعبر عنها بوسائل لغوية . ولكنها على العموم تظل خارج اللغة ؛ فهي بمثابة ضباب خفيف يطفو فوق عبارة الفكر دون أن يغير من صيغتها النحوية . نعم من الحق أن يقال إن جملة « پير يضرب پول » لا ينطق بها فى اللغة دون نوع من التنغيم يحدد من لونها . ولكن الجسم الإنسانى أيضاً يشغل دائماً فى الواقع وضعاً ما : فلا يمكن تصويره على خلاف ذلك . والوضع الذى يسمى وضع الراحة ليس إلا وضعاً من الأوضاع ؛ فيجب على النحات أن يعرف الصورة التى تتخذها العضلات فى جميع الأوضاع ؛ ويترتب على ذلك أنه لا يمكن أن يوصف بالمغالاة مهما أنفق فى دراسة تشريح الجسم الإنسانى . ولكن الجراح الذى يشرح أجزاء الجسم يستطيع أن يستغنى عن أوضاع الحركة فى هذا الجسم . فليس فى كل الحركات التى يمكن تخيلها إلا جسم واحد يتحرك . كذلك يستطيع العالم اللغوى أن يسقط من حسابه

اختلافات التنعيم والإشارة التي تحتملها إحدى الجمل مهما كانت ، ما دامت لا تغير من بناء الجملة النحوى .

غير أن هناك حالات تختلط فيها العبارة الانفعالية بالعبارة النحوية إلى حد أن تغيرها ، بدلا من أن تبقى ملتصقة بها مجرد التصاق .

والانفعالية فى اللغة تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين : باختيار الكلمات وبالمكان الذى يخصص لها فى الجملة يعنى أن معنى اللغة الانفعالية الأساسيين هما المفردات والتنظيم . أما المفردات فستدرس على حدها وسنرى الدور الرئيسى الذى تقوم بلعبه الانفعالية فى تغيير معانى الكلمات . ولا يعيننا أن نذكر هنا إلا الحالات التى فيها جزء الكلمة الانفعالى يكون فى اللاحقة ، يعنى فى عنصر صرفى . وهذه حالة كثيرة الورود . فإذا وجدت كلمة على درجة عالية من قوة التعبير واشتملت هذه الكلمة على لاحقة ما ، فالذى يحصل أن اللاحقة تتشرب هذه التعبيرية إلى حد أن تمتصها كلها ، لتصبح عنصر الكلمة المعبر . فاللاحقة aille — « آى » فى الأصل لا توقظ أية فكرة : ولذا ظلت خالية من التعبير فى كلمة مثل Bataille (بَتَايْ « موقعة ») . ولكن لما كانت قد وجدت فى كلمات التحقير مثل canaille (كَنَّاى « طعام ») و marmaille (مَرْمَاى « عصابة أطفال ») ... الخ ، فقد أخذت هى نفسها هذه القيمة التحقيرية ، وليس منا من لا يحس معنى الاحتقار الذى ينبعث من Prêtraille (پَرِتْرَاى « قسس ») عندما يقصد تحقيرهم) و radicaile (رَادِيكَاى) « أصحاب الحزب الراديكالى » (عند إرادة التحقير) . وكذلك اللاحقتان ard — (آر) و asse — (آس) لها هذه القيمة فى عدد من الكلمات غير قليل . ولواحق التصغير — لأنها توحى بفكرة الكلمة التى تلتصق بها فى صورة مختزلة — تضم عادة إلى هذه القيمة عاطفة اللطف أو النفاسة أو عاطفة الحنان أو الانعطاف أو الإشفاق . فكلمة maisonette « دُورَة » وكلمة jardinet « بُسَيْتَيْن » لا يعنيان فقط منزلا صغيراً أو بستاناً صغيراً ، بل إن اللاحقتين -et ، -ette- تقومان فيهما حقيقة بدور دوال

العاطفة . فالصرف يساعد هنا على التعبيرية فيفعل ما تفعله المفردات باستعمالها للصفة في مثل : « دارى الصغيرة أو بستانى الصغير المسكين » .

طريقة ترتيب الكلمات تمس النحو عن قرب أيضاً ^(١) . وتختلف اللغات اختلافاً ملحوظاً من جهة حريتها في ترتيب الكلمات . من هذه الوجهة يُفرّق غالباً بين نوعين من اللغات : اللغات ذات الترتيب الحر واللغات ذات الترتيب الثابت . وهو تفريق لا تبرره الوقائع . فالحقيقة أنه لا توجد لغة واحدة تسيّر في ترتيب الكلمات على حرية مطلقة كما لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلمات فيها جامد لا يتحرك . فالإغريقية القديمة كالهندية الأوروبية تعتبر من اللغات ذات الترتيب الحر . ومع ذلك فإذا أخذنا جملة لأفلاطون لم نستطع أن نجعل الكلمات فيها تبعاً لهوانا كما نجعل القداح في الجعبة . كذلك مهما كان ثبات ترتيب الكلمات في الفرنسية أو الألمانية ، في الصينية أو في التركية ، فإن هذه اللغات تسمح بشيء من المرونة ، ولا يحتم أن تصير غير مفهومة إذا غيرنا ترتيب الكلمات فيها . فالأمر في كلتا الحالين يتوقف على نوع التغيير الذى نجريه .

والحقيقة أنه توجد لغات يلعب فيها ترتيب الكلمات دوراً نحوياً ، والحرية في ترتيب الكلمات محدودة طبعاً بقيمة النظام الصرفية (أنظر ص ١١١) . وهناك لغات أخرى لا يفرض فيها النحو أى نظام إجبارى ، ولا تتأثر العلاقة المنطقية التى بين كلمات الجملة فى شيء إذا غيرنا وضعها . تقول اللاتينية : *Petrus Caedit Paulum* كما تقول العربية « يضرب زيدُ عمراً » أو *Petrus Paulum caedit* أو « يضرب عمراً زيدُ » أو *Paulum caedit Petrus* أو « عمراً يضربُ زيدُ » دون أن يؤدي ذلك إلى تردد فى معرفة الفاعل والفعل والمفعول ؛ لأن التحليل المنطقى لا يرى فى ذلك أى اختلاف . ولكن هذه الأوضاع الثلاثة ليست على درجة واحدة من الجودة . والتكلم اللاتينى ما كان ليخطئ فى اختيار خيرها . فالواقع أن دراسة الجملة عند المحلّين من كتاب اللاتين يرينا أن نظام الكلمات فيها يسير تبعاً لقوانين صارمة وإن كان من العسير استخراجها من خضم

(١) أنظر هـ . فيل . Weil . H : رقم ١٢٨ بالرغم من تقادم عهده .

تنوعها المحير : فالمسألة في كل حالة من الحالات مسألة حسّ أكثر منها مسألة مذهب نحوى . إذ أن هناك ترتيباً معتاداً مبتدلاً يطرق الذهن لأول وهلة ^(١) . وهذا الترتيب يمكن مخالفته ، ولكن مجرد المخالفة ينبيء عن غرض ما ، ذلك الغرض هو إبراز كلمة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها . وتلك مسألة أسلوبية يمكن تتبعها إلى أقصى وقائدها ؛ ومن ثم كانت دراسة التنظيم كثيراً ما تجر على دراسة الأسلوب .

هذا النوع من الدراسة في غاية الدقة ؛ ويتطلب حساً لغوياً مدرباً ، ولطفاً عالياً في الذوق الأدبي ، يضاف إليها معرفة نادرة بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة . لذلك لم يمارس حتى الآن إلا في حيز ضيق . ففي ميدان الفيلولوجية الكلاسيكية — وهو من أغنى الميادين بالبحوث — لم يقبل الباحثون على عمل تحقيقات منهجية حول موضع الكلمات في الجملة إلا منذ عهد قريب . بل إن المنهج الذي يناسب هذه المباحث لم يزل في بدء تحدده ^(٢) .

مما استقرت عليه الآراء في أيامنا هذه ، أنه ينبغي للنحوى الذي يريد دراسة التنظيم في لغة ما ألا يأخذ الجمل في مجموعها ليعرف النظام الذي يسير عليه في ترتيب الكلمات . بل عليه أولاً وقبل كل شيء أن يميز أنواع الجمل المختلفة ثم يمين في كل نوع منها بعض الجاميع التي تسير على نظام ثابت . لأن الاستعمال لا ينحصر في الواقع في ترتيب كلمات الجملة بكلمة كلمة ، بل في تهيئة المكان للجاميع من الكلمات . ففي الجملة الاسمية مثلاً يؤول الأمر إلى طرفين : المسند إليه *sujet* والمسند *prédicat* . والفعل ، إذا كان مصرحاً به (أنظر ص ١٦٦) ، ينتسب إلى المسند ؛ وموضع الفعل بالنسبة إلى المسند أمر ثانوى مستقل عن الأول . فالترتيب الطبيعي في اللاتينية هو *homo avarus est* « الإنسان بخيلاً يكون » أو *avarus est homo* « بخيلاً يكون الإنسان » تبعاً لما إذا كان يراد إبراز فكرة الإنسان أو فكرة البخل ؛

(١) ل. هافيه ، *Mélanges Nicole : L. Havet* ، ص ٢٢٥ — ٢٣٢ .
(٢) أنظر خاصة ماروزو : رقم ٩١ و ١١ (١٩٠٦) ص ٢٠٩ وما يليها ؛ وكيركس *Kieckers* : « موضع الفعل في الإغريقية وفي اللغات القريبة منها » . سترسبورج (١٩١١) ورقم ٣٠ ، مجلد ٣٠ ، ص ١٤٥ ومجلد ٣٢ ص ٧ .

والفرق على كل حال غير محسوس في غالب الأحوال : فالأمر يدور حول التعريف المجرد لبخل الإنسان لا أكثر ولا أقل . هذان الترتيبان يمثلان الطابع المعتاد للجملة الاسمية ، ولا يحاد عنه إلا لأسباب قوية . فالتغيير المكافئ التالى : homo est avarus « الإنسان يكون بخيلاً » يغير من قيمة الرابط ، إذ تصير الجملة اسمية فعلية من نوع الجملة الفرنسية il se trouve bein « إنه يجده » (يعنى يجد نفسه) حسناً « il paraît grand « إنه يبدو كبيراً » فالرابط هنا يأخذ قيمة أقل تفاهة من قيمته في الجملة الاسمية دون أن يصل إلى حد الاستقلال . ويمكننا أن نترجم الجملة السابقة على هذا النحو : il l'est avare « إنه يكون بخيلاً » أو il se trouve « يقع له أن يكون بخيلاً » أو il lui arrive d'être avare « وجد نفسه يكون بخيلاً » ... الخ . فالفصل بين جزأى المسند يبرز البخل على هذا النحو : avarus homo est « بخيلاً الإنسان يكون » أو « بخيلاً وجد الإنسان » أو إنه الذى يكون عيب الإنسان » ، الخ . وقصارى القول أن ترتيب الكلمات في الجملة الاسمية المشتمة على فعل الكون تبين على الترتيب أهمية المسند إليه أو المسند وقيمتى فعل الكون : كونه مجرد رباط أو فعلاً معبراً عن الوجود .

المجموعات الرئيسية في الجملة الفعلية هو المسند إليه والفعل والمفاعيل (مباشرة أو غير مباشرة) ، وكل مجموعة منها تشتمل على كلمة واحدة أو على عدة كلمات حسبما يكون المسند إليه مثلاً مصحوباً بصفات أو بمخصصات أخرى وحسبما يكون الفعل مقيداً بظروف عديدة أو غير عديدة . فأول ما يعيننا أن نعرف ما إذا كان الفاعل يسبق الفعل أو ما إذا كان الفعل يسبق الفاعل ثم بعد ذلك كيف تقخم المفاعيل في الترتيب الذى يتقرر . وعندئذ نرى بعد أن نستثنى الحالات التى يكون فيها لترتيب الكلمات قيمة صرفية (أنظر صفحة ١١١) . إن مكان المسند إليه ومكان الفعل يتوقف في كل لغة على تغلب بعض أنواع من الجملة تنتهى بأن تفرض نفسها على الاستعمال . ويتضح أن ترتيب الكلمات حتى في لغات كالإغريقية أو اللاتينية أكثر ثباتاً مما يظن لأول وهلة . وهكذا قد سلم الباحثون بأن بعض العبارات في الإغريقية تتبع ترتيباً

لا يتغير . وكانت العادة في التوقيع على الأعمال الفنية أو في إهداء القرابين أن يوضع الفعل في وسط الجملة محوطاً بالمسند إليه وتوابعه . ففي هذه الأحوال لا يوضع الفعل في نهاية الجملة إلا نادراً . وليس من شك في أنه يمكننا بمتابعة البحث أن نصل إلى معرفة الترتيب المعتاد في عدد كبير من أنواع الجمل في الإغريقية القديمة ؛ وذلك لا يمنع من وجود ترتيبات عرضية تترك لتقدير الكاتب . أما في اللغات التي تسير على نظام ثابت في ترتيب الكلمات ، دون أن يكون لذلك النظام قيمة صرفية ، فإنه يمكننا بوجه عام أن نكشف عن البواعث التي أدت إلى هذا الثبات بواسطة الامتحان الدقيق لظروف اللغة نفسها . وفي العادة ، لا بد أن يكون قد لزم لها وقت طويل حتى استقرت نهائياً على نظام معين . فالنظام الذي تسير عليه اللغة السكتية تشهد به أقدم النصوص الإيرلندية^(١) ، وهو الفعل : يوجد في صدر الجملة لا تتقدمه إلا السوابق الفعلية التي تستعملها السكتية بكثرة ؛ بعد ذلك يحىء المسند إليه ثم المفاعيل . ويظهر أن وضع الفعل أمام المسند إليه على هذا النحو يرجع من جهة إلى أن السكتية تقحم دائماً ضمائر النصب التي تكثر كذلك من استعمالها بين سابقة الفعل والفاعل ، ومن جهة أخرى إلى أن العادة في الهندية الأوروبية كانت قد جرت على وضع الضمائر الإلصاقية في المكان الثاني من الجملة (بعد أول كلمة منبورة) وذلك يطبع بطابع ثابت لا يتغير بداية الجمل التي تشتمل على لاصقة فعلية وفعل وضمير نصب وهي أكثر الجمل عدداً ؛ فهي إذن مقضى عليها أن تبدأ بالسابقة الفعلية فضمير النصب فالفعل ؛ أما المسند إليه فلا يأتي إلا لاحقاً لها . وما خلق هذا النظام المعتاد في ترتيب الكلمات في الجملة إلا الإبقاء على تقليد عتيق . ولكن يجب أن ننبه إلى أن هذا الترتيب تصيبيه بعض القيود عند الاستعمال وأنه قد خرج عن صرامته بمضي الزمن .

يختلف الأمر في الجرمانية بعض الاختلاف . فالألمانية تستعمل ترتيبين متساويين في الصرامة كلاهما ، وفقاً لطبيعة الجملة . فالفعل في الجملة الرئيسية يشغل المحل الثاني دائماً . أما المسند إليه والمفعول (أو الخبر) فيمكن

(١) ئندريس : رقم ٦ ، مجلد ١٧ ، ص ٣٣٧ .

وضعهما قبله أو بعده وفقاً لرغبة المتكلم . وفي الجملة التابعة يقذف بالفعل دائماً إلى آخر الجملة ، بعد الفاعل والمفعول . فيقال إذن في الجملة الأصلية :
 im Walde lebt « الذئب يعيش في الغابة » أو der Wolf lebt im Walde
 der wolf « في الغابة يعيش الذئب » der könig ist blind « الملك يكون أعمى »
 blind ist der König « أعمى يكون الملك » . ولكن يقال في الجملة
 التابعة: (man weiss dass) der Wolf im Walde lebt , der König:
 blind ist « (يعرف أن) الذئب في الغابة يعيش » ، الملك أعمى يكون » .
 وقد تم ثبات هذين الترتيبين شيئاً فشيئاً في غضون التاريخ . إذ نرى التعارض
 بين النظام المعتاد والنظم العرضية أكثر تعقيداً تبعاً للأنواع المختلفة للجملة ؛
 فقد حصل تبسيط في ظروف لا نحسن معرفتها^(١) . ولكن إذا كانت الألمانية
 قد عينت للفعل مكاناً ما ، فإنها قد احتفظت لنفسها بحرية التصرف كاملة بالنسبة
 للكلمات الأخرى ، وكل نظام من النظامين له فيها قيمته الخاصة . وفيها إلى جانب
 النظام المعتاد الذي يبادر بطبيعة الحال إلى ذهن كل إنسان ، إمكانيات لنظم
 متنوعة يختار المتكلم من بينها وفقاً لإلهامه .

ينحصر الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة .
 وهذا الفرق ينبثق جلياً عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة . فاللغة
 المكتوبة واللغة المتكلمة تبتمدان في الفرنسية إحداها عن الأخرى إلى حد أنه
 لا يتكلم إطلاقاً كما يكتب ولا يكتب كما يتكلم إلا نادراً . وفي كل حالة يوجد
 اختلاف في ترتيب الكلمات إلى جانب الاختلاف في المفردات . وذلك لأن الترتيب
 المنطقي الذي تسلك فيه الكلمات في الجملة المكتوبة ينقسم دائماً في الجملة المتكلمة ،
 إن قليلاً وإن كثيراً . فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة : « يجب المجيء سريعا »
 و « أما أنا فلا وقت عندي للتفكير في هذه المسألة » و « هذه الأم تذكره طفلها » ؛

ولكنها في اللغة المتكلمة تتخذ صيغة مختلفة كل الاختلاف تسعة أعشار الوقت ، فيقال مثلاً : « تعال بالعجل ! » ... و « الوقت ، إيه دأيا أخى ! هو أنا عندي وقت ، أنا علشان أفكر في المسألة دى ! » و « ابنها ! دهى بتكرهه ، الأم دى ! » (١).

ماذا يمكن أن يقال في جل اللغة المكتوبة ، تلك الجمل المنسقة بما فيها من جل تابعة وحروف وصل وأسماء موصولة وكل ما تحتوى عليه من أدوات وأقسام ! إننا لا نقول إطلاقاً في اللغة المتكلمة : « بعد أن نخترق الغابة ونصل إلى بيت الحارس الذي تعرفه ، بجداره الذي تكسوه أغصان اللبلاب سندور إلى اليسار ونسير حتى نجد مكاناً مناسباً فتعدي فيه فوق الأعشاب » . بل يقال : « حنخترق الغابة ؛ وبعدين نمشي لحد البيت ، إنت عارفه ، بيت الحارس ، إنت واخد بالك منه كويس ، البيت ده اللي جداره فارش عليه اللبلاب ، وبعدين نحود عشال ، ونشوف مكان لطيف . وبعدين نتعدي هنالك علحشيش . » فالعناصر التي تسمى اللغة المكتوبة في أن تسلكها في كل متماسك تبدو في اللغة المتكلمة منفصلة منفصمة مقطعة الأوصال : بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه في الأولى كل الاختلاف . إذ ليس هنا ذلك الترتيب المنطقي الذي يملئه النحو الجاري ، بل ترتيب له منطقته أيضاً ولكنه منطق انفعالي قبل كل شيء ، فيه ترص الأفكار لا وفقاً للقواعد الموضوعية التي يفرضها التفكير المتصل بل وفقاً للأهمية الذاتية التي يخلعها عليها التكلم أو التي يريد أن يوحى بها إلى سامعه .

فكرة الجملة بالمعنى النحوي تتلاشى في لغة الكلام . فإني عندما أقول : « الرجل الذي ترأه هنالك جالساً على الرمال هو ذلك الذي قابلته بالأمس عند المحطة » . أراي استخدام طرائق اللغة المكتوبة فلا أصوغ غير جملة واحدة ، ولكنني لو تكلمت لقلت : « شايف كويس الراجل ده — عندك هنالك — قاعد قدامك على الرمل — أهو ده ! — أنا شفته امبارح — كان ع المحطة » . فكيف يوجد من الجمل هنا ؟ من العسير أن نجيب عن هذا السؤال : فلو أني وقفت قليلاً على كل موضع علم بشرطة لكانت

(١) الجمل الفرنسية المقابلة لهذه الأمثلة مستعارة من شارل بلي .

الكلمات « عندك هناك » وحدها تكون جملة تماماً كما لو كنت أجيب على سؤال يقول : « أين هذا الرجل ؟ » . « عندك هناك » وجملة « قاعد قدامك ع الرمل » نفسها تصير مجموعة تتكئون من جملتين لو أنى توقفت قليلاً بين الجزأين اللذين يتكون منهما : « قاعد قدامك » و « [هو] ع الرمل » أو [إنه] جالس أمامك [وذلك] ع الرمل » . فحدود الجمل النحوية هنا غير ثابتة حتى ليحسن أن نريخ أنفسنا من تعدادها . ولكن إذا راعينا اعتباراً آخر ، لم نجد عندنا إلا جملة واحدة . فالصورة الكلامية واحدة وإن كانت تحتل السط والتوسع في الحركة إذا جاز لنا هذا التعبير . ولكن بينما تبرز هذه الصورة في اللغة المكتوبة كتلة واحدة ، نراها في لغة الكلام تقطع أجزاء متتابعة تتناسب في العدد والشدة مع الانطباعات التي يحملها المتكلم نفسه أو مع الحاجات التي تحملها على التأثير على السامع .

بقدر ما تستخدم اللغة المكتوبة نظام التبعية ، تمارس لغة الكلام نظام الإلصاق . فالتكلم لا يستعمل الروابط النحوية التي تحصر الفكرة وتطبع الجملة بطابع القضية المنطقية الضيق . ولغة الكلام مرنة خفيفة الحركة ؛ تدل على صلة الجمل بعضها ببعض بإشارات مختصرة بسيطة ؛ فالفرنسية تكتفى على وجه العموم لأداء هذه الوظيفة بحروف الوصل التي من قبيل et « و » و mais « لكن » ؛ ذلك أن اللغات تميل في الدلالة على التبعية إلى استعمال عبارة وحيدة تطبق على كل الحالات دون تفريق . وهكذا نرى أن الهندية الأوروبية في خلال التاريخ تخلق لها أدوات وصل وأن نظام الوصل يتكون ويستكمل . إذ لا بد أن التنعيم في البداية كان يلعب دوره ؛ وكان يشار إلى الصلة بين جملتين بأن تعارض إحداهما بالأخرى وذلك بواسطة نغمة الفعل أو بواسطة بعض الأدوات التي كانت تكرر في كل واحدة منهما . وقد احتفظت بعض اللغات بمجاميع من الصيغ التي تختلف تبعاً لما إذا كانت الجملة أساسية أو تابعة . ولكنه اكتفى بوجه عام بإعطاء الأداة (اسم موصول أو حرف وصل) وظيفة ربط الجملة التابعة وبالتالي جعلت الأداة الطابع المميز لهذه الجملة . ويكفيها للتحقق من ذلك أن ننظر إلى النجاح التام الذي صايفه حرف الوصل الفرنسي que « أن » . وإن اللغة المكتوبة ، التي

تبحث عن الدقة ولديها من الفراغ ما تنفقه في التحضير والتروى ، تعقد مختارة طريقة التعبير عن صلة الجمل بعضها ببعض وفقاً لألوان الفكر المختلفة الدقيقة . ولكن لغة الكلام تميل إلى اتخاذ رمز واحد تاركة لذهن السامع أن يعرف بالحدس نوع الصلة التي يقصدها المتكلم . لذلك قد نرى الحرف الواحد يعنى في اللغة الواحدة « لأن » و « مع أن » و « لأجل أن » و « عندما » . فالشعب الفرنسي يتجنب في لغة الكلام الصيغ « whose » « الإنجليزية » و « auquel » اسم الموصول بمعنى الذى له « و « pour lequel » اسم الموصول بمعنى الذى من أجله « لأنه يراها ثقيلة مقلقة . ويقنع في الدلالة على الوصل بالموصول que مع الإشارة في جملة الصلة نفسها إلى نوع الصلة التي يريد . فبدلاً من أن يقول « l'homme » « le patron pour lequel je » أو « dont je connais la fille » « le pauvre à qui je fais l'aumône » يفضل أن يقول « l'homme que je connais sa fille » « الرجل الذى أعرف ابنته » و « le patron que je travaille pour lui » « المالك الذى اشتغل له أو من أجله » و « le pauvre que je lui fais l'aumône » « المسكين الذى أقدم إليه الإحسان » . هذه التراكيب وهى راسخة القدم في الفرنسية المتكلمة اليوم — كانت مستعملة في اللغات الكلتية في العصور الوسطى^(١) وهى تبين جيداً استقلال لغة الكلام عن لغة الكتابة .

تتميز لغة الكلام بأنها تقتصر على الاهتمام بإبراز رؤوس الفكرة ؛ فهى وحدها التى تطفو وتبسود الجملة ؛ أما الروابط المنطقية التى تربط الكلمات بعضها ببعض وأجزاء الجملة بعضها ببعض فإما ألا يُدَلَّ عليها إلا دلالة جزئية بالاستعانة بالتنعيم والإشارة إذا اقتضى الحال ، وإما ألا يُدَلَّ عليها مطلقاً ويترك للذهن عناء استنتاجها . هذه اللغة المتكلمة تقترب من اللغة التلقائية ؛ ويُطلق هذا الاسم على اللغة التى تنفجر تلقائياً من النفس تحت تأثير انفعال شديد . ففي هذه الحالة يضع

(١) وتقابلها كذلك فى الألمانية فى الأقاليم المجاورة لإقليم Iave ؛ أنظرها جل Behaghel

المتكلم الألفاظ الهامة في القصة إذ لا يتيسر له لا الوقت ولا الفراغ اللذان يجعلانه يطابق فكرته على تلك القواعد الصارمة ، قواعد اللغة المتروية المنظمة ، وعلى هذا النحو تتعارض اللغة الفجائية مع اللغة النحوية .

من المسائل التي تستحق النظر معرفة ما إذا كانت إحداها سابقة بالضرورة على الأخرى ، وإذا ما كانت اللغة التلقائية تختلط باللغة الانفعالية . فإذا صاح إنسان مشدوهاً من مقابلة غير منتظرة فقال : « أنت ، هنا ! » أمكننا أن نقرر بشيء من التحمل أن هذه العبارة تقوم على أساس عبارة نحوية هي : « أنت (تكون) هنا ! » أو « يدهشني أنك هنا » . ولن يعدم النحويون على الأقل أن يفسروها على هذا النحو . محتجين باستعارة نحوية أو بحذف أو تقدير .

ولكن ينبغي لذلك أن نلجأ إلى لغة الطفل أولاً وقبل كل شيء . فالطفل الذي يقول « بابا هنا » ليفهم أن أباه قد حضر أو أنه يوجد هنا ، إنما يعبر فقط عن تقرير واقع . بعد ذلك عندما يأتيه التروى مع تلك الموهبة التي يحلل بها إدراكاته ويعبر عنها في اللغة تعبيراً كاملاً ، يقول : « بابا (يكون) هنا » أو « بابا وصل هنا » ؛ أي يمكن أن يستنتج من ذلك أنه يمكن الانتقال من لغة فجائية غير نحوية إلى لغة نحوية منظمة دون نقطة ارتكاز انفعالية ؟ يخشى أن يكون في ذلك نوع من المغامرة . لأن الطفل لم يبدأ بعد بأن يخلع على جملته الفجاءة « بابا هنا » طابعاً انفعالياً . بل إن الصيحات الأولى التي صدرت عنه كانت للتعبير عن رغبة أو إرادة أو حاجة . وأول ما قال « بابا هنا » كان ذلك للتعبير عن ابتهاجه برؤية أبيه أو عن رغبته في مجيئه . وإذن فقد نشأت العبارة الموضوعية « بابا هنا » في خلال تدرج الطفل بإقصائه للعنصر الذاتي ثم استطاعت بدورها أن تصير جديرة بالعبارة النحوية حين ضم فعل إليها ؛ ولكن الطفل قد بدأ بصيغة انفعالية ،

يُحِيل بعض علماء اللغة الذين هم علماء نفس في الوقت عينه إلى الاعتقاد بأن اللغة الانفعالية تسبق اللغة العقلية دائماً عند الطفل^(١) . وعندهم أن الذكاء

(١) أنظر خاصة سيثيه : رقم ١٢٢ ، ص ٦٧ وما يليها ، وقارن ليفي بريل : رقم

لا يستطيع تحويل الإحساسات والانفعالات إلى أفكار إلا تدريجاً ، وأن الفكرة تخرج من العناصر الانفعالية دون أن تقصدها إقصاء تاماً . وأنه يتكون في داخل اللغة الفجائية التي هي انفعالية محضة نواة صلبة تنمو شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الأجزاء المحيطة بها صلابة ؛ وهذه هي اللغة المصطلح عليها أو النحوية ، وتبقى هذه متداخلة في الأخرى ، تستمد منها غذاءها باستمرار دون أن تصل إلى إنضاجها بأية حال . هذه النظرية نشؤية دينامية قبل كل شيء . تزعم أنها تفسر أصل النحو ، يعنى اللغة المنظمة ، باستقرار العناصر البدائية غير الثابتة التي تكون ما قبل اللغة النحوية . وعندها أن هذه اللغة الأخيرة تستمر بقدر يزيد أو ينقص عند كل إنسان طول حياته ؛ وإليها يجب أن ترجع ظواهر اللغة الانفعالية جميعها . ولكنها تستطيع هي الأخرى بطريق مضاد أن تنهل من منابع اللغة النحوية ، وذلك مثلاً عندما نرى أن جملة مكونة تكويناً منطقياً تصير ، بفعل عكسي محض ، صيغة صادرة عن غير شعور تحت تأثير ألم حاد أو رعب مفاجئ .

والواقع أن اللغة النحوية المنظمة تنظيماً منطقياً لاتستقل عن اللغة الانفعالية ، فبين اللغتين تأثير متبادل . وقد رأينا أن ترتيب الكلمات في كل اللغات يتجه نحو الاستقرار ؛ إما بأن يفرض النحو عليها ترتيباً لا يتغير ، وإما بأن تكون المادة قد جرت باتخاذ ترتيب بعينه في جميع الجمل التي من نوع واحد . وهذا لا يمنع من أن يكون للانفعالية وسائل عدة للظهور في تكوين الجملة . فتارة نرانا نقذف قبل الجملة بكلمة أو بقسم من جملة ، مع استثنائه بعد ذلك بواسطة عنصر صرفي ، أداة كانت أو ضميراً ، وتارة ندفع به إلى نهاية الجملة منعزلاً عن السياق مع الإعلان عنه مقدماً في بنية الجملة ؛ وأخيراً قد يكون ذلك بفصم ارتباط الجملة بفتة وجعل نصفها التالي يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الأول منها . هذه الطرق المختلفة الشائعة في لغة الكلام كثيراً ما استعارتها لغة الكتابة وذلك كلما اقتضى الأمر إحداث تأثير .

فإذا نظرنا إلى قول لا برويير *la Bruyère* مثلا : « رجلٌ موهبةٌ وشهرة ، إذ كان محزوباً أو صارماً ، أخافَ الشبان » أو « أحد النبلاء ، إذا عاش عيشته في مقاطعته ، عاش حرّاً ، ولكن دون سند . » رأينا أن جملة مما يستطيع تسميته بالكتابة الفنية ، ولكن واضح فيها أنها تتخذ طريقة بناء شائعة في لغة المحادثة ^(١) ، وأيضاً : « هذا السيد المسكين ، لقد كان على جانب كبير من الطيبة » أو : « طفل عاقل ، يعظيهِ الإنسان كل ما يريد . » وتُمارس لغات كثيرة هذا التركيب نفسه . فنراه في الألمانية في مثل : « *der Kirchhof, er liegt wie am Tage* » « فناء الكنيسة ، لقد كان يمتد كأنه في وضع النهار . » و « *Die Glocke* » « *sie donmert ein mächtiges Eins* » « الجرس ، لقد قصف قصفة قوية » . وفي الإنجليزية منه أمثلة كثيرة . ووجوده في الفارسية القديمة أمر معروف ^(٢) . ويوجد باطراد في اللغات الملايوية البولينيزية . وأخيراً في الصينية : فبدلاً من أن يقال *wo me kien kouo t'a ti fang tseu* (وَوِمَ كَيِن كُوْأُو تَاتِي فَتْسُج تَسَرُوْ) « لم أر منزله » (حرفياً « أنا لا رؤية له منزل ») يمكن أن يقال : *t'a fang tseu wo me yeou kouo* « منزله ، إنني لا أراه » .

وواضح أن بين التركيبين في الأصل فرقاً دقيقاً كما يتبادر من الترجمة العربية نفسها ، فالأولى مبتدلة ولا تعبير فيها ، والثانية على العكس ، تعبر عن لون من العاطفة إن قليلاً وإن كثيراً . ولكن قد يحدث أن تفرض الثانية نفسها على الاستعمال إلى حد أن يستعاض بها عن الأولى ، فتصير نحوية بعد أن كانت انفعالية . وهكذا يمكن أن يقال في الفرنسية : « *cet homme là, sa maison est belle* » « هذا الرجل ، بيته جميل » . بدلاً من « *la maison de cet homme est belle* » « بيت هذا الرجل جميل » . ومن المعتاد في لغة كاللغة الأيرلندية أن يتعجل فيقال : « بيته [بتاع] هذا الرجل » بدلاً من « بيت هذا الرجل » . وفي الألمانية يمكن أن يقال بالاختيار : « *das hans meines* »

(١) برينو Brunot : رقم ٥٣ ، مجلد ٣ ، ص ٤٨٥ .

(٢) ميه : قواعد الفارسية القديمة ، ص ١١ .

« Vater ist schön » البيت [بتاع] والدى جميل أو « meines Vater's Haus ist schön » والدى بيته جميل ؛ وبعض اللغات قد بنت لها تركيباً آخر إذ تقول : « meinem Vater sein Haus ist schön » (لوالدى بيته جميل)، ذلك التركيب الذى يجمع بين عملية التعجل « باستعمال ضمير الملك » وبين استعمال حالة الجر بدلا من حالة الإضافة فى الدلالة على الملكية . بل إن بعض اللغات الألمانية المعاصرة لا تستعمل غير هذا التركيب ؛ ففى كوبورج Cobourg مثلا^(١) عبارة « mein Vaters Haus » بيت والدى غير معروفة ، ويقال فقط : « maen fader soe haos » (حيث maen صيغة الجر والنصب ؛ وصيغة الرفع mae) . وهذا التركيب الشعبى اللغوى غير مجهول فى اللغة الأدبية ؛ إذ يقدم لنا جوته Goethe بعض أمثلة منه . فتلک سنة من سنن اللغة الانفعالية دخلت فى اللغة النحوية ، بل إن الفصائل النحوية نفسها يعبر عنها أحيانا بوسائل اللغة الانفعالية ، وإن كانت بعض هذه الوسائل تستجيب لذلك بصفة خاصة . فقد رأينا عند دراستنا لفصيلة الزمن أن فيها مكانا هاما للتعبير عن الاستغراق durée . ولكننا نعلم أن ما ندعوه الاستغراق ليس إلا المظهر aspect الذى يأخذه فى اعتباره ما حدث من الأحداث أى الزاوية التى يظهر لنا هذا الحدث من خلالها . فالسألة هنا مسألة وجهة نظر أولا وقبل كل شيء ، ولما كان اختيار وجهة النظر مسألة ذاتية ، كان فيها نصيب من الانفعالية . ويوجد بين الأزمان التى يعددها نحويونا زمن ذاتى بأجلى معانى الكلمة : ونعنى به الزمن المستقبل . فإننا عندما نعبر عن فكرة وقوع حدث فى لحظة ما من المستقبل ، لا نقف بتفكيرنا عادة عند التحقق الموضوعى للحدث ، بل نكاد نشير دائما فى نفس الوقت إلى الأحوال التى نجد فيها أنفسنا حاليا بالنسبة إلى ذلك الحدث المستقبل .

على هذا النحو يوجد فرق بين المستقبل والماضى . فهذا الأخير زمن موضوعى ، لأن الماضى أصبح لا يتعلق بنا وليس لنا أثر عليه ؛ فهو كما يقال زمن تاريخى .

إدوارد هرمن Ed. Hermann ، بحوث إغريقية ، ج ١ ، ليسك ، توينر (١٩١٢)

والمستقبل على عكس ذلك يحمل معه جميع ألغاز غير المتوقعة ؛ ويترك مجالاً لثلاث ومئات من عواطف الانتظار والرغبة والخوف والأمل . فإذا قلت « سأفعل ذلك غداً » فإني ، برغم تأكيدي بأن هذا الحدث سيقع غداً على يدي ، أحيط بجملي بجو ذاتي يلونها في عيني أنا بألوان متنوعة إلى حد أن الجملة تثول في غالب الأحيان إلى عبارة « أرغب أن » أو « أَرْضَى أن » أو « أخشى أن » أو فقط إلى عبارة « أعزم أن (أفعل ذلك) » الخ .

وتاريخ المستقبل في اللغات المختلفة يثبت صحة هذه الملاحظات (١) . فالزمن المستقبل كثيراً ما يعبر عنه بالإرادة أو الرغبة ، يعني أن بعض عباراته من أصل انفعالي . فالصينية تصوغ المستقبل بأن تلصق إلى الفعل العنصر yao « يَأُو » (فعل « الإرادة ») مثل wo yao lai « وَو يَأُو لَي » « سأحضر » (حرفياً : « أنا إرادة حضور ») . وتقول الإنجليزية I will do أو I shall do « سأفعل » (وأصلها أريد أن أفعل) . والإغريقية الحديثة استعاضت عن المستقبل القديم بتركيب تحليلي يرجع إلى الفعل الدال على الإرادة (أنظر ص ١٠٨) . والبلغارية تعبر عن المستقبل ، منذ القرن الثالث عشر ، بواسطة الفعل choteti « الإرادة » حيث تستعمله فعلاً مساعداً (٢) . وتقول بعض اللهجات الفرنسية : il ne pleuvra pas « لا تريد أن تمطر » بدلا من il ne pleuvra pas « لن تمطر » . ومستقبلنا نفسه ، من نوع aimera « سأحب » مشتق — كما هو معروف — من المركب amare habeo (حرفياً « حباً أملك ») وفيه يشير الفعل habeo « أملك » إلى النصب الذاتي الذي يعتزم التكلم الاضطلاع به من الحدث . فكون المستقبل يعبر عنه بصيغ لها هذه الدرجة من التنوع ، وهذه الكثرة من التجدد ، برهان ساطع على أن هذا الزمن يحتوي على نصيب كبير من الانفعالية (أنظر الصفحات الأولى من الفصل الثالث من الجزء الثالث) . التكرار أيضاً من تلك الوسائل التي نشأت في اللغة الانفعالية ثم صار ،

(١) منيان Magnien ، رقم ٩٠ وريبزو Rebezzo رقم ٢٢٧ .

(٢) فندراك Vondrak ، رقم ٢١٧ ، مجلد ١ ، ص ١٧٨ .

بعد استعماله في اللغة المنطقية ، مجرد سياسة نحوية ، أما أصله فيجب البحث عنه في الانفعال الذي يصحب التعبير عن عاطفة قد دفعت إلى أقصاها . وفي كثير من اللغات ينحصر التفضيل الكلي في تكرار الصيغة . فواضح هنا أن الاستعمال النحوي قد تطور من الاستعمال الانفعالي . والتكرار لم يكن في الأصل إلا وسيلة لإعطاء العبارة زيادة في القوة . « هذا جميل ، جميل » . ولكن هذه الوسيلة قد أفرغت شيئاً فشيئاً من قيمتها الانفعالية ، وبدا من السائع استعمالها للدلالة على الوفرة والتجاوز ، مستعملين عن التعبير عن أية عاطفة مثل « إنه سمين سمين » بدلا من « إنه سمين جداً » . وهذا هو التفضيل الكلي بحذافيره ، وهو لما يزل شائع الاستعمال حتى يومنا هذا في الحبشية مثلاً ، وفي الإغريقية الحديثة (١) .

ومع ذلك فهذه الوسيلة لم تصر في اللغات التي مثل اللغة الفرنسية مجرد وسيلة نحوية (إذ أن نحو الفرنسية يحتوى على وسائل أخرى للتعبير عن التفضيل الكلي) بل قد بقيت للتكرار فيها قيمته الانفعالية . فعبارة *Il est gros gros* « إنه سمين سمين » لا تؤدي بالضبط نفس المعنى الذي تؤديه عبارة *il est très gros* « إنه سمين جداً » . ويمكننا أن نحس الفرق بصورة أوضح من تلك إذا قارنا عبارتين مثل *il n'est pas très joli* « إنه ليس وسياً جداً » و *il n'est pas joli joli* « إنه ليس وسياً وسياً » (كأن يريد أن يقول إنه ليس وسياً تلك الوسامة التي نسميها وسامة) ، فلو فرضنا أن هاتين الجملتين قيلتا بقصد التهكم لكان الإحساس بالتهكم في الحالة الثانية أشد منه في الأولى .

التكرار الذي نقابله في النظام الفعلي للغات الهندية الأوروبية أو السامية ذو أصل انفعالي لا شك فيه . وهو يستعمل في هذه اللغات استعمالاً عديدة . فمن أوضح استعمالاته في الهندية الأوروبية الدلالة على تحقق الحدث تحقّقاً تاماً . وقد نشأ المسمى بالتام المكرر *parfait redoublé* في الإغريقية القديمة حاملاً لهذه القيمة (٢) ، فكان يدل بتكرار المقطع الأول من الأصل على تأكيد يقابل

(١) پرنو Pernot ، رقم ١٠٩ ، ص ٩٠ ، ١٦٠ .

(٢) ي . فـ كـ ر نـ اـ جـ l . Wackernagel . رقم ٢٢٠ .

التأكيد الذي تدل عليه صيغة الفعل من الناحية المعنوية . وتضميف الفعل في السامية ينحصر في إطالة الساكن ، أو في الاستماضة عن الساكن البسيط بساكن مضعّف (انظر ص ٨٤) . والقيمة الانفعالية فيه واضحة جداً أيضاً . ويقصد به الدلالة على الشدة ^(١) : فن « خبط » في العربية يؤخذ خبط « خبط بقوة » ومن كسر « كسر » « أحال إلى شظايا » الخ . كما يوجد في الأسماء آثار لصيغة جمعية موهلة في القوم تقوم صياغتها على التضعيف ، وأصلها الانفعالي واضح . هذه حالات سلك فيها التعبير عن العاطفة مسلكاً نحويّاً حيث نرى المنطق يستمير لغة الانفعال . وعكس ذلك شائع أيضاً . فيوجد في كل لغة متكلمة عدد من الكلمات الصغيرة التي لم يبق لها إلا القيمة العاطفية ، وحظّ المنطق فيها من الضالة بحيث قد تستعمل أحياناً ضد معناها الحقيقي بل كثيراً ما نجد إلى جانب الكلمات عبارات كاملة من هذا القبيل فيها فعل ومسند إليه ومفعول ، جمل صغيرة يستطيع المتكلم ، بشيء من التحليل الأولى ، أن يتعرف على الكلمات التي تكونها . وهي كلّ يقدم للذهن انطباعاً عاطفياً لا أكثر ولا أقل . ومثل ذلك في الفرنسية عبارة « par exemple » « مثلاً » التي يُدل بها على الدهشة و « vous savez » « أنت عارف » التي يشار بها إلى الموافقة . والقيمة التعبيرية لهذه العبارات تزداد قوة بقدر ما تتلاشى فيها القيمة المنطقية . ذلك أن الانتقال من المنطق إلى الانفعالي يحصل ببلى الأول منهما . ففي بادئ الأمر كان الإنسان يرى نفسه أمام فكرة تقال له فتدهشه فيجيب : « Ah ! par exemple ! » « أه ! مثلاً ؟ » مشيراً بذلك إلى أنه ينتظر من محدثه مثلاً توضيحياً . ثم جرت العادة بعد ذلك أن يجيب بقوله « ! par exemple » « مثلاً » كلما سمع خبراً غير منظر لا يستطاع تفسيره بداته ، ولو لم يكن في الإمكان تقديم مثل لتعزيده ؛ وأخيراً حل التعجب محل الاستفهام فصار القائل يقول : « par exemple » كما لو كان يصدر دهشة أو شكاً أو تحدياً أو غضباً أو رعباً .

لم تقف اللغة عند هذا الحد . إذ أن من طبيعة صيغ اللغة الانفعالية أن تبلى

بسرعة عجيبة ، فلا تلبث أن يحس منها الجزء الانفعالي ولا يبقى إلا عبارة عديمة اللون .
ولغة الكلام ميالة إلى تزويد جملها بعدد كبير من الكلمات termes الخالية من
التعبير والتي كأنها حشو بين الكلمات المعبرة ، مثال ذلك في الفرنسية : « allez y
tiens, n'est - ce pas, voyez - vous, pensez - lu » هيا إليه ، خذ ،
أليس كذلك ؟ أترى — أظن — « وكل منا يستطيع أن يفاجئ نفسه في
محادثاته اليومية وهو يخلط كلامه بعبارات formules من هذا القبيل .
هذه العبارات كانت منطقية فصارت انفعالية ، وهي تنتهي عادة بأن تصير
من الآليات . وآخر أطوارها هو الطور الذي تتجرد فيه مما كانت تحتوى
من العنصر العقلي ومن العنصر العاطفي على السواء .

فاللغة الانفعالية تنفذ في اللغة النحوية وتسطو عليها وتفككها . لذلك
يمكن أن يفسر عدم استقرار النحو بفعل الانفعالية إلى حد كبير . فالمثل المنطقي
الأعلى للنحو هو أن يوجد لكل وظيفة عبارة ، وعبارة واحدة لكل وظيفة .
ولتحقيق هذا المثل يجب أن تكون اللغة ثابتة بثبوت الجبر حيث يبقى الرمز ،
منذ أن يصاغ لأول مرة ، ثابتاً لا يتغير في جميع العمليات التي يستعمل فيها .
ولكن الجمل ليست رموزاً جبرية . فالانفعالية لا تنفك تكسو عبارة الفكر
المنطقية وتلونها . إذ لا يكرر المرء مطلقاً جملة واحدة بعينها مرتين ؛ ولا يستعمل
كلمة بعينها مرتين بنفس القيمة ؛ لأنه لا يوجد مطلقاً واقعتان لغويتان تماثلان تماماً
تماماً . ويرجع السبب في ذلك إلى ظروف دائبة على التعديل من أحوال انفعاليتنا .



الفصل الخامس

التغيرات الصرفية (١)

النظام الصرفي في كل لغة حسيّة لا يثبت على حال . ويمكننا أن نكون فكرة عن ذلك من الحقائق المذكورة في الفصول السابقة . بل إننا حتى إذا كنا ندرس لغة ميتة وحاولنا أن نقيم نظامها النحوي بعض الشيء رأينا فيها عدداً من الشواذ ومن المتناقضات وذلك رغم استقرارها على يد النحاة . لسنا نتكلم عن « الأخطاء » الفردية التي تنشأ أحياناً عن أقلام الكتاب مهما بلغ حرصهم ، ولكن كل نظام صرفي فيه مواضع نقص لا تخلو منها أية لغة ولو كانت من أشد اللغات تنقيفاً . ففي كل قاعدة من قواعد شواذ لا يبررها منطق . وقصارى القول إن النظام الصرفي لدى كل متكلم يحمل في نفسه من أسباب التغيير بقدر ما يحمله النظام الصوتي .

ولكن الطريقة التي يتم بها التغيير في أحد النظامين تختلف عنها في الآخر . فالتغيرات الصرفية إما تصيب الكلمات لا العناصر الصرفية ، وذلك على عكس التغيرات الصوتية التي قد تصيب الأصوات مستقلة عن الكلمات (انظر ص ٦٤) . ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن العناصر الصرفية تكون في أغلب الأحيان جزءاً لا يتجزأ من الكلمة ، بل يرجع ذلك على وجه الخصوص إلى أن السبب في التغيرات الصرفية ليس في الكليات العقلية ، بل في استعمال اللغة لهذه الكليات .

تنبعث التغيرات الصرفية دائماً عن استعمال قد وقع ، ومن ثم كانت محدودة الامتداد . فليس النظام إذن هو الذي يتغير ، كما هي الحال في بعض التغيرات

(١) أنظر ميه : تطور الصيغ النحوية (رقم ٤٢ (سنة ١٩١٢) ، ص ٣٨٤) .

الصوتية ، وإما الذى يتغير هو عنصر من عناصر النظام فحسب ، وفى استعمال واحد من الاستعمالات .

الفرق بين المسلكين يظهر فى نتائجهما . فالتطور الصوتى عام شامل لا يترك وراءه بقايا ؛ إذ أنه يستبدل جالاً جديدة مكان حال قديمة (أنظر ص ٦٦) . أما التطور الصوتى فيندر أن يشمل جميع الحالات التى يؤثر فيها ؛ فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التى يستحدثها عدداً كبيراً من الصيغ القديمة التى تستمر فى الاستعمال . وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفى بقايا لها . فبالرغم من أننا قد استعصنا فى الفرنسية بالمصدر courir « الجرى » عن الصيغة القديمة courre ، لازلنا نقول chasse à courre « صيد بالجرى » كما لا يزال نستعمل مصادر من أمثال rompre « يكسر » أو moudre « يطحن » . وجمع chacal « ابن آوى » على chacals لم يمنع من جمع cheval « حصان » على chevaux . وقد بقينا نقول فى مضارع dire « القول » المسند إلى جمع المخاطب vous dites « أنتم تقولون » ولكننا نقول vous prédisez « أنتم تنبؤون » و vous contredisez « أنتم تتناقضون » ، فى حين أن vous cotrefaites « أنتم تزيفون » قد بقيت متفقة مع vous faites « أنتم تعملون » . ونقول أيضاً l' Hôtel Dieu « المأوى — الله » (بمعنى مأوى الله) و le monument « المؤسسة فكتور هيجو » Victor Hugo « المؤسسة فكتور هيجو » (أى مؤسسة فكتور هيجو) و la rue Gambetta « الشارع غمبتا » (أى شارع غمبتا) على حين نستعمل حرف الإضافة فى غير ذلك فنقول la maison de Dieu « البيت [بتاع] الله » و Les poésies de Victor Hugo « الأشعار [بتاعة] فكتور هيجو » و La politique de Gambetta « السياسة [بتاعة] غمبتا » ، الخ . فاللغة لا تكاذ تشعر بنفسها ، وهى على كل حال لا تشكو من هذه التناقضات .

يسود التغيرات الصرفية اتجاهان عامان : الأول مبعثه الحاجة إلى التوحيد

ويميل إلى إقصاء العناصر الصرفية التي أصبحت شاذة ، والآخر مبعثه الحاجة إلى التعبير ويميل إلى خلق عناصر صرفية جديدة .

إقصاء العناصر الصرفية الشاذة يكون بردها إلى القاعدة ؛ أى أن الحاجة إلى التوحيد تقنع بطريقة القياس^(١) . ويطلق القياس على العملية التي بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيباً تبعاً لنموذج معروف . فالطفل الذى يقول 'j' ai li « قرأت » على مثال 'j' ai ri « ضحكتم » بدلاً من 'j' ai lu أو يطلب إقصاءه من المائدة بقوله : déproche - moi « أقصوني » بناء من approcher « يقرب » يخلق صيغتين قياسيتين^(٢) . والقياس هو الذى يقود الجاهل الذى يريد أن يظهر بمظهر من يحسن الكلام إلى أن يقول : فلان يبنى من فلانة قياساً على : فلان يتزوج من فلانة .

الحقيقة أن القياس أساس لكل صرف . فالإنسان يتبع القياس دائماً فى كلامه : وما جداول التصريف والإعراب التى تذكر فى كتب النحو إلا نماذج يطلب إلى التلميذ محاكاتها . فأنا أعرف أن المستقبل من finir « إنهاء » Je finirai « سأنتهى » ، وإذن فالיום الذى يقابلنى فيه مصدر ينتهى : ir مثل crépir « التجميد » و polir « الصقل » واحتاج إلى استعمال المستقبل منه لا أتردد فى أن أقول je crépirai « سأجعد » و je polirai « سأصقل » ولكنى لو واصلت السير فى هذا الطريق وبنيت المستقبل من venir « المجيء » على je venirai ، لكنت قد خلقت خلقاً قياسياً ياباه الاستعمال . ومع ذلك فالتاريخ يخبرنا أن بعض الابتكرات التى من هذا القبيل انتهت بالانتصار . فقد ظل الناس زمناً طويلاً يقولون : je tressaudrai « سأرتعد » و je défraudrai « سأخون » من المصدرين tressaillir « الارتعاد » و défaillir « الخور » ؛ واليوم يبنى

(١) أنظر هنرى Henry ، رقم ٨٢ ، وجيل Giles رقم ١٣٢ ، ص ٥٨ ؛ وه. أورتل H. Oertel ، رقم ١٢٧ ، ص ١٥٠ . وه. پول H. Paul ، رقم ١٨٨ ، ص ٩٦ ؛ وقارن فيه رقم ٩ ، مجلد ٢ ، ص ٨٦٠ .

(٢) وهذه الأمثلة تقابل ما نسمعه من بعض الأطفال فى القاهرة حيث يقولون كرة أحمر أو أصفر بدلاً من خمر أو صفراء طرداً للقاعدة القياسية .
المعربان

المستقبل منهما على الصيغة المطردة: je tressaillirai ، je défaillirai . فقد قضى أثر التصريف المطرد بوجودها .

استمر علماء اللغة زمناً طويلاً يعبرون عن القياس بنسب ومعادلات جبرية من قبيل : a بالنسبة إلى $b = c$ بالنسبة إلى s ؛ فيقال finir « الانتهاء » بالنسبة إلى finirai سأتتهى = tressaillir « الارتعاد » بالنسبة إلى tressaillirai « سأرتعد » . وبهذه الوسيلة نحصل رياضياً على المستقبل الجديد . ولكن يجب أن نأخذ من تطبيق التعليل الرياضى على مواد ياباه طبعها أو تعقدها . فالجبر لا يمكنه هنا أن يعطى فكرة صائبة عن الأشياء . إذ أنه يؤم بأن التغير إرادى وشعورى مع أنه عكس ذلك على خط مستقيم . هذا إلى أنه يندر أن يكون عمل القانون منحصراً بين أربعة حدود فحسب . فالصيغة التى تخرج القياس ليست فى العادة عنصراً منعزلاً بل هى رمز يمثل عدة عناصر مختلفة . فإذا أردنا ألا نخرج عن الميدان الجبرى وجب على الأقل إصلاح الصيغة حتى تصبح بالنسبة إلى $p = a$ إلى s ، على فرض أن p و p' تمثلان كميتين غير محدودتين ، إذ الواقع أن المصدر finir « الانتهاء » ليس وحده الذى عمل بمقارنته بـ finirai على إخراج tressaillirai « سأرتعد » من tressaillir « الارتعاد » وإنما يرجع ذلك إلى مجموعة الصيغ المشتركة بين الفعلين . ومن جهة أخرى ينضم إلى تأثير فعل finir تأثير جميع الأفعال التى تنتهى بـ -ir وينبئ المستقبل منها على -irai غير أن أهم عيوب استعمال الجبر هنا أنه لا يدخل فى حسابه القيمة الخاصة لكل صيغة . فهناك سبب هام لنجاح القياس فى بناء المستقبل من tressaillir و défaillir : فردهما إلى القاعدة يرجع إلى ندرتهما فى الاستعمال . لذلك استمررنا نقول فى الحاضر الإشارى nous tressaillons « نرتعد » و vous tressaillez « ترتعدون » على رغم من أننا نقول nous finissons « تنتهى » و vous finissez « تنتهون » ؛ فهنا قصرت قوة القياس لأن الحاضر أشيع استعمالاً من المستقبل . وإذن فكل شىء يرجع إلى ما فى ذهن المتكلم من تناحر بين الصيغ للسيطرة والمقاومة . والقياس يتوقف إلى حد على قانون الاقتصاد فى الجهود الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمحتاج

غير مفيد . والصيغ التي يُقَصِّصها القياس صيغ عليلة ، بمعنى أنها غير مضمونة من الذاكرة لندرة استعمالها . والقياس لا يستطيع التغلب إلا عند ضعف الذاكرة . فالصيغة الشاذة النادرة الاستعمال تنسى وتساغ من جديد تبعاً للقاعدة المطردة .

يخلق الأطفال في مرحلة تعلمهم للغة عدداً كبيراً من الصيغ الجديدة ، وذلك باستجابتهم لداعى القياس . ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يصلح فيما بعد ، لأنها في غالب الأحيان ليست إلا عوارض فردية ، ناتجة عن حس غير صائب ، أو عن معرفة ناقصة باللغة . ولكن بعضها ينطبق مع الحس اللغوى العام انطباقاً يجعلها تنتهى بالاستقرار . وقد يحصل أن يتجه فجأة جميع الأفراد من جيل واحد إلى الوقوع في غلطة بعينها تفرض نفسها عليها كأنها قانون وتصير قاعدة . وعندئذ يصبح كل مجهود يقوم به المدرس في المدرسة عبثاً . وهناك تراكم بادية الخطأ شائعة الاستعمال حتى بين المثقفين ؛ ويكاد الإنسان يدهش حين يعلم أن النحو قد سلم بها .

النحو كثيراً ما يكون في صراع مع الحس الطبيعي للغة . ففي الأقطار التي يطنى فيها أثر النحاة لا تستسلم اللغة لفعل القياس إلا بصعوبة ؛ إذ تخنق المبتكرات القياسية في مهدها ولا تستطيع الحياة . فهذه يجب لتغلبها أن تكرر غالباً وبصورة مطردة . وتقابل عندنا في الاستعمال اللغوى في القرن السادس عشر حيث لم يكن عمل النحاة قد بلغ من الاتساع والفاعلية ما بلغه منذ ذلك الحين عدداً كبيراً من الأخطاء التي لم تستطع أن يكون لها قوة القانون^(١) . فكان رابليه Rabelais يقول : je finois بدلا من je finissais « كنت أتم » ، ولكننا لم تحتفظ إلا بهذه الصيغة الأخيرة . وعلى العكس من ذلك استطاعت لغتنا الحاضرة رغم النحاة أن تفرض استعمال بعض التركيب التي ظلت مردودة حتى هذا الحين . فكل الناس يقولون : Je m'en rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضره منه إلى ») بدلا من je me le rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضره إلى ») ؛ وأصبح ذلك التركيب المتبرر : de façon à

ce que « بصورة أن » (حرفياً « بصورة إلى أن ») يقال بل وتسكتب بدلا من de façon que « بصورة أن » . ويجب علينا أن نقرر ، رغم أنفنا أن هذه الأخطاء تسير مع اتجاه اللغة الطبيعي .

ومع ذلك فهناك صيغ تثبت أمام القياس ، ومن أجل ذلك تسمى بالشاذة . إذ يحتوي نحو كل لغة من اللغات على قدر يزيد أو ينقص من الأسماء والأفعال الشاذة . وتسمى أيضاً بالصيغ القوية في مقابلة الصيغ الضعيفة أو العملية التي تستسلم للتنظيم الذي يفرضه القياس . هذه الصيغ القوية تبقى خارج القاعدة . وتدين بمقاومتها إلى شيوع استعمالها الذي يبتقى عليها حية في الذهن ولا يطبق لها تغييراً . وهي تفرض نفسها بخصائصها الفردية ، وإن كانت هي نفسها في أغلب الأحيان غير جديرة بأن تصبح مثلاً وأن تتخذ أساساً لعمل قياس . وهكذا كانت أشيع الأفعال استعمالاً من الأفعال القوية بوجه عام في جميع اللغات ؛ أي من الأفعال الشاذة . وفعل الكينونة أكثرها شذوذاً لأنه أوسعها استعمالاً ؛ فالمقابلة بين il est « يكون » و ils sont « يكونون » موهلة في القدم ، وتذكرنا في الصورة التي تعطيها إياها الكتابة على الأقل بمسلك للتصريف الهندي الأوربي لم تحتفظ به الفرنسية إلا هنا . وكان في اللاتينية بقايا من هذا النوع في أفعالها الكثيرة الاستعمال ؛ أما الفرنسية فلم يبق فيها إلا فعل الكون « être » الذي لا يبدو أن هناك ما يهدد شذوذه .

ليس معنى ذلك أن الصيغ القوية لا تستسلم للوهن مع الزمن . ففعل الكون في كثير من اللغات تبدو عليه آثار من عمل القياس عدلت من تصريفه ؛ فصيغة الشخص الأول j'estern « أكون » في البولونية قد عدلت على غرار الشخص الثالث j'est « يكون » ؛ ولكن هذا العمل محدود على وجه المموم ولا يعوقه فعل الكون عن الاحتفاظ بمظهره الشاذ في مجموعته . واللغات الغنية بالتصريف القوي كالألمانية ، أمامها مجال واسع للاحتفاظ به زمناً طويلاً ؛ لأن الصيغ الشاذة يسند بعضها بعضها . أغلب الظن أن اللغة تقضى على بعض هذه الصيغ شيئاً فشيئاً تردّها إلى القاعدة . إذ يمكننا أن نقيد قائمة كاملة بأفعال قوية صارت

ضعيفة في القرون الأخيرة . وعددها في زيادة دأمة ؛ لأن الصيغة الضعيفة التي تدخل في الاستعمال بجانب صيغة قوية تنتهي بالتغلب عليها . فبعض اللهجات تقول : ich verlor [هكذا بالتصريف الضعيف] « فقدت » بدلا من ich verlierte [بالتصريف القوي] ، ich springte « وثبت » بدلا من ich sprang « وثبت » ، و ich fangte « أخذت » بدلا من ich fing و gefangt « مأخوذ » بدلا من gefangen . أما الحاضر الإخباري والأمر فقد انتهيا من تسوية تصريفهما في كثير من الأفعال ؛ فالآن لم نعد نقول من : fliegen « السركة » du fleugst « تسرق » er fleugt « يسرق » ولا من lügen « الكذب » du leugst « تكذب » er leugt « يكذب » ، ويقال في بعض اللهجات nām « خذ » و half « ساعد » بدلا من nimm و hilf . وفي منهم Mannliem يقال ich geb « أعطى » و du gebst « تعطي » و er gebt « يعطي » بدلا من ich gebe و du gibst و er gibt ^(١) . وفي الإنجليزية حيث أثر القياس كان أشد عملا لا يوجد إلا عدد محدود من الأفعال القوية ؛ هذا إلى أن ذلك العدد في تناقص مستمر ؛ إذ نقرأ في Pickwick Papers نقرأ على لسان مزخرف نزل هوايت هارت White Hart : « he know'd nothing about parishes » (بدل knew) « إنه لا يعرف شيئا عن الدوائر القسسية » ، وكذلك the ghost (بدل he saw) « عندما رأى الشبح » ، الخ . ومع ذلك فهذه الأفعال من أكثرها دورانا على الألسن .

وأحيانا يعمل القياس عمله داخل تصريف بعينه . ففي الألمانية يقال في المفرد wurde « صار » بدلا من ward ، قياساً على الجمع wurden « صاروا » . وقد تم توحيد التصريف في الماضي غير التام الألماني في وقت مبكر ، وكانت الغلبة فيه لمركبة الماضي بوجه عام . إذ يقال wir warfen « كثرنا نرقي » قياساً على ich warf « كنت أرمي » (في الألمانية العليا القديمة wurfum , warf) ، و wir zogen « كثرنا نجذب » قياساً على ich zog « كنت أجذب »

(١) بهاجل Behaghel ، رقم ١٤٤ ، ص ٢٤٧ .

(في الألمانية العليا القديمة : zöh , zu gum) . وإذا كان الزوج : ward wurden قد بقي إلى يومنا إلى هذا فارجع ذلك إلى أهمية الفعل werden « يصير » وإلى كثرة استعماله ، وإذا كان الزوج : wurde , wurden قد خلق على هذا النحو ومشتتملا على نهاية الأفعال الضعيفة في حالة المفرد ، فذلك تحت تأثير الأزواج : hatte, hatten « كان يملك » ، كانوا يملكون ، و wollte, wollten « كان يريد » ، كانوا يريدون ، و musste, mussten « كان يلزمه » ، كان يلزمهم « الخ ، وهي أفعال تستعمل في بعض الأحيان أفعالا مساعدة . وليس معنى ذلك أننا لا نجد في تاريخ اللغات الجرمانية صيغاً قياسية من نوع wurde . ففي الألمانية العليا القديمة ، عندنا من الفعل beginnan « يتبدى » الماضي غير التام bigonda أو bigunda « كان يتبدى » ، وذلك إلى جانب bigan الأقل منهما استعمالا . ومن fundan « يجد » ، تستعمل السكسونية القديمة الصيغة funda « كان يجد » في الماضي غير التام إلى جانب fand ؛ كذلك تستعمل الإنجليزية القديمة funde في المفرد قياساً على الجمع fundun . ومع ذلك فخلق wurde جاء مستقلاً عن هذه كلها . فكل حالة من الحالات الناشئة من أثر القياس تستدعى علاجاً مستقلاً ؛ وإذا أردنا أن نفهم معنى القياس وجب أن نبحث عن النقطة التي يبدأ منها صدوره .

نقطة البدء هذه تنحصر دائماً في شكل من الصيغ موجود في اللغة . وليس مدار الأمر هنا حول تنفيذ خطة كاملة يسمى العقل إلى تحقيقها على خطوات متتابعة : نعم ، قد يكون من نتيجة العمل القياسي في بعض الأحيان التقليل من عدد الصيغ الشاذة ، أي إضعاف النوع القوي . ولكن ذلك ليس قاعدة مطردة . فقد يحدث أن بعض الأفعال القوية تفرض نفسها إلى حد أن تتخذ نماذج وتجذب إليها بعض الأفعال الضعيفة . وفي أغلب الأحيان توجد بواعث خاصة لتبذير القياس وقد وقع ذلك أكثر من مرة في الألمانية حيث يشتمل التصريف القوي على فصائل عديدة واضحة الحدود ؛ فالصيغة : ich frug « سألت » من fragen ابتكار قياسي قديم ، وإن كان في سبيل الفناء ، غير أننا نجد في لهجات عدة

ich jug « صدت » من jagen ، و ich kuf « اشترت » من Kaufen ، الخ . فهذه الأفعال دخلت في الفصائل المطردة للأفعال القوية . وعلى العكس من ذلك في الإنجليزية كما في الفرنسية ليست الأفعال القوية في الحقيقة إلا شواذ ، وإلا مستثنيات منعزلة لا تكون نظاماً يستطيع أن يؤثر على المتكلم . غير أنه قد يحصل أن تدخل هذه الأفعال الشاذة في مجاميع تتكون كل منها من فعلين أو من ثلاثة . فتقوى وتتساند بذلك ؛ ومثال ذلك في الفرنسية الفعلان pondre « يبيض » و tonre « يجرّ » اللذان لم يكن بينهما أية صلة في الأصل (أصلاهما اللاتينيان ponere ، tondere ينتسبان إلى نوعين مختلفين من التصريف) ولكنهما أصبحا يتبعان طريقة واحدة في التصريف . وكل ذلك ليس له من المنطق إلا حظ يسير . « فالعقل ، وطبعه عدم الثبات ، لا يتابع سيره في خط مستقيم . لماذا ؟ لأنه يسعى لاقتناص الأقيسة ، لأنه — وهو الذي لا يأبه للصلات الحقيقية بين الأشياء — يجرى وراء علاقات خارجية . وهو في مسيره هذا لا يعرف دائماً أين يذهب » . هذه الفكرة لجان بول Jean Paul (في Tagebuch ، ٩ أغسطس ١٧٨٢) يمكن تطبيقها على العملية التي ندرسها هنا . وأغلب الظن أن مرجع ذلك في الأصل الاتجاه إلى جعل الصيغ المختلفة صيغة واحدة ، وهذا الميل نفسه يرجع إلى كسل طبيعي في العقل . ولكن هذا الميل إلى التوحيد لا يعدّ ميلاً إلى التخصيص كما قيل في بعض الأحيان . إذ أن التخصيص قاعدة منطقية تقضى بأن يعبر بعلامة واحدة عن كل وظيفة نحوية وأن تعبر كل علامة عن وظيفة نحوية واحدة . وهو نوع من التطبيق المثالي للنحو على المنطق . ولقد رأينا فيما تقدم ما يمنع من تحقيق هذا المثل الأعلى . فالعقل لا يغير مطلقاً نظامه الصرفي تفييراً كاملاً ؛ ولا يوجه مجهوده في الوقت الواحد إلا إلى جزء من النظام يعدّ جدّ ضئيل ، ولما كان الأثر الواقع منه على الأجزاء المختلفة لا تقوده مطلقاً إرادة مثفذة لخطّة منهجية ، بل كان تابعاً لوحى المصادفة والظروف المختلفة ، كانت النتيجة في مجموعها خالية على وجه العموم من الترابط والتجانس ؛

وتاريخ الزائدة -er- في الألمانية من أقوى الأدلة على ذلك ^(١) . فهذه الزائدة التي يتميز بها عدد كبير من جموع الكلمات المحايدة ليست في حقيقة أمرها إلا لاحقة عممها القياس . ذلك أن بعض الفصائل المحايدة في الهندية الأوروبية كانت تتميز باللاحقة -es- التي نعثر عليها في اللاتينية (في صورة -er-) في إعراب الكلمات من فصيلة genus (جنس) وجمعها gen - er - a ، النخ . ففي الألمانية التي فيها يتغير حرف الصغير أيضاً في مثل هذه الحالة إلى r ، وُجدت الكلمات المحايدة التي من هذا القبيل مزودة بنهاية جديدة -er- وذلك بعد سقوط النهايات القديمة . وهذه النهاية الجديدة قد استطاعت أن تجعل الجمع مختلفاً عن المفرد ، ومن ثم صارت علامة مميزة للجمع . فهي إذن كانت زائدة قوية التعبير تحرص اللغة على ألا تفقدها ؛ فدتها بطريق القياس على عدد كبير من الكلمات المحايدة التي لم تكن في الأصل من الفصائل المحتوية على -es- ؛ فقياساً على Kalb « عجل » التي تجمع على Kälber والتي تنتمي إلى فصيلة -es- أمكن أن يجمع Haus « بيت » على Häuser و Buch « كتاب » على Bücher و Fass « برميل » على Fässer و Glas « كوب » على Gläser و Geld « نقد » على Gelder و Wort « كلمة » على Wörter . ومع ذلك فقد بقي عدد لا بأس به من الكلمات المحايدة التي تجمع على غير ذلك مثل Mass « مقياس » وجمعها Masse ، و Ross « حصان » وجمعها Rosse ، و Auge « عين » وجمعها Augen ، النخ . ومن جهة أخرى نعثر على الزائدة -er- في بعض الكلمات المذكورة مثل : Rand « حافة » وجمعها Ränder و Gott « إله » وجمعها Götter ، و Wurm « دودة » وجمعها Würmer ، النخ . ومعنى ذلك أن القياس لم ينجح في إعطاء الزائدة التي خلقها وظيفة واحدة .

وما رأى في اللغات الصناعية البنية على خطة منطقية قد وضعت مقدماً ؟ هذه اللغات غير ممكنة الوقوع إلا إذا كانت لغات خاصة : لغات فنية أو لوائح علامات . ففي هذه الحال يكفي الاتفاق بين الأشخاص المدوّن الذين يستعملونها

(١) شترتبرج Streitberg ، رقم ٢١٠ ، ص ١٠٣ .

للاحتفاظ بها كما خلقت دون تغيير . ولكن لا ينبغي لها أن تصير لغات حية ؛ لأنها حينئذ لا تلبث أن يعثرها التغيير ، فتنشأ بين الصيغ خلافات في القيمة ؛ وتتغلب بعض الصيغ على بعضها الآخر ؛ ويعمل قانون القياس عمله ، وتحل الفوضى محل النظام الجميل . فالصيغ ذات الغلبة تصير مرا كز إشماع قياسي ؛ وتجذب إليها غيرها من كل جانب لأسباب متنوعة ؛ بعد ذلك توجد خطط قياسية متضاربة متقاطعة ، لا يستطيع عقلنا القاصر أن يوفق بينها . ذلك أن اللغة المثالية حلم من الأحلام . تذكرنا بيستانى بذر في بقعة منظمة الأرجاء بذورا متماثلة كل التماثل وأخذ يولى كلاً منها قدراً متماثلاً من عنايته أملأ منه في أن تنبت حديقته أشجارا متساوية الحجم تجرى على نظام واحد وتثمر عدداً متساوياً من الأزهار والأثمار . بل إن هناك كثيراً من الأسباب التي تجعل الظروف البيولوجية تحيد عن سمتها ، ومن هذه الأسباب ما يعلو على قدرة الإنسان : وكذلك الحال في اللغويات التي يقف فيها القياس في غالب الأحوال موقفاً مغايراً للمنطق ، على الرغم من أنه ينبعث من الحاجة إلى التوحيد ويستخدم التعليل العقلي بطريقة ترضى العقل ^(١) .

* * *

الحاجة إلى التعبيرية كالحاجة إلى التوحيد من الحاجات التي لا تسد ؛ ولكن العقل بسعيه إلى سدّها يصلح من البلى الذى يلحق بالصيغ ، وبالتالي يغير الصرف . في أثناء التطور الصوتي للغة من اللغات ، تتآكل بعض العناصر الصرفية حتى تصبح غير صالحة للاستعمال ؛ بل قد تُبتر في بعض الأحيان بترّاً تاماً . وعندئذ يجب ترميمها أو إحلال غيرها محلها . فإذا كانت اللغة من اللغات المعربة كاللاتينية وكانت الإصابة فيها واقعة على نهائياتها (انظر ص ٨٨) ، وجب أن يتناول الترميم الإعراب بأسره . فالبقايا الصرفية التي يبقّى عليها فعل القوانين الصوتية يندر أن

(١) راجع عن اللغات الصناعية كوتورا وليو Couturat et Leau ، رقم ٦٠ ورقم ١٠ سنة ١٩٠٨ ، ص ٧٦١ ؛ سنة ١٩١١ ص ٥٠٩ ؛ سنة ١٩١٢ ، ص ١ . أنظر أيضاً مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، سنة ١٩١٢ ، ص ٤٧ — ٨٤ . وانظر مناقشات Boudouin de Courtenay للاعتراضات التي أثارها بزجان ولسكين Brugmann et Leskien ، في Zur Kritik der Künstlichen Weltsprachen ستراسبج (١٩٠٧) وتجدها في رقم ٢٤ ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٥ ؛ وفارن رقم ٢٢ ، ص ٣٦٥ .

تكون على درجة من التعبيرية تجعلها صالحة للبقاء على ما هي عليه . لذلك نرى إعراب الاسم يختلف شيئاً فشيئاً في اللاتينية العامية في القرون الأولى من التاريخ المسيحي . ولم يبق منها من كل أنواع الإعراب إلا المخالفة بين الفاعل والمفعول التي بعثت بعد ذلك بفضل عملية القياس . كذلك تصريف الفعل في اللاتينية الحديثة يدين بمقدار كبير إلى القياس . والعلامتان الفرنسيتان - ons - ez - اللتان تميزان جمع المتكلم والمخاطب نتيجة لامتداد قياسي . كذلك الزائدة - iss - في التصريف finissons « ننتهي » و finissez « تنتهون » و finissais « كنت أنتهي » ليست إلا اللاحقة اللاتينية - isc - الدالة على الابتداء والاستمرار ، قد أخذت من بعض الأفعال وطبقت على هذه الفصيصة من التصريف وصارت رمزاً لها ، والزائدة - u - في أسماء المفاعيل eu « مملوك » (قديماً évu) و vu « مرئى » (قديماً véu) و lu « مقروء » و tenu « ممسوك » و rompu « مفصوم » ، الخ قد جاءت من نهاية اسم المفعول اللاتينية - utus - ، وهي صيغة نادرة الأمثلة في اللاتينية . ولكن كان من اللازم في كل هذا إصلاح ما فقد بفعل اليل الصوتي ؛ فأسماء المفاعيل القديمة habitus و uisus و lectus و tentus و ruptus الخ ، لم تظهر أو ما كان يمكن أن تظهر في الفرنسية في صورة خالية من التعبير الصرفي . ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الامتداد القياسي لنهاية معبرة .

ولكن كل ذلك لم يكن كافياً ؛ ولقد كان من العسير محاولة مد جميع الفصائل النحوية بالتعبير بمجرد إنعاش التصريف اللاتيني بتطعيم قياسي . لذلك تدخلت عملية أخرى تنحصر في زيادة أهمية الحروف وفي التوسع في الأداة وفي استعمال الضمائر ، وبالاختصار في خلق نظام بأسره من الكلمات المساعدة تستعمل استعمال العناصر الصرفية . لذلك نرانا اليوم نقول la sœur « الأخت » و de la sœur « (بتاع) الأخت » و à la sœur « للأخت (أو) إلى الأخت » أو je lis « أقرأ » و tu lis « تقرأ » و il lit « يقرأ » بينما كان اللاتينيون يقولون : soror و sororis و sorari أو lego و legis و legit^(١).

(١) ومعنى هذا أن اللغة الفرنسية تستعمل أدوات في حالات تستعمل فيها اللاتينية علامات الإعراب . العريان

وأصل التركيب الفرنسى موجود فى اللاتينية على وجه التأكيد حيث تختص الحروف مثلاً باستعمالات عديدة ، بل وكثيراً ما تستخدم لشد أزور علامات الإعراب ؛ غير أن « إلى — ل » و « de » من أو [بتاع] فى الفرنسية رمزان نحويان يخلوان من كل قيمة ذاتية على عكس ad « إلى — ل » و « de » من فى اللاتينية فقد احتفظتا بقيمة ظرفية واضحة . ومع ذلك فإن ad و de كانتا فى اللاتينية عنصريين صرفيين منذ زمن طويل .

لم تكثف الفرنسية بالحروف اللاتينية ، فاضطرت إلى خلق حروف جديدة . ففضلاً عن التراكيب الظرفية أو الحرفية اللاتينية من مثل dans « فى » و après « بعد » و sous « تحت » و avec « ب » الخ استعملت كلمات أخرى موجودة فى اللغة ، فأخذت chez « عند » من الاسم اللاتنى casa « بيت » : وما زلنا نجد فى بعض الأقاليم الفرنسية أسماء أماكن من مثل chez, chez Rolland, Pierre « بيت پيير وبيت رولاند » . كما أن بعض أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات قد صارت حروفاً حقيقية ، مثل : pendant la nuit « أثناء الليل ، أو فى الليل » و vu les circonstances « نظراً للظروف (حرفياً منظورة الظروف) » nonobstant la défense « رغم الدفاع (حرفياً : الدفاع غير مانع) » excepté le dimanche « عدا الأحد (حرفياً : الأحد مستثنى) » و malgré la pluie « رغم المطر (حرفياً : مرغم المطر) ، sauf erreur « عدا الخطأ » و plein la rue « ملء الشارع (حرفياً ملء الشارع) » . ونجد حالات مماثلة فى عدد كبير من اللغات . فالتعبير عن حالة الإضافة يدل عليه فى بعض لغات الهند الحديثة (كالسنغالية مثلاً) بواسطة العنصر ge (جـ) وهو العبارة المكانية السنسكريتية القديمة grhe « فى البيت » وذلك كما لو قلنا فى الفرنسية le livre chez Pierre « الكتاب عند پيير » بدلاً من le livre de Pierre « الكتاب (بتاع) پيير » . والزائدة الإعرابية الجرية -vle التى يعبر بها عن الآلة والتى يمكن ترجمتها بالحرف الدال على الآلة (ب) مشتقة من

كلمة مستقلة قديمة في حالة مفعول الآلية ، وهي vāyl- أو vāyd- « بقوة ، بواسطة » . وفي الإنجليزية تعتبر الكلمات التالية حروفاً حقيقية : concerning « خاصاً بـ » و past « بعد (حرفياً : ماض) » (half past two) « الساعة اثنتان ونصف . (حرفياً : نصف بعد اثنتين) » وفي الألمانية الكلمتان trotz « برغم » و betreffend « خاص بـ » وفي الدنمركية الكلمة undtagen « ماعدا » الخ .

كل هذه الكلمات صارت « كلمات فارغة » بالمعنى المعروف في الصينية (أنظر ص ١١٦) . ذلك أننا إذا تركنا عملية القياس جانباً نجد الصرف يستعويض في الواقع عن خسائره بتحويل الكلمات المليئة إلى كلمات فارغة . فالأدوات النحوية التي تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقي واستعملت مجرد مؤنجات أى مجرد رموز .

نستطيع أن نتبع في كثير من اللغات تطور عناصر مختلفة من قبيل حروف الجر ، وحروف الوصل وآلات التعريف ؛ وهو لا يخرج في عمومها رأيناها في الأمثلة المتقدمة . فالكلمتان الإغريقيتان μετὰ « بـ » و μέχρι , μέχρι « حتى (للغاية) » متصلان بكلمة معناها « وسط » كما متصل περὰ « بعد » باسم القَدَم (قارن حرف الجر yet « بعد » في الأرمنية) . ونجد في كثير من اللغات أدوات وصل من قبيل lorsque « حالا (أصلها : في ساعة أن) » و du moment que « عندما (حرفياً : في لحظة أن) » والكلمة اللاتينية mages « بأكثر » صارت في الفرنسية mais « لكن » أى أداة استدراك ؛ كما انتقلت كلمة μάλλον في إغريقية العصور المتأخرة من فكرة : « ليس هذا ، بالأحرى ذلك » إلى فكرة : « ليس هذا ، لكن ذلك » . وأدوات التعريف في كل اللغات إشارات قديمة ؛ كما أخذ من اسم العدد أداة تنكير تعبر عن الوحدة في اللغات الجرمانية والكلتية والإغريقية الحديثة وجميع اللغات الرومانية . واسم الإنسان صار في الفرنسية والجرمانية والكلتية والأرمنية أداة نحوية تعبر عن الشائع (في الفرنسية . on dit) « يقال [حرفياً : يقول إنسان] »

وفي الألمانية : man sagt (كما في الفرنسية تماماً) ؛ وفي البريتنانية : neuz ket den « لا يوجد أحد » ، وفي الأرمنية marth egav « هل جاء أحد ؟ » وقد تعبر عن المعرّف : « في الغالية : y gwr (هذا الذي ، الذي) » .

الأفعال التي تسمى بالأفعال المساعدة كلمات مفرغة أيضاً . ففي الإنجليزية فعل to do « يفعل » تستعمل أداة نحوية للاستفهام مثل do you see « هل ترى ؟ » وللنفي مثل I do'nt see « لا أرى » . وتستعمل الألمانية الفعل thun « يفعل » استعمالاً مشابهاً ، في بعض اللهجات على الأقل مثل er tat schiessen « أطلق (عياراً نارياً) » er tut sich wenden « استدار » . والأفعال التي تستعمل أفعالاً مساعدة هي غير الأفعال في كل اللغات بوجه عام .

ففكرة « vouloir » « يريد » أو « devoir » « يجب » تميل دائماً إلى التعبير عن العرضية ، عن الاستقبال (انظر ص ١٩٩) ؛ وفكرة « tenir » « يشغل » و « accouper » « يحتل » تستعمل للدلالة على الحدث المنتهي ، ومن ثم التام . ومن هنا جاء في الإنجليزية I will go « سأذهب » و I shall find « سأجد » وفي الأرمنية الحديثة : bidi anem « سأفعل » وفي الفرنسية : j' ai conquis « افترحت » و ich habe gedacht « فكرت » في الألمانية ... الخ . وإذا كنا في الكتابة نفصل الكلمة الفارغة عن الكلمة المليئة التي تصحبها ، فتلك عادة كتابية محضة :

يوجد في الفرنسية حالات تم فيها التحام الكلمتين ، فصارت الكلمة الفارغة لاحقة من اللواحق . ففيها المستقبل والشرطي j'aimerai « سأحب » و je lisais « ... (ل) قرأت » وهما مأخوذان من ترا كيب لاتينية متأخرة مثل : legere و amare habeo و habebam . وظروف الحال عندنا تتكون بواسطة اللاحقة ment — مضافة إلى الصفة ؛ وهذه اللاحقة ليست شيئاً آخر غير صيغة مفعول الآلية mente من كلمة mens « عقل » . ونجد في اللاتينية منذ القرن الأول قبل الميلاد استعمالاً لكلمة mente تعلن عن هذه الوظيفة ، وظيفة التعبير عن الحال مثل : constanti mente و obstinata mente و Liquida mente (كاتول

Catulle ٦٤/٢١٠ و ٢٣٩ ؛ ١١/٨ ؛ ٤٦ و ٦٣ ؛) sagaci mente (لكريس
 Lucrèce ، ١٠٢٢/١) . ولا شيء في ذلك مما يدهش : ففي الإغريقية ^(١)
 عبارات من مثل εὐδόξῳ φρενί (اسخيل Choeph : Eschyle بيت ٣٠٣)
 أو γηθούσῃ φρενί (نفس المرجع ، بيت ٧٩٢) وهما تقابلان بالضبط العبارتين
 اللاتينيتين gloriosa mente (بالفرنسية glorieuse ment « بفخار ») أو
 leta ment (بالإيطالية : lietamente) . هذه العبارات قد بنيت على أنموذج شائع .
 وكثيراً ما يحدث في اللاتينية كما في الإغريقية أن تؤخذ الكلمات ذات المعاني المختلفة
 بقيمة عامة فتركب مع الصفات لتخرج منها كلمات جديدة أشبه شيء بظروف الحال
 (مثل ἀέχοντι νόῳ , νηλεί θυμῷ , χαλῇ καρδίᾳ وفي اللاتينية studioso animo)
 و trupi corde و ardenti pectore و miris modis و certa lege ... الخ)
 وقد اختارت اللغات الرومانية العبارة المحتوية على كلمة mente لتجعل منها كلمة فارغة ،
 لقد اختارتها من بين جميع العبارات اللاتينية التي فيها يحتفظ الاسم بقيمته ،
 ولكن بشكل مخفف . وهناك لغات تستعمل كلمات أخرى : فالألمانية تستخدم
 كلمة weise « طريقة » لتجعل منها نوعاً من اللاحقة الظرفية مثل glück-
 licherweise « لحسن الحظ » . وتستخدم اللغات الاسكندنافية كلمة vis
 « طريقة » لنفس الغاية : ففي الدنمركية heldigvis « لحسن الحظ » من heldig
 وفي السويدية lyckligvis « لحسن الحظ » من lycklig . والأرمينية من جهتها
 خلقت لها ظروف حال بواسطة كلمة bar « طريقة » وكلمة pès « شكل ، منظر » ؛
 مثل brnabar « بقدرة » (من burn « قدرة ») darnapès « بمرارة »
 (من darn « مر ») . وما دام العقل قد اختار كلمة من بين جميع الكلمات
 اللائقة التي تحت تبصرته ، فإنه قد أقصى ما عداها .

فذلك الشيء نفسه قد وقع في الفرنسية بالنسبة لأداة النفي . ونحن نعرف إلى
 أي حد تسرى عدوى النفي إلى الكلمات التي تلامسه . فالكلمات aucun
 « لا أحد » و personne « لا أحد » [وذلك في صدد النفي ومعناها في

الإثبات : « شخص » [du tout « بالمرة » من خير المثل في الفرنسية لما حدث في الإسبانية للكلمة nada « لا شيء » (من : rem natam) . ففي الفرنسية قيل في النفي أولا : je ne vois point « لا أرى نقطة » و je ne mange mie « لا آكل كسرة » و je ne marche pas « لا أمشي خطوة » je ne bois goutte « لا أشرب قطرة » ، الخ . ففي كل هذه الجمل يعبر عن النفي بالأداة ne « لا » ، أما الكلمات المعمولة (المفاعيل : نقطة ، كسرة ... الخ) فإن معنى الجملة نفسه يبرر وجودها . غير أن قيمة النفي سرت في هذه المعمولات إلى حد أن أمات قيمتها الحقيقية وصارت الكلمة ، بعد أن أصبحت نفياً ، تستعمل مع أى فعل لنفي أى حدث . [أى ولو لم يكن فعل الرؤية أو الأكل أو ... الخ] . بقى من هذه الكلمات كلمة pas (أصل معناها : « خطوة ») وكلمة point (أصل معناها « نقطة ») تستعملان أداتى نفي ؛ ولكنهما لا يستويان في الاستعمال ؛ أما goutte (أصل معناها « قطرة ») فقد بقيت في عبارات معدودة (je n'entends goutte « لا أسمع مطلقاً (حرفياً : لا أسمع قطرة) » je ce vois goutte « لا أرى مطلقاً (حرفياً : لا أرى قطرة) » و mie « فتات ، كسرة » اختفت تماماً من لغة الكلام ، ولكن الناس استمروا زمناً طويلاً يقولون : je ne dors mie « لا أنام مطلقاً (حرفياً : لا أنام كسرة) » و je ne souffle mie « لا أنفّس مطلقاً (حرفياً : لا أنفّس كسرة) » ؛ وقد كان ذلك يصبح مستحيلاً لو أنه بقى في شعور المتكلم شيء ، مهما كان قليلاً ، من المعنى الحقيقي لهذه الكلمات .

قبل أن تصير الكلمة مجرد لائحة ، تنفرغ من معناها الحقيقي شيئاً فشيئاً وبطريقة غير محسوسة . ويمكننا أن نلاحظ الطريقة التي يتم بها هذا العمل في اللغات التي لا زالت تمارس التركيب بصورة عادية . فقد صاغت الألمانية مثلاً عدداً كبيراً من الكلمات المركبة بواسطة كلمة Mann « رجل » مثل : Bergmann « مُعدّن [عامل مناجم] » و Dienstmann « فاعل [العامل الذي يشتغل في الأعمال اليدوية] » و Fuhrmann « حوذي » و Kaufmann « تاجر »

وكذلك الحال مع كلمة Frau « امرأة » فيقال Hausfrau « خادمة »
 وWaschfrau « غسالة »، فهذه كلمات مركبة تركيباً حقيقياً وتحس على أنها كذلك.
 غير أن وجود كلمتي Mann « رجل » و Frau « امرأة » منعزلتين يجعل السامع
 يحس التركيب ببعض الشيء . وكون الكلمات التي يدخلان في تركيبها تجمع
 بواسطة Leute « ناس » فيقال Dienstleute « فَعَلَةٌ » و Kaufleute
 « تَجَّار » يقوى هذا الشعور . ومع ذلك فن المؤكد أن عناصر التركيب تلك
 ليس لها في العقل نفس الأهمية ؛ فالنبر الذي يقع على أول العنصرين يقلل من شأن
 الثاني بالنسبة للأول ؛ والنبر هنا يسير مع المعنى أولاً وقبل كل شيء . ذلك أن العنصر
 الأول هو عنصر الكلمة الدال ؛ وقيمة الثاني قيمة صرفية على وجه الخصوص .
 فنحن في الفرنسية نترجم الكلمات Bergmann « عامل مناجم » و Fuhrmann
 « حوذي » و Kaufmann « تاجر » بالكلمات mineur و voiturier و
 négociant ، أي بوضع لاحقة بسيطة مكان الطرف الثاني من المركب الألماني ،
 لاحقة لها نفس القيمة التعبيرية . أغلب الظن أننا لا نستطيع أن نقول بأن العنصر
 الألماني Mann- لاحقة ، ولكنه صائر إليها ؛ ولعله يصير مع ذلك بكل ما تتميز به
 اللاحقة . فالعنصر الأول يجذب إليه التفات العقل كله ؛ والثاني يقنع بدور
 لا يكاد يزيد عن دور اللاحقة (١).

نعثر في الألمانية على لواحق عدة خلقت بهذه الصورة . فقد كان يقال في الألمانية
 العليا القديمة ni scouous thu heit manno « non respicis per- »
 sonam hominum » (إنجيل متى ١٥/٢٢) ثم أخذت كلمة heit تدخل في
 التركيب ، مثل : man-heit « الإنسانية » vip-heit « النسوية ، النساء » .
 وأخيراً أصبحت اليوم لاحقة من أشيع اللواحق (Mensch-heit « الإنسانية » ،
 Schönheit « الجمال » الخ) . ويمكننا أن نجد نفس الطريقة إذا تتبعنا نشأة
 اللاحقتين lich- أو -tum . فالأولى اسم قديم معناه « جسم ، شكل » ولا يزال
 محتفظاً به حتى اليوم في Leichnam « رمة » و Leichdorn « جسم في القدم

[كالو] « ، ونجده في gleich » الذى له نفس الشكل ، مشابه ، ، وصار لاحقة في صورة lich في weiblich « الذى له صورة المؤنث » و leiblich « ماله صورة محبة » ، الخ . واللاحقة -tum نجدها اسما مستقلا في القرن التاسع في قصيدة أوتفريد Otfrid (في صيغة duam « حدث ، وظيفة ») ؛ ثم قيل rihhiduam « امبراطورية » ، (يعبر عنها الآن بـ reichum) ، ثم على سبيل التوسع ، Deutschum « الألمانية » و Yankeetum « الأمريكية » الخ . ونعثر على هذا الاتجاه بعينه في الإنجليزية القديمة حيث نجد wéfhad « النسوية » تقابل vip-heit في الألمانية القديمة ، و cynedôm (اليوم kingdom) تقابل kônigtum « الملكية » و woroldlic (اليوم worldly) تقابل weltlich « دنيوى » .

الكلمات التى صارت لواحق بعد أن أفرغت من معانيها الحقيقية ، أخذت قيمة تجريدية جعلتها قابلة للتعبير عن فصيلة صرفية . فبعضها مثلاً يعبر عن الصفة ، وبعضها عن الحالة : بعضها يميز أسماء الحدث ، وبعضها أسماء الفاعلين . هذه القيمة التجريدية لا تمنعها بعد أن نشأت من أن تتلون بألوان من العاطفة . فاللاحقة -ard التى أوجدتها الفرنسية من الجرمانية حيث تستعمل عنصراً ثانياً فى بعض أسماء الأعلام المركبة (Richard ، Eberhard ، Bernhard) ، هذه اللاحقة اتخذت فى الفرنسية دلالة تهكمية ؛ هذه الدلالة نشأت بعملية القياس ، ولكن بعض الكلمات نجت من هذا القياس (مثل buvard « نشاف » foulard « منديل » فاحتفظت فيها اللاحقة بقيمتها العامة التجريدية التى لا يخالطها أى لون انفعالى . وهذا يدل على أن هذا اللون الانفعالى طارىء .

الميزة الحقيقية للكلمة الفارغة هى التجريد . فكلمة أوغلت اللاحقة فى صيورتها كلمة فارغة ، زادت قيمتها التجريدية إلى حد أن بعض دوال النسبة تنتهى إلى أن تصير مجرد رموز جبرية لا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى ، وهذه حال «v فى الإغريقية القديمة و -iti فى السنسكريتية (انظر ص ١٠٧) . وليس من شك فى أن دوال النسبة هذه مأخوذة فى الأصل من كلمات مليئة كانت

لها في اللغة دلالة مشخصة كما في حالة الأداة *α* و *α* في الإغريقية الحديثة بالضبط (أنظر ص ٨٩) . فتطور دوال النسبة يحصل إذن بالانتقال من الشخص إلى المجرد بقدر الانتقال من الخاص إلى العام .

عندنا مثال من خير الأمثلة التي تلخص عمليات تكوين دال النسبة ، وذلك في أداة الاستفهام الفرنسية *ta - « تي »* .

جاستون پارى *Jaston Paris* أول من لفت الأنظار إلى أهمية هذه الأداة الكثيرة الاستعمال في اللغة المعاصرة ^(١) . فعبارة *il aime « يحب »* (وتنطق

إيليم) « المسند فيها الفعل إلى ضمير الغائب المفرد إذا جعلت استفهاما كانت تصير

في الفرنسية الوسطى *il - aime « هل يحب ؟ »* (وتنطق : إيميل) وكانت

تستعمل على هذا النحو حتى أوائل القرن السابع عشر . وتحت تأثير جمع الغائب

الذي ينتهي فعله بحرف التاء *ils aiment « يحبون »* وتنطق إيلزيم ؛

ils - aiment « هل يحبون ؟ » وتنطق إيمتيل) أقحم حرف التاء في صيغة

المفرد عند الاستفهام لحفظها من الفناء الذي ينجم عن عدم التعبيرية . ومن ثم

جاءت *il - aime « إيمتيل »* التي هي نتيجة لخطوة أولى في التوسع . غير أن

الغائب مفردا وجمعا قد صار بهذه الوسيلة مميّزا في حالة الاستفهام بالنسبة للشخصين

الآخرين . فإن التاء لا توجد إلا في صيغة الاستفهام — إذ أن النطق في غيره *em* ايم

(*ils aiment, il aime*) دائماً في كلتا الحالتين — فصارت هذه التاء في الواقع

علامة للاستفهام حرمت منها الأشخاص الأخرى (*je - aime « هل أحب »* ،

nous - aimons « هل نحب » ، *tu - aimes « هل تحب »* ، *vous - aimez*

« هل تحبون » . وأصبح المفرد المتكلم (*je - aime*) في حالة نقص بين هذه

الأشخاص بسبب ظروف صوتية ، بل أصبح مبعدا في بعض الأحوال إبعاداً

واضحاً ، وذلك في مثل (*je - cours « هل أجرى ؟ »* و *je - lis « هل أقرأ ؟ »*

و *je - pars « هل أنطلق ؟ »* و *je - sers « هل أخدم ؟ »* ، الخ ؛ وتعرض

شخصان آخران ، هما *nous - aimons « هل نحب ؟ »* و *vous - aimez « هل*

تجبنون » للالتباس بصيغة الأمر من الفعل المطاوع ولذلك فقدنا جزءاً كبيراً من قيمتهما التعبيرية . وقد كان ذلك ربحاً لصيغة الشخص الثالث الاستفهامية التي أصبحت به واضحة مع قصرها ، ثم صار يستعمل أيضاً مع الفعل مسنداً إلى الظاهر مثل :
 Pierre aime - t - il ? « هل يميز يحب ؟ » ، يزيد على ذلك أن نهاية الجملة il . (إيل) صارت تنطق -i- (إي) تبعاً لعملية صوتية معتادة (قارن coustil نوع من النسيج » و nombril « سرة » و persil « بقدونس » [وفيها جميعاً لا تنطق اللام الأخيرة] ، فانقطعت بذلك الصلة التي تربطه بالضمير (il aime [إيليم] ، aime - ti ? [إيم تي] أو كان ذلك على الأقل في حالة ما إذا كان الفعل يبدأ بحرف حركة . وعلى ذلك صار يأخذ شيئاً فشيئاً قيمة عنصر مستقل أصبح خاصاً بمعنى الاستفهام . وأخيراً ساعد على انتشار ti (تي) الاستفهامية وأكد نجاحها الميل الطبيعي في اللغة الفرنسية لوصل الفعل بضمير الفاعل بعروة وثيقة .
 لذلك تقل الحالات التي يفصل فيها بينهما شيئاً فشيئاً : فبدلاً من أن يقال je le dis « أقوله » و tu le sais « تعرفه » [بالفصل بين الفعل والفاعل بضمير المفعول] يقال في لغة الكلام je dis ça « أقول ذلك » و tu sais ça « أنت تعرف ذلك » .
 وهكذا أصبحنا نتوقع اللحظة التي لا يفصل فيها بين الفعل وبين الضمائر : je « أنا » و tu « أنت » و il « هو » و nous « نحن » و vous « أنتم » و ils « هم » . ومن ثم صارت دلالة القلب [يعنى تقديم الفعل وتأخير المسند إليه] على الاستفهام تتناقص شيئاً فشيئاً . وأصبح العنصر ti (تي) Pierre, aime-ti ? « يميز ، أيحب ؟ » من أبسط العبارات وأنسبها في الدلالة على الاستفهام : فعممت في il aime-ti ? « هل يحب ؟ » ثم في : j'aime-ti ? « هل أحب ؟ » و tu aime-ti ? « هل تحب ؟ » و nous aimons-ti ? « هل نحب ؟ » و ces enfants s'aiment-ti ? « هؤلاء الأطفال ، هل يحب بعضهم بعضاً ؟ » دون تغيير في نظام الفاعل والفعل الذي تتمسك به اللغة تمسكاً قوياً .

فأداة الاستفهام ti (تي) تدين إذن في انتشارها إلى سلسلة من خطوات التوسع القياسي ، ساعدتها في كل واحدة منها ظروف خاصة . فأصبحت اليوم

رمزاً تجريدياً ذا صبغة عامة ؛ إذ أنه يطبق على أنواع الجملة الاستفهامية كلها دون تمييز . وذلك هو رمز الاستفهام الوحيد الذي كانت اللغة الفرنسية في حاجة إليه .

وقد رأينا كيف وصلت إلى خلقه وبأى قدر من المهارة المرنّة اللّحّة قد خلّقه . ولم يكن في الفرنسية تقاليد كتابية ، ولو لم تكن اللغة تتلقى وتكتب اليوم على نحو ما يفعل بلغة قوم متبررين ، ما أتيح لنا أن نرى الأداة *ti* تفصل عن الفعل الذي يسبقها . ولصرنا نكتب كلا من العبارتين : *j'aime - ti* « هل أحب » و *j'aime - ti pas* « ألسب أحب » في كلمة واحدة هكذا *Jemti* (جَمْتِي) و *Jemti pas* (جَمْتِيَا) ولاعتبرت أداة الاستفهام وكذلك أداة النفي عنصرى بناء أى لاحقتين على قدم المساواة مع اللواحق وعلامات الإعراب في الإغريقية واللاتينية . ولفقدنا كل وسيلة للكشف عن أصل *ti* (تى) أو *pa* (پَا) ؛ ولاعتبرناهما أداتين نحويتين مجردتين من كل معنى ذاتى :

وإمل الإعراب في الهندية الأوروبية والسامية إنما نشأ من إصاق عناصر مستقلة التكوين إلى الأصل ، وهى عناصر كانت تحوم حوله ثم التحمت به على مرور الزمن^(١) . ولكننا نجهل نقطة البدء التى صدرت عنها . ولعلنا من العبث أن نحاول البحث عن الصيغة والدلالة البدائيتين لعلامة الإسناد فى التكلم الجمع أو مفعول الأداة ، أو عن لاحقة الفعل الدال على الابتداء فالاستمرار أو الاسم المجرد . ولكن يمكن التأكيد بأن هذه العناصر التصريفية نتجت من امتداد قياسى لكلمات قديمة مستقلة ، بعد أن شوّهت تشويهاً قليلاً أو كثيراً ، ووزّرت إلى نخذ الاختصار على أداء دور الأدوات النحوية . فالنظم الصرفية لا تتجدد بغير هذه الوسيلة .

(١) أنظر خاصة هرت Hirt ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٧ ، ص ٣٦ وما يليها ؛ وكذلك هـ ، أورتى H. Oertel ، و ا ، ف ، موريس E. F. Morris : فى :

An examination of the theories regarding the nature and origin of Indo-European inflexion .

(رقم ٢٢ ، مجلد ١٦ ، ص ٦٣ — ١٢٢) .

الجزء الثالث

المفردات

الفصل الأول

طبيعة المفردات ومداهما (١)

لم ندرس فيما تقدم حتى الآن الكلمات من ناحية قيمتها المعنوية ، أى من ناحية المعنى الذى تعبر عنه مستقلة عن الدور الذى تلعبه فى الجملة . ومع أن دوال النسبة تكوّن مع دوال الماهية فى غالب الأحيان جسماً واحداً إلى حد يجعل تحليل الكلمة أمراً مستحيلاً (أنظر ص ١٢٢) ، فإن الصرف مستقل عن قيمة الكلمات المعنوية وقيمتها الصوتية على السواء . وما نسميه بالمفردات هو مجموع الكلمات فى إحدى اللغات باعتبار قيمتها المعنوية . فهذه النظم الثلاثة : نظام النطق ونظام الصيغ النحوية ونظام المفردات تستطيع أن تصوّر منفصلة كل منها عن الآخرين ، تحت تأثير أسباب مختلفة . وبعض اللغات تجدد مفرداتها دون أن تغير شيئاً من صوتياتها أو من نظامها الصرفي . فنجد مثلاً فى الأردية الأدبية (وهى فرع من الهندستانية) جملاً بأسرها ليس فيها من الهندية إلا النظام النحوي ، أما الكلمات فكلها فارسية . والعبر الأرمينيون يستعملون لغة أرمينية

(١) ك ، أ ، اردمان K. O. Erdmann ، ١٥٧ ؛ روزفادووسكي Rozwadowski ،

نطقاً ونحواً وإن كانت مفرداتها غريبة عن الأرمينية^(١). ذلك أن القالب النحوى الواحد يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة .

العلم الذى موضوعه دراسة المفردات يسمى الاشتقاق Etymologie^(٢) . وتنحصر فى أخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت ومتى وكيف صيغت والتقلبات التى مرت بها . فهو إذن علم تاريخى يحدد صيغة كل كلمة فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة مع التغيرات التى أصابتها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال . ومن ضياع الوقت أن نحاول البرهان على أهمية هذا العلم . فلم يأخذ العلماء فى تأسيس الصوتيات والصرف المقارنين إلا بفضل ماوصل إليه الاشتقاق من نتائج . والاشتقاق والصوتيات والصرف يسند بعضها بعضاً . فدامت القواعد التى يجرى عليها تنابع الأصوات والصيغ النحوية فى صورة الاشتقاق ، فإن هذا الاشتقاق الذى يطبقها تطبيقاً صحيحاً يقدم لعلم اللغة أجدى المساعدات .

ولكن الاشتقاق يعطى فكرة زائفة عن طبيعة المفردات ؛ لأن كل مايعنى به هو أن يبين كيف تكونت المفردات . والكلمات لا تستعمل فى واقع اللغة تبعاً لقيمتها التاريخية — فالعقل ينسى خطوات التطور المعنوى التى مرت بها ، ونقول ينساها إذا افترضنا أنه عرفها يوماً من الأيام . والكلمات دائماً قيمة حضورية actuelle ، يعنى أنه محدود بال لحظة التى تستعمل فيها ، ومفرد ، يعنى أنه خاص بالاستعمال الوقتى الذى تستعمل إياه^(٣) .

وإذا تصفحنا قاموساً اشتقاقياً كان أول مايلفت نظرنا بعد العدد الكبير من الكلمات التى لا يذكر لها أى اشتقاق جدير بالاعتبار ، إنما هى وفرة المعانى غير

(١) Finck فنك : Die Sprache der armenischen Zigeuner ، فى نشرات أكاديمية سانت بيترسبرج الدورى مجلد ٨ ، رقم ٥ (١٩٠٧) .

(٢) عن الاشتقاق أنظر مؤلفات الأستاذ أ. توماس . وراجع أيضاً تونيسن Thurneysen ، رقم ٢١٤ .

(٣) Bally بلى ، رقم ٤٥ صفحة ٢١ ، ٤٧ .

المنظرة التي توالى على الكلمات . فأسماء رتبنا العسكرية مثلاً من الكاپورال Caporal « الأمباشى » إلى الجنرال général « لواء » مرة بالأسرجن Sergeant « جاويش » فالأدجودنت adjudant « الصول » فاليتينانت lieutenant « الملازم » فالصاغ « اليوزباشى » Capitaine فالقومندان Commandant « البكباشى » تقدم لنا مجموعة من الأخطا المتنافرة ؛ وكذلك الحال فى جميع التسميات التي نحرار فى تفسيرها على ضوء الاشتقاق وحده . فالاستعمال يخلع على كل كلمة قيمة محدودة دون أن يدخل فى حسابها المعنى الذى كان لها فى الماضى . فالماريشال maréchal لقب أكبر مقام فى نظامنا الحربى ، جاءت من خادم الأسطبل (فى الألمانية القديمة marah — scalc ، ومنها mariscalcus فى لاتينية القرون الوسطى) ، ولذلك يرى العالم الاشتقاق أن ماريشال فرنسا maréchal de France والماريشال فرانس Maréchal ferrant « بيطار » يحملان اسماً واحداً .

من محض المصادفات أن كانت مجموعة واحدة بعينها من الأصوات تدل فى لغة واحدة على العملية الحسابية (calcul) وعلى الحصة الكلوية (calcul) إذ أنهما يرجعان من ناحية الاشتقاق إلى كلمة واحدة . وعلى العكس من ذلك يرى العالم اشتقاقى كلمتين مختلفتين فى الجملتين il loue une maison « يؤجر بيتاً » و il loue la vertu « يمتدح الفضيلة » . [مع أن الفعل المستعمل فى الجملة الراهنة فعل واحد يستعمل فى كلا المعنيين louer] ، أو فى il pratique le vol plané « يمارس السرقة بالخطف » ، و le vol à la tire « يمارس الطيران الشراعى » . [الاسم المستعمل فى المعنيين سرقة وطيران واحد هو voler] . ولكنها مصادفة كبيرة أيضاً تلك التي جمعت فى الفرنسية فى مجموعة واحدة بعينها من الأصوات معنى الكلمة اللاتينية locare « يؤجر » والكلمة اللاتينية أيضاً laudare « يمتدح » وفكرة التلصص مع فكرة الجولان فى الهواء أو فكرة التفكير الحسابى وفكرة الأحجار تتكوّن فى داخل الكلمتين ، والتكلم لا يفرق بين هذه الحالات الثلاث المتقدمة بعضها وبعض . فاشترك اللفظ

في أكثر من معنى l'homonymie يوجد مستقلاً عما كان بين الكلمات من صلات تاريخية .

أكثر من ذلك أننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما . إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياق النص^(١) . أما المعاني الأخرى جميعها فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقاً . فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول « الخياط يقصّ الثوب » أو « الخبر الذي يقصّه الغلام صحيف » أو « البدوي خير من يقص الأثر » . وكذلك الحال عندما أقول « لا تصاحب الأنسة س : إنها بنت » أو « السيدة س ولدت مولوداً ، إنه بنت » أو « أقدم لك بنتى » ، فإنني أستعمل في الواقع ثلاث كلمات لا يربطها بعضها ببعض أى رباط ، لا في ذهن المتكلم ولا في ذهن السامع .

في التسليم بأن للكلمات معنى أساسياً ومعاني ثانوية صادرة عن الأول إثارة لسألة وجهه النظر التاريخية . ووجهه النظر التاريخية تلك لاقية لها هنا . ربما رأى الشخص الذي يشمل اللغة بأسرها في تطورها واتساعها بنظرة واحدة أن الريشة التي من حديد جاءت من ريشة الأوزة ، فهي عنده كلمة واحدة أخذت دالتين مختلفتين على مرور الزمن . لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعاني أن يضع تحت كلمة ريشة ، معنى الريشة التي من « حديد » بعد معنى ريشة (الأوزة) . ولكن الفرنسي الذي يتكلم لغته اليوم ، لا يرى في هذين الاستعمالين في الواقع إلا كلمتين مختلفتين . ولا يوجد شخص واحد يحاول أن يشكو من الغموض عند سماعه جملتين من قبيل « يعيش من كد ريشته » و « اجتث له ريشة » . وكل واحد يفهم دون تردد أن الكلام في الجملة الأولى عن أحد الكتاب وفي الثانية عن أحد الطيور . فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى . وفي اللغة كلمتان من « ريشة » تقابلان المعنيين السابقين كما يوجد

(١) فارت ما يقول بولان Paulhan فيما يقتبسه عنه ب . لروا B. Leroy ،

أربع كلمات من « سو so » (وإن اختلفت في الكتابة) في الجمل الأربعة الآتية :
 ils ont apposé « لقد حطوا دلاءهم »
 la nature ne fait pas de sauts و « وضعوا توقيعاتهم »
 leurs sceaux « الطبيعة لا تقوم بوثبات »
 ces enfants sont des sots « هؤلاء الأطفال
 بلهاء ^(١) . »

قد يعترض معترض فيقول بأنه قد مررت لحظة كان يحسّ خلالها بأن كلمة ريشة استعارة . ولكن هذه اللحظة لم تطل ، فأية كلمة في اللغة الجارية ليس لها إلا معنى واحد في الوقت الواحد . إذ لما كانت ريشة الأبرة تستعمل في الكتابة ، كان الذي قال « آخذ ريشتي لأكتب كلمة » قد استعمل كلمة ريشة بمعنى أداة للكتابة ، ولم يقصد استعمال استعارة ؛ وسامعه لم يقدر غير هذا التقدير . الاستعارة تشبيه مختزل ؛ تقديرها يحتاج إلى مجهود يستطيع الإنسان أن يسلم به لمؤلف يقرؤه عندما يتوفر له الوقت ، ولكنه في المحادثة لا يملك الوقت الكافي لهذا العمل . فاللغة في حاجة إلى تحديد ووضوح . وأكثر ما يجب تجنبه عند الكلام إنما هو اللبس . والجناس في حد ذاته مسلك غير طبيعي ؛ فهو عمل فني يتطلب انتباهاً خاصاً كسكل إنتاج فني . وأولئك الذين يقبلون على هذا النوع من الممارسة يعرفون جيداً ضرورة تحضير الجو وإيقاظ عقل السامع ليكون على بينة مما يجري فيقف بالمرصاد لاقتناص النكتة العقلية . فلو كانت الكلمة تمثل دائماً في الكلام بكل مغانيها الممكنة — لأحسّ السامع في المحادثة على كل حال ذلك الأثر المضايق الذي تحدثه في نفسه سلسلة من الجناسات .

لاشك أن هذه النتيجة تصدم المتشدين الذين يعلقون أهمية كبيرة على اختيار الاستعارات ، والذين يقولون بإقصاء كل تلك التي لا تأتلف ائتلافاً تاماً مع سياق النص ، وقد يعترضون بأن فن الأسلوب لم يوجد عبثاً : نعم ، نحن نوافق أنه ليس من التجاوز في العناية بالأسلوب أن تعاب هذه الاستعارات المتنافرة التي كثيراً

(١) الكلمات التي تدل على دلو وتوقيع ووثبة وأبله واحدة في نطقها ولكنها مختلفة في رسمها .

ما تثقل الخطب الرسمية والمقالات التي تنشر في صغار الصحف . فجعل « عربية الدولة تسبح على بركان » أو وصف فنانة مبتدئة بأنها « كوكب من العشب ، يعني [رغم حداثة] بأنامل فنان ناضج » ليس من العناية بالأسلوب في شيء . وكل اللغات تحتوى على عبارات عوجاء من هذا القبيل تذكر أحياناً للتفكك وإثارة الضحك . وكلنا يعرف الجملة الألمانية *der Zahn der Zeit, der Schon so manche Thräne getrocknet hat, wird auch über diese Wunde Gras wachsen lassen* وترجمتها الحرفية « ناب الدهر الذي كثيراً ما جفف من دموع ، سيجعل العشب ينمو على هذا الجرح أيضاً » . لاشك أن مثل هذه الجمل تغير الضحك ؛ ولكنها لا تضحك إلا بعد تفكير ؛ أما في حرارة الارتجال فإن وجه الإضحاك فيها لا يبدو دائماً . وخطؤها أنها تجمع بين كلمات لا تألف إذا كانت مستعملة مجازياً . ولكن من يدخلها في كلامه يستطيع أن يقول في الدفاع عن نفسه بأنه لم يسع إلى عمل استعارات ، وإنما أراد أن يستعمل عبارات مصنوعة *stylisées* في الحال . والواقع أن كلمة واحدة منها تليق بالغرض الذي وضعت له إذا أخذت على حدة . ولكن تراكمها في مكان واحد هو الذي يدعو إلى الضحك منها^(١) .

كل من معرض للوقوع في أخطاء من هذا القبيل إذا لم يراقب نفسه . فنجده الكثير منها عند الخطباء الذين يرتجلون . بل إن الكتاب ذوى المواهب ليسوا بمنجى عن الوقوع فيها . فقد أحصى الألمان الكثير منها في شعر شيلر . ولكنها لا تعاب حقاً إلا عند ما يكرر منها عدد كبير أو عندما تثير صوراً مغرقة في إثارة الضحك كما في الأمثلة السالفة . غير أن المتشددين يعميئون على كل العبارات التي فيها استعارة غير مؤتلفة أو مرادة بين كلمات لا تتزواج . ومع ذلك إذا سمعنا هذه الأشياء من أفواه عامة الشعب ، لا ينبغي لنا أن نعجل بالاحتكام إلى محكمة العقل ضدها على أنها من سوء الاستعمال . فإن عدداً كبيراً من العبارات الجارية التي تميزها القواميس وتستعملها خير الكتاب قد نتج من استعمال مجازية ممسوخة . أليس من الخرق أن يقال : يملأ غرضاً (يعني « يحقق غرضاً » أو

خربت ثوبها بمعنى « abimer ») أو يحتضن صناعة أو يتمتع بصحة سيئة ؛
فالتشددون على حق حين يرفضون هذه العبارات . ولكن من الخرق أيضاً أن
نتكلم عن مرساة سكة الحديد débarcadère de chemin de fer (حيث
لا ينزل من القطار في قارب ، والمرساة débarcadeir أصلها للخشبة التي تصل بين
السفينة والشاطئ) أو عن الوصول إلى بلدة كذا arriver (حيث لا يوجد
شاطئ لعدم وجود نهر ، وأصل معنى arriver الوصول إلى rive أى
الشاطئ) أو عن الاستيائك بفرشة شعر أو عن اعتناق مبدأ من المبادئ ولا دخل
فيه للعنق . ومع ذلك فهذه كلها من خير عبارات اللغة ، لا نحس فيها شيئاً مما
يخالف المنطق ؛ وقد يعترينا الدهش حين نعلم أن بعض المتشددين من أعضاء
الأكاديمية كانوا في القرن السابع عشر يخطئون عبارة « أغلق الباب » مدّعين
أنه يجب القول « ادفع الباب » أو « أغلق الغرفة » (١) .

كذلك لا نحس خبثاً — اللهم إلا إذا قصدنا إلى ذلك قصداً — في مسميات
مثل « براغيت الست » أو « فسية العفريت » أو « حظيرة الحزب » ؛ لأن أصل
الاستعارة قد اختفى من الاستعمال الحالى ؛ إذ صارت أسماء تدل على نوع من الحلوى ،
أو على ظاهرة جوية أو على مستقر لجماعة ما وبالتالي على مبادئها . كما في وسعنا أن
نقول « نقرن زيدا بعمره » دون أن نسيء إليهما ؛ لأن قيمة الكلمة الاشتقاقية
قد اختفت .

الذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات التي ناقشناها إنما هو السياق ، إذ أن
الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً .
والسياق هو الذى يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة
التي في وسعها أن تدل عليها ؛ والسياق أيضاً هو الذى يخلص الكلمة من الدلالات
الماضية التي تدعها الذاكرة تراكم عليها ، وهو الذى يخلق لها قيمة «حضورية» .

(١) سانت افرمن Comédie des Académiciens .: Saint — Evremond

ولكن الكلمة بكل المعاني الكامنة توجد في الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التي تستعمل فيها مستعمدة للخروج والتشكل بحسب الظروف التي تدعوها .

تنوع الاستعمالات التي تصلح لها الكلمة لا تخضع عليها قيمة عامة . إذ لا يوجد بين القيم المختلفة التي تصلح لها الكلمة قيمة وسطى . بل كل واحدة منها موجودة بأسرها ، لا تنتظر لتعزز وجودها إلا إشارة واحدة . وإذا كان هناك شيء من التردد ، فإن ذلك التردد لا يرجع إلى القيمة نفسها بل إلى الظروف التي تتدخل فيها . في ذهني مثلاً كلمة « بنت » fille . فمعانيها التي أشرنا إليها سابقاً لا يختلط بعضها ببعض ؛ بل تبقى كل منها تحت تصرف ساعة أحتاج إليها . ومع ذلك فليس عندي في ذهني إلا كلمة واحدة هي fille « بنت » .

هذه الكلمة نفسها ليست منعزلة ، بل مسجلة في ذهني مع كل حالات السياق التي سبق أن أدخلتها فيها ، ومع كل الارتباطات التي تصلح للاشتراك فيها : « بنات وبنين » ، « بنت طيبة » ، « بنت أم » ، « بنات اللجأ » ، الخ . فأراني أربطها في آن واحد بعدة عائلات من الكلمات . وهي تثير في نفسي عدداً من التصورات يكبر أو يصغر تبعاً لقوة تخيلتي ، وكل هذه التصورات تشع منها في جميع الجهات .

ليس في الذهن كلمة واحدة منعزلة . فالذهن يميل دائماً إلى جمع الكلمات ، إلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها . والكلمات تتشبه دائماً بعائلة لغوية بواسطة دال المعنى أو دوال النسبة التي تميزها ، أو بواسطة الأصوات اللغوية التي تتركب منها لا أكثر من ذلك . فنحن نشعر بأن الكلمات : إعطاء ، عطية ، عطاء ، مُعْطٍ ، مُعْطًى . . . الخ ، تكون عائلة قائمة بذاتها تتميز بعنصر مشترك ، هو الأصل « ع ط ي » مهما تنوعت معاني المشتقات . كذلك الكلمات bonasse « مصطفاوى » و blondasse « شقراوى » و cocasse « مضحكاوى » و jaunasse « أصفراوى » و dégueulasse « مقرفاوى » (وهذه الأخيرة عريقة في العامية) زانا تربطها بعضها ببعض بواسطة اللاحقة asse (آس) التي تدل على السخرية . ولكن من الكلمات إعطاء ، معطٍ و مُعْطًى الخ تكون

مجموعات أخرى : فإعطاء ترتبط بإجلال وإعظام ... الخ ومُعْط يرتبط بها مُعْطٍ ومُزِر ... الخ ومُعْطِي ترتبط بها كلمات مثل مُرضِي ومُلْقى ... الخ . فهناك إذن تداخل بين المجموعات .

اجتماع الكلمات تبعاً لأصواتها يؤدي دوراً هاماً فيما يسمى الاشتقاق الشعبي (أنظر ص ٧٩) فالذهن يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجى ، وأحياناً على عكس ما يقتضى المعنى ، بل على عكس ما يقتضى العقل السليم . وقد تسوق مشابهة غامضة بين كلمة وكلمة أخرى أشيع استعمالاً أو أكثر شهرة إلى التقريب بينهما ، ومن هنا تنشأ بعض التشويهِات الغريبة : فالتسمية اللاتينية *culcita puncta* ومعناها الجرفى « ملحفة ذات غرز » *couverture piquée* صارت فى الفرنسية *courte pointe* « الغرزة القصيرة » بدلا من *coulte pointe* « الغرزة المشكوة » مع أن فكرة القصر لا صلة بينها وبين تعريف المادة التى نحن بصددِها . والرقص الإنجليزى المسمى *countrydance* « رقص الريف » مع أنه منقول من فرنسا ، دخل اسمه فى اللغة الفرنسية من جديد بصيغة *contredanse* « عكس الرقص » وهى عبارة لامعنى لها . ونحن نعرف الصيغ الظرفية التى تأخذها أسماء الأمراض والأدواء الفنية فى أفواه العامة ، فهى كنز لا يفنى من التسلية للمشتغلين بتسجيل الطرائف . وإذا كانت عبارة *la liqueur à pioncer* « خمرة النوم » التى تقال بدلا من *liqueur opiacée* « خمرة بالأفيون » وهى عبارة لذيذة موفقة المعنى ، فإنه لا يوجد أى مبرر لإطلاق *lait d'ànon* « ليدانون » « لبن الحمار » على الدواء المسمى *Laudanum* .

وقد ذكرت حالة أطلق فيها اسم *chantepleur* « غناء البكاء » على نوع ما من الأفاعى لاعلاقة له مطلقاً بالبكاء ولا بالغناء حتى أصبح اسمه فى تغيراته المتتابعة من خير المثل للاشتقاق الشعبى الذى ليس للمعنى فيه أية أهمية . وأسماء الأعلام (ونعتبر أسماء الأعلام هنا بمعناها الأوسع أنظر ما يلى فى آخر هذا الفصل) مسرحاً خصيصاً لمثل هذه التشويهِات . ومن أمتنع هذه التشويهِات ذلك الذى جعل من *pipe de Kummer* « غليوم كومير » « اسم صانعه *Kummer* » *pipe d'écume de mer* « غليوم

زبد البحر» (ومن تسميته بالألمانية Meerschäum ، وجاء من التسمية الإيطالية pomi dei Mori (mala aethiopica) التعبير الفرنسي^١ pommes d'amour « تفاح الحب » (ومن ثم love-apples في الإنجليزية و Liebesapfel في الألمانية) كما جاء من التسمية الإنجليزية « Aunt sallay العمة سالى ، اسم للعبة) . التسمية الفرنسية âne salé « الحمار المالح » ، وجاء من الطليانية girasole (اسم نوع من الخضروات) الكلمة الإنجليزية Jerusalem اسماً لهذا النوع من الخضروات ، وصحّف اسم جبل الهيمنت Hymette في اليونان إلى Il Matto (« المجنون في لغة البندقية في القرون الوسطى ») ومنها جاءت التسمية المتداولة الآن في الإيطالية السويسرية Trello-Vouno « جبل المجنون » ! هذه كلها أمثلة بينة من ترابط الكلمات الذى يحصل فى الذهن . فحدوثه بصورة غير شعورية عادة لا يمنع من أنه بالغ الأثر .

وإذا استقصينا نتأج هذه التغيرات خرجنا من الميدان اللغوى إلى ميدان الفلكلور : فكم من الأساطير ولدت من أحداث لغوية كتلك التى أشرنا إليها هنا^(١) ! فبالقرب من جرينوبل قلعة تسمى سان قران Saint-Vrain حرّف اسمها إلى سن ثنان Sans-Venin « دون سم » فنسجت حولها أسطورة منشؤها هذا الاشتقاق الشعبي . فالاسم وهو مطية الأفكار ، يؤدى بتلاعب التشابه والجرس إلى مقاربات تقرر بالعقل . هذه أشياء يرفضها العقل السليم ، ينظر فيها الإنسان فيظنها من خيال الأطفال ولكنها تأخذ سبيل الحقيقة . لذلك ذهب البعض إلى أن الأساطير إنما نشأت من مرض فى اللغة ، وقد نجح فى البرهان على بعض الحالات^(٢) . ولكن لقصص الأولياء أيضاً نصيبها من مسئولية ذلك فى غالب الأحيان : فكثير من القديسين المعروفين بشفاء المرضى فى ريفنا يدينون ببركاتهم إلى أنواع من الجناس ساعدت عليها صيغ أسمائهم . كذلك يطفح الطب الشعبي

(١) مكس ملر ، رقم ١٠٤ ، مجلد ٢ ، ص ٩١ — ٩٢ ، ص ٣١٧ ، نيروب

Nyrop ، رقم ١٤٦ ، ص ٢٢٢ .

(٢) بريال ، رقم ٥٤ .

بالوصفات الناشئة عن اللعب بالألفاظ ؛ فترابط الأفكار يخلق أدوية من نوع الأمراض *homéo-pathiques* ؛ ذلك أن الكلمات لها دائماً قيمة رمزية إن قليلاً وإن كثيراً^(١) .

أشرنا فيما سبق إلى ما بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية من علاقات ؛ فكلماتها تحتلطان في الاستعمال الذى يستخدم الكلام . ولكن هذا المزج يكون على أثبت حال فى ميدان المفردات منه فى أى ميدان آخر . فالكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدى الذى تحددها به القواميس . إذ يتأرجح حول المعنى المنطقى لكل كلمة جو عاطفى يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالها . بل حتى عند أقل الناس خيالاً وأبعدهم عن التأثر يختلط بالمعنى التجريدى العام الذى تبين عنه الكلمة ، ألوان خاصة هى التى تكون قيمتها التعبيرية .

إذا أردنا تحليل هذه القيمة اكتشفنا فيها خصائص متنوعة وأصولاً عديدة . فهي تنشأ أولاً من اتفاق يتكون بين معنى الكلمة والأصوات التى تتألف منها . نعم أغلب الظن أنه لا يوجد اليوم من يرى رأى الرئيس دى بروسى *de Brosses* أو رأى كوردى جيلان *Court de Gébelin* من أن الكلمات تكونت فى الأصل من أصوات مساوية للأفكار وأن *fleuve* « النهر » مثلاً يدين باسمه إلى أن الحرفين *fl* اللذين يحتويان حرفاً مائماً يوقظان الإحساس بشيء « يسيل » إذ لا يوجد أى تطابق مبدئى بين الصوت والمعنى ؛ فالمفردات لم تخرج من مجموعة من أسماء الأصوات . ولا نظن أحداً يضم صوته إلى مقولة رجل الكنيسة الذى يزعم أن الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء ، كما يقول سان توماس الأكويني :
« *nomina debent naturis rerum congruere* »

ولكن إذا كان هذا الاتفاق فرضاً لا قيمة له فى تفسير بناء المفردات ، فإن هذا الفرض يحتفظ بقيمته كاملة من حيث أنه يقرر الطريقة التى يجرى عليها

(١) عن القيمة الرمزية للكلمات أنظر مير *Meyer* ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٦ .

عقلنا^(١) . فمن الحق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الحرفين fl و مجتمعين وبين فكرة السيالان إذ أن الكلمات ruisseau « مجري » و rivière « جدول » و torrent « سَيْلٌ » التي تعبر أيضاً عن فكرة السيالان بقدر ما تعبر عنها كلمة fleuve « نهر » لا تحتوى على مثل هذين الصوتين ، وأن كلمة fleur « زهرة » التي لا تكاد تتكون إلا من هذين الحرفين أيضاً لا توقظ في الذهن إطلاقاً فكرة السيالان . ولكن من الحق أن كلمة fleuve « نهر » معبرة لأن الأصوات التي تكونها صالحة تمام الصلاحية لإثارة الصورة التي تمثلها .

فالواقع أن هناك بين الأصوات ومركبات الأصوات فروقاً في القدرة التعبيرية . وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها onomatopées ؛ فالكلمة الألمانية Kladderadatsch « كلادراداتش » تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شظايا ؛ والكلمة الفرنسية patapouf « پاتاپوف » تمثل كيساً محشواً بالملابس يسقط على درج السلم ، وكلمة pan « پَن » تثير الصوت الجاف الذي يصدر من طلقة مسدس ، و poum « پوم » ذلك الصدى الممتد الذي ينبعث من طلقة مدفع . وكل الموسيقيون يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الأجاسيس المختلفة إن قليلاً وإن كثيراً ؛ فهذا السلم أليق من غيره ببساطة الحقول ، وذلك بالعدوبة الرقاقة اللذيذة ، وذلك بمجهود الرجولة الصارم . وفطرة المؤلف تجعله يختار في كل حالة النغمة اللائقة ، لذلك كان من الحق أن الانتقال بالقطعة من نغمة إلى نغمة يشوّه طابعها في بعض الأحيان . ولكن لا يستطيع إنسان أن يقرر أن المؤلف العبقرى ليس في وسعه أن يعبر عن العاطفة التي يحسها بأية نغمة من النغمات . كذلك فن الشاعر يستطيع أن يحمل أصوات الكلمات كل تعبيرية تروقه : « الكلمة الخالقة للفكرة تصير بعناصرها الصوتية خالقة للبيت من الشعر وتخضع الكلمات الثانوية التي

(١) جرامون ، Onomatopées et mots expressifs : Grammont ، في رقم

تصبحها لتبعية نغمية » (بك دى فوكيير Becq de Fouquières) . فالشاعر في وسعه أن يحدث تأثيرات غير منتظرة بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جديرة بمثل هذا الاستعمال ، وذلك بواسطة ألوان من الإعداد والمقابلة محكمة التنسيق . كل كلمة أيا كانت توظف دائماً في الذهن صورة ما بهيجة أو حزينة ، رضية أو كريمة ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذى تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكون عنه فكرة في الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم . فإذا ما قدمت له هذا المجهول ، أجابك على الفور « أهو هذا ! ما كنت أظنه هكذا » مثل هذا الشيء نفسه يحصل بالنسبة لكلمات اللغة . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات فجائية منبعثة من الاسم الذى يدل عليها .

إننا عند ما نقيم ائتلافاً بين الاسم والشيء ، نسير على عادة نفسية قديمة قدم العالم نفسه . فقد ظل الاسم زمناً طويلاً يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الأشياء ، وليس فقط علامة قد توضع عليها : كان يشترك معها في خصائصها . فلم تكن العلامة تُمَيِّز عن الشيء . فعبارة nomen omen تذكرنا بهذا الرأى العتيق ، ونجد منه آثاراً في تحريم المفردات وفي التشويهاب الناجمة من هذا التحريم . في ذلك الحين كان للاسم أهمية بالغة . فترى في سفر التكوين تلك الأهمية البالغة التي تعلق على أسماء إبراهيم وسارة وإسحق . وفي بلاد الإغريق كان أجاكس Ajax المنكود الحظ يحمل في اسمه رمز مقدوره (سوفوكل) ، أجاكس Ajax ، بيت ٤٣٠) .

واسم أوليس Ulysse يحمل في طياته بعض سمات أخلاق جدّه (انظر الأودسنة ، كتاب ١٩ ، بيت ٤٠٦) . فالكلمات إذن لم تكن مجرد علامات لا خطر لها ؛ بل كانت لها قيمة سحرية ، هي التي تفسر قوة الرُّقى واللعنات . والكلمة المكتوبة كانت بطبيعة الحال أبْلغ أثراً من الكلمة الملفوظة ؛ لذلك سنعود إلى الكلام عن قوة الكلمات السحرية في الفصل الخاص بالكتابة . ولكن الكلمة المجردة كانت كنفيلة بإحداث آثار

جسام ولا سيما إذا كانت مسلوكة في بيت من الشعر ، حيث تثبت الكلمات وتنظم بواسطة الوزن ، أليس فرجيل Virgile هو الذى يقول : « إنه يمكن إنزال القمر من السماء بجملته منظومة » Carmina uel cœlo possunt deducere lunam . (٨ ، بيت ٦٩) .

وكانت تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتلخص فى الاسم la satire « الهجاء » : هذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا ، نحن المتحضرين ، غير فكرة تمرين أدبى عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه على كل حال لا يملك خيراً للإنسان . غير أن الهجاء فى وقت ما كان يتقمصه ساحر ، وكان الهجاء لعنة فادحة تصيب من يوجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك Archiloke من نتائج . فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقي اليأس فى قلب والد معشوقته وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقسى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها . ورواة هذه القصة يحكونها لنا على أنها أسطورة من الأساطير ، تشيد بموهبة أرشيلوك وإن لم تشد بخلقه . ولكن ليس من العدل فى شيء أن نأخذها على أنها أسطورة ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها . فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على ليكبيس Lycambès ونيوبوليه Néobulé ؛ إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم إلا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . أما فى الأصل فكنا شيئاً واحداً ، وقد ظل الناس فى كثير من الأقطار حيناً طويلاً لا يميزون بينهما . فى جالية اسكتلندة يطلق على القضاء حتى يومنا هذا كلمة ortha المنقولة عن الكلمة اللاتينية orationem منذ عهد قديم ، ويقال عن الساحرة tha faaal aice « لها كلمة » ، وذلك إشارة إلى قوتها (١) .

فالواقع أن معرفة الإنسان للأشياء بأسمائها إمساك لها فى قبضته ؛ وإذن فلم المفردات علامة القوة . لذلك كان سحرة الأثاردافيدا المتطبيبون يقولون فى رقام : « أيتها الهمي ! لن تفلتى منى ؛ فإني أعرفك باسمك ! » والأمر الذى يوجه إلى

(١) ج . هندرسن G. Henderson : بقايا من الاعتقاد عند الكلتين : (١٩١١) ،

الداء ليفارق المريض أبلغ دلالة من ذلك . ففي معرفة اسم المرض شفاء من نصفه ، ولا ينبغي لنا أن نسخر من هذه المعتقدات البدائية ؛ فإنها لا تزال سارية حتى يومنا هذا ، إذ لازلنا نعتقد في أهمية الألفاظ التي تعبر عن تشخيص الأمراض . « عندى ألم شديد في الرأس يادكتور . فيجيب الطبيب : عندك Céphalalgie « صداع » أو إنى سىء الهضم ياسيدى الطبيب ، فيجيب هذا الأخير : عندك dyspepsie « عسر هضم » . مثل هذه المحاوراة الجديرة بإحدى روايات مولير تتكرر كل يوم في عيادات الأطباء . قد يقال بأن الاسم الفنى يحدد المرض بأكثر مما يفعله الاسم العادى وأنه يدل على مجموعة أعراض معينة وأن « الصداع » ليس مرادفاً لوجع الرأس وعسر الهضم ليس مرادفاً لسوء في الهضم . ولكن الواقع أن الطبيب لا يفعل أكثر من أن يضع كلمة معممة مكان كلمة عادية مبتذلة يفهمها هؤلاء المرضى جميعاً ؛ والمرضى يشعرون بالارتياح حينما يعلمون بأن رجل الطب قد عرف الداء الخفى الذى يشكون منه ، عرفه باسمه .

إنها علاقات قياسية ، تلك العلاقات التى تتقابل وتتقاطع حول الكلمات ، وهى التى تقوم بين الأصوات والأفكار والأشياء ؛ هذه هى النتائج التى يتركها فى المفردات عمل العقل . وإذن فالكلمة التى تطفو فى الشعور لا تكون كلمة منعزلة . فإنها متى مثلت أمامنا ، ولوفى صفة واحدة منعزلة من صفاتها مع بقاء صفاتها الأخرى فى الظلام ، جرت وراءها جحفاً من المعانى والعواطف التى ترتبط بها بعرى دقيقة على استعداد دائم للكشف عن نفسها . فالكلمات التى نختارها فى ذهننا تشارك فى حياتنا العقلية والعاطفية كلها .

لذلك ربما كان من الممتع معرفة مقدارها (١) .
بعض اللغويين طرحوا هذا السؤال ، وحاولوا أن يجيبوا عنه بالأرقام . فزعم مكس ملر مثلاً استناداً على شهادة قسيس فى إحدى القرى أن مجموع الكلمات التى يستعملها فلاح إنجليزى أى لا يتجاوز ثلاثمائة كلمة . وآخرون لم يعدوا أن يحتاجوا

(١) انظر مكس ملر : رقم ١٠٣ ؛ ص ٢٨٧ وما يليها .

بمفردات شكسبير التي تبلغ ١٥٠٠٠ كلمة عند بعضهم و ٢٤٠٠٠ عند البعض الآخر . ويقال إن الكلمات التي استعملها ملتن Milton تتراوح بين ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ كلمة . وأن قصائد هوميروس تحتوي على حوالي ٩٠٠٠ كلمة والعهد القديم على ٥٦٤٢ كلمة والعهد الجديد ٤٨٠٠ كلمة . وهذه أرقام لا تدل على شيء ذي خطر . إذ يجب أولاً وقبل كل شيء أن نقصى المؤلفات الأدبية من حسابنا . طبعاً نستطيع أن نعرف على وجه الدقة عدد الكلمات التي تؤلف الإلياذة والأوديسة أو مسرحيات شكسبير أوراسين . ولكن من العبث أن نزعم أننا بذلك نحدد مفردات هوميرو أو شكسبير أوراسين . فمن الكتاب المبرزين من يضيّقون دائرة مفرداتهم عن قصد : لذلك كان من غير الحق أن نحكم بمآلئ راسين على سعة لغتنا كما يكون من غير الحق أن نحصى عدد سكان فرنسا بعدد النخبة المختارة من رجالها . ولكن لغة الكاتب على وجه العموم تزداد ازدياداً صناعياً بعدد من الكلمات يقتنصها مصادفة من بعض مقابلاته أو من البحث في الكتب ، وذلك إذ لم يخترعها اختراعاً . فهل لنا أن نعد من مفردات فكتور هوجو كلمة Jérimadeth الشهيرة التي ليست إلا « مسخرة » ، وكثيراً غيرها من أسماء الأعلام التي وإن كانت واقعية فليس لها في دماغ الشاعر، إلا وجود عرضي زائل . وإذا غضضنا النظر عن أسماء الأعلام ، فكم من كلمات مشتركة استخرجها الشاعر من القاموس ولم تكن بالنسبة إليه إلا نبعاً عرضياً مؤقتاً . فينبغي ألا نخلط بين مفردات الكاتب وبين قاموس الكلمات المستعملة في مؤلفاته . فمثل هذا القاموس يعدّ خليطاً دائماً : فيه كلمات السادة تجاورها كلمات السوق والمصطلحات الفنية تجاور ألفاظ الحياة اليومية . في كل قاموس أنواع عديدة من المفردات يختلط بعضها ببعض إذ تضاف إلى مفردات الكاتب الخاصة به والتي يستعملها في كلامه المعتاد ، أنواع أخرى من المفردات منها الحوشي والعلمي والعلمي وهي التي تمد أسلوبه بالثراء وتجعل له قيمته في غالب الأحيان .

لا يعرف إنسان مقدار مفرداته ، ولا توجد أية طريقة لتقديرها . إذ لا يكفي أن نستعرض كلمات القاموس كلمة كلمة لنرى الفكرة التي تثيرها في ذهننا ،

إذا كانت تشير ففكرة ما . إذ أننا في مثل هذه الحال نضع أنفسنا في ظروف مخالفة للواقع كل المخالفة . فالكلمات لا تصف في ذهننا كما تصف في أعمدة الكتاب . ولا يتأتى لنا أن نحيل نظرنا في متابعتها وأن نستعرضها كما يستعرض القائد الجند في صفوفهم . ولا نفرف بالضبط من أى مستقر يخرجها نشاطنا العقلي ليسلكها في الجمل وليصحبها كاملة الإعداد في أعضائه الصوتية . فالكلمة لا توجد منعزلة في الذهن إطلاقاً بل تكون جزءاً من مجموعة ذات امتداد ما نستعير منها قيمتها . ولكن تكون المجاميع يرجع في نفس الوقت إلى علل نحوية أو سيكولوجية أو تاريخية أو اجتماعية مما يجعل من العبث كل محاولة لإحصاء المفردات .

إحصاء المفردات ولو من وجهة نحوية خالصة ، يعد أمراً متعذراً . فقد بينا مقدار العسر الذي يعترضنا في تعريف الكلمة ، ومقدار الصعوبة التي نلاقها غالب الأحيان في تحليل عناصرها . بالطبع ينبغي لنا عند تعداد المفردات أن نقصى دوال النسبة ؛ ولكن هناك كلمات كثيرة ليست إلا دوال نسبة ، كما أن من دوال النسبة ما يعتبر كلمات . فالنفي مثلاً أكثر من مجرد لاحقة تشير إلى جنس أ : إلى وظيفة نحوية ؛ فإذا اعتبرناه من دوال النسبة بخسناه حقه من غير وجه . ومع ذلك فالنفي لا يعبر عنه في كثير من اللغات بكلمة منعزلة مستقلة : فعندما تقول الإيرلندية في نفي domelim « آ كل » nitoimelim « لا آ كل » وتقول اللتوانية في نفي neszu « أحمل » neneszu « لا أحمل » لا نرى أن ندخل في اعتبارنا في كلتا الحالتين إلا كلمة واحدة ، ولكنها كلمة تحتوى على دال نسبة منفي .

عدد الكلمات لا يمكن أن يحدد نحويًا بفضل فصائل اللواحق ، فقد استطعنا في الفرنسية ، حيث اللاحقة eur — بقيت حية ، أن نأخذ من promener « التزّه » promeneur « متزّه » ومن marcher « المشى » marcheur « مشّاء » ومن trotter « العدو » trotteur « عدّاء » . ومن ثمّ لا نهتم بأن تكون كلمة galopeur « عدّاء » موجودة أو غير موجودة ؛ لأننا إذا

(م = ١٦)

احتجنا إلى استعمالها فهمنا محدثنا على الفور ، إذ أن العناصر التي تكونها ليست غريبة عليه . فحتى لو لم توجد الكلمة في القاموس ، وجب عدها بين كلمات اللغة الفرنسية ، إذ أنها توجد بالقوة في ذهن الفرنسيين جميعاً . إذن فهناك عدد من الكلمات التي لا أشعر بها حالياً والتي لم أستعملها إطلاقاً ، وربما لن أستعملها أبداً ، ولكنها مع ذلك تكون جزءاً من مفرداتي إذ أنها تحضر طبيعياً في ذهني إذا احتجت إليها ، وأفهمها على الفور إذا استعملت أماًى . ومع ذلك فهذا المثال الفرنسي أقل حجية مما في لغات أخرى كاللتوانية ، حيث تؤخذ الأسماء المجردة وأسماء الفاعلين بالمراد من إحدى الصيغ الفعلية كما يؤخذ منها المستقبل أو صيغة التبعية . من هذه الوجهة ، التي هي وجهة نظر النحو ، تعتبر المفردات غير محدودة .

وهي ليست أقل بعداً عن التحديد من وجهة نظر الاستعمال المعنوي البحث للكلمات . فقد رأينا فيما سبق أن الكلمة لها على وجه العموم من المعاني بقدر ما لها من الاستعمالات . ولكن كل معنى منها مستقل عن المعاني الأخرى ، إذ أنه لا يكون في ذهننا عند استعمال الكلمة إلا معنى واحد . يمكننا إذن أن نقول بأنه يوجد في المفردات كلمات مختلفة بقدر ما يوجد من استعمالات لكل كلمة من كلماتها . ولما كان عدد الاستعمالات التي تصلح لها كل كلمة لا يحد ، إذ أن الاستعمال العام يخلق استعمالات جديدة كل يوم ، وجب أن نقرر أن مفردات اللغة تزداد دون حد ما دامت اللغة حية . فكل كلمة فيها ينبغي لها أن تعد مرات عديدة ، مرات يستحيل تحديدها .

إذا اعتبرنا المسألة من وجهة نظر أخرى ، وجدنا كثيراً من الكلمات لا يضح أن تعد بين المفردات .

هناك نظام تصاعدي للكلمات يسمح بتمييز الفعل من الصفة أو من الاسم ، والاسم المشترك من اسم العلم (أنظر الصفحة الأخيرة من الفصل الثالث) . هذا النظام التصاعدي له ما يبرره سيكولوجياً ، ولكنه يخلق فروقاً محسوسة بين الكلمات ، فما الذي يصوره لنا اسم من أسماء الأعلام ؟ لا شيء في أغلب الأحيان . فكم من

شخص بين أكثر الناس ثقافة عنده فكرة صحيحة محدودة عمّن يسمى پرکلیس أو من يسمى أغسطس ، وعن المدعوّ لويس الرابع عشر أو عن فريدرك الثاني . نحن نسمى علماء أولئك الذين يخبزنون في دماغهم سلاسل من أسماء الأعلام ويستطيعون عند الطلب توزيعها بالتجزئة إزاء إعجاب الجهلة والبلهاء . ولكن كم من هذه الأسماء نفسها توقظ في أذهانهم أفكاراً واضحة ؟ . ليست تلك الأسماء في غالب الأمر إلا بمثابة حمل ثميل يحشون به أدمغتهم . فليس من الحق إذن أن نعدّ في حساب المفردات ما لا يصح أن يعتبر إلا تمريناً للذاكرة .

وكثير مما يقال بأنه من الأسماء المشتركة ليس في واقع الأمر إلا من أسماء الأعلام^(١) . فإني أعرف أن الكلمات الآتية : étourneau « زرزور » و linotte « عصفور التيل » و émerillon « يؤيو » و autour « صقر » كلها أسماء طيور لأنني قابلت هذه الكلمة أو تلك مصادفة في أوصاف بعض المناظر الخلوية أو عند تصفحي لكتاب من كتب التاريخ الطبيعي ، ولكني لا أستطيع أن أكون لنفسى أية فكرة عن هذه الطيور : فأسمائها لا توقظ في ذهني أية صورة محددة ، إنها طيور ؛ وذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنها ، وإنه لكثير . فهناك أسماء أخرى كثيرة أحرار فيما إذا كانت تدل على حيوانات ثديية أو على زواحف أو أسماك ؛ فيما إذا كانت نباتات أو معدناً ؛ حتى أصل إلى بعض الكلمات المنسية في أركان ذاكرتي فأعثر عليها مصادفة ولا أعرف عنها شيئاً مطلقاً ، لا أعرف عنها إلا أنها كلمات فرنسية .

وهكذا إذا تابعنا امتحان المفردات ، وتحليل الكلمات التي تحتوي عليها كلمة كلمة وتصفيها ، أدركنا أن مئاع الرجل المتعلم المثقف منها يحتوي على عدة كبير من الكلمات التي يزدحم بها رأسه دون جدوى . ولكن الكلمات

(١) فندريس : Sur quelques difficultés de l'étymologie des noms propres

في — Mélanges littéraires publiés par la Faculté des Lettres de Clermont

Ferrand عام ١٩١٠ ، ص ٣٢٩ بت ٣٣٧ .

تتدرج بصورة غير محسوسة من تلك التى نشعر بها شعوراً تاماً ونستعملها فى حياتنا اليومية إلى تلك التى دخلت ذاكرتنا عرضاً ولا تؤدى لنا أية خدمة . فإذا أردنا عند إحصائنا للكلمات أن نضحى منها بنصيب ، فإلى أى حد يجب أن نقف فى تعيين هذا النصيب ؟

أوجب أيضاً أن نضيف إلى كل ذلك ما يثقل مخنا من أحوال من جراء معرفة لغات أجنبية ؟ إن حاذق اللغات الأجنبية هو الذى يستطيع أن يعبر عن فكرة واحدة بعينها فى عدة لغات . وترجمان فندق من الفنادق المختلطة يعرف أسماء الأشياء المتداولة بثلاثة أوجه مختلفة ، أو أربعة أو خمسة . فهذا تمرين للذاكرة تفرضه عليه مهنته . أفنقول إن مفرداته تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة أمثال خادم الفندق الذى لا يتعامل إلا مع أبناء لغة واحدة ؟ نعم إذا أدخلنا فى حسابنا هذه الحقيقة الواضحة ، وهى زيادة الحمل الذى تضطلع به ذاكرته . ولكن الواقع أن مفرداته فى هذه الحال ليست أكثر ثراء ، بل إنه يملك أنواعاً مختلفة من المفردات تتلاصق بعضها ببعض ويتراص بعضها فوق بعض دون أن تندمج عادة ، كما أن استعمالها رهن الظروف .

هناك حاجات مشتركة بين جميع الناس ، وهذه الحاجات مفردات تكاد تتساوى فى عدد الكلمات فى كل مكان . يقال بأن الفلاح الأي لا يحتاج فى حياته إلى أكثر من ثلثمائة كلمة ؛ فلنسلم بهذا الرقم ، وإن كان لا يجادل فى أنه دون الواقع بكثير . وعندئذ يتحتم علينا أن نقول بأن السيد لا يكاد يستخدم أكثر من هذا القدر فى حديثه العادى . ولكنها ليست نفس الكلمات التى يستعملها الرجل الشعبى ؛ وهذا هو كل الفرق . غير أن السيد قد يعرف لغة الشعب أيضاً وقد تتاح له فرصة استعمالها . وبذلك يكون له نوعان من المفردات ، نوع للصالون ونوع للمزرعة^(١) . وإذا كان جندياً عرف لغة الثكنات ، وإذا

(١) « رجل البلاط الذى يتكلم لغة السوق له عندى ، فضل العارف باللغات الأجنبية (دكلو Duclos) : *Considérations sur les moeurs* ، الطبعة الخامسة ، باريس (١٧٦٧ ، ص ٢١٢) .

كان يشارك في علم من العلوم ، عرف مفرداته الفنية . وإذا فرضنا أنه يعرف لغة أجنبية أو لغتين ، أضيفت مفرداتها إلى ما في ذهنه من قبل : أنواع من المفردات مختلفة ؛ إذ أنها ناتجة عن حاجات مختلفة وتستخدم للتفاهم مع أشخاص مختلفين .

أوضح ما يلاحظه الإنسان عند اختباره للمفردات عن كثب ، هو التعقيد البالغ للمتاع الذي يحمله الشخص في دماغه من الكلمات . فليست العناصر التي تكوّناتها في مستوى واحد دائماً ، لا نحويّاً ولا سيكولوجيّاً ، ولا من ناحية الاستعمال الذي تستعمل فيه ، ولهذا النقطة الأخيرة أهمية خاصة . ذلك التعقيد هو الذي يجعل للمفردات أهميتها . وسنتكلم عنه عندما ندرس بنية اللغات . أما الآن فسنراه يفسر لنا التغيرات التي تتعرض لها المفردات .

الفصل الثاني

كيف تغير الكلمات معانيها (١) ؟

يوجد في تطور اللغة فرق بين الصوتيات والصرف والمفردات . فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ؛ فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تعودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ طفولته اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك في حالة أن يتلقن نطقاً أجنبياً محل محلّ النطق القوي . النظام الصرفي ثابت أيضاً . نعم إن استقراره يتطلب وقتاً أطول ؛ ولكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغير يذكر . ذلك بأن الصرف لا يتغير في أثناء جيل واحد ؛ بل هو كالصوتيات إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل . فالنظام الصوتي والنظام النحوي إذا ما اكتسبنا مرة بقيا طول العمر ، ويدينان باستقرارهما إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف . فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به . فالإنسان يزيد من مفرداته ولكنه ينقص منها أيضاً ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج . ولكن الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً ؛ فالذهن يروض نفسه على وجود المترادفات والمثلثات

(١) انظر على وجه العموم : بريال Bréal ، رقم ٥٥ ؛ ونيروب ، رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ ورقم ١٨٦ ؛ ويابرج Jaberg ، رقم ٣٨ مجلد ٢٥ ، ص ٥٦١ وما يليها (وذلك عن مراجع المسألة وتاريخها) . وانظر خاصة : لترية E. Littré : Comment les mots changent de sens (مع مقدمة وتعليقات لميشيل بريال ، باريس ١٨٨٨) ؛ ١٤ . ميه . Comment les mots changent de sens. رقم ٢ ، ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ، ص ١ — ٣٨ ؛ وياول Paul ، رقم ١٨٨ ، فصل ٤ ؛ وپرسون Persson ، رقم ١٩٠ ، مجلد ٢ ، ص ٩٦٨ وما يليها .

ويوزعها على وجه العموم على استعمالات مختلفة . فالكلمتان الفرنسيتان chaire « كرسي » (ولكنها تقال لكرسي الأستاذية أو كرسي الخطيب ... الخ) و chaise « كرسي » ؛ أو sieur « سيد » [للاستعمال العادي] و seigneur « سيد » [تطلق على النبلاء أو على من لهم أتباع ، أو من يعطى لهم لقب السيادة من جهة رسمية] ليس لهما نفس القيمة . ذلك بأن الحياة تشجع على تغير المفردات لأنها تضاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات . فالعلاقات الاجتماعية والصناعات والعدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات وتقضي على الكلمات القديمة أو تحور معناها وتتطلب خلق كلمات جديدة . ونشاط الذهن يستدعي دائماً للعمل في المفردات . وبالاختصار فإن الأسباب التي تؤدي إلى تغير الظواهر ليست في أية مادة أكثر تعقيداً ولا عدداً ولا تنوعاً منها هنا .

لأنكاد نفكر في تغير المفردات حتى يتجه ذهننا في التو إلى حياة الكلمات « la vie des mots » وإلى الكتاب الصغير الذي كتبه أرسين درمستير Arsène Darmsteter بهذا العنوان^(١) . ولكن العنوان ليس أحسن ما في هذا الكتاب . فعبارة حياة الكلمات نفسها عبارة موقعة في اللبس وكثيراً ما أدت إلى تفسيرات لو سمعها دارمستير لما فاته أن يحتج عليها . إذ لا يعقل أن تعتبر الكلمة اعتبار الكائن الحي . فالشبه بينهما ظاهري فقط . لأن الكلمات لا تولد وتموت على الصورة التي بها يولد الإنسان ويموت . فقد نستطيع استثناء أن نعين السنة التي فيها دخلت في الاستعمال كلمة لم تكن معروفة حتى هذا العهد ؛ مثلاً كلمة chandail يرجع ظهورها إلى عام ١٨٩٤^(٢) ؛ ويعزى خلق كلمة pudeur « حياء » إلى الشاعر ديپورت Desportes^(٣) ، وكلمة bienfaisance « إحسان » إلى الأب

(١) رقم ٦٢ .

(٢) كليدا Clédat ، رقم ٥٩ ، الطبعة الرابعة ص ١١٧ .

(٣) فوجلا Vaugelas : Remarques sur la langue française ، ملاحظة

رقم ٥٢٧ ، طبعة سنة ١٧٣٨ ، مجلد ٣ ، ص ٣٤٨ . ويلاحظ أن كلمة pudeur بما استعمله
مونتني (Essais) ، ١٥/٢ و ٥/٣ .

دى سان بيير de Saint - Pierre ^(١) . وكلمة obscénité وهى من خلق المتحذلقات ، كانت تبدو لمعاصرى موليير Molière كأنها خلق جديد ^(٢) .

وأحدث من كل هذا rescapé « ناج » التى دخلت الفرنسية على أثر نكبة الكوريير Courrières (فى سنة ١٩٠٦) وكلمة indésirable « غير مرغوب فيه » التى دخلت على أثر مغامرة غرامية منع صاحبها من دخول الولايات المتحدة . ولكن الأمر فى الحالة الأولى يتعلق بانتشار كلمة فى الفرنسية المشتركة وكانت مستعملة فقط فى مقاطعة « پا — دى — كاليه » Pas - de - calais ؛ وفى الثانية باستعارة كلمة من اللغة الإنجليزية . فعندنا « إدخال » لكلمتين فى الفرنسية ، ولكن فى ظروف لا تشبه الميلاد فى شىء .

استبدلت الفرنسية كلمة tête « رأس » مكان الكلمة القديمة chef المأخوذة من caput اللاتينية ، وكلمة jument « فرس » مكان كلمة ive المشتقة من equa اللاتينية . فلنفترض ، وإن كان افتراضاً بعيد الاحتمال ، أن كلمة chef عادت إلى الاستعمال بمعنى tête « رأس » ، وأن ive احتلت مكان منافستها الموقفة jument « فرس » ؛ أيمكننا فى هذه الحال أن نتكلم عن عودة كلمة مريضة هي (chef) إلى الحياة ، وعن بعث كلمة بعد موتها وهى كلمة (ive) ؟ ذلك مالا نستطيعه بأية حال ، بل كل ما هناك هو إدخال كلمتين جديدتين فى المفردات ولا يمكن أن يقال بوجود صلة بين كلمة ive التى كانت فى العصور الوسطى وكلمة ive الجديدة التى ابتكرت فى أيامنا هذه بواسطة الهوى أو الحاجة .

وقد ننتقل كلمة من لغتنا إلى الخارج ، وتصير مفقودة بالنسبة لنا ، ثم تعود إلينا بعد قرون . مثال ذلك كلمة flirt « مغازلة » وكلمة budget « ميزانية » اللتان تعتبران عندنا اليوم مستعارتين من الإنجليزية ؛ ولكننا نعلم أن فرنسا موطنهما الأصلي ، وأنهما عبرا البوغاز إلى إنجلترا منذ زمن قديم . ومع ذلك فمن غير الحق أن ننظر بعين الجد إلى ذلك الحجاز الذى يشبه الكلمات بالمسافرين الذين يعبرون الحدود فى اتجاه ما ثم يعودون إلى عبرها من جديد فى اتجاه مضاد .

(١) ثولير Septième discours sur l' homme ; Voltaire

(٢) نقد مدرسة الزوجات .

ذلك بأن الكلمة التي وفدت علينا من إنجلترا ليست هي الكلمة الفرنسية القديمة fleurette « زهرة » وإنما جاءتنا كلمة إنجليزية flirt « مغازلة » أدخلناها في لغتنا الحديثة . وليست كلمة bogète « كيس صغير » القديمة هي التي استرجعناها في صيغة budget « ميزانية » وإنما جاءتنا كلمة مخالفة ، كلمة أجنبية ، كلمة تدل ، فضلاً عن ذلك ، على شيء آخر غير ما تدل عليه الأولى .

ومع ذلك فلم الاشتقاق الذي يقص أثر الكلمات في خلال العصور والأقطار ذو فائدة عظيمة . نعم من المتفق عليه أن الكلمات لا تحيا حياة مستقلة ، ولا وجود لها إلا في ذهن بني الإنسان . ولكن هذا النشاط الذهني الذي لا يكف عن العمل ينعكس في المفردات . فلنعب الغلطة التي تؤدي إلى أخذ الصورة المنعكسة في المرآة على أنها شخص حي ، لأن الصورة لا حياة لها . ولكن هذا لا يطعن في أن المرآة تقدم لنا بأمانة تامة سلسلة الحركات التي نعملها أمامها . ومن المسموح به أن نحكم على هذه الصورة أو أن نفسرها على نحو ما نحكم على الشخص الذي يعكسها تماماً . وهذا التعليل الساذج يكفي لتبرير قيمة النتائج التي يمكن أن ننتظرها من الاشتقاق .

ومع ذلك فهناك شرط لا بد منه . ذلك أن الاشتقاق لا يعتبر عمله منتهياً عندما ينجح بقوة الصبر في أن يقرر تاريخ بضع كلمات قد أخذت على انفراد . اشتقاق الألفاظ منفردة لا فائدة منه في حد ذاته ، فالحالة الخاصة ، مهما ثبتت علمياً ليست إلا ملهاة يتسلى بها إذا لم يُستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى . ونحن نعلم أنه يوجد من بين الاشتقاقات حالات كثيرة لا تؤدي إلى نتائج عامة . فلا يهمنا كثيراً أن تكون كلمة échalote « نوع من البصل » مأخوذة من اسم مدينة عسقلان Ascalon ، أو أن hussard « جندي من الفرسان » مأخوذة من اسم العدد « عشرين » بالجرية ، أو أن ليون Lyon معناها مدينة الإله لوج « Lug » : فذلك يمكن أن يفيد منه من يدرس زراعة الخضار أو المؤسسات الجربية أو الأساطير الكلتية ؛ ولكنه لا يفيد العالم اللغوي في شيء . فالعالم اللغوي

لا يهتم بالاشتقاق إلا ليجمع أكبر عدد ممكن من العمليات المعنوية التشابهة بقصد أن يستخرج منها القوانين العامة التي بمقتضاها يتطور معنى الكلمات .
هذه القوانين لا تكون إطلاقاً في الكلمات نفسها . وغلطة درمستير أنه أوهم بوجود نوع من المنطق الداخلى الذى يحكم التغيرات المعنوية للكلمات . فيظهر أن نظر المؤلف لم يمتد إلى أبعد من تلك التجريدات السكولاستية التى تنحصر فى الاستعمالات المجازية أو فى تسمية الأشياء الجديدة بأسماء قديمة : ولم يصل إلى الحقائق الواقعية المشخصة التى تمثلها الكلمات .

الكلمات على ما هى مرتبة فى الذهن ليست منعزلة . وميل الذهن إلى تجميعها إلى عوارض ، كمعارض الاشتقاق الشعبى التى تصب الكلمات فى صيغتها (انظر ص ٢٣٢) . وأثر التجميع على معنى الكلمات أقوى منه على صيغتها .
عرى الأسرة المعنوية تمسك كل كلمة فى معناها التقليدى ؛ أو إذا حدث لكلمة من كلمات الأسرة الرئيسية تحول فى معناها ، جذبت معها الكلمات الأخرى إلى المعنى الجديد . فلما تخصصت كلمة *habit* ، ومعناها « حالة ، هيئة » فى معنى « اللباس » ، أصاب الفعل *habiller* « الوضع فى هيئة ما » نفس التخصص ؛ وهاتان الكلمتان جذبتا إليهما مشتقاتهما و مركباتهما *habilleur* « من يلبس » و *habillement* « الإلباس » و *deshabiller* « انتزاع الملابس » الخ ، والكلمتان *pondre* أو *ponte* تحولت كليهما فى وقت واحد من فكرة « الوضع » عامة إلى فكرة « وضع البيض » فى الكلام عن طائر أنثى . فالإحساس بالأسرة اللغوية أمسك هذه الكلمات مجتمعة .

أما إذا تراخت عرى الأسرة أو انفصمت ، لم يبق شيء لمنع المعنى من أن يضل الطريق : فالكلمة اللاتينية *captivus* احتفظت بمعنى « أسير » خلال تاريخ اللغة اللاتينية بأسره ، لأنه كان يوجد إلى جانبها الفعل *capio* « آخذ » . وفى الفرنسية لم يبق الفعل *capio* بينما بقيت كلمة *captivus* المشتقة منه ، ولكن فى حالة العزلة تلك ؛ فلما لم تبق لها سنادة من الأصل الذى اشتقت منه وأصبحت

غير مرتبطة بعائلة صرفية محدودة ، تطورت تطوراً سريعاً فأصبحت chétif « بائس ، ضعيف » . هذا التطور في المعنى الذى ساعد عليه انحلال المجموعة التى كانت تنسب إليها الكلمة أصلاً ، يرجع بعض الشيء إلى وجود كلمة petit فكلمة « صغير » (والتى أدت إلى خلق مؤنث منها بصيغة chetite فى بعض اللهجات) . فكلمة chétif ، وقد انتزعت من منبتها ، غرست على شكل ما فى مكان آخر ووصلت بمجموعة معنوية أخرى .

ولا تقلّ عن ذلك أهمية التجمع الصرفى . فقد رأينا إلى أى حد تنضج اللاحقة أحياناً على الكلمة حتى تحول قيمتها على غرار الكلمات المجاورة التى تحتوى على نفس اللاحقة . وكثيراً أيضاً ما نرى الصلة الصرفية التى تجمع بين كلمتين ، تمنع هاتين الكلمتين من أن يتحول معناها إلى معنى جديد فكلمة meurtrier « قاتل » بقيت مرتبطة بـ meurtre « قتل » (كارتباط ouvrier « عامل » œuvre « عمل » أو vitrier « زجاج » بـ vitre « لوح زجاج ») فلم تتبع الفعل meurtrir « يصيب بالكدم » ومنه (meurtrissure « كدم ») فى معناه الجديد . ولكن تغير المعنى يكثر إذا تراخت الصلة الصرفية التى تربط المشتق بالبسيط [يعنى المشتق منه] فكلمة toga اللاتينية ليس لها معنى اشتقاقى غير « ما يغطى ، ملحفة » ؛ وهى الاسم المجرد من فعل tego ، كما هى الحال فى الكلمات الإغريقية τροφή « طعام » من τρέφω « أطعم » و νομή « رعى » من νέμω « أرعى » و σπορή « حنّان » من στέργω « أعزّ » ، إلخ . ولكن هذه الصياغة نادرة فى اللاتينية بقدر ما هى شائعة فى الإغريقية . فصارت الرابطة التى تصل τροφή بـ τρέφω أقوى من تلك التى تصل toga بـ tego . فلم يكن هناك إذن ما يمنع الكلمة toga من أن تثبت على استعمال خاص ، وهو الدلالة على نوع من الملابس بعينه .

فى الألمانية العليا القديمة كانت بعض الصفات التى تصاغ بمساعدة اللاحقة -i- تملك إلى جانبها ظرفاً يحتوى على اللاحقة -o- ؛ مثل festi « ثابت » و fasto « بثبات » ؛ skōni « جميل » و skōno « بجمال » . ولكن هذه الصياغة

المزدوجة لم تثبت على مرّ الزمن، وصار الظرف يصاغ من الصفة مباشرة . ومن هنا ورثت الألمانية ، بعد سقوط النهايات ، زوجين مختلفين من الكلمات هما : fest « ثابت » و schön « جميل » (وهما صفتان) ، و fast و schon (وهما ظرفان) ، فلم تعد الصلة يُحسّ بها بين كل كلمتين . فساعد ذلك على تطور معنى الظرفية : fast أخذت معنى « تقريباً » و schon أخذت معنى « قد déjà » (قارن في الفرنسية à la belle heure « لحسن الحظ » و de bonne heure « مبكراً » ؛ أما إذا أرادت الألمانية في أيامنا هذه أن تقول « بثبات أو بجمال » قالت fest و schön .

ترينا هذه الأمثلة مقدار الأثر الذى تخضع له الكلمات من جراء الكلمات الأخرى التى من نفس الأسرة اللغوية . يحدث فى الدماغ عمل غير شعورى يثبت الكلمات فى بعض المعانى ويعدّها للاستعمالات التى توجه إليها . وفى الاستعمال تتعرض الكلمات إلى تغيرات أخرى فى المعنى ، والتغير فى هذه المرة يأتى من سياق النص .

تزود كل كلمة فى لحظة استعمالها تزويداً تاماً بقيمة وقتية تبعد عنها جميع القيم الناتجة من الاستعمالات الأخرى التى تصلح لها الكلمة . ومع ذلك فإن استعمال الكلمات يقوم بواسطة هذا التنوع نفسه ، بتأثير دائم على دلالتها . وهذا يتجلى فى صورتين : الأولى تنحصر فى أن الاستعمال الثابت لكلمة بعينها فى نص واحد بعينه يمكن أن يخدع الذهن ، إذ أنه لما لم يكن لديه الوسيلة لتحديد قيمة الكلمة بالمقارنة ، فإنه يتعرض لتغييرها . ومن جهة أخرى قد يؤدى الاستعمال المتكرر لنفس الكلمة فى نصوص مختلفة إلى إبلاء قيمتها أو إلى تغييرها .

عندما نسمع جملة أو نقرأها نرى الكلمات التى تشتمل عليها يفسر بعضها بعضاً . فإذا كانت منها واحدة غير مألوفة لنا — والواقع أن هناك دائماً فترة فى حياتنا نسمع فيها الكلمة لأول مرة — حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص ؛ وهذه هى الخطوة التى يتبعها التلاميذ عندما يحاولون ترجمة نص أجنبى ، نص لاتينى أو ألماني مثلاً . هذه الفكرة التى نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة . ولكنها تُصحح فى غالب الأمر ، لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد

ذلك في جمل أخرى مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها . وعلى هذا النحو يثبت في الذهن معنى كل كلمة .

وهناك كلمات محدودة الاستعمال لا تظهر مطلقاً إلا في صحبة بعض الكلمات الأخرى . وفرصة الخطأ في هذه الكلمات أوسع . لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها . وفي هذه الحال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية بسبب المعنى الزائف الذي يضاف إليها . فكلمة *fruste* كانت لا تقال في الأصل إلا وصفاً للعملة التي مُسح رسمها ؛ رصار يفهم من عبارة *monnaie fruste* عملة خشنة الصنع خالية من الفن والدقة . ثم صارت تطلق بطريق التوسع على الرجل اللفظ الغليظ غير المهذب . فهذا الذي تغلب هو معنى زائف ، ولعل الذي ساعد على ذلك شبهة صوتي غامض بين هذه الكلمة وبين الكلمتين : *rustre* و *rustaud* « خشن » (١) .

الواقع أن الذهن يسعى إلى تحديد معنى الكلمات بجميع الوسائل التي في متناوله . ولكنه يخضع أحياناً إذا وجهته بعض ظروف خاصة في طريق غير مستقيم . فالصفة *émérite* كانت تطلق في الأصل على الموظف الذي يحال إلى المعاش . ثم صاروا يحاكون اللاتينية حذقة فيطلقون عبارة *professeur émérite* على ما نسميه الآن « أستاذ شرف » ولكنهم راحوا يفسرونها على أنها تدل على « الجدارة » *mérite* أو سموّ المقام ؛ فأصبحوا الآن يصفون الأستاذ بأنه *émérite* إذا أرادوا وصفه بالامتياز . وهذا ضد المعنى الأصلي ، ولكنه استقر إلى حد أننا لن ندهش إذا سمعنا الناس يتكلمون عن فارس *émérite* أو طيار *émérite* . والآن بعد أن توسعت هذه الكلمة في استعمالها ودخلت في نصوص متنوعة ، فقد امتدت أمامها الفرصة للاحتفاظ بالمعنى سليماً وإن كان قد أضيف إليها عن طريق الخطأ .

ومع ذلك نلاحظ أن معنى الكلمة يزيد تعرضاً للتغير ، كلما زاد استعمالها

(١) كتب حديثاً أحد أعضاء الأكاديمية كتاباً قرأ فيه الجملة الآتية يلخص فيها صورة

بطل من أبطال الحرب : « L'ensemble est solide , dominateur et fruste »

« هو على الجملة متين ، متسلط ، خشن . »

وكثر ورودها في نصوص مختلفة . لأن الذهن في الواقع يوجه كل مرة في اتجاهات جديدة ؛ وذلك يوحى إليه بخلق معان جديدة . ومن هنا ينتج ما يسمى بالتأقلم polysémie . يجب أن نفهم من هذا الاسم قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها ، وعلى البقاء في اللغة مع هذه الدلالات . وعندنا مثال جميل عن التأقلم في كلمة bureau « مكتب » إذ كانت تدل في الأصل على نوع من نسيج الصوف الغليظ المسمى étoffe de bure ثم أطلقت على قطعة الأثاث التي تغطي بهذا النسيج ، ثم على قطعة الأثاث التي تستعمل للكتابة أيًا كانت ، ثم على الغرفة التي تحتوى على هذه القطعة من الأثاث ، ثم على الأعمال التي تعمل في هذه الغرفة ، ثم على الأشخاص الذين يقومون بهذه الأعمال ، وأخيراً على أية مجموعة من الأشخاص تقوم بإدارة إحدى الإدارات أو الجمعيات . وخلق معنى جديد لا يقضى بالضرورة على المعاني السابقة ، فهنا يمكن لكل المعاني أن تبقى حية في اللغة إذا استثنينا الأول منها « نوع من النسيج » . وحركة التغيرات المعنوية لا تسير دائماً في خط مستقيم ؛ بل تسير في كل الاتجاهات حول المعنى الأساسي ، وكل واحد من المعاني الثانوية يمكن أن يصير بدوره مركزاً جديداً للاشعاع المعنوي (١) .

مهما تعددت الاستعمالات التي تصلح لها الكلمة وتنوعت ، فإن أحدها يطغى غالباً على ما عداه ، وهو الذي يعين معنى الكلمة الأساسي على النحو الذي يسجل عليه في القاموس . فإذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان أو أكثر ولم يكن في الإمكان تداخلهما ، فعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين ، كما هي الحال في الأمثلة المذكورة في الصفحة الثالثة من الفصل الأول بالجزء الثالث . ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقاً ، فهو محووط بمعان ثانوية تتخفّر دائماً للظهور عليه واحتلال مكانه . المعنى الجديد ينمو شيئاً فشيئاً ، ويحل نفسه محل القديم ، كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يزوي الجذع الأساسي ، وعندئذ تجرد الكلمة نفسها وقد تغير معناها .

ليان أنه يوجد بين معاني الكلمة الواحدة معنى يتحفظ دائماً لفرض نفسه على
الذهن ، يجدر بنا أن نتأمل المسألة الآتية : الاسم يمكن أن يكون ذا علاقات متنوعة
مع الحدث الفعلي ؛ ولكن عندما يؤخذ فعل من هذا الاسم ، فإنه لا يعبر به على وجه
العموم إلا عن علاقة واحدة من هذه العلاقات . فهناك إذن اختيار غير شعوري
من جانب العقل ، إذ أنه يحتجز من بين جميع الأحداث الممكنة الحدث الذي يحتاج
إلى التعبير عنه في وقت ما . ويبقى لاستقرار الكلمة التي تصاغ على هذا النحو في
اللغة ألا توجد عقبة في سبيلها من ناحية أخرى . فالألمانية اشتقت من Herz
« قلب » herzen « يضم إلى قلبه » كما اشتقت الإيرلندية من bruinne « صدر »
brunnim « أضم إلى صدري » ؛ ولكننا نرى الألمانية تشتق من Kopf « رأس »
Köpfen الذي يدل على « قطع الرأس » ؛ والغالية تشتق من cefn « ظهر »
cefnu ومعناه « يدير ظهره » ؛ والإيرلندية من dorn « قبضة اليد » durnim
« أَلَسْكُم » ؛ والإغريقية من σάειν « اللحم » σαρκίαν « ينزع اللحم » ،
وفي الفرنسية coiffer أحد الناس أي « وضع غطاء له على رأسه » و fesser
أو gifler أحد الناس يعني « ضربه على الفesse » الإلية « أو على الـ gifle
(كلمة قديمة معناها خد) أي « صفعه » ؛ و plumer طائراً معناه « انتزاع
ريشه » (plumes) ؛ و boucher يعني « سدّ الـ bouche (الفم) » ؛
و échiner معناه كسر الـ échine (العمود الفقري) ؛ و peler معناه « نزع
الـ peau (الجلد) » (للفواكه) ؛ ويقال في اللغة الشعبية zyeuter ومعناه
fixer des yeux « يحدجه بعينه » ، ومن pilus « شعر » اشتقت اللاتينية فعلين
بصيغة واحدة هي : pilare ، « أحدها » في العصر الأول (Novius Afranius)
ومعناه : « يكسوه الشعر » والثاني في عصر الإمبراطورية ، ومعناه « يخلق الشعر »
(Martial) . فلا توجد قاعدة لمعنى هذه الصياغات التي ترجع إلى عهود مختلفة
ونشأت في أوساط مختلفة ؛ أو أن القاعدة الوحيدة هي التعبير بالفعل عن الحدث
الذي يعدّ أخصى من غيره بالكلمة في اللحظة التي يقرّر فيها المعنى ^(١) .

(١) عن هذه الأمور أنظر : ت. هدرسن وليز T. Hudson Williams رقم ٢١ ،

مجلد ٢٦ ، ص ١٢٢ ونولده Nöldeke ، رقم ٢٩ ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

هناك تقابل شيئاً يمكن أن يقارن في الصرف بالصيغ القوية والصيغ الضعيفة ؛
فبين الكلمات من حيث المعنى نوع من النظام التصاعدي يحتوى على معان قوية
ومعان ضعيفة . فالأولى ، وهى ليست أقدم المعانى بالضرورة ، تفرض نفسها على
العقل بمجرد ذكر الكلمة ؛ وتدين بقوتها إلى أهمية استعمالها ؛ أما الثانية فتبقى
في الظل لأنها نادرة الاستعمال أو خاصته ؛ ولا بد ، لإخراجها من الظلام ، من
مساعدة كلمة أخرى تضيئها وتظهر قيمتها ؛ ولكن نظام المعانى التصاعدي هذا
لا شيء فيه من الإطلاق والثبات : فهو خاضع لنزوات الاستعمال جميعها ، تلك
التي تولد التأقلم .

ترجع أحياناً التغيرات المختلفة التي تصيب الكلمات من حيث المعنى إلى ثلاثة
أنواع : التضيق والاتساع والانتقال . فهناك تضيق عند الخروج من معنى عام
إلى معنى خاص مثل (pondre « يبيض » و sevrer « يفطم » و traire « يحلب ») ؛
وهناك اتساع في الحالة العكسية أى عند الخروج من معنى خاص
إلى معنى عام مثل (chercher « يبحث عن » و gagner « يربح » و triom-
pher « ينتصر » ؛ وهناك انتقال عندما يتبادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان
من جهة العموم والخصوص (كما في حالة انتقال الكلمة من الحل إلى الحال أو
من السبب إلى السبب أو من العلامة الدالة إلى الشيء المتلول عليه الخ ، أو
العكس) . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضيق ينشآن من الانتقال
في أغلب الأحيان ؛ وأن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء
اصطلاحية (métaphore « الاستعارة » synecdoque « إطلاق البعض على
الكل » أو métonymie « المجاز المرسل بوجه عام » أو catachrèse « المجاز
المرسل بعلاقة الشبه أو غيره عند عدم وجود اسم للشيء المنقول إليه « النخ ») ؛
ونجد أمثلة منها في جميع السكتب المدرسية^(١) ؛ وهذا يغنينا عن بحثها هنا تفصيلاً ،

(١) أنظر خاصة درمستير : رقم ٦٢ ، وبريال : رقم ٥٥ ، وراجم كذلك ل ، كليدا ؛
Revue de philologie française et provençale ، مجلد ٩ (١٨٩٥) ص ٤٩ .

ولعل من الأفيد أن نذكر بإيجاز كيف تفسر أنواع التغير الثلاثة بطروف الحياة نفسها .

من حالات التضيق تلك الحالة التي يطلق فيها الاسم العام على طائفة خاصة تمثل نوعها بخير تمثيل في نظر المتكلم . ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه أعنى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد واكتفى بالتقريب العام فعندما يطلب من الفتاة الفلاحية أن تدخل « البهائم » لم تتردد لحظة واحدة في كون المقصود بها البقر الذي لا يزال في الحقل ، لأن البقر في نظرها هو البهائم بمعنى الكلمة . وبالطبع لو تكلم الراعى أو الحوذى عن البهائم كان المقصود بها في الحالة الأولى الأغنام ، وفي الثانية الخيل . وهذا التخصيص كثيراً ما يترك آثاره في اللغة . فاسم الطائر في الإغريقية القديمة *ōvis* أخذ معنى « دجاجة » منذ التاريخ المسيحي (نقرأ في إنجيل لوقا ، إصحاح ١٣ ، آية ٣٤) *ōvis* « دجاجة ») واليوم يطلق على الدجاجة في الإغريقية الحديثة لفظ *ōvitha* . وبفسن الطريقة صار اسم الطائر على العموم *auca* ، يطلق في الفرنسية على الوز (١) . وقد ينشأ التخصص أحياناً من مجرد الحذف ؛ وذلك كما تستعمل كلمة *τηρός* « محروم من » في الإغريقية الحديثة للدلالة على الأعمى . لقد رأوا أن الحرمان من النظر أشد أنواع الحرمان ، فأعفوا أنفسهم من الإشارة إليه بأوضح من هذا . كذلك في اللغات الرومية اتخذت الصفة *orbus* معنى « أعمى » . ولكن لعل الرغبة في التخفيف لها نصيبها هنا ؛ فاكتمى بالمصطلح العام لتجنب ما في الكلمة الخاصة من غضاضة .

الكلمات العامة لا تكاد تستخدم في الاستعمال بقيمتها العامة ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ؛ فكل واحد من المتكلمين يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط . وقد تكلم علماء اللغة عن المعانى المختلفة لكلمة عملية (٢) . فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام في الجراحة أم في المالية أم في الفن الحربى أم في شؤون الغابات

(١) نيدرمان *Niedermann* : رقم ٣٠ (*Anzeiger*) ، مجلد ١٨ ، ص ٧٥ .

(٢) بريال : رقم ٥٥ ، ص ٢٨٥ .

أم في الرياضة ؛ وتبعاً لذلك نعرف ما إذا كان يدور حول قطع عضو من أعضاء الجسم أو عقد صفقة من صفقات البورصة أم قيادة كتيبة من الجيش في ميدان القتال أو تعليم الأشجار التي يجب أن تقطع أو حل مسألة حسابية . وإذا تكلم علماء اللاهوت في عملية الروح القدس ، أرادوا معنى آخر غير هذه جميعاً . وكلمة « موسم » أيضاً من الكلمات التي تجتمعت استعمالاً مختلفة كل الاختلاف . فهناك موسم ما عند كل من مدير الفندق وصاحب « القلا » وتاجر الفاكهة وزارع التبغ والخياطة ، بل وعند كل تاجر أو صانع ، فكل واحد من هؤلاء « موسم » وهو الفترة التي يكون فيها نشاط العمل على أشده ، وتختلف هذه الفترة باختلاف أنواع النشاط وباختلاف الأماكن . وفي جزء من عبر وكشير Pembrokehire من بلاد الغال يطلق الموسم على الفترة التي ترى فيها خيل اللقاح تجوب الإقليم ؛ وهذا وحده كاف للدلالة على إقليم معنى بتربية الخيل خاصة ، فكل شخص فيه يهتم بمسألة اللقاح ، فتشير الكلمة إلى الموسم بمعناه الحق في نظر المتكلم ، كما رأينا في كلمة « العملية » حيث يرجعها كل واحد من المتكلمين الذين افترضناهم إلى الموضوع الذي يألفه . ويمكننا أن نسوق أمثلة من هذا القبيل لجميع الكلمات العامة ، بل لجميع كلمات اللغة ؛ لأن معنى الكلمة مهما أوغل في التخصص ، يمكن دائماً التضييق من سعته أو من تخصيصه كما يقولون .

أندر من ذلك حالة التعميم وإن كانت موجودة أيضاً . وينحصر التعميم في إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . وهذه هي حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذي يروى البلدة التي يعيشون فيها : هكذا يفعل الطفل الباريسي عندما يصيح وقد رأى نهراً je vois une Seine « أرى سينا » وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر . ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها . ففي السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهرة عموماً^(١) : في الصربية roža ، وفي الكرواتية rožica . امتد أثر هذه الواقعة

(١) شوخارت Schuchardt ، رقم ٢٠٣ ؛ وفارن موركو Murko ، رقم ٣٣ ،

امتداداً جعل كلمة Blume « زهرة » تختفي من اللهجات الألمانية المجاورة ويحل محلها كلمة Rose (أصل معناها « وردة ») فيقال Die Wiese ist voll Rosen بمعنى « الحقل مملوء بالأزهار » . وبطريق العدوى صارت اللهجات الإيطالية في إقليم فريول Frioul تطلق اسم الوردة على كل زهرة أيا كانت ، واضطرت إلى أن توجد للوردة اسماً جديداً ، هو rosar أو garoful di spine . هذه الحالة التي لها أهميتها فيما يتعلق بانتشار الحالات الخاصة بالمفردات ، تبرهن على وجود بعض الفصائل المعنوية التي فيها تختلط بسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع . هذه المجاميع هي التي يكثر فيها بصفة خاصة انتقال المعنى بسبب التجاور . فكل كلمة من كلماتها لها مضمون خاص بها وتدل على شيء خاص objet . ولكنها أمام العقل تشترك جميعاً في انتسابها إلى مجموعة عامة ، ولما كانت فكرة العموم تطفئ على المعاني الخاصة ، فقد يحدث للعقل أن ينتقل من أحد المعاني إلى الآخر . وهذه الظاهرة تقع بصورة خاصة في أسماء النبات والحيوان وأسماء أجزاء الجسم والأمراض والألوان .

اختلافات المعنى التي تلاحظ على اسم واحد من أسماء الألوان بين لغة وأخرى ترجع في غالب الأمر إلى أنواع من التخصص (أنظر الصفحة السابقة) ؛ ولكن الاتجاه الذي ندرسه هنا يستطيع أن يؤدي دوره أيضاً .

انتقال المعنى في أسماء النباتات كثير الوقوع . فكلمة واحدة بعينها هي التي أمدت اللاتينية بكلمة quercus (نوع من البلوط) والألمانية بكلمة forha « صنوبر » والكلمة الإغريقية φηγός (تطلق على نوع من البلوط) ، هي بعينها الكلمة اللاتينية fagus « زان » والكلمة الألمانية Buche لها نفس المعنى . يرجعون إلى أصل واحد الكلمة الإغريقية ἐλάτη « شوح » والكلمة الألمانية Linde « زيزفون » . كذلك من أصل واحد اشتقت الكلثية الاسم الذي تطلقه على البلوط (في الإيرلندية « dair ») واللاتينية الاسم الذي تطلقه على الشربين (larix) . وكانت كلمة tanna وحدها تدل قديماً في الألمانية على البلوط والصنوبر في آن واحد . وهنا أيضاً قد يجب علينا أن ندخل التخصص في

حسابنا ، ولكن بمعنى مختلف . فمن المحتمل مثلاً أن الكلمة الجرمانية *tanna* والأصل المشترك للكلمة الإيرلندية *dair* واللاتينية *larix* كانتا تدلان على « الشجرة » أو على « الخشب » بصورة عامة (في الإغريقية *δέντρο*) أو على « الغابة » : وبعد ذلك ، إذا صح هذا الفرض ، استعملت كل واحدة من الكلمتين للدلالة على شجرة هامة اختيرت لأسباب تاريخية أو جغرافية . ولكن عندما نرى اسم الزان يتجاوز إلى الدلالة على البلوط كما في حالة الكلمة الألمانية *Heister* التي تستعمل في كلا المعنيين ، لم تكن المسألة إلا انتقالاً في الدلالة لا أكثر ولا أقل ؛ ذلك بأن الذهن لم يكن قد استقر بعد على حال وكان ينقصه التحديد ، فأطلق اسم نوع من الشجر على نوع آخر يقاربه .

أسماء أجزاء الجسم تعتبر « الميدان التقليدي لانتقالات المعنى »^(١) . فنرى عدداً كبيراً منها يتأرجح في اللغات المختلفة . وينتقل بسهولة من عضو إلى عضو أو من جزء إلى آخر : فكلمة *coxa* معناها « أعلى الفخذ » في اللاتينية ، ولكن قرينتها *coss* تطلق في الإيرلندية على « القدم » ؛ ونجد الخطوة الوسطى بينهما في الكلمة الألمانية *Häxse* (وهي أفضل من *Hechse*) « أعلى الساق » *jarret* وفي مشتقات الكلمة اللاتينية (الكلمة الفرنسية *cuisse* « فخذ » ؛ والكلمة الغالية المستعارة *coes* « بنفس المعنى ») ؛ فنرى أن الكلمة قد استمرت في النزول من أعلى العضو إلى أسفله . وأصل واحد هو الذي أعطانا الكلمة اللاتينية *mentum* « ذقن » والغالية *mant* « فك » والألمانية *Mund* « فم » ؛ أما الكلمة الفرنسية *bouche* « فم » فقد جاءت من اللاتينية *bucca* التي تدل على « الخد » ... الخ .

قد يوجد في بعض هذه الأمثلة استعارة أو بتعبير أفضل ، انتقال شمورى . فالذهن قد يضيف مختاراً اسم أحد الأعضاء إلى العضو الذي يجاوره لقصد المزاح أو لنسب آخر . ويمكننا أن نقطع بوقوع الاستعارة إذا كانت الألفاظ تشير فكرة

(١) ميرنجر *Meringer* : رقم ٣٣ ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ وتسور *Zauner* : *Romanische*

Forschungen ، رقم ١٤ (١٩٠٣) ص ٣٣٩ .

جنسية وفي هذه الحالة يمكن تفسيرها إما بوازع من الحياء وإما على العكس بسوء القصد . فقد يطلق الشخص على ثدي المرأة لفظ « النحر » أو « المعدنين » حسبما يكون مهنذباً أو جلفاً . وأسماء أعضاء الجسم الخزية ، وبصفة عامة الكلمات التي تطلق على أفعال مشهورة بقذارتها أشد من غيرها تعرضاً للنقل^(١) . ويمكننا أن نقول إن الكلمات القذرة عامة كثيرة التبادل ، اللهم إلا إذا كانت الكلمة المخجلة نفسها قد أطلقت على مدلولها بطريق استعارة معلومة للمتكلم ، إذ في هذه الحالة لا يوجد سبيل لإطلاقها على عضو آخر . وهي ألفاظ يجمع بينها كونها كلمات قذرة ، وهذا تعريفها ؛ فيمكن أن تستعمل دون قيد للدلالة على أى جزء من الجسم مادام قذراً . إذ قد يكفي وجود شبه بعيد أو جوار تافه لا يحس ليعبر انتقال الكلمة من معنى إلى آخر . وكل اللغات فيها أمثلة من هذه الظاهرة ؛ فنترك للقارئ مهمة البحث عنها بنفسه .

والأسماء الدالة على عمليات الحواس هي بدورها عرضة للتبادل . فكثيراً ما تستعمل الألفاظ الدالة على اللمس والسمع والإحساس والذوق بعضها مكان بعض : وتطلق الثلاثة الأخيرة منها فضلاً عن ذلك ، على عمليات العقل ، فالفعل الإغريقي αίσθάνομαι يستعمل في نفس الوقت للذكاء والسمع والشم . وفي العالية يستعمل الفعل clyhod « يسمع » للشم والذوق واللمس ؛ وكذلك الفعل الإيرلندي atcluinur « أسمع » له نفس الدلالة . ومن نتائج ذلك أن يقال الآن في الإيرلندية عن الأصم cluasdall « أعمى الأذنين » ، وأن الأصل الواحد ورد في اللغات الجرمانية باسم الأصم (في القوطية dauhs و bauths : (أنظر ص ٢٨٠) وباسم الأبكم (في القوطية dumbs) وأمد الإغريقية باسم الأعمى (τυφλός) الذي يطلق من دلالة أيضاً على الأصم وعلى الشيطان (أوديب الملك ، بيت ٣٧) . ومما ييسر الانتقال إلى أخرى على وجه التأكيد الروابط الذي يقيمها العقل بطبيعة الحال بين عمليات الحواس المختلفة .

يمكننا أن نتنبأ بنشوء علم دلالة عام ، وذلك بتركيز المعلومات المستقاة من كل لغة عن تغيرات المعنى ؛ فيسمح لنا هذا العلم بإرجاع تلك التغيرات إلى بضع قواعد — لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن — بل من وجهة نظر سيكولوجية وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التي تعبر عنها الكلمات لا من الكلمات نفسها .

ليس من المصادفة بطبيعة الحال أن كان يعبر عن فكرة « المرة » في غالب الأحيان بالكلمة التي تدل على الرحلة : فيقال للعامل الذي ينزل براميل في كهف المنزل أو يصعد خشباً في الغرفة العليا منه : كم رحلة قمت بها ؟ بدلا من « كم مرة نزلت أو صعدت ؟ » . والكلمتان uices ، uicissim في اللاتينية اشتقتا من كلمة تدل على الرحلة ، وكلمة رحلة نفسها تستخدم في صورتها الالهجية yädze للتعبير عن « مرة » في مقاطعة الفاليه Valais السفلى « سويسرة » ؛ وفي القوطية تستعمل كلمة sinths التي معناها الحقيقي « رحلة » لتكوين الظروف العديدة فيقال ainamma sintha « مرة » و thrim sinthams « ثلاث مرات » ؛ وتستعمل في معنى « مرة » كلمة allvart في اللتوانية و fecht في الإيرلندية و gwaith في الغالية وفي الألمانية السفلى Reise والاسكندنافية gang ، وكل هذه الكلمات معناها الحقيقي « رحلة » . وواضح أن هذا يفسر بتطور المعنى الطبيعي تطوراً مستقلاً في كل بلد من البلاد التي وردت فيها هذه الظاهرة على حدة .

ومع ذلك فهناك تسميات من هذا القبيل لا يمكن أن يكون مجرد ورودها في لغات مختلفة دليلاً على أنها نتيجة لاتجاه واحد بعينه ، وإن كان مستقلاً في كل حالة عنه في الأخرى . من ذلك اسم belette « ابن عرس » وهو حيوان ثدي صغير من أكلة اللحوم — فإنه في كثير من اللغات ، كما في الفرنسية ، مأخوذ من الصفة « جميل » : فهو في الألمانية Schöntierle « الدويبة الجميلة » وفي الدنمركية Kjöne وفي البريتانية Kaerell وفي الإسبانية « الغاليسية » garridina بل وفي البسكية andereder ، ومعناها الحرفي « السيدة الجميلة » .

(andere ، سيدة ، و eder « جميلة ») . فليس من المعقول أن تكون هذه الفكرة نفسها قد عرضت في وقت واحد في أذهان كل هؤلاء الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة ^(١) . بل إننا هنا أمام مثال من خلق الكلمات بالحكاكة ، وبعبارة أدق من استعارة الكلمات بواسطة الترجمة ، الأمر الكثير الوقوع في حالة اتصال اللغات بعضها ببعض . (أنظر الفصل الرابع من الجزء الرابع) .

ويحدث أن ترتبط الكلمة بأسطورة فتنتشر معها وتساعد على البقاء . وفي هذه الحالة تترجم المفردات عن واقعة فلكلورية ، فلا يمكن إذن تتبع الطريق التي مرت به الكلمات إلا بدراسة الفلكلور . كذلك يحدث كثيراً أن تنتشر عبارة تجريدية في الأقاليم المجاورة بواسطة نوع من النقل يشبه أن يكون نسخاً . فالفعل الإنجليزى to become « يصير » مثل الفرنسى devenir تماماً ، والفعل الغالى digwyddo « يصل ، مثل اللاتينى accidere » (فالصيغة cwyddo « يسقط » مثل cadere) . وسندرس هذه الحالات فيما بعد ، في الفصل الخاص باحتكاك اللغات . فهي على العموم تختلف كل الاختلاف عن الحالات التي نحن في صدد دراستها هنا ، وإن لم يكن من السهل تعيين حد فاصل بين النوعين . فمثلاً عندما نرى الفعل « يقع » يستعمل للتعبير عن فكرة « الإعجاب » في الألمانية (gefallen) وفي الإيرلندية (dofuit lemm « يعجبني » حرفياً « يقع لي ») ، وذلك دون وجود صلة تاريخية بين العبارتين ، ففي هذه الحال لا يسعنا إلا أن نقول بوجود استعارتين متماثلتين نشأت كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى في كلتا اللغتين . فكرة الألم تجتمع بسهولة مع فكرة العظم ، كما تجتمع فكرة القسوة بفكرة القوة . فالصفة الألمانية القديمة sêro « أليم ، موجع » التي لا تزال تستعمل في لهجات الجنوب (صربيا وبقاريا) بمعنى « مجروح ، مكتئب » لم تستبق في الألمانية الأدبية إلا للتعبير عن التفضيل المطلق . ولعلنا نستطيع بسهولة أن نتصور خط سيرها . فقد قيل في أول الأمر sehr krank « مريض جداً » sehr betrübt « مكتئب جداً » قبل أن يقال sehr gross « كبير جداً » و sehr gut .

« حسن جداً » ؛ فلما أفرغت الصفة من قيمتها الخاصة (أنظر ص ٢١٧) بقيت عبارة صرفية فحسب للدلالة على كبر الكمية . ومع ذلك فما تجدر ملاحظته أن الكلمة اللاتينية saeuos « شديد ، حاد ، قاس » ، التي تلتقى بالكلمة الجرمانية التي نحن بصدها في أصل واحد ، قد استعملت أيضاً في اللاتينية القديمة بمعنى « كبير » : يقول سرفيوس النحوى saeuam dicebant ueteres magnam (ملاحظات على الإنيابة : ٤/١) . والعلاقة المعنوية بين sehr « جداً » و saeuos « كبير » لا يمكن أن يفسرها التاريخ . فالأمر في كلتا الحالتين يرجع إلى تطور معنوى واحد مستقل في كل حالة عنه في الأخرى ، والإغريقية أيضاً تقدم لنا أمثلة عليه . فالظرف δεινός « بشناعة » أو αἰνός « بقسوة » يستعمل عند الحاجة للتعبير عن كبر الكمية (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل التالى) .

يمكن أيضاً الانتقال دون عناء من فكرة الإشفاق إلى فكرة الحنان . فتأمل البؤس يصحبه دائماً إحساس بالحذب . لأن الإشفاق والود ينبعان من موضعين متجاورين فى القلب الإنسانى . فيقال حدبا : mon pauvre petit « صغيرى المسكين » إذ لما كانت فكرة السكنة وفكرة الصغر مرادفتان للضعف ، كانتا توحيان بالحنان والإشفاق معاً . وفى كثير من اللغات تستعمل كلمات واحدة للتعبير عن كل هذه العواطف دون تفريق ؛ وتنتقل من أحداها إلى الأخرى . فالصفة bleiths تعنى فى القوطية « مدرّ للشفقة » ؛ وقرينتها فى الألمانية العليا القديمة blidi معناها « ظريف » ويظهر أن أصلها هو أصل الكلمة السنسكريتية mrityati « يذوب ، يتفكك » ؛ فالفكرة الأساسية هى فكرة الإشفاق التى تندى القلب وتلينه .

لكن الطيبة لا تكون بلا ضعف ، وبالإغراق فى الطيبة يصبح الإنسان « مغفلاً » ، كما يقول المثل الفرنسى فى صراحة قاسية . والكلمات التى تمت إلى الطيبة والعذوبة والهدوء فى كثير من اللغات قد استعملت للدلالة على البلاءة : فالبساطة ، وهى فضيلة فى الخلق ، تمدّ نقصاً فى العقل أيضاً . وقاصر العقل يوصف فى الفرنسية بأنه simple « بسيط » وفى الألمانية بأنه einfältig « بسيط » والكلمات débonnaire و bonasse « مبالغ فى الطيبة » تحملان اليوم محملاً سيئاً . وقد ساعد

على انحدار المعنى في الكلمة الأولى وجود اللاحقة -asse التي تحمل معنى تحقيراً لا شك فيه . ولكن ليس هناك أى أثر خارجى ساعد على تطور الكلمات silly في الإنجليزية و albern في الألمانية و gwirion في الغالية (في الجزء الشمالى) والأولى منها معناها في الأصل « هادىء ، مأمون الجانب » (قارن sœlig في الإنجليزية القديمة و selig في الألمانية) والثانية « حسن العشرة ، طيب » (في الألمانية العليا القديمة alawâr) والثالثة « صادق الود ، برىء » (وما زالت تستعمل في جنوب الإقليم) ؛ واليوم تطلق الكلمات الثلاث ويراد بها النقيض أو الأخرق . وقد وقع نفس التحول بالنسبة للكلمة الفرنسية innocent « برىء » ، ولكن بواحد دينية زادتها سوءاً على سوء . ذلك أن سخرية مواطنينا دأبت تنصب على أولئك الأشخاص الذين وهبوا أنفسهم لله لئمن عليهم بشهادة من بساطة العقل ، إن لم تكن من النفاق : وإلى هذا الاتجاه الخالى من التبجيل تدين الكلمتان benêt و crétin بمعناها التحقيرى (فالأولى منهما جاءت من bēni « مبارك » والثانية من chrétien « مسيحي ») .

كل التغيرات المعنوية التي أشرنا إليها ليست سيكولوجية إلا جزئياً حيث أن المادة التي تدل عليها الكلمة تعين على هذا التغير بطبيعتها . فالشخص التمس يستدعى الحذب عليه بطبيعة الحال ، والرجل الطيب فيه استعداد لضعف الشكيمة وأحياناً لبسطة العقل ؛ والعنف يفترض القوة والقدرة ، ويبطش بطش الرفيع العظيم ، فيمكننا القول بأن العقل إنما اتبع في انتقاله من فكرة إلى أخرى السبيل الذى خطته التجربة فى الحياة ، فاختصر فى كلمة واحدة سلسلة بأسرها من الملاحظات ؛ ومع ذلك فإن نصيب العقل يمدّ على جانب من الخطورة بحيث يحول لنا أن نتكلم هنا أيضاً عن تحولات سيكولوجية : إذ لا يكفي للملاحظة أن تمون بالتجربة ، إذا لم يستطع العقل أن يستخرج منها النتيجة المناسبة . فتفسير صفات المسألة التي تبدو على رجل طيب تفسيراً سيئاً وتمجيد قسوة الظالم عن أمها من عظام الأمور والعطف على البائسين ، أليست كلها ميولاً يستجيب لها كل إنسان إن قليلاً وإن كثيراً ؟ إذا وجدنا اللغة تعبر عنها ، أمكننا أن نقول بأنها تكشف

عن خلق المتكلم : فهي علامة الخلق الساخر أو المستعبد أو الرحيم ، وبها نستطيع أن نميز الأشخاص على ما بينهم من اختلاف .

الانحدار الذي يصيب الكلمات « يعكس بطريقة ملموسة إما الاحتقار الذي تكنه الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض وإما البغض المتبادل بين الأوطان والأجناس وإما التعصب الأعمى من جانب الجماهير وإما عدم احترام المتعصبين لآراء غيرهم ... فالتناس يتباغضون ويتناحرون ويتبادلون الاحتقار ويتنابدون بالألقاب ، واللغة حارس أمين على آثار هذه الحماقات المستمرة »^(١) . فالكلمات brigand « قاطع طريق » و ribaud « إباحي » و assassin « قاتل » grivois « خليع » التي كانت تطلق في أول أمرها على بعض الكتائب العسكرية تدين بمعناها الحالية إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها ، كما تدين كلمة cuistre (قديماً « طباح » وكلمة goujat (قديماً « خادم ») إلى احتقار السيد لخادمه ؛ والكلمات bouquin (مستعارة من الفلمنكية boecken « كتاب ») و lippe (مستعارة من الألمانية Lippe « شفة » و rosse من الألمانية Röss « حصان ») و hâbleur (من الأسبانية hablar « يتكلم » تحمل على التهمك الساخر الذي يرتبط بكل ما يأتي من الخارج . ومما تجدر ملاحظته أن كلمة parlar في الأسبانية (المشتقة من parler الفرنسية بمعنى « يتكلم ») لا تقال إلا لتدل على أمر سيء . وكلمة madame « سيدة » قد بقيت كلمة نبيلة في الإنجليزية والفرنسية ، أما في الألمانية التي دخلتها بطريق الاستعارة ، فقد صارت عامية سوقية : ففي برلين تعتبر Madamchen من ألفاظ السوق^(٢) .

يمكننا أن نتصور علماء لسيكولوجية الشعوب يقوم على اختيار التغيرات المختلفة التي تشاهد في اللغات التي يتكلمونها خاصة بالمعنى . وقد تكون هذه

(١) نيروب Nyrop : رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ ..

(٢) جوستاف كوهين : « خطاب بمناسبة افتتاح كرسي اللغة الفرنسية وأدبها بجامعة

أميستر دام . » باريس شامبيون (١٩١٢) ص ١٣ .

الدراسة مضنية ، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء . بل من الممكن ألا نخرج منها بنتيجة محددة وأن نصل في النهاية إلى أن نكشف عند جميع الشعوب اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب ، هي ميول العقل الإنساني نفسه . ولكن قد نصل أيضاً إلى إقامة بعض الحدود وتحديد بعض دقيق الفروق . فأغلب الظن مثلاً أن تكشف لنا المفردات الإنجليزية عن احترام للأشياء الدينية وللاشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم أكثر مما نجد منها في مفردات الفرنسية . وقد تطلعنا هذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانين والفرنسيين . فكلاهما مثلاً في خديشه العائلي يألف إطلاق أسماء بعض الحيوانات على الأشخاص ؛ ولكن الفرنسي يخلط بهذا الاستعمال عاطفة من السخرية والاحتقار أو القذف . أما الألماني - وهو أكثر عاطفية من صاحبه - فيفضل أن يلونها بلون من العطف . فالحمى هلمر Helmer ، من أبطال رواية لإبسن Ibsen ، يبدو للفرنسي مضحكا ، إذ ينادى امرأته كل حين بالمصفورة أو بالسنجاب . ولكن هذه الألفاظ التي تدل على اللطافة لا تعد جارحة في اللغة الإسكنديناوية ولا في اللغة الألمانية .

وعلى العكس من ذلك ، يميل الفرنسي إلى أن يربط أفكاراً مخزية أو فاحشة بالأسماء التي تدل على أشخاص من الجنس اللطيف : وقد أصيبت برشاش هذا الانحراف أسماء الأعلام Jeanneton, Goton, Catin والأسماء المشتركة garce و gouge و donzelle و fille [تدل في الأصل على معنى بنت أو امرأة ، والآن أصبحت من الشتائم المقذعة] : ولن تلبث كلمة demoiselle « آنسة » أن تصاب بما أصيبت به سابقتها .

إن أعنف الكلمات التي يتأق للغضب أو البغض أن يستخدمها ، قد تستعمل أحياناً في اللطافة ؛ فتستخدم استخدام عبارات المداعبة اللطيفة البريئة من كل احتقار أو ملام . فن المؤلف أن يدعى الطفل polisson « فاجر » أو petit coquin « الخبيث الصغير » ويوصف الصديق بأنه bon bougre « المعتوه الطيب » أو vieille canaille « الوغد العجوز » . كذلك الكلمات Luder أو Schelm في الألمانية و ctverák في التشيكية يمكن أن يقال على سبيل

الملاطفة ، وهى شتائم فى الأصل . ولكن الأم الفرنسية لاننادى طفلها : «mon petit pouilleux » « يا صغيرى القمّل » كما تفعل الألمانية إذ تقول بلا حرج mein Lausbube . فهناك شىء من الفرق ؛ ولكن هذه الاستعمالات رهن بالعرف بل وقصيرة الأجل . ويمكننا بسهولة أن نستخرج من الألمانية بعض العبارات الأليفة التى تبدو لنا خالية من الروح مثل das ist mir Wurst und egal ! « هذا لا يعنينى » ؛ و nicht die Bohne بمعنى « كلا ، مطلقاً ! » و kein Bein « لا أحد » الخ . ولكن العبارات الفرنسية مثل « la jambe » أو « la barbe » أو « la ferme » ليست أكثر منها تميزاً وذكاء . وإذا كان فى وسع التغيرات المعنوية أن تعرفنا بالسكيولوجية ، فإنها ليست أقل قدرة على تعريفنا بظروف الشعوب الاجتماعية .

إن فكرة « من الخارج » و « من الداخل » يعبر عنها فى معظم اللغات الهندية الأوروبية بمقابلة البيت بالحقول . و « dehors » (تعنى حرفياً « خلف الباب » أى كل ما يقع فى الجهة الأخرى من الباب : فى اللاتينية foris ، foras وفى الإغريقية Θύραζε, Θύρασι, Θύραρι dar ؛ وما هو فى الحقول : فى الإيرلندية immach ، immaig (من mag « حقل ») وفى البريتانية ermeas (dirveas ، cmeas) ، وفى اللتوانية laukan , leuke (« حقل ») ، وفى الأرمنية artakhs (art « حقل ») والإغريقية تستعمل المقابلة بين Θύρασις, οἰκεῖος للإشارة إلى ما هو أجنبي عن الأسرة وما هو منزلى ؛ عن الأشياء التى من الخارج وأشياء المنزل . وهذا يكشف عن حالة اجتماعياً كانت فيها الأسرة جميعها تقيم فى المنزل وكان الباب الخارجى يعلم حدود الحى العائلى .

تفسّر الروابط العائلية أيضاً الاستعمال المجازى لبعض أسماء القرابة الذى نقابله فى كثير من اللغات . فكون كلمة nepos تطلق فى اللاتينية على السفيه وكلمة Schwager تطلق فى الأنية على سائق عربة البريد يمكن تفسيره على أنه نوع من المزاح ؛ ويطلق اسم « العم » فى الألمانية على شيخ محبوب فعال للخير ،

واسم العمة على الشخص العابس الكثير التقريع (die Tante Voss) . في كل هذه الاستعارات تبدو بكل بساطة روح الخبث التي هي صورة من صور البصيرة الشعبية . وبالعكس عندما تستعمل الكلمة الدالة على ابن الأخ [أو ابن الأخت] للدلالة على المنافس كما في السنسكريتية (bhratrivyas) ، فإن هذا الاستعمال يكشف لنا عن نظام عائلي كانت فيه العلاقات بين العم وابن أخيه مختلفة اختلافا شاسعاً عما هو سائد في عائلات اليوم .

تسكون الثروة عند الشعوب الرعاة من القطعان بطبيعته الحال ؛ حيث تقدر الثروة برأس الماشية ، وبذا تصير الماشية عملة نقدية ؛ هكذا كانت الحال عند الهنود الأوروبيين ، وقد احتفظت اللغات الهندية الأوروبية بآثار عديدة من هذه الحال البدائية . حيث كانت الماشية ، وهي الثروة الوحيدة ، تستعمل استعمال النقود . فهو ميروسن يتكلم عن بنات ἀλφεσίβοια « أحضرن ثيراناً » لوالدهن ، يكتنن بذلك أنهن لما كنَّ مرغوباً فيهن ، فسي دفع فيهن الراغبون مبالغ طائلة . والقانون الإيرلندي يقدر الفرائم والأثمان عادة برءوس الماشية ؛ فالمرأة المسترقّة (cumal) تساوي ثلاث بقرات ، وكلمة cumal نفسها صارت نوعاً من النقد ^(١) . وكانت قيمة جميع المواد التجارية تقدر بهذه الصورة في القوانين الغالية (القرن العاشر) ؛ ونقرأ في الـ Mabinogion ، وهي أخبار غالية من العصور الوسطى ، أن زينة هذه الحلة أو تلك تكلفت ثلثمائة بقرة . ولكن لدينا خير من هذا . ففي عدد من اللغات تستعمل كلمة واحدة للدلالة على النقود وعلى الماشية في آن واحد ، وإذا كان من هذه اللغات ما قصر الكلمة على أحد المعنيين ، فإن تأخر الزمن الذي وقع فيه هذا القصر يسمح لنا أن نتبع أصلها دون عناء وأن نقصر هذا التخصيص . فكلمة pecunia اللاتينية ليست إلا إحدى مشتقات pecus « ماشية » وكلمة Vieh أصبحت لا تطلق اليوم في الألمانية على الماشية ، ولكن قرينتها fee تطلق في الإنجليزية على نوع من الأجر . وهنا اسم الماشية كان في المبدأ . وعكس

(١) يذكر في الوثائق الخاصة بالقدّيس پترس Saint Patrice أن حصاناً يبيع بـ cumal

من النقود . (Codex Ardmachannus, fo 17 ba) .

ذلك قد وقع أيضاً : فكلمة χτήνος التي تطلق في الإغريقية القديمة على « المملوك » تطلق عند هيردوت على رأس الماشية وتدل في إنجيل لوقا على دابة الحمل ؛ وكلمة χτήμα شريكها في الأصل والتي لا ترى مستعملة في الإغريقية الكلاسيكية إلا في معنى « ملكية » (فيما عدا في أتييجونا لسوفوكل : ٧٨٢) تستعمل في إقريطش بمعنى « ماشية » في أيامنا هذه . والكلمة الأنجلوسكسونية créap (وهي تشترك في الأصل مع الكلمة الألمانية kaufen « يشتري ») تعني « تجارة » أو « ثمن الشراء » ولكنها تطلق أيضاً على الماشية . والكلمة السلافية skotŭ (ولعلها مستعارة من الجرمانية : ففي القوطية skatts « نقود ») تطلق منذ أقدم النصوص على « الماشية » وعلى « الثروة » معاً .

فنرى هنا أن بعض العوامل الاجتماعية تتدخل في تطور المفردات ، تلك العوامل التي لم نكن قد قابلناها حتى الآن إلا مصادفة . وستظهر في صورة أوضح في الفصل التالي .

الفصل الثالث

كيف تغير الأفكار أسماءها

نشرت دراسات عديدة تبين كيف تغير الألفاظ معانيها . ولكن هذا السؤال يمكن أن يدار على وجهه الآخر . فهناك مجال أيضاً لدراسة كيف تغير المعاني الكلمات ، أو بعبارة أصح كيف تغير الأفكار أسماءها .

إذا قارنا مجموعة المفردات في عصرين متباعدين من تاريخها ، أدهشنا مقدار الخلافات التي نعث عليها في مضير الكلمات . لنقابل مثلاً بين المفردات الفرنسية والمفردات اللاتينية أو بين المفردات اللاتينية والمفردات الهندية الأوربية ، وسنجد أن بعض الكلمات التي تدلّ على أشياء واحدة قد استمر بقاؤها باطراد تام ، غير خاضعة إلا للتغيرات الناجمة من التطور الصوتي ؛ وأن بعضها الآخر قد جدد مرة أو أكثر من مرة . فقد استعضنا عن كلمة *chef* القديمة المأخوذة من اللاتينية *caput* بكلمة جديدة هي *tête* « رأس » من *testa* ، وهذه بدورها كثيراً ما استبدل بها كلمات أخرى في اللغة الشعبية ، مثل : *caboche* و *fiolle* و *bobine* الخ . والإغريقية الحديثة جددت مفردات قديمة من تلك التي يكثر دورانها على الألسن أي التي يظن أنها أقل تعرضاً للتغير من غيرها : فهي تقول اليوم *ψωμί* بدلاً من *ἄρτος* « خبز » و *χρᾶσί* بدلاً من *οἶνος* « نبيذ » و *νερό* بدلاً من *ὕδωρ* « ماء » و *σπίτι* بدلاً من *οἰκία* « بيت » و *ματι* بدلاً من *ὀφθαλμός* « عين » و *πουλί* بدلاً من *ὄρνις* « طائر » الخ .

وإذا درسنا المفردات في جميع اللغات التي نعرف تاريخها ، أمكننا بكل يسر أن نكون مجاميع من هذا القبيل ؛ لأن المفردات في كل اللغات قد خضعت لهذا التجديد إن قليلاً وإن كثيراً . وأسباب هذا التجديد معقدة ؛ وأحياناً تندّ عن كل

بحث . ذلك لأن حالات الكلمات جد غريبة ، تتوقف على عوارض يستحيل أن تنبأ بها قبل وقوعها كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها إذا لم يعدنا التاريخ بما يدل عليها . ومع ذلك فهناك أسباب عامة لتجديد المفردات ، تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها . ويمكننا اعتبار هذه الأسباب من وجهين : من وجهها الفردى فى سيكولوجية التكلم نفسه ، ومن وجهها الاجتماعى فى الاستعمال اللغوى الذى تقوم به البيئات الاجتماعية .

يتخلص المتكلم عادة من الكلمات التى لم تعد كافية للتعبير عن المعنى الذى نيط بها التعبير عنه ، لأنها ضعفت وبليت . وهذا البلى نفسه يمكن أن يرجع لأسباب صوتية أو لأسباب معنوية .

الكلمات القصيرة ينقصها التعبير غالباً . وإذن فالتغيرات الصوتية بتقصيرها للكلمات تعرضها للبلى . لذلك لم يعد عندنا فى الفرنسية ولا فى أية لغة رومانية أخرى ، أثر للكلمة اللاتينية *os* « فم » . واستعضنا عن الكلمة القديمة *ive* (من *equa*) بكلمة *jument* « فرس » التى هى أقوى منها بنية . ونعرف أن اللاتينية العامية اضطرت إلى إطالة بعض الكلمات بواسطة الالواحق لتحفظها من الضياع : فالكلمات *opis* ، *auris* و *sol* صارت *apicula* و *auricula* و *soliculus* ، ومنها جاءت الكلمات الفرنسية *abeille* « نحلة » و *oreille* « أذن » و *soleil* « شمس » . فاللاحقة هنا ليست لها أية قيمة تصغيرية ، كما قيل أحياناً ؛ بل القصد منها إنما هو تزويد الكلمات بالحجم ، أى بالمادة التى كانت تنقصها . ولولا عملية التطعيم اللغوى تلك ، لمات عدد كبير من الكلمات بعد أن لفظها الاستعمال ؛ ومثل ذلك كلمة *ains* التى يبدو أن لبرويير *La Bruyère* كان يأسف عليها ؛ فإذا كانت هذه الكلمة قد هجرت ، فذلك بسبب صيغتها ؛ فهى وحيدة المقطع ، وتبدأ بحركة وتنكون فقط من حركة أنفية ، فكان مصيرها الهلاك .

هناك أيضاً ميل لطرح الكلمة التى صارت ، بسبب عوارض صوتية ، كبيرة

الشبه بغيرها . فنعالج العقبات الناجمة من تشابه الكلمات بواسطة الاستعاضة عن إحدى هذه الكلمات بكلمة جديدة . ومثل ذلك الكلمة التي تمثل صوتياً الكلمة اللاتينية serrare « ينشر » ، فإنها لم تبقى حتى اليوم إلا في أما كن متفرقة من الأقاليم المتكلمة بالفرنسية ،^(١) وكانت من قبل ذات ميدان انتشار مترام الأطراف متلاصق متجانس . فإذا كانت قد استعوض عنها في كثير من الأماكن بكلمات متأخرة عنها في الاشتقاق ومأخوذة من الأصول اللاتينية secare أو resecare أو sectare فذلك لأنها كانت تشبه الفعل serare « يغلق » شها يكاد يكون تاماً ، وكان هذا الشبه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو التماثل الكامل . ونشأ عن ذلك شيء من العسر حاولت اللغة أن تتخلص منه في كل الأماكن التي كانت تستعمل الفعلين معاً .

يرجع التجديد في هذه الحالات جميعاً إلى عارض صوتي . ومع ذلك لا ينبغي أن نبالي في أهمية الصوتيات . إذ من النادر أن تستطيع وحدها تفسير كل شيء . فالكلمات التي تركها الاستعمال لصيغتها كانت تحتوى أحياناً على دواعي أخرى لهذا الترك . واللغات نفسها كثيراً ما تقاوم . فالسياق يحمي الألفاظ المتماثلة من خطر اللبس ؛ وهذا يسمح بالإبقاء عليها دون إضرار . وتستطيع اللغة حماية الكلمات القصيرة وتعزيدها بأن تسندها بكلمات أخرى بصفة دأمة . فالصفتان sain « سليم » و sauf « معافى » ، لا توجد إحداها بمعزل عن الأخرى بل تتحدان معاً ؛ وبهذا تأتى لهاتين الماجزتين أن تقويا على المقاومة : فيقال sain et sauf « سليم معافى » . وليس أعلام الأما كن من الأسماء التي يسهل على الإنسان أن يتركها للضياع ؛ فإذا كانت وحيدة المقطع حاولت اللغة أن تحافظ عليها بأن تضيف إليها أسماء مشتركة تسندها ؛ وبذا صارت الكلمات ain « اسم نهر » و Eu « اسم مدينة » و Batz « اسم قرية » على الصورة الثانية : la rivière d'Ain « نهر الإين » و la ville d'Eu « مدينة أو » و la bourg de Batz « قرية باتز » . وأحياناً بإضافة عنصر إليها يمد من طولها : فيقال في Bourg (اسم مدينة)

(١) جليرون : رقم ٧٥ .

« بور » (Bourg - en - Bresse) أو أن يقال بكل بساطة Bourk بنطق الكاف المتطرفة : بورك) : هذه كلها أنواع يعالج بها البلى الصوتى .

وليس البلى المعنوى أقل خطورة من ذلك . فكثر استعمال تبلى الكلمات فى معناها وفى صيغتها ؛ ولا سيما إذا كانت من الكلمات المعبرة ، لأن قيمتها التعبيرية تتضاءل بسرعة فى الاستعمال . فتصبح الكلمة معتمة بالية . وفى حالة التعبير عن انفعالات النفس مثلاً ، نرى أقوى الكلمات تخطو نحو المحمول شيئاً فشيئاً حتى تنتهى بالإهمال ، لأنها لم تعد معبرة . ويمكننا تحقيق هذه الحقيقة فى حالة التعبير عن الكمية ، ولا سيما الكمية الكبيرة ، وبالتالى عن التجاوز والخروج عن الحد . فالكلمة الفرنسية beaucoup « كثير » حلت محل الكلمة القديمة moult (من multum) ؛ ونحن نعرف أن beaucoup نفسها قد استعاض عنها فى اللغة الجارية بعدد كبير من الأبدال : مثل un grand nombre « عدد كبير » و une foule « جمهور » و des quantités « كميات » و des tas « أكوام » و « des flottes » أساطيل ، الخ ؛ وذلك تبعاً لموضوع الكلام ولدرجة التعليم عند المتكلم أيضاً .

فى كل اللغات التى لا تميز التفضيل المطلق بإضافة لاحقة خاصة ، وإما بإضافة ظرف إلى الصفة ، نرى هذا الظرف نفسه يتخذ له على العموم صيغاً متنوعة . بل إن استعمال الظرف لم يكن منعماً فى الإغريقية القديمة نفسها رغم وجود اللاحقة الدالة على التفضيل المطلق فيها : فكان يقال فى الإغريقية : λίαν, πολύ, ἐπιπολύ, وفى اللاتينية magis, ualde, maxime, الخ (قازن ماتقدم فى ص ٢٦٢) . وفى الفرنسية خلقنا الظرف très « جداً ، يتجاوز » وهو عين الكلمة اللاتينية trans « عبر ، من خلال ، فيما وراء » (لاحظ هذا التطور نفسه فى الإنجليزية فى thorough, thoroughly « تماماً » وفى الألمانية durch und durch « كلية ») . ولكن très أصبحت اليوم مبتذلة وفقدت كثيراً من قوتها ، فأصبحت لا تكفينا فى إعطاء التفضيل المطلق قيمته اللائقة به . لذلك نرانا نقول عن إنسان مثلاً بأنه archifou

« مجنون للغاية » أو ultra - réactionnaire « رجمي فوق الحد » أو تستعمل ظروفًا مثل parfaitement « تمامًا » أو complètement « كلية » أو absolument « مطلقًا » أو tout à fait « للغاية » ، الخ . ووفرة ظروف التفضيل تلك في الفرنسية أمر معروف ؛ حتى لقد يتعذر إحصاؤها ، لأن كل شخص يخترع منها ما شاء له هواه . وبعض هذه الظروف يمكن أن يفسر من تلقاء نفسه ، مثل grandement ، fameusement ، extraordinairement ، épatamment . ولكن الصفة التي اشتق منها الظرف كانت تضعف بقدر ما كانت تقوى القيمة التفضيلية . فكان العقل قد أهمل الأصل ليركز انتباهه في اللاحقة ment - التي أصبحت جزء الكلمة الرئيسي . ويكفي للتعبير عن التفضيل المطلق على وجه العموم أن يدل الأصل على شيء فيه فكرة القوة والخشونة أو الغلظة ؛ ومن ثم استعملت للتعبير عن التفضيل المطلق هذه الظروف : rudement ، salement ، bonnement ، terriblement ، effroyablement furieusement الخ .

وهذا غير مقصور على الفرنسية . فالألمانية المتداولة قد تصف امرأة بأنها furchtbar nett لطيفة بإزعاج ، بشكل مزعج ، يعني « لطيفة جداً » أو furchtbar süß « حلوة بشكل مزعج » ، وتستعمل عبارات مثل hübsch artig « خبيث بشكل جميل ، خبيث جداً » و hübsch gesund « سليم بشكل جميل ، سليم جداً .. » ؛ وذلك كما تقول الإنجليزية pretty dirty (قدر بشكل لطيف « قدر جداً ») . ولما لم يكن في الألمانية والإنجليزية علامة خاصة تُوصل بالظرف ، كانت قيمة الكلمات furchtbar و hübsch و pretty متوقفة فقط على مكانها ونبرها وعلى كونها لا تنفصل من الصفة التي تتبعها والتي تكون معها كلمة واحدة بالنسبة للعقل . فنحن في الواقع أمام خلق لدالة نسبية ، ولكنها دالة نسبية تعبيرية (انظر ١٨٠ ، ١٨٦) .

كل الكلمات التي لها قوة تعبيرية أيًا كانت ، معرضة لضعف قيمتها ، وهذا بدورهِ يبعث على التجديد . وكم في كل لغة من عبارات تدل على شيء كرهه ثقيل ؟

يقال في الفرنسية وحدها *crispant* ، *fatiguant* ، *embêtant* ، *ennyuant* ، *barbant* ، *rasant* ، *tuant* ، *assommant* ، *étreintant* ، *esquintant* ، *canulant* ، الخ ، وهي كلمات غير مترادفة وتنتمي إلى لغة أوساط متنوعة ، ولكنها جميعاً تتنافس في الدلالة على ما تدل عليه ، وستبلى هي الأخرى أيضاً بكثرة الاستعمال حتى يضطر الحال إلى اختراع غيرها .

إذا كانت الفكرة أو الشيء من الأفكار أو الأشياء التي تثير إلى جانب قيمتها الأساسية قيمة ثانوية تبعاً للأوساط والظروف ، وجدنا عنها في اللغة عبارات متنوعة . وتدخل النقود في هذه الأشياء ، فلها في كل لغة عبارات عديدة . فيقال عنها في الفرنسية : *de la douille* ، *du pognon* ، *de la braise* ، *de la galette* : الألمانية *du plâtre* ، *du pèze* ، *de l'os* ، *du beurre* الخ ؛ وفي الألمانية تستخدم الكلمات *Moos* ، *Kies* ، *Draht* مرادفة للكلمة *Geld* . وبالطبع يعبر عن فعل « نقد » بصور مختلفة تبعاً للأوساط ؛ فيقال في الفرنسية *verser* و *casquer* و *cracher* و *éclairer* ، الخ ، وفي الألمانية *bluten* و *blechen* و *berappen* . ونجد في اللغات المختلفة للتعبير عن فكرة *tromper* « يخدع » صوراً متنوعة من هذا القبيل . والضوضاء تنجم عن أسباب مختلفة ، ومن ثم تنوعت طرق التعبير عنها : فيقال في الفرنسية *du potin* ، *du barouf* ، *du* ، وفي الألمانية *du chambard* ، *du pétard* ، *du raffut* ، *chahut* و *Randal* و *Krakehl* ، الخ .

قد يحتج بأن الكلمات التي ذكرت هنا ، كلها من العامية الخاصة *argot* ، والعامية الخاصة تنحصر في استعمال مفردات خاصة . ولكن هذا احتجاج باطل ، لأن العامية — كما سنرى في فصل لاحق — تنتج من ظروف طبيعية للغة ؛ واللغة الخاصة ليس معناها لغة اصطلاحية بآية حال . فسالك العامية الخاصة مسالك طبيعية لا غبار عليها . وإذا كانت الحاجة إلى التجديد أظهر في العامية الخاصة منها في غيرها ، فارجع ذلك إلى استعمال هذه العامية الخاصة لغة للكلام ، والتعبيرية في لغة الكلام ضرورة دأمة (أنظر الفصل الثاني من الجزء الرابع) .

على أنه لا يوجد حدّ فاصل بين العامية الخاصة وبين اللغة التي يتكلمها جميع الناس . فكلم من ألفاظ ، تعدّ من أنبل الكلمات وأوغلها في الروح الأدبية ، قد استعيرت من العامية الخاصة ! من ذلك كلمة tête « رأس » بالنسبة لكلمة caput : وإذا انتزعت tête من عرشها يوما لتحل محلها bobine أو fiole ، كان ذلك انتصاراً جديداً تسطّره العامية الخاصة في قائمة انتصاراتها . فتسمية الرأس باسم إناء من الآنية أمر طبيعي وقع في لغات أخرى ، ولا سيما في الجرمانية ، حيث تشترك كلمة Kopf « رأس » مع الكلمة اللاتينية cupa في أصل واحد ، والاسكندنافية اشتقت kollr « رأس » من kolla « إناء » . وأسماء أجزاء الجسم كثيراً ما تبعت على استعمال استعارات من هذا القبيل ؛ وإن لم تكن كلها في ذلك سواء . فاسم « القَدَم » مثلاً قد بقى واحداً لا يتغير في كثير من اللغات ، ولكن اسم السيد تجدد أكثر من مرة ؛ واستعير في الدلالة عليها بأسماء تدلّ على الكلابيّة والملقط والملعقة ، الخ ^(١) . ويرجع ذلك إلى أن اليد تستخدم في أمور أكثر تنوعاً من القدم ، وخاصة في أمور تبعت هي نفسها على التجديد في التعبيرية . فلفكرة الأخذ مثلاً عبارات عديدة في كل اللغات .

فكرة « التكلم » أيضاً تختلف بدورها باختلاف العواطف التي تثيرها ^(٢) . والأفعال التي معناها « تكلم » تبلى بسرعة . فها نحن أولاء في سبيل إحلال causer محل parler « يتكلم » . والفعل parler نفسه دخيل متأخر على اللاتينية (parabolare) ؛ أما الفعل القديم loqui فقد مات منها ؛ وهذا الفعل loqui نفسه كان تجديداً في اللاتينية (أو الإيطالية الكنتية) في معنى « يتكلم » العام . واللغات الكنتية الحديثة الأساسية الثلاث تستعمل للتعبير عن هذه الفكرة ثلاثة أفعال مختلفة هي : labhram في الإيرندية و siarad في الغالية و komps في البريتانية ؛ ويقال في الإنجليزية speak وفي الألمانية sprechen وفي القوطية

(١) أولسين Uloszyn ، رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ميشيل بريال Michel Bréal ، رقم ١٢ ، مجلد ١٤ (١٩٠١) ، ص ١١٣ ؛ وكارل د. بك Karl D. Buck ، رقم ١٩ ، مجلد ٣٤ ، ص ١ — ١٨ و ١٢٥ — ١٥٤ ، المية : رقم ٦ ، مجلد ٢٠ (١٩١٦) ، ص ٢٨ .

mathljan وفي اللتوانية tarti أو kalbėti وفي السلافية المشتركة ¹ glagolat (في الروسية 'molvit' ، 'govorit' وفي البولونية 'moivic' ؛ وكل هذه الأفعال حديثة العهد نسبياً في اللغات التي تستعملها ، كما كان الفعل ἀγορεύειν في إغريقية هوميروس على وجه التأكيد . فوجود هذه المجموعة الكبيرة ، التي يمثلها هذا الفعل ، يفسر بالبلب المعنوي الذي يضطر إلى التجديد .

وأحياناً يرجع التجديد إلى الرغبة في المخالفة . فهناك أشياء تسلك أزواجاً ويصرّ الذهن على التفريق بين أفرادها إلى حدّ أنه إذا تشابه اسماء فردين من هذه الأشياء نتيجة مصادفة ما ، اختفى أحدهما وحلّ غيره محله ليمتدّ التمييز بين المسمين واضحاً . هذه هي الحال مع التمييز بين الجنسين في بنى الإنسان وفي الحيوان . والزواج الأساسى الذى اتخذ مثالا يحتذى في كل ما عداه ، هو الأب والأم اللذان لهما في كل الحالات وفي كل الأماكن اسمان مختلفان (من حيث الأصل بالطبع) . ووفقاً لهذا المثال سمّي عدد آخر من الأزواج بأسماء مختلفة : الزوج والزوجة ، الأخ والأخت ، العم والعمة ، الخ . وأغلب الظن أن الاحتفاظ بهذه المخالفة على هذا النحو من العناية يرجع إلى ميل عام في الذهن . وقد احتفظت الفرنسية بالكلمتين fils « ابن » و fille « بنت » اتباعاً لللاتينية ، ولكنها عند مقابلة الجنسين أحدهما بالآخر ، لا تستعمل الآن fils « ابن » بل garçon « صبي » ، فيقال : filles et garçons « بنات وصبيان » . هذا إلى أن اللاتينيين بخلقهم للزوج filia ، قد خالفوا الاستعمال الجارى في الهندية الأوروبية ، هذا الاستعمال الذى احتفظت به اللغات الجرمانية والسلافية وكذلك الإغريقية . فالكلمة لم تبق الأسماء القديمة ، ولكنها احتفظت بالمقابلة ؛ في الإيرلندية mac ، وفي البريطانية map « ابن » وفي الإيرلندية ingen وفي البريطانية merc'h « ابنة » .

الكلمة اللاتينية dominus « سيد » ومؤنثها domina « سيدة » قد أصبحتا في الفرنسية صيغة واحدة كان المقصود منها أن تطلق على الجنسين . وقد بقيت لنا ذكرى من dame مذكراً في صيغة التأنّف dame المختصرة من عبارة Dame - Dieu « السيد الإله » وفي اسم vidame « نائب السيد »

(وهو لقب لنائب الأسقف في الأمور المدنية قديماً) « ؛ ولكنها ليست أكثر من ذكرى . فلم يبق إذن في اللغة إلا الكلمة المؤنثة وخلق لها مذكر جديد هو monsieur « سيد » . وقد وقع هذا الشيء بعينه في الألمانية : فالسكلمة الألمانية Frau « سيدة » (frouwa في الألمانية العليا القديمة) كان لها مذكر إلى جانبها ، وهو frø (في القوطية frauja) . وقد مات هذا المذكر ضحية أيضاً لشدة شبهه بالموث الذي يقابله . وتستعمل الألمانية اليوم Herr « سيد » في مقابلة Frau كما تستعمل الفرنسية monsieur في مقابلة madame والإنجليزية gentleman في مقابلة lady .

وهذه المقابلة شائعة في أسماء الحيوانات . فاللاتينية تقول equa ، equus ، ولكنها تقول taurus و vacca ، aries (أو uerues) و ouis ، catus و feles ؛ uerres و scrofa . والفرنسية تقابل cheval « حصان » بـ jument « فرس » ، كما تقابل الألمانية : Pferd بـ Stute والإنجليزية horse بـ mare . ومنع ذلك كان في وسعنا أن نقول chevale « حصانة » كما نقول chatte « قطرة » أو chienne « كلبة » . ونحن كذلك الذين خلقنا le mouton « الخروف » و la brebis « النعجة » ، le bouc « الجدى » و la chèvre « العزرة » ، le porc « الخنزير » و la truie « الخنزيرة » ، le cerf « الوعل » و la biche « الوعلة » ، le sanglier « الخنزير البري » و la laie « الخنزيرة البرية » ، le coq « الديك » و la poule « الدجاجة » ، le lièvre « الأرنب البري » و la hase « الأرنب البرية » . فهي صورة خاصة من الإحساس بتقابل النوعين ، تلك التي تلعب في كثير من اللغات دوراً هاماً .

لا تستطيع السيكلولوجية ، حتى في الأمثلة السابقة ، أن تفسر لنا كل شيء . فالبلي الذي يصيب الكلمات يرجع دائماً ، ولو بمقدار قليل ، إلى البيئة الاجتماعية التي تستعملها . وإذن يجدر بنا أن نناقش مسأله تجديد المفردات من الوجهة

الاجتماعية . فالأسباب الاجتماعية واضحة جداً في تغير الكلمات مراعاة للياقة (١) . إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفظاظة أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التي تعبر عنها من بين المفردات التي يستعملها الأشخاص المهذبون . فللتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للأذن . لذلك لم نستبق نحن كلمة واحدة من من مشتقات الفعل اللاتيني *mingere* « يبول » والفعل *pisser* الذي استغضنا به عن السابق لم يعد هو الآخر يستعمل في مجتمع راق ، بل يستعاض عنه بالفعل *uriner* الذي هو أقل منه خشونة . ولم يُنجِج الفعل *vomir* « يقى » من الضياع إلا ما له من صفة طبية ؛ ولكنه تعبير خشن ويستعاض عنه بأبدال مثل : *rejeter* و *rendre* و *s'expliquer* الخ . والألمانية أيضاً تستعوض عن *ausbrechen* بـ *sich über-geben* .

والذي يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف . واللفظ بذاته يختلف حاله في إقليم عنه في الآخر . فكلمة *pissoir* « مكان البول » في الألمانية أقل منها جرحاً للأذن في الفرنسية . لأن إستعارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذي يعبر بها عنه ؛ فهي تلعب دور الكناية . وهناك أفكار يعبر عنها غالباً بالكناية ؛ ومنها فكرة الموت ، فبدلاً من *mourir* « يموت » تقول الفرنسية *périr* « يفنى » ، *passer* « يمر » ، *trépasser* « يعبر » ، *décéder* (معناها الأصلي « يذهب ») ، *s'endormir* « ينام » *rendre son âme à Dieu* « يرد روحه إلى الله » ، الخ ؛ أو تستعمل فقط *partir* أو *s'en aller* « ينطلق » ، وكان يقال في القوطية *usqiman* ، ويقال في الألمانية *erblassen* ، *vergehen* ، *verbleichen* . هذه العبارات المخففة تصور شبح الموت في صورة أقل إيلاماً .

عدد الكلمات الجارحة وطبيعتها يختلفان باختلاف البيئات والعهود . فيزداد عددها بالطبع في عصر الرقة حيث يصطبغ المجتمع بالصبغة التي تضيفها عليه النساء . ويصل الحال إلى التضيق من دائرة المفردات شيئاً فشيئاً ، حتى لا يتكلم

(١) انظر هـ . شلتس H.Schulz ، رقم ٣٦ ، مجلد ١٠ ، ص ١٢٩ — ١٧٣ .

الناس إلا تلميحاً . ولما كان يتحتم عليهم دائماً أن يجدوا كلمات للأشياء كما دعت إلى ذلك فرصة ، فإنهم يضطرون إلى تجديد المفردات .

وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة « عملية » opération التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة . لا يسمعوها المريض حتى يتصور الآلات المربعة والملابس الملوثة بالدماء والجسم وقد طواه الألم طياً . فكلمة opération « عملية » ضخمة الصور التي تثيرها . لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها بكلمة intervention « تدخل » لأنها أنضجدة منها ، وأكثر تحفظاً وأشد غموضاً أيضاً ، لا يهلع لسماعها قلب المريض . والكناية euphémisme ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات (انظر ص ٢٣٧) . فكثيراً ما يقع لدى المتوحشين أن يكون لبعض الألفاظ طابع من السرية والخفاء يمنع بعض الأفراد من استعمالها . ولكن ليس في لغاتنا الأوروبية شيء من هذا التحريم . فقد قضت المدنية على تلك البقايا المتبربرة . غير أننا إذا رجعنا إلى تاريخ أكثر اللغات مدنية ، وجدنا حواش من هذا التحريم لا تقل صراحة عما عند الأمم المتوحشة (١) .

تعد الجهة اليسرى عند كثير من الشعوب جهة السحر ، جهة القوى الخفية التي لا يحسن إيقاظها . لذلك كثيراً ما قضى بالتحريم على اسم اليسار وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة والاستعارات للتعبير عن اليسار . فإن كان العدد الأكبر من اللغات الهندية الأوروبية قد احتفظت لذلك بكلمة واحدة للدلالة على اليمين ، فإنها تستعمل للدلالة على اليسار كلمات متنوعة ، لا تستعمل الكلمة منها في غالب الأحيان في أكثر من لغة واحدة أو لغتين ، وهي حتى في هذه اللغات نفسها قد تعرضت بدورها للاقصاء والاستبدال .

آكد علامة للدلالة على التحريم الذي أصاب بعض الأفكار أو بعض الأشياء هو وجود الاستعارات (مثل εὐφροσύνη « الفاحشة الأمانة » أو ἀβροσύνη « الذي لا أحد فيه ليلا » . ولكننا قد نجد هذه العلامة أيضاً في تنوع العبارات

(١) ميه : Quelques hypothèses sur les interdictions de vocabulaire

dans les langues indo - européennes (عام ١٩٠٦) .

التي تستخدم للدلالة^(١). في الإيرلندية اثنا عشر اسماً للدب ومثلها « للسالمون » :
ونحن نعرف ، من مصادر أخرى ، أهمها من الحيوانات التي جعل منها الخيال
الشعبي تابوهات tabous . وحيوانات الصيد على العموم تحاط بقوى سحرية ،
فما أكثر تابوهات الصيادين . كذلك يُدلّ بالترادفات في غالب الأحيان على
الحيوانات البرية .

لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب
بل يتعداه أيضاً إلى تشويه الكلمات الموجودة . فتغيير حرف من الكلمة أو نقله
يخفف ما تنطوي عليه من الخطر أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها
الدلالية . وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور .
فالحجاب لا يستر إلا الجهات الجارحة والمؤذية للحياء ، ويشفّ عن معالم الكلمة
الكبرى ولونها العام . ونرى الشتائم في كثير من اللغات تصاب بشيء من
التشويه المقصود الذي يمكن من إدخالها في أرق الأوساط ؛ مثل bigre أو
fichtre ويقال : pardienne ، pargnieu parbleu ، palsambleu ،
بدلاً من par le sang de Dieu « بدم الإله » أو par Dieu « بالله » .

ولما كانت أسماء المثالب والعامات معرضة للنهي بشكل خاص ، فلا ينبغي أن
ندهش حين نرى الجرمانية تشتق من أصل واحد يدل على عاهة جسمانية ثلاث
كلمات مختلفة ، وذلك بتعديل عناصره الصوتية ؛ وقد احتفظت القوطية بهذه
الكلمات الثلاث : dumbs ، bauths ، daufs ، وتدل بالترتيب على الضم
والنكس والحماقة (لم يبق منها في الألمانية إلا اثنتان : taub « أصم » و dumm
« أبكم ») . والأمـر هنا يدور حول أصل واحد بقي منه أحد المشتقات في الكلمة
الإغريقية τυφλός « أعمى » (أنظر ص ٢٦٠) .

هناك أصل هندي أوربي بمعنى « قاع أو عمق » ومنه الكلمة الفرنسية
monde « عالم » . هذا الأصل يقدم لنا في اللغات الهندية الأوروبية المختلفة
تشويهاً فريدة في بابها . فقد أحصى منها ثمانى صور أو تسع ، لا يختلف بعضها

عن بعض إلى في تطبيق قوانين المخالفة أو المائلة أو النقل المكاني المعروفة أو باستعمال لاصقة داخلية أنفية . ونعني بذلك الأسرة التي تنتمي إليها الكلمتان الأغريقيتان $\alpha\beta\upsilon\sigma\sigma$ و $\tau\upsilon\theta\eta\nu$ والكلمة اللاتينية $mundus$ والإرلندية $domun$ والغالية $annwfn$ والسلافية القديمة $dũno$ ؛ الخ . وليس من شك في أن تغيرات هذا الأصل ترجع إلى أسباب دينية . فالكلمة التي تدل على القاع ، وبطريق التوسع على العالم كان مقضياً عليها بالتحريم ، وكان يُتجنب النطق بها . فلأجل إمكان سماعها دون خطر أجروا فيها تغيرات تجردها من الأذى دون أن تقضى على إمكان فهمها^(١) . ومما تجدر ملاحظته أن هذه التغيرات مما تحدث طبيعية في اللغة ؛ إذ ترجع كلها إلى تلك التغيرات التي سميها فيما سبق بالتغيرات التركيبية (أنظر ص ٩٤) . فكان اللسان قد زلّ وهو ينطق الكلمة التي نحن بصدها ؛ ولكن الخطأ هنا متعمد . وهذا هو استخدام الحذف والنقل المكاني لغايات خفية أو مراعاة للياقة^(٢) .

يجب ألا نهمل من حسابنا عند دراسة الأسباب الاجتماعية التي تؤدي إلى تجديد المفردات نوع النشاط الذي يمارسه المتكلمون . فالكلمات التي تنتمي إلى نشاط المجموعات الاجتماعية (عقلياً كان أو يدوياً) يطلق عليها كلمات الحضارة . كلما تحقق أى تقدم في الصناعة الإنسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها .

التغيرات التي تطرأ على الآلات تنعكس في المفردات بطبيعة الحال . فالجرمانية المشتركة كانت فيها كلمة تدل على الخبز ، نعت عليها في الفترة القديمة لكل لهجة من لهجاتها ، وهي في القوطية $hlaifs$ (في حالة الإضافة $hlaibis$) . وكان لهذه الكلمة من الأهمية بقدر ما للشيء الذي تدلّ عليه . وقد استعارها اللتوانيون والسلافيون . ويشهد بأهميتها في الجرمانية نفسها عدد المركبات التي اشتقت منها :

(١) فنديرس : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٠٨ .

(٢) نجد أمثلة من هذا التشويه الذي يرجع إلى مراعاة اللياقة أو الآداب في كاديير

Cadière ، رقم ٥٨ ، ص ٣٠ .

ففي الإنجليزية القديمة hlāfward « حارس الخبز » (في أيامنا هذه لورد) و hlœfdige « عاجنة الخبز » (في أيامنا ليدي lady) وفي النروية القديمة : witandahalaiban « إلى سيد الخبز » (في نقش مكتوب بالحروف الرونية ، وهي أقدم الكتابات الجرمانية) . ولكن هذه الكلمة كانت تدل على الخبز غير المحتمر . فلما اهتمدوا إلى تخمير العجينة ، اضطروا إلى استعمال اسم جديد للدلالة على هذا الإجراء الجديد في صنع الخبز . فكانت كلمة brôt في الألمانية العليا القديمة ، braudh في الإسندنيدية القديمة ، وهي كلمة غير موجودة في القوطية ، ولا يثر عليها في الإنجليزية القديمة إلا في عناء كبير .

وقد بقيت الكلمتان المتنافستان في اللغات الجرمانية الحديثة ، ولكن أحدهما هي الأكثر أهمية : فهي الكلمة الألمانية Brot « خبز » والإنجليزية bread ، أما الثانية فبقيت كلمة شبه شعرية أو للاستعمال في معنى خاص ؛ وهي loaf (الجمع loaves في الإنجليزية و Laib في الألمانية ، ومعناها « رغيف » . نخلق كلمة جديدة لا يتحتم عليه هلاك القديمة ، ولكنه يقذف بها غالباً في جزء خاص من المفردات .

اسم الحصان يتجدد في معظم اللغات الهندية الأوروبية . فالكلمة القديمة الواردة في أقدم عهد للسنسكريتية (agvas) والإغريقية (ἵππος) واللاتينية (equus) والكلتية (في الإيرلندية) ech والجرمانية (في القوطية aihva) لم تبق في أية لهجة من اللهجات المتفرعة من هذه اللغات . فالسنسكريتية الكلاسيكية تستعمل hayas أو ghotah (ghotakas) والإغريقية الحديثة تقول ἵππον ؛ والفرنسية قد استعاضت عن equus بـ cheval ؛ وفي اللغات الكلتية نجد marc و gearran و capall (في الإيرلندية) و amws و ceffyl و gorwydd (في الغالية) و marc'h و ronsé والجمع kezek (في البريتانية) ؛ والألمانية تستعمل Pferd على حين تستعمل الإنجليزية horse ، وهما كلمتان جديدتان في الجرمانية . واللغات البلطية والسلافية قد خلقت لنفسها كلمات مختلفة خاصة بها : ففي اللتوانية orklys أو irgas ، وفي السلافية loshad' أو koni . وكذلك فعلت الأرمنية ، إذ تقول :

arivar . فنحن أمام تحول عام . لا يمكننا أن نفسره بأسباب سحرية يمكن أن تكون قد قضت على الكلمة القديمة بالتحريم . فتجديد الكلمة يمكن أن يرجع إلى وجود خيل مختلفة الأجناس ، يهيم الشعوب المعنية بالتربية أن تميز كل نوع منها . ولكن هذا السبب لا يكفي ؛ لأن اسم الكلب ، وأنواعه عديدة أيضاً ، أكثر ثباتاً من ذلك . فالفرنسية لا تزال تقول chien والألمانية Hund والإنجليزية hound والبريتانية ki واللوانية szu والأرمينية shun ، وكلها تنتمي إلى أصل واحد . فإذا كان اسم الحصان قد حُدّد في كل مكان تقريباً ، فذلك لأنه يستخدم في مهام كثيرة : فهناك حصان الركوب وحصان الجر وحصان الحرث وحصان الحرب ، فعبّرت الطبقات الاجتماعية المختلفة عن هذه الوظائف المتنوعة بكلمات خاصة . والإغريقية القديمة تستعمل παρῆγορος للدلالة على cheval de volé^(١) أو cheval de main . وحتى في الاستعمال الحربى يحمل الحصان أسماء مختلفة باختلاف الأعمال التي يؤديها : فحصان القتال destrier غير حصان الاستعراض palefroi . وما أكثر أسماء الحصان في ألمانية العصور الوسطى ، وكلها أسماء مستحدثة : ففيها mör (من اللاتينية maurus) ، و päge (من اللاتينية paganus) و burdihhin (من اللاتينية burdus) و soumâri (من اللاتينية sagmarius) وأخيراً pferid الذي تقدّم ذكره (من اللاتينية paraueredus).

وما أعظم الفرق بين اسم الحصان في طواعيته للتجديد واسمي الثور والبقرة في بقاءهما دون تغير في كل مكان تقريباً (في الإغريقية βοῦς وفي اللاتينية bos والألمانية Kuh والإنجليزية cow والإرلندية bó ، النخ) ، وذلك لأن الثور والبقرة مقصوران ، فيما عدا إنتاج اللبن ، على أعمال واحدة ويؤديان وظائف واحدة . ولكن يجدر بنا أن نشير إلى خلق بعض اللغات لأسماء خاصة تدل بها على الحيوان من جهة استعمال لحمه للأكل : ففي الإنجليزية beef ، وفي الألمانية (جزئياً على الأقل) Rind .

(١) للقصود به الجواد الذي يعلق في مقدمة العربّة فيكون سابقاً غيره من الخيل .
المربان

تعدد الاستعمال يؤدي إلى خلق كلمات مختلفة . فإذا صرفنا النظر عما في الفرنسية من عبارات العامة الخاصة التي تطلق على النقود (انظر ص ٢٧٤) ، وجدناها تستعمل عدداً كبيراً من الكلمات للدلالة على النقود بالنسبة للطائفة الاجتماعية التي تضاف إليها : ففيها les gages لأجرة الخادم و le traitement المرتب الموظف و la solde المرتب الضابط و le prêt المرتب الجندى و les appointements للموظف في غير الحكومة و les honoraires لأنعاب الطبيب أو المحامي و les émoluments لأجر صاحب الوظيفة العامة (كالمأذون مثلاً) و le salaire للعامل و la paye لأجر المشتغل باليومية و les rentes لدخل صاحب الدخل الثابت و les dividendes لأرباح الأسهم المالية و l'indemnité للمكافأة البرلمانية و les mensualités لشهرية الصحفي و le casuel لعوائد القسيس و les feux لأنعاب الممثل و le secours لما يعطى للمحتاج ، الخ . هذا فضلاً عن الكلمات الناقصة مثل rétribution و subvention و gratification و allocation ، الخ . في هذه المفردات المتنوعة ينعكس مجتمعنا الحالي في تعقده . أما كلمة épices (بالنسبة للقاضي) وكلمة bénéfice (بالنسبة لرجل الدين) فقد أصبحتا لا تمثلان شيئاً ، إذ فقدتا المعنى الذي كان لهما في النظام القديم .

والتوانية ، وهي لغة شعب زراعي ، فيها خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب . ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات ، لأن كلامها يقال عن شيء خاص : فيقال pilkas للصوف والأوز و szirmas أو szirvas للخيل و szēmas للبقر zilas لشعر (الإنسان) والحيوان الداخن ما عدا الأوز والخيل والبقر . أما أسماء الألوان الأخرى ، وإن كانت أقل تنوعاً ، ففيها مقابلات مشابهة ؛ فعند الكلام على البقر يقال zalas « أحمر » بدلا من الكلمة المعتادة raudonas ؛ ويقال dwrylas « أسود » بدلا من jūdas ، الخ . وفيها للدلالة على « البقع » أو الأبق « عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية . وهذا يستلزم قوما إخصائيين في تربية الحيوان للون الوطاب عندهم أهمية كبيرة . فكل طائفة من مربى الحيوانات تميل إلى خلق مفردات خاصة بأسماء ألوان الحيوان الذي

يشتغلون به . وفي النهاية تستفيد اللغة المشتركة من هذا الانفصال الذي خلقتة اللغات الخاصة .

في كل العهود التي كونت فيها الأرستقراطية طبقة مغلقة تحيا حياة الصالونات وتعز بجبال اللغة ، أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية . يقول Duclos ^(١) : « وهم وإن استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم (طبقة البلاط) على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بمبارات خير من عباراتهم وجل أشهى إلى النفس . » هذه المفردات المختارة التي كانت تسمح بتعيين طبقة المتكلم على الفور تبدو لنا اليوم كأنها كل ثابت وتمطينا فكرة الشيء الكامل المنتهى . والواقع أن هذه المفردات كانت تخلق يوماً بيوم من جل عابرة تتفتح في الصباح وتموت في المساء : كانت تولد من تلميح من التلميحات أو من نكتة أدبية أو من حادثة تافهة اشتبك فيها أهل هذه الطبقة .

ونحن نعرف هذه المفردات اليومية مما كتب الكتاب عنها بقصد التهكم منها على وجه العموم . فولير في سنة ١٦٥٩ يهجو في روايته *les Précieuses ridicules* « التسميات المضحكات » لغة الصالونات المتكلفة في عصره . وبورسو Boursault في *Mots à la mode* « كلمات موضة » في سنة ١٦٩٤ ودلائال d'Allainval في *l'Ecole des bourgeois* « مدرسة الأعيان » في سنة ١٧٣٨ يتهمان بدورها بلغة معاصريهما المصطنعة . وهذه الأنواع الثلاثة من المفردات يختلف بعضها عن بعض . وإذا تصفحناها رأينا مقدار السرعة التي بها يعلو نجم بعض الكلمات ثم ينخفض . فدام جوس دي بورسو Josse de Boursault لا يدع لسانها استعمال كلمة *joli* « لطيف » ؛ وتستعيز عن كلمة *grand* « كبير » بكلمة *gros* ^(٢) ؛ إذ يظهر أن هذه الكلمة كان لها حظ عظيم بين تلك الطبقة ، ولكن لمدة قصيرة فقط ، لأننا نرى الحامي بريس Brice ، شقيق

(١) *Considérations sur les mœurs* الطبعة الخامسة ، باريس (١٧٦٧) ص ٢١١ .

(٢) برنو Brunot ، رقم ٥٧ مجلد ٤ ، ص ٢٢٢ .

مدام جوس ، وهو يهتم مثلها بلغة القصر ولكنه أعرف منها بها ، نراه يذكرها بأن هذه الكلمة قد انقضت عهدها فيقول :

Laissez mourir en paix un mot agonisant ;

Hors chez quelques laquais qu'il est en étalage,

En aucun lieu du monde il n'est plus en usage

« Gros » est un mot proscrit, ma soeur

« هذه كلمة محتضرة فدعها تمت في سلام ؟ »

« إذ لم يبق لها استعمال في أى مكان في العالم »

« إلا لدى بعض الخدم يتحلون بها »

« Gros » كلمة مقضي عليها ، يا أختاه »

والصعوبة في هذه الحالة بالنسبة للشخص الذى لا يعيش في تلك المحيطات ، هي في أن يكون على علم دائم بما يقال فيها . فكم من أشخاص وأشخاص يفتخرون بأنهم يتكلمون لغة (أولاد البلد) وأنهم مشبعون بالروح الباريسى ، ثم ينكشف لهم أن الكلمات التى يستعملونها قد ماتت من الاستعمال منذ العام الماضى . وها هو ذا السيد هوميه Homais صيدلى يوشل [من شخصيات فلوبيير في مدام بوڤارى] كان يقول Faire florès أو bazar, turne أو Breda-street أو je me la casse ، بدلا من « je m'en vais » في وقت كانت هذه العبارات قد فقدت جدتها عند أولاد البلد .

لغة المازلة أيضاً من أسرع اللغات تجدداً . وليس من العسير أن نجد تطور العادات ينعكس في الصور المختلفة التى تقدمها لنا هذه اللغة ، ويجب عند تفسيرنا لها ألا نهمل العلاقات الاجتماعية بين الجنسين . ففي عهود الثروة والبذخ كانت توجد أرستقراطية أنيقة تخص الحب بكل عنايتها وتعمل منه سلوتها المعتادة . في هذه البيئة تكونت في داخل اللغة الأرستقراطية مفردات خاصة بمسائل الغزل . هكذا كان الحال في فرنسا في العصور الوسطى ، في الجنوب أولاً ومن بعده في الشمال . ففي القرن السابع عشر نشأت عدة مفردات غزلية متتابعة تلى بعضها بعضا منذ قصر رمبويه l'hôtel de Rambouillet بخريطته المسماة « إقليم العاطفة

الناعمة » حتى صالونات سو Sceaux عند دوق المين ، ثم اجتماعات « التميل Temple » عند آل قندوم Vendôme .

وقد دخل الكثير من هذه المفردات في آداب العصر مثل la gloire et les rigueurs و les cruautés و les appâts et les feux و les soins و les alarmes وغيرها من العبارات التي تبدو للفرنسيين اليوم مضحكة بالية . ونعتبرها في مجموعها ممثلة للغة الحب التي لم يستطع كاتب في مقام راسين نفسه أن يتجنبها . ولكن الواقع أنها ليست جميعاً من عصر واحد ، بل لسكل منها تاريخها وفترة صمودها وسقوطها . واليوم حيث لا توجد أرستقراطية تكوّن طبقة منعزلة عن الأمة ، وحيث انتشار الطبقة الوسطى جعل الغزل في متناول جميع الطبقات الاجتماعية ، توجد أيضاً لغة الحب ؛ ولكنها لغة مشتركة تستعير مفرداتها من العاميات الخاصة ومن رطانات جميع الأوساط ؛ فليس هناك إذن لغة للغزل بمعنى الكلمة ، لأن الغزل لم يعد مقصوراً على طبقة من الطبقات .

هكذا نرى أنفسنا مسوقين في دراستنا لتغير المفردات إلى أن ندخل في حسابنا تأثير أنواع اللغة المختلفة بعضها على بعض . فهذه الكلمة الفرنسية الشائعة مثلاً قد جاءت من شكبات الجنود ؛ جرى بها منها لأنها أكثر تعبيرية من غيرها وأقوى دلالة على ما يراد أن يقال . وتلك الكلمة الأخرى استعيرت من لغة الصالونات ، وهناك أيضاً الحالات التي تفرض فيها لغة أجنبية على جاراتها ، بما لها من سلطان ، نوعاً من التجديد ولو جزئياً . وهذا يفسر وجود عدد ضخم من الكلمات اللاتينية في لغات كال brittonique أو الألمانية العليا القديمة . فهذه الكلمات لا تدل دائماً على فكرة جديدة أو شيء جديد ؛ وإنما هي في غالب أمرها قد حلت محل كلمات كانت تستعملها لغة متبربرة ؛ ولكن السلطان أتاح النصر للكلمة اللاتينية . فالسلطان آخر الأسباب الاجتماعية في تجديد المفردات ، ولا ينبغي لنا أن ننساه (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل الرابع في الجزء الرابع) .

العمليات اللغوية التي بها تتجدد المفردات يمكن إرجاعها بسهولة إلى بضعة

أنواع عامة . والموارد التي يمكن للغات أن تستنبطها من ذات نفسها محدودة عندما يلجأ الإنسان إلى كلمة عامة فينوطبها ، بواسطة التخصيص ، استعمالاً خاصاً ؛ أو إلى كلمة ما فيدير معناها بواسطة الاستعارة أو النقل ، ويكون بذلك قد فعل كل ما في وسعه في حدود المفردات الموجودة في اللغة . وهذا خلق للمعاني لا أكثر من ذلك .

طرائق الاشتقاق والتركيب تزيد إمكانيات التجديد زيادة هامة ، لأنها تتيح خلق الكلمات . فالشتق بعد أن يخلق يصير كأنه كلمة جديدة وينطبق في الحال على الشيء الذي خلق له . من ذلك كلمة bottine « حذاء طويل » التي اتخذت معنى مخالفاً جداً لمعنى botte « بُزْءُك » . وكذلك الكلمات chausson « شبشب » و chaussette « جَوْرَب » و chaussure « حذاء » ليس بين بعضها وبعض ولا بينها وبين أصلها chausse « نوع من المراويل » علاقة من حيث المعنى . وهذا هو شأن الكلمات المركبة التي تتحد عناصرها فجأة فلا توظف في الذهن إلا تصوراً واحداً .

ومن الطرق الشائعة عند تسمية شيء جديد أن يطلق عليه اسم مخترعه أو مروجه أو بائه أو من ساعد على نجاحه بأية وسيلة من الوسائل . وإلى هذه الطريقة ندين بكثير من الكلمات الفرنسية : calpin « مفكرة جيب » guillemet « علامة اقتباس » و barène « جدول حسابات » godillot « نوع من الأحذية » و quinquet « نوع من المصابيح » و catogan « شريط لربط الشعر » (وهذه الكلمة مستعارة من الإنجليزية ، ولكنها صنعت بالطريقة التي نتحدث عنها) و bottini « دليل » و poubelle « صندوق القمامة » و gibus « نوع من القبعات » و pépin « مظلة » و riflard « مظلة كبيرة » و sil-houette « رسم خطي » و fontange « عقدة من الشريط يزين بها الشعر » ولا يتحتم لاستخدام هذه الطريقة أن يكون الشيء جديداً ؛ بل تطبق أيضاً على شيء معروف من قديم ، ولكن صار اسمه في حاجة إلى تجديد لسبب من الأسباب . وإذا لم تكف هذه الطرق أتجه الناس إلى الاقتراض ، فيلجأون إلى المفردات

المجاورة التي قد تنتمي إلى لغات مختلفة المشارب : فيستعمرون من الرطانات ومن العاميات الخاصة ومن اللغات الإقليمية ومن اللغات الأجنبية ؛ والأخذ من هذه اللغات يحدد دائماً بظروف خاصة ، تعين الاختيار أو تنظمه .

كلمات الحضارة بوجه خاص معرضة للاستعارة ؛ حيث تحمل في نفس الوقت مع الشيء الذي تدل عليه ؛ فالشيء يقوم لها مقام المركبة التي تحملها في بعض الأحيان إلى آفاق بعيدة *rem uerba sequuntur* . وإذا أحصينا الكلمات التي استعارتها من اللاتينية شعوب الشمال والبريتانيون والإرلنديون والإنجليز السكسون والألمان والبلطيون والسلافيون ، وجدناها كلها تقريباً واحدة ؛ بل وجدنا أن عدداً كبيراً مما استعاره اللاتينيون أنفسهم من الإغريق ^(١) ، فيمكننا أن نفترض أن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها ، انفتحت أمامها الطريق أطول الطواف ؛ لأنها لم تطلب في الخارج إلا لأنها تدل على شيء جديد خاص بالبلد الذي جاءت منه ، ومن ثم كان من الطبيعي أن نتوقع رؤيتها في كل مكان يطلب فيه هذا الشيء .

وإلى جانب المفردات المجاورة تسيطر كثير من اللغات على معين خاص تهمل منه ما شاءت ، وذلك هو معين اللغات العالمية واللغات الميتة . فاللاتينية كانت في كل العصور مصدراً لتجديد المفردات في لغات أوروبا الغربية ، ومفرداتنا الفرنسية تطفح بالكلمات اللاتينية التي أدخلت فيها شيئاً فشيئاً تبعاً للحاجة المتجددة بعد أن عدت صيغتها وفقاً لبعض القواعد التي تنظم النقل إلى الفرنسية من اللاتينية ، والتي لا تزال كامنة في إحساسنا اللغوي . كما كانت اللاتينية أيضاً نبعاً فياضاً للغة الإنجليزية ، ولغة الألمانية ولكن بصورة مصغرة ، لأن الألمانية تسكتفي بنفسها ، بفضل ما فيها من لهجات عديدة غنية وبفضل نظام التركيب الذي يسمح لها بزيادة مفرداتها زيادة واسعة .

(١) أنظر ج . لوت J. Loth ، رقم ٨٩ ؛ وفتندريس ، *De Hibernicis vocabulis* ، *quae a Latina lingua originem , duxerunt* ، باريس ١٩٠٢ ؛ ف . كلوج *F. Kluge* ، *Vorgeschichte der Altgermanischen Dialekte* ، الطبعة الثانية ، ستراسبورج ، ١٨٩٧ ، ص ٣٣٣ .

والإغريقية كانت معيناً للغات السلافية ، وخصوصاً الروسية ، التي كان لها معين آخر دائم لتجديد مفرداتها يتمثل في اللهجات السلافية القديمة التي ظلت متصلة بعضها ببعض تحت تأثير الكنيسة (انظر ما يلي في الفصل الثالث من الجزء الرابع) .

هناك صعوبات حجة تعترض تجديد مفردات أساءت استعمالها بعض اللغات . فقد أخذ على الإنجليزية تضخم مفرداتها وإسرافها في المترادفات التي لا يلبث الاستعمال أن يطرحها ليطلب غيرها من جديد من اللاتينية التي تعدّ مستودعها المعتاد ، وذلك فضلاً عن المستودعات الفرعية التي هي اللغات الأجنبية بالنسبة للإنجليزية . والفرنسية أيضاً لا تخلو من ملام التهالك على اتخاذ الكلمات الجديدة ولما تزل الكلمات القديمة في حيوية تامة وكافية للتعبير . وهذا عيب ينجم دائماً من رخاء الحال الذي يمكن اللغة من استغارة كل ما ينقصها كما تشاء ، حتى ما يطلب منه لاستعمال مؤقت .

من النادر في هذه الحال أن تلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أساسها بتركيب مجاميع من الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ؛ لأنه يعتبر عملاً غير مفيد . فكل ما نعمله أنها قد تغير وضع العناصر الصوتية في هذه الكلمة أو تلك . وهذه طريقة معروفة في العامية الخاصة ؛ ولكن العامية الخاصة تشوه ولا تخلق . فالخلق أمر في غاية الندرة^(١) . وإذا ذكر منه بعض الأمثلة ، فإنما تذكر على سبيل التندر ، مثل gaz « غاز » التي اخترعت في القرن الثامن عشر ، و félibre « شاعر يقرض الشعر بلغة الأوك » و rococo « نوع من الزخرفة »^(٢) ؛ ومن ذلك أسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات ، مثل كلمة kodak « كوداك » فقد خرجت كما هي من دماغ مخترعها . ولكننا لانستطيع أن نصنع عدداً من مثل

(١) جيسبرسن ، رقم ١٣٣ ، فصل ٦٥ ، وانظر ر . م . مير R. M. Meyer ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٧ .

(٢) Darmesteter ، رقم ٦٣ ، مجلد ١ ، ص ٢٣ ؛ وج . باريس Penseurs et poètes ' G. Paris ص ٩٤ ؛ ولكن فارن جنروا Jeanroy ، رقم ١٨ ، مجلد ٣٣ ، ص ٤٦٣ .

هذه الكلمات دون أن نعرض اللغة للخطر . فقيمة هذه الكلمات بالضبط كقيمة اسم العلم الذى لا يوقظ فى ذهن السامع أية فكرة محدّدة إذا لم يعرف الشخص الذى يحمله . لذلك يجب أن تحاط بسياق يكون لها بمثابة تفسير توضيحى . وإذن لا يمكننا أن نزيد فى عددها دون حذر . ولكنّها إلى جانب ذلك صعبة الصنع . فلا شيء أصعب من صنع كلمة دون الاهتمام بوسائل الاشتقاق والتركيب المعتادة فى اللغة التى يتكلمها الصانع^(١) . ولئن صح ما قيل من أن كلمة gaz فيها صدى كلمة Geist « روح » ؛ كنا فى هذه الحالة أمام تشويه لكلمة موجودة بالفعل . وكذلك الحال بالنسبة لكلمة jingo وهى كلمة انجليزية تطلق على من يظهر بمظهر المتطرف فى الوطنية ؛ يقال إنها جاءت من صيغة سبّ ، هى by jingo التى كانت قد حلت محل by jove ، وهذه بدورها استعويض بها عن صيغة أخرى كان طلبة جامعة أ كسفورد يكثرّون من استعمالها . أما الكلمات التى من قبيل kodak و rococo فلها قيمة تعبيرية لا تنكر ، ذلك أنّها كلمات أشبه بأسماء الأصوات ؛ وتدخل فى فصيلة من الكلمات . تعتبر اليوم ثابتة النظام والقواعد^(٢) . فكلمة « كوداك » تصور لنا صورة ، هى صورة سمعية : حتى كأننا نسمع صوت المفتاح الذى يفتح الآلة لالتقاط الصورة ويغلقها . فهل أحسنّ مخترع الكلمة هذه القيمة وأراد أن يحاكيها ؟ إن هذا الجائر ، ولكنه غير ضرورى . غير أن هناك دائماً اتفاقاً غير شعورى يقوم بين الأصوات والأشياء . فالانطباع الذى تحدّثه كلمة غير معروفة يمكن أن يختلف من سامع إلى آخر ؛ ولكن هناك انطباعاً على كل حال ، إن قليلاً وإن كثيراً . وإنما يقاس الفرق بدرجة حساسية السامع ، أو خياله ، أو مجرد حالته العصبية . فالذى يطلق اسماً مصنوعاً من أوله إلى آخره على شيء أيا كان قد يكون مستهدياً بتوافق نفسي بين الأصوات والشيء نفسه . هذا إلى أن كلمة « كوداك » متمشية مع قواعد اللغة التصويرية : فالسواكن تحتوى على

(١) رينان ، رقم ١١٠ ، ص ١٤٧ .

(٢) جرامون Onomatopées et mots expressifs : Grammont ، فى رقم ١٧

نفس الحركة الصوتية ، والحركات فيها نفس الجرس الذي قرره الأستاذ جرامون وهذه الكلمة تعدّ على درجة من حسن الصياغة تجعلنا نتساءل عما إذا كان في الإمكان صياغتها على غير ما هي عليه .

ولعل القدرة على خلق الكلمات ليست إلا نوعاً من الخداع . وهذه النتيجة تؤدي بنا إلى القاعدة اللغوية الكبرى التي تقول : إن اللغات تسير على تحويل العناصر الموجودة لا على الخلق .

الجزء الرابع

تكوين اللغات

الفصل الأول

اللغة واللغات

التحليل الذي قمنا به حتى الآن للأجزاء المختلفة للغة لا يستطيع أن يعطينا عنها إلا فكرة جزئية غير كاملة . فتقسيم اللغة إلى عناصر ثلاثة هي الأصوات والصيغ النحوية والكلمات ، تلك العناصر التي خصصنا لدراستها الفصول السابقة ، ما هو إلا تقسيم اصطناعي محض . لأن هذه العناصر ترتبط بعضها ببعض ولا توجد منفصلة إطلاقاً مهما بدا من اختلافها . بل تنصهر كلها في تلك الوحدة التي هي اللغة نفسها . فالعالم اللغوي إذن لا ينتهي من مهمته بمجرد أن يفرغ من تحليل هذه العناصر بل يبقى عليه أن يدرس كيف يكون شأنها عندما تجتمع أو بالاختصار ، كيف تؤدي اللغة وظيفتها .

ولكن على من يتصدى لإقامة نظرية عامة للغة أن يحذر الوقوع في خطر مزدوج . ذلك أن اللغة ، تبعاً لذلك التناقض اللغوي الذي درسه فكتوز هنري^(١) ، واحدة وعديدة في آن واحد ؛ واحدة لدى كل الشعوب ، ولكنها متعددة بتعدد جميع الأفراد الذين يتكلمونها .

من المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفرق . واللغة محدودة

بحدود الفرد عند العالم الصوتى لأنه لا يستطيع ملاحظتها إلا فى خصائصها الفردية وليس من عيوب علم الأصوات الوصفى أن يقصر البحث اللغوى على دراسة الظواهر الفردية فإن من يسعى أيضاً إلى اكتشاف عواطف النفس وانفعالاتها وأهوائها منعكسة فى اللغة ، تبدو هذه الأشياء أمام عينه باعتبارها ظواهر فردية . نعم مادام المرض قد توضع على التسليم به ، فقد صار ذا قيمة عامة . ولكن الأحداث الخاصة التى تتمخض عن الرموز والتى تعلن عن وجود الرموز ولما تزل فى حالة يصح أن نسميها حالة الميلاد ، لا يمكن أن تدرك إلا واحدة واحدة فى مظاهرها الفردية . ومع أنه من غير الصواب أن يقال بأن التجديد اللغوى يصدر عن الفرد فمن الحق الذى لا ريب فيه أن كل فرد يدخل فى اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به . فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد .

ولكن ليس من الباطل أيضاً أن يقال بأنه لا توجد إلا لغة إنسانية ، لغة واحدة فى أساسها فى جميع الأقطار والأصقاع . وهذه هى الفكرة التى تعرب عنها محاولات علم اللغة العام . ففيه يحاول العلماء وضع مبادئ تنطبق على كل لغة أيا كان نوعها . والواقع أن النظام الصوتى عند كل الشعوب يخضع لقوانين عامة واحدة ؛ والفروق التى تلاحظ بين شعب وشعب ناتجة من ظروف خاصة ، أما العبارة الصرفية ففيها كثير من التنوع ؛ ولكن الأنواع الأساسية الثلاثة أو الأربعة التى ترجع إليها هذه التنوعات ليست على إطلاقها ؛ إذ أننا نراها فى مجرى التاريخ تتحول من نوع إلى آخر . لذلك لم يكن واحد منها كافياً لتمييز لغة لكان إنسانى . أما المفردات فإنها تتركز على القاعدة القائلة بأنه يضاف إلى كل مجموعة ما من الأصوات اللغوية فكرة ما ، وهذه القاعدة واحدة فى كل مكان ونافذة المفعول بالنسبة للغة فى عمومها .

فوضع نظرية عامة للغة تصطدم إذن منذ البداية بالصعوبة الناجمة من كون العالم اللغوى لا يعرف إلى أى مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متردداً بين الاعتبار الفردى وبين الاعتبار الجنسى بأسره . ومع ذلك فإن هذه الصعوبة تهون بمجرد أن نحاول تصور اللغة فى حقيقتها الواقعية لا فى حقيقتها التجريدية . إذ لما كانت

اللغة وسيلة للعمل كانت لها غاية عملية ؛ فيجب إذن أن ندرس الروابط التي تصلها بمجموع النشاط الإنساني ، بالحياة نفسها لنذكرها تمام الإدراك .

أشرنا فيما سبق إلى « حياة اللغة » ، وأبنا ما تحتمل هذه الاستعارة من بعد عن الصواب ومن إيقاع في اللبس ، ولكن رغم ذلك يمكننا استعمالها على أنها فرض يوجه البحث ويجعل العرض التعليمي سائغاً . ولكن المسائل التي جعلناها موضوع بحثنا حتى الآن ليست إلا تجريدات خلقتها عقول علماء اللغة ، وإنه لمن سوء التعبير ، أو يكاد ، أن نعبر بحياة اللغة عما هو خال من الحياة ، عن الأصوات والأشكال النحوية والكلمات . فالحياة التي نحن بصدها الآن إن هي إلا مجموعة الظروف التي بين حدودها توج الإنسانية ، ما هي إلا الحقيقة الواقعية في تطوراتها التي لا تنتهي . واشتراك اللغة في الحياة بهذا المعنى أمر بَيِّن ، بل أكثر من البَيِّن . ولكن ليس أمامنا في هذه الحال نظام نظري يتكون من مبادئ تجريدية . بل زانا أمام لغات تتكلم على سطح البسيطة بصور متنوعة .

الفرق بين اللغة *langage* واللغات ، أن اللغة هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والسيكولوجية التي في حوزة الإنسان لتتمكن من الكلام . أما اللغات (الألسن) *langues* فهي استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية . فيجب إذن ، للوصول إلى تعريف كلمة لغة (بمعنى اللسان *langue*) أن نخرج من محيط الفصول السابقة وأن ندرس الدور الذي تقوم به اللغة بمعنى *langage* في المجتمعات الإنسانية المنظمة .

أول فكرة تتبادر إلى الذهن هي فكرة الربط بين اللغة والجنس . بل إن المتن الكبير الوحيد الذي أُلّف في علم اللغة العام ، ونعني كتاب فريدرش ملر Friedrich Müller ^(١) يبنى على هذه الفكرة . ففيه تستعرض لغات الشعوب المجددة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الملساء الشعر ؛ فهو يصنف اللغات وفقاً للمميزات الإتنولوجية . ولا شيء أشد غرابة على القارئ من هذا الترتيب ، ولكن المبدأ الذي يقوم عليه ، وهو أمر أكثر خطورة ، لا يثبت طويلاً أمام

(١) رقم ١٨٥ ؛ وانظر أيضاً بيرن Byrne : رقم ١٣١ ، مجلد ١ ، ص ٤٥ .

البحث إذ أن الأحكام التي تطلق على الأجناس يجب أن تؤخذ دائماً بكثير من التحفظ^(١) فهما قيل في الدور الذي تلعبه التغيرات التي تصيب الجنس في تلك التي تصيب اللغة ، فلانستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغي الخلط بين الميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعياناً قابلة للنقل ، تعار وتبادل^(٢) . ونحن نرى بمجرد إلقاء نظرة على خريطة لأوروبا اللغوية في العصر الحاضر أن وحدة اللغة تُظلّ تحتها أخلاطاً من الأجناس . فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأنه أحد أبنائها . وهذه الحقيقة تكفي لجعل كل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس عبثاً لا طائل وراءه . أفنذهب على الأقل إلى القول بأن كل لغة تقابلها عقلية معينة ؟ الواقع أن علم النفس يتكلم عن عقلية فرنسية وعقلية ألمانية ؛ فلا بد أن تعبر اللغة عن الفرق الذي يفصل بينهما ، إذا صح أن اللغة ليست في الواقع إلا التعبير عن العقلية . هذا المنطق الذي لا غبار عليه من حيث المبدأ عسير التحقيق لأنه يصطدم باعتراضات عديدة .

أول ما يجب تجنبه الحكم باختلاف العقلية باختلاف الدماغ . لأننا إن فعلنا ذلك أقحمنا من جديد فكرة الجنس في مسألة سيكلوجية . حتى في حالة المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أى دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيراً مختلفاً عن تفكيرنا .

هذا المنطق ، على أية حال ، لا يمكن تطبيقه على أفراد كلهم من الجنس الأبيض ليست بينهم اختلافات جنسية أساسية وإننا نعرف أن لون العينين أو البشرة أو شكل الجمجمة كلها لا تقدم لنا مقياساً يصلح للتمييز بين الألمان والفرنسي من الوجهة الجنسية نفسها ، فمن باب أولى من الوجهة اللغوية . ومع ذلك فليس من شك في أن كلا من الشعبين له عقلية خاصة ، وأذواق وعادات وأمزجة وطنية ، ولكن

(١) ١ . رينان : رقم ١١١

(٢) هويني Whitney : رقم ١٢٩ ، ص ٢٣١ .

هذه الأمزجة الوطنية ومثلها اللغات عليها طابع النتائج لاطابع الأسباب . كذلك من التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية أو العقلية وليدة اللغة ؛ لأن كليهما وليدة الظروف ونتاج الثقافة والمدنية .

لم نرد بالوصول إلى تلك النتيجة أن نثبت من هم أولئك الذين يحاولون ربط الفكرتين معا . إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة وأن تكون المميزات التي تميزهما واحدة دون أن يترتب على ذلك صدور إحداها عن الأخرى . فإذا كانت اللغة علامة مميزة لصورة من صور التفكير ، كان من الممكن أن نصل بتحليل مقارن للغات إلى سيكولوجية للأجناس . وهذه كانت فكرة هررد Herder في مؤلفه عن أصل اللغة ؛ وفكرة غليوم فون هبموت Wil-helm von Humboldt وشتيينتال Steintal أيضاً . وفي أيامنا هذه عاد العالم اللغوي الألماني ف . ن . فنك^(١) F. N. Finck إلى فكرة هررد محاولاً تكميلها وفي رأيه أنه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثاراً معبرة عن عقل الشعوب . وأن اللغات ليست إلا تصورات ، لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة . وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة فيجب أن تطبق عليها طريقة ذاتية محضة بالأبداً نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة . هذه الطريقة خير الطرق لدراسة بعض نتاج النشاط النفساني psychique كالمعتقدات الشعبية . وهي نفس الطريقة المتبعة في دراسة الخوف أو الحلم أو الإيمان . فها نحن أولاء بهذا الرأي قد ابتعدنا عن علم اللغة .

ويمكننا أن نجيب فنك بأن اللغة حقيقة واقعة مهما كانت الحال^(٢) . فاللغة بصوتياتها وبكيانها الصبرفي لها وجود خاص مستقل عن استعدادات المتكلم النفسية واللغة تفرض نفسها عليه في صورة نظام قد أعدّ من قبل ، في صورة آلة وضعت في يده . وهو يستخدمها لغايات شتى : فيستعملها في حاجات سوقية أو يستخرج منها آثاراً تدل على الخدق وتدعو إلى الإعجاب . ولكنها في كل الحالات آلة

(١) رقم ١٥٥ .

(٢) ميه : رقم ٢ ، مجلد ١٠ ، ص ٦٦٤ .

واحدة بعينها ، ومهمة العالم اللغوى هى بالضبط أن يدرس ما فى هذه الآلة من جوهرى ومن دائم . ومن ثم كانت الطريقة الموضوعية التى يحاربها فنك صالحة للتطبيق فى علم اللغة تمام الصلاحية ، واللغة فى وسعها أن تدرس مستقلة عن العقلية . فضلاً عن ذلك فليس من المؤكد أن الأسباب التى تؤثر على اللغة تحدث فى العقلية آثاراً مماثلة . فالأجزاء الجوهرية الدائمة فى اللغة تتحول وفقاً لقواعد ليس للعقلية فيها أى نصيب . وهذا بالذات هو ما أدى إلى الافتراض بأن اللغة حياة مستقلة عن كل حياة نفسية أو فسيولوجية أو اجتماعية . والواقع أن الفروق التى نلاحظها فى فترة ما من التاريخ بين لغتى شعبين ، حتى ولو كانتا من أصل واحد ، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بتطور كل واحدة من اللغتين ، وبالتالي لا تسمح لنا بحال أن نصدر حكماً ما على عقلية الشعبين .

هذه الملاحظة تنطبق على أوضح الصفات التى يمكن أن تميز بين لغتين . فترتيب الكلمات فى الجملة مثلاً عملية لها دلالتها الفائقة ؛ لأن جذوره ، على ما يظهر ، ناشية فى أبعد أعماق الشعور اللغوى ؛ إذ أنه هو الأصل فى تحضير الصورة الكلامية . ومع ذلك فنحن على عام المعرفة من أن بنية الجملة فى الألمانية أو الإلرنندية أو الأرمينية الحديثة ناتجة من تطورات صرفية خاصة بهذه اللغات (انظر ص ١٩٠) وكما أوغل المؤرخ فى الرجوع إلى الماضى ، اكتشف فى بنية التنظيمات الشديدة الاختلاف أثر قوانين داخلية يفسرها تطور كل لغة من هذه اللغات .

كذلك ذاب العلماء ، وهم على حق ، على مقابلة اللغات التى تمارس التركيب باللغات التى تلجأ إلى الاشتقاق ، إلى مقابلة الإغريقية باللاتينية أو الألمانية بالفرنسية مثلاً . فالذى يبدو لأول وهلة أن هذين النوعين يمثلان نوعين مختلفين من العقلية ؛ إذ أن العقل فى الحالة الأولى بعد أن يحلل التصور يعبر بالتفصيل عن العناصر التى تنتج من هذا التحليل ، بينما لا تشير الحالة الأخرى إلا إلى مظهر واحد من مظاهر التصور تاركة للسامع البحث عن المظاهر الأخرى . ولكن الواقع أن هذين المسلكين ينتجان من عادات قد تطورت إن قليلاً وإن كثيراً ؛ هذا إلى أنهما لا يتنافيان بل يستعملان معاً فى كل لغة بدرجات مختلفة . إذ يكفى فى إحدى

اللغات أن يتغلب نوع ما على غيره في فترة من الفترات ، ليتضاعف استعماله بعد ذلك في العصور التالية . فهذا أثر مباشر لتنافس الطرق الصرفية ، لا يتوقف بأية حال على اختلاف العقلية .

لأن العقلية في الحالتين واحدة ، وإنما تختلف العبارة فقط . فكون إحدى اللغات تقول *liber Petri* « كتاب بطرس » والأخرى تقول : *Le livre de Pierre* « الكتاب [بتابع] بيير » لا يحتم أن يكون الشعبان اللذان يتكلمان هاتين اللغتين يختلفان في تصور علاقة الملكية ، وإنما يختلفان فقط في التعبير عنها . ولهذا الاختلاف أسباب تاريخية . فالسمى إلى معرفة عقلية الشعب من خصائص لغته مشروع فاشل إذا راعينا وسائل البحث التي تملكها في حالنا الراهنة . بل إن المفردات نفسها لا تعكس العقلية إلا في صورة جزئية . فالفرنسية مثلاً ليس فيها إلا كلمة واحدة *louer* « يؤجر » و « يستأجر » لترجمة الفعلين الألمانيين *miethen* « يستأجر » و *vermiethen* « يؤجر » ومعنى كل منهما على عكس معنى الآخر . وفي هذا ما فيه من لبس غير مستحب في اللغة الفرنسية ؛ ولكن الألمانية بدورها لا تملك غير فعل واحد *leihen* للتعبير عن الفعلين الفرنسيين *prêter* « يُعير » و *emprunter* « يستعير » ونعرف لغات أخرى تعبر بكلمة واحدة عن « البيع » و « الشراء » معاً^(١) . فهل في ذلك ما يشير إلى الصورة التي تدرك عليها هذه الشعوب الإجارة والإعارة والبيع ؟ كلا . فالفردات في أية لغة لا تعرض مطلقاً وجوه التفكير كاملة . بل يوجد دائماً من الكلمات أقل مما يوجد من الأفكار ، والاستعمال الجارى يكتب دائماً بالمبارات التقريبية ، لأن لديه من الوسائل ما يجنبه الوقوع في اللبس . إذ أن السياق يوضح معنى كل كلمة ؛ وإذا لم يكف السياق ، لم تعدم اللغة أن تجد وسيلة لتجنب هذا النقص . فالفرنسية في الواقع لا تشكو غموضاً في كلمة *louer* ، ولا الألمانية في

(١) تقول الصينية مثلاً *mài* و *mài* ، ولا فرق بين هاتين الصيغتين إلا في التنغيم

(جبلنتس *Chinische Grammatik : Gabelentz* ، ١٨٨٨ ، فقرة ٢٣٠ ، أخذناه

عن اقتباس لجسپرسن ، رقم ١٣٤ ، ض ٨٤ — ٨٥) .

كلمة lehnen ، كما لا تشكو البريتانية من كونها لا تملك إلا كلمة واحدة (glas) للتعبير عن « الأخضر والأزرق » وتستعمل نفس الكلمة لتقول « السماء زرقاء » و « الفاصولية خضراء » .

يبدو إذن أننا نخطئ حينما نرى في أى جزء من أجزاء اللغة صورة لعقلية بعينها . ولا يعنى هذا أنه لا توجد أية رابطة بين العقلية واللغة ، بل إن اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعدل من العقلية وتنظمها . فعادة وضع الفعل في مكان بعينه دائماً ، يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسى أو الألماني أو الإنجليزى خاضع للغة إلى حد ما . فإن اللغة إذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام وأتاحت لها حرية الحركة . وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضييق الذى يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أى شكل من أشكال اللغة . لذلك كان من المحال تحديد اللغة بمزاج الأمة التى تتكلمها . فدراسة الدور الاجتماعى الذى تقوم به اللغة هى خير ما يعطينا فكرة عن ماهية اللغة .

* * *

أصبح تكرار القول بأن الإنسان كائن اجتماعى أمراً مبتدلاً . لعل من أول السمات على الطبيعة الاجتماعية فى الإنسان تلك الغريزة التى تدفع على الفور الأفراد المقيمين معاً إلى جعل الخصائص التى تجمعهم مشاعة بينهم ، ليميزوا بها عن أولئك الذين لا توجد لديهم هذه الخصائص بنفس الدرجة .

هذه الغريزة فى غاية القوة ، نثر عليها فى كل الأقسام التى تنقسم إليها أية هيئة اجتماعية ، وترجع فى أصلها إلى حقيقة التجمع نفسه . فإذا التقى فرنسى وفارسى فى جزيرة مهجورة نسي كل منهما الفروق التى تفصل بينهما وسعيا بطبعهما إلى الاتحاد ؛ لأن المساواة فى العزلة تنمى الزمالة بينهما . ولكن لو أن فارسياً جاء إلى فرنسا زائراً ووجد نفسه فى مكان ككور لارين Court la Reine ، ورآه بعض الفرنسيين ، لأوحت إليهم على الفور عاطفة الوطنية — التى من شأنها أن تقوى وجود الجماعة — بهذه الجملة المشهورة : كيف يمكن لإنسان أن يكون فارسياً ؟ وإذا

قابل جندي منزله من جنود الحيلة جندياً آخر من جنود المشاة تأخى الجنديان دون عناء ؛ مع أننا نعرف أن المدن التي تضم ثكنات لكلا السلاحين كثيراً ما تكون ميداناً لمشاحنات ناجمة من هذا الاختلاط حتى تضطر السلطات أحياناً إلى التدخل لحفظ الأمن . بل لسنا في حاجة إلى التمثيل بسلاحين مختلفين قد يفرقان أحياناً في العمل وفي التقاليد وفي الاختيار . فكثيراً ما تشتد المنافسات في داخل فرقة واحدة بين كتيبة وكتيبة أو جماعة وجماعة أو غرفة وغرفة ، لا شيء إلا لاختلافهما في ساعات العمل أو القيادتين أو في رقم « العبرين » : فأنفه الفروق تذكي نار المنافسة . فكأن الناس إذا ما تجمعوا بحثوا عن أنفه الأسباب التي تقدمها لهم الظروف لإثبات تجمعه بمعارضة غيرهم .

في هذه الحالة لسنا في حاجة إلى الاحتجاج بوجود باعث من الزهو الذي يبعث عليه الشعور بوجود تفوق ما ؛ وإن كانت روح الجماعة تصطبغ غالباً برضاء داخلي : إذ أنها تنطوي على شعور بالعزة يدفعها إلى استشارة الآخرين وإذلالهم . ولكن هذه العواطف تنتج من روح الجماعة ولا تخلقها . والذي يقوى من روح الجماعة هو وجود التجمع ، وهذا التجمع نفسه ليس فيه شيء شخصي ولا تدخل في حسابه قيمة الأشخاص منفردين . إذ يكفي لأي دخيل أن يحتل مكاناً في الجماعة لتعترف له بالحقوق التي للآخرين : وكل ما تفعل به لدى دخوله أن تفرض عليه نوعاً من البلاء التأديبي الذي لعله بقية باقية من الرياضة الصوفية القديمة . وأخيراً لا تقوم الجماعة التي من هذا القبيل على نظم شرعية . والرباط الذي يجمع بين أعضائها لا يرجع إلى اتفاق سابق ولا إلى إرادة مقصودة ؛ وإنما ينحصر في الاتفاق في العمل والمصالح والحاجات ؛ وتزداد قوة الجماعة إذا وجدت بجانبها جماعات أخرى تختلف عنها في الأعمال والمصالح والحاجات .

تلعب اللغة دوراً ذا أهمية عظمى في الجماعة الاجتماعية مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها . فاللغة أوثق العرى التي تجمع بين أعضاء هذه الجماعة . وهي على الدوام رمز ما بينهم من تشارك وحارسه الأمين . وأية آلة أفعل من اللغة في توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها وتنوع حياتها ولطف سريانها واختلاف

استعمالها وسيلة للاتفاق بين الجماعة وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضاً ويهرع بعضهم إلى بعض .

كل عضو في الجماعة يشعر بأنه يتكلم لغة معينة ليست لغة الجماعات المجاورة . فاللغة إذن وجود مستقل في الشعور المشترك بين أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وهذا التعريف ، وهو ذاتي محض في مظهره ، يستند إلى كون هذا الشعور بالاشتراك في اللغة يضاف إليه شعور آخر في وجدان المتكلمين بوجود مثل لغوي أعلى يسمى كل منهم من جهة إلى تحقيقه (١) .

فكان هناك عقداً ضمناً أقامته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة في الصورة التي توجهها القاعدة . وكثيراً ما ترجع هذه القاعدة إلى الاستعمال ، وهذا لا يخلو من الصواب . ولكن الاستعمال غير التحكم ، بل هو ضده على خط مستقيم لأن الاستعمال خاضع لمصلحة الجماعة ، وهي هنا حاجتها إلى أن تكون مفهومة . فكل فرد يدأب بغريزة وعن غير شعور منه على الوقوف في سبيل ما هو تحكمي حتى لا يدخل في الاستعمال . وإذا وقعت مخالفة من جانب فرد منغل ، أصلحت على الفور ؛ والسخرية اللاذعة كفيلة بإمساك الجاني عن التفكير في المعادة . ولا يمكن أن تصير للمخالفة قوة القانون إلا إذا كان أعضاء الجماعة كلهم على استعداد لارتكابها ، أي أن يشعروا بها على أنها قاعدة ، وفي هذه الحالة لا تصبح مخالفة .

والصرامة التي بها تفرض القاعدة نفسها في غاية القوة ، يستوى في ذلك كل الجماعات اللغوية وفي كل اللغات . قد نسمع في بعض الأحيان أشخاصاً ، وأشخاصاً مثقفين ، يظهرون دهشتهم من أن يكون للغة الفلاح قواعد ونحو . فهم يتخيلون أن القواعد لا توجد إلا في الكتب التي توزع على تلامذة المدارس ؛ وهذا خطأ . لأن الكلام الريفي ، أو اللهجات كما يسمونها ، فيها قواعد أشد صرامة في غالب الأحيان مما في اللغات التي تتلقن من كتب النحو . وفي اللغات المكتوبة دون

(١) انظر عن المثل الأعلى للسلامة اللغوية نورن Norren : رقم ٢٣٠ مجلد ١

(١٨٩٢) وسيتالا Setälä : رقم ٢٨ ، مجلد ٤ (١٩٠٤) ص ٢٠ — ٧٩ .

سواها يوجد التردد وتناش العلماء ، وكما يقول هوراس Horace « tici certant » . ولكن الذين يتكلمون اللهجات لا يترددون . انظر إلى فلاح يتكلم عن لهجة القرية المجاورة ، تجده يكتشف فيها فروقاً لا يكاد يحسها الغريب عنها ، وتسمعه يؤكد بخيلاء أنه هو وأهل قريته وحدهم هم الذين يتكلمون صحيحاً ، وأن الصحة تنعدم بمجرد أن تعبر إلى الشاطئ الآخر من النهر أو أن تنتقل إلى سفح الوادي الآخر .

فالتبقات الشعبية على العموم عندها عن لغتها فسكرة محددة ، ويحسون في إرهاب نادر المثال أقل مخالفة للقاعدة . وقد وجد مالرب Malherbe أدق حس لغوي عند طعام البور أو فوان Port-au-Foin ؛ حتى كان يتخذهم أساتذة له^(١) . ونحن نعرف أخبار المغامرة التي وقعت في سوق أثينا لتيوفرست وكان من لسبوس . كان يسأل عن ثمن إحدى السلع ، ففطنت امرأة من الشعب إلى أنه غريب على لغتها^(٢) . فالشعب هو الذي يجب أن يستشار عند التردد في حالة من حالات الاستعمال ، والمجامع اللغوية هي التي تستطيع أن تناقش وأن تقرع الحجة بالحجة لتعرف ما إذا كانت كلمة « أوتومبيل » automobile مذكرة أم مؤنثة ؛ وكل ذلك من الأمور النظرية . أما من الناحية العملية ، فإن الشعب لم يتوان عن الحكم بتأنيث الكلمة . وإذا كانت قد مرت به فترة من التردد ، فذلك لأن الجنس لا يبدو آثاره في كثير من الحالات (انظر ص ١٣١) . ومعنى ذلك أن الكلمة لا جنس لها في بعض استعمالاتها ؛ ولكن الشعب حدد جنسها في كل ما يحس فيها وجود الجنس مثل : une belle, une grande automobile : « سيارة جميلة ، سيارة كبيرة » l'automobile est vetre ou grise « السيارة خضراء أو رمادية . »

فهذا التوخي للسلامة وتلك الثقة في تثبيت الاستعمال هما اللذان يقرران اللغة في مجموعة بعينها من البشر . ومع ذلك فلو بحثنا عن تحقيق كامل للغة لم نجد في

(١) Mémoires pour la vie de Malherbe تأليف البريكز دي راكان Mar-

quis de Racan : فقرة ٤٧ .

(٢) شيشرون : بروتس ، فصل ٤٦ ، ١٧٢ ؛ كنتيليان Quintilien : ٨ ، ١ .

(م — ٢٠)

أى مكان^(١) . فكثير من الناس يتكلمون الفرنسية . ولكن لا يوجد شخص واحد يتكلم الفرنسية ويصلح أن يكون مثالا ومقياساً للآخرين ، فما نسميه الفرنسية لا يوجد فى لغة الكلام عند أى كائن إنسانى . لذلك كان من اللغو أن تتساءل فى أى مكان تُتكلم الفرنسية فى أسمى صورها . فالفرنسية الحسنى «فكرة» بالمعنى الذى يستعمل فيه لبرويير La Bruyère هذه الكلمة أى أنها خرافة ؛ مثلها مثل حكمين الرواقيين الذى كان كاملا جميلا طيباً سليم العقل والجسم ، إلا إذا انتابته نوبات البلغم . كذلك فرنسيتنا الحسنى نراها تحت رحمة زلة من زلات الذاكرة أو لحن أو خطأ . فهى مثل أعلى يُبحث عنه ولا يمكن العثور عليه ؛ إنها قوة فعالة لا يستطيع تحديدها إلا بالهدف الذى تتجه نحوه ؛ هى حقيقة بالقوة لا تخرج إطلاقاً إلى حيز الفعل ؛ وصيرورة لا تصل أبداً إلى الاستقرار .

يمكننا أن نلخص ما تقدم بأن اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة .

لكن يبقى علينا فى هذه الحالة أن نعرف المجموعة . والواقع أن الفصول التالية فى جملتها مخصصة لهذا الموضوع ، لأن خصائص اللغة تتوقف على طبيعة المجموعة وعلى مقدار امتدادها . إذ يوجد فى فرنسا إلى جانب اللغة الأدبية التى تكتب فى كل مكان والتى يزعم المثقفون بأنهم يحققونها فى كلامهم ، مجموعة من اللهجات مثل الفرنش كنتيه والليموزنيه اللتين تنقسمان بدورها إلى لهجات محلية عديدة . وهذه لغات أخرى يقابلها عدد مساو لها من التجمعات . هذا إلى أنه يوجد داخل مدينة واحدة . كپاريس ، عدد من اللغات المختلفة تسير كلها جنباً إلى جنب . فلغة الصالونات مثلاً ليست لغة الشكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ؛ وهناك رطانة المحاكم والعامية الخاصة التى تتكلم فى حوائى المدينة . وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى . تنوع اللغات يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية . ولما كان من النادر أن

يعيش فرد محصوراً في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضاً أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة . إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ويؤثر بلفظه على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها .

لا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة إطلاقاً . ولكن هذا الخلاف اللغوي الذي يفرق بينهما حالياً طفيف لا يكاد يحس حتى ولو كان يحمل في طياته جراثيم انفصال في المستقبل ، لذلك كان لنا الحق في ألا ندخله في حسابنا في حالته الراهنة . هذا إلى أن اللغة التي تتفاهم بها الأسرتان فيما بينهما تصير إلى الوحدة حتماً ، إذ أن الروابط المتبادلة تعمل منذ اليوم الأول على إضعاف الفروق بينهما وتكوين نواة مشتركة . ولنتخيل أخوين يعيشان معاً ولكنهما لا يمارسان مهنة واحدة : فكل منهما يحتك في مصنعه بمجموعات مختلفة ويأخذ عنهم اللغة بالضرورة مع عادات التفكير والأعمال وآلات المهنة . وبذلك ينشأ في كل يوم بين الأخوين اختلاف لغوي يؤدي بهما — إذا لم يريا أحدهما الآخر زمناً طويلاً — إلى التحقق من أنهما يشكلان لغتين مختلفتين ، ولكن هذا الاختلاف يزول كل مساء بفضل عودة الصلة بينهما من جديد . وعلى هذا النحو يجدان نفسيهما خاضعين لتيارين متعارضين يتبادلان التأثير عليهما ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا بضع ساعات ، ويجدان أن اللغة التي يتفاهمان بها في حاجة دائمة إلى التطهير من عناصر التفرقة التي تفد عليها من الخارج .

هذا مثل طيب لصراع التوازن الذي هو قانون تطور اللغات جميعاً . فهذان ميلان متعارضان يوجهان اللغة في طريقين متباينين ^(١) . وأحد هذين الميلين يتجه نحو التفريق . فتطور اللغة على نحو ما أجهلناه في الفصل السابق يؤدي إلى انفصالات تزداد مع الزمن تبعداً : وتكون النتيجة تفتت اللغة تفتتاً يزداد بازدياد استعمالها ؛ إذ تضطرها إلى هذا التفتت مجاميع الأفراد التي تترك وشأنها دون احتكاك بينها . غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقاً إلى تمامه ، لأن سبباً حيويًا

(١) مبيه : التوحيد والتفريق في اللغات (رقم ٤٢ ، ١٩١١ ، ص ٤٠٢) .

يوقفه في الطريق ؛ إذ أنه بإمعانه التدريجي في الحد من امتداد المجموعات التي تستخدم اللغة وسيلة للتفاهم بينها ، ينتهي بحرمان اللغة من قيمتها الجوهرية ؛ فتحطم اللغة نفسها وتصير غير قادرة على إيصال الناس بعضهم ببعض . لذلك يقوم ميل آخر — يعمل دواماً على مناهضة التفريق ، وهو الميل إلى التوحيد الذي يميل التوازن . ومن صراع هذين الميلين تنتج أنواع اللغات المختلفة ، من لهجات ولغات خاصة ولغات مشتركة ، تلك التي ستكون موضوع دراستنا منذ الآن .

الفصل الثاني

اللهجات واللغات الخاصة (١)

يمكننا دائماً أن نحدد لغة ما من الوجهة المكانية بمقابلتها بلغات من فصيلة مختلفة . فنحن نعرف حدود الفرنسية في الأماكن التي ترتطم فيها بالألمانية أو بالبسكية أو بالبريتانية ؛ هذه الحدود يمكن رسمها ما بين قرية و قرية ؛ بل في داخل القرية نفسها ، كثيراً ما يفصل بين اللغتين واد من الوديان أو جدول ماء أو مجرد شارع . فيمكننا إذن أن نتكلم عن لغة فرنسية أو ألمانية أو إيطالية أو مجرية أو صربية . كل هذه اللغات يتعارض بعضها مع بعض وتحدد بعضها بعضاً على وجه الدقة .

ولكننا نعاني بعض الضعوبة إذا حاولنا أن نرسم حدوداً بين الفرنسية والبروقنسالية أو بين الألمانية العليا والألمانية السفلى أو بين الصربية والبلغارية . لأننا هنا لم نعد أمام لغتين من أصليين مختلفين وصلت بينهما مكانيا مصادفات التاريخ ، بل أمام لغات منبعثة من أصل واحد وقد فرقت بينها ظروف تاريخية . فلا انتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس ، وليس هناك معارضة جسيمة

(١) عن مسألة اللهجات أنظر أسكولي L' Italia dialettale : Ascoli « اللهجات الإيطالية » ، رقم ٤١ ، مجلد ٨ ، ص ٩٩ - ١٢٠ ؛ ل. جوشا Gibt es : L. Gauchat Mundartgrenzen ؟ « هل توجد حدود لهجية ؟ » ، رقم ٢٥ ، مجلد ١١١ ص ٣٩٥ - ٤٠٣ ؛ (١٩٠٤) ؛ تاپوليت Tappolet : « في أهمية الجغرافيا اللغوية » نصرف Festschrift Morf ، ص ٣٨٥ وما يليها ؛ ي. هوبر J. Huber : « الجغرافيا اللغوية » رقم ٣ ، مجلد ١ ، ص ٨٩ وما يليها ، وأنظر خاصة مؤلفات الأساتذة چيلرون وبارج وترنشي ، أما عن « اللغات الخاصة » عامة فانظر لاش Lasch : نشرات جمعية علم الإنسان بئينا ، Mitteilungen der anthrop. Gesellschaft ، قينا (١٩٠٧) ؛ فان جننپ Van Gennep رقم ١٤ (١٩٠٨) مجلد ١ ، ص ٣٢٧ ، رقم ٧٤ ؛

بين لغتين وضعت إحداها في مواجهة الأخرى ، وزوّدت كل منهما بوسائل للتعبير مختلفة . والصعوبة تعظم وتعظم إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجات التي في داخل مجال لغوى واحد .

أصبح اليوم من المقرر أن الخصائص اللغوية لا ينسجم بعضها مع بعض من حيث التوزيع ، وبعبارة أخرى ، أن الخطوط التي تفصل بين خاصية وأخرى ، ليس هي نفس الخطوط التي تفصل بين خاصيتين أخريين .

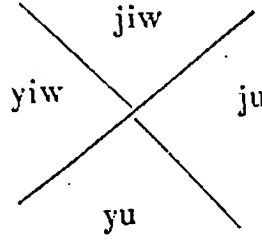
ويكفينا للتحقق مما نقول أن نرجع إلى إحدى الخرائط اللغوية لاستيضاحها . فأطلس فرنسا اللغوى^(١) يعطينا عن كل حالة بعينها حدوداً مختلفة . ولنتخيل عدداً من القرى ، عشر قرى مثلاً ، مفرقة في إحدى المقاطعات الفرنسية في رقعة تتكون من بضعة أميال مربعة . فنرى أن سكان هذه القرى يتكلمون لغة واحدة ، بمعنى أن لهجتهم تمثل مظهراً خاصاً من اللغة الفرنسية ، وقد نتجت تاريخياً ، من تطور مستقل لنفس اللغة في مجال متصل . ولسكننا نجد فروقاً ذات بال بين قرية وأخرى ، حتى يمكننا أن نميز لهجة كل قرية منها بوصف مخالف لغيرها^(٢) من حيث الصوتيات ومن حيث النجوى ومن حيث المفردات . ومن النادر جداً ألا تمتد إلى حد ما خصائص إحدى هذه القرى إلى القرى المجاورة . ولكن الحدود الجغرافية لكل واحدة من هذه الخصائص على حدة ، لا تكاد تتفق إطلاقاً مع الحدود الجغرافية لأي خاصية أخرى تؤخذ على حدة أيضاً . فنجد مثلاً بين هذه القرى خمساً أو ستاً تنطق (a) « فتحة » حيث تنطق القرى الأخرى (e) « فتحة مماله » ، ثم نجد خمس قرى أو ستاً تنطق o « ضمة مفتوحة » حيث تنطق القرى الأخرى u « ضمة مريجة » . ولسكن الخط الذي يفصل بين أولئك الذين ينطقون a والذين ينطقون e ليس هو الخط الذي يفصل بين من ينطقون o وبين من ينطقون u ؛ فالقرى التي تمارس التغير ليست واحدة ؛ ومعنى ذلك أن التوزيع يختلف .

(١) الأطلس اللغوى لفرنسا ؛ وأنظر جيليرون وروك : رقم ٧٦ .

(٢) جوشا : « الوحدة الصوتية في عامية إحدى القرى » نشرت في : Festschrift

Morf . ص ١٧٥ — ٢٣٢ .

يوجد مثلاً في مقاطعة اللاند^(١) Landes بالنسبة لنطق كلمة jong « نير » أربع مناطق غير متساوية تماماً ، وموزعة على هذا النحو :



والتقسيم يقوم أولاً على نطق j (ج) بدلاً من y (ي) التي في أول الكلمة وثانياً على نطق iw بدلاً من u. ومناطق هذه الظواهر الصوتية لا تسير بعضها بعضاً . ولكنها لا تسير ظاهرة أخرى صوتية مثل ظاهرة تبادل d « د » و z « ز » التي تشطر المنطقة إلى شطرين متقاربين^(٢) : laide laize ولا تسير ظاهرة صرفية مثل ظاهرة الاختصار على واحد من الزمنين الماضيين دون الآخر : إما الماضي البسيط (il écrasa) وإما الماضي المركب (il a écrasé) ، تلك الظاهرة التي يكون حدها الفاصل خطأً متعرجاً يقطع المقاطعة بصورة غريبة^(٣) .

وإذا درسنا مفردات المقاطعة نفسها ، وجدنا لاسم المستنقع « étang » أربع كلمات مختلفة (gourgue , presque , clote , estan)^(٤) ، وثلاثاً لاسم الغراب (croque , corbe , courbas)^(٥) ؛ ومناطق اسم الغراب لا تسير مناطق اسم المستنقع . وإذن فتوزيع حالات المفردات فيها نفس الشذوذ الذي في توزيع الحالات الصوتية أو الصرفية .

كانت نتيجة هذه الحال أن كثيراً من علماء اللغة ذهبوا إلى أن اللهجات لا وجود لها ، فعند هؤلاء العلماء أن الحالة اللغوية التي تنتج من تطور اللغة لا يمكن أن تتصور إلا في مظهرين : مظهر اللغة ، تلك الوحدة الشاسعة التي تتحول إليها

(١) مييرديه : رقم ١٠٢ ، ص ٢٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤٩ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٩٩ .

(٤) نفس المرجع : ص ٢٠٨ .

(٥) نفس المرجع : ص ١٧٥ .

صور التكلم المحلية جميعها ، ومظهر صور التكلم المحلية التي إليها تنفتت اللغة . هذا بصفة عامة رأى علماء اللغات الرومانية الذي قام بعرضه في صورة فائقة جاستون باريس وبول ميير منذ زمن . يقول الأول : « لا يوجد أى حد حقيقى يفصل بين فرنسى الشمال وفرنسى الجنوب ؛ فصور التكلم الشعبية عندنا تمتد على أرض الوطن من طرف إلى آخر كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة في كل نقطة منه بعضها على بعض وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها من بعض ^(١) . »

هذا أيضاً هو رأى الذى تصير إليه « نظرية الأمواج » Wellentheorie ليوهان شمت Johann Schmidt ^(٢) . فهو يقرر أن كل ظاهرة لغوية تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج ، وأن كل موجة في تقدمها التدريجى غير المحسوس ليس لها حد معين . ويستند في نظريته على دراسة اللغات الهندية الأوروبية حيث الخطوط التي تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى لا تنطبق على الخطوط التي تفصل بين خاصيتين لغويتين أخريين ، وذلك كما هي الحال في اللغات الرومانية . ولكن الأستاذ ميه قد دافع بحق عن اللهجات الهندية الأوروبية ^(٣) فأبان أنه يمكننا أن نقوم بتقسيم لهجى ، حتى في زمن الهندية الأوروبية . وهذا التقسيم يقوم على المبدأ القائل بأن من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كما رأينا عدداً كبيراً من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبي . فهناك لهجة محددة في كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة ، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منهما تتميز في مجموعها ببعض السمات العامة التي لا توجد في الأخرى ؛ فالبروفنسالية والفرنسية ليستا في حقيقة الأمر إلا لهجتين من لغة واحدة . وإذا لم يكن في وسعنا أن نرسم على الخريطة خطأً محدداً يبين أين تنتهى الفرنسية وتبدأ البروفنسالية ، فإن كلا من اللهجتين في مجموعها قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة إلى حد يجعلنا في مأمن من الخلط بينهما .

(١) دوزا : رقم ٦٥ ، ص ٢١٧ ومايليها ، مع إشارات بالرجوع إلى شوخارت وأسكولى وجاستون باريس وب ميير . وقارن جاستون باريس : رقم ١٠٦ ، ص ٣٣٤ .
(٢) رقم ١٩٩ ؛ وقارن برجان : رقم ٣١ ، مجلد ١ ، ص ٢٢٦ ومايليها .

يمكننا أن نوجد في داخل المجال الفرنسى نفسه تقسيما لهجيا باختيار بعض السمات الخاصة التى تكفى لتمييز اللهجة . فالفرنسية البيكاردية تمتاز عن فرنسية الإيل دى فرانس باحتفاظها بالـ C الانفجارية (ك) التى صارت صوتا صفيريا (ش) فى المجال الفرنسى . فتمول البيكاردية kar, kamp, keval بدلا من char champ, cheval . نعم إن هذا المقياس النافذ فى التمييز بين البيكاردية والفرنسية ليس صالحا كما أبان پول ميير ، للتمييز بين البيكاردية وبين جارتها الشمالية أعنى الفرنسية البلجيكية (الولونية Wallon) أو بينها وبين النرمندية جارتها الغربية . ولكن يوجد بين البيكاردية والفرنسية البلجيكية أو النرمندية خصائص أخرى مميزة يمكننا من وضع حدود إجمالية بين هذه اللهجات .

لذلك لا يقع المتكلمون فى الخطأ . فالتقسيم الهجى يرجع إلى إحساس حقيق لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ليست هى الصورة التى يسير عليها سكان الإقليم المجاور . والبيكارديون القدماء كانوا يشعرون بأن فرنسياتهم البيكاردية لهجة تختلف عن فرنسية الإيل دى فرانس بقدر ما تختلف النرمندية عن الولونية (الفرنسية البلجيكية) . وذلك لأن البيكاردية فى مجموعها بالرغم من اختلاف صورها فى المجال الواسع الذى تتكلم فيه ، فيها سمات مميزة غالبية تميزها فى أذهان الذين يتكلمونها بالنسبة للهجات المجاورة . وهذا يفسر لنا وجود مؤلفات أدبية مكتوبة بالبيكاردية .

أغلب الظن أن اللغات الأدبية التى تعتمد على إحدى اللهجات أى التى تقوم على أساس لهجى لا تمثل ، كما سنرى فيما بعد (ص ٣٤٢) ، تمثيلا صادقا بصورة التكلم لأى بلدة من بلدان المنطقة . وهذا يصدق على فرنسا فى العصور الوسطى كما يصدق على بلاد الإغريق القديمة . ولكن لا ينبغي أن نستنتج من ذلك عدم وجود اللهجة . بل إنها توجد بقدر ما توجد اللغة المشتركة فلها نوع من الوجود المثالى . فى الفرنسية لا يكتب سان ألكسس Saint Alexis فى نفس اللهجة التى يكتب فيها سان ليجهيه Saint Leger أو ال كاتيلين دى سانت أولالى la Cantilène de Saint Eulalie .

وفي بلاد الإغريق كانت لهجة الملحمة غير لهجة القصيدة الغنائية ؛ وفي
الدرامة كانت تستعمل لهجتان مختلفتان ، واحدة للحوار والأخرى للغناء الجماعي .
فأساس هذه اللهجات من حيث الأصل لغة أحد الأقاليم الإغريقية سواء أكان ذلك
الإقليم في الجزر أم في القارة ، وسواء أكانت هذه اللغة واسعة الانتشار أم
محصورة . وكان في كل منها من السمات الخاصة المميزة ما يكفي لتسميتها لهجة .
ولكن استعمال الشعراء لها صيّر لها لغات أدبية ؛ واللغات الأدبية التي من هذا
النوع لا تختلف عن اللغات الخاصة إلا قليلا .

بعد أن عرّفنا اللهجة على هذا النحو يجدر بنا ، قبل أن ندرسها في صلاتها
باللغة المشتركة ، أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة . واللغات الخاصة نتيجة للانفصال
الاجتماعي ، مثلها في ذلك مثل اللهجات ولكن من وجهة نظر أخرى .

نعني باللغة الخاصة تلك اللغة التي لا يستعملها إلا جماعات من الأفراد وجدوا
في ظروف خاصة . ومثال ذلك حالة « المحضر » أو حالة القاضي . فهذان الموظفان
يستعملان في تسليب حيثياتهما أو في تحريرها لغة بعيدة جداً عن اللغة الجارية ؛
هي اللغة القانونية . ولدينا مثال آخر في لغة الطقوس الدينية : فكثيراً ما يستخدم
المؤمن في خطابه لله لغة خاصة ، كالكاثوليك إذ يستعملون اللغة اللاتينية . فيجب
أن نسلك اللغات الدينية بين اللغات الخاصة . وأخيراً أنواع الأرجو les argots
« اللغات العامية الخاصة » كلها لغات خاصة : فطلبة المدارس والصناع والأشقياء
يستعملون فيما بينهم لغة متفقاً عليها . ومن اللغات الخاصة أيضاً تلك اللغات التي
تتميز من اللغة الجارية ويستخدمها عدد محصور من الأفراد للتفاهم الذي فيه شيء
من السرية . وكل هذه اللغات تشترك في كونها خاصة بالنسبة للغة مشتركة بعضها ،
وباختبار تكونها يتضح لنا أنها تنشأ جميعاً عن ميل واحد ، وهو ترويض اللغة على
مشاغل المجموعة التي تستعملها .

تعتبر بعض هذه اللغات الخاصة لغات مختلفة عن اللغة العادية . ومنها اللاتينية
التي ظل العلماء زمناً طويلاً يستخدمونها في علاقاتهم الدولية . فهم قد اختاروا

لغة ميتة للتفاهم مع غيرهم من العلماء ؛ وفعل قسيسونا مثلهم في مخاطبة الله . وظلت اللغة السنسكريتية في الهند لغة البندقيين ؛ أى لغة المثقفين . ويمكننا أن نعدّ من لغات العبادة التى تختلف عن اللغة الحية اللغات الإغريقية والسلاوية القديمة والأرمينية ، أو القبطية التى ظلت اللغة الدينية لقوم يتكلمون فى شؤونهم العادية اللغة العربية ، وهى لغة من أسرة أخرى . وهذا يفسّر بيوعات خاصة : بالحاجة إلى إمكان التفاهم مع أناس من أقطار مختلفة فى حالة اتّخاذ اللاتينية لغة للعلماء ، أو باتّباع التقاليد وأكثر من ذلك بالحاجة إلى تمييز القدسى من الدنىوى ، وذلك كما فى حالة اللغات الدينية (انظر ص ٣٢١) .

وعلى الجملة فإن اللغات الخاصة تقوم على الرصيد المشترك للغة حية . ولكن بعضها لغات ميتة موت اللاتينية ، ومن ذلك لغة المحاكم . فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية ، على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئاً منها . فهى ليست فى نهاية الأمر إلا لغة فنية كلغة الأطباء عندما يحررون نبذة طبية وعلى العموم ، كلغة العلماء من كل نوع عندما يعالجون مادة علمهم . واللغات الفنية تدّين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها فى الاستعمال الجارى ؛ ولكنّها أيضاً ترجع إلى الحاجة للدلالة « بصورة علمية » أى بمصطلح دقيق يرفع كل لبس ، على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيراً جيداً . لذلك نراها أحياناً تختزع كلمات خاصة وأحياناً تستعمل كلمات اللغة العادية فى معنى خاص ؛ كما يفعل علماء الطبيعة حين يتكلمون عن « الكتلة » أو « السرعة » أو « القوة » . وبهذا تنحو اللغات الفنية نحو اللغات العامية الخاصة (١) .

صارت كلمة « عامية خاصة » (argot) فى الأيام الأخيرة مصطلحاً غامضاً . والواقع أنّها ليست إلا اسماً آخر للغة الخاصة ، ويوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة . والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحدّ ؛ وأنّها فى تغيّر دائم تبعاً للظروف والأمكنة . فكل جماعة خاصة وكل هيئة من

(١) انظر عن العامية الخاصة ف : ميشل : « دراسات فى الفلولوجيا المقارنة عن العامية الخاصة ٢٢ باريس ١٨٥٦ ؛ ل . سينيان : رقم ١١٩ ومؤلفات مارسل شوب ودوزا .

أرباب المهن لها عاميتها الخاصة . فهناك عامية التلامذة الخاصة ، وهي غير واحدة في كل المدارس بل وتختلف أحياناً باختلاف الفصول في المدرسة الواحدة ؛ وهناك عامية الشكنات الخاصة التي تختلف باختلاف الأسلحة بل وباختلاف الشكنات أيضاً ؛ وهناك عامية الخياطات الخاصة وعامية الغسالات وعامية عمال المناجم وعامية البحارين .

وأخيراً هناك عامية الأشقياء الخاصة . وهذه هي التي أطلق عليها كلمة « عامية خاصة » (argot) لأول مرة . فقد كان يوجد عندنا حتى بداية القرن التاسع عشر هيئة منظمة حققة للأشقياء وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها والتي كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة على المحافظة عليها . هذه هي العامية الخاصة « argot » ومن قبل كانت تسمى jargon ، لأن الكلمتين كانتا في الأصل بمعنى واحد . وتسمى بالإنجليزية cant وبالألمانية Rotwelsch أو Gaunersprache وبالإيطالية furbesche وبالإسبانية germania وبالبرتغالية calão وبالرومانية smecheareasca ، الخ . والذين يدرسون اللغة الخاصة ما زالوا يتخذون لغة الأشقياء أساساً لدراساتهم ؛ ولكنها أرض لا يوجد أقل منها تحديداً ، وذلك لأن الأشقياء لا يكونون الآن جماعة مغلقة يستطيع أعضاؤها أن يفرضوا على أنفسهم وحدة لغوية تامة . فالذين يتكلمون العامية الخاصة الآن ينسبون إلى جميع الآفاق الاجتماعية . وما يسمى عالم الأشقياء يشتمل على ممثلين لكل الأقاليم وكل الطبقات وكل الأوساط . وإذا اجتمع المجرمون ، اجتمعوا في وحدات منعزلة لحاجات عابرة ، لا يعترفون برئيس يستطيع ، كما استطاع ملك تون roi de Thunes أو كوسر الكبير grand Coesre ، أن يفرض عليهم إرادته . وليس يميزهم أى شيء خارجي ، بل يختلطون بحياة الجميع ، بالرغم من أنهم يعيشون على هامش المجتمع الشرعي . فكيف يوجد في هذه الظروف لغة للمجرمين محددة تحديداً دقيقاً ؟

ننحصر خصائص العامية الخاصة في اختلاف مفرداتها بوجه خاص ، والواقع أنها تنشأ من تخصص اللغة المشتركة ؛ ولما كانت لا توجد إلا بمعارضتها لهذه اللغة المشتركة ، وجب أن تحس الصلة بين اللغة العامة والعامية الخاصة بصفة

دأمة ما دامت العامية الخاصة مستعملة . والتشويه الصوتي أو الصرفي مهما قلَّ ينتج عنه قطع الرباط الذي يصل العامية الخاصة باللغة المشتركة التي خرجت منها . هذا إلى أن الصرف والأصوات يكونان نظامين لا يستطيع مسهماً بشيء دون تغييرها من أساسهما . فلا عدوان للعامية الخاصة عليهما . طبعاً قد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها . فالعامية الخاصة المستعملة في الأطراف الپاریسية تحتوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكفي للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية . ولكننا هنا أمام حقيقتين مختلفتين يجب علينا أن نميز بينهما : إذ أن النطق الطبيعي في الأحياء الپاریسية المتطرفة ليس هو النطق الفرنسي المعتاد . فالأطراف لها أصوات خاصة لا علاقة لها بالمفردات . وقد نسمع بعض العمال يتكلمون فرنسية لا شائبة فيها بتفغيات أهل الأطراف ، وأناساً من غلبة القوم يتكلمون كلمات من العامية الخاصة مع نطق لا يعلو عليه نطق . فإذا اجتمع نطق الأطراف ومفردات العامية الخاصة في متكلم واحد ، فمضى ذلك اجتماع نوعين مستقلين من الخصائص بطريق الاتفاق .

يمكننا إذن أن نحصر الفوارق التي تميز العامية الخاصة في المفردات . ولكن يبقى علينا أن نبين كيف تنشأ تلك الفروق بين المفردات . فأيسر الوسائل أن تستعمل كلمات اللغة الجارية استعمالاً خاصاً . وقد قلنا سابقاً إن الكلمات العامة التي مثل travail « عمل » و ouvrage « مشغل ، عمل ، صناعة ، تصنيف .. الخ » و opération « عملية » تتخذ بالضرورة معنى خاصاً في أفواه الذين يستعملونها وفقاً لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ . فظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامية الخاصة (انظر ص ٢٥٦) .

الاستعمال الاستعاري من الوسائل المحببة إلى العامية الخاصة ؛ وكذلك استعمال اسم العلم في وظيفة الاسم المشترك . وهاتان الخططان معروفتان في اللغة الجارية (انظر ص ٢٨٧) ؛ فهما لا يميزان العامية الخاصة من اللغة الجارية في شيء . ولكن طريقة تطبيقهما قد تسمح بشيء من التمييز : فالواقع أن الاستعارة والنقل يستعملان في العامية الخاصة بتواتر خاص ؛ إذ أن الاستعارات فيها تبلى بسرعة

وتحتاج إلى كثرة التجديد ، حيث أن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة واللغة المشتركة والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ؛ فلا يدهشنا إذن أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى . كذلك كثيراً ما تكون هذه الابتكرات شعورية وعرضية . وهنا نلمس عن كثب أكثر الخواص تمييزاً للعامية الخاصة عن اللغة الجارية . إذ أن العامية الخاصة مع كونها لغة طبيعية من حيث مبدؤها ومن حيث تكوينها فإنها تقارب اللغات الاصطناعية وتزود من الابتكرات الفردية . فتفوق عضو من الجماعة يفرض على الآخرين تسمية ناجمة من ظروف خاصة في حياة الجماعة ؛ وهكذا يشاطر الهوى الفردى في خلق كلمات جديدة .

وهذا كله غير كاف . فوسائل اللغة العادية لا تكفى ، مهما شدد من أزرها فعل الأفراد الخاص ، لتزويد العامية الخاصة بذلك التيار الدائم من الكلمات التي تحتاج إليها . وهنا تتدخل المفردات الأجنبية بمدد المساعدة . ويجب أن نفهم كلمة أجنبية هنا بمعناها الواسع الذي يشمل كل ما ليس من اللغة المشتركة التي تركز عليها العامية الخاصة . وهكذا تستطيع المساهمة في تكوين العامية الخاصة وتجديدها صور التكلم المحلية المنتشرة في جميع أرجاء القطر ، وكذلك اللهجات ولهجات اللهجات التي تعتبر بدورها لغات مشتركة صغيرة خاضعة للغة القطر العامية ؛ بل واللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة . « فعامية ألمانيا الخاصة » Rotwelsch مثلاً ملأى بالكلمات اليهودية الألمانية والجرمانية germania (في أسبانيا) فيها عناصر غجرية هامة جداً ؛ والـ Smechereasca تضيف إلى أساسها الرومانى عناصر مجرية وروسية ويهودية ألمانية وغجرية ، ونقابل هنا وهناك في الـ cant كلمات إيرلندية ، مثل twig « الفهم » من (الإيرلندية twigim « أفهم ») . وفي العامية الخاصة بمدرسة البوليتكنيك توجد كلمة ألمانية هي schiksal « مصادفة ، قدر »^(١) . والعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوى على كلمات أجنبية قليلة العدد (عربية ، غجرية ، يهودية ألمانية) ؛

(١) مارسل كوهين : رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٧٠ .

أما أساسها فمستعار من عناصر أهلية ، ولكن اللغات الإقليمية ممثلة فيها بأكثر من الفرنسية المشتركة^(١) .

يترتب على هذا التنوع في تكوين العامية الخاصة ، أننا نجد فيها كثيراً من الكلمات الحوشية ، إذ الواقع أنه إذا دخلت كلمة في العامية الخاصة بواسطة التخصص المعنوي أو مجرد الاقتباس ، حافظت التقاليد في غالب الأحيان على بقائها فيها حتى بعد انقراضها من اللغة الجارية . وقد يدهش الإنسان مثلاً حين يعلم أن الكلمة الألمانية القديمة *lütt* « صغير » تستعمل في عامية الألمانية الخاصة بدلاً من كلمة « Klein » أو أن الفعل *occire* « يقتل » الذي اختفى من الاستعمال منذ قرون ما يزال يستعمل في العامية الخاصة الفرنسية بدلاً من الفعل *tuer* . وهذه حوشية . ومثل هذه الحالات لا تكون في كثير من الأحيان حوشية إلا في مظهرها فحسب إذ هي في حقيقة الأمر مستعارة حديثاً في نصوص أدبية ، ومن العسير في بعض الأحيان أن نميز بين الخطتين .

والأخذ عن الكتب أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة . وهذه الوسائل على درجة كافية من التنوع . وتنحصر مثلاً في تشويه مظهر الكلمات الخارجى . وهكذا يستعيضون عن لاحقة من لواحق اللغة الجارية بلاحقة خاصة بالعامية ؛ وذلك كقول العامية الخاصة الفرنسية *épismar* بدلاً من *épicier* « بدال » و *Auverpin* بدلاً من *Auvergnal* « أو فرنى » وكقول الألمانية في عاميتها الخاصة *Kofmich* بدلاً من *Kaufmann* « تاجر » . وبعض التشويهِات الأخرى ليست إلا توسعاً في التغيرات الصوتية المطردة . وإن الأسباب المذكورة في صفحة ٨٩ لتفسير المبالغة في العوارض الصوتية لتجد مجالا خصباً في العامية الخاصة . ففيها يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة : لأنه يخاطب عدداً محصوراً من المتكلمين ، كلهم مهتمّ الذهن لفهمه ،

(١) انظر الدراسة القيمة التي كتبها الأستاذ إرنو عن العامية الخاصة البريطانية ، رقم ٨

وكلهم متفاهم معه مقدماً . ومن ثم يحىء هذا العدد الضخم من حالات الحذف والإسقاط والتبسيط وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون . ومن جهة أخرى نجد ظواهر التشابه والتخالف والنقل المكاني في العامية الخاصة المتكلمة ميداناً خصباً لا يعترض انتشارها أية عقبة من القواعد . وأخيراً نعثر في العامية الخاصة على تشويهاً مصطنعة غير مرتبطة بظروف اللغة الطبيعية : ومثال ذلك *le javanais, le loucherbème* الجافانية . ففي الحالة الأولى ينقل الحرف الأول منها إلى آخرها ويستعاض عنه بحرف ل « 1 » ثم يضاف إلى الكلمة بعد هذا التشويه لاحقة من اللواحق العامية الخاصة ؛ وفي الحالة الثانية يقحم مقطع ما في داخل الكلمة (*ar* أو *oc* أو *al* أو *am* الخ) ، ولكن الغالب أن يكون المقطع المقحم *av* أو *va* ولعل هذا هو أصل الاسم الجافانية « *Javanais* » .

اللوشيريم *Le loucherbème* حديثة العهد نوعاً لأنها ترجع إلى بداية القرن التاسع عشر على الأكثر ، أما الجافانية المستعملة بين طغام باريس فيظهر أنها أقدم منها عهداً ، ولكن الطريقة التي تنبئ عليها هاتان العاميتان الخاصتان أقدم منهما بكثير ؛ إذ لا بد أنها قد استخدمت في كل زمن وفي كل مكان احتاج فيه قوم إلى تغيير لغتهم . ويوجد في البنجاب اليوم قبيلة من اللصوص خلقت لنفسها لغة خاصة بإقحام المقطع *ma* في داخل الكلمة المستعملة في اللغة البنجابية ^(١) .

وهي طريقة من أبسط الطرق وفي متناول كل إنسان . فقد رأينا في ص ٢٩٣ أن خلق كلمات جديدة أمر في غاية العسر . فإذا لم يكن لدى القاعمين بهذا الأمر منبع من المفردات المجاورة ينهلون منه ما شاءوا من كلمات جديدة ، أمكنهم أن يعدلوا الكلمات الموجودة بالفعل تبعاً لقاعدة مطردة . وهذه الطريقة التشويهية مستعملة في عدد كبير من العاميات الخاصة . فتلاميذ المدارس كثيراً ما يستعملون الجافانية ؛ وقد شوهد استخدام هذه الطريقة في بعض المؤسسات التعليمية بالأقطار الجرمانية والسلافية .

(1) T. G. Bailey on the secret words of the çûlûâs (proceedings of the Asiatic Society of Bengab, 1902).

هناك شخصية محوطة بالألفاظ لا نعرفها إلا باسم مستعار ضخمة الدلالة ، هو اسم فرجيليوس مارو Virgilius Maro النحوى الذى عاش على ما يظهر فى القرن الخامس بعد الميلاد . يقال إن هذا الرجل اخترع لغة خاصة ظلت شائعة الاستعمال زمناً طويلاً بين تلامذة المدارس الإيرلندية . وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية بأنواع من تضعيف المقاطع أو بترها أو نقلها . وبعضى الزمن تحولت وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت « لغة الشعراء » ، beria ، na filed بالإيرلندية . وهى عامية خاصة اختلطت فيها على غير قاعدة كلمات مستعارة من اللاتينية والإغريقية والعبرية وكلمات أهلية أهملها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة ، وكلمات مأخوذة من الاستعمال الجارى بعد قلبها أو تشويهها . هذه اللغة ، التى لا زالت تحت يدنا منها عينات عسيرة التفسير فى غالب الأحيان ، بقيت بقوة التقاليد زمناً طويلاً تستخدم فى المدارس الإيرلندية كلغة سرية . ولكننا نجهد إلى أى حد كانت تتكلم ؛ واعلمها لم تكن إلا نظاماً من نظم الرسم ، كلغة السحرة وكتاب التعميدات .

الرق السحرية التى نعثر عليها فى قبور اليونان وإيطاليا وإفريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق فى غالب الأحيان هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية أو تشويه الكلمات الأهلية^(١) . ولكن الباعث هنا يختلف : إذ يبنون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون فى تحرير النص اعتبارات لاصلة لها باللغة .

هذه الملاحظة تؤدى بنا إلى أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة التى تنشأ عن بواعث خفية . السباح الذين طافوا بالأقطار البدائية وعلماء الأجناس الذين ينسقبون أخبار السامحين يحدثوننا عن أهمية اللغات الخاصة بين الجماعات غير المتحضرة . إذ يوجد فى داخل اللغة الواحدة لأسباب دينية أنواع مختلفة من المفردات ، ووجهة الخلاف فيها تنحصر فى طريقة استعمالها وفى الأغراض التى تستعمل فيها ؛ والواقع

(١) أودولان Defixionum tabellae : Audollent ، باريس ١٩٠٤ .

« أن مجال التقديس عند هؤلاء المتوحشين أوسع منه عندنا . إذ لا يوجد نشاط اجتماعي أيا كان دون أن يساهم وقتاً ما في طقس من الطقوس السحرية الدينية ؛ ويجب — من الوجهة النظرية — استعمال لغة خاصة كلما جدت مناسبة من هذه المناسبات ... هذه اللغات الخاصة التي لا تستعمل إلا لوقت محدود ، ذات طابع انفصالي في غالب الأحيان ؛ أو على الأقل إنما تتكون (إلا في الحالات النادرة) من عدد يقل أو يكثر من العبارات المحرمة الاستعمال ، أي من تابوهات tabous لغوية^(١) . فكل ما كان ذا صفة قدسية ، وبالطبع كل ما مثل الألوهية في جميع صورها ، وأيضاً كل مادّة على الرؤساء والموتى والأشياء المخصصة لهم والحيوانات التي تمثلهم ، الخ ، كل هذا يدعو إلى استعمال لغة خاصة . وتستعمل أيضاً في الأفعال التي تحمل طابع التقديس عامة كالصيد البحري والبري والملاحة والحرب ، وفي بعض الأفعال الخاصة التي تدين بطابعها التقديسي إلى أهمية مكانية أو زمنية . فيوجد في أندونيسيا لغات خاصة بالباحثين عن الكافور وبالباحثين عن الذهب . من أكثر أنواع التخصيص شيوعاً ، ذلك التخصيص الناجم من اختلاف الجنسين . فالنساء لا يستعملن اللغة التي يستعملها الرجال ؛ وحتى عندما يفهمن الكلمات التي يستعملها الرجال لا يكون لهن الحق في النطق بها . فلا بد إذن من وجود نوعين من المفردات متوازيين تماماً حتى يصير لكل شيء اسمان تبعاً لجنس المتكلم . فعند الكاريبيين مثلاً يتكلم الرجال اللغة الكاريبية caraïbe والنساء الأرواكية arowak^(٢) . وأحياناً يتعدد الاختلاف في الطبقة الاجتماعية . فعند سكان جاوا الأصليين يتكلم الرئيس إلى مرؤوسيه باللغة النجوكية ngoka ، ويجيبه المرؤوس باللغة الكرومية kromo^(٣) .

(١) فان جنپ Van Gennp ، رقم ١٤ ، ١٩٠٨ ، ص ٣٢٧ وما يليها ؛ ور. لاش Mitterl. der anthropol Gesellsch — R. Lasch فينا (١٩٠٧) .

(٢) ل. آدم . L. Adam . Du parler des hommes et du parler des :

femmes dans la langue Caraïbe

(٣) فون در كابلنتس Von der Cabelentz ، رقم ١٦٣ ، ص ٢٤٤ .

وفي بعض الأحيان تختلف اللغات أيضاً باختلاف الأعمار . فعند الماسيين Masai في إفريقية الشرقية يقسم السكان الذكور بحسب أعمارهم إلى طبقتين ، لكل طبقة منهما تقاليد الصارمة التي تحرم عليها بعض الأطعمة وبالتالي استعمال بعض الكلمات^(١) . ولا يجوز لمن هم أكبر سناً أن يمسوا ذيل حيوان مقتول أو رأسه ، ويجب أن يستعملوا ألفاظاً خاصة للدلالة على هذا الذيل أو هذا الرأس . كما لا يباح لمن هم أصغر سناً أن يأكلوا من قرع الكؤوسة أو من القرع الأحمر . ومن أشنع الأخطاء أن ينسى أحدهم فيسمى أمام الآخر أحد الأفعال المحرمة على الأخير . وهذه التقاليد ناشئة من اعتبارات دينية : إذ ينظر إلى المجموعتين على أنهما شطرا وحدة سرية ، هي مجموع أفراد القبيلة الذكور . فيبين الفرق بين الشطرين بالاختلاف في الأفعال ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في المفردات .

هذه الظاهرة تدخل مباشرة في دائرة الأعمال الترويضية ، التي لها أهميتها عند المتوحشين . وهناك طقوس خاصة تصحب الانتقال من مرتبة من مراتب السن أو من المراتب الدينية إلى مرتبة أخرى . يقصد بها فصل المبتدئ من وسطه السابق لإدماجه في الوسط الجديد ؛ ومن ثم يجي استعمال اللغات الخاصة التي تبقى كاملة أو غير كاملة حتى بعد اندماج المريد في الوسط العام .

تعارض العالمين عالم الحقيقة وعالم الغيب ، أو عالم الخير وعالم الشر يعدّ أساساً لعديد كبير من الأديان . وهذه الثنوية كثيراً ما تخلق انفصلاً في اللغة . فيوجد في الأقسا عشرون كلمة بصورة مزدوجة ، تستعمل واحدة من كل زوج عند الكلام على هر مزد ، إله الخير والأخرى عند الكلام على أهريمان ، إله الشر^(٢) . وقد يكون للفعل الواحد — في عالم الحقيقة أو في عالم الغيب — وجهان ؛ فإذا دخل في عالم السحر دل عليه بكلمة متميزة وجديدة . وموضوع التوضيحية التي

(١) الكاتبين هركر Die Masai, Ethnographische , Capit . Merker

(١٩١٠) Monographie eines östafrikanischen Semitenvolkes ، ص ٧١ ، ينقل

عنه س . فايسٲ S. Feist : رقم ٢٤ ؛ مجلد ٣٧ ص ١١٣ .

(٢) انظر درمستير ، رقم ٦٤ .

يقوم القسيس بتنفيذها هو المساعدة على العبور من عالم إلى عالم^(١). لذلك كانت تقتضى التضحية فى كل الأقطار استعمال لغة خاصة ، وهى التى نسميها اللغة الدينية . وإذن فاللغات الدينية فى أوروبا الحديثة تقوم فى أصلها على أسباب سحرية ، ترجع بنا إلى رياضات البدائين وعقائدهم .

هذا إلى أنه يجب ألا نبالغ هنا فى الفرق بين المتوحشين وبين المتحضرين . فالأسباب التى تدفع بهؤلاء وأولئك إلى خلق اللغات الخاصة ، أسباب واحدة . وفى أعرق لغاتنا مدنية حالات من التخصيص لو وجدناها فى إقليم الزمبىزي أو فى سومطرة لما ترددنا فى إرجاعها إلى العقلية الغيبية . وتحريم المفردات على ماله من أهمية فى تكوين جميع المفردات الأوروبية القائمة ، خطة غيبية خالصة ؛ وكمن أناس حولنا يتجنبون نطق هذه الكلمة أو تلك مخافة أن يحمل بهم العارض الذى تدل عليه الكلمة ، كما أن عبارة *absit omen* عبارة وحشية ، وما القدرة التى تضاف للاسم إلا بقية من تلك العقلية الغيبية . بل لا نعدم أن نجد بيننا تلك اللغات الخاصة بالنساء . إذ يوجد فى بعض الأحيان عند يهود ألمانيا الذين يستعملون اللغة اليهودية الألمانية ، نوعان من المفردات لتمييز ما هو يهودى مما هو غير يهودى^(٢) . ولكن هناك أيضاً فروقاً فى استعمال اللغة تبعاً لاختلاف الجنسين ، فالرجل يلقى التحية أو يرد عليها بالعبرية ، أما المرأة فتستعمل فى ذلك الألمانية دائماً .

من جهة أخرى يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت اللغات الخاصة التى لا يزال يستعملها أرباب بعض المهن المعينة فى الأقطار المتوحشة برهاناً على عقلية غيبية . وكما أن سكان الملايو عندهم لغة الباحثين عن الذهب أو الباحثين عن الكافور ، فعندنا أيضاً تلك العامية المهنية الخاصة التى تستعمل فى صناعاتنا على اختلافها . وفى بريطانيا تنوولت لغة الخياطين^(٣) (*langage kôméner*) بالدرس ، كما

(١). هوبرت وموس : *Essai sur la nature et la fonction* : Hubert et Maus

du sacrifice فى رقم ٨٥ ، ص ١ — ١٣٠ .

(٢) إرنست ليفي Ernest Levy : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٣٣ .

(٣) إرنو ، رقم ٨ ، مجلد ٢٤ ، ص ٢٧ .

تنوالت في إيرلندة واسكتلندة لغة صانمي الصهاريج (shelta) ولغة غيرهم من
أبناء المهن الأخرى ^(١) . فعمل هذه اللغات لغات غيبية قديمة مثل
le berla na filed ؛ ولكن بقاءها يفسر بتقاليد هذه الطوائف الخاصة
وحاجتها ، وهي طوائف تعزلها أعمالها عن بقية الناس .
اللغات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي ؛ لذلك كانت — من حيث المبدأ —
لغات طبيعية كاللهجات تماماً . ولكنها تقوم دائماً على مادة لغة مشتركة ، وتظل
عادة تستمد منها غذاءها .

الفصل الثالث

اللغات المشتركة

أشرنا في آخر الفصل الأول (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) إلى أى حد يعتبر توحيد اللغة ضرورة اجتماعية . ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدنا الأيام إلا تفرقاً . ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هي ؛ وكذلك التبادل الكلامى الذى يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدى إلى توحيد اللغة . ومن هنا تنشأ اللهجات ، وكذلك اللغات المشتركة التى تسير مع اللهجات جنباً لجنب . ومع ذلك فهناك خلاف بين تكون اللغات المشتركة واللهجات . اللهجات تنشأ فجأة من التعاون الطبيعى للأحداث اللغوية . إذ توجد اللهجة فى كل مكان توجد فيه صور تكلم متجاورة ذات خصائص مشتركة وتشابه محسوس فى المظهر العام لدى المتكلمين . فاللهجات لا يمكن محييدها إلا على وجه التقريب . وقد قلنا إننا إذا جمعنا كل المعايير اللغوية ، لم نستطع بها أن نخط حدوداً للهجة من اللهجات . فالعالم اللغوى لا يسير على قاعدة حين يختار الظواهر التى بمساعدتها يقسم الخريطة إلى أقسام لهجية . وشأن اللهجات كشأن الأقاليم الطبيعية التى ينقسم إليها قطر من الأقطار^(١) . فإذا لم تستخدم هذه الأقاليم أساساً لتقسيم سياسى ، بقيت حدودها دائماً غير ثابتة . فمكان مقاطعة السين والمارن لا يزالون يتكلمون عن ألبرى Brie والجاتينية Gatinais والنتوا Montois . ولكن هذه الأسماء المختلفة لا تمثل اليوم أى إقليم محدد تحديداً دقيقاً ، وإن دلت على بعض الخصائص

(١) تارن جولوا Régions naturelles et noms de pays : Gallois باريس ،
كولان ١٩٠٨ .

الجغرافية ؛ ولكن كان يمكن الكلام فيما مضى عن حدود كنتية ألبري Comté de Brie ، أما المنتوا — على الأقل — فلم تكن في يوم من الأيام أكثر من عبارة جغرافية .

كذلك اللهجة تتضح حدودها إذا كانت تطابق تقسيما سياسياً ، وتبقى هذه الحدود في غالب الأحيان زمنا طويلا بعد زوال الظروف التي أدت إلى تحديدها^(١) . لذلك يلاحظ في بعض أقاليم ألمانيا الحالية ، أن حدود الخصائص اللغوية تتطابق في بعض النقاط التي تتفق فيها هذه الحدود مع الحدود السياسية السابقة لسنة ١٧٨٩ . وهذه الحدود ترجع في عمومها إلى القرن السادس عشر ، بل إلى القرن الخامس عشر ؛ وقد كانت حدودا دينية في نفس الوقت ، حتى أن الأثر الديني يتعاون مع الأثر السياسي في تعيين حدود اللهجة . وكذلك الحال في بريتانيا الفرنسية ، حيث تتفق حدود لهجات ليون Léon و كرنواي Cornouailles وترجييه Tréguier التي لا تزال واضحة في كثير من النقاط ، مع تقسيمات الإقليم الدينية والسياسية القديمة . ومما يلفت النظر أن نهر مرليه Morlaix الذي يفصل بين لهجة ليون ولهجة ترجييه هو الذي كان يفصل بين الإبرشيتين فيما مضى ، وأن مدينة مرليه التي تقع على ضفتي النهر المسمى بهذا الاسم تنقسم لغويا إلى قسمين لهذا السبب . وهذا لا يعني أن سكان الضفتين لا يفهم بعضهم بعضا ؛ ولكن هناك عدداً من الخصائص المشتركة مجتمعة في منطقة تنتهي في تلك النقطة ؛ والخطوط اللغوية التي تتطابق بعضها مع بعض تتطابق أيضاً هنا مع تقسيم إداري قديم ، كما هي الحال في اللهجات الألمانية .

ومع ذلك فهما كانت أهمية العوامل السياسية والاقتصادية فإن اللهجة أولاً وقبل كل شيء كيان لغوي . وحتى عندما نحسب حساب الظروف الخارجية في تكوين اللهجات ، يبقى أن هذه الظروف تستند جوهريا إلى التطور الطبيعي لعناصر اللغة .

(١) ل . فيشر : Histoire et dialectologie في مجلة Revue de la Synthèse

historique مجلد ١٢ ، ص ٢٤٩ .

وهذا غير الحال في اللغة المشتركة . لأن الظروف الخارجية هي التي تحددها وتدين بوجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة ، أو إلى تأثير طبقة اجتماعية غالبية أو إلى تفوق أحد الآداب ؛ ومهما كان الأصل الذي تعزى إليه نشأتها ، فهناك دائماً أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تبعث على استبقائها . « المدنية وحدها هي التي تستطيع أن تنشر اللغة بين كتل عظيمة من البشر » ^(١) . ولا تفكك اللغة المشتركة وتتفتت إلا إذا تراخت العرى الاجتماعية التي كانت تمسكها . وإذن فمن الممكن أن ندرس على انفراد تكوّن اللغات المشتركة وأن نبين بأمثلة من التاريخ الأسباب التي تبعث على نشوئها وازدهارها وذبولها .

تقوم اللغات المشتركة دائماً على أساس لغة موجودة ، حيث تُتخذ هذه اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم . وتفسر الظروف التاريخية تغلب هذه اللغة التي اتخذت أساساً وتعلل انتشارها في جميع مناطق التكلم المحلي المختلفة . ولكن على العالم اللغوي أن يبدأ بالعمل لتحديد هذه اللغة .

ظروف خاصة هي التي ترشحها في كل قطر على حدة ؛ فكل واحدة من اللغات المشتركة الكبيرة — حديثة كانت أو قديمة — نشأت بطريقة خاصة . وأحياناً نرانا أمام إحدى اللهجات ، أي أمام لغة إقليم معين انتشرت في الأقاليم المجاورة وصارت لغتها المشتركة . وهذا ما حدث في بلاد الإغريق القديمة حين تكونت لغة *xorin* الهلنستية ابتداء من عهد الإسكندر . إذ أن هذه اللغة ليست في جوهرها إلا اللهجة الأتيكية Attique . وكانت هذه اللهجة قد ظلت حتى القرن الخامس « لغة محلية لإقليم بمنزل لا يكاد يرحل إليه أحد من الأجانب ؛ وكان سكانه — وهم في عمومهم من الزراع — من عنصر نقي نسبياً لا يشوبه اختلاط » ^(٢) . ومن قبل ذلك كان يوجد في بلاد الإغريق لغات مشتركة ، ولا سيما في المستعمرات .

(١) . رينان : رقم ١١١ ، ص ١٠١ .

(٢) ميه : رقم ٩٣ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . وقارن كرتشمير Kretschmer رقم

١٧٧ ؛ و Thumb رقم ٢١٣ ؛ وهفان : رقم ١٦٨ .

فقد كانت البونية منذ انتشارها على شواطئ آسيا الصغرى قد صارت لغة مشتركة ؛ وهذه اللغة نعرفها من هيرودوت الذى يمثلها لنا خير تمثيل . فمع كوننا نعرف بشهادة هذا المؤرخ أنه كان يوجد فى الدوديكاپول Dodécapole عدد من اللهجات المحلية التى يختلف بعضها عن بعض ، فقد كان فيها أيضاً لغة مشتركة تظلُّ اللهجات المحلية . ولكن الظروف السياسية لم تمكن هذه اللغة البونية المشتركة من الوصول إلى الأهمية التى وصلت إليها اللغة الأتيكية فيما بعد . فقد صارت الأتيكية فى الفترة التى بين الحروب الميديّة وقيام الإمبراطورية المقدونية فى حالة تسمح لها بأن تمدَّ العالم الهلنّى جميعه بلغة مشتركة ، وذلك بفضل هذا التعاون الفائق الذى أنتجته عدة أسباب معقدة . ويجب أن نذكر بين الأسباب التى ساعدت لهجة الأيتكيين على هذا التغلب ، ذلك الدور الأساسى الذى آل إلى أئينا بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية . ولكن زاد من قوة الأتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانها ؛ فكان لأئينا — بوصفها مركزاً سياسياً وأديباً وفنياً على السواء — شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن التاسع بعد الميلاد ، أداة للتفكير عند جميع الإغريقين . هذه اللغة خرجت من لهجة الأتيكية كما كانت تتكلم فى حدود الإقليم ؛ فهى لا شىء أكثر من تهيئة اللهجة الأتيكية لاستعمال سكان ذوى لهجات بل ولغات مختلفة .

فى إيطاليا القديمة تختلف الظروف بعض الشىء ^(١) . فاللاتينية التى صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيراً لغة العالم الغربى بأسره ، كانت لغة روما أولاً وقبل كل شىء ، أى لغة المدينة فى مقابلة لغة الريف المجاور واللهجات القاصية على السواء . وقد بدأت لغة المدينة *Le sermo urbanus* بالتضييق على اللغة الريفية *Le sermo rusticus* قبل أن تحل محل اللهجات المجاورة بعد أن غزتها فى عقر دارها ، مثل السابينة *le sabin* والمرسية *le marse* ، ثم محل لغات إيطاليا الأخرى من أسكية *l'osque* وأمبرية *l'ombrien* وأترسكية *l'étrusque*

وكلتية le celtique وإغريقية . وهنا أيضاً نقابل أهمية المدينة بوصفها عاصمة سياسية .

من العاصمة أيضاً خرجت الفرنسية المشتركة . فأهمية باريس السياسية والمنطقة الباريسية تفسر لنا بدرجة كبيرة انتشار لهجة الإيل دي فرانس l'Ile de France أى « الفرنسية » فى الأقاليم المجاورة وذلك بانضمام هذه الأقاليم إلى المملكة ، وصيرورتها فى نهاية الأمر أداة للتبادل الذهني من دنكرك إلى برينيان ومن برست إلى شامونكس . وفرنسية الإيل دي فرانس لم تمتد فحسب على اللهجات التى تشترك معها فى أسرة واحدة ، أى اللهجات المشتقة مثلها من اللاتينية ، بل اتخذت أيضاً لغة مشتركة لدى الفلمنكيين والبريتانيين ؛ مع أن لغتهما الطبيعيتين من أصل جرمانى أو كلتى ؛ كما نفذت بوصفها لغة مشتركة فى إقليم الباسك فى الجنوب الغربى من فرنسا ، على أنها لم تقتصر على حدود فرنسا السياسية ، إذ أن بعض الأجزاء البلجيكية والسويسرية يدخل فى المجال الفرنسى من الوجهة اللغوية ؛ وذلك دون أن نتكلم عن الجاليات القديمة أو الحديثة التى تعمل على انتشار الفرنسية فيما وراء البحار^(١) . وتاريخ هذه الفرنسية المشتركة وتاريخ تكوينها وانتشارها الجغرافى يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ فرنسا السياسى والاقتصادى والاجتماعى : فلا يستطيع فهم أحدها دون معرفة الآخر . ولكن الفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية معينة من طبقات العاصمة ، وهى البرجوازية . وهذه حقيقة أبان عنها برينو Brunot فى وضوح بالغ^(٢) : إن لغتنا المشتركة على النجوى الذى استقرت عليه فى القرن السابع عشر ، هى لغة البرجوازية الباريسية ، برجوازية « المدينة » ؛ وقد سَلِمَ بها القصر ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرارها . لذلك لا نكاد نحس فيها أثراً للهجات . الأسبانية المشتركة نشأت واستقرت قبل الفرنسية بزمان طويل . إذ كانت

(١) أنظر La langue française dans le monde (نشر الأليانس فرنسي)

باريس ١٩٠٠ .

(٢) رقم ٥٧ ، مجلد ٣ (La formation de la langue française) . انظر

أيضاً روسيه Rosset ، رقم ١١٢ .

شبه الجزيرة عند الفتح العربى (عام ٧١١) ميداناً لثلاث مجاميع من اللهجات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً : الغاليسية فى الغرب والقسطالانية فى الشرق ومجموعة وسطى تشغل منطقة شاسعة . والأسبانية المشتركة خرجت من لهجة من لهجات الشمال ، لهجة قسطلة القديمة La Vieille- Castille القريبة من الأقاليم البسكية . اتجه انتشار القسطالانية نحو الجنوب ، لأسباب يبررها التاريخ السياسى ، وكان انتشارها فى شكل هلال أخذ يزحف على لهجات المجموعة الوسطى شيئاً فشيئاً . ومع ذلك فقد بقيت عن يسار القسطالانية بمعناها الضيق وعن يمينها بقايا من هذه المجموعة تتمثل حتى أيامنا هذه فى لهجتى الليون Le Léon والأرجون l'Aragon ، اللتين تتشابهان تشابهاً غريباً . وقد صارت القسطالانية لغة أدبية فى القرن الثالث عشر بفضل الملك ألفونس العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) الذى كان يحتل بالنسبة لأسبانيا المكان الذى يحتله دانتي بالنسبة لإيطاليا . فالأسبانية المشتركة إذن نتيجة لتفوق قسطلة فى السياسة والآداب . وهذا التفوق لم يمتد إلى البرتغال التى صارت دولة مستقلة منذ نهاية القرن الحادى عشر . واللهجات البرتغالية كانت تنتمى دائماً إلى المجموعة الغربية . ومن ثم كانت البرتغالية القديمة تختلط بالغاليسية . ولكن الأهمية التى وصلت إليها لشبونة فى القرن السادس عشر بوصفها العاصمة ، وتأثير الشاعر الكبير كامونس Camoens (١٥٢٥ — ١٥٨٠) جعلها الغلبة للهجة المنطقة الوسطى فى القطر الذى صارت فيه لغة البرتغال الأدبية المشتركة . أما اللهجة التى تتكلم اليوم فى غاليسيا ، فعليها سبب البرتغالية القديمة وقد توقفت عن التطور : ومع ذلك فهى مملوءة بالآثار اللغوية الأسبانية ^(١) .

إذا قارنا الإنجليزية المشتركة بالفرنسية أو الأسبانية ، وجدناها تحمل منذ بدايتها آثار اللهجات المختلفة ^(٢) . وهذا ناتج من موقع مدينة لندن التى نشأت فيها الإنجليزية المشتركة فى نقطة تجعلها ملتبساً لمختلف اللهجات . هذا إلى أن تكون اللغة

(١) ندين بالمعلومات التى نوردتها فى هذه الفقرة إلى الأستاذ أمريجو كاسترو Amerigo Castro الذى تفضل فبعث بها إلينا ، وانظر لبتى دى فاشكندلوس Leite de Vasconcellos .

رقم ١٢٧ .

(٢) و. هورن W. Horn ، رقم ١٦٩ ، ١٧٠ ؛ مرسباخ Morsbach رقم ١٨٣ .

المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجيء حيث أخذت تتلقى بين أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم ، يفدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين . هذه الهجرة أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات ، حتى لنجد نطق الإنجليزية في القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وأنه يشتمل على كثير من وجوه الخلاف . ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم . ولكن هذه الهجرة الإقليمية أنعمت تبادل السكان بين العاصمة والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذي أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة . وإذن فأنجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها ، ولكن ذلك كان في ظروف تختلف اختلافا محسوسا عن الظروف التي تكونت فيها الفرنسية . فهذه الأخيرة أقوى توحيدا .

نشأت في أيامنا هذه لغات مشتركة في شبه جزيرة البلقان ، والمستقبل وحده كفيل بتعديل حدودها أو بتوسيعها ، ولكنها أيضا نشأت من وجود عاصمة . فاللهجات الصربية الجنوبية كثيرة الاختلاف عن الصربية التي تكتب وتتكلم في بلغراد ^(١) . فالنبر فيها في غير موضعه في الأولى ، والكلم غير مرعى والإعراب مبسط للغاية . وتعتبر هذه اللهجات من وجهات شتى خطوات وسطى بين الصربية والبلغارية ؛ إذ من المستحيل عمليا أن نخط حداً لهجيا بين اللغتين . ولكن توجد — منذ نهاية الحروب البلقانية — لغة صربية مشتركة تفر على اللهجات الجنوبية وتبطلها داخل الحدود السياسية لمملكة الصرب . ونحن مثلا على علم تام بالطريقة التي بها تحمل اللغة الأدبية المشتركة محل اللهجة المسماة بالإيكافية . l'ikavien ^(٢) . وينحصر التغير الأساسي في إحلال المجموعة الصوتية iye (إيبي) محل i (ي) . وييسر هذا الإحلال في بلاد الصرب وجود الوحدة

(١) ١ . بروخ Die Dialekte des südlichsten Serbiens : O. Broch

(١٩٠٣) (Linguist - Abteilung (Schriften der Balkan — Commission)

مجلد ٣ .

(٢) هـ . هرت Der ikavische Dialekt im Königreiche Serbien : H. Hirt

(رقم ٣٩ ، Phil . hist . Klasse ، مجلد ١٤٦ ، ١٩٠٣) .

العائلية ، ألا وهي الزدروجا la Zadruga ^(١) . إذ يجب ألا يكون في داخل الزدروجا إلا لغة واحدة ، ولكن الزواج يدخل في الزدروجا باستمرار نساء أجنبيات عن الإقليم ، يتكلمن لغات مختلفة ؛ وبهذا تضعف مقاومة اللغة المحلية ، وبمقدار ضعفها يزداد أثر اللغة المشتركة . وعلى هذا ، تصير اللغة الأدبية لغة الكلام بين جميع الصربيين القيمين بالملكة .

وفي ألمانيا — حيث العاصمة حديثة العهد وليس لها أثر غير منازع على مجموع الأقاليم الألمانية — قام انتشار اللغة المشتركة على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية . فالألمانية المشتركة أولاً وقبل كل شيء لغة كتابة ، تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة في الاستعمار ^(٢) . فبحركة الإصلاح انتشرت ألمانية لوثر في المنطقة الألمانية السفلى بأسرها ؛ وفي نهاية القرن السادس عشر كان لا يستعمل في هذا المجال لغة مكتوبة أخرى غير اللغة الأدبية المشتركة . وكان الانتشار بطيئاً في أقاليم جنوب ألمانية الكاثوليكية وفي سويسرة البروتستنتية . غير أن لوثر نفسه إنما استخدم آلة قد مهدت منذ زمن طويل ، إذ كان يوجد منذ القرن الرابع عشر في مستشاريات المدن أو مستشاريات الإمارات الألمانية ، ميل لاتخاذ لغة مشتركة تختلف عن اللهجات الإقليمية . والمستشارية الإمبراطورية هي الأولى التي سنت هذه السنة ^(٣) . إذ أخذت على عاتقها أن تتجنب الخصائص اللهجية وأن تستعمل لغة واحدة في جميع الأقاليم التي تحت سلطتها . وهذا واضح في عهد الإمبراطور شارل الرابع في صميم القرن الرابع عشر . وقد استمدت لغة المستشارية قوة عظيمة من كونها لغة استعمار أولاً وقبل كل شيء . إذ الواقع أن الألمانية كانت تحتل الأراضي السلافية قدماً بقدم وتحل محل اللغات السلافية . فتكونت الألمانية المشتركة في مدن الاستعمار في ألمانيا

(١) « الزواج إحدى الوسائط الإنسانية الدائمة بين اللغة والتاريخ المحلي » . تراشيه Terracher ، رقم ١٢٤ ، ص ١٠ من التمهيد : و ص ٢٢٨ .

(٢) كلوجه Kluge : رقم ١٧٥ ، ١٧٦ ؛ وجتاهر Gutjahr Die Anfänge : ١٩١٠ .

der neuhochdeutschen schriftsprache vor Luther . هال (١٩١٠) .

(٣) سوسن Socin : رقم ٢٠٦ ، ص ١٦٤ و ٢٠٣ .

الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الإصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية ، واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة وصارت لغة الكتابة في ألمانيا المثقفة بأسرها .

وتاريخ الروسية يختلف عن ذلك اختلافا محسوسا ^(١) . فقد ظلت اللغة السلاقونية -- وهي التي استعملها مترجمو الكتاب المقدس الأقدمون -- لغة الكتابة في روسيا طوال العصور الوسطى . هذه السلاقونية وهي تقوم على أساس اللهجات السلاقية الجنوبية (في إقليم سالونيك) قد أصابها في روسيا شيء من التأقلم ، ولكنها لم تتحد إطلاقا مع الروسية نفسها . وإذا كان أناس من أنصاف المثقفين قد كتبوا بلغة أقرب إلى لغة الكلام ، فإن اللغة الأدبية بقيت دائما لغة الكنيسة . ولم تأخذ اللغة في التخلص من هذا الأثر السلوثاني إلا منذ بطرس الأكبر ، حيث حذت حذو لغات أوروبا الغربية ولا سيما الفرنسية والألمانية ، وسارت الاستعمال السائد في روسيا الوسطى على النحو الذي كانت توجد عليه في العاصمة القديمة موسكو . فتكونت في غضون القرن التاسع عشر لغة أدبية فيها آثار سلاقونية ولكنها تستند في جوهرها على لغة الكلام المستعملة .

اتخذت البولونية لغة أدبية منذ القرن الرابع عشر ، ولكنها لم تزدهر بهذه الصفة إلا في القرن السادس عشر ، في إقليم كراكوفيا (بولونيا الصغرى) . ومع ذلك فإن البولونية الأدبية والمشاركة ليست لغة هذا الإقليم ؛ وإنما خرجت من إقليم بوسن Posen ومن جنيسن Gnesen (بولونيا الكبرى) التي تعد مهد البولونيين الجنسي في القرن العاشر . فمن بين مجاميع اللهجات الكبرى الأربع ، المازوفية mazovien والپسنانية pasnanien والكراكوفية cracovien ولهجة بولونيه روثينية Ruthénie ^(٢) . اتخذت الپسنانية وحدها أساسا للغة الأدبية

(١) ١. E. Budde . تاريخ مجمل للروسية الأدبية المعاصرة من القرن السابع عشر

إلى القرن التاسع عشر (بالروسية) ، وهو ما تحتوي عليه الكراسة الثانية عشرة من

Enciklopedija slavjanskoj filologij . بطرسبرج ، ١٩٠٨ .

(٢) انظر كازيمير نيتش Casimir Nitsch Mowa ludu polskiego: كراكوفيا

(١٩١١) .

المشتركة ؛ ولكن هذه اللغة تطورت في بولونيا الصغرى ، وتم تكوينها في الجزء الشرقي من المنطقة ، في روتينيا ، أى في أرض مستعمرة لم تكن تنتمى في الأصل إلى بولونيا الجنسية .

وأخيراً توجد لغات مشتركة من أصل أدبي محض . مثل الإيطالية^(١) التي استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام وتأثيرهم ، مثل دانتي وبيترارك وبوكاشيو ، وذلك في وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية . وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التي كانت تتكلم حولهم ؛ ومن ثم أطلق اسم اللغة التسكانية *Lingua toscana* على اللغة الأدبية الإيطالية . ولكن هذه التسمية لا يفرض أن تكون إيطالية الكتب قد أتت من انتشار لهجة إقليمية : فاللغة التي رفعها دانتي إلى مرتبة اللغة الأدبية ، والتي صارت لغة إيطاليا المشتركة ، كانت أولاً وقبل كل شيء لغة مدينة هي فلورنسا ، ولغة المجتمع الراقى في هذه المدينة . واللغة التسكانية نفسها فيها خصائص لم تدخل في اللغة الأدبية ، فهي مثلاً تقلب الـ *c* (ك) إلى *spirante* إذا وقعت بين حركتين فتقول *fuoho* بدلاً من *fuoco* و *la hasa* بدلاً من *la casa* . ومع ذلك فمن الحق أن نلاحظ أن أسباباً عديدة مختلفة النواحي جعلت من فلورنسا *la terra promessa* (أرض الميعاد) للغة الإيطالية المشتركة . فهذه المدينة فضلاً عن نبوغ كتابها وأهميتها كمركز أدبي واقعة بين بولني *Bologne* وروما ، مما رشحها لتكون همزة الوصل بين المدن الثقافية في إيطاليا . ولغة فلورنسا من جهة أخرى كانت مزايها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة : إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية ، وبذلك كانت تيسر لكل متعلم الانتقال من لهجته إلى اللغة المشتركة . وهذا كله مهد لانتصار التسكانية *lingua toscana*

(١) دوفيدو *D'ovidio* : *Lingua e dialetto* (رقم ٤١ ، مجلد ١ ، ص ٥٦٤ —

٥٨٣) ؛ وج. اسكولى *G. Askoli* : *Il toscano e il linguaggio letterario degli italiani* (رقم ٤١ مجلد ٨ ، ص ١٢١ — ١٢٨) ؛ وبيو راجنا *Pio Rajna* : *Origine della lingua italiana* (*Manuale della letteratura italiana* ، تأليف دنكونا *D'Ancona* ، وبتشي *Bacci* ، مجلد ١ ، الطبعة الثانية (١٩٠٨) ، ص ١٥ — ٢٤) .

هذا الانتصار الذي تم حين راح Bembo البندقى نفسه يستعملها فى مؤلفاته فى القرن الرابع عشر .

طريقة تكون اللغات التى قدمنا منها عدة صور تؤثر على العلاقة التى تكون بين هذه اللغات وبين اللهجات . فإذا لم تكن اللغة المشتركة نفسها إلا لهجة أظهرتها الظروف على اللهجات المجاورة ، سهل عليها ابتلاع هذه اللهجات فى وقت وجيز لأن اللهجة التى اتخذت أساسا ، لها من السلطان ما يفرضها على اللهجات الأخرى . وأغلب الظن أنها تفقد على وجه العموم ما فيها من صفات موهلة فى الخصوصية ، فقد تخلصت الأتيكية مثلا من بعض خصائصها البينة عندما صارت اللغة الهلينستية . ولكن اللهجات الأخرى من جانبها تبلى سريعا باحتكاكها باللغة المشتركة . فاللهجات تمحى حدودها شيئا فشيئا إلى أن تنتهى بالاندماج فى اللغة العامة ، اللهم إلا إذا أمدتها ظروف خاصة بحماية تطيل فى عمرها فى صورة لغات خاصة أو لغات أدبية . فلم يبق عندنا فى فرنسا الشمالية لهجات بمعنى الكلمة ؛ لم يبق هناك من وسيط بين اللغة المشتركة والتكلم المحلى الذى يسمى رطانة patois ، والبيكاردى لم يعد فى وسعه أن يتصور غير نوعين من اللغات : رطانتها الخاصة واللغة الفرنسية المشتركة ، وقد تعلم هذه الأخيرة فى المدرسة وتطلع عليه كل صباح فى صحيفته اليومية . هذا إلى أن طريقة التكلم المحلية تمتلئ يوما بعد يوم بالعناصر التى تستعيرها من اللغة المشتركة . ولكن إذا اتفق لبعض العناصر المحلية أن تدلف إلى اللغة المشتركة ، فليس معنى هذا أننا نواجه بقايا لهجية أو أمام لهجة جديدة فى سبيل التكوين ، بل نواجه اللغة المشتركة نفسها فى مظهر محلى . ويجب أن نرجع قرونا إلى الوراء لنعثر على نصوص مكتوبة بالبيكاردية . فاللهجة البيكاردية قد انقرضت من يوم أن فقد المتكلمون بها الأحساس باستقلال اللهجة وهيتها . معلوماتنا عما حدث فى اليونان القديمة أو فى إيطاليا القديمة غير وافية ، ولكننا نتوقع أن تكون اليونانية المشتركة أو اللاتينية المشتركة قد ابتلعتا بدورها اللهجات إن قليلا وإن كثيرا . فاللغة الهلينستية *koivḗ* أساس اللهجات

الحديثة جميعها . إذ بعد أن تم التوحيد حدث انفصال جديد تبعاً لقوانين التاريخ ، ولكنه قام على أساس مختلف ؛ لذلك لم نستطع أن نكتشف في لهجات الإغريق الحديثة شيئاً يرجع إلى اللهجات السابقة لتكوين اللغة المشتركة *κοινή* . فلا بد أن اللهجات المحلية قد تشربت خصائص اللغة المشتركة إلى حد جعل السامع لا يميزها إلا ببعض تفاصيل في النطق أو ببعض سمات في المفردات ، لأن النقوش — بل أقرب النقوش إلى لغة الكلام — لا تسمح لنا بالحكم بوجود بقايا من اللهجات (١) .

وتشربت اللاتينية في إيطاليا عدداً من اللغات التي لا نعرف عنها اليوم شيئاً يذكر ، كما تشربت اللهجات المجاورة لهجة روما . وقد نجحت بعض الجهود التي بذلها فريق من علماء اللغة في أن يستخرجوا من مفردات اللاتينية ومن نظامها الصوتي والصرفي بعض سمات لهجية ، ولعل لهجات إيطاليا الحديثة تحتفظ ببعضها حتى الآن (٢) .

توجد إذن بين اللهجات التي تدخل في إعداد اللغة العامة درجات يجب التمييز بينها . فأكثرها مبادرة بالاختفاء أقربها إلى اللغة التي اتخذت أساساً للغة المشتركة . هذه الملاحظة التي تبدو مبتذلة ، لها أهميتها في دراسة احتكاك اللغات (انظر أواخر الفصل الرابع) . ومن ثم كان هناك فرق محسوس بين الأثرين اللذين وقعا من الدنمركية ومن الفرنسية النرمندية على اللغة الإنجليزية (٣) . فبنية الإنجليزية لم تتأثر بهذه الأخيرة إلا قليلاً ، أما الدنمركية فقد تركت فيها أثراً عميقاً ؛ فتمزيق النظام النجوى وتبسيطه قد وقعا في الأقاليم التي كان يقيم فيها الدنمركيون قبل وقوعهما في الأجزاء الجنوبية وهي الأجزاء التي نزل فيها النرمنديون قبل ذلك بقرنين من الزمان . نعم يجب أن نلاحظ أن عدد النرمنديين في إنجلترا كان قليلاً

(١) Thumb ، رقم ٢١٣ .

(٢) أنظر دراسات ج . مول Chronologie du latin vulgaire : G. Mohl ، وأرنو Ernout رقم ٧٠ ؛ ودی ريبزو Reliquie italiche mei dialetti : de Ribezzo dell Italia meridionale في (Atti accad. Arch. Lett. Bell. Arti, Napoli 1. 1908)

(٣) جيسرسن ١٣٤ ، ص ١٧٠ — ١٧٣ .

نسبياً ، وأنهم كانوا يكوّنون فيها طبقة خاصة ، ولكن إذا صرفنا النظر عن هذه الظروف الاجتماعية والسياسية ، وجدنا أن الاختلاف الذى أشرنا إليه آت من درجة القرابة بين اللغات التى نحن بصدددها . فقد كان بين الإنجليزية والدنمركية من جهة النظام النحوى وجوه شبه لم تكن بين الإنجليزية والفرنسية النرمندية . واللغات المشتركة التى هى لغات كتابة قبل كل شىء كالألمانية والإيطالية تختلف فى وضعها عن اللهجات اختلافاً كافياً . فالقاعدة التى تقوم عليها اللغة المشتركة لا تتعارض مع اللهجات ، إذ أنه لا تميل لهجة أيا كانت إلى الاعتداء على اللهجات الأخرى . وذلك لأنهما لغتان مختلفتان تسيران جنباً إلى جنب . والشعور بوجود وحدة لغوية أوسع من اللهجة المحلية وأضيق من وحدة اللغة المشتركة ، يوجد فى البلاد كلها دون أن يصاب بضعف يذكر . ففى بيمينت وفى اللمبارديا لا تتفق لغة الحديث ولغة الكتابة ؛ وهذه الأخيرة تنسم بطابع الاصطناعية والحوشية ، فهى حقاً لغة ميتة لا تلقائية فيها ، ولا *securezza* كما يقول اسكولى^(١) . كذلك فى ألمانيا يمكننا حتى اليوم أن نتكلم عن اللهجات . وهى فيها تشغل مكاناً وسطاً بين الرطانة المحلية واللغة المشتركة ؛ وتمثل فى الشعور الشعبى على أنها لغة مناطق على جانب من الاتساع وإن كانت حدودها غير بيّنة . ولهذه اللهجات مكانها فى الآداب وفى الصحافة . واللغة المشتركة تتأثر بها لأن نطقها غير موحد فى كل مكان وتختلف صورة التكلم بها باختلاف الأقاليم . وإذا استثنينا أفراد الطبقة البرجوازية العالية الذين هم على جانب عظيم من الثقافة ، وجدنا أن كل ألماني يتأثر فى نطقه باللغة المشتركة باللهجات إن قليلاً وإن كثيراً . فالألمانية المشتركة تكتب بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنها تنطق بصور مختلفة إلى حد يسمح للسامع بتعيين أصل المتكلم من نطقه . أما الاختلافات التى تلاحظ فى نطق الفرنسيين من أهل الأقاليم ، فتعتبر تافهة إذا قورنت بآثار اللهجات فى الألمانية .

وبمع ذلك فقد سبق أن قلنا إنه لا يوجد فاصل مطلق بين الألمانية المشتركة ، وهى لغة كتابة ، وبين اللهجات الإقليمية . والواقع أنه يوجد ، كما يتوقع ، تبادل

(١) اسكولى Ascoli ، رقم ٤١ ، مجلد ٨ ، ص ١٢٦ .

دائم بين هذه وتلك ؛ فهناك تداخل من كلا الجانبين في الجانب الآخر . ومن نتائج هذا التداخل أنه يقلل من حدة الخصائص اللهجية ؛ حتى ليحس لنا أن تنبأ هنا ، كما في الحالة السابقة باختفاء اللهجات بعد زمن ما قد يطول وقد يقصر . ولكن يجب علينا عند الكلام على تنافس اللهجات واللغات المشتركة ألا نسقط من حسابنا حقيقة جوهرية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ، وهي الثبات النسبي لكل منهما .

يمكننا أن نطبق على كل لغة مشتركة ما قاله ميه عن $\chi o u v \eta$ « اللغة المشتركة » الإغريقية : « هي نواة مثالية لايزيدها الزمن إلا حوشية وبعداً عما في صورة التكلم الجارية من اتجاهات ، وهي مجهود متجدد دائم للتوفيق بين اتجاهات التطور اللغوي الطبيعية وبين هذه النواة » . اللغة المشتركة « ليست لغة ثابتة ؛ كما أنها ليست لغة تتطور تطوراً مطرداً ؛ بل هي لغة فيها نوع من التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور » . والمحافظة على هذا التوازن أمر عسير . فينتج أن تصاب اللغة العامة إصابات شديدة وأن تضطر إلى التغير ، إذا انتشرت في إقليم واسع الأرجاء تقوم بين سكانه حركات وانتقالات مستمرة ، وتكون فيه الطبقات الاجتماعية في تداخل واختلاط لا ينقطعان . وإذا استسلمت اللغة للضربات وتغيرت ، حانت نهايتها ؛ لأنه ليس في مقدور قوة في العالم أن تضمن لها التغير على وتيرة واحدة في كل الأماكن التي تتكلم فيها . وهذا هو التصدع الذي يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة منه . ولكن اللغات المشتركة تقاوم التغير أزماناً طويلة قبل أن تصل إلى هذه الحال . ويساعدها في ذلك ظروف السياسة وقوة المدرسة والإدارة . ولكن لعل الكتابة خير حارس لها .

لما كنا سنفرد للغة المكتوبة فصلاً خاصاً فيما بعد ، لم يكن لنا أن نتكلم عنها هنا إلا بمقدار اتصالها بتطور اللغات المشتركة . واللغة المكتوبة تمثل دائماً تقاليد وقواعد محافظة . بالطبع قد توجد التقاليد دون الكتابة . فقد كان عند الجوليين ، كما يروى قيصر ، رسوم يفضى بها القسس شفويًا إلى ذاكرة تلاميذهم ، وعلى هذا

النحو كانت تنتقل من جيل إلى جيل . وفي الهند كانت النصوص الدينية ، قبل وجود الكتابة ، تنتقل بالطريق الشفوى دون أن تصاب بأدنى تغيير . ولكن من البدهى أن التقاليد ، إذا اعتمدت على الكتابة ، ازدادت قوة وقدرة على المقاومة .

ينبغي ألا نخلط بين « لغة مكتوبة » و « لغة أدبية » . فقد يجتمع المعنيان أحياناً في لغة واحدة ، ولكنهما قد يتعارضان ويتضاربان . اللغة المكتوبة في غالب الأمر عبارة عن اللغة المشتركة ، أما اللغات الأدبية فتتميز عن هذه الأخيرة في غالب الأحيان . لأن رجال الأدب في كثير من الأقطار ، من شعراء وقصاص يكونون طبقة منعزلة لها تقاليدها وعوائدها وامتيازاتها . وفي هذه الحال كانت للغتهم كل خصائص اللغة الخاصة ، وكانت تتطلب تهئية وترويضاً وتشقيفاً مهنيّاً . بل كان يتفق أن يكون الدور الذي يقوم به الشاعر دوراً شبه ديني ، وأن تكون بعض اللغات الأدبية لغات دينية في نفس الوقت : وقد حفظت السنسكريتية مثلاً هذا الطابع زمناً طويلاً . ولعل الخصائص التي نعتز عليها في القصائد الغنائية الكبرى في بلاد اليونان ترجع إلى كونها تقوم على لغات دينية خاصة . بل لقد وجد في كثير من الأقطار لغات أدبية مقصورة على استعمالات معينة مع بعدها عن كل تأثير ديني . ولغة الملحمة اليونانية صورة من هذه اللغات الأدبية الخاصة التي تكونت بفعل الشعراء وانتهت بالاستقرار الدائم . فكان كل من يضع بين شفثيه بوق الفروسية في بلاد الإغريق ينفخ فيه لغة لا تتصل بأية واحدة من اللغات المتكلمة ، وقد سار أبلون الرودسي وكونتوس الأزميري على تقاليد هوميروس . كذلك كان من المتواضع عليه في أثينا أن تستعمل لأجزاء الغناء الجماعي في التراجيذية لغة معينة مصبوغة بالأصباغ الدورية وإن لم تمثل في جوهرها لهجة دورية معينة . وفي الهند وجدت لغات أدبية على أساس ما من اللهجات ، وكانت لا تستعمل إلا في أنواع أدبية معينة ، ولا تستعملها من الشعراء إلا طوائف خاصة . وكانت تتميز عن اللغة المشتركة باختلافها عنها . وسكان الملايو الذين لا يتكلمون

لغة هندية أوربية عندهم لغة أدبية خاصة تسمى الكاوية Kawi ، وهي مفعمة بالعناصر السنسكريتية (١).

ولكننا نستطيع — حتى بغض النظر عن الحالات التي تستمد فيها اللغة الأدبية أصلها من اللغة الخاصة — أن نفهم بسهولة الفرق الذي يفصل بين اللغة الأدبية واللغة المشتركة . والواقع أن خاصية اللغة المشتركة الأساسية تنحصر في أنها لغة وسبلى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وإذا انتشرت اللغة المشتركة في قطر بأسره ، أخذت العناصر المشتركة الداخلة في تكوينها في الازدياد ، وأدى ذلك بالضرورة إلى النزول بمستواها ؛ فبالرغم من الأثر البالغ الذي تقوم به النخبة العقلية ، فإن العناصر التي تستعيرها اللغة من الطبقات السفلى من السكان تزداد بانتشار اللغة . وتصير بالتدريج كثيفة رتيبة لا لون لها . وعندئذ تتميز بالخصائص السلبية ، أى بالضعف والسوقية .

ولكن الأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه وحساسيته من عناصر خاصة ، يقول موريس بريس M. Barrès : « اللغة وقد قدت للاستعمال الشائع لا تستطيع التعبير إلا عن الحالات الخشنة » . وكان لفلوير في الكتابة طريقتان ، تهماً لما إذا كان يحرق كتاباً لصديق أو يكتب عملاً أدبياً بأسلوبه المتوتر . « فالكتابة الفنية » رد فعل دائم ضد اللغة المشتركة ؛ وهى إلى حد ما نوع مما يسمى بالأرجو (argot) ، اللغة الخاصة الأدبية ، وهى فى كل حالاتها مغايرة للغة الكلام رغم تنوعها العديد ورغم اختلافها عند البرناسيين عنها عند الرمزيين وعنها عند كتاب عصور الانحلال . هذه اللغات الخاصة المنزوية فى صوامعها المقصورة على عدد قليل من المريدن لا تعيننا هنا . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها إنها فى بعض الأحيان تغذى اللغة المشتركة ببعض التراكيب أو ببعض الكلمات . ولكن علينا هنا أن نبحت الحالة التي تكون فيها اللغة الأدبية واللغة المكتوبة شيئاً واحداً ، والتي فيها تعتبر اللغتان معاً نواة للغة المشتركة .

(١) أنظر الكتاب الشهير تأليف و. فون هبولت V. von Humboldt : Über die

Kawisprache auf der Insel Java ، برلين ١٨٣٦ — ١٨٣٩ .

النصيب الذى ساهم به الكتاب الفرنسيون فى تكوين اللغة المشتركة عندنا كبير جداً . فاللغة التى تتعلمها فى المدرسة ندين بها إلى المجهود المزدوج الذى قام به الأدباء والنحاة ^(١) . فهم الذين خلقوا لنا هذه الأداة الجميلة ، وسهروا عليها بحدب شديد عاملين على ألا يعلوها الصدأ ، فيغير معالها . وقد يبدو لنا أن تطهير اللغة الذى دام قروناً عديدة عمل جدلى رخيص ؛ مغرق فى الادعاء والتظاهر ؛ ولكن الفوائد التى نجبها من هذا العمل تحملنا على الاعتراف بالجميل لمن قاموا به . فأصبح لدينا بفضل أساتذة المدارس الذين درجوا على دراسة الكتاب ، خير قالب نصوغ فيه أفكارنا ، وصارت لنا لغة كل كلمة من كلماتها لها معناها اللائق ، وكل تركيب من تركيبها قد انفرد بدقائق ولطائف لا تبارى . إذ أنهم أقصوا عن اللغة كل ما يجرح الطبع السليم والذوق الحسن ، ودأبوا على إخضاعها لقواعد العقل واللياقة فجعلوا منها ، على حد قول بوهور Bouhours ، أداة قادرة « على إمساك أشد المواد قوة ورفع أشدها ضعفاً » ؛ وبالاختصار جعلوها منذ البداية قادرة على الاستجابة لكل مطالب العقل . وقد استفادت اللغة المشتركة أجل فائدة من الأعمال التى قاموا بها . استفادت الوضوح والأناقة والدقة مع التنوع ؛ وكما قال ريفارول Rivarol « لقد استفادت تلك الأمانة المتصلة بمبقرتها » .

كبار الكتاب يصنعون بالكلمات ما كان يصنعه الملوكة القدماء بالنقود ؛ يفرضون القيمة التى يريدونها ويحددون لها السعر الذى على كل فرد أن يقبله . وبذلك ينفذ فينا شيء من عقليتهم ، وإذا تكلمنا الفرنسية فإن يسكال ولا رو شفوكو ولا برويير وبوسويه ، ومنتسكيو وفولتير هم الذين يملون علينا الكلمات التى نستعملها . وكل منا حين يكتب يفترق على غير شعور منه من ذكرياته المدرسية ، مهما قلّ تعليمه . وهذا الكتاب المعاصر الذى نعرفه مثلاً ليست لغته إلا نسخة من كتابنا الكلاسيكيين ، فهو يصلح أن يتخذ مثلاً يحتذى من كل من يحاول الكتابة بالفرنسية ، لأنه يحقق على وجه الكمال المثل الأعلى للفرنسية

(١) أنظر برينو Brunot ، رقم ٥٧ ، مجلد ٤ ، ص ٢١٩ وما يليها ؛ وراجع أيضاً

الكسيس فرنسوا Alexis François ، La grammaire du purisme et l'Académie ،

française au 18^e siècle باريس (١٩٠٥) .

الأدبية ، في صورتها العامة و « المشتركة » . والواقع أننا نتبين طابع أسانذتنا العظام بكل حذايفه في جميع مؤلفاته من طريقة استعماله للكلمات وكيفية وصلها بعضها ببعض وفي تركيب الجملة ووزنها . نعم يجب على من يتصدى لتقدير هذا الفن الخفى أن يكون ذا ذوق مدرب . ولسكنها لذة كبرى تلك التى يشعر بها حين ينظر فى هذا النسيج الجميل اللامع فيستطيع أن يتبين كل خيط من خيوطه ويميز مصدره ، ومن المؤلم حقاً أن نفكر فى أنه قد يأتى يوم لا يوجد فيه من يستطيع تذوق هذه اللذة ، وذلك إذا تحلى التعليم ، فى تغيره طبيعة وغرضاً ، عن العناية بالنخبة المختارة : عندئذ تقصر الجلافة الشعبية عن فهم قيمة هذا النسيج فتطأ بأقدامها مخملاً دقيق الصنع تناسقت ألوانه حتى كأنه لوحة رسمت « بالباستيل » .

ذلك بالطبع لأن كل صورة فنية فيها شىء من الشخصية بعيد عن إدراك الجماهير ، هذا إلى أن خلق صورة « مشتركة » مهما كانت درجة كمالها ، ليس إلا فترة فى تاريخ اللغة . وأن اللغة المكتوبة أيضاً فى تأخر دائم بالنسبة للغة المتكلمة .

تكوين اللغات المشتركة معناه فترة من التوقف فى تطور اللغة . إذ تتلبور الصيغ والتراكيب وتتحجر ، وتفقد طواعية الحياة الطبيعية ، ولسكننا نخدع أنفسنا إذ افترضنا أن اللغة تستطيع التوقف . والذى يحملنا على هذا الظن أنها لغة اضطناعية توضع بجانب اللغة الطبيعية ؛ والبون بين اللغتين يكون ضئيلاً فى بادئ الأمر ، ثم يعظم مع الزمن ، حتى يأتى يوم يصير فيه هذا البون صدعاً عميقاً . ويمكننا أن نقارن خلق اللغات المكتوبة بتكون طبقة من الجليد على سطح نهر . فالجليد يستعير مادته من النهر ، بل بعبارة أوضح ليس الجليد إلا ماء النهر نفسه ، ومع ذلك فليس هو النهر . وإذا رأى الجليد أحد الأطفال ظن أن النهر غير موجود وأن تياره قد توقف عن السير . وهذا خداع ! فالماء تحت طبقة الجليد لا يزال يجرى منحدرأ فى طريقه نحو السهل ، وإذا تكسر الجليد رأينا الماء ينبثق فجأة ويتلاطم مزججراً . هذه صورة من تيار اللغة : فاللغة المكتوبة هى طبقة الجليد التى فوق النهر ، والماء الذى يتابع جريانه تحت الجليد الذى يحبسها هو اللغة الشعبية والطبيعية . والبرودة التى تنتج الجليد وتبغى احتجاز النهر ، هى مجهود النحويين

والمربين ؛ وأشعة الشمس التي تعيد إلى اللغة حريتها هي قوة الحياة التي لا تقهر ،
تغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد .

الفرنسية الحالية تبرر التشبيه السابق بصورة مرضية . فالبون الذي بين لغة
الكتابة ولغة الكلام لا تزیده الأيام إلا اتساعاً . فالتنظيم والمفردات ليست واحدة
في كلتا الحالتين . بل إن الصرف نفسه يحتوي على بعض الفروق : فالماضي المحدد
(أو البسيط) . *passé défini* والماضي غير التام من صيغة التبعية *imparfait*
du subjonctif لم يعد لهما استعمال في لغة الكلام . ولكن اختلاف المفردات
بوجه خاص هو الذي يكاد وضوحه يُعشي العيون . فنحن نكتب لغة ميتة ،
تلك اللغة ترجع إلى كتاب القرن السابع عشر ويمثلها اليوم في آتم صورها ذلك
الكاتب المعاصر الذي أشرنا إليه . ولكننا نتكلم لغة غير ذلك . ومفرداتنا الجارية
قد تغيرت منذ القرن السابع عشر^(١) . والفرق بين الكلمات التي تتكلم والكلمات
التي تكتب يذكرنا بالفرق بين الكلمات السوقية وكلمات النبلاء ؛ فنحن نألف
من كتابة معظم الكلمات التي نستعملها في المحادثة . والشخص الذي يتكلم كما
يكتب يبدو لنا كأنه كائن متكلف ؛ والأشخاص الذين من هذا القبيل في تناقص
مستمر .

ظلت الطبقات العليا وقتاً طويلاً محتفظة بمحوشية اللغة التي توحى بها استعمالات
اللغة المكتوبة ، وكانت الطبقات السفلى وحدها هي التي يشاهد فيها نشوء لغة فجائية
تعمل على تحديد عناصر اللغة التعبيرية . واليوم نرى لغة الطبقات العالية التي كان
وجودها غير طبيعي تختفي لتحل محلها اللغة الشعبية . والمتشددون جميعاً ينعون
هذا « السقوط » ؛ ولكنها شكوى عقيمة^(٢) . لأن اللغة المكتوبة نفسها لم
تصبح في مأمن من الإصابة : فالصحف اليومية التي يحررها على عجل أناس غير
مثقفين في غالب الأحوال ، أخذت تكثر شيئاً فشيئاً من استعمال عبارات اللغة

(١) . أنظر ف. كوهين F. Cohen : Les transformations de la langue fran-

(1740 — 1789) çaise pendant la deuxième moitié du 18^e siècle ، باريس
(١٩٠٣) .

(٢) أنظر خاصة E. Deschanel ، رقم ٦٧ ، ب. ستايفر P. Stapfer رقم ١٢٣ .

المتكلمة ، بل وصيغها : فالعبارة الخاطئة je m'en rapplie « استحضر منه في ذاكرتي » والتركيب المتبرر de façon à ce que « بصورة إلى أن » ، قد أصبحا فيها من الاستعمالات الجارية . وفي كل يوم تطالعنا فيها « أخطاء أخرى » ليست أقل خشونة من تلك . وقد أمكن لبعضهم أن يستخرج من إحدى الصحف الباريسية الواسعة الانتشار تراكيب مثل : « avec cette brusquerie dont » « cette affaire ressort de la Prefec- » « il ne se départ pas » « au point de » « il demanda à ce que » « vue pécunier » « alors il s'enfuya » الخ . ونلاحظ أننا نجد في هذا الخليط المتبرر آثاراً عديدة من اللغة المكتوبة : فمثلا عبارتا ressortir و se départir ليستا من استعمالات لغة الكلام ، واستعمال الماضي البسيط ، إحدى خصائص اللغة المكتوبة . فقد كان في عزم هذا الصحفي الذي ارتكب هذه الأخطاء وفي شعوره أن يكتب بلغة الكتابة ؛ ولكن نقص ثقافته جعله يبني لغته المكتوبة من عناصر اصطناعية وزائفة في غالب أمرها . وعلى هذا النحو كان جرجوار دي تور Grégoire de Tours — الذي كانت لاثنييته مشحونة بالأخطاء التي ترجع إلى اللغة المتكلمة حوله — لا يزال يستعمل الفعل اللاتيني المسمى deponert على الرغم من أنه كان قد اختفى من اللغة المتكلمة منذ زمن طويل : إذ أن الكثير من أفعال هذه الفصيحة لا يوجد في اللاتينية الكلاسيكية^(١) .

ولكن يجب علينا ، إنصافاً للصحافة الفرنسية ، أن نعترف بأن بعض الصحف الكبرى قد احتفظت باللغة الأدبية ، حيث يتبع محرروها قواعد اللغة المكتوبة دون أن يحيدوا عنها قيد شعرة . وإذا كان عدد هذه الصحف في هبوط فإن تمسكها بالسلامة اللغوية لا يزداد إلا صرامة ؛ وذلك رد فعل منها ضد تيار العامية الجارف ؛ ومن ثم تزداد عنايتها بنقاء اللغة قوة على قوة . ولذلك السبب كانت الصحف الباريسية لا تكتب لغة واحدة بمعنى الكلمة . فالصحف الشعبية لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة الأدبية إن قليلا وإن كثيراً . وعلى العكس من ذلك لا تستعمل الصحف الكبرى إلا اللغة التي كان

(١) بونيه Bonnet ، رقم ٥٠ ، ص ٤٠٢ .

يستعملها خير كتابنا في مؤلفاتهم : « اللغة الفرنسية الأدبية » النقية .
ولكن هذه الفرنسية الأدبية لغة تتعلم . فشدة اختلافها عن اللغة المتكلمة
يتطلب مراناً كثيراً ما يطول زمنه ، وممارسة على أكبر جانب من الحذر . وليس
في مقدور أحد أن يقرر إلى متى ستظل المحافظة قائمة ، وأعني بذلك المحافظة على
تعلمها . وعلى كل حال يمكننا أن نتكهن للفرنسية الأدبية بمصير كمصير اللاتينية ،
أى أنها ستبقى ولكن بصفتها لغة ميتة ، قد جمدت قواعدها ومفرداتها إلى الأبد .
أما اللغة الحية فستتطور مستقلة عنها كما فعلت اللغات الرومانية . وكل ما يبقى للغة
المكتوبة من عمل هو أن تصير مستودعاً يزيد اللغة المتكلمة بالمفردات (قارن
ص ٢٩١) . وفي هذه الحالة تنشأ لغة أدبية تخالف اللغة العامية كما هي الحال في
اللغة العربية حيث يوجد نوعان من اللغة يخالف أحدهما الآخر ، وفي الصين حيث
تخالف لغة المندريين mandarins اللغات المتكلمة^(١) . ولو تحقق إصلاح الرسم
عندنا لتجلى أمام أعيننا الفرق بين هاتين اللغتين الفرنسيتين جلاء تاماً . فوجود
الفرنسية الأدبية لا يمنع من أن تتكون تحت سطحها لغة مشتركة : فاللاتينية
العامية التى منها خرجت اللغات الرومانية كانت تختلف عن اللاتينية السكلاسيكية
التي كانت لا تزال تكتب في زمن أوزون Ausones وكلوديان Claudien .
وكان إلى جانب الإغريقية المشتركة في العصر الهلينيستى لغة أدبية اصطناعية ،
يختلف نظامها الصرفي عن النظام الصرفي للأولى فضلاً عن اختلاف المفردات بينهما .
الواقع أنه يمكن أن توجد عدة لغات مشتركة بعضها فوق بعض .

ففي الهند القديمة صارت السنسكريتية التي كانت في الأصل لغة دينية ، لغة
أدبية مشتركة في اليوم الذي جاءت فيه دولة دخيلة فأباحت استعمالها في الأمور
الدنيوية . وهي اليوم لغة العلم ، لغة الثقافة العالية والدين على السواء . فما زالت
تقرأ في المعابد وتلقى نصوص بها مثل المهبهاراتا le Mahâbhârata والپورانا
les Purânas ، كما لا يزال الكاثوليك يتمسكون بالنصوص اللاتينية في الكنيسة .
ولكن لا حاجة بنا إلى القول بأن السنسكريتية تمتد إلى ما وراء منطقة اللغات

الهندية ، إذ أنها لا تنضم شبه الجزيرة الهندية فحسب حيث يستعملها أناس مختلفو الأجناس واللغات ، بل لقد حملها المبشرون البراهمة والبوذيون إلى جميع الأماكن التي وصلوا إليها في أداء رسالتهم .

وجود السنسكريتية لم يمنع من وجود لغات مشتركة أخرى . فقبل أن تتطور السنسكريتية إلى لغة أدبية بزمان طويل — وهي لم تصبح كذلك إلى حوالي ميلاد المسيح — وجدت لغات أحدث منها استعملت استعمال لغات مكتوبة مشتركة وكان الملك أسوكا Asoka قبل الميلاد بمائتين وخمسين عاما يستخدم هذه اللغات في كتاباته على أنها لغات رسمية ، كما كانت تستخدم مع السنسكريتية نفسها لغات أخرى في كتابة النصوص البوذية على أنها لغات دينية ، وذلك كاللغة البالية مثلا ؛ وأخيراً كانت تستعمل في الدراسة بصورة عادية مع السنسكريتية بعض لغات أدبية (les prakrits) تذكرنا بما كانت عليه لغة الشعر الغنائى ولغة الملحمة في بلاد الإغريق (١) .

ولكن كان يوجد تحت سطح اللغات البركريتية (٢) منذ عهد سحيق ، ولا يزال يوجد حتى الآن لهجات ورطانات محلية . وقد وصل بعضها إلى درجة من الأهمية جعلتها تستخدم في الحاجات الأدبية ، وذلك مثل الهندية والبنغالية والماراتية . بل يوجد اليوم في الهند لغة مشتركة ، وهي الهند ستانية التي لا تمثل في حقيقة الأمر أية لهجة حقيقية .

يمكننا أن نختتم هذا الفصل بذلك المثال من لغات الهند . فهو يوضح خير توضيح صلات اللغات المشتركة بعضها ببعض وباللهجات المحلية ، وترينا مقدار الصعوبة التي يلاقها من يحاول رسم حدود بين العناصر التي تكونها ، وإلى أي حد يتداخل بعضها في بعض دون توقف . ذلك لأن تكون اللغات المشتركة وتطورها وتحللها تتوقف على أسباب تاريخية غريبة عن اللغة ، أي على حركات المدنية نفسها .

(١) ف. لكونت Essai sur Gunadhya et la Brhatkatha: F. Lacôte

ص ٤٠ — ٥٩ .

(٢) أنظر جون بلك ، Jules Bloch ، رقم ٤٩ :

الفصل الرابع

احتكاك اللغات واختلاطها (١)

تطور اللغة المستمر في معزل عن كل تأثير خارجي ، يعدّ أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أية لغة . بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً هاماً في التطور اللغوي .

ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاك اللغات يؤدي حتماً إلى تداخلها . وها نحن أولاء نرى تحت أعيننا وبالقرب منا أقاليم جمع فيها التاريخ على هويته شعوباً تتكلم لغات مختلفة ؛ وفي الأقاليم التي من هذا القبيل يقتضى التوسع في التبادل التجاري وضرورة الاتصال معرفة لغات عدة معرفة جيدة . وكانت شبه جزيرة البلقان في كل عصورها ولا تزال حتى الآن ملتقى لكثير من اللغات ، ومن الأجناس والجنسيات والأديان . ففيها اليوم أجناس مختلفة من سلافيين وإغريقين وألبانيين ورومانيين وآراك ويهود وأرمنيين ، وكلهم يكوّنون جماعات كبيرة أو صغيرة . وهناك إغريق في تراقيا ورومانيون في مقدونيا وألبانيون في اليونان . والحدود السياسية لا تنطبق في أي مكان على الحدود الجنسية ولا على الحدود الدينية : فكل من الديانات الكاثوليكية والأرثوذكسية والإسلامية واليهودية تضم سكاناً ينتمون إلى أجناس مختلفة وجنسيات متباينة ، واللغات التي

(١) هـ . شوخارت : رقم ٢٠٣ و ١ . وندش : Zur Theorie der Mischsp. rachen und Lehn wörter ، رقم ٤٠ ، ليبثج ١٨٩٧ ، ص ١٠١ — ١٢٦ . وانظر عن المسائل النظرية : شوخارت : Kreolische Studien (رقم ٣٠ ١٨٨٢ — ١٨٩٠ ، مجلد ١٠١ ، ١٠٥ و ١١٦ و ١٢٢) ؛ ورقم ٣٨ ، مجلد ١٢ و ١٣ (ص ٤٧٦ و ٥٠٨) ومجلد ١٥ ، مجلد ٦ (١٩١٢) . وسابيس : رقم ١٣٨ ، مجلد ١ ، ص ٢١٩ ، حيث توجد به أمثلة للغات المختلطة .

تساهم بنصيبها في تماسك الجنسية تضيف إلى كل هذا عنصراً آخر من عناصر التعقيد : فالصربية والبلغارية والإغريقية والألبانية والرومانية والتركية والأرمنية والأسبانية التي يتكلمها اليهود ، تعيش كلها جنباً إلى جنب . ولكننا لا نشير هنا إلا إلى اللغات التي لا تتكلمها إلا المجاميع الكبيرة بصرف النظر عن اللهجات . لا بد أن هذه الحالة التي تعتبر استثنائية في أوروبا الحديثة كانت قاعدة يسير عليها التاريخ في غالب الأحيان . والنتائج اللغوية التي تنجم عنها كبيرة الخطر لأنه إذا احتكت لغتان إحداهما بالأخرى ، أثرت كل منهما على صاحبتها . حتى ذهب بعض علماء اللغة ، بناء على هذه الحقيقة ، إلى أنه لا توجد لغة غير مختلطة ولو إلى حد ما . فعلينا إذن أن نناقش الظروف التي يمكن فيها اختلاط اللغات والنتائج اللغوية التي تنجم عن هذا الاحتكاك .

من الخطأ أن نتصور كون المنافسة بين لغتين متماستين تحدث دائماً على وتيرة واحدة في كل الحالات ؛ لأن قوة اللغات ليست واحدة ، ومن ثم كانت تختلف قدرتها على المقاومة .

لفرض أننا بصدر لغتين من ذوات المدنية العظيمة كالألمانية والفرنسية . فاللغتان كلتاهما قويتان ، تستويان في القوة . وبينهما اختلافات في البنية على جانب من الأهمية . فإذا ما تعرضتا للمنافسة ، لم يكن لهذه المنافسة آثار لغوية ، وإنما تكاد تنحصر آثارها في الميدان الاقتصادي . والمدرسة هي المكان الذي يهيأ فيها الكفاح بينهما ؛ ولكن الانتصار في هذا الكفاح ينال في ميدان المعاملة ، أي في صميم الحياة . لذلك نسمع أن الألمانية قد طردت الفرنسية من هذه القرية ، أو تلك المدينة من المدن السويسرية أو أن العكس قد حدث في قرية كذا أو كذا (١) . وليس هنا موضع بحث مزايا اللغتين في ذاتهما فسكان هذه القرى كان في متناول

(١) تسمرلي Zimmerli : Die deutsch-französische Sprachgrenze in der Schweiz (الجزء الأول رسالة في جوتجن ، ١٨٩١ ؛ الجزء الثاني ، جنيف و بال ١٨٩٥ و ١٨٩٩) .

أيديهم أداتان متساويتان في المتانة والصلاحية ، فاختاروا من بينهما أصلحهما لحاجات أعمالهم . ذلك بأنه ينشأ هناك ميل إلى نقل الحدود اللغوية بحسب الجهة التي ترد منها العلاقات الاقتصادية . فالمصلحة العملية هي وحدها الحكم في مثل هذه الحالة ، وهي التي تحكم لهذه اللغة أو لتلك ، وقد تبقى اللغتان زمنا طويلا في حالة تعادل .

فضلا عن الظروف الاقتصادية يجب أن ندخل في حسابنا الموقف السياسي . فبعض الشعوب تتمسك بهذه اللغة دون تلك ويرخي لها عمداً عنان التفشى مدفوعا في ذلك بعاطفة وطنية أو بقصد إظهار إستقلاله أو بنفوره من دولة مجاورة . ومن المؤكد مثلا أن مركز كل من الفلمنكية والفرنسية في بلجيكا لا يتوقف على الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تضاف إليها بواعث سياسية ينبغي للعالم اللغوى ألا يسقطها من حسابه . ومنذ عشرين سنة تتمشى في إيرلندا حركة تتجه إلى إحياء اللغة الوطنية القديمة يقوم أصلها على بواعث سياسية ، وهي التخلص من لغة الإنجليز ، أعدائهم التقليديين ؛ والفرنسية لم تتكلم يوما في الأتراس بقدر ما كانت تتكلم في فترة انضمامها إلى الأمبراطورية الألمانية . أما حينما كانت مقاطعة الأتراس جزءاً من فرنسا قبل سنة ١٨٧١ ، ولم تكن مضطرة إلى اتخاذ لغة بعينها ، فلم يكن لدى الأتراسيين باعث قوى على ترك لهجاتهم المحلية الجرمانية .

كذلك تخضع المنافسة اللغوية في الأفطار البلقانية لأسباب سياسية إلى حد كبير ، ولكن الدين بدوره يقوم فيها بدور هام . واللغة الأرمينية تدين بقسط كبير في حيويتها إلى وجود كنيسة أرمينية مستقلة . فالشعور المنبعث من وجود جماعة دينية يزيد مقاومة اللغة قدرة . وفي مستعمرة الكاب ، كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت في سنة ١٦٨٨ يكونون ربع سكان المستعمرة ؛ ولما كانت الهولندية وحدها هي اللغة المسموح بها في الأمور العامة والسياسية والدينية ، فقد اختفت الفرنسية بعد مضي قرن واحد .

هناك أيضاً عامل عاطفي آخر له قوته العظيمة في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها : هو عامل الهيبة . فما كان للاتيني أن يرضى بتعلم إحدى اللغات

المتبررة. (Pompon. «Quorum nomina uix est eloqui ore Romano» Mela III,3) . لذلك قضت اللاتينية في إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكية والأمبرية . وقد وصلت هيبة اللاتينية إلى حد جعل بلاد الجول بعد فتحها بقرن على الأكثر ترسل من لديها أساتذة للخطابة إلى روما .

وإرادة الإغريق في ألا يضحوا لغتهم أمام لغة فاتح يحقرونه ، هي التي حفظت الإغريقية خلال العصور ؛ فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها ، أو حتى أن تنال منها . كان الإغريق يتكلمون لغة الفاتح في حاجاتهم الإدارية ، ولكن لم يحدث إطلاقاً أن *la lingua del cuore* سعلت لـ *la lingua del pane* كما يقول الإيطاليون .

كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية . وهذه القيمة في حالة اللغة الإغريقية . تعتبر شيئاً كبيراً لأنها تفوق بكثير كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل . فالتركية ، وهي لغة الفاتحين ، ليست بأية حالة من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الإغريقية التي تمثل ثقافة من أعرق الثقافات . نستبين ما لقيمة لغة في ذاتها من أهمية في كثير من المواضع . ويمكننا على وجه التقريب أن نقدر لكل لغة درجتها في هذا الصدد . فالأرمينية تنهقر أمام الروسية في أوريا . ولكن البولونية صمدت للروسية في غرب الإمبراطورية القيصرية : فهما لغتان متساويتان في القوة وليس في وسع إحداها أن تغلب على الأخرى . والقدرة على الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية كاللغة العربية مثلاً ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب .

إذا بذرت بذور لغوية منعزلة بطريق المصادفة في بيئة تتكلم لغة مختلفة ، لم يكن لهذه البذور حظ كبير في أن تبقى سليمة وربما عاجلتها اللغة المحلية فامتصتها ، إذا كانت هذه الأخيرة لغة ثقافة . فنحن نعرف مقدار الصعوبة التي تلاقىها بعض الطوائف الجنسية في الولايات المتحدة للاحتفاظ بسلامة لغاتها أمام اللغة الإنجليزية ، وحتى الألمانية المتكلمة هناك قد سارع إليها العطب ، إذ أصبح المتكلمون بها يقولون مثلاً

Uncle Milch gleicht der Onkelnit وهي ترجمة حرفية للمباراة الإنجليزية Uncle does not like milk « العم لا يحب اللبن » ^(١). وحوالي منتصف القرن الثامن عشر نزلت بأسبانيا جالية شوابية واستقرت في سفح السيرامورينا Sierra Morena . واليوم لا نجد في هذه البقاع أثراً للألمانية اللهم إلا في بعض أعلام الأسر ^(٢). كذلك لم تستطع الفرنسية التي كان يتكلمها الفرنسيون الذين نزحوا إلى ألمانيا أو إلى الأقاليم المنخفضة بعد العدول عن مرسوم نانت أن تقاوم تأثير اللغة المحيطة بها زمناً طويلاً . وفي شمال فرنكفورت توجد بضعة قرى — كان سكانها من الفرنسيين ولا يزالون — ولكنهم يتكلمون اليوم لغة القرى المجاورة ، أعني الألمانية . وعلى العكس من ذلك لا تزال الألمانية صامدة منذ القرن الرابع عشر في وادي الجتشية Gottschee أى في قلب المجال السلوفاني ^(٣) ؛ وليس من شك في أن الظروف الاقتصادية قد ساعدت على بقاء الألمانية ، هذا فضلاً عن تلك الهيبة التي شددت من أزرها العصبية الوطنية للألمان أمام التيار السلافي . غير أنه يضاف إلى كل هذا أن الألمانية من حيث الحضارة أقدر على الإشعاع من السلوفانية . فاللغتان لا تستويان في القدرة على الكفاح : نعم يمكننا أن نفهم بسهولة كون السلوفانية التي تملك جميع الأراضي المحيطة لم تتأثر بألمانية الجتشية ؛ ولكن احتفاظ الألمانية بمركزها لا يمكن أن يفسر إلا بضعف السلوفانية من وجهة النظر التي نحن بصدددها .

لنتجه الآن إلى بحث الأثر الذي يمكن أن تحدثه لغة مشتركة تمثل مدينة منظمة تنظيمًا قويا على مجموعة من اللهجات المحلية لا وحدة لها ولا تماسك بينها . وتمثل لنا هذه الحالة في مركز البريتانية والفرنسية في مقاطعة بريتانيا . فالمنافسة بين البريتانية والفرنسية لا تشبه بحال منافسة الفرنسية والألمانية في سويسرا .

(١) بومجرتز Baumgartner : Die deutsche sprache in Amerika : نقله عنه ميبه في رقم ٤ ، مجلد ١٨ ، ص ١١٦ .

(٢) س. فيست S. Feist : رقم ٢٦ ، مجلد ٣٦ ، ص ٣٤٤ هامش .

(٣) اد. هوفن AD. Hauffen : Die deutsche Sprachinsel Grammatik : der Gottscheer : H. Tschinkel : Gottschee, graz (1875) Mundart, Halle (1908) .

إذ في هذه الحالة الأخيرة تتقدم اللغتان وتقهقران على نحو ما يفعل جيشان متجابهان فتأخر إحداها أو تقدمها معناه انتقال في الحدود : ذلك أن الناس إما أن يتكلموا الفرنسية أو الألمانية . أما الحدود اللغوية بين البريطانية والفرنسية فلم تكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذي ربحته الفرنسية في بريطانيا^(١) . وقد لوحظ أن البريطانية في القرن الحادى عشر الميلادى لم تكن تتعدى الحدود الجغرافية التى تحدّها في يومنا هذا . وهى تتكون من خط يكاد يكون مستقيماً يتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ويبدأ من بلوها Plouha على الشاطئ بين بيمبول Paimpol وسان برييه Saint-Brieuc ويسير حتى مصب القيلين ماراً بكنتان من أسفل وبالقن من أعلى . وعن يمين هذا الخط لا تكاد تتكلم إلا اللهجات الفرنسية المسماة « gallots » وحدها منذ تسعة قرون أو عشرة . ولنرجع الآن إلى تشبيه الجيشين المتجابهين الذى أشرنا إليه . فليس أمامنا هنا معركة منظمة ولا أرض يكسبها الغالبون باضطرارهم المغلوبين إلى التقهقر . وإنما يوجد فقط انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين إلى الأخرى ؛ حتى ينتهي الحال بأن تفقد إحداها كل جنودها الوطنيين . وهذا توغل سلمى ، لا حرب فيه ولا غزو .

ولنحاول لبيان ذلك أن نبحث الموقف في غرب الخط الذى رسمناه منذ قليل . فهناك قد توغلت الفرنسية في كل اللهجات البريطانية دون استثناء . ولغة المدينة تحمل معها تياراً جارفاً من الكلمات الجديدة التى تمثل أشياء وأفكاراً وعبادات جديدة . كما أن الآداب والدين قد ملأا البريطانية بالكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر : وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقدم للبريتانيين بالطبع نماذج لكتب العبادة والتهذيب . فظلت البريطانية تنحصر شيئاً فشيئاً في الاستعمالات الزراعية والخاصة . وأخذت الخدمة العسكرية وتعليم الفرنسية في المدارس يعجلان هذه الحركة منذ نصف قرن . وفي نفس الوقت حصل شيء من التطور في ظروف المنافسة بين اللغتين .

(١) انظر پول سبيلو Paul Sébillot : Revue d' Ethnographie : ينشأ

عام ١٨٨٦ ، ج . ١ . لوث : رقم ٨ ، مجلد ٢٤ ، ص ٢٩٥ ومجلد ٢٨ ، ص ٣٧٤ .

ظل التوغل زمناً طويلاً يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت
البريتانية تتلقى على غير شعور منها عدداً من الكلمات الفرنسية يزداد يوماً بعد يوم .
ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طُمِئَت بالكلمات
الفرنسية . أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن
ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما .
وفي هذه المنافسة خطر على البريتانية . إذ أن الفوائد التي يمكن الحصول عليها من
معرفة الفرنسية تفوق كثيراً تلك التي يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية
وحدها . ولكون الفرنسية لغة برجوازية وتستعمل دون سواها في مجتمعات المدن
فإنها تغري بنات الحقول بالتكلم بها ، كما تغريهم ثياب الطبقة الراقية بلبسها .
ولكن يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالمجتمع البرجوازي تزداد
يوماً بعد يوم . ففهم الموظفون في كثير من الأعمال وخدم المنازل الذين يتكلمون
الفرنسية مع مخدوميهم . واتساع السياحة قد جعل من الأجنبي ومن البرجوازي
مورد رزق للمواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة في آن واحد .
ونوع الحياة يؤثر كذلك على اللغة . فيلاحظ أن البريتانية على الشواطئ أقل منها
ثباتاً في الداخل ؛ وذلك لأن البحارين يشتغلون بالطبع بعيدين عن محل إقامتهم ،
ولأنهم يجدون أنفسهم كل يوم في علاقات مع أفراد يتكلمون إما لغات أخرى
وإما لهجات مخالفة لبعض الشيء : فكان من مصلحتهم أن يستعملوا في هذه
العلاقات لغة مشتركة كالفرنسية . وأخيراً لأن الجزء الساحلي من بريتانيا هو
الجزء الذي تمر به طرق المواصلات الكبرى وتقع عليه المدن الرئيسية ، وبالتالي
هو الجزء الذي يقوم فيه التبادل التجاري ويرتاده السائحون بصورة دائمة^(١) .
وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريتانيا في حين أن البريتانية
بلمجاتها المتعددة لم تصل يوماً إلى هذا المركز . فالتناحر بين البريتانية والفرنسية
يرجع إذن في نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية ؛ ولكن قوة كل من اللغتين
هي التي تحدد ظروف التناحر الخاصة .

يمكن أن تنبأ باندثار البريتانية . ولكن يجب ألا نتعجل القول به . لأن البريتانية مازالت متماسكة وازدياد السكان — وهو كثير في بريطانيا المتكلمة بالبريتانية — له أثره القوى في بقاء اللغة ، هذا فضلا عن تمسك البريتانيين بتقاليدهم القومية . كما أن ميزة التكلم بلغتين قد تشجع البريتانيين على استعمال البريتانية فيما بينهم . فهي لغة خاصة جاهزة تصلح ضماناً للاستقلال . وبوصفها لغة خاصة يمكنها أن تعيش زمناً طويلاً للاستعمال بين طوائف معينة مثل صيادي « السردين » أو عمال الملاحات البحرية أو قاطعي الأردواز أو تجار الخيل ؛ وفي هذه الصورة لا يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بمقدار الزمن الذي يمكن أن تعمّره ؛ لأنها تستطيع حينئذ أن تتجدد وأن تقوى ، على شرط أن تكون هناك جماعة عديدة من الناس تعمل على الاحتفاظ بسلامة اللغة الخاصة .

ومع ذلك فهناك بعض الأركان التي اندثرت منها البريتانية . فجاعات العمال في إنبون Hennebont لا تتكلم اليوم غير الفرنسية . وأكثر دلالة من ذلك حالة شبه جزيرة Guérande التي لا يرى فيها اليوم من يتكلم البريتانية من البريتانيين إلا تلك القرى الأربع التي تكون بلدة باتز Batz ، وسكانها عامة من عمال الملاحات . وحتى في هذه القرى يرى أن حالة البريتانية قد أصبحت في سوء . لأن محيط هذه الدائرة اللغوية يضيق شيئاً فشيئاً من جهة ، ومن جهة أخرى يرى عدد الأفراد الذين يتكلمون البريتانية في داخلها في قلة مستمرة : حتى أنها صارت لا تستعمل الآن بين الأفراد الذين تقل سنهم عن خمسين عاماً ، وأصبح الأطفال لا يفهمون والديهم . فنستطيع أن تنبأ بال لحظة التي تختفي فيها البريتانية نهائياً من هذا الركن من الأرض .

ونحن نعرف لغات أخرى انتهت إلى هذا المصير . فالصربية أو القندية وهي لهجة سلافية ، تتكلم اليوم في شيرفالده Spreewald (Lusace) ؛ في حين أن أختها البولابية Polabe التي كانت تتكلم في وادي الألب الأسفل قد ماتت منذ القرن الثامن عشر . واليوم لا يرى أي أثر للبروسية ، وهي لهجة بلطية كانت تحيا على الشاطئ بين دانتسج وكينجز برج في نهاية القرن السادس عشر .

واختفت عملياً في إنجلترا الكرنوالية ، وهي لهجة كلتية ، كانت تحتل في العصور الوسطى شبه جزيرة كرنوول Cornwall كلها بما فيها ديثون Devon المعروفة الآن ، وتصل حتى مجال اللغة الغالية عبر قناة برستول . إذ أن السيدة التي قيل إنها آخر من تكلم الكرنوالية ، واسمها دالي بنتريث Dally Pentreath ، قد توفيت في السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٧ في سان پول بالقرب من بنزانس Pensance في سن الثانية بعد المائة . ولكنه قد أمكن للباحثين في قلب القرن التاسع عشر أن يتلقفوا من أفواه الفلاحين بقايا أدعية وشتائم وأطرافاً من جمل بالكرنوالية ؛ وفي سنة ١٨٧٥ كان يوجد من بين الشيوخ من يستطيع أن يعدّ حتى العشرين بالكرنوالية^(١) .

وهنا نتساءل عما يقصد بموت لغة من اللغات وإلى أى درجة يسمح لنا بتحديدده .

ذابت البولابية في الألمانية ، كما ذابت الكرنوالية في الإنجليزية ، وفي عهدنا الحاضر تذوب البريطانية شيئاً فشيئاً في الفرنسية . وقد بقيت في الإنجليزية كرنوول آثار كثيرة من لغة الإقليم القديمة ، وذلك بغض النظر عن الكلمات الكرنوالية القديمة ومجاميع الكلمات التي أبتت عليها التقاليد .

كذلك نجد أثر البريطانية في الفرنسية المتكلمة في بريطانيا وأثر الإيرلندية في الإنجليزية المتكلمة في إيرلندة^(٢) ، فضلاً عن كون المفردات مشربة بكلمات وتراكيب مأخوذة من اللغة المحلية ، نجد هذه اللغة تفعل فعلها في النظام الصوتي بل في بعض تفاصيل النظام الصرفي أيضاً ، كترتيب الكلمات واستعمال حروف الجر مثلاً . وهكذا نرى النبر في كثير من الأحيان يوضع في الفرنسية المستعملة في المدن البريطانية على الطريقة البريطانية ويحتفظ بالشدة التي يتميز بها في البريطانية . فعندما يتكلم الفرنسية أهل كمبير Qumper ينبرون المقطع السابق للأخير نبراً قوياً ، ويقلبون الحروف المجهورة في آخر الكلمة ولا سيما الرخوة منها إلى مهموسة

(١) رقم ٨ ، مجلد ٣ ، ص ٢٨٩ .

(٢) Joyce : الإنجليزية كما تتكلمها في إيرلندة ، لندن ، الطبعة الثانية (١٩١٠) .

فيقال « une chemisse, neuf un fromache, » (حيث قلبت الزاى والثاء والـج إلى س، وف، وش على التوالى) ؛ ويستعملون الفعل faire « يعمل » pour que فعلاً مساعداً حقيقياً على نحو ما يستعمل ober في البريتانية فيقال : faire le diable s'irriter بدلاً من le diable s'irrite ، ويدخلون على معمول الفعل المبني للمجهول الحرف avec (بالبريتانية gant) فيقال tué avec son voisin (بدلاً من : par) ، إلخ . كذلك يقال في إنجليزية إيرلنده اتباعاً للاستعمال الإيرلندى « I will take it of you » بدلاً من « from you » أو « he went against his father » بمعنى « to meet » أو « his father » أو « what way are you ? » بمعنى (كيف حالك ؟) أو « on the head of it » (بمناسبة ذلك) ، وهما ترجمة للعبارتين الإيرلنديتين ann a cheaun و cad chaoi bh-fialu tu ? . وهكذا نرى البريتانية والإرلندية مع تشربهما للعناصر الفرنسية والإنجليزية ، تؤثر كل منهما في اللغة التي تغير عليها .

هل يأتى يوم تتوغل فيه الفرنسية في البريتانية حتى تصير الأخيرة كأنها لهجة متأخرة لا تكاد تبدو أكثر تخصصاً من غيرها وإن احتفظت بخصائص مختلفة ؟ لو صح هذا لكان من المستحيل تحديد تاريخ موت لغة : لأنه في هذه الحال يبقى دائماً من اللغة المندثرة أشياء من النطق وتراكيب نحوية ، وعلى الأخص تبقى كلمات منعزلة تبدو كأنها استعارات أخذتها الفرنسية من البريتانية ، وهى في الحقيقة بقايا من اللغة البريتانية تحيط بها عناصر فرنسية مستعارة ؛ حتى يأتى حين لا يعرف التكلم ما إذا كان يتكلم البريتانية وقد أشبعت بالفرنسية أو الفرنسية وقد بقيت فيها آثار من البريتانية . ولو أن البريتانية قد ذابت في الفرنسية كما تذوب قطعة السكر في مقدار من الماء ، لربما جاز لنا أن نقول إن البريتانية لم تعد توجد . ولكن ألا يكون ذلك حكماً على ظاهر الحال فحسب ؟ إذ الواقع أن البريتانية قد تعتبر موجودة ما دامت بعض العناصر المستعارة منها باقية في الاستعمال . ولكن لا يصح في هذه الحال أن تعتبر اللغة الجولية لغة ميتة لأن الفرنسية فيها قليل من

الكلمات الآتية منها ، ويجب أن نقول إننا نتكلم إلى جانب اللاتينية عدداً من اللغات الأخرى ، معروفة أو غير معروفة ، وهى اللغات التى اختلطت باللاتينية أو الفرنسية .

تفسير الوقائع على هذا النحو يتفق مع النظرية القائلة إن كل اللغات تعتبر لغات مختلطة ولو إلى حد ما . ولكن هناك نظرية أخرى^(١) تذهب إلى أن الإنسان لا يتكلم مطلقاً فى الوقت الواحد إلا لغة واحدة . وأن وحدة اللغة المتكلمة تستقر بكل بساطة فى شعور المتكلم ، ولا عبرة بعد ذلك لما يكتشفه التحليل فى هذه اللغة من عناصر أجنبية . نعم ؛ من الممكن أن تذوب لغة فى أخرى ، ولكن هذا لا يمنع من أن المتكلم إذا أراد الانتقال من هذه إلى تلك وجد أمامه خطوة يجب عليه أن يخطوها ؛ ولا بد من أن تقابله لحظة يشعر فيها بأنه يترك اللغة الأولى ليتخذ الثانية . فالفرنسية لغة لاتينية والإنجليزية لغة جرمانية ، مهما كانت التأثيرات الخارجية التى أثرت عليهما ، لأننا نشعر بأننا نتكلم لغة أسلافنا ، ولأننا إذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء حتى نصل إلى اللاتينية المشتركة أو الجرمانية المشتركة ، وجدنا سلسلة متصلة الحلقات من الناس كان فى غمهم وشعورهم أنهم يتوازنون لغة واحدة بعينها .

هاتان نظريتان متعارضتان . فإذا أردنا أن نوفق بينهما ، وجب علينا أن نبحث إلى أى خد تستطيع العناصر الأجنبية أن تفسد وحدة اللغة التى تضاف إليها .

* * *

لندع جانباً استعارة المفردات التى تتبادلها اللغات فيما بينها . فمن خصائص هذه المستعارات أنها لا تحتم كون المتكلم يتكلم اللغة التى استعيرت منها أو حتى معرفته بها . وشباننا الرياضيون الذين تمتلئ لغتهم بالكلمات الإنجليزية لا يعرفون اللغة الإنجليزية حتماً حتى ولو كانوا ينطقون هذه الكلمات الإنجليزية نطقاً صحيحاً . فاستعارة المفردات ، مهما اشتد أمرها ، يمكن إذن أن تظل مسألة خارجة عن اللغة .

(١) انظر مية : رقم ٤٢ ، مجلد ١٥ ، ص ٤٠٣ .

ولكن هناك أنواع من الاستعارة تستلزم وجود توغل داخلي بين النظامين اللغويين وهي حالات النسخ التي قدمنا لها بعض الأمثلة (انظر ص ٢٦٣) . ينتج النسخ عادة من اختلاط صورتين كلاميتين تنتمي كل واحدة منهما إلى لغة مختلفة ، وقد اختلطتا على المتكلم . وقد يقع هذا الاختلاط في كلمات أو في تراكيب ؛ ولكن السبب فيها جميعاً واحد . فالتلميذ الصغير الذي يخطئ فيترجم donne-moi ma vache (أعطني بقرتي) « يقول da mihi mia vacca (وذلك برفع بقره) أو Peirre est le roi « بير هو الملك » Petrus est regem ، فإنه يكون متأثراً بكون كلمة ma vache « بقرتي » أو le roi « الملك » يستعملان في الفرنسية بصورة واحدة في حالتى السند إليه والسند أيا كان . وهذا عين ما يحدث عند ما يترجم السلوفاني الجملة الإيطالية dammi la mia vacca بقوله dajmi moja krava (باستعمال الرفع بدلاً من النصب) . وليس هذا ما يصح أن نسميه بالخلط بين الحالات ، ذلك الخلط الذي تبقى فيه حالة الفاعل وحالة المفعول متميزتين مهما كان تركيب الجملة ، بل هو خلط الصور الكلامية حيث نرى المتكلم يتكلم الإيطالية بالسلوفانية ^(١) . وهذا ما حصل ، مع اختلاف طفيف ، للكاتب السويسري ك. ف. مير K. F. Meyer حين كتب Er ist kränker als du nicht denkst (حرفياً : « إنه أكثر مرضاً مما لا تتصور ») . فهذه الغلطة ترجع إلى أن الكاتب يتصور التفضيل في صورة سلبية على نحو ما يفعل الفرنسيون والإيطاليون عادة ؛ فهو قد جمع بين تفكير روماني وتعبير جرمانى .

هذا النوع من الخطأ واسع الانتشار . فقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحياناً من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها . فالألمانية النمساوية مثلاً تسير على حرية كبيرة في ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية إذ نراها لا تنحجم عن وضع السند أو المفعول في رأس الجملة فتقول Guten Morgen wünsch'ich Ihnen « نهاراً سعيداً آتمنى لك » أو Recht hat Er « حق عنده » و Gut ist's gegangen « بخير لقد مرَّ ذلك » ، الخ ، وذلك وفقاً لما يقال في

(١) قلنا هذا المثال والأمثلة التالية عن شوخارت رقم : ٢٠٣ ، ص ٩٠ .

السلافية . وقد نسمع في بوهيميا من يقول : Schwester haben wir ganz kleine « أخوات لنا صغيرات جداً » وذلك على حد قول التشيكية sestru mâme malickou . وفي جنوب النمسا يتجلى تأثير السلافية في موضع النفي بوجه خاص مثل : nicht scheut er sich ihn zu verleumden « لا يستحي من أن يفتابه » ؛ وهذه ترجمة عن السلوفانية ne se sramuje gaobrekovati .

إذا تعود إنسان على الكلام بلغتين مختلفتين تعرض عن غير شعور منه لاستعمال طرق التعبير الخاصة بإحدهما عند الكلام بالأخرى . ففي الغالية يعبر عن التفضيل المطلق في الصفات باستعمال iawn « حقيقى » التى تقابل الكلمة الإنجليزية very ؛ ومن ثم كانت عبارة da iawn « حسن جداً » صورة من العبارة الإنجليزية very good . واستعمال الظروف التى تضاف للفعل لتعديل معناه تعد صفة تتميز بها اللغات الجرمانية . ولكننا نجدتها في الأقاليم المجاورة للإنجليزية والألمانية حيث ترجع إلى تأثير هاتين اللغتين . ففي الغالية نجد عبارة cael allan صورة من to find out وعبارة dy fodi fyny صورة من to come up وعبارة torri i lawr صورة من to break down وعبارة rhoddi i fyny صورة من to give up . وفي جاثيلية اسكتلندة cuir as ترجمة حرفية لعبارة to put out وعبارة cuir air ترجمة للتركيب (to put on) ، الخ . واللاذينية Ladin وهى لهجة رومانية تتكلم في إقليم الجريزون بسويسرا ، تقول متأثرة بالألمانية drizzer our « ينفذ » (من الألمانية : aus-richten) أو gnir « ينتج » (من الألمانية : vor-kommen) أو vain aint « يختبر » (من الألمانية : ein-sehen) . وهنا نجد أنفسنا قد وصلنا إلى الحدود بين المفردات والنظام الصرفي .

تبدو بعض حالات من النسخ أقرب إلى النظام الصرفي من تلك الحالات المتقدمة ، بل منها ما يؤثر في هذا النظام . فقد نشأ في بعض اللهجات المحلية البولونية المعرضة للاحتكاك بالألمانية ، نوع من الماضى غير المحدد يصاغ بمساعدة فعل الملك

حيث يقال : ja to mom sprzedané (بالفرنسية j'ai vendu « بت ») من الألمانية : ich habe verkauft وذلك بدلا من الصيغة البولونية الصحيحة sprzedatem (١)

يوجد في إقليم كيمبوسو Campobasso مستعمرة صربية كرواتية أقبلت من إيريا حوالى القرن الخامس عشر ، ولا تزال حتى اليوم تتكلم لهجة من نوع الاستكافيه stokavien ؛ وقد لوحظ عليهم استعمال الأداة الإيطالية فى جملة سلافية كلها : da mi kaze le pute « كى يربنى الطرق » .

والسلافانية لم تستمر من الألمانية أفعالا وظروفاً وأدوات وأسماء أعلام فحسب . بل لقد خلقت لها أداة تعريف ، وكثيراً ما تستعمل المبنى للمجهول على مثال الألمانية (٢)

ويبدو فى برتغالية منيجالور Mangalore فى الهند ميل إلى الدلالة على الملكية باستعمال S متأثرة فى هذا باللغة الإنجليزية . حيث بدأوا بقولهم governor's casa على مثال governor's house ثم قالوا governador's casa ، وهكذا أصبح فى حوزة البرتغالية دالة نسبة إنجليزية .

ونحن نعرف أنه كثيراً ما لوحظ فى لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيا ، وجود خصائص صوتية مشتركة (انظر ص ٨٢٨١) . وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفى . فاستعمال مفعول الآلة استعمال المسند الذى يوجد فى الفنلندية ، قد انتشر فى اللغات الهندية الأوربية (السلافية والبلطية) التى احتكت باللغات الفنلندية (٣) . وهذا لا يمنع من اختلاف اللغات السلافية عن اللغات الفنلندية من جهة النظام الصرفى . ومع ذلك فمثل هذا النوع من الاستعارة يمس سلامة هذا النظام وما دامت الاستعارة مقصورة على عدد قليل من التراكيب أمكن اعتبارها من استعارة المفردات ؛ أما إذا صار التركيب المستعار مثالا يحتذى وفرض على

(١) كازمير نيتش Casmir Nitsch : Mova ludu polskiego كراكويا (١٩١١)

ص ١٣٦ .

(٢) فيست Feist : رقم ٢٦ ، مجلد ٣٦ ، ص ٣٢٣ .

(٣) ميه : رقم ٤ ، مجلد ١٢ ، ص ١٧٦ .

العقل صورة كلامية معينة ، كانت اللغة في هذه الحال قد أدخلت في نظامها وسيلة صرفية جديدة .

وقد يصل الأمر باللغة إلى إقصاء وسيلة سابقة إقصاء تاماً . لنفرض مثلاً أن البرتغالية اتخذت التركيب *homem's casa* على طول الخط بدلاً من *a casa do homem* فلن يغير هذا بطبيعة الحال من النظام الصرفي العام للغة ، لأنه لم يتغير فيه إلا عجلة واحدة ، إلا قطعة واحدة دخلت عرضاً في آليته . ولكن إذا أصيب النظام الصرفي البرتغالي بعدد من هذه التغيرات ، أفلا يمكن أن يأتى وقت لا يستطيع فيه المتكلم أن يحس تماماً ما إذا كان يتكلم الإنجليزية أم البرتغالية ، ولا يستطيع العالم اللغوى في هذه الحالة أن يحكم بهذا أو بذلك ؟

كان يمكننا أن نستمد من دراسة بعض اللغات المختلطة معلومات قيمة تساعدنا في الإجابة عن هذا السؤال . ومثل هذه اللغات موجودة بالفعل ، ولكنها بكل أسف توجد في ظروف تقلل من قيمة الاستشهاد بها . فقد ذكرنا مثل اللغة العجورية الأرمينية التى اتخذت نظام الأرمينية الصرفي بأكمله مع استبقائها لمفرداتها ، أى أنها الآن ليست إلا الأرمينية بمفردات عجورية . وهذا المثل يجد له ما يعضده في عجورية إنجلترا . ففي التاريخ القديم كان العجر في إنجلترا يتكلمون لغة عجورية محضة ؛ وبعد ذلك احتفظوا بمفرداتهم العجورية وأخذوا يركبونها في الجمل مستعملين دوال النسبة الإنجليزية . فمثل هذه الجملة *kowova te jal adré mi Duvelésko kèri kana meróva* « أتمنى أن أذهب إلى بيت الله عندما أموت »

صارت في العجورية الحديثة ^(١) *I'dkom to jal adre mi Duvel's ker* *when manbi mer's* هاتان الحالتان تطابقان ويجب أن يفسر بطريقة واحدة . ولكن غرابتهما تجمل الناظر يرتاب في كونهما اصطناعيتين ولو جزئياً على الأقل . وقد تظننا أمام تعمية يراد بها جمل الإنجليزية والأرمينية غير مفهوميتين وذلك بالاستعاضة عن الكلمات الإنجليزية والأرمينية بكلمات عجورية وإذا صح ذلك لم يجوز لنا أن نقول إن العجر قد اتخذوا النظام الصرفي للغة

(١) *Pischel* وينقله عنه شوخارت : رقم ٢٠٣ ، ص ٨ — ٩ .

غير لغتهم ، بل إنهم شوهوا الإنجليزية أو الأرمنية . وعندئذ يكون من المجازفة أن نخرج من هذه الحالة بنتيجة نهائية .

ولكن من خصائص اللغات المختلطة أن تكون أيضاً لغات بالية على وجه العموم وهذه الحقيقة تساعدنا على أن نفهم تكوينها فهماً دقيقاً .

تبادل التأثير الذي تخضع له اللغات المحتكة بعضها ببعض ينشأ عنه تبادل البلى . لأن حاجة الأفراد إلى إيجاد وسيلة عاجلة للتفاهم تدفعهم إلى القيام بتوضيحية مشتركة ، وذلك بأن يبعد كل فريق من لغته ما هو خاص بها وحدها وألا يبقى إلا السمات العامة التي تشاركها فيها اللغات المجاورة .

بلاد القوقاز في وقتنا الحاضر كجزيرة البلقان ميدان لاختلاط اللغات فالتتية والأرمنية والجرجية والشركسية تغمرها باللغات المتنوعة ، تلك اللهجات التي يختلف بعضها عن بعض إلى حد يعجز اللغويين أحياناً عن تحديد ما بينها من قرابة . والسبب الأساسي في التغير السريع الذي يطرأ على هذه اللغات يقوم على تأثير اللغات المجاورة فيها . وهذه الحال تقدم لنا خير المثل على البلى الذي يحدثه الاحتكاك فنقابل في الجزء الجنوبي الشرقي من الداغستان ، على ضفتي نهر السامور ، سلسلة من اللهجات التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الكورينية . وتغمر هذه اللهجات اللغتان الأرمنية والتتية شيئاً فشيئاً ، فتضيقتان من مجالها تدريجياً ، وحتى في داخل الدائرة الضيقة التي تتكلم فيها هذه اللهجات ، نرى هاتين اللغتين المتجاورتين قد نالتا من سلامتها ؛ وليس البلى على درجة واحدة في كل مكان ولكنه محسوس على كل حال ، ويذكر A. Diefenbach — وهو خير من درس هذه المسألة ^(١) — أن تبسيط النظام الصرفي أظهر نتائج هذا العمل .

أكد جریم Grimm منذ ١٨١٩ أن فقدان النحو ^(٢) نتيجة حتمية لصراع اللغات . والواقع أن هذه النتيجة ليست حتمية . ولكننا نشاهد وقوعها في كثير

(١) Mitteilungen der Anthrop. Gesellschaft in Wien, مجلد ٣٩ ،

ص ٣٠١ ، ومجلد ٤٠ ، ص ٢٢ .

(٢) Deutsche Grammatik ص ٣٢ من المقدمة ، ص ١٧٧ .

من الأحيان . فاللغات التي تنتقل تفقد على وجه العموم خصائصها الفردية بأسرع من غيرها وذلك لأنها معرضة لتأثيرات متعددة ومتنوعة تقع عليها من لغات تختلف عنها كثيراً في غالب الأحيان . والانتقال في غالب أمره سبب في التحلل اللغوي . وهذا يفسر لنا الاختلاف المشاهد بين اللهجات الإغريقية في المستعمرات واللهجات الإغريقية في بلاد الإغريق نفسها . إذ يجب أن نضيف إلى الأسباب الوجهية حقا التي ذكرت لتفسير هذا الاختلاف (انظر الصفحات الأخيرة من الخاتمة) تأثير اللغات غير الإغريقية التي كانت مستعملة في الأقطار التي مد الإغريق إليها نشاطهم . فيمكننا أن نسلم بأن تبسيط النظام الصرفي نسبياً وتحطيم بعض السمات الصوتية في لهجات هذه المستعمرات يرجعان إلى مجاورة تلك اللهجات للغات مختلفة ، حتى ولو لم نسلم بأن تلك اللغات قد أثرت في بنية اللهجات نفسها . ذلك أن الناس الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات قد أخذوا يتكلمون الإغريقية ، ففرضوا على الإغريق عادات جديدة اطمان إليها الإغريق أنفسهم بمضى الزمن ، ولا سيما وقد كانوا قليلي العدد . هذه الحالة اللغوية ساهمت بقسط وافر ، كما هو المتوقع ، في قيام لغة مشتركة .

ففي اليوم الذي تمكنت فيه اللهجات الإغريقية من أن تتخلص من بعض خصائصها الفردية المحضة تحت التأثير الخارجي ، أصبحت قادرة أن تنصهر كلها في وحدة اللغة المشتركة « *κοινή* » . ولكن ما يوضح في لهجات لغة واحدة ، يصبح أيضاً في تاريخ لغات مختلفة : لأن الأحداث الواحدة ورد فعلها تؤدي إلى نتائج واحدة . فإذا تنافست لغتان أو أكثر ، قام بينها في غالب الأمر نوع من التوازن الذي ينتهي بتكوين لغة مختلطة ، فتتخذ لغة مشتركة . وتوجد في العادة لغة غالبية تتخذ قاعدة لهذا المزج^(١) . ومع ذلك فقد يحدث أن تنشأ لغة مشتركة من مزج لغات مختلفة بنسب تكاد تكون متساوية . وهذا هو ما حدث للسبيرية *sibir* في موانئ البحر الأبيض المتوسط . فهي مزيج من الفرنسية والأسبانية والعربية . كل هذه اللغات ساهمت في تكوين السبيرية وخاصة بمزج مفرداتها . أما الخصائص لكل منها فقد زال أثرها تماماً .

(١) ١ . E. Windisch : المرجع السالف الذكر ، ص ١٠٤ و ص ١١٣ .

اللغة المسماة pidgin-english التي تعد لغة مشتركة في موانئ الشرق الأقصى واللهجة التي يطلق عليها broken-english « الإنجليزية المكسرة » التي يتكلمها سكان سيراليون الأصليون ، تعد كل منهما أيضاً لغة مختلطة كالسبيرية ^(١) . وأساس البدجن إنجلش ، اللغة الصينية التي تتميز بضالة نحوها . وما هي في حقيقة أمرها إلا اللغة الصينية بمفردات إنجليزية . فقد تمكن القائمون بهذا الأمر أن يكونوا من المفردات الإنجليزية — وهي خير ما يصلح لهذا الغرض — جملا تسير في ترتيب الكلمات على مثال الجمل الصينية . وينتج من ذلك في غالب الأمر مركب عجيب يبرهن على وجود تشابه محسوس بين اللغتين . فعندنا في هذه الحالة لغة تقوم على أساس المزج ؛ ولكن خلو هذه اللغة من النحو خلواً ينكاد يكون تاماً قد رشحها بصورة عجبية للقيام بالدور الذي ألقى على عاتقها .

ولغات المولدين أيضاً يمكن أن تعد أمثلة للغات المختلطة . وهي تستند على لغة أوروبية إما الفرنسية أو الأسبانية أو الإنجليزية ؛ ولكن هذه اللغات قد تجردت من خصائصها الصرفية فأصبحت في حالة تشبه حالة الغبار . فهي رمال ذهبت عنها المادة الجيرية ، وأحجار لا ملاط بينها ، ومادة متحللة لا قوام لها . ذلك لأن حاجة السكان الأصليين في معاملتهم التجارية إلى التكلم مع التجار الأجانب قد دفعتهم إلى تعلم اللغة الأجنبية التي حلت بمضى الزمن محل لغتهم الأصلية . ولكن هذا التعلم لم يكن كاملاً على الإطلاق ؛ بل كان يقتصر على السهات السطحية للغة ، وعلى العبارات التي تدل على الأشياء الشائعة الاستعمال والأفعال الضرورية للحياة ؛ أما عنصر اللغة الداخلي بما فيه من تعقيدات دقيقة ، فلم يهضمه إطلاقاً المواطن الأصلي . يمكننا أن نقول إن لهذه الظاهرة عللاً اجتماعية . فكلام المولدين كلام قوم منحطين ومروءسين ، لم يعمل رؤسائهم يوماً على جعلهم يتكلمون لغة صحيحة ولم يريدوا

(١) هناك مثل من لهجة أل . pidgin - eng في Leland : (C . G .) ،
Pidgin - english, singsong in the China — english dialect . ، الطبعة الخامسة
(١٩٠٠) . وعن « الإنجليزية المكسرة » انظر : F. W. H. Higeod : رقم ١٣٦ ،
وعن عربية مدغشقر انظر G. Ferrand رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٤١٣ .

أن يعملوا ذلك إطلاقاً . فتمتبر لغاتهم من اللغات الخاصة إلى حد ما ، على النحو الذى كانت عليه اللغات الفجرية الآنفة الذكر ، ولكن مع اختلاف الأسباب ، ولكن يبقى أن لغات المولدين تعتبر لغات مختلطة كالسبيرية واليدجن انجلش والإنجليزية « المكسرة » ، وقد نتجت من اختلاط لغتين أو أكثر ، ولما كانت خالية من نظام صرفى مميز لها ، لم يكن فى وسع واحدة من اللغات الداخلة فى تكوينها أن تدعيها لنفسها . فهذا مثل حقيقى من الخلاسية اللغوية . وسنرى النتائج التى تنجم عنها فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

القرابة اللغوية

والمنهج المقارن^(١)

استعمال عبارة « القرابة » في مسائل اللغة يؤدي إلى لبس كبير ، وكثيراً ما أوقع في الخطأ أشخاصاً من غير العارفين بالأمور اللغوية . بل أخطر من ذلك أن بعض علماء اللغات أنفسهم قد أخذوا أحياناً هذا التعبير المجازي على علاته وراحوا يضعون القوائم بأنساب اللغات على طريقة أوزييه Hozier . وظن بعضهم منذ ذلك الحين أنه في حلّ من القول بأن اللاتينية قد ولدت الفرنسية أو الإيطالية ، ومن الكلام عن اللغات الأمهات واللغات البنات واللغات الأخوات . وكلها مصطلحات سيئة لأنها تعطي فكرة زائفة عن علاقة اللغات بعضها ببعض . إذ لا شيء من الشبه بين قرابة اللغات وبين التتابع أو التوالد بالمعنى الفسيولوجي لهذه المصطلحات .

لا يتأتى لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى ؛ وليس في وسع أى عالم لغوى أن يحدّد الساعة التى وقع فيها هذا الميلاد . فإذا قلنا إن الفرنسية قد خرجت من اللاتينية ، فعنى ذلك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال العصور فى إقليم من الأقاليم . وإذن فليست الفرنسية فى كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها . وكلما أوغلنا فى تاريخ اللغة الفرنسية ، وجدنا حالات متنوعة يتلو بعضها بعضها وتقرّبنا شيئاً فشيئاً من اللغة اللاتينية . ومع ذلك فمن المحال أن نعين الحد الذى تنتهى عنده اللاتينية وتبدأ الفرنسية . وتاريخ اللغة الفرنسية

(١) انظر ميه : Le problème de la parenté des langues (رقم ٤٢ ،

مجلد ١٥ (١٩١٤) ص ٤٠٣ ؛ ومؤلفات شوخارت المذكورة فى الفصل السابق .

مشحون بالثغرات ؛ فهناك فترات لا نعرف عنها إلا القليل ، وكانت ذات أثر حاسم في تكوين هذه اللغة . ومن جهة أخرى لم تكن الحركة التي ابتعدت بالفرنسية عن اللاتينية متماثلة الأجزاء ، ومع ذلك فبين اللاتينية والفرنسية ، رغم تنوع الأحوال التي تقلبت على الفرنسية ، استمرار تاريخي هو الذي يكون القرابة بين اللغتين . وهذا هو الوجه الأول من وجهي المسألة ، ويمكننا أن نسميه بالتتابع .

وهناك وجه آخر يجب أن يُحسب حسابه ، وهو الوجه الوضعي synchronisme . يمكننا بسهولة بناء على ما قلناه في الانفصال الطبيعي لإحدى اللغات ، أن نطلق مصطلح القرابة اللغوية أيضاً على لهجتين خارجتين من لغة واحدة . فقد يحدث في بعض المناطق أن تنقسم لغة من اللغات ، التي يتكلمها أصحابها في صورة واحدة لا اختلاف فيها ، إلى عدد من مجاميع اللهجات تتميز كل منها ببعض الخصائص التي تمتد إلى عدد ما من المجاميع المجاورة . عندئذ يقال بأن هذه المجاميع ترتبط بصلة القرابة ، وتظل كذلك مهما كانت التغيرات التي تصيب كل واحدة منها . ومهما عظم البون بين اللغة المشتركة البدئية وبين اللهجات التي خلقها الانقسام ، فإنه يجب التسليم بوجود القرابة ما دامت ثابتة تاريخياً .

ولا ينبغي لنا أن ندخل في حسابنا هنا تلك الفوارق التي تفرضها الحالة السياسية أو الاجتماعية على اللغة : فالقرابة اللغوية تضم دون أي تمييز اللهجات التي نزلت إلى طبقة اللغات المحلية أو الرطانات أو العاميات الخاصة بأرباب الصناعات وتلك اللهجات التي ارتفعت إلى مصاف اللغات المشتركة . فالبيكاردية والبواتية والنورماندية كلها قريبة بعضها من بعض ، وقريبة أيضاً للفرنسية ، لهجة الإيل دي فرانس التي صارت لغة مشتركة لأقاليم مترامية الأطراف . وإذا كان من يتصدى لتأريخ اللغة الفرنسية يهتم بتمييز جميع الفروع التي تنطوي عليها هذه اللغة ، فإن من حق من يريد أن يشمل تطور اللغة بنظرة عامة أن يعتبرها وحدة متحركة خلال العصور التي صرت بها . والواقع أن التغيرات التي أصابت اللغة

ترجع في معظمها إلى تطورها الذاتي . أما تفتت اللهجات وتكوين اللغة المشتركة وامتدادها إلى اللغات المحلية حتى تتوغل فيها شيئاً فشيئاً ، ذلك العمل الواسع الذي أجزلنا تاريخه فيما تقدم ، فكل هذا قد وقع داخل اللغة الفرنسية نفسها دون أن يقلق إطلاقاً صلات القرابة التي بين لهجاتها^(١) .

ومع ذلك فاقاربة درجات . فالبروقنسية le provençal مثلاً لغة مشتركة تضم عدداً كبيراً من اللهجات المحلية التي تسير معها جنباً إلى جنب . ونحن نعرف أن هذه البروقنسية نشأت من توحيد لهجات محلية ، وهذه اللهجات نفسها خارجة من المصدر نفسه الذي خرجت منه لهجات شمال فرنسا ، أى أنها هي الأخرى من اللاتينية . فما لا يحتاج إلى بيان إذن أن تكون صلة القرابة بين اللهجات البروقنسية المحلية بعضها وبعض أوثق من القرابة التي تجمع بين أية واحدة من هذه اللهجات نفسها وبين إحدى اللهجات الفرنسية المحلية . ذلك لأن الفرنسية والبروقنسية تجتمعان في طور بعينه من أطوار اللغة يمدّ سابقاً عليهما . فهما حالتان مختلفتان من لغة واحدة ، وقد ظللتا على اختلافهما في خلال العصور ، وهذه اللغة الواحدة يمكننا أن نسميها لاتينية الجول العامية . وإن كانت التسمية لا تعيننا كثيراً . ومعنى ذلك أننا إذا أردنا تحقيق القرابة بين اللغتين ، اضطررنا إلى أن نؤلف بين الوجهين اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم : الوجه التتابعى والوجه الوضعى .

ولكن هذا التأليف قد يمتد بنا إلى ما وراء ذلك ؛ قد يتسع في الزمان والمكان حتى يشمل جميع اللغات الرومانية الصادرة عن اللاتينية أيضاً . فاللغة التي سمينها لاتينية الجول العامية ليست إلا صورة خاصة قد لا تختلف إلا قليلاً عن اللاتينية العامية العامة التي أخرجت الإيطالية في إيطاليا والإسبانية في أسبانيا والبرتغالية في البرتغال والرومانية في رومانيا ولغات أخرى أقل أهمية من هذه اللغات . كل هذه اللغات تعتبر لغات مشتركة صقلتها التقاليد الأدبية ، وعملت

(١) انظر ميرلوبسكه Meyer Lübke رقم ١٨١ ؛ وبورسييه Bourciez رقم ٥١

وتسونر Zauner : رقم ٢٢٤ .

الظروف السياسية على بقائها وتعميمها وكل منها تضم عدداً كبيراً من اللهجات وفروعها . وقراءة هذه اللهجات جميعاً بعضها ببعض (بغض النظر عن اختلاف اللغات المشتركة) وقراءة اللهجات المحلية كلتاها على درجات كثيرة . إذ أن بعضها لا يزال أكثر اقتراباً من البعض الآخر ، لأن اختلاف كل منها عن صواحبه لم يتحقق إلا منذ عهد قريب . ولكن فريقاً منها ، قد انفصلت لهجاته منذ عهد بعيد ، فلم يبق بينها تشابه كبير : وذلك كما لو قارنا رطانة برتغالية برطانة رومانية مثلاً . ويقوم التباعد على وقوع تطورات مستقلة ، وذلك بغض النظر عن التأثيرات الخارجية التي لا نتكلم عنها الآن ؛ ومع ذلك فليست البرتغالية والرومانية في نظر العالم اللغوي إلا صورتين من لغة واحدة هي اللاتينية .

ونحن نعرف هذه اللاتينية . فيجوز لنا إذن أن نقدر الطريق التي قطعته حتى وصلت إلى اللغات الرومانية المستعملة اليوم ، وأن نحدد درجات القرابة على ضوء التغيرات التي وقعت وعلى أهمية كل منها . ولسنا في حاجة إلى بيان المعونة الهامة التي تقدمها للباحثين في هذه اللغات معرفتهم بالتاريخ السياسي والاجتماعي . فهي رقابة دائمة ووسيلة قيمة لتحديد التاريخ الدقيق لكل قلب من التقلبات التي مرت بها الشعوب واللغات في آن واحد . ولكن الوثائق التي في متناول يدنا تقف عند اللاتينية : فلسنا نعرف شيئاً عن حالات اللاتينية السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد أو حوالى ذلك التاريخ . وبهذا نفقد خير وسيلة للتحديد وخير ضمان نستند عليه في تحقيق قرابات تقوم على ظروف اللغة والتاريخ معاً .

ومع ذلك ففي وسعنا أن نرقى في بحثنا إلى ما قبل اللاتينية بفضل المنهج المقارن الذي يجب علينا الآن أن نحدد مداه^(١) .

ليس المنهج المقارن إلا امتداداً للمنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق .

(١) انظر ميهيه Sur la méthode de la grammaire Comparée رقم ١ ، ١٩١٣

ص ١ — ١٥ . والنتائج الأناسية يعرضها بوضوح برتستسكي Porzezinski رقم ١٩٢

ص ٣٩ — ٨٠ .

وينحصر في نقل منهج التفكير الذي يطلق على العهود التاريخية إلى عهود لانملك عنها أية وثيقة .

رأينا أن اللغات الرومانية الحالية إنما نتجت من تطور اللهجات الخارجة من اللاتينية تطوراً مستقلاً وإن كان متوازياً . وتقوم وحدة اللغات الرومانية على مجموعة من السمات المشتركة بين كل هذه اللغات ؛ ومن هذه السمات نعرف قرابتها . ومعظم هذه السمات كانت توجد في اللاتينية نفسها على اختلاف بينها في درجة الظهور ؛ وبعضها ناتج من حالات تجديد مشتركة ، ولكن هذه السمات التي نعثر عليها في كل اللغات الرومانية يمكن إذا لم يوجد لها نظائر في اللاتينية نفسها — أن تعتبر بقايا من تلك الحالة اللغوية غير المعروفة لنا تماماً والتي تسمى باللاتينية العامة ، وهي الواسطة بين اللاتينية الكلاسية واللهجات الرومانية . فهناك إذن نحو مقارنة للغات الرومانية . وهذا النحو لا يمكننا من إقامة صلات مباشرة من التابع بين هذه اللغات وبين اللاتينية فحسب ، بل يسمح لنا أيضاً بإقامة البنية النحوية لحالة لغوية تقل الوثائق التي لدينا عنها أو تنعدم تماماً .

ولكن اللاتينية نفسها ليست لغة منعزلة لا رابطة بينها وبين لغات أخرى . بل يحتوي نحوها على سمات مشتركة بينها وبين الإغريقية ، سمات لفتت أنظار القدامى أنفسهم . وأدرك المحدثون أن الإغريقية واللاتينية تتصل بمجاميع أخرى من اللغات تشمل أراضي واسعة وتمتد من السنسكريتية في الهند إلى أقصى طرف في أوروبا الغربية . وأطلقوا على هذه اللغات اسم اللغات الهندية الأوروبية لما لم يجدوا لها اسماً آخر . وبالطبع يجب أن تفهم هذه « اللغات » بالمعنى الذي أعطيناه لهذه الكلمة فيما سبق : فهي مجموعات لغوية أمكن لكل منها أن تصل في فترة من فترات التاريخ إلى نوع من الوحدة ، ولكنها جميعاً قد انقسمت وتباينت خلال المصير على النحو الذي أشرنا إليه .

تمكن العلماء بجمعهم للسمات المشتركة بين هذه اللغات أن يكتشفوا ما يسمى

بالنحو المقارن للغات الهندية الأوربية^(١) . ذلك النحو الذى يُضم إلى سلسلة طويلة من أنحاء مقارنة أضيق منه دائرة ، ونعنى نحو اللغات الرومانية المقارن ، ونحو اللغات السلافية المقارن ونحو اللغات الجرمانية المقارن ، الخ . وينتهى كل واحد من هذه الأنحاء المقارنة إلى إعادة تكوين حالة لغوية فى صورة إجمالية غالباً . وهذه الحالات اللغوية المبعوثة التى تسمى بالجرمانية المشتركة^(٢) والسلافية المشتركة مثلاً ، وكل منها تعتبر فى منطقها نظيرة اللاتينية العامية (أو الرومانية المشتركة) التى انتهى إليها نحو اللغات الرومانية المقارن . وعلماء اللغات الرومانية يجدون فى بقاء اللاتينية سنادة قوية يعتمدون عليها فى استنباط نتائجهم ؛ لذلك يحق لعلماء اللغات الجرمانية والسلافية أن يندبوا سوء حفظهم لعدم وجود وثائق من الجرمانية المشتركة أو السلافية المشتركة يقابلون بها نتائج بحثهم . ولكن ينبغى لنا ألا نبالغ فى قعر العالم اللغوى الجرمانى أو السلافى بالنسبة للعالم الرومانى . فهذا الأخير لا يرجع إلى اللاتينية إلا للتثبت من نتيجة وصل إليها ؛ ولكنه يقيم فروضه دون رجوع إليها ، وأحياناً يسره أن يبين بالبرهان أنه على حق فى استنتاجه رغم معارضة اللاتينية الكلاسية الموجودة فى النصوص . أما اللاتينية نفسها فلا يستعملها علماء اللغات الرومانية إلا للاستعانة بها على إعادة بناء هذه اللاتينية العامية التى تعدّ نقطة البدء فى عملهم ونقطة الانتهاء أيضاً .

ولما كان علماء اللغة الذين يعيدون بناء الهندية الأوربية لا يشتغلون بوجه عام إلا فى لغات مشتركة أعيد بناؤها بطريق الفرض أيضاً ، كانوا مضطرين إلى إبراز عمل أكثر إجمالاً من عمل سابقهم . فالهندية الأوربية التى عملها علماء اللغات ليست لها حقيقة واقعية : بل ليست كما قيل فيها إلا « نظاماً من المقابلات » .

(١) انظر خاصة برجمان Brugmann ودلبروك Delbrück ، رقم ١٥٠ ، وميه رقم ٩٤ . ومؤسس النحو المقارن فى اللغات الهندية الأوربية العالم الألمانى فرنستس بوب Franz Bopp ، رقم ١٤٥ . ومن بعده شليشر رقم ١٩٥ . وانظر أيضاً دى سوسير F. de Saussure ، رقم ١٢١ ؛ وهيرت Hirt ، رقم ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ وبشتل Bechtel ، رقم ١٤٣ ؛ وهبشمان Hübschmann ، رقم ١٧١ ، وشريدن Schrader ، رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، وفيست رقم ١٥٨ و ١٥٩ .

(٢) ف . كلوج F. Kluge : رقم ١٧٤ .

ويترتب على ذلك أن أعلم العلماء بالهندية الأوروبية لا يستطيع أن يعبر بها عن جملة بسيطة من قبيل « الحصان يجري » أو « البيت كبير » . وأقصى ما يصل إليه في الخلق بها ينحصر في قواعد البنية النحوية : فلا يوجد إذن من يستطيع أن يتكلم الهندية الأوروبية . ولكن على العالم اللغوى أن يعرف ما هي فصائل هذه اللغة وكيف كانت تعبر عنها ، وماذا كانت قيمة اللواحق والخواتم فيها .

وهذا هو المهم لأنه يسمح لنا بإقامة الروابط التاريخية التي تجمع هذه اللغات بعضها ببعض على وسائل لغوية . فمع أن المنهج المقارن يولى وجهة شطر الماضى السحيق ، فإنه في الواقع لا يؤتى ثمرته إلا في اتجاه عكسى ، لأنه يوضح تفاصيل اللغات الثابتة بالوثائق . وأظهر نتيجة لنحو اللغات الهندية الأوروبية المقارن تنحصر في تحديد صلات القرابة بين هذه اللغات ^(١) . فكل اللغات الفارسية واللغات السلافية والجرمانية والرومانية والكلتية ، إذا اعتبرت من الوجهة الزمنية ، تبدو للعالم اللغوى نتيجة لسلسلة متتابعة من التباين لحالة لغوية واحدة سابقة عليها جميعا ، وتسمى بالهندية الأوروبية .

هل يمكننا أن نرجع بالتاريخ إلى أبعد من هذا ؟ لا شيء يمنع من الاعتقاد في إمكان ذلك . بل إن بعض علماء اللغة المحدثين مقتنع به تمام الاقتناع . ونحن نعرف كيف تكون نحو اللغات الهندية الأوروبية المقارن بضمه إلى عدة أنحاء مقارنة أخرى . وإذن فإننا إذا تأبرنا على تفتيش تاريخ اللغات واستخراج القواعد العامة التي تبنى عليها ، فقد نصل إلى أن نعيد بناء لغات مشتركة أخرى تكون بالنسبة للهندية الأوروبية كالسلافية المشتركة بالنسبة للجرمانية المشتركة أو اللاتينية بالنسبة للأغريقية ، أو كالفرنسية بالنسبة للإيطالية إذا لم نرد التوغل في الماضى .

لو حظ منذ زمن طويل وجود بعض مواضع من الشبه بين الهندية الأوروبية والفينية الأجرية . وقد وجدت في ميدان السامية — حيث قطع البحث المقارن

(١) عن اللغات الهندية الأوروبية الجديدة التي اكتشفت بعض وثائقها في أوائل القرن الحالى في آسيا الوسطى ، انظر خاصة : مييه وسيلفان ليقي ، رقم ٥ ، (١٩١٠ — ١٩١٣) ورقم ٦ مجلد ١٧ و ١٨ ؛ وجوتيو : رقم ٥ (١٩١١) . ورقم ٧٢ مكرر . وترى عرضا لمجموع النتائج كتبه مييه في مجلة : *Revue du Mois* ، أغسطس عام ١٩١٢ .

مرحلة لا بأس بها — بعض سمات خاصة فيها وجوه شبه غربية بالهندية الأوروبية؛ حتى استنتج بعض اللغويين من ذلك إمكان وجود أسرة لغوية تضم اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية^(١). فتكون كل منهما تمثل مجموعة لغوية واحدة؛ وتكون الفرنسية في حقيقة أمرها هي العربية أو الحبشية كما ثبت بالبرهان أنها هي نفس الروسية والفارسية والإرلندية. ولا ينبغي أن تثني عن هذه المحاولة تلك الخلافات الصارخة الموجودة بين هذه اللغات؛ لأنه إن كان في افتراض أسرة هندية أوروبية سامية شيء من الجرأة، فليس مبعث هذه الجرأة أن ذلك الفرض يرجع إلى أصل واحد لغات مختلفة تمام الاختلاف. فالحقيقة الواقعة أن السامية تظهر منذ الآن أقرب إلى الهندية الأوروبية من سائر الجواميع اللغوية التي حددت معالمها حتى الآن. أفيمكن لهذه بدورها أن تتداخل شيئاً فشيئاً حتى تظهر في وحدات واسعة يضاف بعضها إلى بعض^(٢)؟ إن هذا السر في ضمير المستقبل؛ إذ أن هناك عدداً كبيراً من اللغات التي لم يطبق عليها المنهج المقارن بعد أو التي لم يقل فيها كلمته الأخيرة.

* * *

من ذلك نرى مقدار المدى الذي يستطيع المنهج المقارن أن يصل إليه، ولكننا نرى أيضاً مقدار النقص الذي ينطوى عليه. فهو يستند على مبادئ لغوية خسب، ولا يستطيع أن ينتظر من العلوم المجاورة إلا معونة ضئيلة. إذ يجب علينا أن نحذر الخلط بين القرابة اللغوية كما نستخرجها من المنهج المقارن، وبين القرابة الجنسية وقرابة المدنية. فهذه ثلاثة مذاهب من الدراسة مختلفة.

يشتغل في ميدان ما قبل التاريخ ثلاث طوائف من العلماء، وكل طائفة منها تعمل مستقلة عن الآخرين. وهؤلاء هم: علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار وعلماء اللغة. فالأولون تحت يدهم الهياكل العظمية والجحاجم؛ وأصحاب الطائفة

(١) هنري مولي: رقم ١٨٤ وكتابه Indo - europaeisk - semitisk
 Sammenlignende Glossarium، كوبنهاجن (١٩٠٩)؛ ويدرسن: رقم ٣٠،
 مجلد ٢٢ ص ٣٤١؛ كوني: رقم ١٣.
 (٢) ترومبتي Trombetti رقم ٢٢٨.

الثانية أمامهم أدوات الحضارة من حلى وأسلحة وآنية وآلات متنوعة في أشكالها ومواد صنعها ، وبالاختصار كل ما بقى من عدد ما قبل التاريخ وعتاده ؛ أما اللغويون فيشتغلون بمقارنة الأصوات والكلمات . والطوائف الثلاث جميعاً يعنون بجمع الأشياء التى يشتغلون فيها جمعاً منهجياً . وترتب كل طائفة أشياءها فى سلاسل تحاول إن استطاعت أن تقيم بينها روابط تاريخية أو نسبية . ولكنهم لم يصلوا حتى الآن إلى شئ يذكر فى التنسيق بين سلاسلهم وسلاسل أصحابهم . فليس هناك مقياس مشترك .

يقدم لنا النحو المقارن نظاماً تصنف فيه اللغات فى أسرات تبعاً لخصائصها . فبمقارنة الأصوات والصيغ تتجلى ضروب التجديد الخاصة بكل لغة فى مقابلة البقايا الباقية من حالة قديمة . وقد نجح اللغويون فى أن يحددوا ما قبل تاريخ اللغات الهندية الأوربية ، ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة من كانوا يتكلمونها . ولم يستطيعوا أن يحددوا أسلاف الإغريق أو الجرمان أو اللاتينيين أو السكتيين . وإنما يعرفون فقط التغيرات التى مرت بها الجرمانية والإغريقية واللاتينية والكلتية حتى وصلت إلى الحالة التى تكشف عنها النصوص . أما الأسماء التى أطلقوها على اللغات التى أعادوا بناءها فتحكمية ، قد اتفقوا عليها مجرد اتفاق . فكلمة « الهندية الأوربية » إذا خرجت من الاستعمال اللغوى لم يبق لها أى معنى ، ومثلها الكلمات « إيطالية مشتركة » و « كلتية مشتركة » « وجرمانية مشتركة » . فهذه الكلمات إنما تمثل دلالات لغوية ، ولا معنى لها إلا فى ذهن العالم اللغوى .

كذلك المصطلحات التى يستعملها علماء الآثار لا يصح لها أن تخرج من ميدان علم الآثار . فالعالم الأثرى الذى يكون مجموعة من الزهريات أو من الحراب ذات الطابع المعين ويحدد منطقتها الجغرافية ، يحار كيف يجيب إذا ما سئل عن اسم المدينة التى تنتسب إليها . فالعدد أشياء عديدة النسب ، عديدة النسب إلى حد اضطرب العلماء إلى الاصطلاح على تسميتها باسم المكان الذى يكشف عنها فيه . وعلماء الآثار يتكلمون عن دلاء هليشتات أو عن حراب التين أو عن الزخارف الفلانيوثية أو عن أثاث أونيبتس . كذلك يتكلم علماء الأنتروپولوجيا عن الإنسان النياندرتالى

أو جمجمة الشايل — أو — سان . ويقارنون في شوب الأرض المختلفة بين ذوى
الجمجمة المستطيلة وذى الجمجمة المستديرة دون أن يستطيعوا تعيين اللغة التى تقابل
كل قسم من أقسامهم الأتروبولوجية .

ذلك لأن وجود الجمجمة بين يدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عما كانت
تحتويه فى صندوقها العظمى ولا عن أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار التى
كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التى كانت تنشأ فى مراكزها
الحسية . وقد قلنا فيما تقدم (ص ٢٩٧) أن تحقيق الرابطة بين اللغة والجنس أمر
مستحيل . كذلك لا يمكننا أن نعرف أى الأدوات كانت تستخدم لدى الشعوب
التي نعرف لغتها ، ولا إلى أى حد توجد صلة بين مختلف اللغات ومختلف المذنيات .
فالذى نعلمه علم اليقين وقامت على صحته البراهين شىء واحد فقط : هو أن اللغة
الواحدة قد تتكلمها أجناس متباينة ، وأن من الأقوام من يتكلمون لغات مختلفة
ويستعملون جميعاً أدوات واحدة . كما أن أى تقدم يحصل فى ميدان العدد لا يبقى
مقصوراً على شعب واحد ؛ حتى ليستحيل علينا حساب الحركات الجنسية بأوروبا
فيما قبل التاريخ وفقاً لتتابع العصور الأثرية (العصر الحجري وعصر البرنز
وعصر الحديد) . فلم تكد المطبعة تخرج من يد المخترع حتى انتشرت فى أقطار
مختلفة الأجناس واللغات كالمانيا وإيطاليا وفرنسا . وإذن فليس التوفيق بين
النتائج التى تقدمها فروع العلم الثلاثة التى تكلمنا عليها أمراً عسيراً من الوجهة
العملية فحسب ، بل بعد أمراً مستحيلاً من الوجهة النظرية أيضاً . فالقراءة اللغوية
لا تستطيع أن تعتمد على عون يذكّر من قبل علم الآثار أو علم الأتروبولوجيا .
وكل ما يستطيع أن يعلقه العالم اللغوى على فروع العلم المجاورة من أمل هو أن
تمده بفرض يسير على هديه أو بوسيلة للتأكد من صحة بحوثه . وليس أمامه
للبرهان على القراءة إلا الوسائل اللغوية .

ولكن النهج المقارن إذا ترك لوسائله الخاصة ، صار أحياناً عديم الجدوى .
لأنه يفترض أن تطور اللغات قد وقع بصورة مطردة متصلة لم يصبها عارض خارجي .
ومع أنه امتداد للتاريخ ، فإنه يتحدى التاريخ ، إذ لا يستخدم إلا مقررات نظرية

ويتخذ من التاريخ صورة مبسطة تنحصر في سلسلة متتابعة مطردة من الأسباب والمسببات عاطلة من كل ما يخلع على التاريخ طابعه الحقيقي ، وهو التعقد والتنوع . وقد يكون هذا المنهج مدفوعاً إلى ذلك بضرورة حتمية ، لأنه في جهله بالظروف السياسية والاجتماعية التي فيها تطورت اللغة ، يبنى ما قبل تاريخها بوسائل لغوية . وهو في هذا الميدان يشعر بقوة ، لأن التجربة قد دلت على اتصال الرواية اللغوية . ولكن عدم وجود مقررات محددة عن ظروف التطور التاريخي يضعف كثيراً من النتائج التي نحصل عليها بوساطة المنهج المقارن والخاصة بتحديد القرابة اللغوية . وهذا هو ما اضطرنا إلى تحديد هذه القرابة بواسطة وجوه الشبه الموجودة في اللغات . وتلك طريقة خطيرة . فقد يوجد في الطبيعة أحياناً أقرباء يشبه بعضهم بعضاً إلى حد يعجزنا عن التفريق بين الواحد منهم والآخر . ولكن المتماثلين ليسوا جميعاً من الأقرباء ، وكذلك الحال في المسائل اللغوية ؛ فكثيراً ما تكون وجوه الشبه من عوامل الخداع .

وهي كذلك بنوع خاص في ميدان المفردات . فلم الاشتقاق يعلمنا أننا قد نجد في اللغات التي نعرف تاريخها كلمات متقاربة الضيغة أو متحدتها وتدل على معنى واحد دون أن يكون بينها أية صلة من الوجهة التاريخية . ومن الأمثلة التي تذكر عادة في التمثيل لهذه الظاهرة كلمة bad (باد) التي معناها « ردى » في الإنجليزية وفي الفارسية ، دون أن يكون بين الكلمتين أية صلة تاريخية . ويمكننا أن نضيف إلى هذا المثال الكلمة الألمانية Feuer « نار » التي لا شيء يربطها ، من حيث الأصل ، بالكلمة الفرنسية feu التي لها نفس المعنى . كذلك لا يوجد إلا شبه خارجي عارض بين الكلمة الإنجليزية whole والكلمة الإغريقية ὅλος « كل » ، جميع » ؛ وكذلك الحال بين الكلمة اللاتينية femina والسكسونية fêmea, fêmia بنفسى المعنى ؛ وبين اللاتينية locus والسكسكريتية lokas « عالم » ؛ وبين الكلمة الإغريقية الحديثة μάτι « عين » والكلمة البولندية mata (« يرى » ، الخ . والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصر .

يمكن المفردات بتمامها أن تتغير ، دون أن يغير ذلك من بنية اللغة الصوتية أو

النحوية تغييراً محسوساً . ومن المهم جداً أن نعرف مفردات اللغة التي نريد دراسة المدينة التي تمثلها وبذلك تكون المفردات جسراً بين اللغة وعلم الآثار . ولكن هذا الجسر يؤدي من كلتا ناحيتيه إلى طريق مغلق . لأننا لا نستطيع أن نستدل من المفردات على طابع اللغة ، حتى ولا على الطابع الذي تنضوى تحته أدوات المدينة . ولندكر المثل التالي من اللغات الهندية الأوروبية التي نحن بصدها : نحن نعرف في غربي أوروبا وجنوبها نوعين كبيرين من المفردات يرجعان إلى ما قبل التاريخ ، ولكن الخطوط التي تفصل بينهما لا تطابق الخطوط التي تفصل بين اللهجات . وأحد هذين النوعين — ويسمى بالمفردات الغربية — يمتد في الميدان الإيطالي والكلتي والجرماني . ويختلط في الميدان البلطي السلافي ، ولا سيما في بلاد البلطيق ، بمفردات شرقية مجتمة ؛ والثاني — ويسمى بمفردات البحر المتوسط — يمكن العثور عليه في الإغريقية على وجه الخصوص ، ولكنه اصطدم بالمفردات الغربية وحل محلها جزئياً في أهم لهجة من اللهجات الإيطالية ، وهي اللاتينية . لذلك نجد في الكلتيّة والجرمانية وفي الإيطالية إلى حد ما عدداً كبيراً من الكلمات المشتركة . ولكن هذه اللغات الثلاث تختلف في درجة القرابة بينها من وجهة البنية النحوية . فالصلة الصرفية ^(١) وثيقة بين الكلتيّة والإيطالية ، وثيقة إلى حد دفع بعض اللغويين إلى القول بوحدة إيطالية كلتيّة . أما الجرمانية فتختلف بنيتها النحوية عما في الكلتيّة اختلافاً شديداً ؛ وإذا كانت تقرب من الإيطالية في بعض الوجوه ، فإنها أيضاً تقرب من السلاوية البلطية في وجوه أخرى . وقصارى القول أن الروابط الصرفية بين هذه اللغات لا تتفق مع الروابط التي بين مفرداتها .

وهذا القول يسرى أيضاً على الروابط الصوتية ، بل قد يبدو غريباً أن ندخل الصوتيات في هذا المضمار . لأن التغيرات الصوتية تقع ، على ما يبدو ، بطريقة آلية مستقلة عن إرادة المتكلم ، بل وعلى غير شعور منه ، ولكنها أيضاً تقع باضطراد محدود من حيث المبدأ وتنوع غير في نتائجها ، إلى حد يجعل من العسير علينا أن نجد فيها خصائص لنوع معين من اللغات . يضاف إلى ذلك أنه لما كان الإطلاق

(١) انظر دو تان Dottin : رقم ٦٨ ، وهرت : رقم ١٦٧ ، وفيست : رقم ١٥٩ .

من أظهر خصائص التغيرات الصوتية ، لم يكن في إمكاننا هنا أن نقسم الصيغ إلى ضعيفة وقوية كما هي الحال في النظام الصرفي ؛ والصيغ القوية كما نعلم شهود عدول على حالات قديمة قد تغيرت . فهذه البقايا هي التي تعلن عن أصول النظام الصرفي وتسمح لنا بمعرفة روابط القربى . ولكن النظام الصوتي لا يدع بقايا ، ولذا لا يعرفنا بشيء من هذا القبيل .

ولا يكون الدارس في منأى من المصاعب حتى عند ما يقصر دراسته على الظواهر الصرفية . لأن النظام الصرفي أيضاً ينطوى على حالات من اللبس . لأن الدارس عندما يقيم القرابة على وجوه الشبه في البنية النحوية ، يفترض أن هذه البنية تتغير بصورة مطردة مستمرة . ولكن ما الذى يضمن لنا هذا الاستمرار ؟ نحن نعرف مقدار المؤثرات الخارجية التي يتعرض لها النظام الصرفي . فإذا لم تصب هذه المؤثرات إلا الأجزاء الثانوية والسطحية من النظام ، بقي لنا عدد كاف من السمات المميزة التي تسمح لنا بتحديد القرابة . ولكن يمكننا أن نتصور حالة قصوى تصل فيها اللغة بعد أن يتكرر التأثير عليها ، إلى أن يتركب فيها بدرجة متساوية مزيج صرفي من أسرتين متقاربتين . وهذه هي نفس الحالة التي تخيلناها من قبل وأطلقنا عليها اسم الخلاسية ، وهي حالة شديدة الندرة . ونحن نعرف من ميدان التاريخ الطبيعي ، وإن كانت ظروفه مختلفة جداً عن ظروفنا ، مقدار الصعوبة التي يلاقيها العالم في تصنيف مادته إلى أمرات بسبب الخلاسية التي تعمل دون توقف على كسر النظام والوحدة . ففي حالة الخلاسية اللغوية يصير النظام الصرفي مقياساً غير ذي جدوى .

كذلك يصبح هذا المقياس غير ناجع إذا كانت التغيرات الصرفية قد وقعت بسرعة خاطفة ، أو إذا كانت الحالات التي نعرفها منها يفصل بعضها عن بعض آماذ بعيدة حتى أصبحت اللغتان اللتان تنتسب إليهما هذه الحالات لا تشتركان في شيء من الوجهة الصرفية وإن كانتا ترجعان إلى أصل واحد . فلو أننا لا نعرف من الفرنسية إلا الحالة التي عليها اللغة المتكلمة في صورتها الحاضرة ، وكنا فضلا

عن ذلك نجهل اللغات الرومانية الأخرى واللاتينية ، لكن من الصعب علينا أن ندلل على أن الفرنسية لغة هندية أوروبية : لأنه لم يبق في الفرنسية من الهندية الأوروبية إلا بعض تفاصيل من البنية مثل المقابلة *il est* « هو يكون » *Ils sont* « هم يكونون » (في النطق *ison, ilé*) أو مثل — ولعل ذلك أدل — صيغ أسماء الغدد أو الضائر الشخصية ، مع بعض المفردات كأسماء القرابة . هذا كل ما بقي في الفرنسية من الهندية الأوروبية . ومن يدري لعلنا نجد فيها أدلة أقوى من تلك تبعث على وصلها بالسامية أو الفينية الأجرية .

وقد يوجد فوق سطح المعمورة لغات هندية أوروبية لا نعرفها ، إذ أنها فقدت كل قرينة تشير إلى أصلها ، وذلك لأنها لا تأريخ لها ، ولأن استعمالها مقصور على أقوام أميين . فإذا ما طبقنا عليها الطريقة الصحيحة لم نستطع الاستدلال على قرابتها للاغريقية أو اللاتينية أو السنسكريتية . ولكن هذه الطريقة تفرض علينا أيضاً أن نقول باستحالة البرهان على عدم وجود قرابة ما بين لغتين من اللغات .

ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك . وذلك أننا إذا أردنا استخدام النظام الصرفي في الاستدلال على القرابة اللغوية ، وجب أن يكون هذا النظام متميزاً قاطعاً في الدلالة وإلا فقد يستحيل الاستدلال . ومن ثم كان لا بد من تحديد القرابة اللغوية على درجات ، وهذه الدرجات لا ترجع إلى الصلات التاريخية التي بين اللغات ، وإنما ترجع فقط إلى درجة تميز البنية الصرفية . فهناك لغات معقدة النحو ، فيها متاع عديد من دوال النسبة المتنوعة ومميزات الفصائل والواحق التي ترتبط كل واحدة منها بمكان معين والتي تطبع الجملة بسلسلة من الخصائص المميزة ؛ ومن هذا القبيل لغات المجموعة البنطية . ومثل هذه اللغات تتطلب مجهوداً شاقاً ممن ينبغي إجادتها ؛ ولكنها تمتاز بخصائص صرفية واضحة المعالم . فإذا صادفنا في كل مكان على وجه البسيطة لغة تحتوي بنيتها على نفس الخصائص الصرفية وتستخدم وسائل الإلصاق والتصنيف بعينها أو وسائل أخرى يرجع اختلافها عنها إلى تغيرات صوتية طبيعية ، كان لنا الحق في أن نقرر انتساب هذه اللغة إلى العائلة البنطية وأن نستخدمها في النحو المقارن لهذه المجموعة اللغوية .

غير أنه توجد من جهة أخرى ، لغات لا نحو لها ، ينحصر نظامها الصرفي في وسائل غير ملموسة ، من تركيب كلمات منعزلة . وقد ذكرنا من أمثلة هذا القبيل لغات السودان ولغات الشرق الأقصى . فالخصائص الفردية تكون في هذه الحال أقل وضوحاً ؛ لأن الوسائل التي تقوم على ترتيب الكلمات فضلاً عن كونها أقل تنوعاً من دالّ النسبة الصوتية فإن قيمتها في الدلالة أقل من قيمة هذه الأخيرة . لأنه إذا كان الأمر إنما يدور حول وضع هذه الكلمة أو تلك في مكان ما من الجملة ، كما هي الحال في الإيرلندية التي تضع الفعل على رأس الجملة أو التركية التي تضعه في نهايتها ، فقد يمكن اعتبار هذا الترتيب بصفة عامة نتيجة لتأثيرات آلية بعضها صرفي ، ومن ثم يمكن تفسيرها بحالة اللغة العامة . أما إذا كان الأمر يتعلق باتجاه عام يخضع مكان الكلمات إلى الروابط التي توجد بين الأفكار المراد التعبير عنها ، كما هي الحال في الصينية ، كان هذا الاتجاه موسوماً بشيء من العقلية والإطلاق يجعله ممتعاً جداً في نظر من يسعى إلى تكوين نظرية عامة وإنسانية عن كليات العقل . ولكنه لا يساعد العالم اللغوي المؤرخ الذي يحاول أن يستخلص من لغة ما التفاصيل الخاصة التي تفصلها عن غيرها . وفي الوقت نفسه يستحيل تحديد القرابة اللغوية في مثل هذه الحالة المتطرفة ؛ إذ يرى الباحث نفسه مضطراً في تحديدها إلى التعويل على المفردات ، وهي كما رأينا خطة مخوفة بالأخطار . فالصينية تقول مثلاً wôo pu pha tha وترجمته الحرفية بالفرنسية هي : moi pas craindre lui (بالعربية : أنا لا خوف هو) ، وهي فرنسية من نوع خاص تسمى فرنسية « الزنجي الصغير » le français petit — nègre . ولكننا نعرف من سكان إفريقية الغربية الأصليين من يتكلمون الفرنسية دائماً على هذه الصورة .. فلو أنهم تكلموا الصينية لتكلموها بهذه الطريقة عينها ، دون اختلاف الهم في إلا في استعمالهم لكلمات أخرى ، أي في حالتنا تلك في استعمالهم لأصوات أخرى . ففي « لغة الزنجي الصغير » قد تختلف المفردات فتكون فرنسية أو صينية مثلاً ، ولكن الصورة الكلامية فيها واحدة دائماً لا تختلف ، ولذلك

لا نستطيع أن نميز فيها طريقة التفكير الفرنسية عن طريقة التفكير الصينية . كيف نعمل إذن عندما نريد أن نصنف في عائلات بعض اللغات التي تكاد تخلو من النحو كاللغات التي أشرنا إليها ، ولا سيما إذا كانت مفرداتها قد تغيرت بفعل الأحداث الخارجية ؟ وهذه هي الحال مثلاً في لغات إفريقية الغربية المشار إليها التي تتنوع مفرداتها إلى أقصى حد بفعل الظروف التاريخية والتي تتفق كلها من حيث الفقر النحوي أو تكاد^(١) . فلما كنا لا نعرف الحالات السابقة لهذه اللغات ولا نعلم من تاريخها ما يتجاوز خمسين عاماً ، لم يكن في وسعنا تحديد أصل مفرداتها ولا تكوينها . إذ لا يوجد لدينا في هذه الحال أية وسيلة لتصنيف هذه اللغات في أسرات ؛ أو إذا أقدمنا على تصنيفها كان عملنا ينقصه كثير من التحقيق والتدقيق . فنحن هنا ضحايا لانعدام الوثائق ، وضحايا أيضاً لطريقتنا التي تحرم علينا أن نطلب إلى فروع المعرفة الأخرى ما نستعير به عن نقص الوسائل اللغوية .

يجب أن نستخلص من هذه الاعتبارات أن التدليل على القرابة اللغوية شيء نسبي . ويتوقف أولاً وقبل كل شيء على وفرة الأدلة اللغوية التي تكون ، بعد أن أن يشهد لها التاريخ السياسي أو الاجتماعي ، مجموعة لها قيمتها من البراهين ، ولكن هذا الاستدلال في حالة اللغات المجهولة التاريخ يتوقف أيضاً على ثراء القواعد النحوية وتنوعها ؛ وأخيراً كثيراً ما تضطرب القرابة في داخل الأسرة الواحدة من جراء تأثير اللهجات بعضها على بعض .

قد يجيب بعض النظريين من علماء اللغة بأن هذا أمر ضئيل الأهمية . لأن القرابة اللغوية في نظرهم موجودة بصفة مطلقة ، بغض النظر عن كل استدلال . ويرجعون ذلك إلى شعور الأفراد وإرادتهم في أن يتكلموا لغة آبائهم . والواقع أن مبدأ الشعور بالاستمرار اللغوي هذا يكفي في معظم الحالات في تقرير وجود القرابة اللغوية في حد ذاتها . ولكن لا يمكننا أن نقطع باستحالة وقوع خطأ من جانب المتكلمين : لأننا إذا سلمنا بقيام الخلاسية التي تدمج خصائص لغتين مختلفتين

لتخرج منها لغة واحدة ، فقد يصادف أن ينتقل التكلمون من نظم لغوى إلى آخر بصورة غير محسوسة . وبذلك يغير الجيل الجديد لغته دون إدراك منه . وهذه بالطبع حالة قصوى لا يمكن عادة أن تقع بين أمم متحضرة ، ولكنها غير مستحيلة الوقوع فى بعض الظروف اللغوية والاجتماعية . فلا يمكننا هنا أن نغض النظر عنها . ويجب أن نعترف بسوء أثرها على القرابة اللغوية . إذ أنها لا تعمل على جعل الاستدلال على القرابة مستحيلا فحسب ، بل أيضاً تؤدي إلى طمس معالم هذه القرابة واختفائها .

من حسن الحظ أن معظم لغات الأرض ، ولا سيما اللغات الثابتة التاريخ ، قد أمكن تحديد قرابتها بدقة مذهشة ؛ حيث نجح العلماء فى تكوين عائلات لغوية كبيرة ، كالهندية الأوروبية^(١) والسامية^(٢) والفينية الأجرية^(٣) والبنطية^(٤) والملايوية اليولينية^(٥) ، الخ . نعم قد تكون صلات القرابة داخل كل أسرة موضعاً للجدل من جهة التفاصيل فى بعض الأحيان ، ولكن المبدأ الذى تقوم عليه لا يقبل الريب . وليس من شك فى أن تقدم الفيلولوجيا المقارنة سيؤدى إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التكوين .

(١) برنجان Brugmann ودلبروك Delbrück رقم ١٥٠ ؛ ميهيه ؛ رقم ٩٤ ،

(٢) بروكلمان ؛ رقم ١٤٨ ،

(٣) شينيه Szinyei ؛ رقم ٢١٢ .

(٤) مينهوف Meinhof ؛ رقم ١٧٩ .

(٥) برند شتتر Brandstetter : Monographien zur indonesischen

Sprachforschung ، لومرن ١٩٠٦ وما يليها . فارن أيضاً ج. فران G Ferrand رقم ٧١ .

الجزء الخامس

الكتابة

الفصل الأول

أصل الكتابة وتطورها ^(١)

إذا كانت مسألة أصل اللغة لا تنطوي على حل مرض ، فإن الأمر على خلاف ذلك في مسألة أصل الكتابة . لأن هذه الأخيرة يمكن مواجهتها بطريق مباشر وفي وسع الباحث أن يحيط ويلم بها في مجموعها . وذلك لأن أصل الكتابة قريب منا نسبياً . ولم نعرف لنا اللغات القديمة إلا منذ سجلتها الكتابة ؛ ولكننا نعرف الكثير منها منذ تلك اللحظة عينها ؛ وكثيراً ما يكون أول نص منها يقع تحت أيدينا هو أول النصوص التي سجلته الكتابة . ولدينا من جهة أخرى لغات لم تكتب إلا في أيامنا هذه ، بل وتحت أبصارنا . ومن ثم كان في وسعنا أن نضع يدنا على الوسائل التي بواسطتها تصير اللغة المتكلمة لغة مكتوبة ؛ وهي في عنقوان حياتها ، وأن نقدر نتائج عملها .

ونع ذلك يجب علينا لفهم مسألة أصل الكتابة ، أن نتخلص من عوائدنا العقلية بوصفنا قوماً متحضرين . فالذي في ذهننا هو أن القيمة الرضوية للكتابة

(١) راجع عامة ف . برجي Ph.Berger : رقم ٤٨ ؛ ودنتزل Dantzel : رقم ١٥١ ؛ وليفى بريل : رقم ٨٨ ؛ والفصل الأخير من كتاب : تاريخ شعوب الشرق لمسيرو . وعن الوسائل المادية التي أدت إلى خلق الكتابة واستكمالها ، انظر الفصل الخاص بتصوير الفكر في كتاب دي مورجان De Morgan : البشرية قبل التاريخ ، ص ٢٧١ وما يليها ، الذي يكمل بنصه وصوره التوضيحية محتويات فصل الكتابة الذي نحن بصددده .

أمر طبيعي . إذ لا يلزم لأطفالنا إلا بعض المرات وشيء من التفكير ليفهموا أن ما يرونه مكتوباً بالمداد الأسود على الورق الأبيض ليس إلا صورة الكلمات التي تسمعها آذانهم . ولا يمر بهم وقت طويل حتى يتعودوا هذه الرياضة النفسية التي تنحصر في التوفيق بين الرسم والصوت وفي الجمع في دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية . والزمن الذي قضيناه في طفولتنا لإخضاع عقولنا لهذه الرياضة كان من القصر بحيث لم يبق منه شيء في ذاكرتنا . فالفكرة التي في أذهاننا عن اللغة المكتوبة ، قد حصلناها دون مجهود ، وبصورة قريبة من الطبيعة .

ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه الفكرة ليست طبيعية بالنسبة للإنسان . فنحن نجني ثمار التحسسات العقلية التي قام بها أسلافنا الغابرون ؛ فهم الذين سهّلوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا . فإما أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود في تمرين الدماغ الذي ورثونا إياه ، تمريناً جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين !

* * *

نحن نعرف أن بني الإنسان بدءوا بكتابة الأفكار قبل أن يكتبوا الكلمات . لأن الصورة استعملت في أول الأمر علامة للأشياء . ولكنهم لم يعثروا على هذا الاستعمال نفسه من أول لفظة : لأنه يستلزم كون الإنسان قد أدرك القيمة العقلية للعلامة الكتابية . ولكننا نعرف أن بعض المتوحشين لا يزالون حتى يومنا هذا يحددون توحيداً تاماً بين الصورة والشيء . وهذا التوحيد الذي يبدو لنا غريباً لا يرجع إلى خداع أو إلى خلط فاحش ، بل يرجع إلى أن المتوحش يدرك جميع الأشياء ، سواء في ذلك المواد وصورها ، بصورة غيبية . ففي غيبته يتكون العالم الخارجي من سلسلة من الظواهر مزودة بصفات خفية ، وليست الصفات المتبادلة بينها مما يخضع للتناقض . وكأن نشاطه هو مشتبك بسدى العالم الخارجي . فلا يقوم بفعل دون أن يكون له أثره في الكون المرئي وغير المرئي . وما نسميه بالخرافة — وهي تنحصر في إعطاء أتفه الأحداث معنى غيبياً وفي إيجاد صلة خفية

بين أشد الحوادث اختلافاً — هي الحالة العادية لعقل المتوحش . وذلك على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لاستعمال العلامات .

لنفترض أن متحضراً علم طريقه بفصن شجرة أو خط صليباً على الرمال أو فوق صخرة ما . فإنه في هذه الحالة يكون مسوقاً يباعث عقلي محض ، كأنه يقصد إلى العثور على طريقه عند العودة أو إلى إعطاء إشارة ما إلى زملاء له يتبعونه . أما في ذهن المتوحش فإن مجرد رسم علامة ما يؤدي إلى تعقيدات غيبية ويوحى ببواعث مختلفة كل الاختلاف . فإذا ترك غصناً في طريقه مثلاً ، فذلك لتملك الأرض التي يطرؤها أو لإفساد سحر ومنع تأثيره أو لاجتذاب روح أو إقصائها أو لتضليل عدو خفي بسد طريقه عليه ، أو لإعطائه وسيلة يستفيد منها في الإضرار بك ؛ وبالاختصار يرى في هذا العمل حدثاً كبيراً يؤدي إلى نتائج حسنة أو سيئة ذات أصداء واسعة في هذا الكون الفسيح .

كذلك صورة الحمار أو صورة الكلب لا توظف في أذهاننا بوصفنا متحضرين إلا فكرة الحمار أو الكلب دون شيء سواها . ولكنها بالنسبة للمتوحشين هي الحمار بعينه أو الكلب بعينه . فإذا كانت الصورة تمثل حيواناً ضاراً أو عدواً عادياً بدل أن تمثل كائناً لا ضرر منه فما أثقل النتائج التي تؤدي إليها ! عندئذ يجري على لغة العلامات جميع الأحداث السحرية التي للغة التكلمة ، من تحريم ومن كنهايات مثلاً . فيصير من الخطر أن يرسم نمر أو فرس من أفراس البحر بقدر ما يكون من الخطر في تسميتها ، لأن الصورة كالاسم تكون جزءاً من ميدان الوجود الغيبي^(١) . وقد تدفعهم عاطفة مضادة لتلك ، ولكنها من أصل غيبي أيضاً ، إلى أن يعمدوا بمعرفة تصوير العدو أو الحيوان المخوف لاستمالته والتلطيف منه أو لاتخاذ حليفاً ثميناً . فترى بعض المتوحشين يرسمون على أسلحتهم ثعباناً أو يبرأ معتقدين أن هذا الحيوان أو ذاك يخلع على المادة التي يرسم عليها جزءاً من قدرته . فما دام الرمح أو الطرس قد زينا على هذا النحو فقد اكتسب قوة سحرية : فالبير مثلاً يهبهما القوة والثعبان يمنحهما المكر الذي يفسد حيل الأعداء . وبهذه

(١) دانتزل : رقم ١٥١ ، ص ٦٧ و ص ٧٢ — ٧٣ .

الطريقة تتكون مجموعة كاملة من الأحجية والتأمم التي تترجم بواسطة الصور الرمزية عن إدراكات المتوحشين الغيبية .

من المبالغة الواضحة أن نحصر نشاط البدائيين العقلي في مثل هذه الحدود الضيقة . فلنترك له إذن شيئاً من السعة ولنسلم بأنه في بعض الأحيان ينفذ عن نفسه نير المشاغل الغيبية . فقد تكون العلامة عندهم أيضاً نوعاً من الانعكاس الخارجى تشهد بحاجتهم للشعورية إلى إظهار ما فى باطنهم ، إلى إبراز نفسيتهم . ومن هذا القبيل مثلاً ذلك العبث التافه الذى يقوم به العابر عندما يحفر اسمه على الجدران بسن مبراته ، أو تلك الحركة التي يقوم بها المتنزه ، وقد أتملته الشمس والهواء الطلق ، عند ما يقرع جزوع الأشجار بطرف هراوته فيسقط براعمها . بل لنسلم للبدائى بقابليته للمتع الفنية . ولم لا ؟ فالرسوم التي خطتها على عظام الرنة أيدي أناس من عصر المغارات يذكرنا كمالها التام بفناني اليابان . فلنأ أن نفخر بعمل هؤلاء الأسلاف الغابرين الذين سبقوا أوتامارو Outamaro وهكساي Hoksai بآماد وآماد ؟ فلماذا ننفي عنهم إحساسهم باللذة عند ما قاموا بهذا العمل لا لشيء إلا لشعورهم بالارتياح لما هو جميل ؟ فنعندما نريد أن نحلل بدقة منابع النشاط العقلي عند البدائيين ، يجب علينا بالارباب ألا نسقط من حسابنا الأفعال التفكيرية والبواعث الفنية . ولكن هذا لا يمنع من وجود اختلاف جوهرى بين البدائى والمتحضر . فقد يجوز لهذا الأخير أن يحيد عن القواعد التي يفرضها العقل ، ولكنه عند ما يقوب إلى نفسه ويعود إليه توازنه ، فإن عقله يرجع بطبيعة الحال إلى الإدراك المعقول للأشياء ؛ بل إنه لا يدرك حماقته إلا باستعمال عقله . أما البدائى فحالة عقليته الطبيعية هي الحالة الغيبية . فالفنية تحيط بها من كل جانب وتغذيها وتسندها . وحتى عند ما يبدو أنها قد خرجت منها لحظة ما ، فإنها تبقى غائرة فيها بجذور عميقة .

فكرة البدائى عن العلامة تستبعد كل إمكان لكتابة ككتابتنا ، لأن ككتابتنا تقوم على مبدأ عقلى . فتاريخ نشوء الكتابة يفترض إذن كون العقلية المعقولة قد تخلصت من العقلية الغيبية . وهذا لا يقع دفعة واحدة . ولعل نقطة البدء تنحصر

في كون العلامة تحتمل في نفس الوقت تفسيرات عدة وتصلح لغايات كثيرة (١).
فكون العلامة تميمة محملة بالقوى السحرية لا يمنع من كونها صورة مادية لأحد
الأشياء وأنها تظهر أمام العقل على هذا النحو . وفي هذه الحال يمكن أن تستبعد
عن العلامة الخصائص السحرية شيئاً فشيئاً ، وفي هذا إخضاع للتصورات الذاتية
والغيبية للتصورات الموضوعية والمعقولة ، وأخيراً الاستماضة بهذه عن تلك .

فأُس البر المحفور على خشب الرمح قد وضع عليه حقاً ليزوده بقوة سحرية ؛
ولكنه في الوقت نفسه يتيح لمصاحب السلاح أن يتعرف سلاحه ، إذا كانت
أسلحة الجيران لا تحمل هذه العلامة ؛ وبذلك يصبح الرأس علامة الملكية .
وغصن الشجرة الملقى في الطريق لغاية سحرية يمكن أن يكون مفيداً في تعليم
الطريق ، فيصير عند اللزوم علامة للتذكرة . من ذلك نرى أن الحدث الغيبي
يدخل فيه عنصر معقول يتدرج فيه نحو الغلبة شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بالسيادة .
ومن ثم كان أولئك الذين يرون في علامات الملكية وإشارات التذكرة مبدأ
الكتابة على حق في رأيهم (٢) .

ولكننا في حالة العلامات التذكارية لسنا من الكتابة إلا في منتصف الطريق
لأنها إذا كانت تستخدم لتمثيل بعض صور الفكر ، فإنها لا تعبر عن الفكر نفسه
مطلقاً . ولدينا مثل شهير على ذلك في عصي الرسل « stick messages » المستعملة
عند الاستراليين . فهذه العصي المغطاة بالحزوز تستخدم في إبلاغ تعاليم وأوامر ،
وأحياناً في إبلاغ سلاسل من الأوامر على جانب كبير من التعقيد . ولكن
لا يستطيع تفسيرها إلا العارفون . فعصا الرسول لا يمكن فهمها دون الرسول
نفسه . ونهى أولاً وقبل كل شيء وسيلة يتخذها المرسل لمنع الخطأ والخيانة . فهي
بمثابة مرشد ومعين للذاكرة . إذ أن تركيب هذه الحزوز يقدم خطة رياضية
مصورة للرسالة التي يجب أن تؤدي ، وهيكل عظمياً للحديث . فهي تشير إلى

(١) دنتزل : رقم ١٥١ ، ص ٤٨ .

(٢) ١ . فان جنپ : مجلة التقاليد الشعبية (١٩٠٦) ، ص ٧٣ — ٧٨ ؛ ورقم ٧٤

السلسلة الثانية ، مارس ١٩٠٩ .

عدد الأفكار وإلى تسلسلها بعضها من بعض ؛ ولكن الأفكار نفسها غير موجودة فيها .

الأفكار غير موجودة فيها بالنسبة لكثيرين من الناس على الأقل ؛ إذ يمكننا أن نتصور دون عناء أن يقوم بين المتراسلين اتفاق سرى لا يعلم به حتى الرسول نفسه ، وبمقتضاه يمثل كل حزة فكرة معينة . وفي هذه الحال نكون أمام كتابة حقة ، كتابة بدائية محدودة الوسائل ، ولكنها تسمح بإبصال فكرة بين شخصين في صورة مادية ، وهذا على وجه التقريب هو تعريف الكتابة .

ومن هذه الفصيلة ، فصيلة « عصي الرسل » ما يسمى بالكپوات البيروية *quippos des Pruviens* والومپومات الإيروكوية *Wampums des Iroquois* . والقراء يعرفون ما يراد بهذين المصطلحين . فالكپوات حبال مصنوعة من خيوط الصوف المختلف الألوان تعقد عليها في أبعاد مختلفة عقد على جانب كبير من التعقيد . فإذا ما رُكبت ألوان هذه الحبال مع سُمك العقد ومواضعها وجمعت كل الحبال بعضها مع بعض بطريقة متفق عليها ، أمكن الحصول على وسيلة لتمثيل الأفكار تمثيلاً رمزياً ، وليبيان تسلسلها بعضها من بعض . هذه الكپوات قد لعبت دوراً هاماً في « خطابات إحدى البيرويات » لدام دي جرافيني ؛ لذلك كان لها الحق في أن تحتل مكانها بين الآداب الفرنسية . أما الومپومات فهي عقود القواقع المرصوفة بعضها فوق بعض ، وتركيبها يكون أشكالا هندسية . ويقال إن بعضها يشتمل على ما لا يقل عن ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ حبة ، وأطول واحدة عرفت منها تتكون من ٤٩ صفّاً من القواقع . ونلاحظ أن الكپوات والومپومات تستخدم عنصراً جديداً ، وهو اللون الذي يزيد الوسائل تنوعاً ومن ثمّ يساعد على سهولة التعبير .

ومع ذلك فإن الكپوات والومپومات ، مهما بلغت من درجات الكمال ، لم تكن إلا وسائل للتذكّرة . وحتى لو ثبت أنها كانت تستطيع الإيحاء ببعض الأفكار ، فمن غير الممكن تشبيه تركيبها بتركيب أى نظام من نظم الكتابة ؛ لأن هذه النظم تهدف إلى التعبير عن جميع الأفكار . والذي منع من تطور كتابة مشتقة من الكپوات والومپومات إنما هي المادة التي تكوّنهما . فهي لا تحتل

أى استكمال من الوجهة العملية . ويؤكد بعض المؤلفين أن الكپوات على الأقل، تستطيع أن تنجح فى تكوين مركبات أبجدية ؛ ولكن من المحقق أنهم يقصدون محاولات متأخرة عملت قياساً على الأبجدية الأوربية . وعلى هذا النحو أنشئت فى إيرلندة الأبجدية الإوجامية على نسق الأبجدية اللاتينية وذلك بواسطة حزوز تحفر على حواف أحجار مرفوعة . ولكن مثل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل المحقق . أما الكتابة فقد تدرجت فى طريق آخر . وابتدأت من الصورة التى تجعل العين تحس بفكرة الشيء ، ولا سيما الصورة المرسومة على الحجر أو الصلصال أو على لحاء السحر أو الرق .

اليوم الذى فيه اعتبرت العلامة تمثيلاً موضوعياً هو يوم ميلاد الكتابة . فيمكننا أن نقول بأن أول نقش إغريقى هو المجذاف الذى نصبه أوليس على قبر الپينور Elpénor (الأودسة ١١ / ٧٧ و ١٢ / ٢٥) فهذا المجذاف قد نصب لتعريف المارة بمهنة المتوفى ، على نحو ما تشير لافتات الحوانيت عندنا وما هو من قبيلها إلى نوع التجارة وصفة السلع ، وكما تشير لوحات النذور التى تعلق فى الكنائس على بواعث عرفان أصحابها ؛ فهذا المجذاف كان شعاراً . وقد استخدمت الإنسانية زمناً طويلاً هذا النوع من اللغة الشعرية حتى فى العهود التاريخية إلى أن صرنا لا نرى فيها إلا نوعاً من الدلالة الرمزية . تشهد بذلك تلك الرسالة التى يقول هيرودوت (ج ٤ ص ١٣١) بأن السيتين بعثوا بها إلى دارا والتى كانت تتكون من طائر وفأر وضفدعة وخمسة سهام . فقد كان ذلك إعلاناً مصوراً أمكن للحكيم جبرياس Gabryas أن يفسر معناه .

وقد خطا الإنسان خطوة شاسعة نحو الأمام عندما عرف يرسم ويتخذ من الصورة شعاراً للشيء فقد استطاع بتركيبه لسلسلة من الصور أن يصور حديثاً متماسكاً متتابعاً . ولدينا بعض هذه الصور المتكلمة فى النقوش المصورة التى اكتشفت على صخور اسكنديناوة والتى ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ ، ونجد منها أيضاً ما يزال مستعملاً حتى يومنا هذا بين سكان أمريكا البدائيين^(١) . ويشبه

(١) دى مورجان : المؤلف سالف الذكر ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

هذا بعض صور مقاطعة الإيپنال Epinal ؛ ويمكننا أن نأخذ عن هذا النوع من الكتابة فكرة خيراً من كل ماتقدم إذا تصورنا حادثة يومية نراها تعرض في السينما بدلاً من أن نقرأها في صحيفة .

من هذا كله نشأت الكتابة التصويرية idéographique ، وهي أول كتابة نعرفها وإليها ترجع جميع نظم الكتابة المستعملة بين بنى الإنسان . وتنحصر في تمثيل كل فكرة أو كل شيء بعلامة مساوية . ويمكننا أن نكون فكرة عما كانت عليه في بدايتها بفضل ثلاث كتابات نعرفها الآن معرفة تامة ، وهي الكتابة الصينية والكتابة المسارية والكتابة الهيروغليفية . ولكن ينبغي لنا أن ننبه إلى أن هذه الكتابات الثلاث جميعها لم تبق تصويرية محضة ، وأن تصوير الفكرة أو الشيء لا يلعب في أقدم ما نعرفه فيها إلا دوراً محصوراً ، ذلك بأن التصوير فيه وجوه كثيرة من القصور ويترك للعقل مجالاً شاسعاً للتكميل .

ولو فرضنا أن جميع الأفكار في لغة ما قد زودت اليوم بعلامات مساوية متميزة وهو ما لا يمكن تحقيقه عملياً فإن هذا النظام المعتقد يصبح قاصراً في الغد ، لأنه يتعذر عليه أن يصور جميع ألوان الفكر الدقيقة التي لا تحدد وأن يتبع تطورها الدائم . فالكتابة التصويرية عندما تستقر وتثبت نهائياً تصبح ثوباً جامداً يسجن الفكر بين جوانبه ، فلا يتوانى الفكر عن تحطيم العقبة وجعل حطامها غير صالحة للاستعمال . مثل هذه الكتابة لا تصلح على أحسن الحالات إلا لعلم من علوم الباطنية قد حديد على صورة لا يراد له التحول عنها قيد أنملة ؛ لهذه الكتابة أن تكون نوعاً من الرموز الجبرية لأعمال المعامل ، ولكنها لا تستطيع بأية حال أن تكون أداة لتبسيط المعرفة وتعميمها ولا للتربية الشعبية ولا للتقدم الاجتماعى . والكتابة الصينية أو الهيروغليفية من خير الأمثلة على ما نقول ، فتحن نعرف مقدار ما يوجه إليهما من نقد على الرغم مما تناولهما من إصلاح .

لعل المزية الوحيدة التي تستطيع الكتابة التصويرية أن تفخر بها ، هي أن قراءتها في متناول أناس يتكلمون لغات مختلفة . فقانون الإشارات الملاحية يقرؤه جميع الملاحين بطريقة واحدة وإن فهموه بلغات مختلفة . والكتابة

التصويرية ، وهي تمثل الأفكار لا الأصوات ، لها نفس الميزات التي لقانون الإشارات . وذلك أنها تسقط وساطة الكلام وتصور لغة التفكير لا لغة الكلام . ومن اليسير أن نبين تفاهة هذه الميزة . فقانون الإشارات لا يطبق بطبيعة وضعه إلا على عدد محصور من المعاني المهنية المحددة ، أى التي لا يعترىها التغيير ، ويمكن اعداد من الناس ذوى المهنة الواحدة أن يصطلحوا عليها بسهولة ؛ ولكن هذا القانون لا يمكن تعميمه بحال . ولأجل أن يكون للكتابة التصويرية قيمة عامة ، يجب ألا تتكون إلا من علامات يمكن لكل إنسان قادر على التفكير أن يدركها على الفور . وهذا سراب خداع لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالنسبة للمعاني الشخصية ، كمعاني الطائر والقلم والثور والعين والشمس . ولكن صعوبته تبدأ عندما يدور الأمر حول المعاني المجردة . لأننا إذا رمزنا لهذه المعاني بصور تحكمية ، رأينا أنفسنا نبتعد عن مبدأ الكتابة التصويرية ؛ وإذا استخدمنا فى ذلك صور الأشياء الشخصية ، بأن نتخذ مثلاً من القلم رمزاً للعدالة ومن الثور رمزاً للغنى ومن العين رمزاً لسلطة الملكية ، كنا قد أوجدنا على الفور ما يوقع القارئ فى اللبس .

وماذا يكون الحال بالنسبة للمعاني النحوية ، والكتابة التصويرية لا تملك وسيلة التعبير عنها ؟ نعم ، قد يمكن لبعض اللغات ألا تتأثر بهذا النقص الخطير ، وهى اللغات عديمة التصريف . فإذا كانت الروابط النحوية تنحصر فى ترتيب الكلمات ، أمكن للكتابة التصويرية أن تعبر عن النحو . إذ يمكننا أن نتصور بسهولة وجود علامة لكل من فكرة أنا ، وإرادة ، وأكل ، ولحم ؛ وفى هذه الحال يمكن للكتابة التصويرية أن تصور بسهولة جملة قصيرة مما يسمى لغة الزنجى الصغير على هذا النحو : أنا إرادة أكل لحم «moi vouloir manger viande» . إذ لا يلزم حينئذ إلا تحديد الترتيب الذى يجب أن تقرأ عليه علامات هذه الكتابة ، لأن النظام الصرفى فى هذه الحال ينحصر كما قلنا فى ترتيب الكلمات . ولكن ذلك لا يذهب بنا بعيداً ، لأن اللغة مهما تجردت من النحو ، فإنها تحتوى على معانٍ نحوية أولية لا يمكن للكتابة التصويرية أن تعبر عنها بصورة طبيعية ؛ مثل التمييز بين الفرد والجنس وبين الاسم والفعل والدلالة على زمن الفعل وصفته وعلى النفي ،

الخ . فإذا صورنا هذه المعاني بعلامة خاصة تضاف إلى علامة الفكرة ، كالأسّ يضاف إلى الحرف الجبرى ، كنا قد أدخلنا في هذه الكتابة مبدأً جديداً ، هو مبدأ التفريق بين العلامات الفارغة والعلامات المليئة . وبذلك تتعقد الكتابة التصويرية باتباعها نظامين مختلفين ، لأننا إما أن نضيف إلى العلامة الدالة على الفكرة معالم خاصة تشير إلى القيمة الصرفية ؛ وفي هذه الحال يكون عندنا نوع من الصور تتغير أشكالها تبعاً للاستعمال الذى تتخذه في الجملة الكلمة التى تشير إليها هذه الصور والتى يضاف إليها عناصر جديدة ، وهذا يعقد الصور ويجعلها لا تنتهى عدداً فتصير الكتابة غير قابلة للاستعمال . وإما أن تتبع الصورة الأساسية بعلامة أو يبضع علامات يشار بها إلى القيمة النحوية . ووجه الصعوبة في ذلك يرجع إلى وجوب استعمال علامات عديدة يضاف بعضها إلى بعض للتعبير عن معنى واحد . والطريقة الأولى أنسب للغات ذات المقطع الواحد ، والواقع أنها تستعمل بالفعل في كتابة لغات الشرق الأقصى كالصينية . ولكن الحقيقة أنها حتى في الصينية تمزج بالطريقة الثانية . وذلك لأنه من الميسر حقاً أن نكتب لغة لا نراعى فيها إلا مبدأ التصوير .

لا توجد كتابة تصويرية واحدة قد بقيت على ما هى عليه . ولعل ذلك يرجع إلى قصور هذه الكتابة قصوراً بيناً ؛ ولكنه يرجع كذلك إلى ذلك التطور الضرورى الذى جعل من اللغة المكتوبة وسيطاً طبيعياً بين لغة التفكير ولغة الكلام . العقل في متناوله وسائل متنوعة للترجمة عن التفكير ؛ فكان لديه الإشارة والصوت ؛ ثم خلق الصورة بعد ذلك . سمحت له هذه الوسائل باستعمال العلامات الاصطلاحية التى كانت تطبق من قبل — بشيء من التحوير — على حالات مختلفة ، ولكنها كانت تتداخل في غالب الأحيان . ولعل مرجع ذلك إلى أنه كانت توجد حالات تستطيع الإشارة فيها أن تعبر عن الفكرة خيراً من الصوت ، وعن الصوت خيراً من الصورة . ومع ذلك فلم تلبث القيمة الرمزية للصوت أن تنجح في أن تصحب القيمة الرمزية للصورة على وجه العموم وأن تحل محلها عند الحاجة ؛

حتى أصبحت الصورة والصوت بديلين متبادلين . وعندما وصلا إلى درجة التعادل ، أمكن للعقل أن ينظر إلى الصورة على أنها شعار الصوت ، ثم على أنها أداة لتثبيته بالكتابة . وعندما صار اسم الشيء بدوره مرتبطاً بالشيء ، انتهى أيضاً بأن صار مرتبطاً بالصورة التي أيقظت فكرة هذا الشيء . فالعلامة التي كانت تمثل الشيء صارت أيضاً علامة الصوت الذي يعبر عن هذا الشيء . وبهذا نشأت الكتابة الصوتية .

لنفرض أن لدينا علامة كتابية ، وأن هذه العلامة الكتابية صورة خنزير ، وأنها لم تكن تدل في الأصل إلا على « الخنزير » (بالفرنسية porc پُور) . فلما كانت هذه العلامة تقرأ (پُور) ، فإنها قد تنتهي بتمثيل الاسم الذي يحمله هذا الحيوان في الفرنسية (پور) لا تمثيل الحيوان نفسه ، وبالتالي بتمثيل الصوت الذي يكون هذا الاسم . ومن ثم فقد تستعمل في الكتابة الصوتية لكل كلمة تتكون من هذا الصوت ، فتستعمل لكتابة الصوت « پور por » دون أى اعتبار آخر ، سواء أكان ذلك للدلالة على الخنزير porc أم على الميناء port. أم على ثقب البشرة pores ؛ بل أكثر من ذلك قد تستعمل في الكلمات التي تتكون من عدة مقاطع للدلالة على هذا المقطع (پُور) بصفة عامة ودون اعتبار للمعنى ؛ فنراها تدخل في كتابة « trans (por) ter » (ينقل) و « col (por) teur » (بائع متجول) و « (por) nographie » (صورة مخلة بالآداب) ، الخ . وهذه هي الطريقة التي تستخدم في المجتمعات التي تعقد للتسلية ؛ فإذا أريد مثلاً الدلالة على معنى كلمة « مألوف » رسمت صورة الماء وصورة لكوز من اللوف .

ولكن هذا الذي يعتبر تسلية . وهوى تحكيمياً في هذا النوع من اللعب ، ليس في الكتابة التصويرية إلا اصطلاحاً محدداً بقواعد صارمة . ومع ذلك فإن في هذه الكتابة وجهين من النقص خطيرين . وذلك أن عدد العلامات في مثل هذه الكتابة لا يمكن إلا أن يكون محدوداً للأسباب التي ذكرناها آنفاً ، في حين أن عدد الأفكار لا يمكن أن يحد . فعدد الأفكار يتجاوز بالضرورة عدد العلامات ، لذلك يجب أن يصطلح على الدلالة بالعلامة الواحدة على أفكار عديدة . والمعناد في هذه

الحالة إلا يجمع تحت العلامة الواحدة إلا الأفكار المتجاورة ، مجازية كانت أو حقيقية . لذلك نرى الكتابة المسماة لا تشير بالقرص إلى الشمس فحسب ، بل أيضاً إلى النور والبريق والبياض والنهار ؛ وفي الكتابة الهيروغليفية تشير العين أيضاً إلى النظر والسهر والعلم . ولما كان يُدل على كل واحدة من هذه الأفكار في الكلام بصوت يخالف الصوت الذى يدل به على الأخرى ، أصبح للعلامة من القيم الصوتية الجديدة بقدر ما تدل عليه من أفكار . فقد تمثل العلامة الواحدة في الكتابة المسماة خمسة عشر صوتاً أو عشرين صوتاً مختلفاً ؛ وهذا ما يعبر عنه العلماء بقولهم إن العلامة الواحدة متعددة الأصوات Polyphone .

وعلى العكس من ذلك قد يقع في كل اللغات أن يعبر بصوت واحد عن أشياء مختلفة كل الاختلاف . ومن هذا القبيل في الفرنسية الصوت پور porc الذى تكلمنا عنه (por , pore , port) ، وكذلك الصوت vin (vaine , vint , vingt , vin) ، والصوت sin (sein , saint , seing , ceint , cinq) ، الخ . فالكتابة التصويرية تدل بطبيعة الحال على كل واحدة من هذه الكلمات بعلامة مختلفة . أى أنها تدل على الصوت por بثلاث علامات وعلى الصوت vin بخمس علامات وعلى الصوت sin بست علامات . وقد عد العلماء ست عشرة علامة في الكتابة المسماة للدلالة على المقطع تو tou . وهذا ما يعبرون عنه بقولهم ، إن العلامات المتعددة تشترك في التعبير عن صوت واحد ، homophones .

فاشترك عدة علامات في التعبير عن صوت واحد ودلالة العلامة الواحدة على أصوات عدة عيان متضاد أن كان يمكن لتأنيجهما أن تتعادل فيمعحو بعضها بعضاً . وهذا ما يقع في بعض الأحيان . ولكن الأمثلة التى ذكرناها تكفى للدلالة على الصعوبات المستعصية التى اعترضت سبيل القاعين بفك طلاسم هذه الكتابات .^(١)

(١) عن تاريخ فك طلاسم الكتابة الزمرارية ، انظر ميثان : الكتابات المسماة ، باريس ١٨٦٤ ، وأشهر الأسماء التى تذكر في هذا الضدد هي : جروتفند وبيرنوف ولاسن وه . رولينسن وأوپرت . أما فك طلاسم اللغة الهيروغليفية فيرجع الفضل فيه أولاً وقبل كل شيء إلى شامبليون المعروف بالصغير ؛ ويأتي بعده ش . لينرمان ، دى روجيه ، سلفوليني ، ليسوس ، بيرسن ، بروجسن ومسيرو .

لما اتخذ الآشوريون الكتابة السامرية أصلحوا عيوب الدلالة على أصوات عديدة بمعلقة واحدة وذلك باستعمال مكملات صوتية : ففراهم بعد أن يكتبوا الكلمة كتابة تصويرية يعينون نطقها بكتابة المقطع الأخير منها كتابة صوتية ، وهذا المزج بين الكتابة التصويرية والكتابة الصوتية من خصائص الكتابة الآشورية ومن أسباب التعقيد فيها ؛ وقد استلزمه ذلك النقص الأسامي الذي يرجع إلى التعبير عن أصوات مختلفة بعلامة واحدة Polyphonie (١).

واشتراك علامات عدة في التعبير عن صوت واحد يؤدي أيضاً إلى عيب لا يقل خطورة عن العيب السابق . وذلك أنه يقع في حيرة الاختيار بين عدة أفكار يُعبر عنها بصوت واحد . وقد ابتكروا نظام المفاتيح لتلافي هذا العيب . والمفاتيح هي العلامات التكميلية التي تضاف إلى الصور الصوتية لتعين معناها . فبدلاً من أن يدل على النطق الحقيقي للصورة بتكملة صوتية ، يستعمل المفتاح للإشارة إلى المرادف المطلوب من بين جميع المترادفات التي قد ينتج عنها الذهن . ولنرجع إلى المثال السابق لتوضيح ما نقول ، فنفترض أن هناك صورة كتابية تدل على هذا الصوت por (پور) كما هو في الفرنسية : فلكي يؤمن اللبس ، تضاف إلى الصورة علامة خاصة يدل بها على أن المقصود هو الحيوان porc أو الميناء البحري port أو حمل شيء ما port أو انتصاب القامة port أو ثقب من ثقب البشرية pore . فهذه العلامة هي مفتاح اللغز .

والصينية هي التي طبقت هذه الطريقة تطبيقاً منهجياً كاملاً . وقد قلنا بأن الصينية ، وهي لغة لا تصريف فيها ، أكثر اللغات قبولاً للكتابة التصويرية . ولتلافي اللبس الناجم من التعبير بصور مختلفة عن الصوت الواحد ، اخترعت الكتابة الصينية أنواعاً من الأسس تركبها مع الصورة الصوتية لتعين بها معنى الكلمة ؛ هذه الأسس كانت فيما مضى غير محدودة العدد ؛ فقصر عددها في سنة ١٦١٦ على ٢١٤ أس ، واستقر عددها على هذا الوضع منذ ذلك الحين ، ويطلق عليها في الصينية اسم pou أي « أقسام » أو « طبقات » . والواقع أنها مميزات

(١) انظر فوسى Fossey : رقم ٧٢ ، المجلد الأول .

تعبّر على نحو ما عن الأفكار العامة والطبقات الاجتماعية والطبيعية والكماليات العقلية . فعلى هذا النحو تتكون الحروف الصينية من عنصرين : الأولى صورة الفكرة idéogramme التي صارت صورة صوتية phonogramme ، وتعبّر عن الصوت المقطعى الذى يكون الكلمة ؛ والثانى بمثابة مفتاح المشكلة ويعين معنى الكلمة .

اللغات التى من أجلها اخترعت الكتابة السمارية والميروغليفيه أول ما اخترعت ، كانت لغات تصريفية ؛ لذلك لم تنجح فيها إلا بقدر ضئيل تلك الطريقة التى استعملت فى تكميل الكتابة الصينية . ومع ذلك فإن المصريين باختراعهم للمميزات ، قد أوجدوا ما يعادل الأقسام عند الصينيين . فالصورة الميروغليفيه التى تقرأ ankh تدل إما على « الحياة » ، وإما على « الأذن » ، فإذا ما أريد بها أن تدل على هذا المعنى الأخير بالذات صحبت بصورة الأذن التى تؤدى وظيفة الميز . ومن ثم نعتز فى الكتابة المصرية — حتى بعد أن صارت كتابة صوتية محضة — على بعض المميزات المتفرقة التى أبتت التقاليد على استعمالها . أما الكتابة السمارية فلم تخل يوماً — حتى فى أوج انتشارها — من بعض حالات اللبس . ولتسهيلها من الوجهة العملية اضطر أهلها إلى جعلها مقطعية ؛ وعلى هذه الصورة نراها تستعمل فى تسجيل إحدى اللغات الهندية الأوربية ، وهى الفارسية القديمة وذلك فى نقوش دارا . ولكنها على وجه العموم كانت أقصر الكتابات التصويرية عمراً ، وسمارية الأشمينين كانت آخر مثال منها . إذ لم تلبث أن استعيز عنها فى كل مكان بكتابات صوتية ، ولا سيما بالكتابة الآرامية المشتقة من الأبجدية الفينيقية .

أما الأبجدية الفينيقية — نحو ما نراها على شاهد ميسا Mesa القبرى (وهو اليوم فى متحف اللوفر) ذلك الشاهد الذى يرجع إلى ما قبل المسيح بتسعمائة سنة — فإن البعض يعدها صورة مشوهة من الكتابة الميروغليفيه . ولكن هذا التشويه قد وقع بالتدريج على خطوات عدة . وقد بينا فيما سبق كيف يصل التطور الطبيعى بالصورة الفكرية إلى أن تصير صورة صوتية . وقد استقرت بعض الكتابات كالصينية فى منتصف الطريق بين الخطتين بفضل نظام من التراكم العالمية ؛

ولكن الكتابة الميروغليفية كان حتماً عليها أن تصير كتابة صوتية بعد حين ، وخاصة لأنها كانت تستعمل في تسجيل لغة ذات تصاريث .

وأول مرحلة أمكن الوصول إليها في هذا السبيل هي مرحلة المقطعية . وهي مرحلة على جانب من الأهمية لأنها تبرز لنا أهمية المقطع (انظر ص ٨٥) . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن المقطعية كانت من مستلزمات تطور الكتابة التصويرية نفسه . فهذا الأمر يوجد بطبيعته في اللغة الوحيدة المقطع ، إذ أن كل كلمة من كلماتها تتكون من مقطع واحد . أما في اللغات الأخرى فإن الأمر ينتهي إلى نفس النتيجة بسبب أن كل صورة كتابية كانت تستعمل للدلالة على مقطع واحد (هو المقطع الأول على وجه العموم) من الكلمة التي تمثلها تلك الصورة . وهذا هو السبب في أن أسماء الحروف في الأبجدية السامية مثلاً هي بعض أسماء الأشياء المختلفة التي يبدأ اسمها بالحرف المقابل ، وكذلك الحال في الأبجدية الآرامية عند الإرننديين . وفضلاً عن ذلك تمتاز المقطعية بالاختصار : لأنها تسجل السواكن المبدئية للمقاطع بدقة ويمكن أن يكتفى بها على وجه الإجمال بالنسبة للغات التي ليس فيها مجاميع من السواكن والتي يمكن فيها تعيين نغمة الحركة بواسطة اعتبارات صرفية كما هي الحال في اللغات السامية . ومن ثم أمكن لهذه المرحلة الوسطى أن تكون مرحلة نهائية في كثير من الحالات . فلم تلجأ السامية إلى الإشارة إلى الحركات إلا في عصر متأخر ، عندما بدأ يستعمل اللغة أناس لا يعرفونها معرفة تامة .

وجدت المقطعية مكاناً لها في الشرق الأقصى أيضاً . فقد استخرج اليابانيون من الكتابة الصينية الجارية ، بعد محاولات كثيرة لا يعنيها أن تتكلم عنها في هذا المقام ، أبجدية تتكون من سبع وأربعين علامة ويطلقون عليها اسم « كاتا — كانا » (kata — kana) ؛ ولكنهم لا يستعملونها بصفة مطردة ؛ لأن نظام الكتابة الجارية عندهم مرحلة وسطى بين الكتابة الصينية والكتابة المقطعية . أما أهل كوريا فقد اتخذوا كتابة مقطعية من أصل آراي وجعلوا منها كتابتهم الوطنية (انظر أواخر هذا الفصل) .

تعتبر الكتابة القبرصية أيضاً من الكتابات المقطعية ؛ وقد نجح العلماء في فك طلاسمها بفضل استعمالها في تسجيل اللغة الإغريقية^(١)؛ لذلك كان ما لدينا مسجلاً بهذه الكتابة نصوصاً إغريقية على وجه الخصوص . وأصل هذه الكتابة غير معروف ؛ ولكن من المحقق أنها ابتكرت لتسجيل الإغريقية ، وإن كانت لا تسجلها إلى بصورة ناقصة . وقد استعيرت عنها في قبرص نفسها بالإنجليزية الإغريقية .

الأبجدية الحرفية آخر مرحلة في سبيل استكمال الكتابة . وقد أدت إليها الحاجة إلى رقم الحركات دون اضطرار إلى زيادة العلامات التي كانت تكون الأبجدية المقطعية . إذ أخذت الأبجدية المقطعية السامية في وقت من الأوقات تزود برموز لرسم الحركات نسميها *matres lectionis* « علامات الضبط » وذلك لتيسير القراءة . وقد أحسنت الأبجدية الإغريقية استغلال هذه الرموز حتى خلقت منها علامة لكل حركة . وقد كتب رينان أن « الأبجدية الحرفية من خلق الساميين »^(٢) . وهذا محتمل ، ولكن الرأي القديم الذي يؤكد أن الأبجدية الإغريقية من أصل فينيقي قد فترت قوته اليوم عن ذي قبل . فيميل الأستاذ دوسو^(٣) إلى أن يعزو شرف الأبجدية إلى حضارة بحر إيجه ، تلك الحضارة التي تمثلها لنا آثار جزيرة كريت ، وإن كان تمثيلاً سيئاً . فعنده أن الإغريق والفينيقيين على السواء قد أخذوا حضارتهم عن الإيجيين . ولكن الأبجدية الفينيقية على كل حال قد أثرت على الأبجدية الإغريقية كما تبين لنا من اسم الحروف الإغريقية (هذا ، وانظر هيرودوت ٥/٥٨ الذي يسمى الحروف « *φωνηχία γράμματα* ») .

ولم تلبث الأبجدية الإغريقية ، بعد استكمالها على أيدي اليونانيين ، أن انتشرت في كل بلاد الإغريق على وتيرة واحدة . وقد نقل الإغريق الأبجدية إلى جهة الغرب .

(١) عن فك طلاسم النقوش القبرصية انظر بريال ، *Journal des savants* أغسطس وسبتمبر ١٨٧٧ .

(٢) رقم ١١١ ، ص ١١٤ .

(٣) *Les civilisations préhelléniques dans le bassin de la mer Egée* ، ص ٤٣٤ .

ففي إيطاليا انتقلت الأبجدية إلى اللاتينيين وإلى الأترسكتين من كوميس Cumes ، وهي مستعمرة من مستعمرات أوين دى شاليس Eubéens de Chalcis . ودخلت الأبجدية وادي الرون على أثر تأسيس مرسليليا ؛ ولا زلنا نعتز فيه على نقوش جولية مكتوبة بالحروف الإغريقية وترجع إلى بدء التاريخ الميلادي . أما من الناحية الشرقية فإن الآرامية هي التي قامت بدور نشر الأبجدية ؛ وهو دور عظيم تبرره ظروف التاريخ . ولكن التغير الذي طرأ على الكتابة هو الذي ساعد على القيام بهذا الدور . فكما أن استعمال الأوراق البردية والحاجة إلى الإسراع في الكتابة قد أديا إلى تحول الكتابة الهيروغليفية في مصر إلى كتابة هيراطيقية ثم إلى كتابة ديموطيقية ، فإن الكتابة الفينيقية قد أخذت عندما استعملت في الآرامية صورة جارية وعملية ؛ إذ استدارت الزوايا وانحوت رؤوس الحروف ، وصارت الشرط المتطرفة تنتهي بنوع من الذيل يدور حول نفسه . وقد امتدت الأبجدية الآرامية إلى الهند . إذ أن معظم النظم الكتابية المستعملة في آسيا الوسطى مشتقة منها . هذا وقد أمكن لها أن تصل إلى الشرق الأقصى ، فهي التي تكون الكتابة الكورية التي تستعمل حتى اليوم .

الكتابة الحرفية ، وهي آخر مراحل التطور الكتابي ، انتشرت في أوربا ابتداء من التاريخ المسيحي بفضل الإغريق والرومان . والذي يفسر هذا الحادث سبب تاريخي ، وهو انتشار المسيحية . فإن الحواريين الذين لقنوا المسيحية للشعوب الوثنية علموهم أيضاً قراءة النصوص المقدسة ، واضطروهم ذلك إلى تكوين أبجديات على نسق الأبجدية التي كانوا هم أنفسهم يقرءون بها هذه النصوص . ومن ثم اتخذت الأبجدية الإغريقية مثالا للأبجدية القوطية بفضل فلبيلا Wulfila . وللأبجدية السلافية بفضل سيريل Cyrille وميتود Methode . أما الألمانية القديمة والإنجليزية القديمة والإيرلندية القديمة فقد اشتقت كتابتها من الأبجدية اللاتينية . نحن نعرف على وجه العموم الصورة التي تكونت بها هذه الأبجديات المختلفة . فلبيلا مثلاً بدأ بأن أخذ من الأبجدية الإغريقية جميع الحروف التي تعبر عن أصوات موجودة في لغته ، واحتفظ لها بقيمتها . وبالنسبة للأصوات الأخرى

استغل على نحو ما ، الحروف التي بقيت غير مستعملة . فاستعمل الحرف الإغريق (ψ) لكتابة الاحتكاكي الأساني المهموس ، والحرف θ لكتابة الصوت hw . وفي بعض الأحيان اضطر إلى الاستعانة بأبجدية لغات أخرى . إذ لا شك أن حرف F القوطي مستعار من الأبجدية اللاتينية ، وأن العلامتين الدالتين على Y قد استبقيتا من الأبجدية الرونية runique القديمة . ويمكننا أن نجد مثل هذه الحالات في تاريخ كثير من الأبجديات . فالأبجدية الإغريقية تعرفنا أن الإغريق قد استعملوا مثل هذه الحرية عندما طبقوا على لغتهم الكتابة المعروفة بالكتابة الفينيقية .

ومهما يكن من شيء ، فهناك خلاف جوهري بين الأبجديات المشتقة من الإغريقية والأبجديات المشتقة من اللاتينية . فالأولى قد وضعت بدقة تامة وقام بها أشخاص ذوو حسّ مرهف بالروابط الصوتية فأظهروا في تسجيلهم لفروق النطق الدقيقة مهارة فائقة . ومن ثم كانت الأبجدية القوطية التي قام بها فلفيلا Wulfila أداة لا تقة وعلى جانب كبير من الدقة ؛ والأبجدية السلافية التي وضعها سيريل وميتود تعتبر تحفة حقيقية . فإوسع الفرق بينها وبين أبجدية الإنجليزية السكسونية أو الأيرلندية ! فهؤلاء قد ظالوا قروناً طويلة يقتشون عن وسيلة يطبقون بها الأبجدية اللاتينية على لغتهم ، ولكنهم لم ينجحوا قط في مسعاهم .

والحقيقة أن وسائل الأبجدية اللاتينية كانت تقصر على الغرض الذي هدفوا إليه . فالنظام الصوتي لكل من هاتين اللغتين يختلف عنه في اللاتينية أشد اختلاف إذ تحتوى اللاتينية على عدد هام من الأصوات الانفجارية ، مجهورة كانت أو مهموسة ؛ أما الأيرلندية فتمتاز بالأصوات الاحتكاكية ؛ هذا إلى أنها أكثر تنوعاً في الأصوات من اللاتينية . والكتابة الأيرلندية قامت شيئاً فشيئاً ممزقة وعلى فقرات ، تسكونت بعد تحسسات طويلة وبعد سلسلة طويلة متتابعة من الإجراءات الناقصة غير المتصلة : لذلك كان تفسيرها يتطلب دائماً مجهوداً من القارئ . فهي عكس الكتابة القوطية على خط مستقيم ، تلك الكتابة التي نشأت دفعة واحدة وبطريقة منهجية في ذهن مبتكرها . ولكن لا ينبغي لنا من ذلك أن نضيف إلى

هذا المتكرر فضل هذا النجاح كاملا . إذ أن المادة التي كانت موضع دراسته كانت أكثر قبولا للنجاح . فالقوطية كما عرفنا إياها ثولفيليا ، ذات اطراد نحوى جميل ، يكشف عن لغة مشتركة قد سوّيت واستقرت ؛ أما الإيرلندية فكانت على جانب لا يوصف من الفوضى في اللحظة التي حاول فيها أهلها أن يثبتوها بالكتابة.. ويمكننا أن نقرر نفس الشيء بالنسبة للسلافيّة القديمة في مقابلة الألمانية القديمة أو الإنجليزية القديمة .

الفصل الثاني

اللغة المكتوبة والرسم

أحس بنو الإنسان في كل العصور أهمية اللغة المكتوبة . فأرجموا أصل الكتابة إلى الوحي الإلهي . إذ اعتقد العبريون أن موسى تلقاها من ذات الإله ؛ وعزاها المصريون إلى الإله توت (أفلاطون ، فيدروس : ٢٧٤) ؛ ووضع الإغريق اختراع الكتابة في نسق مع ممارسة الزراعة واكتشاف النار ، فرفعوا كدموس Cadmus إلى مرتبة تريبتوليم Triptolème أو بروميتيه Promethée .

ولكن ليس معنى هذا أن الأولين من بنى الإنسان قد صدمتهم فائدة هذا الابتكار ، أو أنهم أحسوا الخدمات التي يمكن أن يؤديها إلى سلاتهم ؛ بل لقد رأوا في الكتابة إجراء غيبياً أثار انتباههم بخصائصه المخوفة . فالكتابة بالنسبة إليهم كانت علماً . والعلم قد أثار دائماً خوف البشر ؛ وهم على حق في ذلك لأنه يسمح لمن يستحوذ عليه بفعل الشر والخير على السواء .

أولئك الذين بدءوا باستعمال الكتابة كانوا يستعملونها في عمليات شبه سحرية . فالكتابة في أصلها كانت طريقة من طرق السحر . وقد احتفظت اللغة المكتوبة بهذه الصفة زمناً طويلاً . فكتابة اسم على قطعة من اللحم أو من إهاب حيوان ، كان معناها إمساك الكاتب لصاحب الاسم تحت تصرفه ، معناها قسره وتقييده ، معناها القدرة على رفعه أو خفضه ، على نجاة أو إهلاكه تبعاً لإرادته . وأول ما يخط من سطور تحتوي على اسم أحد الأشخاص ، كان ضرباً من الرق : تعاويز يقصد بها النجاح أو الشفاء ، الإخضاع أو الإضرار . وإذا كانت الكلمة المملوطة لها قوة سحرية (انظر ص ٢٣٨) فالكلمة المكتوبة من باب أولى . ومن ثم كان الكتاب الأولون من السحرة .

الكتابة والقدر sort لا ينفصلان عند كثير من الشعوب . فالكتابة عند الكلتين والجرمانيين من عالم « الغيب » (بالقوطية runa) ، وهى ضرب من ممارسة السحر^(١) . وقطعة الخشب التى تحفر عليها الحروف كانت تستخدم فى نفس الوقت للأذى السحري . وظل المعنيان مختلطين حتى أيامنا هذه فى مفردات الأيرلنديين والبريتانيين . وكما أن كلمة Buchstabe (ومعناها الحرف : عصا من الزان) تدل على « الحرف » فى الألمانية ، فإن كلمة crann - chur (قذف الخشب) معناها « القدر » فى الإيرلندية ، وكذلك كلمة coel - bren (حرفياً : خشب النبوءة) فى الغالية^(٢) .

وحتى بعد أن تجردت الكتابة من كل صفة سحرية ، ظلت محاطة بهالة من الخوف والاحترام . ذلك أن الناس قد احتفظوا بما للنص المكتوب من خرافة . وقد استغل الدين والقانون هذه العاطفة ليفرضا على أذهاننا النص المكتوب الذى لا يعتره تحويل أو تبديل والحرف الذى يتحدى ما يقتضيه العقل . وزاننا لا تزال نكرر : « هذا مكتوب » أو « لقد كان ذلك مكتوباً » كما لو كنا نشاطر الشرقيين عقليتهم التى تتصور المقدور مسجلاً فى كتاب كبير تطوى منه فى كل يوم صفحة ، هذا على أن أهمية النص المكتوب شئ طبيعى . إذ أن المكتوب يبقى ، على حين تتبدد الألفاظ . والكلمة إذا سجلت عندما تخرج من بين حواجز الأسنان ، استقرت إلى الأبد كأنها وثيقة إثبات ؛ وبعد كل هذا فإن الإنسان يؤخذ « بما كتب » . فالكتابة بعد أن لم تصبح رابطاً سحرياً ، قد بقيت رابطاً على كل حال .

وهكذا نرى أن الاستعمال يتفق مع التقاليد فى تأكيد اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . والواقع أنهما لا يختلطان أبداً . ومن الخطأ أن نظن أن النص المكتوب يعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام . فلسنا ، على عكس ما يتصور كثير

(١) نكل Zur Einführung in die Runenforschung Germ. Rom. : Neckel

Monatschrift ، مجلد ١ ، ١٩٠٩ .

(٢) ج . لوث Le sort et l'écriture chez les Anciens Celtes : J. Loth

(مجلة العلماء ، سبتمبر ١٩١١ ، ص ٤٠٣ وما يليها) .

من الناس ، نكتب كما نتكلم ؛ بل إننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا . وإن أقل الناس ثقافة يشعرون ، بمجرد وضع أيديهم على القلم ، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة ، لها قواعدها واستعمالاتها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها (انظر ص ٣٤٠) . وهذا الشعور له ما يبرره .

اللغة المكتوبة هي الطابع المميز للغات المشتركة . واللغة المشتركة بطبيعتها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة ؛ لأن هذه الأخيرة ، في خضوعها للتأثيرات الفردية ، تميل دائماً إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتضيه اللغة المشتركة . واللغة المكتوبة معرضة بدورها لضربات اللغة المتكلمة ، لأن اللغة المشتركة تعتمد في مقاومتها على الكتابة أولاً وقبل كل شيء . ومن جهة أخرى تستعمل الكتابة في التعبير عن كثير من اللغات الخاصة ، بل لا وجود لبعض هذه اللغات الخاصة إلا في صورة مكتوبة . ولهذا الاعتبار أيضاً كان الخلاف بين الكلام والكتابة أمراً مقررًا ثابتاً .

هذا الخلاف يتجلى في أوضح صورته في مسألة الرسم . فلا يوجد شعب لا يشكو منه إن قليلاً وإن كثيراً . غير أن ما تعانيه الفرنسية والإنجليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرها . حتى أن بعضهم يعدّ مصيبة الرسم عندنا كارثة وطنية^(١) . لذلك يهمنا أن نعرف مدى هذا الشر والأسباب التي أدت إليه وأنواع الدواء التي يمكن أن يعالج بها .

لعرض هذه المسألة على خير وجوهها ، يجدر بنا أولاً أن نتساءل إلى أي حد يمكن للرسم أن يخفف من وطأة الخلاف القائم بين الكلام والكتابة ، وإلى أي

(١) انظر خاصة ارسن در مستير : مسألة إصلاح الرسم ، في Mémoires et documents scol. الكراسة رقم ٧٣ ، باريس ١٨٨٨) وفرديناند برينو : إصلاح الرسم باريس ١٩٠٥ ؛ ل . هاثيه : تبسيط الرسم (Revue bleue ١١ مارس سنة ١٩٠٥) ؛ م . بريال : كلمة أخيرة في الرسم (نفس المرجع) ؛ موريس جرامون . تفسير الرسم الفرنسي ، رقم ١٧ ، نوفمبر وديسمبر ١٩٠٦ ، ص ٥٣٧ وما يليها . وترى عرضاً كاملاً للمسألة في دوتنس Dutens ، رقم ٦٩ .

درجة تستطيع الكتابة أن تمثل النطق . فبعض أنواع الرسم تدين بتعقيدها إلى الرغبة في تعليم القارئ نطق الكلمات على أدق صورة ممكنة . وتنشأ هذه التعقيدات في غالب أمرها في الخارج . فالعناية التي تبدلها اللغة في تسجيل الأصوات ترجع إذن إلى انتشار اللغة بين أقوام لم يكونوا يتكلمونها بسليقتهم . وهكذا تطور استعمال النبرات على الكلمات الإغريقية في مصر ، حيث كان يتكلم الإغريقية أناس من غير الإغريق ، فكانوا في حاجة إلى العناية بمعرفة الموضع الذي ينبر في الكلمة . وكذلك كان بدء تعليم الكتابة السامية بالحركات في بلاد الحبشة لما دخلت فيها اللغة العربية . إذن أن النصوص الحبشية الأولى مكتوبة بخط سبئي خال من الحركات ؛ فالكتابة الحبشية أول كتابة شامية اتجهت إلى تعليم الحركات ، وهذا شيء لا بد منه بالنسبة لقوم لم يتعودوا بعد النظام الصرفي السامي المعقد . وكان ذلك تقدماً لا ريب فيه ، جعل من الكتابة صورة من الكلام أقرب إلى الحقيقة .

ومع ذلك فلا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هي . فإننا إذا تصورنا رسماً مما يسمى بالرسم الصوتي ، وقد زود بحروف متنوعة وبعلامات للتشكيل ، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرأها . ومن ثم كان من المعتاد في كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتماداً على لغة معروفة للقارئ لا على الجهاز الصوتي للإنسان . وهذه الطريقة أبسط وأدق من غيرها . فيقال إن هذه العلامة أو تلك تمثل الـ th (ث) الإنجليزية الرخوة ، أو الزاء الپارسية أو الـ ch الألمانية الصلبة (خ) ، وأفضل من ذلك أن يقال مثلاً إن الحركة الفلانية هي الـ a (الفتحة) الفرنسية في كلمة كذا إذا نطقت على الطريقة الپارسية . وإن كان لا يستفيد من هذا التحديد من لم يسمع كلام إنجليزي أو ألماني أو باريسى .

ولكن هذه الوسيلة أيضاً غير كافية . لأن القارئ ، مهما ساعد بمقابلات دقيقة في اللغات التي يعرفها ، لا يستطيع إدراك أصوات لغة جديدة وأن يقوم بتحقيقها دون أن يسمع نطقها بنفسه . ذلك لأن اللغة المتكلمة من التعقيد بحيث

تشتمل على أ. كداس من تفاصيل الشدة والتنغيم والنطق الفجائي ، مما لا يستطيع رسم تصويرها مهما بلغ من درجات السكال .

ففسكرة عمل رسم صوتي يطبق على جميع اللغات سراب خداع ، لأن تنوعات النطق من الكثرة بدرجة يستحيل معها أن يكون الرسم غير تقريبي . وهذا ما نراه في المحاولات التي عملت لإيجاد رسم واحد منسجم لكتابة الأعلام الجغرافية . فقد اصطدم القاعون بهذا الأمر بتلك الصعوبة الدائمة ، وهي أن الرسم لا يخلو أبداً من الإيقاع في اللبس^(١) . بل إن علماء اللغة يلاقون أشد العناء في وضع نظام ينطبق على اللغات التي يدرسونها^(٢) .

أما إذا أردنا أن نصل بمبدأ الرسم الصوتي إلى غايته الحتمية ، فإن ذلك يؤدي بنا تقريباً إلى عمل نظم من العلامات المختلفة لكل لغة على حدة . لأنه لا يوجد إلا القليل من اللغات التي تتفق في نظامها الصوتي وفي نظام حركات جهازها النطقي . فلا يكاد يوجد صوت واحد مشترك بين الإنجليزية والفرنسية : وإذن يجب وضع علامات مختلفة لرسم الإنجليزية . وهذا يؤدي بنا إلى أن نجعل عدد علامات الرسم غير محدود . لكل ذلك كان من الخير أن ندع الأمور على ما هي عليه ، إذ أنه يتحتم على من يريد معرفة قيمة العلامة أن يكون قد سمع الكلام باللغة التي هو بصدددها كما بينا سابقاً .

نضيف إلى ذلك أن أتم نظم الرسم لا تستطيع مطلقاً أن تصور الخصائص اللهجية ، وأنه لا يمكننا أن نشير في الكتابة مثلاً إلى خصائص النطق التي يتميز بها أهل البيكاردي أو الفرنش كمنتيه ، بله أهل مرسيا أوجسكونيا . وهذه صعوبة أولى .

وهناك صعوبة ثانية ترجع إلى أن الرسم الصوتي ، يصاب بالقصور على مرور

(١) انظر كرستيان جرنبيه : طريقة عقلية عامة لرسم الأسماء الجغرافية ، يمكن أن تطبق على جميع الكتابات المستعملة في العالم ، باريس ١٨٩٩ .

(٢) برجمان Brugmann ، رقم ٣٠ ، مجلد ٧ ، ص ١٦٧ ؛ ه . هرت H. Hirt : في صعوبة الرسم ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢١ ، ص ١٤٥ ؛ وكرستيان برتولومار Chr. Bartholomae ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢١ ، ص ٣٦٦ ؛ ي . ثكرناجل ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١٠ .

الزمن وبسرعة تختلف باختلاف اللغات . إذ أن السبب الأساسي لأزمات الرسم ينحصر في استحالة مسايرة الرسم لحركة اللغة ، وذلك في نفس الوقت خير شهادة على اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة تتطور دون توقف^(١) . أما اللغة المكتوبة فحفاظة بطبعها ، لا لأنها تعبير مشخص للغة المشتركة وقد قننها النحاة فحسب ، بل أيضاً لأنها لا تستطيع التغير بنفس السرعة التي تتغير بها اللغة الكلامية . نعم إن قوة التقاليد تصير أمراً خطيراً عندما تحميها المدرسة والآداب وإجماع المثقفين . ولكن التقاليد هنا ليست العقبة الوحيدة في سبيل تطور الكتابة . فالثبات ضروري للغة المكتوبة ، لأنها تعتبر لغة مثالية حددت معالمها نهائياً ، ولا يمكن المساس بها إلا بعد فوات الأوان . فهما عنينا بجمل هذا الكساء مرناً مطابقاً لحنايا الجسم الذي يكسوه ، فلن نستطيع مطلقاً أن نخضعه لنزوات الطبيعة وأن نجعله ينمو بنمو الجسم لأنه شيء ميت يغطى كائناتاً حياً .

يدهش الإنسان أحياناً من إبطاء اللغة النقية في مسيرتها للتقدم الذي تقوم به اللغة الكلامية في ميدان الصرف والمفردات . فالأكاديمية لم تجز حتى الآن عبارات من قبيل « je m'en rappelle » أو « de façon à ce que » ، مع جريانها في الاستعمال منذ قرن . ولكن لأهمية لذلك ، مادامت هذه العبارات قد أصبحت اليوم من المقررات . وكثير من الاتجاهات المتنوعة التي تبدو في اللغة يسكون مصيرها الإخفاق . وإذا كان الاتجاه جديراً بالبقاء فإنه يتطلب وقتاً طويلاً للوصول إلى غرضه ؛ فإذا فرضنا أنه سُجِّلَ في نفس اليوم الذي وصل فيه إلى غايته ، كان القيام بهذا العمل متأخراً عن أوانه ، مادام هذا الاتجاه قائماً مؤثراً منذ زمن طويل . وكذلك الحال بالنسبة للرسم . فإنه لا يعتمد بطبيعة الحال إلا الصور التي محضت وثبتت بالاستعمال مهما كانت دقته ومسايعته نحو التقدم .

ولكن من العسير أن أن يكون الرسم دائماً دقيقاً سبقاً إلى التقدم . إذ يجب

(١) عن تاريخ النطق في الفرنسية انظر ثورو Thurot ، رقم ١٢٦ ، وروسية : رقم ١١٢ ؛ وعن النطق في الإنجليزية : انظر اليس Ellis ، رقم ٢٣ ، ١٨٧٣ — ١٨٧٤ .

التفريق بين اللغات بالنسبة لهذا الاعتبار . ويدهش الإنسان أحياناً بحق عفا
يرى اختلاف لغات مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأسبانية من حيث قيمة
الرسم . فرسم الألمانية لا يعدّ رديئاً ورسم الأسبانية جيد جداً ، أما رسم الإنجليزية
أو الفرنسية فسيء . ولا يمكن أن يسبقهما في هذا المضمار إلا رسم لغة القبت أو
اللغة الإيرلندية . وقد ذكر بعض علماء اللغات الكلتية على سبيل التسلية رسم
بعض الكلمات الإيرلندية من قبيل saoghal و lanamhain و oidhche و
cathugliadh التي تنطق على وجه التقريب sil و lánun و i و cahu . وبهذا
تستطيع الإيرلندية أن تستثير غير الفرنسية التي تكتب oiseau ما تنطقه wazo
والإنجليزية التي تكتب enough و knight و wrought وتنطق enaf و naít
و rôl . ولكننا لا ينبغي لنا أن ننسى الظروف الخفيفة في حكمنا على هذه اللغات ،
فالاختلافات التي نلاحظها بين الرسوم المختلفة ترجع إلى أسباب تاريخية .

لنلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن اللغات المشتركة التي تعبر عنها هذه الرسوم
قد تكونت في عهود على جانب من القدم . ثم لنلاحظ بعد ذلك أن التطور الصوتي
في بعض اللغات أسرع منه في غيرها وأنه يغير نطق الكلمات تغييراً تاماً :
فالإيطالية والأسبانية قد بقيتا أقرب إلى اللاتينية من الفرنسية بكثير . والإنجليزية
قلبت النظام الصوتي الذي ورثته عن الجرمانية . ولنلاحظ على وجه الخصوص أن
الظروف التي نشأت فيها الرسوم كانت تختلف في كل قطر عنها في الآخر . وقد
أثر على الرسم كثير من الأسباب الخارجية بل والفردية . مثل ذلك تأثير المصلح
الديني العالي سالسبورى Salisbury الذي صارت ترجمته للكتاب المقدس في سنة
١٥٦٧ حجة ؛ فالعادة التي أدخلها في كتابة الضمير الذي لا ينطق إلا i (إى)
على هذا النحو ei ظلت متبعة حتى أيامنا هذه . وفي روسيا أثر تقاليد اللغة السلافية
القديمة ، وهي لغة دينية كانت من القوة بحيث جعلت الروسية الحديثة تكتب حالة
من حالات الإضافة toga في حين تنطقها tavo . وتأثر الرسم عندنا في نهاية القرن
السادس عشر بأثر العلماء المشرّين بالروح الكلاسيكية ومسائل علم الاشتقاق .
فهم أول المسئولين عن المتاعب التي نعاني اليوم نتائجها ، ولكنهم كانوا على اتفاق

مع روح العصر الذى عاشوا فيه . وهذه الحالة النفسية بذاتها قد وقعت فى أيرلندة حيث وضع الرسم بعد محاولات عديدة قام بها قوم من المتحدثين المفتونين بحب التقاليد . فى غضون القرن السادس عشر قامت محاولات لإصلاح رسم اللغة الغايلية فى المخطوطة الشهيرة التى قام بنسخها السير جيمس مكجرجور-Sir James Mac Gregor ، عميد لسمور Lismore (فى أرجيلشير Argyllshire ؛ وبفضل هذا الكتاب يمكننا أن نحكم بمقدار اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة فى ذلك الحين . ولكن لا ينبغى لنا أن نبالغ فى تقدير ما فى الرسم الأيرلندى من تعقيدات فجزء كبير منها يرجع إلى غلطة مبدئية تنحصر فى اتخاذ الحروف علامات لتحديد نطق الحروف الأخرى ؛ وهذا قد طبع الكتابة بطابع ممل ، ولكن يمكن التعود عليه بعد قليل من الممارسة . والدليل على جودة الرسم التقليدى فى بعض الأحيان أننا نستطيع بشئ كثير من الدقة أن نقرأ النصوص الأيرلندية المعقدة التى ترجع إلى عهد مخطوطة عميد لسمور ، بينما نعجز عن تحديد ما لبعض رسوم هذه المخطوطة نفسها من قيمة .

وهذا لا يعنى أننا نرى حتماً علينا أن ندافع عن الرسم الأيرلندى ، ومعه الرسم الفرنسى ، ذلك الرسم المحشو بحروف لا فائدة فيها . فقد عانت لغتنا أكثر من غيرها من أثر المتحدثين الضار . ألم ينجح بها الخيال إلى كتابة كلمة sire « سيد » فى صورة syre زعماء منهم أنها مشتقة من الكلمة الإغريقية *xyrios* ، وهو زعم زائف ؟ نعم إننا لم نتبعهم فى هذه النقطة ، ولكننا نتبعهم فى كتابة كلمة poids « وزن » بحرف d « د » وكلمة vingt « عشرون » بحرف t « ت » ، مع أن هذين الحرفين لم يلفظ بهما فى أية فترة من تاريخ اللغة ، كما أن إضافة الدال فى الحالة الأولى تتنافى تماماً مع الاشتقاق : لأن كلمة poids مشتقة من كلمة pensum وليست من pondus . وهم الذين أدخلوا فى الرسم حروفاً لا تلفظ فى اللغة منذ عهد سحقيق . وقد أدى الحظ العاثر أحياناً إلى نطق هذه الحروف من جديد ، فترانا نلفظ الـ s « س » من الفعل festoyer « يحتفل بالعيد » برغم أننا نقول fête « عيد » دون (س) ؛ ونسمع أناساً ممن يفاخرون بإجادة اللغة

ينطقون الكلمات *chaptel* « سلالة » و *dompter* « يروض » و *sculpter* « ينحت » و *promptement* « على الفور » بالمجموعة الصوتية *pt* (پت) ، وهو نطق غير سليم . وهناك ما هو أنكى من ذلك : فإن كلمة *lais* القديمة — وهي من فعل *laisser* « يدع » — قد كسيت رداء جديداً لم يكن من حقها أن تلبسه ، فصارت تكتب *legs* بحرف *g* ، وذلك تحت تأثير الفعل *léguer* « يودع » . واليوم ينطقها الكثيرون بهذا الحرف كما ينطقون اسم العلم *Leygues* . ومن ثم نرى أن الرسم من العوامل التي تؤدي إلى تغيير المفردات ^(١) : فنراه يفصل بين *festoyer* و *fête* وبين *legs* و *laisser* بينما نراه يصل *forséné* (« متهور غضباً ») بكلمة *force* « قوة » وذلك بكتابتها *forcené* . كما أنه يحرف الاشتقاق بعض الأحيان : فإن الاستعمال السىء لـ « *ge* » بدلا من « *z* » قد أوجد كلمة *gageure* التي ينطق بها سواد الناس في عصرنا هذا على وزن *beurre* ، مع أنها مشتقة من *gager* « راهن » بواسطة اللاحقة *-ure* مثل *picûre* « لدغة » من *piquer* « لدغ » و *mouillure* « تبلل » من *mouiller* « بلل » . وإذا أردنا أن نمدد هنا آثام الرسم في الفرنسية فلن نستطيع الانتهاء منها ^(٢) . وإن المناقشات التي دارت حديثاً حول هذا الموضوع قد سمحت بتسجيل قوائم بهذه الآثام وإن في مادتها من الغزارة ومن الشهرة ما يعيننا من محاولة ذكرها في هذا المكان .

وهي دائماً في سبيل الزيادة ، لأن أزمة الرسم تتوقف على الظروف الاجتماعية التي تتطور فيها اللغة ، فبمقدار اتساع الخلاف بين الفرنسية الأدبية والفرنسية الكلامية (انظر ص ٣٤٣ — ٣٤٤) تزداد حدة الشر . لأن عدداً من الكلمات التي تستعمل الآن في المحادثة سيتروك نهائياً اللغة المكتوبة وعندئذ لا يُحفظ إلا من الكتب ولا تعمل على الاحتفاظ بسلامة نطقها أية رواية شفوية ، فتصبح هذه

(١) عن وجود حالات من هذا القبيل في الألمانية انظر *Behaghel* : تأثير الكتابة في

مفردات اللغة ، مجلة اتحاد اللغة الألمانية ، مجلد ١٨ ، ص ٣٥ — ٤٠ و ص ٦٨ — ٧٦ .

(٢) ١ . جازيه *A. Gazier* : الرسم عند آبائنا وعند أطفالنا في *Mélanges*

de littérature et d'histoire ، باريس (١٩٠٤) ص ٣٢١ .

الكلمات بمثابة الكلمات الأجنبية التي تدخل في اللغة بواسطة الكتب : فنحن نقول rail (شريط السكة الحديد) أو wagon (عربة القطار) متأثرين بالصورة المطبوعة فنطبق النطق الفرنسي على الرسم الإنجليزي ؛ ولكننا نقول Bifteck ، على النطق الإنجليزي ، لأننا أخذنا هذه الكلمة عن الرواية الشفهية . وكلمة gageure كلمة صحفية مثل كلمة rail وكلمة wagon ؛ وهذا يفسر لنا ما طرأ عليها . فالكتاب يعكس دائماً في اللغة رد فعل الصورة المكتوبة على الصورة الشفوية . وفي إنجلترا أيضاً يعلن تباين اللغتين عن نفسه منذ زمن طويل . فرطانات الأقاليم الإنجليزية مشربة جميعها باللغة الأدبية من تأثير الكتب والصحف بوجه خاص . وهذه اللهجات ليست في غالب أمرها إلا اللغة الأدبية بعد أن صبغت بالصبغة اللهجية كما هي الحال في فرنسا (انظر ص ٣٣٦ و ٣٣٧) . غير أن صبغ اللغة الأدبية بالصبغة اللهجية يعرض صاحبها للوقوع في الأخطاء . وهذا مثل نموذجي من تلك الأخطاء : كلمة light التي تنطق lait في اللغة المشتركة لا تزال تنطق lixt في شمال القطر . وبالقيااس على ذلك راح أهل الأقليم ينطقون كلمة delight كأنها dilixt بدلا من dilait ، مع أنها من أصل آخر غير الكلمة الأولى ؛ وقد يجمعون بين الخططين فيقولون في light ، laixt ، وهي طريقة أخرى لصبغ اللغة بالصبغة اللهجية على نحو خاطئ (١) .

تأثير الرسم على النطق في الألمانية أشد منه في الفرنسية أو الإنجليزية ، وهذا يرجع إلى أن الألمانية المشتركة لغة كتابية أولا وقبل كل شيء (انظر ص ٣٣٢) ففي إبان تكوين اللغة المشتركة سوى النطق على الرسم في غالب الحالات . لأن الرغبة كانت تتجه في ذلك الحين إلى إقامة نطق عام ، لاهو نطق إقليم معين ولا نطق مجموعة إجتماعية بعينها ؛ فالاستعمال كان يتجه ولا زال يتجه إلى تطبيق الألمانية الكلامية على رسم الألمانية الأدبية . فمن ذلك مثلا ، أن الحركة المركبة ie في الألمانية العليا الوسطى صارت i طويلة (ي) دون أن يتغير الرسم لهذا السبب ، ولكن لما كانت المستشارية السكسونية تكتب je بدلا من ie عندما تكون

في مبدأ الكلمة ، فقد أدخل هذا الاختلاف في النطق أيضاً ، ومن ثم نرى jemand (بعض الناس) و je في مقابلة niemand (لا أحد) و nie (لا)^(١) . ومع ذلك فإن الألمانية تمتاز عن الفرنسية والإنجليزية بأن الرسم بعد أن استقر فيها بقي ثابتاً . أما في الفرنسية فإن التباين الذي بين الفرنسية الكتابية والفرنسية الكلامية لا يزداد مع الأيام إلا اتساعاً .

* * *

لا يمكننا إلا أن نمتدح المجهودات التي تبذل لإصلاح عيوب الرسم . وحجة القائلين بها تلخص فيما يلي : الرسم الفرنسي عبارة عن نظام توافقي قام بوضعه جملة وتفصيلاً طائفة من متحدثي العلماء . وما وضعه التوافق يستطيع التوافق أن يلغيه . وليس في إصلاح رسم اللغة إضرار باللغة نفسها . بل إن في ذلك تخليصاً لها من داء ينخر في جسمها وتوفيراً لوقت ثمين يضيع على أولادنا هباءً ماثوراً وتسهيلاً للأجانب الذين يتعلمون لغتنا .

وكلها أسباب وجيهة وكنا نتمنى لو أنصت لها الناس في كل مكان . ولعله كان يلزم لذلك أن تكلف لجنة من العلماء المختصين بالبحث عن الوسائل الناجمة في إصلاح الرسم في الفرنسية ، وأن يكون ذلك بصفة دائمة . كما يفعل الأطباء إذ يسهرون المريض حتى شفائه التام . وهذا العمل يستلزم وقتاً طويلاً ، إذ لا ينبغي أن يسار فيه إلا ببطء شديد . إذ أن هناك أسباباً كثيرة تبعث على التبصر في هذا الأمر . وسنشير فيما يلي إلى بعضها .

فإذا قمنا بإصلاح شامل دفعة واحدة كنا قد استبدلنا مكان اللغة المكتوبة التي تعودنا عليها لغة كتابية أخرى جديدة . ويترتب على هذا أن نطرح وراء ظهرنا دفعة واحدة جميع المطبوعات التي نشرت بالفرنسية منذ قرون ، وهو أمر مستحيل ؛ هذا إلى أن مثل ذلك العمل يوجب على جيل أو جيلين من الفرنسيين أن يتعلموا لغتين بدلاً من لغة واحدة ، وإن هناك من العادات والتقاليد الأدبية ما لا يستطيع المرء أن يغيره بجمرة قلم واحدة . وطبعاً من الواجب جعل الفرنسية

(١) و. برونه : في توحيد اللغة الألمانية ، في Akademische Festrede ، هال (١٩٠٥) .

أسهل تحصيلاً وأقرب منالاً بالنسبة للأجانب . وعلى الفرنسيين الذين يرجون لقطرهم مستقبلاً استثمارياً ناجحاً ، أن يفكروا فى صعوبة كتابتهم الكفيلة بأن ينفر منها من يريد تعلمها من سكان إفريقية الوسطى أو الشرق الأقصى . ولكن يبدو أن صعوبات الكتابة الإنجليزية لم تعرقل نجاح الامبراطورية الإنجليزية . وإنه ينبغي بذل الاضطراب فى العادات التى درج عليها مواطنونا فى سبيل إرضاء بعض الأجانب . والواقع أن أقل تغيير فى قواعد الرسم كفيل بزعزعة العادات المكتسبة زعزعة ضارة . لأننا إذا طبقنا الحد الأدنى من الإصطلاحات التى يقترحها المصلحون ، لم تبق صفحة واحدة مكتوبة بالفرنسية دون أن تتغير تغيراً تاماً . ويتحتم على العين والفكر أن يظلا ساهرين على تصحيح مايقع من أخطاء حتى يصابا فى نهاية الأمر بالملل . ولكن يمكن الإجابة على تلك الاعتراضات بأن الصعوبات الناشئة لا يمكن أن تؤثر على أكثر من جيل أو جيلين ، وأن ما نعمل نحن على نسيانه من العادات القائمة يوفر على أحفادنا مؤونة حفظه . وهذه إجابة وجيهة . ومع ذلك فإن الاعتراض ينبهنا إلى مقدار التبصر الذى يجب أن تراعيه فى كل إصلاح للرسم .

فإذا ما اقتصرنا على التبسيط التدريجى حسب خطة موضوعة ، فإننا نكون قد احترمنا حقوق اللغة الكتابية التى لا ينبغي لنا أن نهدها .

يميل بعض العلماء إلى اعتبار اللغة المكتوبة خادماً مطيعاً للغة الكلام . وهذا رأى طائفة من علماء الأصوات وأساتذة اللغات الحية الذين يهتمون بالحد من تطرف أساتذة المدارس ، أولئك الذين يحصرون اللغة كلها فى اللغة الكتابية . ولكن ، هل يجوز لنا حقاً أن نقول بأن تلك الكلمة المكتوبة تنطق على هذا النحو وأن تلك الكلمة المفووظة تكتب على ذاك ؟ وهل توجد الكلمة فى الصوت المنبعث من الفم أم فى الكتابة التى تسود وجه الصحيفة ؟ الواقع أنها بالنسبة لكل شخص متحضر توجد فى هذه وفى تلك على السواء . فكثير من المتحضرين يتفاهمون فيما بينهم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . وأغلب الظن أننا إذا رجعنا إلى أصول الكتابة وجدنا أن اللغة المتكلمة هى المنبع الذى استمدت منه اللغة الكتابية . فعندما اعترم قلفيلا

Wulfila أن يسجل لغة القوطيين اجتهد في أن يوجد لكل صوت من أصوات اللغة صورة كتابية مناسبة . وبهذا المعنى يصح لنا أن نقول إن الكتابة قد اقتفت أثر النطق . ويسير الحال على هذا المنوال في أيامنا عندما يعتمد أحد الجوايين إلى تسجيل لغة من لغات البدائيين لم تكن قد كتبت من قبل . طبعاً لا يدرك الأعمى من الكلمة إلا صورتها السمعية ، ولكن عندما تنتشر الكتابة ويفرض تعلم القراءة على جميع أبناء القطر تزداد أهمية الكلمة المكتوبة شيئاً فشيئاً .

واليوم لا نستطيع أن نتصور اللغة دون صورتها الكتابية . ولا تظهر الكلمات أمام أذهاننا إلا في الثوب الذى يخلعه عليها الرسم . فيمكننا أن نقول هنا إن العضو قد خلق الوظيفة ؛ وأية وظيفة ؟ وظيفة بلغت من الطغيان حدّاً جعل اللغة المكتوبة تفوق اللغة الكلامية وضوحاً عند بعض الناس ، وهم أولئك الذين نطلق عليهم اسم البصريين . فنسمع بطلا من أبطال دى موسيه يقول بأنه لا يستطيع أن يفهم بوضوح إلا ما كان مكتوباً بالخط المستدير الجسم . هذه الفكاهة المسلية يمكن أن تنطبق على كثير من الناس . فهذا مثلاً لا يفهم صفحة يسمعها ولا يحسن فهمها إلا إذا قرأها . وذلك لا يستفيد من درس يلقي عليه إلا إذا هيء له بعد ذلك أن يرى فحواه مطبوعة أمام عينيه . إن هذه حالة قصوى تلفت النظر بندرتها . ولكن إذا راقب كل منا نفسه بعض الشيء ، تحقق من قرّبه منها إن قليلاً وإن كثيراً .

عندما نسمع حديثاً ما نلاحظ في أغلب الأحيان أن الكلمات تترع في نفس اللحظة جهازنا البصرى بقدر ما تترع جهازنا السمعى ، بمعنى أن الأثر الواقع على المراكز السمعية ينتقل بدوره إلى المراكز البصرية . وحينئذ نبصر الكلمات التى نسمعها أذننا . بل نحن أيضاً عندما نتكلم نرى الكلمات التى تلفظها ، فتمر أمام عقولنا كأنها مسطورة في كتاب مفتوح . والصورة التى نتخذها على شفقتنا محددة غالباً بالمنظر الذى تظهر فيه أمام عقولنا . لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن نرجع إلى صورة الكلمة البصرية التى تصحب دائماً صورتها السمعية فى ذهننا . وكذلك صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعى ،

فإننا نغنى لا نفسنا بجل الكتاب الذى نقرؤه ، وعندما نكتب ، نرى قلمنا يتبع الإشارات التى عليها عليه الصوت الداخلى . فيمكننا أن نقول بأنه فى أثناء النشاط اللغوى لدى الشخص المتحضر العادى ، تشترك صور اللغة جميعها فى العمل .

اللغة الكتابية إذن ذات أهمية عظيمة فى سيكولوجية اللغة ، فما دمنا نعلم القراءة والكتابة للأطفال ، يجب ألا نسقط من حسابنا حقوق اللغة الكتابية وإن تعارضت أحيانا مع حقوق اللغة الكلامية ، ولكن هذه الحقيقة لا تستبعد إمكان إصلاح الرسم . إذ من الطبيعى أن نعمل على تضيق الشقة بين اللغة الكتابية واللغة الكلامية . ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الحصول على تعادل تام بين اللغتين أمر مستحيل ؛ وإذا كانت الكلمة توجد فى الصورة المكتوبة وفى الصورة الكلامية على السواء ، فلعله ليس من الشر أن يوجد فى الرسم بعض وجوه من الشذوذ والنفور والعيوب . فبذلك تحفز صورة الكلمات فى الذاكرة بطابع أعمق . وإن غرابة اللباس تعبر بشكل أوضح عن الفكرة التى ترتديه .

يقول فولتير « الكتابة صورة الصوت ، فكما قربت منه فى سياها ، كانت خيراً » وهذا القول لا يصدق إلا من الناحية النظرية ، ولا يمكن أن يتخذ مبدأ وطريقة إلا عندما يحتاج الأمر إلى وضع كتابة للغة جديدة . أما فى لغة كاللغة الفرنسية ، فإننا نحدد من نطاق الكتابة دون مبرر ، إذا أردنا أن نجعل منها صورة للكلام . نعم أغلب الظن أن اللغة المكتوبة قد ولدت من اتفاق قام بين بضعة أفراد . ولكن هذا الاتفاق قد امتد حتى شمل المجتمع بأسره وفرض نفسه عليه بقوة صارمة . وليس العقل هو الذى ينظم حياتنا الاجتماعية ، بل العادة ؛ وحجج الفلسفة كلها عبث فى غيبث أمام قدرة العادة . فعندما أريد الاستفادة فى العمل من نور النهار أطول مدة ممكنة ، كان المقول أن تغير مواعيد العمل ، لا أن تغير الساعة ؛ ومع ذلك فإن الساعة هى التى غيرت ، لأننا لم نقبل أن نتناول طعام الغداء فى الساعة الحادية عشرة إلا إذا أطلق على هذه الساعة اسم الظهر . فنحن عبيد العادات الاجتماعية إلى هذا الحد ! والرسم هو إحدى هذه العادات بالنسبة لكل شخص متحضر . فلا يمكن إصلاحه إلا بأشد الحذر وباستئحاء العادة نفسها .

خاتمة

تقدم اللغة

تقدم لنا الكتابة مثلاً فائماً على تلك الأدوات التي يخلقها الإنسان والتي تستكمل مع الزمن جميع وجوه الكمال التي يستلزمها الاستعمال أو يوحى بها . فبين العلامات التي كانت تحفر بالأمس على الأحجار وبين الحروف التي تطبع اليوم على الورق تقدم شاسع لا ينحصر في الناحية المادية وحدها .

يتوقع الإنسان أن يصل إلى مثل هذه الجماعة في دراسة اللغة باعتبارها نتيجة عمل عقلي قامت به الأجيال المتوالية . أليست أداتنا اللغوية أيضاً تسير في طريق الإصلاح المستمر ؟ والتركيب المتنوعة التي يصب فيها العقل الأصوات لكي تترجم عن الأفكار ، ألم تحقق هي أيضاً شيئاً من التقدم في خلال الأجيال ؟ واللغة تبدو لنا في حركة دائمة ؛ أهي حركة خادعة تبلي مكانها في مجهودات عقيمة ؟ أم أن اللغة تهدف نحو غاية مثالية لا تنى تقترب منها في كل خطوة من خطوات تطورها ؟ نحن نعرف تاريخ بعض اللغات في خلال فترات واسعة ممتدة . وراها في غالب الأجيال تتغير بسرعة عظيمة . فنحن إذن على حق أن نتساءل عن معنى هذه التغيرات ، أو بعبارة أخرى أن نعرض على بساط البحث مسألة تقدم اللغة .

* * *

ولكن من المناسب أولاً وقبل كل شيء أن نحدد ماذا نعني بكلمة « تقدم اللغة » . فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغة مضطجاً من تاريخ الأدب . إذ أن العادة قد جرت وقتاً طويلاً على اعتبار معنى التقدم في الأدب ديناً ومذهباً ؛ فكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبية genres littéraires إلا صعوداً نحو الكمال أو انحداراً إلى الانحلال . وهذا هو الرأي الكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعدد أن يصل إلى درجة

كاملها لا يسعهما إلا الانحدار والفساد . وعلماء الفيلولوجيا الكلاسيون قد نقلوا هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية متخيلين أنه يوجد في تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة ، ومن بعدها سارتا في طريق الاضمحلال .

ففي اللاتينية كان شيشيرون هو المقياس ؛ ومع ذلك كان يروق لهؤلاء الباحثين أن يفتشوا في كتاباته عن مواضع النقص ؛ فأبعدوا من آثاره الخطابات التي كان يكتبها لأصدقائه على أنها كم مهمل لا يليق بقدره . واللاتينية الحقبة عندهم تتلخص في طائفة من الخطب والدراسات الفلسفية التي تركها الخطيب الكبير ، وقد يضيفون إليها شروح قيصر وتراجم كرنيليوس نيبوس Cornelius Nepos . أما بقية الكتاب اللاتينيين فكانوا موضع ريب أو رفض صريح . فلكريس Lucrèce كان خشناً قليل العناية ؛ وبلوت Plaute متبربر لم يُصقل بعد ؛ وسلوست Salluste موبوء بالخوشية ، وتيت ليف Tite - live يفوح بالريفية و Tacite غريب الأطوار مشتت الذهن ، كأنه يجد لذة في الإكثار من الأخطاء اللغوية . وكانوا لا يقدرون مؤلفي العصر الإمبراطوري إلا بمقدار اقترابهم ، بواسطة التقليد الأعمى ، من لغة شيشيرون التي قرروا أنها مقياس اللغة اللاتينية . ويمكننا أن نقول هذا القول بعينه في اللغة الإغريقية . وهذه الطريقة في معالجة اللغات القديمة تقوم على الخلط الكريه بين اللغة الأدبية واللغة بوجه عام ، اللغة التي يتكلمها جميع الناس في القطر كله والتي تتغير مع الزمن . نعم ، لعلماء اللاتينية أن يقرروا مثالا أعلى للغة اللاتينية وأن يفرضوه على طلاب هذه اللغة في موضوعاتهم الإنشائية . فهذه خطة النحو المذهبي الذي يتلخص في هذه العبارة التقليدية : قل كذا ، ولا تقل كذا . واتباعها يتفق مع تقاليد الكتاب اللاتينيين الذين كانوا يرون في شيشيرون أستاذاً ومثالا يحتذى . ولكن هذه الخطة الصناعية لا ينبغي أن تطبق على دراسة اللغة .

ومع ذلك فهذا ما كان يعمل له لغويو القرن المنصرم ^(١) الذين كانوا يقررون

(١) ولا سيما شليشر : رقم ١٩٧ ، ص ٣٤ ؛ ورقم ١٩٨ ، مجلد ١ ، ص ١٣ — ١٧ .

لكل لغة مثلاً أعلى من الكمال . وكانوا يجعلون هذا المثل الأعلى في العهد الماضي ، وفي الماضي السحيق بطبيعة الحال . ويزعمون أنه كانت توجد في العصر « البدائي » لغة كاملة ذات اطراد مطلق . وأنه لما كان التغير من قوانين اللغة ، كان من المحتوم أن يسير تطور اللغة بها إلى الابتعاد عن مثلها الأعلى البدائي . لذلك يتكلمون عن هذا التطور اللغوي في عبارات غريبة ، فهو عندهم تشويه أو تحريف أو فساد ! وليست لغاتنا الحديثة ، هذه المواليد المتأخرة الألوان التي رعى بها حظها المأثر في شيخوخة الزمان ، إلا بقايا مزدرة ، أو على حد تعبير شليشر الألماني ، إلا « فتاتاً نخرته العثة ^(١) » . فكلما تقادم عهد اللغة ، عظم جانبها من الاحترام . ويحكى أن عالماً شيخاً من علماء اليونانية القديمة سئل في مسألة ما من مسائل الإغريقية الحديثة فرفض الإجابة بازدراء قائلاً بأنه لا يقبل إطلاقاً أن يتعلم لغة تستعمل από في موضع المنصوب ^(٢) . فلعل هذا العالم كان يصفق إعجاباً بشليشر ^(٣) المتقدم ذكره لو سمعه يقول بأن « التاريخ عدو اللغة » (die Geschichte, jene Feindin der Sprache) وهي كلمات حمقاء تجعل اللغة نفسها عدواً للحياة التي تغذيها .

من العبث أن نؤكد أن الفرض القائل بأن هناك لغة كاملة قدت في عهد سحيق مما قبل التاريخ فرض خيالي محض ، شأنه شأن الفكرة القائلة بأنه يمكن أن توجد لغة لا تتغير وتبقى جامدة في سكونها أبد الأبد . يجب أن نسلم بالتغير لأنه أمر حتمي ، وألا نستسلم للبكاء على العصر الذهبي ، لأنه عبث في عبث سواء أكان ذلك في اللغة أم في غيرها . ثم أو ليس للتغير مزاياه العديدة ؟ ذلك ما تقول به مدرسة أخرى أخذت وجهة النظر المخالفة للمدرسة السابقة على خط مستقيم وذلك بنقلها للمثل الأعلى للغة من الماضي إلى المستقبل ^(٤) . أخذت هذه المدرسة

(١) رقم ١٩٦ ، ص ٢٧ .

(٢) يقال في الإغريقية الحديثة : ἑλπεα γράμμα ἀπ' τὸν πατέρα μου « سلمت

خطاباً من والدي » ، بيرنو : رقم ١٠٩ ، ص ١٨٠ و ص ٤٤٤ .

(٣) ١٩٨ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ، وفارن چيسپرسن : ١٣٤ ، ص ٨ .

(٤) هذه المدرسة يمثلها چيسپرس خير تمثيل ، رقم ١٣٤ .

على عاتقها أن تردّ إلى اللغات الحديثة اعتبارها . وترى أن أكمل اللغات هي تلك التي قطعت في التطور أطول شوط وهي بذلك لا تؤدي إلا إلى إيقاظ تلك المعركة الخالدة ، معركة القديم والجديد ، بتطبيقها على المسائل اللغوية . وتتجدد هذه المعركة ، كل خمسين عاماً ، فتكشف لنا عن ميل الناس إلى الأشياء المتناقضة وعن الإغراء الذي توجهه إليهم الأشياء القديمة والأشياء الحديثة كل بدورها .

ولا شك أن بعض اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية تتمتع بأوفى قسط من المرونة واليسر والطواعية . فالفرنسية تمتاز خاصة بدقتها ووضوحها ، لا تطبق التبذل ولا الإغراق في المبالغة ولا ذلك البريق الذي تجيزه لغات مجاورة ، وإعما مسعاها الأول إلى الدقة الذي لا تحتاج إلى مزيد من شرح ولا تدعو حالتها إلى اعتذار عن تقصير على حد تعبير قولتير . ولكن هل يستطيع إنسان أن يدعى أن اللغات القديمة كالإغريقية أو اللاتينية تقلّ عنها شأنًا ؟ وإذا كان علينا أن نختار من بين سائر اللغات تلك اللغة التي تستحق أن تكال بالغار ، فمن يجرؤ على توضيحية اللغة الإغريقية ؟ ومن ذاق مرة حلوة هذه اللغة ذات الجوهر الرباني ، وجد كل لغة عداها ، إما تافهة وإما مرّة . ولسنا نتكلم عن الأفكار التي جعلت تلك اللغة وعاء لها ، ولا تلك الآداب التي تعتبر بحق مدرسة للحكمة والجمال . و « كنزاً من دواء الروح » كما كان يتكلم المصريون عن كتبهم . فاللغة الإغريقية في شكلها الخارجي ، دون أي اعتبار آخر ، تعدّ متعة عقلية معدومة النضير . وليس ائتلاف النغم ورقة الأصوات وثناء المفردات كل مزاياها ، بل ليست أقوم مافيها من مزايا . ففي ميدان النحو تمتاز الإغريقية من بين سائر اللغات بدقة دوالّ النسبة فيها التي ترهب تركيب الكلمات ، وبالمرونة الخفيفة التي تميز تنظيمها وتعمل على إظهار التفكير في كل قيمته وتحيط بكل حناياه ومنعرجاته ، وتكشف بشفافيتها عن كل دقائقه . ولا نعلم أن الوجود قد رأى أداة أكل منها في التعبير عن الفكر الإنساني . ولكن إذا علمنا أنه قد أمكن للغات أخرى من نوع آخر أن توفى بالحاجات المتنوعة التي تطلبها أفكار لا تقل عن الأفكار الإغريقية ثراء وتعقيداً ، رأينا أنه من العبث أن نبحث عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواه .

وقد يكون من المسلى أن يقوم إنسان بالبرهان على أن اللغة التى كتب بها هوميرو وأفلاطون وأرسيميد تفوق لغة شكسبير ونيوتن ودارون أو تتخلف عنها . فقد أمكن لكل هؤلاء أن يعبروا تعبيراً تاماً عما أرادوا التعبير عنه ، ولكن بوسائل مختلفة . وكلهم يتساوون فى الفضل لأن كلا منهم أمكنه أن يجد فى لغته العبارة المساوية لفكرته . والواقع أننا لا نعلم إطلاقاً لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها . فلا ننصت إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسئولية النقص الذى فى مؤلفاتهم ؛ لأنهم هم المسئولون على وجه العموم عن هذا النقص .

نعم ، إن من حسن طالع الكاتب أن يجد أمامه تقاليد يسير عليها وأن يستعمل لغة قامت بتجسيدها وصقلها سلسلة طويلة من الكتاب . ولكن الأمر هنا لا يعدو الاختلاف فى درجة الصعوبة . يقول ديكارت Descartes فى « حديث المنهج » : « أولئك الذين يفكرون خير تفكير ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة ، يستطيعون دائماً أكثر ممن عداهم أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير البريتانية السفلى » .

ومع ذلك فإن المسئولية لا تقع كلها على موهبة الكاتب وحدها . إذ يجب أن نعمل حساباً للوسط الذى يعيش فيه أيضاً . إذ لما كان التكلم لا يتكلم إلا لسمع والكاتب لا يكتب إلا ليقرأ ، كان من الضروري للكاتب أن يجد له جمهوراً على درجة من الثقافة تسمح له بفهمه . لقد قال بوفون Buffon فى مثل ذلك : « لم نصل إلى الكلام الجدى والكتابة الجدية إلا فى العصور المستنيرة » . ولو أن بريتانياً أراد أن يكتب مؤلفاً فلسفياً بلغته ، لتيسر له ذلك على أرجح الفروض ؛ ولكن البريتانيين ، أولئك يتكلمون منهم البريتانية على الأقل ، لا يحفلون بالفلسفة لسوء الحظ ؛ كما أن الفلاسفة لا يفهمون شيئاً فى البريتانية على وجه العموم . ولذلك يخشى على صاحبنا ألا يقرأ إنسان ولا يفهمه إنسان . فطاقة اللغة تتوقف على عدد الذين يمارسونها ودرجة تعلمهم . وهذا هو السبب فى أن اللغات البكتية أقل قيمة من اللغات الرومانية أو الجرمانية . ومع ذلك فقد استطاعت الإيرندية والغالية طوال عصور

عديدة أن تعبّر عن أفكار شعرية فائقة الجمال ، لعلها أصل ما خالفته العصور الوسطى من هذا القبيل . وقد نأسف على أن دافيد أب جويليم Dafydd ab Gwilym لم يكتب بالإيطالية كما كتب دانتي أوبا بالألمانية كما كتب فلقرم فون إيشنباخ Wolfram von Eschenbach : فكان يستطيع اليوم أن يتذوق شعره عدد كبير من الناس . ولكن ما معنى ذلك ؟ أين يذهب مجد هومير أو أفلاطون في اليوم الذي يزول فيه تعلم الإغريقية من المدارس ؟ لا شك أن نعيم الغراب وتغريد العنديل يستويان تماماً يوم لا يجدان أحداً يصغى إليهما .

إذا تابعنا المناقشة المتقدمة ، أقحمنا أنفسنا في طريق لا يؤدي إلى غاية . فقيمة اللغات من الناحية الجمالية أو النفعية لا يصح أن يكون لها حساب في الكلام على تقدم اللغة . فوهبة الكتاب تستطيع في فترة من النشاط الأدبي القوى والرخاء الوطني والسيادة السياسية ، أن تخلع على اللغة درجة من الكمال تكاد تكون مطلقة وبالتالي حالا من الهيبة تفرضها على الكون بأسره . وهذا ما تيسر للأغريقية في العهد الأتيكي واللاتيني في عهد أغسطس والفرنسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن ينبغي في الكلام على مسألة تقدم اللغة أن ننقض النظر عن مثل هذا الكمال المؤقت الذي قد تصادفه هذه اللغة أو تلك . بل إن فكرة الكمال بعيدة عن تقدير التقدم إلى حد أننا لا نستطيع تبريرها إذا أردنا تطبيقها على جزء واحد من أجزاء اللغة ، كالأصوات مثلاً أو الصور النحوية .

تتمتاز بعض اللغات على بعضها الآخر بالانسجام والعذوبة ، ويمتاز بعضها على غيره بسهولة النطق . ومع ذلك فليس القصد إلى تزويد النطق ببعض المزايا التي تنقصه هو الذي يتحكم في مصير التغيرات الصوتية . هذا إلى أن تقدير هذه المزايا يرجع إلى حد كبير إلى الذوق الشخصي ، ومن ثم يدخل في المناقشة عنصر ذاتي من شأنه أن يزيّفها من أساسها .

كذلك ليس من اليسير أن نبرر فكرة التقدم في ميدان النظام الصرفي ، إذا اقتصرنا في ذلك على البنية النحوية .

كان ميدان البحث اللغوى منذ أربعين عاماً يخضع للنظرية القائلة بأن اللغات تمر بمحالات ثلاث على التتابع : حالة العزل وحالة الإلصاق وحالة الإعراب . وكان من المسلم به أن كل لغة من اللغات المعروفة كانت على إحدى هذه الحالات الثلاث وفقاً لمرحلة التطور التى عرفناها فيها . ومعنى ذلك أن هذه النظرية كانت تسمى إلى حصر التقدم اللغوى فى النظام الصرفى (١) .

ما سبق أن قلناه عن تغيرات النظام الصرفى والروابط التى بين دوال النسبة والكلمات ، يكفى للحكم على ما فى تصور تاريخ اللغات على هذا النحو من زيف . لسنا ننكر أن العناصر النحوية آتية فى غالب الأحيان من بلى كلمات قديمة كانت قائمة بذاتها . وأننا قد نجد فى المفردات أصل اللواحق ، بل والزوائد التى عمل الزمان على إلصاقها بالكلمات المنتهية بها ؛ ومن ثم كان إلصاق العناصر التى كانت منعزلة فى بادئ أمرها يسمح للغات بأن تجدد نظامها الصرفى . ومن جهة أخرى ، كثيراً ما يعمل البلى الصوتى على اختزال طول الكلمات وهدم الإعراب وإرجاع الكلمات التى كانت قد صارت متعددة المقاطع إلى حالة وحدة المقطع ، أى إلى إحياء حالة الإلصاق من جديد .

ولكن هذه الحالات المختلفة تنشأ عن أسباب تعمل جميعها فى وقت واحد فى كل اللغات : أسباب تؤثر على كل نقطة فى النظام الصرفى ويتوقف إخفاؤها أو نجاحها المؤقتان على ظروف خاصة بكل لغة . هذا إلى أن التغير لا يكون تاماً إطلاقاً فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ فى النظام العام للغات التى لها تاريخ طويل والتى عانت تطوراً ضخماً كالفرنسية أو الإنجليزية مزيجاً من النظم التى تبضم حالات مختلفة .

وهكذا كانت وحدة المقطع تعتبر فى يوم من الأيام من مميزات اللغة الإنجليزية . والواقع أن الإنجليزية تمتاز بصيغها القصيرة التى قد تصل إلى وحدة المقطع ، بخلاف صيغ الإنجليزية القديمة المكدسة بالمقاطع والمثقلة باللواحق والزوائد . وهذه نتيجة البلى الصوتى الذى كان بعيد المدى فى الإنجليزية . وكان يمكن للغة

(١) انظر خاصة هو فلاك : رقم ٨٤ ، مستبلى : رقم ١٨٢ ، وسيس : رقم ١٣٨ .

أن تقاوم هذا البلى كما فعلت لغات أخرى . فاللغات الرومانية مثلاً تتجنب وحدة المقطع بإضافة اللواحق . إذ نقول في الفرنسية soleil (شمس) حيث كان يقول اللاتينيون sol ، واستعضنا بالفعل gémir (il gémt : يئن) عن الفعل القديم geindre « il geint : يئن » (مقطع واحد) . وقد لوحظ أن اللغة الأسبانية لا تكاد تحتوى على كلمة واحدة تتكون من مقطع واحد .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نبالغ في وحدة المقطع الإنجليزية التي ليست في غالب أمرها إلا مسألة ظاهرية محضة ^(١) . ولنحاذر أن نخدع هنا بالكتابة أو بالعادات التي يفرضها علينا استعمال كتب النحو والمعاجم . فكثير من بين الكلمات الإنجليزية التي يمكن تمييزها بالتحليل النحوى ، ليس لها وجود مستقل ، وكثير منها ليست إلا دوال نسبة أولاً ولا توجد إلا في تراكيب ثابتة متصلة بدوال نسبة لا تستطيع الانفصال عنها . فجملة I do'nt know لا تحتوى على كلمات أكثر مما في اللاتينية nescio . إذ أن العنصر know — وهو أكثر عناصرها دلالة — لا يستعمل منفرداً .

وكذلك العناصر الأخرى ليس لها وجود مستقل . وإنما هي أدوات نحوية غير قائمة بذاتها ؛ ولا توجد إلا بوصفها عناصر من مجاميع قائمة بذاتها . هذا إلى أن وحدة المقطع في الكلمات الإنجليزية الأصل قد تضاعفت في وسط الكلمات التي استعارتها اللغة من اللاتينية والفرنسية . ونحن نعرف مقدار ترحيب الإنجليزية باستقبال الكلمات الأجنبية التي تراها مفيدة أو صالحة .

هذه العادة تسمح لها بالآلة تستعمل الاشتقاق في مفرداتها إلا لماماً . فبينما نراها تترك جانباً كبيراً من الكلمات الوحيدة المقطع الموروثة من المتاع القديم على ما هي عليه دون أن تضيف إليها لواحق أو مزيداً من العناصر العرضية ، نراها في الوقت نفسه تستقبل بين مفرداتها عدداً كبيراً من الكلمات الفرنسية أو اللاتينية المتعددة المقاطع عن طريق الاستعارة .

كما أن معارضة حالة التصريف بحالة العزل أو الإلصاق تبدو وهماً من الأوهام إذا رجعنا إلى الصورة الكلامية التي فيها تختلط هذه الحالات المختلفة في تأليف

يوفق بينها . فالتكلم إنما يتكلم بجمل لا بكلمات منعزلة . والفرق الوحيد الذي يوجد بين اللغات ينحصر في مكان دوال النسبة ، وفي طبيعة الرباط الذي يربط هذه الدوال بالكلمات . وهو اختلاف عرضي لا جوهري . فلا نستطيع أن نستخلص منه قاعدة لتصنيف اللغات ، ومن باب أولى لا يمكننا أن نرى فيه عنصراً نقيس به مسألة التقدم اللغوي .

ولا ينبغي أن ننسى أن كل تجديد لغوي لا يمكن أن يكون إلا ضئيلاً . إذ لا يوجد في الميدان اللغوي كسب دائم يوفر اللغة التي تحصل عليه ثراء نهائياً .

فالمبحث المكتسب عرض زائل في كل الأحوال وكثيراً ما تقابله خسائر من ناحية أخرى . لقد رأينا كيف تمكنت الفرنسية من خلق أداة استفهام لها . ولزم لهذه الأداة ، كي تحيى وتشتد وتنمو ، تعاون ظروف عدة كلها عرضية . ويمكننا أن نتنبأ ، دون أن نتعرض لخطأ كبير ، بأن هذه الأداة بدورها ستفقده عن طريق التطور الطبيعي هذه التعبيرية التي تملكها الآن وتصير عديمة القيمة ثم تخرج من الاستعمال . هذا هو تاريخ كل ما تكونه اللغة . ونحن نعرف كيف نشأت أدوات الاستفهام اللاتينية ، على ما لها من صلاحية وقوة في التعبير؛ وكما أننا نعرف أيضاً كيف بادت . فعبارة Num uides « لعلك ترى؟ » ، إذا نطقت بنغمة الاستفهام صارت عبارة استفهامية في حالة توقع جواب منفي « كلا » وعبارة videsne « لا ترى؟ » ، إذا نطقت بنغمة الاستفهام صارت استفهامية كأنها « أأنت ترى؟ » وذلك في حالة ما يكون الجواب المتوقع بالإيجاب : « بلى » . وكان ذلك ربماً قيماً للغة اللاتينية ولكنه لم يدم ؛ إذ لم يلبث أن تلاشى بفعل البلى الصوتي الذي حرم ne, num من قوتهما التعبيرية . فالتقدم ، إذا صح لنا أن نستعمل هذه الكلمة ، لم يكن إلا عابراً .

الخسائر أيضاً لا يمكن أن تفسر بافتراض التقدم . فما يؤسف له أن الفرنسية الحديثة قد صيرت الزمنيين الماضيين الذين كانت تملكهما وهما الماضي المحدد والماضي غير المحدد ، زمناً واحداً : مع أن الخلاف الذي كان يفرق بينهما كان خلافاً حقيقياً ، وكان استعمالها يمكن القارئ من البيان عن معان دقيقة ، اختفت اليوم من الوجود

لاختفاء ما يُعبّر به عنهما . ونحن نعرف السبب الذي أدّى بأجد هذين الزمنين (وهو الماضى المحدد على وجه العموم) إلى الضياع : وذلك أن الزمنين قد تسكفاً وتمادلا ، لأن الماضى غير المحدد (من قبيل *j'ai fait*) ، كان فى بادىء أمره زمناً مركباً ثم اتحد جزآه وفقد القيمة الحرفية التى كانت لا تزال تُحسّ فى فعله المساعد . ومن الممكن أن تشعر اللغة ، بعد أن تعالى أثر هذا النقص ، بالحاجة إلى التعويض عنه ؛ فتصل يوماً بوسيلة ، إلى التمييز بين القصص البسيط الذى كان يعبر عنه فيما مضى بالماضى المحدد (*il fit*) وبين الحدث الذى كان يعبر عنه بالماضى غير المحدد (*il a fait*) . ولكن سنظل حتى هذه اللحظة نتكلم لغة جرّدت من أحد عناصرها المفيدة . أما عن الماضى التابع غير التام *L'imparfait du subjonctif* فلا يمكن لأحد أن يشعر بمثل هذا الأسف على فقدانه ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الزمن يقوم بكثير من الخدمات الجليلة ، إذ كان يسدّ فراغاً كبيراً فى نظامنا الفعلى بتكميله لسلسلة الأزمان . ومع ذلك فلا معنى للأسف عليه . لقد اختفى بالرغم من جهود المدرسة لحفظه من الضياع ، إذ راح هو أيضاً ضحية لاتجاهات لا تستطيع الإرادة الإنسانية لها دفاً .

وإذا كانت قائمة الأرباح والخسائر على هذا النحو فى كل تطور صرفى ، فلن تستطيع الوصول إلى تحرير معنى التقدم . فكل تغير يقع على اللغة لا يصيب إلا جزئية خاصة من جزئياتها ، وليس له فى ذاته أثر عام . نعم ، لا شك أننا إذا نظرنا إلى لغة واحدة فى فترتين من تاريخها ، وجدنا أنفسنا أمام حالتين مختلفتين : فنلاحظ أن العناصر التى تكوّنها قد تغيرت وتبدّل مكانها وانقلبت ، ولكن الأرباح والخسائر تكاد تتعادل فى مجموعها . وقد بينا فيما سبق لماذا لا نستطيع اللغة مطلقاً أن تصل بتطورها الطبيعى إلى الكمال المنطقى الذى يمنح منجاً إرادياً للغات قد وضعت وضماً صناعياً من أولها إلى آخرها (انظر ص ٢١٣) . فالحالات المختلفة لكل تطور صرفى تذكرنا بالصور المختلفة التى نراها فى الكاليدوسكوب *Kaléidoscope* الذى يمكن للإنسان أن يحركه دون خطة مرسومة فيتغير

ترتيب العناصر التي تكونه دون أن نحصل من هذا التغير على شيء آخر غير ترتيب جديد .

ومع ذلك فإن كل شيء يتوقف على اليد التي تحرك الآلة .

والتطور اللغوي يعتمد اعتماداً وثيقاً على الظروف التاريخية ؛ فبين التطور اللغوي والظروف الاجتماعية التي تتطور فيها اللغة صلة وثيقة . إذ أن تطور المجتمع يستتبع تطور اللغة في طريق معينة . لذلك يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان تاريخ اللغة يمثل مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات ، وإذا نظرنا إلى مسألة تقدم اللغة هذه النظرة ، رأيناها تبدو أمام أعيننا في وضع جديد ، يجدر بنا الآن أن نناقشه .

كثيراً ما لوحظ أن تطور اللغات يزداد سرعة بازدياد انتشارها في الخارج وبازدياد عدد الناس الذين يتكلمونها وتنوعهم . إذ أن انتشارها في أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرضها لأن تفقد خصائصها الموهلة في الذاتية ؛ والتأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي بها إلى التغير السريع . فإذا ما قارنا لهجة موطن أصلي بلهجة مستعمراته ، تبين لنا أن هذه الأخيرة قد فقدت بعض القواعد النحوية الخفية الدقيقة : ذلك لأن التقاليد قد أبت عليها في مهبط رأسها ؛ ثم تلاشت بهجرتها بعيداً عن موطنها . من ذلك أن الاختلاف بين I will و I shall لم يعد له وجود في الإنجليزية المتكلمة في أمريكا : فلا يقال الآن إلا I will .

ومن جهة أخرى نرى أن حمل اللغة بعيداً عن موطنها يساعد الاتجاهات الكامنة فيها على التفتح بصوزة أسرع وأكمل مما لو بقيت في مكانها . ومن ثم ظهرت بعض المستحدثات في الفرنسية المتكلمة في كندا قبل أن تظهر في غرب فرنسا الذي هاجرت منه الفرنسية إلى أمريكا في القرن السابع عشر ؛ فالفرنسية الكندية تبدو فرنسية حوشية في بعض نواحيها ، ولكنها في البعض الآخر تسبق فرنسية فرنسا نفسها ، إذ أنها تخلصت قبل هذه الأخيرة من بعض السمات الميئة

التي عملت التقاليد على إبقائها (١). كذلك الهولندية التي يتكلمها البوير قد سبقت هولندية هولندا في طريق التطور (٢).

اللغات التي لا تنتقل تعدّ لغات محافظة على وجه العموم . إذ أن اللغات التي لا تتكلم إلا في مساحة محكمة الحدود بعيدة عن ملتقى طرق المواصلات الكبرى — التي تختلط فيها الأجناس — ذات طابع حوشي بّين في غالب الأحيان . فاللتوانية أكثر اللغات الهندية الأوروبية جوشية ، لأنها لغة قوم زراعيين يقطنون إقليم غابات فقير ، في معزل عن الأقطار الأوروبية الكبيرة . وأصلح الأماكن للمحافظة على سلامة اللغة هي الأقاليم الجبلية وأطراف أشباه الجزر حيث يضؤل التأثير الخارجي . ومن ثم احتفظت البسكية بطابعها لانحصارها بين وديان البرينيه ، وكذلك البريتانية لتحصنها وراء المحيط .

يؤثر المسكن أيضاً على تطور اللغات . فإذا كان السكان مغلغلين متفرقين ، فإن هذا التبديد يساعد على الانقسام إلى لهجات . وإذا كان السكان يعيشون مجتمعين في محلات ومدن ، فإن هذا النوع من الحياة يساعد على خلق اللغات المشتركة التي ليست في واقع الأمر إلا منزلة وسطى بين لغات الطبقات الاجتماعية المختلفة التي تضمها الحلة أو المدينة . ومن ذلك نرى أن التأثير الاجتماعي لا يعوق تطور اللغة أو يعجل به فحسب ، بل أيضاً يمين اتجاه هذا التطور ومداه . وكل ما قلناه فيما سبق عن أحوال اللغات المشتركة واللهجات واللغات الخاصة يصلح تمثيلاً لهذا المبدأ العام .

وتوجه العوامل الاجتماعية نشاطنا العقلي أيضاً . فتاريخ اللغات حين يشمل فترة طويلة من الزمن ، يسمح لنا بأن نثبتين بعض تأثير التطور الاجتماعي على عقلية البشر . وقد لاحظنا مثلاً اتجاه اللغات العام نحو التخلص من الخصائص الغيبية لتفسير في سبيل العقلية ونحو نبذ التعبير عن الأفكار المشخصة لترقى صعداً في معارج التجريد . ونحو اللغات الهندية الأوروبية في أقدم صورها أكثر ذاتية

(١) جدس Geddes : Study of a Canadian French dialect ، ونقل عنه Meyer Lübke في Germ-Rom — Monatschrift مجلد ١ ، ص ١٣٣ .
(٢) هـ . مير H. Meyer : Die Sprache der Buren ، جوتنجن (١٩٠١) .

وتشخيصاً مما صار إليه فيما بعد ، ففكرة الزمن في الهندية الأوربية تكاد تنحصر في التعبير عن الناحية الذاتية ، أى في الدلالة على زمن الاستغراق ؛ وبمرور العصور اتجهت إلى التعبير عن فكرة الزمن بمعناه الحقيقي ، أى فكرة اللحظة .

وبحث لغات البدائيين يعضد هذه الملاحظة المستخرجة من التاريخ . فهذه اللغات تقدم لنا حالة لغوية ليس فيها نصيب أولاً يكاد يكون فيها نصيب لما نسميه بالمدينة . فهي مفعمة بالفصائل الشخصية والخاصة وبذلك تختلف عن لغات المتحضرين ، التي تسير فيها الفصائل دائماً نحو التدرج والتعميم . ذلك أن البدائي يعبر بدقة نادرة عن جحفل من التفاصيل المادية التي تغيب عنا . ويوجه إلى الاعتبار المكانية مثلاً نصيباً من الالتفات يفوق النصيب الذي نوجه نحن إلى الاعتبار الزمنية . إذ أن الحدث يمثل في ذهنه محصوراً بجزء . والروابط المكانية التي بين الأشخاص والأشياء يعبر عنها في لغته بفصائل خاصة كالروابط الزمنية أو أكثر منها^(١) . ونحن نعرف أن الزمن أرفع من المكان في مرتبة التجريد . ومن ثم نرانا نحن المتحضرين نسقط من نظامنا الصرفي فكرة الحيز الشخصية ونقبل بارتياح على التعبير عن فكرة الزمن المجردة . وهذه نتيجة للمدينة .

لذلك نرى الطريقة التي تتلشى بها الفصائل التشخيصية من اللغات تعضد أهمية الدور الذي تلعبه المدينة هنا . ومن أوضح الحالات التي من هذا القبيل حالة المثنى في الإغريقية (انظر ص ١٣٤) . فالستعمال المثنى في اللهجات مرتبط بدرجة المدينة : واللهجات التي فقدت هذا العدد منذ فترة ما قبل التاريخ هي نفس اللهجات التي كان يتكلمها أكثر الناس ثقافة ، ولهجات المستعمرات سبقت في ذلك لهجة الوطن الأصلي ؛ ونجد اللهجة الواحدة تحتفظ بالمثنى في القارة وتفقد عندما تستعمل في آسيا الصغرى أو في الجزر . هذه القاعدة عامة وتحلو من الاستثناء إذا غضبنا النظر عن بعض اللهجات كالأتيكية حيث تتدخل تأثيرات خاصة وثانوية ، وإن كان تعرف هذه التأثيرات تعرفاً جيداً يعضد القاعدة . ولهجات العواصم ، كما قلنا من قبل ، أشد محافظة من لهجات المستعمرات : لأن الأخيرة تمثل لغة صفوة سكان

المدن الإغريقية ، لغة المفصر الذى يعد أكثر العناصر نشاطاً وذكاً ، وحيوية .
ففى المستعمرات بدأت عوامل الحضارة فى الازدهار ، وكان الأدب فى مقدمة هذه
العوامل . وعلى هذا ، فالاحتفاظ بالثنى يبدو كما لو كان دليلاً على حضارة متأخرة ،
واختفاؤه على العكس من ذلك يدل على تقدم الحضارة .

ولكن ينبغى لنا ألا نبالغ فى أهمية المثل الذى استعمرناه من اللغة الإغريقية ،
لأن هناك أسباباً أخرى ، لغوية خالصة ، تفسر بدورها أن المثنى قد اختفى فى
المستعمرات قبل أن يختفى فى العواصم (انظر ص ٣٦٤) . ولكن المثل الذى ضربناه
باللغة الإغريقية ليس مقصوداً عليها ؛ إن تاريخ معظم اللغات ليؤيده ، وحتى تلك
اللغات التى لا تنضوى تحت لواء المجموعة الهندية الأوروبية . ونفس بدعة حذف
المثنى تراعى أيضاً فى اللغات السامية والفينية الأجرية . فاللغات التى تعد من أقدم
اللغات السامية تقدماً ، لغات الحضارة القديمة كالأشورية والعبرية والآرامية
والحبشية ، لم تعد تستعمل المثنى إلا فى بعض كلمات ذات دلالة مزدوجة ؛ أما اللغة
العربية — التى كانت حتى القرن السابع الميلادى لغة بدو ذوى حظ يسير من
الحضارة — فقد احتفظت بالمثنى فى الاسم والضمير والفعل ؛ ويمكننا أن
نقول أيضاً إن درجة الحضارة تحدد درجة الاحتفاظ بالمثنى فى تاريخ اللغة العربية .
وفى المجموعة الفينية الأجرية ، نرى أن اللهجتين اللتين احتفظتا بالمثنى هما أقل
اللهجات تطوراً وهما اللهجتان الفوجولية والأستياكية ، ولم نعد نعثّر للمثنى على
أثر لا فى الهنغارية ولا فى الفنلندية . وإذا هبطنا درجات فى سلم الحضارات ،
وجدنا لغات تستعمل المثلث ، كما هو الحال فى لغات بعض الشعوب الأمريكية
أو الأسترالية (١) .

ومما لا يحتاج إلى تنبيه أننا حين ندرس هنا العمليات النفسية التى تعدد
العدة للغة ، فإننا نغض النظر عن الظروف النحوية التى تتسكون فيها اللغة لأنهما
شيئان يجب العناية بالفرقة بينهما . إن ضعف التشخيص لا يحول دون التعقيد
النحوى . وليست هناك أية صلة تقام بين طبيعة أطوار النفس وبين العدد أو بين
ما فى الفصائل النحوية . من تعقيد . فالفصائل النحوية تعتمد قبل كل شيء على

الذاكرة . والذاكرة عند البدائيين نامية عادة نمواً كبيراً . لقد فرضتها عليهم حاجيات كبيرة الأهمية وضرورات حيوية بالنسبة لهم . فنشاطهم العقلي لا تعاونته تلك الطرق العديدة التي تحل في سهولة ويسر عند المتحضرين محل الذاكرة وتورثها الكسل دون أى ضرر في ذلك . ويخيل إلى أنه لم يهتم بعد بدراسة أثر الذاكرة في تطور اللغات . مع أننا نشاهد بعض لغات غير المتحضرين قد ملئت بالصيغ المتنوعة وظلت بهذا الوضع زمناً طويلاً جداً ، فنظمها الصرفية شديدة التعقيد أو أن مفرداتها كثيرة الثراء ، ومثل هذه اللغات مرتبطة دون شك بتطور عجيب للذاكرة . ومن الطبيعي أن تكون الذاكرة محافظة . وعلى هذا فليس البناء النحوي هو الذى يكشف عن آثار اختلافات الحضارة ، وإنما يكون ذلك في العناية التي يعبر بها عن التفاصيل الشخصية . فهناك رابطة بين درجة الحضارة والطابع الشخصى إلى حد ما لأطوار النفس .

وبما أن ظاهرة سير اللغة نحو التجريد مرتبطة بتطور الحضارة ، فإنها ترينا كيف يجب علينا أن نفسر الأمثلة السابقة . إننا نعلم تماماً أن اللغة تعدّ بمثابة انعكاس للضمير البشرى ، وأنها تعرفنا صورة النفس التي تحملها . ونفس الإنسان المتحضر أكثر قابلية للتجريد من نفس الإنسان البدائي لأن ظروف حياة المتحضر توجه العقل إلى الاعتبار المجردة على حساب كل ما هو مشغول . فالتجارة تستلزم الحساب وبعبارة أخرى التفكير ؛ وتطور الحياة السياسية تجذب عادة ذوق الآراء العامة ؛ وتمرين الفكر ينتقل بطبيعة الحال من الأمور الشخصية إلى الأمور المجردة . ونستطيع أن نحكم على ذلك بأنفسنا ، فلو أننا وازنا بيننا وبين أناس قريبي الجوار منا فآية فروق تتضح لنا ، من وجهة نظر التجريد ، بين العقليتين . والفلاح الأملى الذى يتكلم الفرنسية مثله تقريباً مثل غير المتحضر الذى ليس في متناول يده التعبير عن آرائه غير اللغة الفرنسية . وإن عقليته لتصورها أداة ناقصة . وعلى هذا فهو لا يعجز عن أن يستكمل ما فيها من نقص ليجعلها صالحة لاستعماله . فهو يحيد بها عن المجردات ليسلكها في الشخصيات التي يهتم بها دون سواها . إنه ليدخل فيها مثلاً أسماء الأصوات وصيغ التعجب ؛ وإنه ليحل المفردات محل

الفصائل المشخصة إذا غابت ؛ وهو يقضى على كل ما هو قطعى ومنطوقى فى جملتنا بإساءة نطقها وتفسيكها أو صالها .

لا ينبغي لنا أن نعجب حين نرى لغة غير المتحضرين تفيض بالمصطلحات المشخصة التى يذهلنا ما فيها من تنوع وتحديد . وهى حالة نجدها فى كل اللغات الريفية . لقد شوهـ ذلك فى اللغة الليتوانية ، حيث ألفت قصة بأسماء أصوات متتابعة^(١) . ونستطيع أن نجد ذلك أيضاً فى رطانات الريف الفرنسى . فلنوازن بين قصة تؤلف بالرطانة الريفية الخالصة وبين خطاب يلقىـه فى مدرسة المناطقة أحد كتابنا السياسيين ممن عاشوا فى القرن الثامن عشر . فالقصة تفيض بالشخصات ؛ وهى مفككة ، ممجوجة ، لامنطق فيها إلا أنها رغم هذا كله جدّ معبرة . أما الخطاب فينطوى على تتابع عبارات مجردة وعامة ، متسلسلة كما لو كانت قضية منطقية . هذان ضربان من اللغة يمثلان ضربين من التفكير . ويجب ألا نطرب من فكرة أن لغاتنا الكبرى ذات الحضارة قد خلت تماماً من كل تصوف . إذ ليس هذا إلا فى الظاهر خفى . لأن عنصر التصوف ليس فى اللغة وإنما فى الفكر . أو على الأصح فإنه إذا وجد فى اللغة فقد وجد من قبل فى الفكر . ومع ذلك ، فلسنا فى حاجة كبيرة إلى البحث طويلاً فى لغة الأميين من عشريناتنا لنرى عنصر التصوف يظهر أمامنا فى خير مستقر له . فسلطان الاسم وخلق قصص أسماء الأعلام واستعمال الصيغ والرقى السحرية ، ومنع استعمال المفردات فى « فلكلور » ريفنا ، أبعاد هذا كله شيئاً آخر غير عقلية المتخلفين عن الحضارة وقد تفتحت فى لغة المتحضرين ؟ .

ولكن بعد هذا كله ، لو أننا تصورنا طوفاناً سياسياً أو اجتماعياً قد اكتسح الحواجز الموجودة اليوم بين المجموعات البشرية وخلط ممثلى الطبقات والجنسيات والأجناس المختلفة بعضهم ببعض ، وقضى على حضارتنا القديمة واستبدل بها حضارة جديدة تقوم على أسس أخرى ، لو صح هذا كله ألن تكون اللغة أول

(١) Schallnachahmungen und Schallverba im Litauischen : Leskien

ما يصاب بهذا التغيير ؟ وهذه العقلية الصوفية والشخصية التي كاد يقضى عليها في لغاتنا الكبرى المشتركة ، ألن تعود لها قوتها لتشكّل لغاتنا من جديد وفقاً لها وتفرض عليها عاداتها ؟ وماذا تصبح إذن اللغة الفرنسية ؟ لا أكثر ولا أقل من لغة قوم تخلفوا عن الحضارة . ستسلك طريقاً مضاداً للطريق الذي سلكته من قبل والذي أدى بها إلى حالتها الراهنة . سنتنقل من التجريد إلى التعبير بالمشخصات ، وستمثليء بالفصائل الصوفية والذاتية . هل سيكون هناك ما يدعو إلى تقدم اللغة أو أنها تدور حول نفسها وتتأخر عما هي عليه ؟ لا هذا ولا ذاك ، على الأقل وفقاً لوجهة النظر اللغوية . وليس لنا أن نقيم وزناً للزاياء أو الأضرار ، التي تعدّ نسبية ، لتغير حضارة من الحضارات ، حتى ولا للعودة إلى ما يسمى التبرير . وليس لنا الحق في أن نعدّ لغة من اللغات عقلية ومجردة ، في مرتبة أعلى من لغة مشخصة وصوفية ، لا شيء إلا أنها لغتنا . إننا في مثل هذه الحالة نواجه عقليتين مختلفتين لا تعدم كل منهما أن تكون لها مزاياها . ولا شيء يدل على أن أهل سريوس لا ينظرون إلى عقلية المتحضر كما لو كانت مرادفة لفساد النوع .

ومن هذا ، نرى كيف ينبغي لنا أن ندرك افتراض التقدم اللغوي . التقدم بالمعنى المطلق لا سبيل إليه ؛ كما لا سبيل إلى التقدم المطلق في الأخلاق أو في السياسة . هناك أوضاع مختلفة يتلو بعضها بعضاً ، وفي كل وضع منها تسيطر بعض قوانين عامة يفرضها توازن القوى الموجودة . وهذا ما يصيب اللغة . نستطيع أن نرى في تاريخ اللغات بعض تقدمات نسبية . فهناك لغات تتلاءم مع بعض حالات الحضارة إن قليلاً وإن كثيراً . فالتقدم يتكون من أن اللغة تتلاءم وحاجات المتكلمين بها على خير وجه . ومهما يكن هذا التقدم حقيقياً ، فإنه لن يكون نهائياً إطلاقاً . إن صفات لغة من اللغات تظل قائمة طالما احتفظ أهلها بنفس عاداتهم في التفكير ؛ وإلا فهذه الصفات قابلة للفساد والاندثار والضياع . ومن الخطأ أن نعدّ اللغة كائناً مثالياً ، تتطور مستقلة عن البشر ، وتتبع أغراضها الخاصة بها .

إن اللغة لا توجد خارج أولئك الذين يفكرون ويتكلمون . إنها تمد جذورها في أعماق الضمير الفردي ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه الناس . غير أن الضمير الفردي ليس إلا عنصراً من عناصر الضمير الجمعي الذي يفرض قوانينه على كل فرد من الأفراد . وعلى هذا فتطور اللغات ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور الجماعات . فليس لنا أن نرى فيه سيراً في طريق متصل نحو غاية محددة . وإن دور اللغوى لينتهي حينما يعلم أن اللغة لعبة تتقاذفها القوى الاجتماعية وردود أفعال التاريخ .

المراجع

ملاحظة : القائمة التالية لاتسمى إطلافاً إلى أن تعد ثباتاً كاملاً للمسائل التي تتصل باللغة بل لاتزعم أنها تستوعب مراجع المسائل التي تعرضنا لها في هذا الكتاب . وهي لا تضم إلا أهم المؤلفات التي تعد بتنوعها خير ما يعبر عن فكرة المظاهر الثابتة لعلم اللغة . لقد أفردنا للمؤلفات الفرنسية مكاناً يعتبر كبيراً نسبياً لتبين الدور الذي قامت به فرنسا في تطور الدراسات اللغوية .

أولاً : المجلات

١ - باللغة الفرنسية

Annales de Bretagne, Rennes, 1886 et suiv.	١
Année sociologique, Paris 1898 et suiv.	٢
Bulletin de dialectologie romane, Bruxelles 1909 et suiv.	٣
Bulletin de la Société de linguistique, Paris.	٤
Journal asiatique, Paris, 1822 et suiv.	٥
Mémoires de la Société de linguistique, Paris.	٦
La Parole, Paris.	٧
Revue Celtique, Paris, 1870 et suiv.	٨
Revue internationale de Sociologie, Paris.	٩
Revue de métaphysique et de morale, Paris 1893 et suiv.	١٠
Revue de philologie, de littérature et d'histoire ancienne Paris, 1877 et suiv.	١١
Revue de phonétique, Paris, 1911 et suiv.	١٢
Revue des études anciennes, Bordeaux, 1897 et suiv.	١٣
Revue des études ethnographiques et sociologiques, Paris, 1908 et suiv.	١٤
Revue des études basques.	١٥

Revue des études grecques, Paris, 1888 et suiv.	١٦
Revue des langues romanes, Montpellier, 1870 et suiv.	١٧

٢ — باللغة الإنجليزية

American Journal of Philology, Baltimore.	١٩
Classical Philology, Chicago, 1906 et suiv.	٢٠
Classical Review (The), London, 1887 et suiv.	٢١
Harvard Studies in classical philology, Boston 1890 et suiv.	٢٢
Transactions of the Philological Society, London.	٢٣

٣ — باللغة الألمانية

Annalen der Naturphilosophie (Ostwald's Annalen).	٢٤
Archiv für das Studium der neueren Sprachen und Litteraturen, Braunschweig, 1846 et suiv.	٢٥
Beiträge zur Geschichte der deutschen Sprache und Literatur (Paul und Braune's Beiträge), Halle, 1874 et suiv.	٢٦
Beiträge zur Kunde der indogermanischen Sprachen (Bezenberger's Beiträge) Göttingen, 1877 et suiv.	٢٧
Finnisch-Ugrische Forschungen, Helsingfors, 1891 et suiv.	٢٨
Glotta, Göttingen, 1907 et suiv.	٢٩
Indogermanische Forschungen. Strassbourg, 1891 et suiv.	٣٠
Internationale Zeitschrift für allgemeine Sprachwissenschaft Leipzig, 1884 et suiv.	٣١
Neue Jahrbücher für das Klassische Altertum, Leipzig 1898 et suiv.	٣٢
Wörter und Sachen, Heidelberg, 1909 et suiv.	٣٣
Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, Leipzig 1847 et suiv.	٣٤

Zeitschrift für deutsches Altertum (Haupt's Zeitschrift), Leipzig. 1841 et suiv.	٣٥
Zeitschrift für deutsche Wortforschung, Strassburg, 1900 et suiv.	٣٦
Zeitschrift für vergleichende Sprachforschung (Kuhn's Zeitschrift), Berlin, 1852 et suiv.	٣٧
Zeitschrift für romanische Philologie (Gröber's Zeitschrift), Halle, 1877 et suiv.	٣٨
Sitzungsberichte der kais. akademie des Wissenschaften. Wien 1848 et suiv.	٣٩
Berichte über die Verhandlungen des kön. sächs. Gesellschaft der Wissenschaften, Leipzig, 1848 et suiv.	٤٠

٣ — باللغة الإيطالية

Archivio glottologico Italiano, Roma - Torino - Firenze 1873 et suiv.	٤١
Scientia, Bologna, 1907 et suiv.	٤٢
وتحتوى هذه المجلة أيضا على مقالات باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية .	

ثانياً : الكتب

١ — باللغة الفرنسية

L. Adam, Le genre dans les diverses langues, Paris 1883.	٤٣
Ch. Bally, Le langage et la vie, Genève 1913.	٤٤
Ch. Bally, Précis de stylistique, Genève 1905.	٤٥
Ch. Bally, Traité de stylistique française, Paris-Heidelberg 1909, 2 Vol.	٤٦
D. Barbelenet, De l'aspect verbal en latin, Paris 1913.	٤٧

PH. Berger, Histoire de l'écriture dans l'antiquité. Paris 1891.	٤٨
J. Bloch, La formation de la langue marathe, Paris 1914.	٤٩
M. Bonnet, Le latin de Grégoire de Tours, Paris 1890.	٥٠
E. Bourciez, Éléments de linguistique romane, Paris 1910.	٥١
Bourdon, L'expression des émotions et des tendances dans le langage, Paris 1892.	٥٢
P. Boyer et N. Spéranski, Manuel de langue russe, Paris 1905.	٥٣
M. Bréal, Mélanges de mythologie et de linguistique, Paris 1878.	٥٤
M. Bréal, Essai de sémantique 3 ^e édit. Paris 1904.	٥٥
F. Brunot, Grammaire historique de la langue française, Paris.	٥٦
F. Brunot, Histoire de la langue française, Paris, 5 vol.	٥٧
P. Cadière, Phonétique annamite, Paris 1901.	٥٨
L. Clédat, Dictionnaire étymologique de la langue française.	٥٩
L. Couturat et Leau, Histoire de la langue universelle, Paris 1903.	٦٠
A. Cuny, Le nombre duel en grec, Paris 1906.	٦١
A. Darmesteter, La vie des mots étudiée dans leur signification, Paris 1887.	٦٢
A. Darmesteter, Cours de grammaire historique de la lan- gue française.	٦٣
J. Darmesteter, Ormazd et Ahriman, Paris 1877.	٦٤
A. Dauzat, Essai de méthodologie linguistique, Paris 1906.	٦٥
Densusianu, Histoire de la langue roumaine, Paris 1901.	٦٦
E. Deschanel, Les déformations de la langue française, Paris 1898.	٦٧
G. Dottin, Manuel pour servir à l'étude de l'antiquité celtique, 2 ^e édit. Paris 1915.	٦٨
A. Dutens, Etude sur la simplification de l'orthographe Paris 1906.	٦٩
A. Ernout, Les éléments dialectaux du vocabulaire latin, Paris 1909,	٧٠

G. Ferrand, Essai de phonétique comparée du malais et des dialectes malgaches, Paris 1909.	71
C. Fossey, Manuel d'assyriologie, t.I, Paris 1904.	72
R. Gauthiot, Essai sur le vocalisme du sogdien, Paris 1913.	72
R. Gauthiot, La fin de mot en indo-européen, Paris, 1913.	73
A. Van Gennep, Religions, moeurs et légendes, Paris 1908-1909	74
Gilliéron et Mongin, Etude de geographie linguistique (Scier dans la Gaule romane) Paris 1905.	75
Gilliéron et M. Roques, Étude de geographie linguistique, Paris 1912.	76
J. Van Ginneken, Principes de linguistique psychologique (traduit du hollandais) Paris-Amsterdam-Leipzig 1907	77
M. Grammont, Traité pratique de Prononciation française, Paris 1914.	87
M. Grammont, La dissimilation consonantique. Dijon 1895	89
L. Havet, Métrique grecque et latine 3e édit. Paris 1893.	80
V. Henry, Précis de grammaire comparée du grec et du latin 6e édit. Paris 1918	81
V. Henry, Essai sur l'analogie, Paris, 1883.	82
V. Henry, Antinomies linguistiques, Paris 1896	83
A. Hovelacque, La linguistique, 4e edit. Paris 1886.	84
H. Hubert et M. Mauss, Melanges d'histoire des religions, Paris 1909.	85
C. Juret, Dominance et resistance dans la phonetique latine, Paris 1913	87
B. Leroy, Le langage, Paris, 1905.	87
L. Levy - Bruhl, Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures, Paris 1910.	88
T. Loth, Les mots latins dans les langues brittoniques, Paris, 1892.	89

V. Magnien, Le futur grec, Paris 1913.	٩٠
J. Marouzeau, la phrase à verbe être en latin, Paris 1910.	٩١
A. Mazon, Emploi des aspects du verbe russe, Paris 1914.	٩٢
A. Meillet, Aperçu d'une histoire de la langue grecque, 2e édit. Paris 1920.	٩٣
A. Meillet, Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes, 4e édit. Paris.	٩٤
A. Meillet, Caractères généraux des langues germaniques.	٩٥
A. Meillet, Recherches sur l'emploi du génitif-accusatif en vieux-slave, Paris 1897	٩٦
A. Meillet, Les dialectes indo-européens. Paris 1908.	٩٧
Mélanges de linguistiques offerts à F. De Saussure, Paris 1908.	٩٨
Mélanges linguistiques offerts à A. Meillet, Paris 1902.	٩٩
Mélanges d'indianisme offerts à Sylvain Levi, Paris 1911.	١٠٠
Mélanges Louis Havet, Philologie et Linguistique, Paris 1909.	١٠١
G. Millardet, Étude de dialectologie landaise, Toulouse 1910.	١٠٢
Max Muller, La science du langage, trad. Harris et Perrot, Paris 1867.	١٠٣
Max Muller, Nouvelles leçons sur la science du langage, trad. Harris et Perrot, 1867—1868.	١٠٤
K. Nyrop, Grammaire historique de la langue française, 4. vol. Paris 1913.	١٠٥
G. Paris, Mélanges Linguistiques, Paris, 1906	١٠٦
P. Passy, Étude sur les changements phonétiques, et leurs caractères généraux, Paris 1890.	١٠٧
H. Pernot, Étude de linguistique néo — hellénique, I, Paris 1907.	١٠٨
H. Pernot, Grammaire du grec moderne, Paris.	١٠٩
E. Renan, Essai sur l'origine du langage, 3e édit, Paris 1862.	١١٠

- E. Renan , Grammaire générale et comparée des langues sémitiques,I. ١١١
- T. Rosset, Les origines de la prononciation moderne étudiées au XVIIe siècle, Paris, 1911. ١١٢
- L. Rousset, Eléments de Phonétique. générale, Paris 1911 . ١١٣
- P. Rousselot et F. Laclotte, Précis de prononciation française, Paris. ١١٤
- P. Rousselot, Principes de phonétique expérimentale, Paris 1897—1909 ١١٥
- P. Rousselot, Les modifications phonétiques du langage étudiées dans le patois d'une famille de Cellefrouin, Paris 1892. ١١٦
- Ch. Sacleux, Grammaire des dialectes swahilis, Paris 1909. ١١٧
- Ch. Sacleux, Essai de phonétique avec son application à l'étude des idiomes africains, Paris 1905. ١١٨
- L. Sainéan, L'argot ancien, Paris 1896. ١١٩
- F. De Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipzig 1879. ١٢٠
- F. De Saussure, Cours de linguistique générale, Paris-Lausanne, 1916. ١٢١
- Ch-A. Séchéhaye, Programme et méthodes de la linguistique théorique, Genève- Paris- Leipzig, 1908. ١٢٢
- P. Stapfer, Récréations grammaticales et littéraire, Paris, 1900. ١٢٣
- A. Terracher, Les aires morphologiques dans les parlers populaires du nord-ouest de l'Angoumois, Paris 1914 ١٢٤
- A. Thomas, Mélanges d'étymologie française, Paris 1902.
Essais de philologie française, Paris 1898. Nouveaux essais de philologie française. Paris 1905. ١٢٥
- Ch. Thurot, La prononciation française depuis le commencement

- du XVI^e siècle d'après les témoignages de grammairiens,
Paris 1881-1883, 2 vol. ١٢٦
- Leite de Vasconcellos, Esquisse d'une dialectologie portugaise,
Paris 1901. ١٢٧
- H. Weil, L'ordre des mots, 3^e édit. Paris, 1879. ١٢٨
- D. Whitney, La vie du langage (trad. de l'anglais), 3^e édit,
Paris 1880. ١٢٩

٢ — باللغة الإنجليزية

- Fr. Boas, Handbook of American Indian Languages (Smithsonian
Institution Bureau of American Ethnology, Bulletin 40),
Washington 1911. ١٣٠
- J. Byrne, General principles of the structure of language,
London 1885 ١٣١
- P. Giles, A short manual of Comparative Philology, 2^e edit.
London 1901. ١٣٢
- O. Jespersen, on Growth and Structure of the English Language
2^e edit. Leipzig 1912. ١٣٣
- O. Jespersen, Progress in Language, 2^e edit.. London. ١٣٤
- J. Morris-Jones, A Welsh Grammar, Oxford, 1913. ١٣٥
- F.-W.-H. Migeod, The languages of West Africa, London,
1911—1913, 2 vol. ١٣٦
- H. Oertel, Lectures on the Study of Language, New York
and London, 1902. ١٣٧
- A.-H. Sayce, Introduction to the Science of Language, 2 vol, 3^e
édit. London, 1890. ١٣٨
- Wheeler Scripture, The elements of experimental Phonetics,
New York and London, 1902. ١٣٩

- H. Sweet, Primer of Phonetics, 2e edit. Oxford, 1902. ١٤٠
D. Whitney, Language and the Study of Language. New York
and London. ١٤١

٣ — باللغة الألمانية

- Baudouin De Courtenay, Versuch einer Theorie phonetischer
Alternationen, Strassburg, 1895. ١٤٢
F. Bechtel, Die Hauptprobleme der indogermanischen Lautlehre
seit Schleicher, Göttingen, 1892. ١٤٣
O. Behaghel, Geschichte der deutschen Sprache, Strassburg 1911. ١٤٤
F. Bopp, Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend,
Griechischen, Lateinischen, Letthauischen, Gothischen
und Deutschen, Berlin, 1833. ١٤٥
K. Borinski, Der Ursprung der Sprache, Halle, 1911. ١٤٦
O. Bremer, Deutsche Phonetik, Leipzig 1893. ١٤٧
C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der
semitischen Sprachen, Berlin, 1907—1908 2 vol. ١٤٨
O. Broch, Slavische Phonetik, Heidelberg, 1911. ١٤٩
K. Brugmann und B. Delbrück, Grundriss der vergleichenden
Grammatik der indogermanischen Sprachen, 2e édit. Strassburg ١٥٠
Th.-W. Danzel, Die Anfänge der Schrift, Leipzig, 1912. ١٥١
B. Delbrück, Grundfragen der Sprachforschung, 1901. ١٥٢
B. Delbrück, Einleitung in das Sprachstudium, 5e édit. Leipzig, 1908 ١٥٣
B. Delbrück, Zur Stellung des Verbums, Leipzig, 1911. ١٥٤
O. Dittrich, Grundzüge der Sprachpsychologie, I, Halle, 1904. ١٥٥
O. Dittrich, Die Probleme der Sprachpsychologie, Leipzig, 1914. ١٥٦
K.-O. Erdmann, Die Bedeutung des Wortes, 2e édit. Leipzig, 1910. ١٥٧
S. Feist, Europa im Lichte der Vorgeschichte, Berlin, 1910. ١٥٨

S. Feist, Kultur, Ausbreitung und Herkunft der Indogermanen, Berlin, 1913.	109
F.-N. Finck, Die Aufgabe und Gliederung der Sprachwissenschaft Halle, 1905.	170
F.-N. Finck, Die Haupttypen des Sprachbaus, Leipzig, 1910.	171
F.-N. Finck, Die Sprachstämme des Erdkreises, Leipzig, 1909.	172
G. von der Gabelentz, Die Sprachwissenschaft, 2e édit, Leipzig, 1901.	173
O. Ganzmann, Ueber Sprach und Sachvorstellungen, Berlin 1902.	174
H. Gutzmann, Physiologie der Stimme und Sprache, Braunschweig 1909.	175
H. Hirt, Der indogermanische Ablaut, Strassburg, 1900.	176
H. Hirt, Die Indogermanen, ihre Verbreitung, ihre Urheimat und ihre Kultur, 2 vol., Strassburg, 1905—1907.	177
O. Hoffmann, Geschichte der griechischen Sprache, Leipzig 1911.	178
W. Horn, Untersuchungen zur neuenglischen Lautgeschichte, Strassburg, 1905.	179
W. Horn, Historische neuenglische Grammatik, I, Strassburg 1908	170
H. Hübschmann, Das indogermanische Vocalsystem, Strassburg, 1885.	171
K. Jaberg, Sprachgeographie, Aarau, 1908.	172
O. Jespersen, Lehrbuch der Phonetik, 2e édit, Leipzig, 1913	173
F. Kluge, Urgermanisch, Strassburg, 1913.	174
F. Kluge, Von Luther bis Lessing, 4e édit. Strassburg, 1904	175
F. Kluge, Unser Deutsch, 2e édit. Leipzig, 1910	176
P. Kretschmer, Einleitung in die Geschichte der griechischen Sprache, Göttingen, 1896.	177

- F. Mauthner, Beiträge zu einer Kritik der Sprache, 3 vol.,
Stuttgart, 1900—1902. ११४
- C. Meinhof, Grundriss einer Lautlehre der Bantusprachen 2e
édit. Berlin, 1910. ११५
- R. Meringer und Mayer, Versprechen und Verlesen, Stuttgart,
1895. ११६
- W. Meyer—Lubke, Einführung in das Studium der romanischen
Sprachwissenschaft, Heidelberg, 1901. १११
- F. Misteli, Charakteristik der hauptsächlichsten Typen des
Sprachbaus, Berlin, 1893. ११२
- L. Morsbach, Ueber den Ursprung der neuenglischen Schrift-
sprache, Heilbronn, 1888. ११३
- H. Möller, Semitisch und Indogermanisch, Kjöbenhavn, 1906. ११४
- F. Müller, Grundriss der Sprachwissenschaft, Wien, 1876—1888. ११०
- K. Nyrop, Das Leben der Wörter (trad. du danois par Vogt),
Leipzig, 1903 १११
- H. Osthoff, Das Verbum in der Nominalkomposition, Iena. 1877. ११५
- H. Paul, Prinzipien der Sprachgeschichte, 4e édit. Halle, 1909 ११४
- H. Pedersen, Vergleichende Grammatik der keltischen Sprachen
2 vol., Göttingen, 1909—1913 ११५
- P. Persson, Beiträge zur indogermanischen Wortforschung,
2 vol, Uppsala und Leipzig, 1912 ११६
- J. Poirot, Phonetik (aus dem Handbuch der physiologischen
Methodik, hsggb. von R. Tigerstedt), Leipzig 1911 १११
- V. Porzevinski, Einleitung in die Sprachwissenschaft (trad.
du russe par E. Böhme), Leipzig, 1910. ११२
- J. Von Rozwadowski, Wortbildung und Wortbedeutung,
Heidelberg, 1904. ११३

- W. Scherer, Zur Geschichte der deutschen Sprache, 2e édit.
Leipzig, 1878 193
- A. Schleicher, Compendium der vergleichenden Grammatik
der indogermanischen Sprachen 1861 (4e édit., 1874). 190
- A. Schleicher, Ueber die Bedeutung der Sprache für die
Naturgeschichte der Menschen 1865. 197
- A. Schleicher, Die deutsche Sprache, 2e édit, 1869 199
- A. Schleicher, Sprachvergleichende Untersuchungen, 2 vol.
1848—1850 198
- J. Schmidt, Die Verwandtschaftsverhältnisse der indogermanischen
Sprachen, Weimar, 1872 199
- O. Schrader, Sprachvergleichung und Urgeschichte, Jena, 1890. 200
- O. Schrader, Die Indogermanen, Leipzig 1911. 201
- O. Schrader, Reallexikon der indogermanischen Altertumskunde,
Strassburg, 1901 202
- H. Schuchardt, Slawodeutsches und Slawoitalienisches. 203
- H. Schuchardt, Ueber die Lautgesetze gegen die Junggram-
-matiker, Berlin, 1885. 202
- E. Sievers, Grundzüge der Phonetik, 5e édit, Leipzig, 1901 200
- H. Socin, Schriftsprache und Dialekte im deutschen, Heilbronn,
1888. 207
- H. Steinthal, Abriss der Sprachwissenschaft, 2e édit, Berlin, 1881. 207
- F. Stolz, Geschichte der lateinischen Sprache, Leipzig, 1911 208
- J. Storm, Englische Philologie, 2e édit., 1892. 209
- W. Streitberg, Urgermanische Grammatik, Heidelberg 1894 210
- S. Szimonyi, Die ungarische Sprache, Strassburg, 1907 211
- J. Szuinyei, Finnisch—ugrische Sprachwissenschaft, Leipzig 1910 212

- A. Thumb, Die griechische Sprache im Zeitalter des Hellenismus,
Strassburg, 1901 ٢١٣
- R. Thurneysen, Die Etymologie, Friburg-i.-B, 1904. ٢١٤
- M. Trautmann, Die Sprachlaute im allgemeinen und die Laute
des englischen, französischen und deutschen im besonderen
Leipzig, 1884—1886 ٢١٥
- W. Viëtor, Elemente der Phonetik, 5e édit. Leipzig 1904. ٢١٦
- W. Vondrak, Vergleichende slavische Grammatik, 2 vol.,
Göttingen, 1906—1908. ٢١٧
- K. Vossler, Sprache als Schöpfung und Entwicklung,
Heidelberg, 1905. ٢١٨
- K. Vossler, Frankreich's Kultur im Spiegel seiner Sprachen-
entwicklung, Heidelberg, 1913. ٢١٩
- J. Wackernagel, Studien zum griechischen Perfektum, Göttingen,
1904. ٢٢٠
- D. Westermann, Grammatik der Ewe—Sprachen, Berlin 1907 ٢٢١
- H. Winkler, Der grammatische Geschlecht, Berlin 1889. ٢٢٢
- W. Wundt, Völkerpsychologie, Bd. I, Die Sprache, 3e éd.
Strassburg, 1911—1912 ٢٢٣
- A. Zauner, Romanische Sprachwissenschaft, Leipzig. ٢٢٤

٤ — باللغة الإيطالية

- M. Barone, Sui verbi perfettivi in Plauto e in Terenzio, Roma, 1908 ٢٢٥
- M. Barone, Sull' origine del genere grammaticale nell'
Indoeuropeo, Roma, 1909 ٢٢٦
- F. Ribezzo, I deverbativi sigmatici e la formazione del futuro
indoeuropeo, Napoli, 1907 ٢٢٧
- Trombetti, L'unità d'origine del linguaggio, Bologna, 1905. ٢٢٨

٥ — باللغة الدنمركية

- O. Jespersen, Sprogets logik. Köbenhavn, 1913 ٢٢٩
- H. Pedersen, Et Blik på Sprogvidenskabens Historie,
Köbenhavn, 1916 ٢٣٠
- V. Thomsen, Sprogvidenskabens historie, Köbenhavn, 1902. ٢٣١

الملحق الأول

إن كتاباً في علم اللغة فرغ من تأليفه عام ١٩١٤ يستدعى عدة تصحيحات ليجارى حالة العلم عام ١٩٢٤ . فقد حدث في السنوات الأخيرة ، ولم يكن ذلك مجرد مصادفة ، أن كان علم اللغويات العام موضوع مؤلفات متنوعة ، لم ر من قبل ما يماثلها عدداً أو قيمة .

فكتاب « دراسة في اللغويات العامة » تأليف الأستاذ فرديناند دي سوسير ، الذى نشر عام ١٩١٦ (الطبعة الثانية عام ١٩٢٢) لم يمكن الانتفاع به إلا بعد أن تم تأليف هذا الكتاب ، اللهم إلا بذكره مرجعاً مرة أو مرتين في ذيل الصفحات ؛ وهو ينطوى على نظرات مبتكرة عميقة ، كان من المفيد أن توضح بها عدة فصول من كتابنا هذا .

وحينما قارب هذا المؤلف نهاية طبعه ، نشر الأستاذ م . ميه « علم اللغة التازيخى وعلم اللغة العام » وهو مجموعة مقالات ، يكون مجرد إلحاقها بعضها ببعض عنصر مذهب فيه سعة وانسجام . وبما أن معظم هذه المقالات قد ظهرت من قبل في مجموعات مختلفة ، فقد أفدنا منها وأشارنا إليها مع ذكر مواضع النشر الأصلية . وظهر في نفس الوقت كتاب صغير يسمى « اللغويات أو علم اللغة » جعل فيه مؤلفه الأستاذ مروزو بصورة يسيرة واضحة المشا كل التى درسها اللغويون في متناول الجمهور .

وظهر بعد طبع مؤلفنا هذا ، كتابان فى الطبقة الأولى يحمل كل منهما نفس العنوان « اللغة » : أحدهما تأليف الأستاذ سبير^(١) والآخر تأليف الأستاذ جيسرسن^(٢) . وكما كان المؤلف يود لو أنه استطاع الرجوع إليهما ليغذى ويزين بهما الكثير من المسائل التى عرض لها ، وكان يود لو انتفع بكتاب الأستاذ

(١) Language, An Introduction to the study of speech . — نيويورك

عام ١٩٢١ .

(٢) Language : its nature , development and origin . لندن عام ١٩٢٢

ترومبتي (Elementi di glottologia في مجلدين ، بولونيا ١٩٢٢) حيث تدعم معلومات لغوية ، تكاد تكون مطلقة ، نظرية شخصية لتطور اللغة .

وقد كوّن بعض تلاميذ الأستاذ شوخارت Schuchardt ، بجمع منتخبات اختيرت في ذوق سليم من مؤلفات أستاذهم الواسعة ، كتاباً صغيراً لعلم اللغة العام يفيض بمعلومات قيمة ومفيدة . وهذا المؤلف — Hugo-Schuchardt Brevier — (هال ١٩٢٢) هو حقاً كما يدل عليه عنوانه الثاني « ein Vademekun der allgemeinen sprachwissenschaft . »

ويتناول الأستاذ فرديناند برينو علم اللغة العام في كتابه « الفكر واللغة » (باريس ١٩٢٢) دون أن يخرج من النطاق الفرنسي ؛ وهو يطبق منهجاً جديداً لدراسة العوامل اللغوية بترتيبها وفقاً للأفكار التي يراد التعبير عنها . والنقد الذي يوجهه إلى التبويب التقليدي القديم يتفق مع بعض الملاحظات الواردة في باب الفصائل النحوية .

وهناك توجيهات كثيرة ومفيدة تؤخذ من كتاب الأستاذ ميّارديه Millardet « علم اللغة واللهجات الرومانية » (مونبلييه وباريس ١٩٢٣) ؛ فقد تعرض فيه لمسائل أساسية تتناول المنهج اللغوي تعرضاً صريحاً وناقشها في حماس . وأخيراً يقدم Festschrift Wilhelm Streitberg الذي ظهر حديثاً (هيدلبرج ١٩٢٤) كما يتبين من عنوانه الثاني عرضاً لحالة علم اللغة في أيامنا هذه ، وللاواجبات التي تعرض للعاملين في هذا الميدان . ويلخص الأستاذ يونكر تلخيصاً زافياً الآراء السائدة في ألمانيا عن علم اللغة العام .

لا نريد أن ندعو القارئ للرجوع إلى هذه المؤلفات المختلفة ، فهي — حتى حين تعرض آراء تشبه ما بسط هنا — تتناولها من وجهة نظر مختلفة مع فهم القيم والنسب فهماً يختلف كل الاختلاف ؛ فكل منها يحتوي على أمثلة جديدة كان يمكن الاستفادة منها بإدخالها في هذا الكتاب أو استعمالها بدلا من الأمثلة الواردة فيه . إلا أنه ليس من بين هذه المؤلفات ما يبدو بطبيعته متطلباً تغييراً للطريقة العامة التي اتبعناها في مؤلفنا هذا ؛ وفي ذلك دليل على أن علم اللغة قد بلغ

درجة لا يمكن معها أن يُتصور له كل إجمالى إلا فى صورة واحدة . ولعل جزءاً واحداً فقط يتطلب بعض التعديل ؛ وهو الجزء الأول الذى خصص للأصوات ، وذلك لأنه رتب فعلاً وفقاً لنظام قد يبدو الآن قديماً . فبعد مؤلف الأستاذ جرامون المسمى « الماثلة » (باريس شامبيون ١٩٢٤) — ذلك الكتاب الذى يمهّد به لمؤلفه فى « علم الأصوات العام » الذى تترقب صدوره — نرى طريقة أيسر وأقرب أيضاً إلى المنهج العلمى فى جمع الأحداث .

وقد كان ترتيب هذا الكتاب يحتمل فصلاً سادساً فى آخر الجزء الرابع يخصص لتوزيع الأسر اللغوية على أرجاء العالم ، إلا أننا استبعدناه لأسباب عملية . غير أن الفكرة التى لم تكن ليشار إليها هنا إلا إشارة يسيرة ، قد تحققت اليوم بكل ما تتطلبه من إطناب بفضل كتاب « اللغات فى العالم » الذى نشرته جماعة من اللغويين (عند الناشر شامبيون) تحت إشراف الأستاذين ميه و كوهين . والحجم الذى اقتضاه هذا المرجع الكبير يبرر القرار الذى اتخذناه فى عدم معالجة المسألة فى كتابنا هذا .

وقد كان على المؤلف أن يبرز فى صورة أوضح وأن يزيد مذهبه ثباتاً ، وأن يجعل هذا المذهب على الأخص أكثر ملاءمة لتقدم علم النفس ، نظراً لما أبداه كثير من الفلاسفة من الاهتمام بهذا الكتاب . والكتاب الذى ينشره الآن الأستاذ دى لا كروا ويصدر فى نفس الوقت مع هذه الطبعة « الفكر واللغة » (باريس ، ألكان ١٩٢٤) ، يجعل هذه الرغبة عديمة الجدوى : لأن اللغويين جميعاً سيسرون بالعون الذى يمدّم به إخصائى مذهب قريب من مذهبنا . ومن جهة أخرى ، نرى فيلسوفاً ألمانياً هو الأستاذ I . كسريّر قد نشر حديثاً (عام ١٩٢٣) كتاباً عنوانه : Philosophie der symbolischen Formen .

Itz Teil , die Sprache ، يس فيه نقطاً جوهرية من علم اللغة العام .

ولو أن الظروف قد أتاحَت طبعة جديدة لهذا الكتاب ، لا مجرد نشر جديد كما هى الحال هنا ، لاضطر المؤلف إلى أن يدخل عليه عدة تصحيحات وإضافات .

وقد وجد في الملاحظات المنطوية على كثير من اللطف والتي وجهها إليه الأساتذة جرامون ، نبيدرمان ، ل . كليدا ، فييجو برونال ، ا . دوزا وج . اسنو اقتراحات مفيدة كل الفائدة . وقد وجه إلى المؤلف كثير من الأصدقاء والزملاء — أمثال الأساتذة لالاند ، مراكو ، ماير طبير ، ام كسترو ، ي . يود — بيانات وملاحظات يشكرهم عليها كل الشكر . ومن جهة أخرى فإن قائمة المراجع قد زاد في السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة جداً ، وسنقتصر فيما يلي على ذكر أهم التعديلات التي يجب أن ندخلها على نص هذا الكتاب مصحوبة بذكر أهم المراجع .

ص ٢٩ ، يضاف إلى الهامش رقم ١ : V. Henry ، رقم ٨٣ : F. Ribezzo
Eco della Cultura ، نابولي ، ك : ١٥ (١٩١٦) .

ص ٣٦ ، ٢٥ ، يضاف : G. Ballet ، Le langage intérieur et les
Le Traité, de في Foix ؛ ١٨٨٨ ، باريس ، diverses formes de l'aphasie
: Déjerine ؛ ٥ مجلد ، pathologie mentale de Sergent
، ٣١ Traité de médecine : Gilbert et Thoinot ؛ Sémiologie
Sémiologie nerveuse , le chapitre sur l' aphasie .
ص ٣٨ ، فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا قبل التاريخ ، انظر الآن الكتاب المفيد
من تأليف الأستاذ : Boule L'homme fossile , éléments de :
paléontologie humaine ، باريس ، ماسون ١٩٢٠ .

ص ٣٩ يضاف إلى هامش ١ : Fred : « the genesis of speech :
Newton scott (publications of the Modern Language Association
of America مجلد ٢٣ ، ٤ ، ١٩٠٨ ، ص ١ — ٢٩) .

ص ٥٠ ، سطر ٩ ، اقرأ : أسنانية (السين S الفرنسية والثناء الإنجليزية
th في thick أو thick ، في وضع مخالف لطرف اللسان) .

ص ٦٦ ، س ١١ ، أضف بعد الأوسيتية : وقد لوحظت أيضاً في مجموعة لغات
البنطو . ص ٧٨ ، س ٢٢ ، أضف إلى آخر السطر : وفي مقاطعة Aberdeen
(في اسكتلندة) تنطق الـ f : wh (W. Grant et I. M. Dixon)

- Manual of Modern Scots ، كبرديج ، ١٩٢١ ، ص ٣٢ .
- ص ٨٩ ، س ٥ ، أضف : انظر Suetone : ٢٢ ، ٨ ، ٧ .
- ص ٨٨ ، ١٥ ، يضاف : وص ١٧٢ ، ٥ ؛ قارن Vondrak رقم ٢١٧ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .
- ص ٨٩ ، ٢٥ ، يضاف Psichari ، رقم ٦ ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٩ .
- ص ١٠٤ : في كل ما يتعلق بالمسائل التي يتناولها الجزء الثاني انظر الآن : « فلسفة النحو » تأليف چينبرسن The Philosophy of Grammar (لندن ١٩٢٤) .
- ص ١٢٥ ، ١٥ ، يضاف : Zur Logik der Sprachwissenschaft .
- H. J. Pos هيدلبرج عام ١٩٢٢ .
- ص ١٣١ ، ١٥ ، يضاف : ميميه : « اللغويات التاريخية واللغويات العامة » ص ٢١١ .
- ص ١٣٢ ، س ٤ : للتفرقة بين المادة الحية والمادة غير الحية في الأسبانية والرومانية .
- انظر Eléments de linguistique romane: Bourciez الطبعة الثانية الفقرات ٢٣٦ ، ٣٨١ ، ٤٩٩ ، ٥٣١ ؛ وانظر Linguistique : Millardet et dialectologie romane ، ص ٤٥١ .
- ص ١٤٨ ، س ٥ : قارن Kr. Sandfeld — Jensen der Schwund des infinitivs im rumänischen und den Balkanspraehen (Rumänske Studier ، مجلد ١ عام ١٩٠٢) .
- ص ١٦٤ ، س ١ : ومن هنا يأتي ما وقع فيه پسكال من خطأ ، إذ يعترض على إمكان وجود تعريف للكائن بحجة أن كل تعريف لهذه الكلمة يجب أن يبدأ بـ « أنه C'est » وفي هذا افتراض لا يطلب إثباته (de l'Esprit géométrique)
- ص ١٧٦ ، س ١ : لأحداث مشابهة في اللغة الروسية ، يرجع إلى Boyer
- Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ١٦ ، ٥٥ .

ص ١٨٢ ، فيما يختص باللغة الفاعلة ، يرجع إلى Der Wor- : Wegner tsatz رقم ٣٠ ، مجلد ٣٩ ، ص ١ — ٢٥ .

ص ١٨٢ ، ١٥ : يضاف : Aufsätze zur romanis- : Leo Spitzer chen Syntax und stylistik ، هال عام ١٩١٨ .

ص ١٨٨ ، ٢٥ : يضاف : L'ordre des mots en : J. Marouzeau latin رقم ١ ، Les formes nominales ، باريس ١٩٢٢ .

ص ١٩٧ ، س ١٠ : قارن هـ . پول ، رقم ١٨٨ ، ص ٢٨٥ وما بعدها .
ص ٢٠٥ : فيما يختص بالقياس ، كبداً للحفاظة ، يرجع إلى فرديناند دى سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ٢٤٢ .

ص ٢٠٨ : فى المقابلة بين النحو وحصر المفردات أى بين المقعد وغيره ،
انظر فرديناند دى سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ١٨٧ .
ص ٢٣٤ ، ٢٥ : الكلمة لمكس مولر . ٣٥ ، يضاف إردمان ، رقم ١٥٧
ص ١٠٧ .

ص ٢٣٥ ، س ١٥ : انظر Court de Gébelin : « العالم البدائى ، تحليله
ومقارنته بالعالم الحديث ، منظوراً إليه من ناحية التاريخ الطبيعى للكلام ، أو أصل
اللغة والكتابة مع رد على نقد مجهول » . باريس ١٧٧٥ .

ص ٢٥٧ ، ٢٥ : يضاف : ميه « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٤٤ .
ص ٢٦٣ — ٢٦٤ : توجد أمثلة أخرى فى « Quelques faits : Dottin
de sémantique dans les parlers du Bas-Maine . » (Mélanges
Wilmolte) ، باريس ، شامبيون ١٩٠٩ .

ص ٢٦٦ : فيما يختص بما بين اللغتين الألمانية والفرنسية من فرق فى علاقات
كل منهما بروح المحافظة ، انظر الملاحظات الدقيقة التى أبدتها مدام دى ستايل
Mme de Staël فى كتابها : De l'Allemagne ، الجزء الأول ، الفصل ١٢
ص ٢٧٢ : يضاف هامش ما يلى : فرديناند برينو : رقم ٥٧ ، مجلد ١ ،
ص ١٣١ : ميه : « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٦٤ . كل الفصل
يتطلب مراجعة على ضوء الآراء التى أوردها الأستاذ جيليريون Gilliéron فى كتبه :

- « Généalogie des mots qui ont désigné l'abeille. » باريس ١٩١٨
- « La faillite de l'étymologie phonétique. » نيثفيل ١٩١٩ ؛
- « Les étymologies des étymologistes et celles du peuple. » باريس ١٩٢٢ .
- ص ٢٨٠ ، س ١٠ و ١١ : يقرأ sich erbrechen بدلا من ausbrechen
- ص ٢٨٠ ، س ٢٠ : usqiman « يقتل » ويضاف Verbleichen و dahingehen و dahinscheiden « يموت » .
- ص ٢٨٢ ، ققرة : « لا ينحصر الأثر الناجم » فيما يختص بهذه الفقرة
- راجع إردمان : رقم ١٥٧ ، ص ١١٤ .
- ص ٢٨٨ ، الفقرة الأخيرة : قارن Leo Spitzer : Uber einige Wörter der Liebesprache ، لينزج ١٩١٨ .
- ص ٢٨٩ : يمكن أن تشير أيضاً إلى تأثير لغة الصيادين ، قارن Nicolas Edgar « Les expressions figurées d'origine cynégétique en français »
- أبسال ، عام ١٩٠٦ .
- ص ٣٠٧ : في الشروط التي يجب أن تتوافر للغة مشتركة عالية ، انظر خاصة
- ميه : « اللغات في أوربا الحديثة » ، باريس ١٩١٨ .
- ص ٣١٠ : في الجغرافيا اللغوية ، يرجع إلى كتاب صغير قيم للأستاذ دوزا
- « الجغرافيا اللغوية » (باريس ، فلامريون ١٩٢٢) .
- ص ٣١٤ : عن لغة الشعر في العصور الوسطى ، يرجع إلى Gertrud Wac- (Beiträge) Dialekt und Schriftsprache im Altfranzösischen : ker ، zur Geschichte der romanischen Sprach und Litteraturen
- رقم ٢ ، هال عام ١٩١٦) .
- ص ٣١٥ : عن العامية الخاصة ، انظر الأستاذ G. Esnault : « مجلة
- القيولوجيا الفرنسية والأدب » مجلدات ٢٧ و ٢٨ و ٣٥ ، وكتابه : Le poilu
- ، باريس ١٩١٩ . tel qu'il se parle

ص ٣١٨ : يدخل في رطانات الطلبة الألمانين عدد كبير من كلمات المحجات (قارن Kluge : Studentensprache ، ص ٦٥) .

ص ٣٢٠ : الأستاذ شيرون في مجلة (المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى ، رقم ٥ و ٤٧) ذكر وجود لغات خاصة يستعملها في التوشكان باعة الخنازير والحبوب والنوتية والمغنيات ، وكل هذه اللغات مشوهة من الأنامية .

ص ٣٣١ ، ١٥ : يضاف Navarro Tomas : Manual de pronun-
ciación española ، مدريد ١٩١٨ ، J. J. Nunes : Compendio de
grammatica historica portuguesa ، لشبونة ١٩١٩ .

ص ٣٣٣ ، ٣٥ : يضاف F. Kluge : « Deutsche Sprachges-
chichte, Werden und Wachsen unserer Muttersprache von
ihren Anfängen bis zur gegenwart.

ليبرز عام ١٩٢٠ .

ص ٣٣٦ : أما فيما يختص بالعلاقات بين إنجليزية اسكتلندية والإنجليزية العادية
فيرجع إلى Manual of Modern Scots : W. Grant et J. M. Dixon
(كبرج ١٩٢١) . أما فيما يتصل بمسألة اللغات في النرويج ، فيرجع إلى
Bakmal og Talemaal i Norge : Ragnvald Iversen (١٥٦٠ —
١٦٣٠) كريستيان ١٩٢١ ، وخاصة يرجع إلى A. Burgun « التطور اللغوي
في النرويج منذ عام ١٨١٤ » كريستيان ١٩١٩ — ١٩٢١ .

ص ٣٣٧ ، ٤٥ : يضاف M. G. Bartoli : Alle fonti del Neola-
tino estratto dalla Miscellanea di studi in onore di Attilio
Hortis تريستا ١٩١٠ .

ص ٣٤٨ ، ١٥ : يضاف G. Hempl : « Language Rivalry and
speech differenciation in the case of Race - mixture. »
(من دراسات الرابطة الأمريكية للفيولوجيا ، مجلد ٢٩ ، ١٨٩٨) ؛ وارجع الآن إلى
دراسات الأستاذ Marr ونظريته عن « اليابثية » التي تقول بوجود عدة لغات

مختلطة) Recueil Japhétique بترغراد ١٩٢٢ — ١٩٢٣ ؛ Japhetitische Studien zur Sprache und Kultur Eurasiens ، ليزج — برلين) .

ص ٣٥٢ : توجد اليوم جماعة من السكان تتكلم اللغة البروفنسية في فريمبرج بيورست (في نيوهنجست) وفي پناشي — سر ، قارن Morosi ، رقم ٤١ مجلد ١١ ، ص ٣٩٣ و A. Rosoger : Neu Hengstett (Burset), Geschichte und sprache einer Waldenserkolonie in Württemberg Greifswald 1883.

ص ٣٦٥ : فيما يختص باللغة الأسبانية التي يتكلمها سكان جزائر ماريان ، انظر مقال العالم الدنمركي K. Wulff في Festschrift ثومسن ١٩١٢ .

ص ٣٩٣ ، الفقرة الثانية : انظر التطور الذي يمد شديد الغرابة لنظام الكتابة الذي اخترع في أيامنا هذه في الكمرون بواسطة نجويا ، ملك الكمرون (دلافوس مجلة علم الأجناس والتقاليد الشعبية ، ١٩٢٢ رقم ٩) .

ص ٣٩٥ ، ١٥ ، يضاف : أدواف قطاوى بك : شاميليون وفك رموز الهيروغليفية ، القاهرة ١٩٢٢ ؛ وخاصة Sottas و Driotton ، مقدمة في دراسة الهيروغليفية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤١١ هـ ٣ : G. Paris : Mélanges linguistiques ، باريس ، شامبيون ١٩٠٦ — ١٩٠٩ (ملحق : تاريخ الرسم في اللغة الفرنسية) .

ص ٤٢٧ ، يضاف : لبيان المستقبل (H. L. Hencken : « اللغة الأمريكية » ، الطبعة الثانية ، نيويورك ١٩٢١ ، ص ١٧٨ — ١٧٩) .. ويضاف إلى الهامش : Louvigny de Montigny : اللغة الفرنسية في كندا ، أتاوا عام ١٩١٦ .

ص ٤٢٩ ، ١٥ ، يضاف : ليثي بريل : العقلية البدائية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤٣٨ : E. Bourciez : Eléments de linguistique romane

الطبعة الثانية ، ١٩٢٣ . Densusianu : « تاريخ اللغة الرومانية » المجلد الأول ، باريس ١٩٠١ ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، باريس ١٩١٤ .

- ، Die Bedeutung des wortes : K. O. Erdmann ، ٤٤٣ ص
Geschichte der Griechis- : O. Hoffmann. ١٩٢٢ ليزج
، chen Sprache ، الطبعة الثانية ، عام ١٩١٦ .
، الطبعة الثالثة ، Einführung, etc. : W. Meyer-Lübke ، ٤٤٥ ص
هيدلبرج ١٩٢٠ .
Sprachvergleichung und Urges- . O. Schrader ، ٤٤٦ ص
Romanische Spra- : A. Zauner ٤٤٧ ص و ١٩٠٧ ، الطبعة الثالثة ،
chwissenechaft ، المجلد الثاني الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، ١٩٢١ ؛ المجلد الثاني
الطبعة الثالثة عام ١٩١٤ .
Nutidssprog hos boern : O. Jespersen ، ٤٤٨ ص يضاف
، og voxne. كونيهاجن ١٩١٦ .
-

الملحق الثاني

لقد انقضى على تأليف هذا الكتاب عشرون عاماً ظهر خلالها في جميع البلاد عدد من النظريات أو الاكتشافات الجديدة التي غيرت علم اللغة . وعليه يجب إدخال زيادة محسوسة على الملحق القصير المكون جزئياً من قائمة مراجع ، والذي أضيف إلى الطبعة الثانية ، ليتعرف القارئ كل التقدم الذي تم في هذا الميدان . وإن أردنا أن نجعل الكتاب مجارياً للحالة الحاضرة وجب مراجعة جميع الفصول مراجعة دقيقة ، وإعادة كتابة بعضها ، وسنقتصر هنا على بعض البيانات الأساسية . أما فيما يختص بعلم اللغة فهناك كتابان على درجة من الأهمية ييسران مايتعلق به تيسيراً كبيراً : أحدهما هو الكتاب السنوي للجرمانية الهندية الأوربية *Indogermanisches Jahrbich* ، وهو يفسح حالياً مع المجلة التي يصدر عنها *Indogermanische Farschungen* مكاناً لعلم اللغة العام يتسع يوماً بعد يوم . والآخر هو نشرة الجماعة اللغوية *Bulletin de le societ  , de linguistique* التي يقوم الأستاذ ميميه بتحرير الجزء الأكبر منها ، وحيث يبين كل سنة في عناية كبيرة قيمة المؤلفات التي تظهر حديثاً . ومجموعة بياناته التي بلغت حداً كبيراً من التنوع والثراء تمدنا بتاريخ حقيقى للاتجاهات ، كما أنها تعرض الآراء عرضاً نقدياً في نفس الوقت .

وقد وفق لغويون من جميع البلاد إلى تنظيم أول مؤتمر دولى لهم عقد في لاهاى عام ١٩٢٨ ، فعاد ذلك على دراستهم بأجل الفوائد . وعقد مؤتمر ثان في جنيف عام ١٩٣١ ثم ثالث في روما عام ١٩٣٣ ، وينشردائماً لهذه المؤتمرات تقارير مفصلة . والتقارير الخاص بثالثها لا يزال تحت الطبع . وتقدم هذه المؤتمرات بفضل براجمها التي توضع في حكمة نتائج ذلك العلم الذي قد أصبح علماً بالفعل مع بيانات مفيدة لهذا العلم الذي لا يزال في دور التكوين . وهذه المؤتمرات تساعد في نفس الوقت على تنظيم بعض المسائل العملية كمسألة المصطلحات التي عينت لها

لجنة . وقد أقدم السيو ماروزو في شجاعة على القيام بأول محاولة لهذا العمل في معجمه للمصطلحات اللغوية (باريس عام ١٩٣٣) .

وقد تكون خلال السنوات الأخيرة مركزان للدراسات اللغوية أولهما مفتوح على مصراعيه للمسائل التي تتعلق بالنظريات وبالطريقة العلمية ؛ أحدها في أوسلو وهو يصدر مجلة Sprogvidensk Norsk Tidskeift for والأخر بيراج ؛ وأعمال المركز اللغوي بيراج قد فتحت الطريق لمنهج جديد سنتحدث عنه فيما بعد . وأخيراً تكونت في أمريكا جماعة لغوية وهي تنشر فضلاً عن نشرة لغوية دورية خاصة عنونها « اللغة » مجموعات من الدراسات في موضوعات معينة . وهذه المراكز الجديدة تظهر حيوية الدراسات اللغوية في العالم ، أما وجد قبل الآن من هذه المراكز اللغوية فلم تنقطع عن العمل والإنتاج .

وبعد ما نشر في علم اللغة العام مما سبق ذكره فقد شاهدنا أيضاً في السنوات الأخيرة ظهور المبادئ في النحو العام principes de grammaire générale كونهاجن عام ١٩٢٩ للأستاذ Lovis Hjelmslev ومؤلف الأستاذ (cenni storie sommario di lnguistia arcoeuropea, A. pagliaro) وروما عام ١٩٣٠ ومؤلف الأستاذ بالي Bally « اللغويات العامة واللغويات الفرنسية » باريس عام ١٩٣٣ ومؤلف الأستاذ بلومفيلد Bloomfield « اللغة » نيويورك عام ١٩٣٣ . وهذه المؤلفات وبينها اختلافات واضحة من عمل لغويين إخصائيين ، ولكن المشكلات اللغوية ما زالت موضع اهتمام الفلاسفة وخاصة علماء النفس الذين يدين لهم اللغويون بمعلومات قيمة . وإذا لم تتكلم عن كتاب الأنسة دي لاجونا Mlle de Laguna : الكلام ، وظيفته وتطوره Speech , its function and development نوهيفن عام ١٩٢٧ ، فقد ظهر في السنوات الأخيرة مجلد ثالث للأستاذ كاسيرر Philosophie der symbolischen ormen (Phenomenologie der Erkenntnis برلين عام ١٩٢٩ ، وظهرت طبعة جديدة تنطوي على زيادة كثيرة للكتاب القيم تأليف الأستاذ دي لاكروا « اللغة والفكر » باريس عام ١٩٣٠ . ويختل علم النفس أيضاً

مكاناً واسعاً في مؤلف عالم لغوى هو Weisgerber عنوانه Muttersprache und Geistesbildung جوتيغن عام ١٩٢٩ . ومما يظهر إظهاراً أوضح ما بين علماء النفس واللغة من اتفاق مجده هو نشر مجلد من مجلة علم النفس عام ١٩٣٣ ، خصص للغة . وقد عرض فيه مساعدون أتوا من كل البلاد آراء مبتكرة تتعلق بعدة مسائل أساسية في علم اللغة .

ويبدو أن علم الأصوات هو الذى طرأ عليه أعمق التجديدات . لقد أنشأ جماعة من اللغويين ينتمون إلى هيئة براج ، منهجاً جديداً هو « الصوتيات » (La phonologie) مستوحين في ذلك الآراء التى ذكرها من قبل بودوان دى كورتنيه وفرديناند دى سوسور . فالصوتيات تتميز عن علم الأصوات (la phonétique) بأنها ترجع دراسة الأصوات إلى حيز الأحداث اللغوية . والصوتيات تنظر إلى الأصوات لا كوحدة قائمة بذاتها ولكن وفقاً للدور الذى تؤديه كعوامل لها دلالتها في النظام اللغوى . وقد حفز تطبيق هذا المبدأ على القيام بعدة بحوث نشرت خاصة في أعمال المركز اللغوى ببراج فأظهرت إنتاجه الخصب . وفي نفس الوقت كان الأستاذ أدوارد هرمان يناقش من جديد مسألة القوانين الصوتية في : Lautgesetz und Analogie (Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften) ، جوتيغن ١٩٣١ ؛ بينما كان فان جنكن يعمل على إبراز أهمية الوراثة في التغيرات الصوتية وخاصة في (تقرير مقدم إلى المؤتمر الدولى الثالث للغويين) . وتتصل بالأصوات دراسه وزن الشعر التى تناولها من جديد فيما يختص بالفرنسية الأستاذ پول ثرييه (الشعر الفرنسى ، مجلدان ، باريس ٩٣١ — ١٩٣٢) . وتناولها من وجهة نظر عامة الأستاذ ا . دى جروت في « العروض العام والوزن » (la métrique générale et le rythme) (نشرة الجمعية اللغوية مجلد ٣٠ ، ص ٢٠٢) وفي كتاب « الوزن » der Rythmus (نيوفيلوجوس عام ١٩٣٤) . وقد نشر الأستاذ ب . فوشيه (عام ١٩٢٧ ، ستراسبورج) « دراسات في علم الأصوات العام » حيث يتناول بنوع خاص اتحاد حروف اللين بعضها مع بعض وتداخل الحروف الساكنة . غير أن أهم كتاب خصص لعلم الأصوات هو بلاريب

كتاب الأستاذ موريس جرامون *Traité de phonétique* « دراسة في علم الأصوات » باريس ، ١٩٣٣ ، الذي كان ينتظر صدوره بفارغ الصبر ؛ وقد عرض فيه المؤلف بصورة كاملة نظريته الخاصة التي تسود جميع أعماله العلمية مدعماً ذلك بالأمثلة . وهذه النظرية قد تعدل أو تناقض أيضاً بعض النقط في المعلومات التي بسطناها هنا في الفصول المختصة لعلم الأصوات .

ومراجع الفصول الأخرى تتطلب إضافات جديدة ، نورد فيما يلي أهمها :

ص ١٢٥ ، Albert Sechehaye : « محاولة في دراسة التكوين المنطقي للجملة » باريس عام ١٩٢٦ ، ف. برونдал : *Ordklassernes, Studier over de sproglige Kategorier* ، كوينهاجن ١٩٢٨ .

ص ١٣٥ ، G. Guillaume : *Temps et mode, théorie des*

aspects, des modes et des temps ، باريس ١٩٢٩ .

ص ١١٨ ، F. Boillot : *Psychologie de la construction dans*

la phrase française moderne ، باريس ، عام ١٩٣٠ ؛ W. Havers :

Handbuch der erklärenden Syntax ، هيدلبرج ١٩٣١ .

ص ٢٤٦ ، ظهر الجزء الخامس والأخير من كتاب نيروپ : *Ordenes liv* ،

عام ١٩٣٢ .

ص ٢٩٥ ، آتو جيسپرسن : « النوع البشري ، الأمة والفرد من وجهة نظر

لغوية » أوسلو ١٩٢٥ .

ص ٣٠٨ ، فيما يتعلق بمسألة لغة دولية مساعدة ، انظر أعمال المؤتمر الثاني

للغويين ، ص ٧٢ وما يليها .

ص ٣٣٠ ، ا. دوزا : تاريخ اللغة الفرنسية ، باريس ١٩٣٠ ؛ و. ثون وتربرج

« تطور وتركيب اللغة الفرنسية » ليزج — برلين ١٩٣٤ ؛ ويوالى الأستاذ

فرديناند برينو نشر كتابه العظيم (رقم ٥٧) وقد ظهر الجزء الأول من المجلد

الثامن عام ١٩٣٤ .

ص ٣٣٣ ، *Die deutsche Sprache* : S. Feist ، الطبعة الثانية ،

Die Entstehung unserer Schrifts- : Alois Bernt ؛ ١٩٣٣ ميونخ
prache. برلين ، عام ١٩٣٤ .

ص ٣٦٧ ، ا. ميهيه : « الطريقة المقارنة في اللغويات التاريخية » ، أوصلو
١٩٢٥ . والمسائل الخاصة بالقراءة اللغوية وبالجوهر قد تجددت بدراسة الأستاذ
كر . سنديفيلد : « لغويات بلقانية ، مسائل ونتائج » باريس ١٩٣٠ . ويرجع
أيضاً إلى دراسة الأستاذ جكبسون في أعمال الهيئة اللغوية ببراج ، المجلد الرابع ،
ص ٢٣٤ عن خطوط الحدود الصوتية .

ص ٣٧٣ ، Herman Jacobsohn : Arier und Ugrofinnen ،
Etudes prégrammaticales sur le : Albert Cuny ؛ ١٩٢٢
domaine des langues indo-européennes et chamito-sémitiques
باريس ١٩٢٤

ص ٣٨٣ ، فيما يتعلق بالنحو المقارن للغات القوقازية ، نشر الأستاذ ديمزيل
مجموعة من الدراسات (باريس ، شامبيون ، ١٩٣٢ و ١٩٣٣) تواجه وتناقش
عدداً من المسائل الجديدة .

ص ٤٠٥ ، فيما يختص بالرسم نرى أن كتاب فان چنكن : Grondbeginse-
len Van de schrijfwijze der nederlandsche taal (هيلفرسوم
١٩٣١) وإن كان قد كرّس خاصة للغة الهولندية إلا أنه يقدم آراء شخصية
ذات طابع عام .

ويجدر بنا أخيراً أن نذكر كتاب الأستاذ ه. بدرسن : « علم اللغة في القرن
التاسع عشر » (مطبعة جامعة هر فاردر ١٩٣١) ؛ وهو مترجم عن اللغة الدنمركية ،
ويعرض فيه الأستاذ القدير ما قام به لغويو القرن الماضي من أعمال مقدراً لهم
ما بذلوا من جهود علمية .

الملحق الثالث

لقد بدأ لنا من المفيد أن تقدم في ملحق ثالث بعض البيانات المتعلقة بأهم المطبوعات التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، وذلك ريثما يتيسر لنا أن نقوم بمراجعة دقيقة على الأقل لمختلف فصول هذا الكتاب إن لم يكن بصياغتها من جديد ؛ وهو أمر نرجو أن يتم تحقيقه بعد أن مضى خمسة وعشرون عاماً على صدوره . فالفترة الحالية هي بالفعل من أخصب الفترات ، ونشاط العلماء — في جميع أنحاء ميدان علم اللغة الفسيح — بعيد كل البعد عن التواني ، بل هو يبعث كل يوم على ابتكارات جديدة تمحص الطرق القديمة أو تبتكر طرقاً جديدة بدلاً منها .

وكان بعض تلاميذ وأصدقاء الأستاذ أنطوان ميه قد عزموا على أن يظهروا بالاتفاق معه ، ملحقاً لكتابه « اللغويات التاريخية واللغويات العامة » الذي يرجع صدوره إلى عام ١٩٢١ ، وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين . وقد ظهر في أواخر عام ١٩٣٧ مجلد ثان يضم المقالات ذات الطابع اللغوي العام التي نشرت بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٦ . ولكن لم يتيسر للأستاذ ميه أن تفرغ عنه تمام هذا العمل ، لأن الموت فاجأه في ٢١ من سبتمبر عام ١٩٣٦ ، بعد أن قاسى المرض شهوراً طويلة ، فترك فقه فراغاً كبيراً في الدراسات اللغوية أحست به جميع الأقطار . فهو لم يكف حتى اليوم الأخير من حياته ، لا عن الاطلاع على أقل الأعمال التي يقوم بها غيره فحسب ، بل كان يساهم بدراساته الخاصة في تقدم هذا العلم . وقد خصصت له « جماعة علم اللغة » كتيباً يقع في ثمان وستين صفحة ، ويشمل فضلاً عن ترجمة حياته ، بياناً كاملاً لمؤلفاته قد رتب وفقاً للتواريخ والمواد (باريس ، كلينكسك ١٩٣٧) . ويظهر لنا هذا الكتيب في نفس الوقت قيمة الرجل وأهمية أعماله العلمية .

ولقد تابعت المؤتمرات الدولية ، التي كان ميه أول العاملين على عقدها والذي ظل يجذبها في حماس ، جلساتها الدورية في توفيق كبير . فقد عقد المؤتمر الرابع

للغويين اجتماعاته في كوبنهاجن عام ١٩٣٦ ؛ وتمتدّ العدة الآن لعقد مؤتمر خامس في صيف عام ١٩٣٩ في بروكسل . وفي نفس الوقت تتابع المؤتمرات الدولية لعلم النفس وعلم الأجناس ، وقد نال علم اللغة فيها مكاناً له أهميته ، كل ذلك عدا المؤتمرات التي خصصت لدراسات معينة مثل الشرقيات والرومانيات والسلافيات . وتمتدّ لعلم الأصوات مؤتمرات خاصة منذ عام ١٩٣٢ ، (عقد ثالثها بمدينة جاند « بيلجيكا » عام ١٩٣٨) . وقد نالت للمرة الأولى دراسات أسماء الأعلام وأسماء الأجناس والأماكن شرف مؤتمر دولي عقد بباريس عام ١٩٣٨ . وهذه المؤتمرات المختلفة يتبعها نشر أعمالها العلمية مثل : — (أعمال المؤتمر الدولي الثالث للغويين ، فلورنسا ١٩٣٥) ، وهي تطلع الناس على الآراء والاتجاهات الجديدة والمناقشات التي دارت حولها .

يمكن أن نجد أيضاً فائدة كبيرة في كتب « المنتخبات » التي يزداد عددها يوماً بعد يوم ، تلك الكتب التي تقدم هدايا لعلماء بارزين في الاحتفالات اليوبيلية . وقد كثر في السنوات الأخيرة الأساتذة : ا. بوازك ، ا. كوك ، يارج ، تاپوليه . جريرسون ، مائيسيموس ، ميسكولا ، سلفيردا دي جراف ، وديروسو وغيرهم من العلماء ، لقد كرموا بمختارات يستطيع اللغويون أن يستمدوا منها الشيء الكثير من المعلومات . والمختارات التي قدمت أخيراً للأساتذة هرمان هيرت وب . كرتشمير وپدرسن وغان جنينكن وبالي ، لها أهمية كبيرة من جهة العدد وتنوع المواد التي تناولتها . وهناك نوع من المختارات يتكوّن من جمع أعمال مختلفة يوزعها المهدى في كتب يضمب في الغالب الحصول عليها ، ونحن نوصي بها خاصة ، لكبير فائدها . وقد كوّن على هذا النمط « لينجويستيكا » للأستاذ أتو جيسپرسن و Kleine Schriften للأستاذ Wilhelm Schulze (عام ١٩٣٣)

وقد ازدادت المجلات اللغوية في السنوات الأخيرة ازدياداً كبيراً . ويحسن

أن نذكر كثيراً l'Archivio glottologico Italiano ، وظهور Studi

Baltici ومجلة المركز اللغوي بكوبنهاجن ، والمجلة اللغوية ببوخارست ، ومجلة

الدراسات الهندية الأوروبية ببوخارست أيضاً . وقد تابع المركز اللغوي بيراج نشر

أعماله ، فقد ظهر مجلد سادس بمناسبة المؤتمر الدولي الرابع للغويين وقد أهدى إلى هذا المؤتمر . ومحاضرات المعهد اللغوى بباريس ، الذى يعقد جلسات سنوية ، تظهر بانتظام فى مطبوعات منفصلة (ظهر الجزء الخامس منها عام ١٩٣٨) .

أشرنا فيما سبق إلى تقدم علم الصوتيات ، وهذا المذهب الجديد الذى أصبح ينتمى إليه المركز اللغوى ببراج ، قد بعث على وضع كتاب جامع فى الموضوع هو الصوتيات للأستاذ Van Wijk (عام ١٩٣٩) ، فضلا عن عدد وفير من الدراسات التى تناولت جزئيات الموضوع . أما النحو المقارن بالمعنى الصحيح ، الذى يعدّ فى غنى عن تجديد طرقة ، فقد ضمّ إلى ثروته عام ١٩٣٥ كتابين مبتكرين لهما فيه أثر بعيد ، وضع أولهما الأستاذ بنفينست : « أصول تكوين الأسماء الهندية الأوربية » ، وألف الثانى الأستاذ Kurylowicz « دراسات هندية أوربية » . وهذان المؤلفان يدينان بما ورد فيهما من آراء جديدة إلى اكتشاف وتفسير النصوص الحديثة التى فك رموزها الأساتذة هروترى وسومير وفردريك وغيرهم ، والى وضع لهما كتاباً فى النحو كل من الأستاذين سترتشان ودلاپورت . ومما يجدر الإشارة إليه بين الكتب العامة التى ظهرت أخيراً علاوة على الفراغ من « نحو الهندية الجرمانية » لهيرمان هيرت ، كتابى الأستاذين Sprach-theo- : Bühler و rie, die Darstellungsfunktion der Sprache (عام ١٩٣٤) ، و La Catégorie des Cas : Hjelmslev (عام ١٩٣٥) . ودراسة عوامل تركيب الجمل ولا سيما فى علاقتها بالأسلوب فقد تناولها الأستاذ ماروزوفى كتابه : Traité de stylistique appliquée au latin (عام ١٩٣٥) وفى كتابه : « ترتيب الكلمات فى الجملة اللاتينة ، الجزء الثانى ، الفعل (عام ١٩٣٨) . ولم يكن عدم ذكرنا لكتابا الأستاذ W.Schmidt : Die sprachfamilien und sprachenkreise der Erde (عام ١٩٢٦) إلا مجرد النسيان .

وقد كانت « اللغة » الفرنسية في المدة الأخيرة موضوع مؤلفات مختلفة ذات طابع عام ، قام بها لغويون ممن عرفت مقدرتهم العلمية . ويؤسفنا حقاً أن يبقى « تاريخ اللغة الفرنسية » غير كامل ، وهو ذلك المؤلف الجليل الذي وضعه المرحوم

الأستاذ فرديناند برينو ، الذى وافاه أجله فى أوائل عام ١٩٣٨ ، ولم يظهر من كتابه هذا شيء بعد المجلد السادس عشر . ويحتل الصدارة ، من بين الأعمال الشاملة ، تلك الدراسة الواسعة التى قام بها الأستاذان داموريت وبيشون : « من الكلمات إلى الفكر ، بحث فى نحو اللغة الفرنسية » وهو كتاب ينطوى على عدد وفير من الملاحظات العميقة التى تتعلق بتركيب اللغة الفرنسية للتخاطب فى أيامنا هذه وعن اتجاهات اللغة ؛ وقد ظهر الجزء الخامس عام ١٩٣٦ . ومن المؤلفات ذات الموضوعات المعينة ، يجب علينا أن نذكر أعمال الأستاذ بلنكنبرج : « نظام الكلمات فى اللغة الفرنسية الحديثة » والأستاذ س . دى بوير : « مقدمة لدراسة تركيب الكلام فى اللغة الفرنسية » وك . ساندفيلد : « تركيب الكلام فى الفرنسية الحديثة » وهى مؤلفات ظهرت من بضعة سنوات ، وهناك مؤلف حديث وضعه الأستاذ جوجنهايم : « نظام نحوى للغة الفرنسية » . وقد نشرت الآنسة دوران نتائج بحث يعد شديد الابتكار هو : « النوع النحوى فى الفرنسية » وندين للأستاذ أنطوان جريجوار بدراسة هامة عن « التدريب اللغوى » ظهر عام ١٩٣٦ . وقد ازدادت قاعة المراجع الخاصة بلهجات فرنسي المستعمرات بكتاب ألفته الآنسة سلفان : « لهجة فرنسي هايتى » عام ١٩٣٦ ، وهو مؤلف يقوم على أسس لغوية متينة .

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى نشاط إيلالا (IALA) International Auxiliary Language Association « الرابطة الدولية للغة المساعدة » ، وهى بجانب عنايتها بإيجاد واختيار أفضل لغة مساعدة للتخاطب الدولى ، تعنى عناية شديدة بمقترحات اللغويين المتخصصين . وهى حين تحقق الأغراض التى تسعى إليها تفيد اللغويين المختصين بالدراسات التى تقوم بها . وقد أصبحت بعض مطبوعاتها تقدم نتائج مفيدة للغويات عامة وخاصة ما كان يتصف من هذه المطبوعات بطابع إحصائى .

ج . فندريس

الفهرس

صفحة

٥ — ٢١	تقديم : كلمة للمعربين
١ — ٢٨	تصدير : اللغة وأداة التفكير للأستاذ هنري بر
٢٤ — ٤٢	مقدمة : للأستاذ ج. فندريس
٢٩ — ٤٢	تمهيد : أصل اللغة

مشكلة أصل اللغة تتجاوز الطرق التي في حوزة علم اللغة ؛ وهي تدخل في دائرة التاريخ البدائي للبشرية . اللغة — وهي نظام من العلامات يستخدم في التخاطب بين الناس — تعدّ نظاماً يتطلب وجوده تحقيق ظروف معينة سيكلوجية واجتماعية .

الجزء الأول : الأصوات

٤٣ — ٦١	الفصل الأول : المادة الصوتية
٦٢ — ٨٢	الفصل الثاني : النظام الصوتي وتغيراته .

الترتيب الفسيولوجي للأصوات التي يمكن أن يحدثها الجهاز البشري والإشارة إلى التغيرات الأساسية التي قبلها الأصوات .
الأصوات التي يصدرها كل شخص يتكلم تكون نظاماً صوتياً ، تتغير عناصره بطريقة غير محسوسة ، مطلقة ومنظمة . قوانين واتجاهات صوتية . التفرقة بين التغيرات بالتطور والتغيرات بالإبدال .

٨٣ — ١٠٣	الفصل الثالث : الكلمة الصوتية والصورة اللفظية .
	تنوع العناصر التي تكون الكلمة الصوتية ؛ أثر بعضها في البعض الآخر . الصورة اللفظية والجملة . العوارض التي تنتج في تحقيق الصورة اللفظية .

الجزء الثانى : النحو

صفحة

١٠٤ — ١٢٤

الفصل الأول : الكلمات والأصوات .

التفرقة بين دوال النسبة ودوال الماهية . الفروق بين دوال النسبة فيما يختص بطبيعتها ومكانها وبالرابط الذى يربطها بدوال الماهية . لا يمكن تعريف الكلمة إلا إذا انتبهنا إلى التغيرات الصرفية .

١٢٥ — ١٥٤

الفصل الثانى : الفصائل النحوية .

دراسة الفصائل النحوية الأساسية من حيث (النوع والعدد والزمن والحالة الفعلية) ؛ العلاقة بين الفصائل النحوية وصعوبة التوفيق بين النحو والمنطق .

١٥٥ — ١٨١

الفصل الثالث : الأنواع المختلفة للكلمات :

نقد التصنيف الجارى لأجزاء الكلام . المقابلة بين الاسم والفعل . محاولة تصنيف منطقى يقوم على تحليل للجملة الاسمية والجملة الفعلية . بيان تصنيف سيكلوجى .

١٨٢ — ٢٠٢

الفصل الرابع : اللغة الانفعالية :

أهمية التأثير فى اللغة . الطرق اللغوية التى يعبر بها عن التأثير . نظام الكلمات . العلاقات بين اللغة الانفعالية واللغة النحوية .

٢٠٣ — ٢٢٤

الفصل الخامس : التغيرات الصرفية :

الظواهر العامة للتطور الصرفى . الاتجاه إلى التوحيد وطريقة القياس . الاتجاه إلى التعبيرية وتحول الكلمات المستقلة إلى أدوات نحوية .

الجزء الثالث : المفردات

٢٢٥ — ٢٤٥

الفصل الأول : طبيعة المفردات ومداها :

علم الاشتقاق . القيمة الحالية القريبة للكلمات التى نستعملها حين نتكلم . كيف تتجمع الكلمات فى الذهن . رمزية الكلمات . تعذر إحصاء المفردات .

صفحة

٢٧٠ — ٢٤٦

الفصل الثانى : كيف تغير الكلمات معانيها ؟

حياة الكلمات والتأقلم . تغير المعانى بالتخصيص وبالتعميم .
شروط إيجاد دلالة عامة .

٢٩٤ — ٢٧١

الفصل الثالث : كيف تغير الأفكار أسماءها ؟

البلى الصوتى والبلى المعنوى للكلمات . التحريم والتورية .
الأسباب الاجتماعية لتغير المفردات . كيف تخلق كلمات جديدة ؟

الجزء الرابع : تكون اللغات

٣٠٨ — ٢٩٥

الفصل الأول : اللغة واللغات :

اللغة يجب أن تعرف مستقلة عن الجنس وعن عقلية المتكلمين بها .
على أنها الصورة اللغوية المثالية التى تفرض على جميع الأفراد
الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة . تنوع اللغات يعكس تعقد
العلاقات الاجتماعية .

٣٢٥ — ٣٠٩

الفصل الثانى : لهجات ولغات خاصة :

تعريف اللهجات . توزيع اللهجات وحدودها . تعريف اللغات
الخاصة : اللهجات العامية واللغات الدينية .

٣٤٧ — ٣٢٦

الفصل الثالث : اللغات المشتركة :

توجد اللغات المشتركة من الاتجاه إلى التوحيد اللغوى . الأنواع
المختلفة لتكوّن اللغات المشتركة . العلاقة بين اللغات المشتركة
وبين هذه اللغات واللهجات .

٣٦٦ — ٣٤٨

الفصل الرابع : احتكاك اللغات واختلاطها .

النتائج المختلفة لصراع اللغات وفقاً لقيمتها الذاتية . كيف تمتزج
اللغات ؟ شروط تكوين لغات مختلطة .

٣٨٣ — ٣٦٧

الفصل الخامس : القرابة اللغوية والمنهج المقارن :

كيف يجب علينا فهم القرابة بين اللغات ؟ مظهر التتابع ومظهر
الوضع . قيمة المنهج المقارن فى تكوين الأسر اللغوية .

الجزء الخامس : الكتابة

صفحة

٤٠٢ — ٣٨٤

الفصل الأول : أصل الكتابة وتطورها :

تفترض الكتابة إدراكاً عقلياً للعلامة الكتابية . الكتابة
المرسومة والكتابة التصويرية والكتابة الصوتية . المقطعية
والأبجدية .

٤٠٣

الفصل الثاني : اللغة المكتوبة والرسم :

المظاهر العامة للغة المكتوبة ؛ علاقاتها ببلغة الكلام . الفقر في
الرسم ؛ إلى أى حد يمكن إصلاح الرسم ؟

٤١٧

الخاتمة : تقدم اللغة

ضرر إدخال فكرة الكمال بمعناها الأدبي في علم اللغة .
تغير العناصر المختلفة للغة لا يؤدي إطلاقاً إلى كمال دائم في اللغة .
تطور اللغات ما هو إلا انعكاس لتطور المجتمعات ، فبأية حيطة
يجب علينا أن نقبل الافتراض القائل بتقدم اللغة ؟

٤٣٥

المراجع :

٤٤٩

الملاحق : الأول والثاني والثالث

٤٦٨

فهرس :: المواد

٤٧٢

التصويب :

(تم طبع كتاب « اللغة » في مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة
في يوم الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ١٣٧٠ (الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٥٠) .
والحمد لله أولاً وآخراً)

سيد محفوظ

المدير الفني للمطبعة

تصـ ويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٦	مشرع	مشرع
١٠	١٧	ولا تول	ولا تقول
١٠	١٩	مؤسسته	نظمه
١٠	٢٠	المؤسسات	النظم
١١	٩	تعرف	تقف
٣٠	٢	ندلنا	تدلنا
٣٨	٣	لا لغة	اللغة
٤٣	٥	الإذن	الأذن
٥١	١	احتكاية	احتكاكية
٦٠	٢٠	لمجع	لمجع
٨٧	١٠	المنبر	المنبر
١٠٢	٢	نار عادية	نار عاتية
١٢٠	١٠	دو	دوت
١٢٥	١٠	مهما	ومهما
١٢٥	١٠	إلى	فإن
١٢٥	١١	الاعريقية	الإغريقية القديمة
١٣٧	٢٢	لحظة	لحظة
١٣٧	٢٣	vois	vais
١٣٩	٢٦	إذ	إذا
١٤٥	٦	pere	père
١٤٥	١٢	إذ يرى	إذ يرى نفسه
١٤٥	٢٠	la mison ou	a maison ou
٢٠٤	٥	الصوفي	الصرفي
٢٢٢	٦	aston	Gaston
٢٣٥	١٤	دى بروسى	دى بروس
٢٤١	١٣	مر	من
٢٤١	١٤	أ إلى	أو إلى
٢٦٤	١٤	مراد فتان	مرادفتين
٢٩٦	٥	قد نوضع	قد توضع
٣١٠	٥	ليس	ليست
٣١٥	٢ هامش	الخاصة ٣٢	الخاصة . «
٣٥٦	٥	والشرين	والعشرين
٣٨٥	٣	الرياضة النفسية	الرياضة الذهنية
٣٩٠	١٥	طلايلا	طويلا
٣٩١	١٢	مساوية	متساوية
٤٠٩	٤	فسىء	فسىء
٤١٥	١٤	هىء	هىء
٤١٥	١٥	مطبوعة	مطبوعا
٤٣٢	٢٣	ألن تكون	ألا تكون